

916.2:L26mAn

لين - ادوارد وليم

المصريون المحدثون •

AUG 16 F389

916.2

L26mAn

26-27-54

FE 20

24-24-1

1-Feb 69

16 JUL 1974

JAFFET LIB.

29 JAN 1983

16 FEB 1983

JAFFET LIB.

7 AUG 1974

مقدمة المترجم

أرى بعد التفريز في كتابه (الخواص والأعداد في ذكر المخطوطات والأدب)
ولابد الجري في كتابه (عجائب الآثار في التاريخ والأخبار) من غير تسجيل
العدادات المصرية والآداب الشعبية بدقة وأمانة إلا المستشرق الكبير ولم يكن
في هذا الكتاب. لذلك أؤكد أخرج من ترجمته حتى عدت حتى على
ترجمته لأقول إلى لغة العربية بطلاة فلاحا فاعلمنا واعتقادنا وأما نظرونا في
القرن التاسع عشر.

الطبعة الأولى

١٩٥٠

إن مصر انتداب في القرن التاسع عشر في طين المدنية
التي تسمى. وقد قطعت في كتابه (عجائب الآثار في التاريخ والأخبار) من غير تسجيل
العدادات المصرية والآداب الشعبية بدقة وأمانة إلا المستشرق الكبير ولم يكن
في هذا الكتاب. لذلك أؤكد أخرج من ترجمته حتى عدت حتى على
ترجمته لأقول إلى لغة العربية بطلاة فلاحا فاعلمنا واعتقادنا وأما نظرونا في
القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب الثاني في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب الثالث في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب الرابع في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب الخامس في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب السادس في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب السابع في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب الثامن في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب التاسع في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.
والكتاب العاشر في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر. وهذا هو الكتاب الأول في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر.

مقدمة المترجم

لم أر بعد المقرئ في كتابه (المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار) ولا بعد الجبرتي في كتابه (عجائب الآثار في التاريخ والأخبار) من عني بتسجيل العادات المصرية والآداب الشعبية بدقة وأمانة الا المستشرق الكبير وليم لين في هذا الكتاب . لذلك لم أكد أفرغ من قراءته حتى عقدت نيتي على ترجمته لأنقل إلى لغتنا العربية سجلا حافلا لعاداتنا واعمقاداتنا وأساطيرنا في القرن التاسع عشر .

إن مصر ابتداء من القرن العشرين أخذت تحت الخطى في سبيل المدنية الغربية ، وقد قطعت في تلك السبيل مراحل كادت تبعد الجيل الحاضر عن سنن ماضيه وتنسيه شمائل قومه ، فانتشرت العادات الأوروبية بالحكاية والاقتراس وانكششت العادات المصرية ، وعلى الأخص في المدن ، بالمخافة والترك ؛ فبعضها إلى الزوال ، وبعضها إلى الاضمحلال ، وأكثرها للمسخ ، على تفاوت في ذلك بين طبقة وطبقة ، وبين مصر ومصر . فلم يكن بد من نقل هذا الكتاب ليضيف حلقة جديدة طريفة إلى سلسلة التاريخ الاجتماعي الذي صاغ حلقاتها الأولى المقرئ وابن تغري بردى والسيوطي والجبرتي . ولعل هذه الحلقة تمتاز بوضوح المنهج ودقة التفصيل وتوخى الحقيقة وجمال العرض وتصوير الأشياء والأشخاص بالقلم والريشة تصويرا يحفظ لها خصائصها وملاحظها في الذهن والعين على تراخي الزمن . والكتاب كما يتبين لك من مقدمته ومن كتابه قد خالط الدهماء في البيوت والأسواق والمواسم والمساجد والحفلات فرأى وسمع وقرأ واستفهم واستبطن وتأثر وحكى كل ما علم بلسان نزيه وقلم محايد فلم يتعصب لجنس ولم يتحيز لنحلة ولم يتقيد بغرض .

لذلك بذلت غاية الجهد في المحافظة على روح الكتاب والاحتفاظ بصورة
الكتاب فترجمته عن لغته ترجمة أمينة تكاد لمطابقتها الأصل أن تكون حرفية
وقد نقلت مع الأصل جميع الصور التي رسمها المؤلف برشته للأشياء والأشخاص
تصويرا لهيئة أو تسجيلا لحالة . وأضفت إلى الكتاب بعض الشروح في حدود
وقتي وعلمي . واني لأود قبل أن أقدم الكتاب إلى القارئ أن أقدم الشكر
إلى صديقي الأستاذ أحمد حسن الزيات على معونته إياي في تحرير هذه الترجمة .

القاهرة في مايو ١٩٥٠

عبدى طاهر نور

الفهرس

صفحة

١	مقدمة المؤلف
٩	مقدمة الكتاب
٢٨	الفصل الأول
٤٨	الفصل الثاني
٥٧	الفصل الثالث
٥٨	الفصل الرابع
٧٩	الفصل الخامس
٩٨	الفصل السادس
١٢٨	الفصل السابع
١٣٣	الفصل الثامن
١٤١	الفصل التاسع
١٥٥	الفصل العاشر
١٧٧	الفصل الحادى عشر
١٩١	الفصل الثانى عشر
٢٠٢	الفصل الثالث عشر
٢٢٨	الفصل الرابع عشر
٢٤٦	الفصل الخامس عشر
٢٥١	الفصل السادس عشر
٢٥٧	الفصل السابع عشر
٢٦٥	الفصل الثامن عشر
٢٨٠	الفصل التاسع عشر
٢٨٥	الفصل العشرين
٢٩٣	الفصل الحادى والعشرين
	رواية القصص العامة

٢٩٩	الفصل الثاني والعشرين تابع رواية القصص العامة
٣٠٤	الفصل الثالث والعشرين تابع رواية القصص العامة
× ٣١٢	الفصل الرابع والعشرين الأعياد الدورية العامة ×
٣٣٧	الفصل الخامس والعشرين تابع الأعياد الدورية العامة
٣٦٦	الفصل السادس والعشرين تابع الأعياد الدورية العامة
٣٧٦	الفصل السابع والعشرين الأعياد الخاصة الخ
٣٨٥	الفصل الثامن والعشرين الوفاة والطقوس الجنائزية

ملحق

٣٩٨	الأقباط	١ —
٤٢٠	يهود مصر	٢ —
٤٢٤	المحدثات الأخيرة	٣ —

ذيل

٤٢٧	حلي النساء	١ —
٤٤٢	المقاييس والأوزان والنقود المصرية	ب —
٤٤٦	النققات المنزلية بالقاهرة	ح —
٤٤٨	علاج الديسنتاريا والرمد	د —

مقدمة المؤلف

في زيارة سابقة للقاهرة ، قصدت بها ، على الأخص ، دراسة اللغة العربية في أشهر مدرسة ، جعلت أكثر هي ملاحظة شمائل المصريين المسلمين وعاداتهم ؛ وسرعان ما أدركت ، بعد معايشرة هذا الشعب سنتين ونصف سنة ، أن كل ما أمكنني الحصول عليه سابقاً من الأخبار المتعلقة بهم ، لا يكفي ليكون ذا فائدة كبيرة لمن يدرس الأدب العربي ، أو ليقضى حاجة القارئ العادي . لذلك رغبت في تدوين ملاحظات عن أشهر عاداتهم ، لأستزيد لنفسى من جهة ، ولأستطيع أن أزيد في معرفة مواطني بالطبقات المتحضرة لأمة من أهم أمم العالم من جهة أخرى ؛ وذلك برسم صورة مفصلة عن سكان أكبر مدينة عربية . إلا أن زيارتي الأولى لم تكف لبولوج هذا الغرض مع متابعة دروسى الأخرى ، فصرفت النية عن نشر ما قيدته عن المصريين المحدثين . وبعد خمس سنوات من عودتى إلى إنجلترا عرضت هذه المذكرات على بعض أعضاء من لجنة جمعية نشر المعارف المفيدة^(١)

Committee of the Society for the Diffusion of Useful Knowledge فاستحسنوها وأوعزوا إلى اللجنة أن تعنى بموضوعاتها ، وطرافة بعض محتوياتها ، فمهدت إلى تكميلها ثم طبعها . وقد كان ذلك حافزاً لى على قبول النصيحة ومتابعة العمل . وفي أقرب فرصة عدت ثانية إلى مصر . وبعد أن أقمت أكثر من سنة

(١) أنشئت هذه الجمعية سنة ١٨٢٧ . وقد اشترك في إنشائها اللورد هنرى بروم Henry Brougham والأرل جون رسل John Russel . وقد كان لإنشاء هذه الجمعية أثر عظيم في نشر الكتب الجيدة بثمان زهيد إذ كان الكتاب يباع بستة بنسات . وقد أصدر اللورد بروم بعد ذلك نشرات رخيصة : Penny Magazine سنة ١٨٣٢ ، ثم دائرة معارف Penny Cyclopaedia سنة ١٨٣٣ تمت بعد إحدى عشر سنة وكانت في النهاية سبباً في إفلاس الجمعية .

في عاصمة ذلك البلد ، ورحلت نصف سنة في الوجه القبلي ، أتممت ، بقدر ما استطعت ، العمل الذي تعهدت به (١)

قد يقال إن القارئ الإنجليزى استفاد من كتاب الدكتور رسل Russel عن أهل حلب وصفاً صادقاً لشمال العرب وعاداتهم ؛ ولا أحب أن أصم أمانتى الكتابية التى أدعيا بمحاولة التقليل من المزايا الحقيقية لهذا الكتاب القيم ؛ ولكن يجب أن أؤكد أن الكتاب فى مجموعه قد وصف العادات التركية أكثر مما وصف العادات العربية ، وأن المؤلف الأصلى وأخاه ، الذى ندين له بالطبعة المزيدة المنقحة ، لم يكونا يعرفان اللغة العربية معرفة كافية لإتمام النظر فى بعض ما يقتضى وضع الكتاب معالجته من الموضوعات المهمة . ولم يكن منصبهما المعروف فى حلب ولا شعورهما الوطنى يسمحان لهما أن يتفكرا هذا التفكر الضرورى الذى يمكنهما من إيلاف الكثير المهم من الحفلات الدينية ، والأفكار الاجتماعية ، والأساطير الشعبية ، التى قاما بوصفها . فنقص الملاحظة هو الخطأ الوحيد الذى استطعت أن أكشف عنه فى كتابهما العلمى الجليل (٢)

(١) يسرنى كثيراً أن أرى ، وأنا جاد فى تسجيل شمائل المصريين وعاداتهم ، وهم أكثر الشعوب العربية تهدياً ، أن أحد أصدقائى العلماء فلجنس فرينل Fulgence Fresnel يعمل بنجاح باهر على إحياء كثير من البيانات المهمة فى تاريخ العرب السابقين ؛ وأن آخر ، سير جاردنر ويلكنسن Gardner wilkinson ، يعد بحثاً عن قدماء المصريين فى معيشتهم الخاصة وشمائلهم الخ . وقد نشرنا هذان الكتابان منذ كتابة هذا . ولا حاجة بى أن أشير هنا بفضل هذين الكتائين بعد أن أثنى عليهما النقاد المبرزون أعلى ثناء وأعدله .

(٢) بين مجموعة السفر الفرنسى العظيم فى وصف مصر رسالة عنوانها : مقالة فى أخلاق سكان مصر المحدثين Essai sur les mœurs des habitants modernes de l' Egypte . ويبدو لى أن مؤلف هذه الرسالة (*) وقع فى خطأ كبير ، ذلك أنه طبق على المصريين عموماً ملاحظات كان معظمها فى الحقيقة وصفاً لشمائل الممالك ، حكاهم مصر المتجنسين بجنسيتها ، ولعاداتهم . ويحتمل أن يكون المصريون قدلوا إلى درجة ما وبقدر استطاعتهم عادات هذه الطبقة الحاكمة . غير أنه يمكننى أن أتجاسر فأؤكد أن المقالة المشار إليها لا تعبر حقاً عن حالة =

(*) كاتب هذه الرسالة Chabrol de Volvic وكان عضواً فى البعثة العالمية التى رافقت نابليون فى حملته على مصر .

أنظر كتاب Voyageurs et écrivains français en Egypte, Jean. Marie. Carré

(المترجم)

أما ظروفى فكانت غير ذلك . فقبل قدومى الأول إلى هذا البلد شدوت شيئاً من العلم بلغة العرب وآدابهم^(١) . وكنت أستطيع ، بعد سنة من قدومى ، أن أتحدث إلى الشعب الذى كنت أعيش بين أفرادهِ فى شىء من السهولة . وقد عايشته بصفة خاصة مسلمين من جميع الطبقات ؛ وأخذت إخذهم فى الحياة العامة . وكنت أصرح دائماً أننى أوافقهم على آرائهم كلها سمح بذلك ضميرى اكتساباً لصداقتهم وإخلاصهم ؛ وفى أحوال كثيرة أخرى أمسكت عن مخالفتهم فى رأى ، بقدر ما امتنعت عن أى عمل ينفرون منه . فأمسكت عما يحرمه دينهم من الطعام والشراب ، وتركت ما لا يألونه من العبادات والأساليب : كاستعمال الشوك والسكاكين . واستطعت بفضل ألقى لحفلاتهم الدينية العامة أن أشاهد أعيادهم وطقوسهم ، من غير أن أثير الشك فى أنى أحبى لا يحق له التدخل فى شؤونهم . وبينما كان العامة يظنوننى تركياً ، من ملابسى التى وجدتُها أكثر ملاءمة

— المصريين الحاضرة ، الأخلاقية والاجتماعية . ثم أن المؤلف نفسه يذكر أنه أهمل كثيراً فى ملاحظاته وأبحاثه معاً . ويظهر ذلك بصفة خاصة فى التحريف الغريب الذى وقع فيه عند مطابقتها التوقيت القرنى بالإسلامي ، وفى الصفحتين الأولين (الطبعة الثانية) من القسم الخاص بالأعياد العامة . وقد أورد المؤلف كثيراً من الملاحظات الفلسفية الصحيحة ، غير أنها تشغل جزءاً كبيراً بالنسبة إلى حجم الرسالة التى تكاد تزيد على ثلث هذا الكتاب . ولأبرهن على أن ملاحظاتى تلك لم تملها روح الحسد أعبر بكل رضى عن إعجابى العظيم بأجزاء أخرى من السفر العظيم (خاصة ما كتبه مسيو جومار M. Jomard) تتعلق بموضوعات شغلت ذهنى وقلمى معاً . ويحتمل أن أنشر ملاحظاتى عليها .

أما كتاب بوركهارت Burckhardt فى « الأمثال العربية Arabic Proverbs » فهو يضم أفكاراً كثيرة عن عادات جديدة بالذکر ، وصوراً من خلق المصريين المحدثين ولكنها لا تكون عرضاً شاملاً ، أو على أى حال عرضاً صحيحاً ، إذ أن الأمثال لا تصلح جيداً لتمييز أخلاق الشعب .

إلا أن هناك كتاباً واحداً يقدم إلينا صوراً باهرة عن العرب ، وخاصة المصريين ، شائلتهم وعاداتهم . وهو كتاب ألف ليلة وليلة . ولو كان بيد القارئ الإنجليزى ترجمة صادقة لهذا الكتاب وشرحاً وافياً له ، لما جشمت نفسى عناء كتابة هذا . ولذلك شغلت منذ نشر الطبعة الأولى من كتابى الحالى بترجمة تلك القصص العجيبة وشرحها بمجاش تفسيرية .

(١) شغف لين بالدراسات الشرقية قبل أن يغادر إنجلترا ، ولا يعرف متى بدأ يتعلم اللغة العربية . غير أنه ترك مخطوطاً به مذكرات فى أصول اللغة العربية ومؤرخاً سنة ١٨٢٢ . فلا بد أن لين أخذ فى اللغة العربية قبل ذلك .

وقد عني لين بدراسة لغة العرب وآدابهم وشؤونهم أكثر من حسين عاماً (المترجم)

لى ، كان أصدقائى يعرفون طبعاً أنى إنجليزى . ولكنى ألزمتهم أن يعاملونى معاملة المسلم باعترافى مخفياً بأثر العناية الإلهية فى ظهور الإسلام وانتشاره ، وبإقرارى ، عند ما أسأل ، باعتقادى فى المسيح طبقاً لما جاء فى القرآن من أنه كلمة الله ألهاها إلى صريم وروح منه . وهكذا حسن رأيهم فى وقويت ثقتهم بى ، ولكن إلى حد لم يغنى عن محاسبة بعض الصعاب . والمسلمون يكرهون أن ييوحوا بشيء يتعلق بدينهم أو بأساطيرهم للذين يشتبهون فى أنهم يخالفونهم فى العاطفة ؛ ولكنهم لا يأبون الكلام فى هذه الموضوعات مع من يعتقدون أن بينهم وبينهم معرفة وألفة . لذلك كنت أعمد إلى سؤال الذين هم أكثر تساهلاً وأقل علماً لأهل الذين هم أوسع معرفة وأضيق صدرأ على الكلام فى المسائل التى أريدها . وبهذه الطريقة نجحت فى التغلب على ترددهم . وكان لى أستاذان للعبية وآدابها وللدین الإسلامى وفقهه ، يدرسان لى بانتظام وبأجر . وكنت أسألها عما أشك فيه لأحقق ما سمعته فى أحاديثى مع أصدقائى ، أو أصححه أو أضيف إليه . وأحياناً كنت أتصل بالسلطات العليا ، وكان من دواعى غبطتى أن أعد بين أصدقائى فى هذه المدينة بعض رجال بلغوا شأواً بعيداً فى المعارف الشرقية .

وربما يفيد القارىء أن أعرفه بأحد معلمى الذين أشرت إليهما آنفاً ، وأن أبين له فى الوقت نفسه كيف كان كغيره من مواطنيه ينظر إلى ذلك هو الشيخ أحمد (أو السيد أحمد ، لأنه من طبقة « الأشراف » الكثيرة العدد ، أى من سلالة النبى) وكانت سنه تبنى على الأربعين باعترافيه ، ولكن يبدو عاينه أنه يناهز الخمسين . وكانت سحنته وخليقته تستحقان الذكر ، كان ربعة إلى القصر ، وكان أصهب اللحية قد وشعها المشيب . ويظهر أن العور قد أصابه منذ سنوات عديدة . وهو يكحل عينيه فى المناسبات الخاصة ولا سيما فى عيدى الفطار والأضحى . والكحل قلما يستعمله غير النساء . وهو لا يفتخر بانتمائه إلى الرسول فحسب ، بل يتمدح كذلك بانتسابه إلى الولي المشهور الشعراوى ^(١) . وبشرته الصافية تؤيد ادعاءه أن أجداده عاشوا منذ أجيال فى مناطق أفريقيا الشمالية الغربية . وكان يعيش على ميراث قليل مع اتجاره بالكتب . وكان يزورنى كل ليلة تفريفاً

(١) هكذا ينطق عادة ، بدلا من الشعراوى .

ليمتنع من مهنته من ناحية ، وليجتمع بي ، أو ليمتحدث إلى للتدخين وشرب القهوة من ناحية أخرى .

وكان قبل احترافه تجارة الكتب وراثته عن أبيه ، قد قضى بضع سنوات لم يحترف فيها غير الذكر في الحفلات الصوفية . والذكر عبارة عن جماعة يقفون مترنحين يرددون اسم الله وصفاته الخ . وهو لا يزال إلى اليوم يقوم بهذا العمل . وكان حينئذ درويشاً في الطريقة السعدية ، وأهل هذه الطريقة معروفون على الأخص بأكل الثماين الحية . ويقال إنه كان واحداً من آكلي الثماين ، ولكنه لم يقصر نفسه على أكل يهضم بمثل هذه السهولة . ففي ذات ليلة بينما كان فربق من أهل طريقته في حفل حضره شيخهم ، اعترت صديقي جذبة ، فخطف زجاجة طويلة كانت تحيط بقنديل موضوع على الأرض وأكل جزءاً كبيراً منها . فدهش الشيخ والدراويش الآخرون ، ونموا عليه خروجه على نظم الطريقة ، لأن أكل الزجاج لم يكن من الكرامات التي كان يسمح لهم بإظهارها . ثم طرده في الحال فدخل في الطريقة الأحمدية . ولما كان أهل هذه الطريقة هم أيضاً لا يأكلون الزجاج ، فقد عزم على الأيمود إلى فعلته مرة أخرى . غير أنه بعد ذلك بقليل أخذته هذه الجذبة في اجتماع بعض الإخوان من أهل الطريقة وفي حضرة كثير من رجال الطريقة السعدية ، فوثب على شمعان وقبض على مصباح من مصابيح الزجاجة الصغيرة ، فابتلع نصفه وشرب ما فيه من الزيت والماء . فقادوه إلى شيخه ليعزره على هذا التمدد ، ولكنه أقسم ألا يعود إلى أكل الزجاج أبداً ، فعفا عنه وأبقاه في الطريقة . وعلى الرغم من حلفه اليمين لم يلبث أن عاد إلى ديدنه من أكل الزجاج . وقد حاول أحد الحاضرين من الإخوان أن يقلده فنشبت قطعة كبيرة من الزجاج بين لسانه وسقف حلقه ، وقد شق على صديقي أحمد استخراجها فأعيد ثانية إلى شيخه ، ولما لامه على الحنث بقسمه والرجوع في توبته أجاب بهدوء : « أتوب مرة أخرى . وما أحسن التوبة ، لأن الله قال في كتابه العزيز : « إن الله يحب التوابين » فصاح الشيخ مغتاضاً : « اتجروا على هذا التصرف ثم تستشهد بالقرآن أمأي ؟ » ثم أمر بعد هذا التوبيخ أن يسجن عشرة أيام . ثم طلب منه القسم مرة أخرى على أن يمتنع عن أكل الزجاج ، وبهذا سمح له بالبقاء في الطريقة

الأحمدية ؟ وقد حرص على أن يبر بقسمه هذه المرة

وقد قص على هذه الوقائع من كان مكلفاً بمراقبته من الإخوان ، ثم اعترف لي هو بعد ذلك بحقيقتها .

وقد عرفت الشيخ أحمد قائماً بزوجته واحدة من زمن طويل ؛ إلا أنه سمح لنفسه الآن زوجة أخرى^(١) استمرت تعيش في منزل أهلها . ومع ذلك فقد اهتم بأن يؤكد لي أنه ليس من الغنى بحيث يرفض الكسوة السفوية التي أهدىها إليه . وفي زيارتي الثانية لمنزله ، أثناء إقامتي الحالية في هذا المكان ، حضرت أمه لدى باب الغرفة التي كنت جالساً فيها معه ، لتشكو إلي سوء عمله باتخاذ زوجة جديدة . وكانت تشير بيديها من خلال الباب بالحركة اللاتقة ليكون كلامها تأثيراً ؛ أو لعلها كانت تريد أن تظهر جمال راحة اليد وأطراف البنان المخضوبة بالحناء الرطبة . إلا أنها كانت تستر شخصها ، فأخذت تناشد شعوري بقوة وتقول :

« يا أفندي ! إني أضع نفسي تحت رحمتك ! أقبل قدميك ! لا أمل عندي إلا في الله وفيك »

فقلت لها : « ما هذا الكلام يا سيدتي ؟ أى مصيبة أصابتك ؟ وماذا أستطيع أن أصنع لك ؟ أخبريني »

فاستمرت تقول : ابني هذا ، ابني أحمد ، شخص لا قيمة له . له زوجة طيبة ، عاش معها سعيداً على بركة الله ستة عشر عاماً . وهاهو الآن يهملها ويهملني ويتخذ زوجة أخرى صغيرة السن قليلة الحياء ... وهو يبذل نقوده على هذه القردة وعلى غيرها من أمثالها ، وينفق على أبيها وأُمها وأعمامها وأخوها وأولاد أخوها ، ولا أعلم من عدام ، ثم يقصر في حقنا ، أنا وزوجته الأولى ، ولا يوفر لنا الراحة التي تعودناها من قبل . والنبي ! ورأسك الغالي ! إنني أقول الحق . أقبل قدميك ، أرجوك أن تلح في إطلاق زوجته الجديدة .

وكان الرجل المسكين أثناء مخاطبة أمه لي من وراء الباب ينظر بغباء ، وما كادت تذهب حتى وعد بتحقيق رغباتها . ثم قال : على أن المسألة صعبة ، فقد كنت متعوداً أن أنام أحياناً في منزل شقيق البنت التي تزوجتها أخيراً ، وهو (١) وقد قال لي إنه تزوج أكثر من ثلاثين مرة ، ولكنني اعتقد أنه يبالغ كثيراً .

يشتغل كاتباً عند عباس باشا . ومنذ أكثر من سنة ، أرسل عباس باشا في طلبى وقال : سمعت أنك تنام غالباً في منزل كاتبى محمد . لماذا تفعل هذا ؟ ألا تعلم أن هذا غير لائق وفي المنزل نساء ؟ .

فقلت : سأزوج من أخته .

فسألنى الباشا : لماذا لم تتزوجها من قبل ؟ .

— لأن سنها تسع سنوات فقط ! .

— هل عقد العقد ؟ .

— لا .

— ولم لا ؟ .

— ليس في قدرتى الآن دفع المهر .

— وما مقدار المهر ؟ .

— تسمعون قرشاً . فقال الباشا :

— هاك إذا النقود . وليعقد العقد حالا .

فهكذا ترانى أننى اضطررت إلى الزواج من البنت ، وأخشى أن يغضب الباشا إذا طلقها ؛ ولكنى سأصرف تصرفاً يجعل أخاها يشد فى طلب الطلاق ، ويومئذ أعود ثانية إلى عيش السلام والهدوء . وهذا مثل طيب للراحة التى ينعم بها من يتزوج اثنتين !

ومنذ وقت قريب عرض على نسخة من القرآن لأشتريها ، وظن من الضرورى أن يلقى إلى بعض المآذير . وقد لاحظت أننى من طول ما ألفت طقوس المسلمين أقر ضمناً أننى واحد منهم ، وأن من الواجب عليه أن يعتبرنى أحسن اعتبار ، وأنه يفعل ذلك مطمئن النفس ، لأنه يعلم أن اعتقادى علانية بالإسلام يغضب على مليكى ، وأنه لأجل ذلك لا يمكننى أن أفعل هذا ^(١) . وقال لى : « إنك تحيىنى بقولك : السلام عليك . لذلك أكون آثماً لو قلت إنك كافر ، لأن الله عز اسمه قال : ولا تقولوا لمن أتىكم السلام لست مؤمناً » . ثم أضاف إلى ذلك

(١) من الاعتقادات الشائعة لدى المصريين أن كل سائح أوروبى يزور بلادهم يكون رسولاً من ملك بلاده ، ومن الصعب إقناعهم بالعكس إذ هم يستغربون تعرض الشخص لكثير من المضايقات والتنفقات بقصد الحصول على معارف الأمم الأجنبية .

قوله : « وعلى هذا ليس حراماً أن أضع بين يديك القرآن الكريم . ولكن من مواطنيك من يأخذه بيده الفذرة ، بل ويجلس عليه . وأنا أستغفر الله من مثل هذا الكلام وأستبعد أن تفعل هذا وأنت والحمد لله تعرف أنه : « لا يعسه إلا المطهرون » وتراعيه . وفي مرة أخرى باع نسخة من القرآن بناء على طلبى لمواطن لى ؛ وفي أثناء انعقاد الصفقة دخل الغرفة إنسان ، فازعج مواطنى وأسرع فوضع الكتاب على المقعد وخبأه بجزء من ملابسه . فأخجل هذا العمل الكتبى وظن أن صديقى جلس على الكتاب ، وأنه يفعل هذا احتقاراً له ؛ فلم يخف اعتقاده أن الله سيعاقبه أشد عقاب على هذا البيع الحرام ؛ وكان هناك شيء واحد صعب على أن أقنعه بعمله ، أثناء زيارتى السابقة لهذا البلد ؛ وهو أن يذهب مئى فى وقت خاص إلى مسجد الحسين ، وهو المدفن المشهور لرأس الحسين ، وأقدس المساجد فى العاصمة المصرية . وبعد ظهر يوم من أيام رمضان ، كنت أمشى وإياه أمام أحد أبواب هذا الجامع ، وكان ساعتئذ يغص بالأتراك ، وكثير من سكان المدينة العظماء بين الحشد . فظننت أنها مناسبة طيبة لأشاهده من كئب ، وطلبت من رفيقى الدخول مئى ، فرفض بحزم خوفاً من أن يُعرف أننى إنجليزى ، وكان من الممكن أن يثير ذلك غضب المتعصبين من الأتراك الموجودين هناك ، فأعرض نفسى إلى بعض الأذى . فدخلت وحدى وبقي هو بالباب يتبعنى بعينه الوحيدة متعجباً من جرأتى . فلما رآنى عارفاً بالأساليب العادية : أطوف حول الستر البرنزى المحيط بالضريح ، وأقوم بأوضاع الصلاة المنتظمة ، دخل وأقام صلاته بجانبى وأود بعد سرد هذه الحكايات أن أذكر أن أخلاق أصدقائى الآخرين لا يلاحظ عليها مثل هذا الشذوذ . وكان استقبالى لضيوفى لا يخرج عن عادات الضيافة الشرقية المألوفة . كنت أقدم إليهم الشبك والقهوة وأدعوهم إلى مشاركتى الغداء أو العشاء . وقد كتبت الكثير من أخبارهم بالعربية بإملأهم ثم ترجمتها إلى الإنجليزى ونشرتها فى هذه الصفحات .

والمقصد الأول من وضع هذا الكتاب هو تمحيص الأشياء وتحقيق الحوادث ، فلم أضح بالحقيقة فى سبيل تجميل القصة . أما الصور التى نشرت فيه فقد رسمتها للشرح لا للزينة .

مقدمة الكتاب

البلد ومناخه — العاصمة — المنازل — السكان

من المشاهد أن أكثر الخصائص لشبائل أمة وعاداتها وأخلاقها ، إنما يرجع إلى الخصائص الطبيعية لإقليم هذه الأمة . فخصائص الإقليم المصرى تؤثر ولا شك فى أحوال المصريين الأخلاقية والاجتماعية ، وهى لذلك تقتضينا كلمة إيضاحية نجمل فيها الآثار العامة ؛ أما الآثار الخاصة ، فستجلى فى الفصول الآتية من هذا الكتاب .

يجرى النيل فى وادى مصر العليا الشديد الضيق الكثير الريح بين صحراوين جبليتين رمليتين ، حتى يحتاز سهول مصر السفلى ؛ وهو فى مجراه تكتنفه فى كل مكان ، ما خلا مواضع قليلة منه ، حقول زراعية تكونت من غرينه ؛ وهذه المناطق الزراعية ليست مستوية كل الاستواء لانخفاضها عند الصحراء وارتفاعها قليلا عند النهر ، يتخللها غابات من النخل وسلاسل من القرى ، وتقطعها ترع عديدة . وتصل أمطار الصيف الغزيرة ، التى تقع فى الحبشة وما جاورها من البلاد ، أرض مصر حول الانتقال الصيفى ؛ وعند الاعتدال الخريفى يبلغ النهر أقصى فيضانه ، فيترع نهيرات والقنوات التى تروى الحقول ، ويغمر بقاعاً واسعة من الأرض الصالحة للزراعة ، ثم يهبط تدريجياً حتى يعود سيرته الأولى . ويحمل النيل معه ، وعلى الأخص فى وقت الفيضان ، الغرين (الطمي) الذى يجرفه من البلاد الجبلية حيث ينبع ، فيوزع فى كل سنة هذا الغرين الوفير على الحقول المنبسطة على جانبيه ، بالفيضان الطبيعى أو بارى الصناعى ؛ بينما يرتفع مجراه من تراكم هذا الغرين بدرجة مساوية لارتفاع الحقول . ويعتمد المصريون جميعاً على نهريهم فى خصب الأرض ، لأن المطر ظاهرة نادرة جداً فى بلادهم ، ما عدا البلاد الواقعة على سواحل البحر المتوسط . ولما كانت الفصول منتظمة كل الانتظام ، فإن الفلاح يمكنه أن يرتب العمل الواجب إنجازه بكل دقة . وعمل الفلاح على الجملة سهل ، ولكن رفع المياه للرى شاق متعب .

ومناخ مصر ، في معظم السنة ، ملائم للصحة إلى درجة تستحق الذكر .
غير أن الأبخرة المتصاعدة من الأرض بعد الفيضان تحمل أواخر الخريف أقل
ملاءمة للصحة . فهي تسبب الزمد والديسنتاريا وبعض أمراض أخرى تكون
أكثر شيوعاً في الخريف منها في الفصول الأخرى . وتهب فجأة رياح جنوبية
حارة تدوم ثلاثة أيام في وقت الخماسين ^(١) التي تدوم على وجه التقريب خمسين
يوماً تبدأ في شهر أبريل وتنتهي في آخر مايو ؛ وتلك الرياح يندر أن ترتفع منها
الحرارة فوق ٩٥ درجة فاهر نهايت في الوجه البحري ، أو ١٠٥ درجة ^(٢) في
الوجه القبلي ؛ إلا أنها تكثُر الأنفاس وتضيق الصدور . وفي الصيف يفد
الطاعون إلى مصر ، ويكون أشد خطراً في مدة الخماسين . ومصر معرضة أيضاً
في الربيع وفي الصيف لرياح السموم ، وهي أشد وطأة من رياح الخماسين ، ولكنها
أقصر مدة ، إذ يندر أن تدوم أكثر من ربع ساعة أو عشرين دقيقة . وهي تهب
عامة من الجنوب الشرقي حاملة معها سحباً من الغبار والرمال . وتتراوح الحرارة
في منتصف الشتاء بعد الظهر في الوجه البحري بين الخمسين والستين درجة
في الظل . أما في أشد الفصول حرارة فتتراوح بين التسعين والمائة درجة . ويزيد
على ذلك حوالي عشر درجات في مناطق الصعيد الجنوبية . على أن حرارة الصيف
مهما بلغت شدتها قلما تضايق النفس ؛ لأن النسيم الشمالي يلطفها ، ولأن
المناخ شديد الجفاف . إلا أن هناك مصدراً كبيراً للضيق يسببه ذلك الجفاف ،
وهو كثرة الغبار . وهناك أوبئة أخرى تقلل كثيراً من الراحة التي ينعم بها
المصريون وضيوئهم في هذا المناخ البهيج . ويكثر الذباب ، في الربيع والصيف
والخريف ، كثرة مزعجة أثناء النهار . أما في الليل فينتشر البعوض انتشاراً يقض
المضاجع ما لم يتقه النائم بالسكلة . ويملاً البق أثناء الفصل الحار كل المنازل ذات
الأثاث الخشبي . ولا يمكن تجنب القمل في أي فصل ، ولكن من السهل
التخلص منه . أما البراغيث فتكثر في الشتاء كثرة مزعجة .
ومناخ الصعيد أكثر ملاءمة للصحة من الريف وإن كان أشد حرارة .

(١) أنظر هامش الفقرة الأولى فصل ٢٦

(٢) هذه هي الحرارة في الظل وقد لاحظت في مدينة طيبة أن ميزان الحرارة يرتفع إلى ما فوق ١١٠ درجة في الظل أثناء ريح خماسيني .

وقلما ينتشر الطاعون فيما وراء القاهرة . وهو أكثر انتشاراً في مناطق المستنقعات القريبة من البحر المتوسط . وفي أثناء السنين العشر الأخيرة ، قبل زيارتي الثانية لمصر ، لم تحدث غير إصابات قليلة جداً ، إلا في الأقاليم السابقة الذكر ؛ وهذه لم يكن الوباء فيها شديداً^(١) ، لأن البلاد تحسن صرف مياهها ، وأدخلت فيها نظم المحاجر الصحية لمنع دخول هذا المرض من بلاد أخرى أو لوقفه . والرمم أكثر انتشاراً في الوجه البحري منه في الأقاليم الجنوبية . وهو يحدث عامة من العرق ؛ ولكن ضرره يتفاقم من الغبار ومن أسباب كثيرة أخرى . وقلما يستفحل خطر هذا المرض إذا أسرع المرضى في استعمال الدواء ، ولكن كثيراً من الوطنيين ، لجهلهم طريقة العلاج ، أو لإصرارهم على تفويض الأمر للقدر ، يفقدون البصر كله أو بمضه .

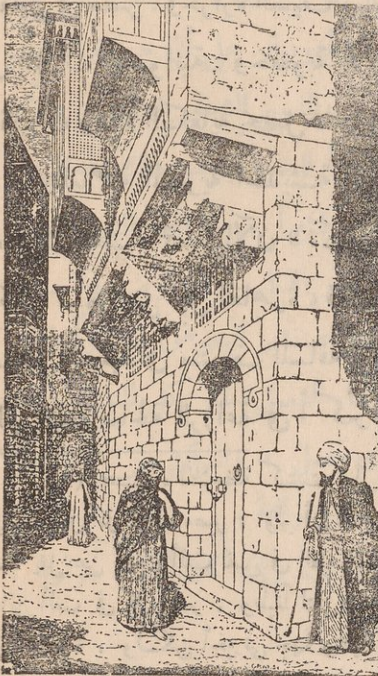
وكثيراً ما سألتني السائلون هل في مصر معمرين ؟ ومن الحق أن قليلاً من أهل هذا البلد من يبلغ السن العالية ؛ ولكن من النادر أن يبلغ المرء هذه السن في بلدنا دون أن يصاب صراراً بمرض مميت لولا عناية الطب ، التي لا ينالها إلا النزر القليل في مصر . وحرارة الصيف تنهك الجسم ، ولكنها تدفع المصريين إلى الإفراط في المذاذ الشهوانية . وخصوبة الأرض تولد الكسل ، فيكتفي المصري بالقوت القليل ، وهذه الكفاية يحصل عليها بأدنى سمي وأقل مشقة .

والعاصمة المصرية الحديثة التي يشغل الحديث عن سكانها أكثر صفحات هذا الكتاب ، تسمى الآن « مصر »^(٢) ، أو باللفظ الأوضح « مصر » ؛ ولكنها كانت تسمى من قبل القاهرة ، فصحفها الأوروبيون إلى « كايرو » . وموقعها عند مدخل الصعيد في منتصف المسافة بين النيل وسلسلة المقطم الشرقية ؛ وبينها وبين النهر بقعة صالحة للزراعة في أكثر أجزائها ، يزيد عرضها على ميل في المناطق

(١) هذه الملاحظة كتبت قبل طاعون سنة ١٨٣٥ الهائل الذي دخل من تركيا وانتشر في كل أنحاء مصر ، ولو أن آثاره لم تكن عظيمة في الأقاليم الجنوبية . وقد أهلك ما لا يقل عن ثمانين ألف نفس في القاهرة ، أي ثلث السكان ، وأزيد بكثير على ما أعتمد من مائتي ألف في كل مصر . وطبقاً لتقرير حكومي بلغ عدد ضحايا هذا الوباء حوالى أربعين ألفاً في القاهرة . ولكن أخبرتني جهة رسمية علياً أن الحكومة جرت في هذه الحالة على تقرير نصف عدد الأموات فقط .

(٢) هذا هو الاسم الذي يطلقه المصريون المحدثون على بلدهم كما يطلقونه على عاصمة بلادهم .

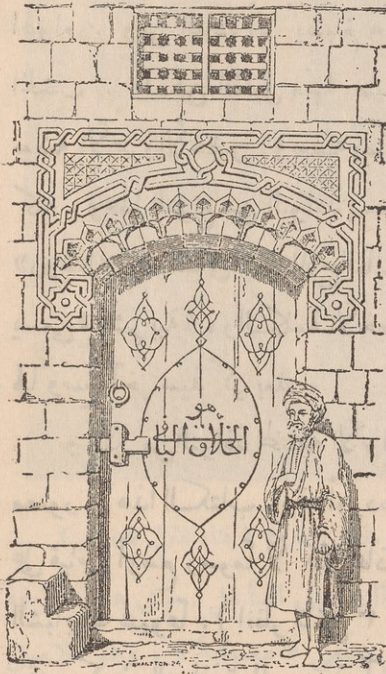
الشمالية (حيث يقع ميناء بولاق) ، ولكنها في الجنوب أقل من نصف ميل . ومساحة العاصمة تبلغ تقريباً ثلاثة أميال مربعة . وقد أحصى عدد سكانها أثناء زيارتي الثانية فبلغ زهاء مائتين وأربعين ألفاً ؛ وقد زاد هذا العدد بعد ذلك كثيراً بسبب إنقاص عدد الجيش ولأسباب أخرى . والقاهرة محاطة بسور تقفل أبوابه ليلاً ، وتشرف عليها قلعة كبيرة تقع في زاوية من المدينة بالقرب من الجبل ، وشوارعها ليست مبلمطة وأكثرها ضيق غير منتظم ، وهي أخرى بأن تسمى أزقة وتبدو القاهرة ، للأجنبي العابر في شوارعها ، مدينة ضيقة جداً تغص بالسكان ؛ ولكن الحال يختلف في نظر من يشرف على المدينة من سطح منزل أو من مأذنة مسجد . وأكبر الشوارع يكون فيه عادة صف من الحوانيت على كل جانب ، وفوق الحوانيت غرف لا تفصل بها ، وقلما تكون مشغولة بمستأجرى الدكاكين . وتوجد على أيمان الشوارع الكبيرة وعلى شمائلها دروب وحارات ، وأغلب الدروب طرق مزدحمة لـكل منها بوابة من الخشب كبيرة على مدخلها تقفل ليلاً ، ويحرسها بواب من الداخل يفتح لكل من يطلب الدخول . أما الحارات فغالبا ما تتكون



شكل ١ — (منزل في القاهرة)

من عطفات صغيرة لها مدخل عام واحد ذو بوابة تقفل كذلك ليلاً ، ولكنها أكثرها يشققها درب من أولها إلى آخرها ولا بدلى من وصف دور العاصمة ، وهذه الصورة التي أمامك تعطيك فكرة عامة عن خارج تلك المنازل . وتبنى الجدران الأساسية ، في الطابق الأول خارجاً وداخلاً ، من الحجر الجيري الناعم يقطعونه من الجبال المجاورة . وعند ما يقطع الحجر يكون سطحه ذا لون ضارب إلى الصفرة الخفيفة ، ولكن لونه سريعا ما يغم . وتلون خطوط الواجهة أحيانا بالحمرة والبياض على التعاقب ،

خصرصاً في المباني الكبيرة كما هو الحال في أكثر المساجد (١) .
ويشيد البناء العلوي بالآجر ، ويغطى بالكس أحياناً ، وهو ذا واجهة تبرز
حوالى قدمين ، يقوم على كوابيل أو دعائم ؛ والآجر لبن محروق ذو لون أحمر قاتم .
ويتكون الملاط من طين بنسبة النصف ، وكس بنسبة الربع ، والباقي من رماد التبن
والسقط . لذلك تبدو الجدران غير المغشاة بالكس قذرة اللون كما لو كانت مبنية
باللبن . ويغطى سطح المنزل بالكس ، ويكون عادة من غير سور .



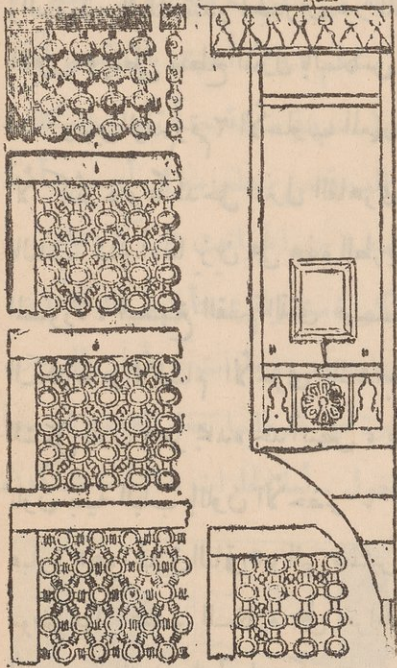
شكل ٢ - (باب منزل قاهرى)

وبين الرسم رقم ٢ الأسلوب الممارى
الأكثر ذيوماً لدخل المنزل القاهرى :
فالباب كثيراً ما يزين على هذه الطريقة
المصورة ، فيصبغ القسم الذى فيه
الكتابة والأقسام الأخرى المتشابهة
الشكل بلون أحمر يحده حد أبيض ، بينما
تلون بقية الباب باللون الأخضر . أما
عبارة « هو الخلاق الباقي » ، التى سنشرح
موضوعها عند الكلام على خرافات
المصريين ، فترى على أبواب كثيرة . وهى
تمنقش عادة بحروف سوداء أو بيضاء .
وقلما تصبغ الأبواب ما عدا أبواب

البيوت العظيمة . ويكون لها على العموم سماعة من الحديد موضوعة من الخشب . وعلى
جانب الباب درجتان من الحجر للركوب (٢) .

(١) طريقة تزيين الدور أصبحت أعم بكثير مما كانت عليه قبلاً بناء عن أمر للحكومة
طلبت فيه من السكان الاحتمال بقدوم إبراهيم باشا من سورية . وبعد ذلك بسنوات كان
سكان القاهرة يؤمرون بتبييض طبقات منازلهم العليا ؛ فشوش هذا منظر المدينة الجميل ؛ لأن
التباين بين بياض الجدران وسواد أخشاب النوافذ القديمة أحدث تأثيراً غير جميل .
ويظهر الشارع في الصورة (شكل ١) أوسع مما هو في الواقع فإن النوافذ البارزة على
جانبى الطريق تكاد تتقابل فتحجب الشمس تقريباً ومحدث رطوبة مقبولة في الصيف . وقد منع
بناء هذه النوافذ في السنين الأخيرة لأنها تساعد على انتشار الحرائق .
(٢) وهى المعروفة بسلم التسليم وأخبرني بذلك الأستاذ الشيخ محمود زناقى (المترجم)

وحجرات الطابق الأرضي لها نوافذ صغيرة ، مركبة من قضبان من الخشب المنقور مرتفعة بحيث لا تسمح للراجل أو للدراكب أن ينظر من خلالها . أما الغرف العلوية فنوافذها تبرز بمقدار قدم ونصف قدم أو أكثر . وأغلبها مصنوع من الخشب المخروط المشبك ، وهو ، لضيق ثقوبه ، يمنع كثيراً من النور والشمس



ويجب سكان المنزل عن الأنظار ، ولكنه في الوقت نفسه يسمح بدخول الهواء . ومن العادة ألا يصبغ هذا الخشب . ولكن القليل منها يصبغ بعضه بالأحمر والأخضر ، وبعضه يصبغ كله . وهذا النوع من النوافذ يسمى « روشنا » ، ولكنه في الاصطلاح الغالب يسمى « مشربية » ، والكلمة الأخيرة لها وضع آخر سيذكر بعد .

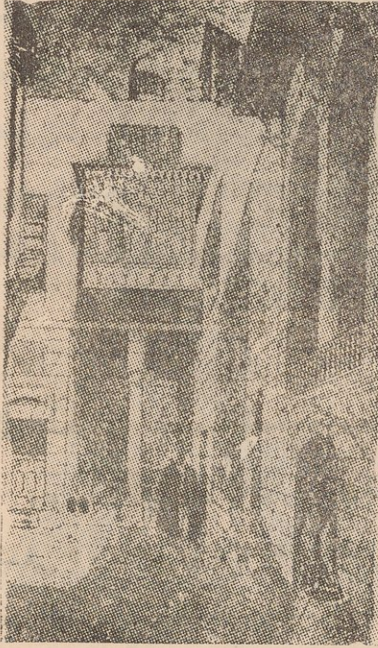
وكثير من النوافذ المختلفة الأنواع مصور في هذا الكتاب . وقد أوردت على قياس أوسع رسوماً لأكثر نماذج الشبايك شيوعاً . (انظر شكل ٣) .

وقد يكون للنافذة الموصوفة آنفاً

شكل - ٣ (نماذج من شبايك الخشب الحُرط)
والمسافة بين منتصف صف من الحبات إلى منتصف صف آخر تبلغ من بوصة وربع إلى بوصة وثلاثة أرباع

مشربية صغيرة ، تشبه نوعاً ما روشنا مصغراً ، تبرز عند الواجهة أو عند الجانبين ، وتوضع فوقها قفل من الفخار ذات مسام لتبريد الماء بتهريضه لتيار الهواء . ومن هنا اشتق اسم « مشربية » ، ومعناه : « مكان الشرب » . ويعلو النافذة البارزة مباشرة نافذة أخرى مسطوحة من الخشب المشبك أو من القضبان الخشبية أو من الزجاج الملون . وشباك هذه النافذة العلوية ، إذا كان لها شباك ، كثيراً ما يكون ذا رسوم قوامها موضوعات تصويرية أكثر من الأنواع الأخرى ، فيمثل طستاً فوقه إبريق ، أو صورة أسد ، أو اسم الله ، أو أمثال هذه الجملة : « الله أُملي » الخ . وقد تكون النوافذ البارزة ملوَّحة كلها بالخشب ، وقليل منها يميل إلى الأمام من

أسفل إلى أعلى بزاوية عشرين درجة تقريباً . وتفتح من القمة لدخول النور . وبعض الأشكال الغالبة ، تكون جوانبها ذات ألواح زجاجية . وفي أجمل المنازل أيضاً تجهز شبابيك النوافذ الآن بألواح زجاجية من الداخل ، فتقفل كلها في الشتاء



لأن البرد القارس يشعر به المصريون عند ما تنخفض الحرارة إلى أقل من ستين درجة فهرنهايت (١) . وأما نوافذ الدور الدنيا فأكثرها من طراز آخر لأنها مستوية مع سطح الحائط الخارجى . وجزؤها الأعلى يكون شباكاً أو قضباناً خشبية ، والجزء الأسفل له دُور مغلقة يقفل بها . والكثير منها له مشربية للقليل تبرز عند جزئه الأسفل وتتألف المنازل على العموم من طابقين أو ثلاثة . ويتوسط كل دار كبيرة فناء مكشوف غير مبلط (شكل ٤)

يدخل إليه من دهليز ينعطف مرة شكل — ٤ (فناء منزل قاهرى)

أو مرتين بقصد منع المارين في الطريق من النظر إلى الداخل . وفي هذه الطريقة من داخل الباب يوجد مقعد حجري طويل يسمى « مصطبة » ، وهو ملاصق للحائط الخلفى أو الجانبي ، يجلس عليه البواب والخدم الآخرون . وفي هذا الفناء بئر يتسرب ماؤه المائل للملوحة خلال الأرض من النيل ، كما يوجد في جانبه الظليل جرتان يجلب إليهما الماء يومياً من النهر في قرب (٢) . وتطل الغرف الرئيسية على

(١) أما النوافذ الزجاجية على الطريقة الأوربية ، التي لسكل منها شبك في خارج نصفها الأسفل ، فقد شاع استعمالها فيما بعد في المنازل الجديدة في أقسام كثيرة من القاهرة . وأكثر هذه النوافذ توجد في المنازل المشيدة على الطراز التركى الذى يقرب كثيراً أو قليلاً من النظم الأوربية ؛ وهى لا تلائم المناخ الحار وإن كانت مريحة في الشتاء .

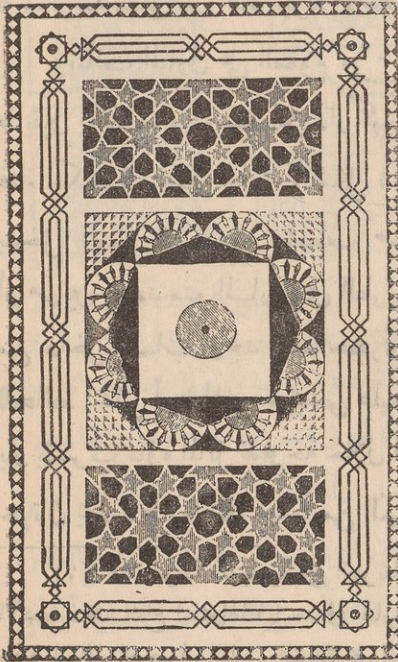
(٢) يوجد في بعض المنازل الكبيرة فناءان يخصص الداخل منى للحرى . ويوجد عادة في الفناء الآخر أو في الاثنين معاً سياج صغير به أقواس خشبية تزرع فيه الأشجار والزهور . وأكثر أنواع الشجر شيوعاً في فناء المنازل الكروم والتوت ، وكثيراً ما يوجد معهما الموز والنخيل وأشجار أخرى .

الحوش ، وتغطي جدرانها الخارجية بالحص وتبيض . وهناك كثير من الأبواب تفتح على الفناء ، منها واحد يسمى « باب الحريم » وهو مدخل السلم الذى يؤدى



شكل — ٥ « البهو أو غرفة الاستقبال »

إلى الحجرات المخصصة للنساء ولرب الدار وأولاده (١) .



شكل ٦

(أرضية درقاعة عرضها حوالى ٨ أقدام)

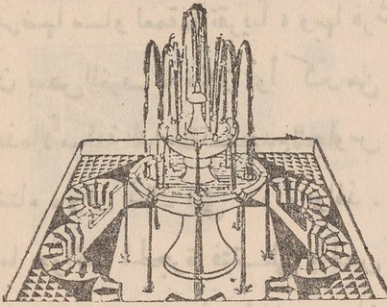
ويوجد غالباً فى الطابق الأرضى غرفة تسمى « منضرة » (شكل ٥) يستقبل فيها الزائرون من الرجال . ولهذه الغرفة نافذة واسعة من القضبان الخشبية ، أو نافذتان من هذا النوع تطلان على الحوش ، وأرضيتها جزء صغير يمتد من الباب إلى الجهة المقابلة منخفضاً عن بقية الغرفة بأربع أو خمس بوصات تقريباً . ويطلق عليه اسم « درقاعة » (٢) . وهذه الأخيرة تبلط فى المنازل الجميلة برخام أبيض وأسود ، وبقطع صغيرة من القراميد المحرّ الجميلة فى نماذج معقدة أنيقة ، ويتوسطها فوارة تسمى « فسقية »

(١) يلاحظ فى الرسم الذى رسمته لفناء المنزل أن باب الحريم هو ذلك الذى يواجه الناظر

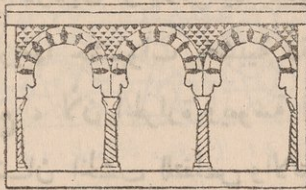
(٢) الظاهر أن هذه الكلمة محرفة عن الكلمة الفارسية « درجاء » .

يتدفق ماؤها في بركة صغيرة قليلة الغور مخططة برخام بلون الأرضية المحيطة بها .
وتصرف مياه هذا النبع من الحوض بواسطة ماسورة . وأمامك نموذج من
أرضية الدرقاعة (شكل ٦) كما وصفتها آنفاً .

ويوجد في نهاية الدرقاعة ، في مواجهة الباب ، رف من الرخام أو من الحجر
العادي ، على ارتفاع أربع أقدام تقريباً ، يطلق عليه اسم « صُفَّة » ، يستند على عقدين
أو أكثر ، أو على عقد منفرد ؛ ويوضع تحته أوعية للاستعمال العادي ، مثل أوعية
« المطور » ، والطست والإبريق المستعملين للغسيل قبل الأكل وبعده وللوضوء ،
كما توضع فوقه أواني المياه وفناجين القهوة . وتكسى عقود الصفة في الدور



شكل ٧ (نافورة)



شكل ٨ (صفة)

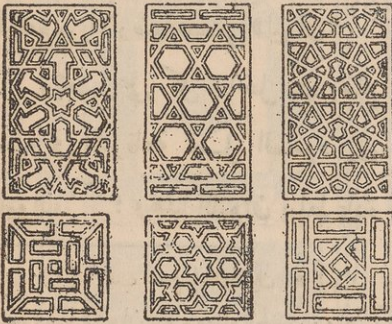
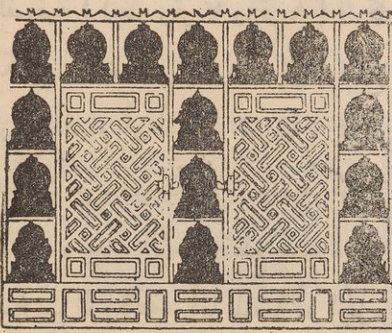
الجميله بالرخام والقراميد على مثال بركة
الفسقية (انظر رقم ٧ ورقم ٨) ، كما
يكسى الحائط الذي يعالوها ، إلى ارتفاع
أربع أقدام أو أكثر تقريباً ، بمواد
مماثلة : جزء منها بألواح رخامية كبيرة
قائمة ، والجزء الآخر بقطع صغيرة على
أسلوب الدرقاعة . أما المنصة أو الجزء
المرتفع من الأرضية فيسمى « ليوان »^(١)
ويجب على كل داخل أن يخضع
لعمليه في الدرقاعة قبل الصعود إلى
الليوان^(٢) ؛ وهذا الليوان يبلط عادة

(١) يجب عدم الخلط بين « ليوان » و « ديوان » المذكورة فيما بعد . والليوان
يسمى أيضاً « ليوان » ، ومعناه الحقيقي رواق مكشوف الواجهة ، أو قصر الخ . وكلنا « ليوان »
و « ليوان » من أصل فارسي إلا أن الأولى تنطق بحرفة عن كلمة « الإيوان » .

(٢) من أهم أسباب هذه العادة ؛ عدم تدنيس الحصر أو السجاد الذي يصلى عليه عادة
وهذا يفسر ، كما لاحظ عدة كتاب ، ما ذكر في الكتاب المقدس . انظر سقري : الخروج
الإصحاح الثالث ، الآية الخامسة ، ويشوع الإصحاح الخامس ، الآية الخامسة عشرة :

« فقال لا تقترب إلى ههنا . اخلع حذاءك من رجلك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض
مقدسة » . « فقال رئيس جنود الرب ليشوع : اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت
واقف عليه هو مقدس » .

بالحجر العادي ، ويفرش بالحصير صيفاً وبالسطح فوق الحصر شتاء ، وتوضع فوقه الحشايا والوسائد ملاصقة للجدران . ويسمى حينئذ « ديوان » ، وتوضع الحشية ، التي يبلغ عرضها حوالي ثلاث أقدام ، وسمكها ثلاث بوصات أو أربعا ، على الأرض عادة . أما الوسائد ، وطولها بقدر عرض الحشية ، وارتفاعها مساو لنصف هذا القياس ، فتسند مائلة إلى الحائط . وتحشى الحشايا والوسائد بالقطن ، وتغطى بالشيت المطبوع أو الجوخ أو بما هو أغلى ثمناً . وأحيانا توضع الحشية على سرير من جريد النخل ، وأحيانا أخرى توضع على منصة حجرية تعلو إلى نصف قدم تقريبا ، وتسمى « سِدْلَة » . وهي كلمة من أصل فارسي ، تطلق أيضاً على فجوة عرضها مساو لعمقها تقريبا ، وبها فرش ووسائد حول جوانبها الثلاثة . ويلاحظ



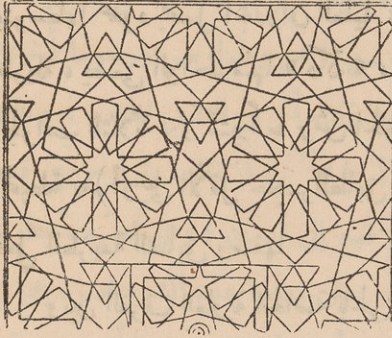
شكل ٩

(نماذج من الحشوات الحشوية)

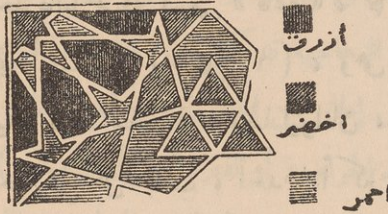
أن بعض الغرف به مكان أو أكثر من هذه الأمكنة الداخلة تستخدم للجلوس شتاء ، وهي لذلك تبقى بدون نوافذ . أما حوائط الحجرة فتغطى بالحصى وتبييض . ويوجد في داخل جدران الغرفة دولا بان أو ثلاثة قليلة العمق ، بمصاريعها حشوات خشبية دقيقة الصنع ، لأن الحرارة ويبوسة الجو تعرضان الخشب للتقلص والالتواء كما لو كان داخل تنور ؛ ولهذا السبب تصنع أبواب الغرف أيضاً بالطريقة نفسها . ويلاحظ أن هناك تفنناً عظيماً ومهارة فائقة في مختلف الأساليب

المتبعة في صنع تلك الحشوات الصغيرة وتركيبها ، وقد نشرت بعض نماذج مختارة منها (شكل ٩) . أما السقف الذي يعلو الليوان ، فهو ذو جصور من الخشب المنقور يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة قدم ؛ ويلون بعضها وأحيانا يذهب . ولكن هذا الجزء من السقف ، الذي يعلو الدرقاعة ، يكون في المنازل الجميلة

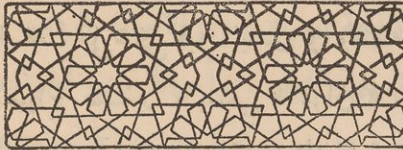
أخف نقوشاً وأكثر زخرفة . وبدلاً من العروق الكبيرة ، تسمر بضعة شرائط خشبية دقيقة في الألواح ، فتؤلف نماذج غريبة التعقيد ، كاملة الانتظام ، ذات تأثير



زخرفي عظيم . وقد رسمت جزءاً من السقف على هذا الأسلوب الزخرفي ، ولكنه ليس من الطراز الكثير التعقيد (شكل ١٠) وهذه الشرائط تدهن بالأصفر أو تذهب ، وما بينها يلون بالأخضر والأحمر والأزرق (١) .



شكل ١٠ (سقف درقاعة)
عرضه حوالي ثمانى أقدام



شكل ١١ (سقف نافذة بارزة)
عرضه حوالي ثمانى أقدام

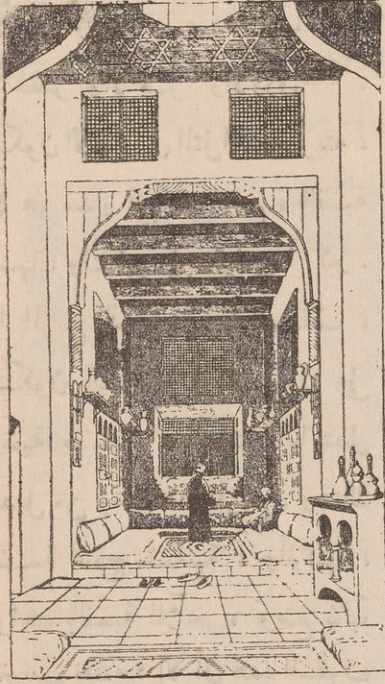
وتكون الألوان في المثل الذي ضربته ، كما هو مشار إليها في الرسم ، بالنسبة نفسها ، ولكن على مقياس أكبر . ما المربع الذي يتوسط السقف ، فتكون الشرائط فيه سوداء على أرضية صفراء . وكثيراً ما يتبدل قفنديل من وسط هذا المربع . وهناك بضعة نماذج متشابهة ، وألوانها ، الواحد بالنسبة للآخر ، توضع غالباً بالترتيب نفسه ؛ إلا أن هذه السقوف

في بعض المنازل لا تلون . أما سقف النافذة البارزة ، فكثيراً ما يزخرف بالطريقة نفسها ، كما ترى في (الشكل ١١) . وهكذا يتجلى الذوق السليم بقصر الزخرفة على الأجزاء التي لا تكون دائماً أمام العين ، لأن إدمان النظر إلى مثل تلك الخطوط الكثيرة المتقاطعة المتجهة في اتجاهات عديدة مما يؤلم العين .

وفي بعض المنازل توجد حجرة أخرى تسمى « مقعد » ، (كما مر بك في شكل ٤) ترتفع عن الطابق الأرضي نحو ثمانى أقدام أو عشر ، وتستعمل

(١) أنظر سفرارميا الأصحاح الثاني والعشرين ، الآية الرابعة عشرة : القائل أبني لنفمي بيتاً وسیعاً وعلالی فسیحة ویشق لنفسه کوی ویسقف بأرز ویدهن بمغره .

كالمنظرة ، وهي ذات واجهة مكشوفة لها عقدان أو أكثر ودرازون منخفض . كذلك يوجد في الطابق الأرضي مكان مربع ، يسمى «تختبوش» ، له واجهة مكشوفة يتوسطها عمود يحمل الجدران العليا ، وأرضيته ليوان مبلط عليه مقاعد خشبية طويلة ، يسمى الواحد منها «دكة» ، تصف على جانب واحد أو على جانبيين أو على الجوانب الثلاثة . وكثيراً ما يرش الحوش أثناء الصيف بالماء ، حتى تصبح الغرف المحيطة به (أو على الأقل حَجَر الطابق الأرضي) لطيفة الحرارة . أما تأثيث الغرف فملي الطريقة السابق وصفها .



شكل ١٢ (قاعة)

وبين الغرف العلوية الخاصة بالحريم يوجد غالباً غرفة تسمى «قاعة» ، كما ترى أمامك في (شكل ١٢) ، وهي عالية بصفة خاصة ، ولها ليوانان ، واحد على كل جانب ، أحدهما أكبر من الآخر . وفي سطح هذه القاعة قسم يعلو الدرقاعة ، مرتفعاً عن بقية السقف على شكل قبة ، يتدلى في وسطه مصباح صغير ، يسمى «مراق» ، ذو جوانب من خشب المشربية . والدرقاعة هنا كثيراً ما تكون من غير فسقية ، وغالباً تبلط على مثال

المنضرة (المنظرة) ؛ وعلى مثالها أيضاً ، يوجد في القاعة صفة جميلة ودواليب ذوات حشوات دقيقة الصنع ، فضلاً عما في هذه الغرفة وفي غيرها من رفوف خشبية ضيقة ، تمتد على طول حائطين ، أو على طول الحوائط الثلاثة التي تحم الليوان ، مرتفعة حوالى سبع أقدام أو أكثر عن الأرض فوق الدواليب تماماً . ويوضع فوق هذه الرفوف أوان خزفية ، هي للزخرفة أكثر منها للاستعمال العام^(١) . وكل

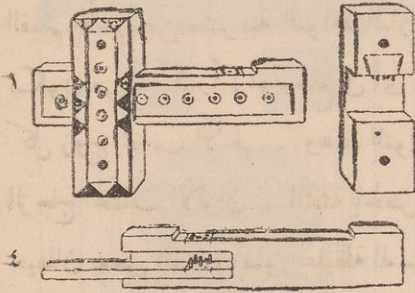
(١) في البيوت الكبيرة يوجد علاوة على القاعة الرئيسية الخاصة بالحريم مخدع مرتفع مخصص للمغنيات حتى يسترن عن أنظار الرجال من العائلة أو من الزائرين (وفي الحالة الأخيرة تنسحب النساء) وستجد وصف هذا في فصل الموسيقى

الغرف تملأ إلى أربع عشرة قدماً أو أكثر ، ولكن القاعة أكبرها وأعلاها . وهي تعد في المنازل العظيمة غرفة استقبال جليلة .

وفي كثير من الغرف العلوية ، في بيوت الأغنياء ، يوجد ، فضلاً عن الشبابيك ، نوافذ أخرى من الزجاج الملون ، يمثل باقات من الزهر وطواويس ورسوماً أخرى ذات زخرفة مرحة فاخرة ، أو نماذج خيالية ذات أثر في النفس لطيف . وتلك النوافذ الملونة الزجاج ، يطلق عليها لفظ « قرية » ^(١) ، ارتفاعها يتراوح بين قدم ونصف وبين قدمين ونصف ، وعرضها من قدم إلى قدمين ؛ وهي تُصَفُّ بطول القسم الأعلى من مشربية النوافذ البارزة ، أو يملأ بعضها هذه المشربيات ، بحيث تكون مربعاً كبيراً ، أو توضع في أى مكان في أعلى الجدران منفردة أو مزدوجة ، كل زوج بجانب الآخر . وهذه النوافذ الزجاجية تتكون من قطع صغيرة من الزجاج المختلف الألوان ، المثبتة بالجلس في إطار من الخشب . وكثيراً ما ترين حيطان بعض الغرف بصور غليظة للمسجد الحرام ، أو لقبر الرسول (صلعم) ، أو لبعض الزهور ، أو لموضوعات أخرى يصورها صناع الوطنيين المسلمين ، الذين يجهدون القواعد الأولى للرسم النظري ، فيشوهون هكذا ما يحاولون أن يزينوه . وفي أغلب الأحوال تعمل هذه الرسوم الملطخة لإرضاء للنوق الأتراك الرديء . وقبلما يوجد نظيرها فيما بنى على الطراز العربي الجميل . وأحياناً ترين الحوائط بمبارات عربية ، من حكم وغيرها ، تكتب على ورق بخط جميل ، ثم توضع في أطُرٍ مجهزة بألواح زجاجية . وليست هناك غرفة خاصة تؤنث للنوم . فالسرير يطوى أثناء النهار ويوضع على جانب ، أو في غرفة ملحقة ، تسمى « خزانة » ، تعد للنوم في الشتاء . وفي الصيف ينام الكثيرون في أعلى المنازل . ويفطى الجزء المرتفع من الأرضية المبلطة بالحجر بحصير أو بساط ، ويوضع فوقها ديوان ، وهذا هو الأثاث الكامل للغرفة . وعند تناول الطعام ، يؤتى بصينية مستديرة توضع فوق

(١) هذه الكلمة مشتقة من « قر » ويعتقد البارون هامر بورجستال Baron Hammer Purgstall أن أصلها من خوماروج (أو كما يسميه العرب خارويه) ، وهو أحد أسماء بني طولون ، وكان يحكم مصر . وأواخر القرن التاسع من الميلاد ، وهي في رأيه تثبت أن فن تلوين الزجاج كان مزدهراً في مصر في هذا العصر .

كرسى منخفض ، ويجلس الآكلون حولها على الأرض . وليس هناك موقد^(١) ؛ وإنما تدفأ الغرفة بفحم الحطب الذى يحرق فى مجامر . ولكثير من المنازل ، عند القمة ، مسقط منحدر ، يسمى « ملقف »^(٢) ، ويكون غالباً من ألواح خشبية ، أو من خشب وقصب ، ويغطى فى الحالة الأخيرة بالجص ويبيض من الداخل والخارج ، وفتحته تتجه نحو الشمال أو نحو الجنوب ، ليدخل النسيم البارد الذى يهب من هاتين الجهتين إلى « فسحة » (غرفة مفتوحة) سفلى . وهناك عادة فسحة قبل مدخل كل غرفة أو أكثر من الغرف الرئيسية ، فيها يجلس أفراد العائلة أو ينامون صيفاً .



ويجهز كل باب بقفل خشبي يسمى
« ضَبَّة » ، كما ترى فى شكل ١٣ ؛
ورقم ١ من هذا الشكل هو منظر أمامي

للضبة ، والمزلاج مسحوب للوراء . ٣
أما الأرقام (٢ ، ٣ ، ٤) فهى مناظر

شكل ١٣ — (مزلاج خشبي)

خلفية لأجزاء القفل ، كل على حدته ، وللمفتاح . وفى رأس الضبة مسامير صغيرة (أربعة أو خمسة أو أكثر) تسقط فى ثقوب مقابلة لها فى المزلاج المتحرك كما دفع إلى المهج . وفى المفتاح أيضاً مسامير ، مطابقة لتلك الثقوب ، تدخل فيها وترفع المسامير الأولى ، وحينئذ يمكن سحب المزلاج للوراء فيفتح القفل . ويبلغ طول قفل باب الشارع أربع عشرة بوصة تقريباً . وأبواب الغرف والدواليب الخ . من سبع إلى تسع بوصات تقريباً . أما أبواب الحارات والمباني العامة فأقفاؤها من النوع نفسه ، ولكن طولها غالباً قدماً أو أكثر . وليس من الصعب فتح هذا القفل .

ويلاحظ أن رسم أكثر المنازل يعوزه النظام . فالغرف مختلفة الارتفاع بحيث

(١) إلا فى المطبخ حيث توجد عدة أوعية صغيرة للنار مبنية بالآجر . لهذا ولأسباب أخرى (من بينها اعتدال عادات الشعب المتبسرة وانعدام الستائر فى الغرف وتشديد الأدوار بالحشب ثم تغطيته بالأحجار) قلما تحدث حرائق فى القاهرة . ولكن عندما يحدث مثل هذا الحادث يشب حريق هائل ، لأن هناك كمية كبيرة من الحشب الأبيض اليايس مستعملة فى بناء المنازل .

(٢) انظر شكل رقم ٤

يجب على الإنسان أن يخطو عدة درجات عند ما ينتقل من غرفة إلى أخرى ملحقة بها . وغاية المهارى الأولى هي جعل المنزل خاصاً بقدر الإمكان ، وخصوصاً قسم الحريم ؛ فيشيد المنزل بحيث لا تطل النوافذ على غرف منازل أخرى . ويراعى المهارى غرضاً آخر، في بناء منازل الموسرين والعطاء ، وهو أن يجعل للمنزل « باب سر ^(١) » يستطيع الساكن أن يهرب منه في حالة الخطر، أو يمكن العاشقين المرور منه . ومن الشائع أيضاً بناء مكان لإخفاء الكئوز (يسمى « مخبأ ») يكون في جانب من المنزل . وفي حريم المنازل الكبيرة حمام يسخن على طريقة الحمامات العمومية .

وقد أشرت إلى طراز معمارى آخر، على الطريقة التركية ، جرى عليه الأغنياء أخيراً في بناء منازلهم ، وتلك المنازل لا تختلف كثيراً عن تلك التى سبق وصفها ، ماعدا النوافذ ، فهى فى الغالب يوضع بعضها بجانب بعض تقريباً . وعند ما تشغل الحوانيت الجزء الأسفل من البناء فى شارع ما (كما هو الحال فى شوارع العاصمة الكبيرة ، وفى بعض الشوارع الصغيرة) ، يقسم البناء العلوى عادة إلى مساكن منفصلة ، يطلق عليها اسم « ربع » ؛ وتلك المساكن ينفصل بعضها عن بعض ، وكذلك عن الدكاكين تحتها ، وتؤجر للعائلات التى لا تقوى على دفع إيجار منزل بأكمله . وكل مسكن فى الربع يحتوى على غرفة أو غرفتين للجلوس والنوم ، وعلى مطبخ ودورة مياه . ويندر أن يكون للمسكن مدخل من الشارع على حدته ، فليس هناك إلا مدخل واحد وسلم واحدة لعدة مساكن . والغرف فى الربع تشبه غرف الدور الخاصة السابق وصفها . وهى لا تؤجر أبداً بفرشها . ومن النادر أن يسمح للأعزب أو للجارية بالسكن فى تلك الربوع أو فى أى مسكن خاص . ومثل هذا الشخص ، ما لم يكن يعيش مع أبويه أو مع أقاربه المقربين ، يضطر إلى السكن فى « وكالة » ، وهى بناء مخصص لاستقبال التجار وإيداع بضائعهم ^(٢)

وفى ما عدا العاصمة وبعض المدن الأخرى ، قلما توجد منازل كبيرة أو جميلة .

(١) وهذه العبارة تطلق أحياناً على الباب المؤدى إلى الحريم .

(٢) ومع ذلك فالفرنج الآن معافون من هذا المنع .

أما مساكن الطبقات السفلى ، وخصوصاً طبقات الفلاحين فيبدو عليها الفقر المدقع . فأكثرها مبنى بالطين والطين ، وبعضها ليست إلا أكواخاً عادية . ومع ذلك فأغلبها يحوى غرفتين أو أكثر بالرغم من أن القليل منها يتألف من طابقين . ويوجد في مساكن فلاحى الوجه البحرى ، في غرفة ما ، « فرن » في الطرف الأقصى من المدخل شاغلا عرض الغرفة كلها . وهو عبارة عن دكة من الطوب والطين لا يزيد ارتفاعها على صدر الإنسان ، وسقفها مقوس في الداخل ومسطح عند القمة . ويندر أن يمتلك الفلاحون لحافاً يلتحفون به في ليالى الشتاء ، فينامون كلهم على سطح الفرن ، بعد أن يوقدوا فيه ناراً ، أو يتمتع بهذا الترف الزوج وزوجته ، بينما يفترش الأطفال الأرض . وفي الغرف فتحات صغيرة مرتفعة يدخل منها النور والهواء ، وتشبك أحياناً بقضبان خشبية . وتكون السقوف من جذوع النخل وتغطى بالجريد والسعف وسيقان الذرة ، وتكسى بطبقة من الطين والتبن . ولا يتعدى أثاث المنزل حصيرة أو حصيرتين للنوم ، وبعض أوعية من الفخار ، ورحاً لطحن الحبوب . ويلاحظ أن في كثير من القرى أبراجاً للحمام كبيرة مربعة الشكل ، مع ميل خفيف في جدرانها نحو الداخل (مثل كثير من مباني قدماء المصريين) ، أو على شكل قالب سكر ، تبنى على أسطح الأكواخ بالطين والفواخير والطين . وأكثر قرى مصر يقع على أطلال مرتفعة ، بحيث لا تصل إليها مياه الفيضان . وتحيط بها أو تجاورها أشجار النخل . وهذه المرتفعات تتكون عادة من بقايا أكواخ سابقة أو مدينة قديمة ، ويبدو أنها تزيد بقدر ما يزيد مستوى الوادى من الرواسب وبقدر ما يزيد مجرى النهر .

من المستحيل تقريباً في بلد ، لا يقيد فيه مواليد ولا أموات ، أن يمين عدد السكان بدقة . وقبل تأليف هذا الكتاب بيضع سنوات ، عمل إحصاء على أساس عدد البيوت في مصر ، وافترض ثمانية أشخاص لكل بيت في العاصمة ، وأربعة أشخاص لكل بيت في الريف . وهذا الإحصاء ، على ما أعتقد ، يقرب جداً من الحقيقة . ولكن الملاحظة الشخصية والبحث يجعلاننى أميل إلى الاعتقاد بأن مدناً ، كالاسكندرية وبولاق ومصر العتيقة ، تحوى كل منها خمسة أشخاص على الأقل لكل منزل . أما رشيد فنصفها أهل ونصفها الآخر فقر ، ودمياط المزدهرة

بالسكان ، يجب أن نحسب ستة أشخاص لكل منزل فيها ، وإلا نقص تقديرنا كثيراً عما يظن أنه عدد سكانها . فإذا أضيف شخص أو شخصان إلى كل منزل في المدن المذكورة ، فلا يحدث مع ذلك إلا فرق ضئيل في إحصاء سكان مصر . ومجموعهم طبقاً لتلك الطريقة الحسابية يبلغ أكثر من مليونين ونصف مليون من الأنفس ؛ ولكن هذا العدد قل فيما بعد . وكان من المحتمل أن يكون من هذا العدد قرابة مليون ومائتي نفس من الذكور ، ثلثهم (٤٠٠٠٠٠) يصلحون للخدمة العسكرية . وقد جند محمد علي من هذا العدد الأخير مائتي ألف رجل ، على الأقل ، لجيوشه وللخدمة البحرية . وأقصى خسارة نتجت من إبعاد هؤلاء الرجال عن زوجاتهم ، أو منعهم من الزواج ، عشر سنين ، لا بد أن تزيد على ثلاثمائة ألف ؛ ولذلك جعلت مجموع السكان أقل من مليونين . أما عدد أفراد الطبقات المهمة فقد كان كما يلي على وجه التقريب :

مصريون مسلمون (فلاحون وحضرّيون) ١٧٥٠٠٠٠

مصريون مسيحيون (أقباط) ١٥٠٠٠٠

عثمانيون أو أتراك ١٠٠٠٠

سوريون ٥٠٠٠

يونانيون ٥٠٠٠

أرمن ٢٠٠٠

يهود ٥٠٠٠

أما بقية السكان ، من البدو والنوبيين والمبيد والماليك والفرنج ، فن المحتمل أن يبلغ عددهم نحو سبعين ألفاً . أما عدد كل طائفة على حدة فلا يمكن معرفته على وجه اليقين . وقد كان عرب الصحراء بين الغربية والشرقية لا يعدون في سكان مصر .

قلت إن القاهرة يبلغ عدد سكانها مائتين وأربعين ألف نفس تقريباً عند ما وضع هذا الكتاب (١) . ولو كنا قد بنينا حكماً على أهل هذه المدينة من ازدحام

(١) وصل مجموع سكان القاهرة إلى هذا العدد بعد أن كان نحو ٢٠٠٠٠٠ منذ ثلاث سنوات أو أربع . ومنذ هذا الإحصاء أهلك وباء سنة ١٨٣٥ ما لا يقل عن ثلث السكان كما ذكر قبلاً ، ولكن سرعان ما سد هذا النقص من الريف .

شوارعها المهمة وأسواقها لخدعنا كثيراً . ففي كثير من الحارات والأزقة لا يرى إلا القليل من المارين . كذلك لا يمكننا الحكم من سعة المدينة وضواحيها ، فإن داخل الجدران كثيراً من الأمكنة الخالية ، بعضها يتحول إلى بحيرات أثناء الفيضان (١) . ثم إن الحدائق والمقابر الكثيرة وأحواش المنازل والجوامع تشغل مساحة واسعة . وقد عددت بين سكان القاهرة نحو مائة وتسعين ألفاً من المصريين وحوالى عشرة آلاف من الأقباط ، وثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من اليهود ، والبقية أجنب من بلدان مختلفة (٢)

ويرجح أن سكان مصر في عصور الفراعنة كان عددهم ستة ملايين أو سبعة (٣) . ولو أن شيئاً من محصول الأرض في العصر الحاضر لم يصدّر ، لعال هذا المحصول أربعة ملايين نفس . وإذا كانت كل الأرض الصالحة للزراعة تزرع ، لكفى المحصول ثمانية مليون ، وهذا غاية ما يمكن أن تصل إليه مصر في أغزر السنين فيضاناً . ولذلك فإني أعتقد أن المصريين القدماء ، في الوقت الذي كانت فيه الزراعة في حالة ازدهار ، كان عددهم كما قررت سابقاً . كما أنه من المفروض أن عددهم لم يكن يزيد على نصفهم إلا بقليل في عصر البطالسة والعصور التالية ، عند ما كانت تصدر كميات كبيرة من الحبوب سنوياً (٤) . وهذا الاحصاء يتفق مع ما قاله ديودور الصقلي من أن مصر بلغ عدد سكانها في أيام الملوك الأقدمين سبعة ملايين ، بينما في عصره لم يقلوا عن ثلاثة ملايين .

ومن تأمل في سياسة محمد علي ، لا يسمه إلا أن يأسف للفرق بين حالة مصر

(١) وقد ردمت أكبر هذه البرك ، وكانت تعرف ببركة الأزيكية ، ولا زال مكانها يسمى بهذا الاسم . وزرعت أشجاراً بعد سنوات قليلة من وضع هذا الكتاب

(٢) يتألف ثلث سكان القاهرة من الذكور البالغين . وقد أحصيت من هذا العدد حوالى ٣٠.٠٠٠ تاجراً من صغار أصحاب الحوانيت والصناع و ٢٠.٠٠٠ من الخدم الذكور و ١٥.٠٠٠ من العمال والحوالين الخ . أما البقية فمكونة غالباً من خدم الحكومة المدنيين والحربيين .

(٣) أنا لا أتعتمد كثيراً على أقوال المؤلفين القدماء في هذا الموضوع

(٤) وقد ملح لى البعض لأنه بتصدير الحبوب ، تستورد أشياء ذات قيمة مساوية ؟ وإن تصدير الحبوب أو أى شيء آخر ينعش الصناعة وينشط السكان ولكن أي شيء يمكن استيراده ليقوم بالغذاء اللازم لشعب عدده يستهلك أكثر من محصول أرضه .

تحت حكمه وبين ما كان يجب أن تكون ، إذ لم يزد عدد سكانها بكثير عن ربع العدد الذي كان في إمكانها إعاقته . ولقد كان في استطاعة العاهل العظيم أن ينفع شعبه أجزل النفع ، لو أنه بدلا من إفقار الفلاحين ، بنزع الأراضي الزراعية واحتكار المحصولات القيمة ، واستخدام كفاءة السكان في إرضاء طموحه وتحقيق فتوحه ، أو في منافسته الصحافة الأوربية على غير طائل ، كان قد وجه عنايته إلى مساعدة الطبيعة في أن يجعل مصر بلداً زراعياً على الأخص . فقد كان يكفي محصول قطنها وحده ، بل وبفيض ، للحصول على كل منتجات المصانع الأجنبية وكل المحصولات الطبيعية التي تتطلبها حاجة السكان من البلاد الأجنبية^(١)

(١) في ١٨٣٥ شحن من الاسكندرية أكثر من ١٠٠.٠٠٠ بالة قطن ، وكان ما دفعه التجار يزيد على ٧٠٠.٠٠٠ أما الكمية المصدرة في العام الماضي فكانت ٣٤٠.٠٠٠ بالة وهي أقل من المعتاد بكثير

الفصل الأول

سميزات المصريين المسلمين وملايسهم

يؤلف المسلمون العرب غالبية سكان مصر منذ قرون . وقد أحدث ذلك انقلاباً في اللغة والقوانين والشئائل العامة ، وأصبحت العاصمة المصرية أعظم قاعدة للمعارف والفنون العربية . وسيخصص لوصف هذا الشعب ، وعلى الأخص الطبقتان الوسطى والعليا في القاهرة ، أكبر جزء من هذا الكتاب . ويلاحظ أن شئائل المصريين وعاداتهم تثير الاهتمام بنوع خاص ، لأنها مزيج من تلك الشئائل والعادات التي تسود الجزيرة العربية ، وسورية ، وشمال أفريقية كله ، وتركبة إلى حد بعيد . وليس هناك بلد كمصر يمكننا أن نحصل فيه على معرفة تامة بأكثر طبقات العرب تمدناً .

ويظهر من الإحصائيات الواردة في مقدمة هذا الكتاب ، أن المصريين المسلمين ، أو المصريين العرب ، يؤلفون تقريباً أربعة أخماس سكان العاصمة ، وسبعة أثمان سكان مصر كلها .

والمصريون المسلمون من جنس خليط ، انحدر إلى حد كبير من عدة قبائل وعشائر عربية وفدت إلى مصر في عصور مختلفة ، بُعِيد الفتح . وهؤلاء العرب المهاجرون كانوا أولاً قبائل تجوب الصحراء ، ولكنهم تركوا حياة البداوة وتحضروا ، ثم أصهروا إلى الأقباط الذين أصبحوا بالإسلام آمنين ، فأدى اختلاطهم هذا إلى تكوين شعب كثير الشبه بقدماء المصريين ، الذين ينتمون إلى الجنس « القوقازي » ، مع قرابتهم إلى الجنس الأسود على درجات مختلفة (١)

(١) يرى موريه Moret (في كتابه Le Nil et La Civilisation égyptienne ص ٤٤) إن قدماء المصريين لا ينتمون إلى جنس واحد فقط . فالآثار والهياكل العظمية تميز ثلاث عناصر صهرت جميعاً في وادي النيل لتكوين الشعب المصري وقد أضافت الغزوات والهجرة على مر العصور ، عناصر أخرى تلاشت في ذلك الشعب ؛ وظل وادي النيل محتفظاً بطابعه المصري . المترجم

وهذا الشبه يبدو تاماً في عدة أفراد منهم على الجملة ، وعلى الأخص في القبط والنوبيين ؛ وهو في مسلمي مصر الوسطي والعليا أكثر شيوعاً ووضوحاً . ولكنهم مع ذلك ليسوا أقل عربية من أهل الحضرة في الجزيرة ذاتها ، إذ فشت فيهم منذ القدم عادة اقتناء الجوارى من قبائل الجالا Galla والأحباش ، إما للزواج وإما للتسرى . ولذلك كان عرب المدن الآن يشبهون الجالا والأحباش بقدر ما يشبهون البدو . وهذا ، على الأقل ، هو الحال في مدن الإقليم الجنوبي الغربي من بلاد العرب ؛ أما الجهات الجنوبية ، فالحضريون فيها أكثر اختلاطاً بالهنود وأجناس الملايا ، والإفريقيين كذلك . فالمصريون عامة ، والعرب كذلك ، ولو على درجة أقل ، ينزعون بعرق إلى أهل أفريقيا الأصليين . ويلاحظ أن لفظ « العرب »^(١) يطلقه سكان البلاد العربية الآن على البدو في مجموعهم ، ويطلقون كلمة « العربان » على أهل القبيلة أو على القليل منهم . أما الفرد فيسمى « بدوياً » . وقد زال التمييز بين القبائل تقريباً في العاصمة وفي غيرها من المدن المصرية ؛ ولكنه لا يزال باقياً بين الفلاحين الذين حافظوا على عادات بدوية كثيرة سأتكلم عنها فيما بعد . وفي بقاع مختلفة من مصر عشائر تنحدر من العرب الأولين الذين يترفعون عن الزواج ممن هن أقل منهم جنساً . وهؤلاء يصوب ، بل يستحيل ، تمييزهم من قبائل صحراء الجزيرة العربية . ومسلمو القاهرة الوطنيون يسمون أنفسهم عادة « المصريين » و « أولاد مصر » أو « أهل مصر » و « أولاد البلد » . وآخر تلك العبارات الثلاث أكثرها شيوعاً في المدينة نفسها . أما أهل الريف ، فيسمون بالفلاحين (أو المزارعين) . وكثيراً ما يطلق الأتراك على المصريين لفظ الفلاحين ، ويقصدون به معنى الغلظة والجفاء ، أو يبنذونهم بأهل فرعون إهانة لهم ، فيرد عليهم المصريون ، كلما اجترأوا على ذلك ، بتسميتهم أهل فرعون .

ويتراوح طول المصريين بين خمس أقدام وثمانى بوصات ، وخمس أقدام وتسع بوصات . وأغلب الأطفال تحت سن العاشرة دقاق الأطراف ضخام البطون ، ولكن سرعان ما تتحسن أشكالهم كلما تدرجوا في النمو ، فلا يبلغون

(١) هذا اللفظ كان يستعمل أولاً للإشارة إلى العرب الحضريين بينما كان العرب الرحل يسمون « أعراباً » ، وعرب المدن يطلقون الآن على أنفسهم « أولاد العرب » .

أشدّهم حتى تتناسب أعضاؤهم بشكل ظاهر . فالرجال أقوياء مفتولوا العضلات ، والنساء جميلات التكوين بديفات من غير إفراط . ولم أر في المصريين بدانة إلا في الذين أخذوا إلى حياة البطالة في العاصمة وغيرها من المدن .

وبلاحظ أن أهل القاهرة وسكان الأقاليم الشمالية ، حيث يكثر المهاجرون لا اعتدال الجو . هؤلاء لفلة تعرضهم للشمس يمتازون بوجوههم الشديدة الصفرة وببشرتهم الناعمة الملمس ، بينما الآخرون يزداد لونهم ظلمة وببشرتهم غلظة . أما في مصر الوسطى وفي الصعيد الأعلى فيشتد وهج الشمس وتزيد سمرة الوجه كلما صعد الإنسان نحو النوبة حيث يكون الجو أشد حرارة ، وحيث يحل الفوبيون محل المصريين تدريجياً . وسحنة المصريين المسلمين بيمضية الشكل جميلة الهيمّة . فالجهة معتدلة الحجم نادرة الارتفاع شديدة التقوس ، والعينان بعيدتا الغور ، أو تبدوان كذلك نتيجة لخفض الحاجب من بهر الشمس ، سوداوان لامعتان ، تشبهان بعض الشبه أعين الأجناس الحبشية ، والأنف مستقيم غليظ بمض الشيء ، والفم جميل التكوين ، والشفتان أقرب إلى الغلظ ، والأسنان جميلة الشكل ، تشبه ، إذا نظرنا إلى الموميات ، أسنان المصريين القدماء^(١) ، واللحية سوداء خفيفة جمعاء .

وقلما ترى عيوناً رمادية ، إلا في ذرية الأجانب من أوروبيين وغيرهم أو في سلالاتهم . وقد اعتاد الفلاحون ، لدوام تعرضهم للشمس ، كسرجفونهم ؛ وهذه من مميزات البدو . والكثير من المصريين مصابون بالبور أو بالعمى . وهم لا يخلقون اللحية كلها ، وإنما يخلقون ما فوق الفك الأسفل وما تحته ، وكذلك ماتحت الشفة السفلى ماعدا المنفقة على مثال الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وقد ينفقون تلك المواضع . والقليل منهم يخلق اللحية كلها^(٢) ، ما عدا الشاربين فلا يخلقهما أحد . وم

(١) ومع ذلك فألام الأسنان مرض شائع في مصر كما كان في العصور القديمة على الأرجح ، إذ يشير هيرودوتس ، في كلامه عن طبقات الأطباء المصريين ، إلى أطباء الأسنان . وهو أكثر شيوعاً في الطبقات العليا .

(٢) وقلما يخلق الخدم لحام ، وما من أحد منهم يخلق شاربيه . ومن المشاهد كثيراً احترام الشرقيين اللحية فهي محل قسمهم ، وهم يقولون لمن يرتكب قبيحاً إنه أسقط حرمتها وكثيراً ما طبقت في العصور الحديثة العقوبة المنصوص عنها في سفر صموئيل الثاني ، الاصحاح العاشر الآية الرابعة ، ونصها : « فأخذ حانون عبيد داود وحلق أنصاف لحام ثم أطلقهم » ولكنها لم تتواتر بقدر عقوبة حلق اللحية كلها .

يطلقون لحام بمقدار قبضة اليد تقريباً .

وهذا هو المتبع عادة ، وتلك كانت عادة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وهم ، لحافظتهم على السُّنة ، لا يطيّلون الشاربين ولا يمدونهما على الأقل فوق الشفة العليا ، حتى لا يضايقاهم عند الأكل أو الشرب . وعادة الخضاب ليست شائعة في مصر لأنهم يحترمون الشيب . ويخلق المصريون شعر الرأس كله ، أو يتركون خصلة صغيرة فوق الناصية تسمى « شوشة » ^(١) . ويقال إن هذه العادة الأخيرة ، التي تكاد تكون عامة بينهم ، منشأها خوف المسلمين عند وقوعهم في أمر الكفار أن يعمد هؤلاء ، عند ذبحهم ، إلى وضع أيديهم النجسة في الفم ليحملوا الرأس منه إذا لم يجدوا شعراً ، وقد تكون اللحية قصيرة أيضاً ، ولكن الراجح أن تلك العادة أخذت عن الأتراك ، لأنها لا تشاهد عامة عند البدو ، ولأن عادة حلق الرأس ظهرت بين العرب منذ عهد قريب ، ثم إنها للنظافة ^(٢) . ويتبع المصريون عادات أخرى لنظافتهم لا محل لذكرها هنا ^(٣) . ويلاحظ أن كثيراً ما يشتم رجال الطبقة السفلى وغيرهم أذرعهم وأحياناً أيديهم وصدورهم كما يفعل النساء ، (وسنصف هذه العادة عند الكلام عن النساء) .

وتتألف ملابس رجال الطبقتين العليا والوسطى من الأجزاء الآتية ^(٤) : أولاً ، سروال ^(٥) فضفاض من الكتان أو القطن يشد حول الوسط بشريط ^(٦) ، طرفاه مطرزان بالحرير الملون وإن كانا تحت الملابس الخارجية . ويصل السروال إلى ما تحت الركبتين بقليل أو ينزل حتى الكعبين . إلا أن الكثير من العرب لا يلبسون السراويل الطوال لأن النبي صلى الله عليه وسلم حرمها عليهم . بعد ذلك

(١) يعد المسلمون ترك قصاصة الشعر أو قلامة الأظافر الخ على الأرض مخالفاً للاحترام الواجب لكل ما يخص الجسد ، وهم لذلك يدفنون هذه الأشياء في التراب ؛ بينما النساء يحشين بها شقوق الجدران .

(٢) ويستقبح رجال العلم والدين هذه الشوشة .

(٣) وهي مذكورة في « مشكاة المصابيح » الجزء الثاني ص ٣٥٩ ويراعيا كلا الجنسيتين ولا تزال طريقة لبسهم كما كانت على مر القرون .

(٥) يسمى « لباس »

(٦) يسمى « دكة » أو « تكة »

قميص أكامه واسعة جداً تصل حتى المعصم ، يصنع من نسيج الكتان الأبيض الرخص أو من نسيج القطن أو الحرير الموصلي أو الحرير المخلوط بالقطن ، وكلها مفوفة بيضاء^(١) . ويرتدى أغلب الناس فوق هذا ، عندما يبرد الطقس ، «صديراً» قصيراً من الجوخ أو من الحرير الملون المفوف أو من القطن ، ولا أكام له^(٢) .

يضاف إلى هذا رداء طويل من الحرير المفوف أو القطن^(٣) يسمى «قَظْطان» ، أو على حسب التعمير الغالب ، «قُظْطان» ، ينزل حتى الكعبين ، وأردانه الطويلة تمتد إلى ما بعد أطراف الأصابع بيضع بوصات وتشق من فوق الرسغ بقليل أو من وسط الذراع بحيث تكشف اليد ؛ إلا أنه يمكن سترها بالسكم عند الضرورة لأن من العادة أن تغطي اليدين في حفرة شخص عظيم . ثم يلف حول هذا الثوب شال ملون^(٤) أو قطعة طويلة من الحرير الموصلي



شكل ١٤ — (زى الطبقتين الوسطى والعليا)

الأبيض المنقوش . وأخيراً ، الحلة الخارجية العادية وهي عبارة عن كساء طويل من الجوخ ، من أي لون كان ، يسميه الأتراك «جُبة» ويسميه المصريون «جبه» .

(١) ولقد نهى الرسول (صلعم) الرجال دون النساء عن لبس الحرير إلا أن هذا المنع لا يراعيه إلا القليل جداً من المسلمين المحدثين ، ما عدا الوهابيين .
 (٢) ويكون نسيج الظهر ، في الصديري والملابس الداخلية جميعاً ، من نسيج الصدر .
 (٣) وقاما يكون التفويف واحد الشكل فقد يكون مصوراً أو مزهراً .
 (٤) حزام .

ولا تتمدى أكامه المعصم تماماً^(١). وبعض الأشخاص يلبسون « البنش » ، وهو



قباء من الجوخ ، أكامه كأكام القفطان طولا ولكنه أوسع منها^(٢) ، ويرتدونه على الأخص في الحفلات فوق الحجة ، ولكن الكثير منهم يستبدلونه بهما ؛ وهناك رداء آخر يسمى « فرجية » يشبه البنش تقريبا ، وأكامه طويلة غير مشقوقة ، ويلبسها غالباً رجال العلم . ويُقوش شتاء بنوع من المآزر الصوفية السوداء يسمى عباءة « عباية » ، وقد تشد فوق الرأس^(٣) ، وفي الشتاء أيضاً يتدثر كثير من الناس بشال من الحرير الموصلي ، أو غيره (مثل الذي يستعملونه للعامة) يلف حول الرأس والكتفين .

شكل ١٥ — (زى الطبقة الدنيا)

أما غطاء الرأس ، فيتكون من قلنسوة^(٤) قطنية صغيرة مطابقة للرأس تماماً وتغير كثيراً . ثم يوضع « الطربوش » ، وهو غطاء من الجوخ الأحمر ، محكم على الرأس أيضاً ، يتدل من قته شرابة من الحرير الأزرق القاتم ؛ وأخيراً يلف على الطربوش قطعة طويلة من الحرير الموصلي الأبيض المصور ، أو شال كشميري ، وهذه هي العمامة . وقما يستعمل الشال الكشميري إلا عند ما يبرد الجو . وقد يلبس البعض طربوشين أو ثلاثة ، الواحد فوق الآخر . أما عمامة الشريف ، وهو الموصول

(١) أنظر الصورة الأمامية في شكل رقم ١٤ .

(٢) أنظر الصورة اليسرى من نفس الشكل .

(٣) أنظر الشكل رقم ١٥ وقوامه عباءة مخططة

(٤) تسمى « طاقية » أو « عرقية » .

نسبه بنسب الرسول ، فخصراء ، وله وحده هذا الامتياز ؛ كما أنه ليس من المعتاد أن يلبس أحد غير الأشراف ثياباً خضراء ناضرة .

أما الجوارب فلا يستعملها إلا بعض الناس شتاء ، ويتخذونها من الصوف أو القطن . وأما الحذاء^(١) فهو من الجلد المراكشي الأحمر السميك ، وطره الأمامي مدبب معقوف إلى أعلى . وينتعل البعض حذاء داخلياً^(٢) من الجلد المراكشي الأصفر الناعم ذا نعل من الجلد نفسه ، فيخلع الحذاء الخارجي وحده عند الدوس على البسط . ولهذا السبب يلبس الحذاء الخارجي مكعوباً .

ويحمل المصريون في خنصر اليد اليمنى خاتماً^(٣) من المعقيق أو غيره ينقش عليه اسم حامله ويصاغ عادة من الفضة . ويرفق الاسم غالباً بعبارة خادمه (أى خادم الله أو عبده) أو بعبارات أخرى تعبر عن إيمان الشخص بالله الخ . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستقبح استعمال الذهب ، ولذلك قلما يلبس المسلمون خواتم من ذهب . ولكن النساء يتحلين بمختلف الحلى (من خواتم وأساور الخ) من هذا المذهب الثمين . ويستعمل الخاتم لحتم الرسائل وغيرها من المكاتبات ، ويعتبر أصديق من إمضاء اليد^(٤) . وطريقة ذلك أن يلطخ الخاتم بقليل من الحبر بأصبع من الأصابع ، ثم يضغط على الورقة بعد أن يأخذ الشخص من ريقه بأصبع أخرى ويبلل المكان المراد ختمه . وكل فرد تقريباً يحمل خاتماً متى كان يستطيع ذلك ولو خادماً . ويضع محترفو الكتابة والعلماء وغيرهم في منطقتهم دواة « دواة » من الفضة أو النحاس الأصفر أو النحاس الأحمر ، وهى عبارة عن محبرة أو صندوق به أوعية للحبر والأقلام^(٥) ، ويحمل البعض ، بدلا منها أو علاوة عليها ، مطواة أو خنجر .

(١) مراكوب .

(٢) ويسمى (مز) أو أكثر صحة (مزد) من التركية (مست) .

(٣) وقد يوضع فى أى أصبع من أصابع اليد اليسرى .

(٤) ولذلك يعتبر إعطاء الخاتم لأى شخص آخر دليلاً على الثقة .

(٥) وتلك عادة قديمة . أنظر حزقيال ، الإصحاح التاسع الآية الثانية ونصها : وإذا

بسة رجال مقبلين عن طريق الباب الأعلى الذى هو من جهة الشمال . وفى وسطهم رجل لابس الكتان وعلى جانبه دواة كاتب .

ويحمل المصريون شبكهم معهم أينما حلوا (إلا في المساجد) ، أو يحملها لهم خدمهم ، وإن كانت المادة لم تجر بالتدخين في الشوارع . وهم يضعون كيس التبغ في صدر القفطان ، الذي يهدل فوق الحزام ، كما يضعون فيه أيضاً مناديلهم المطرزة بالحرير والمرصعة بالذهب ، بعد أن تطوى باعتناء .

وقد يرغب الكثير من أفراد الطبقة الوسطى أن ينفوا عنهم فكرة الإثراء ، فيرتدوا فوق ملابسهم مثزراً قطنياً أسود اللون لا يتميزه عن مآزر العامة ميزة .

أما ملابس الطبقة السفلى فهي جرد بسيطة : يلبسون سروالاً فوقه قميص طويل فضفاض ، أو ثوباً أزرق طويل الأكمام من الكتان أو القطن ، أو من الصوف الأسمر ، (ويسمى الأول « عرياً » والآخر « زعبوطاً ») ، وهو يشق ابتداء من الرقبة إلى الوسط تقريباً (١) . ويتمنطق البعض بمنطقة بيضاء أو حمراء من الصوف ؛ والخدم يتحزمون بحزام (٢) عريض أحمر اللون من الصوف أو من الجلد وبه عادة كيس لحفظ النقود . وعمامة العامة شال من الصوف ، أبيض أو أحمر أو أصفر ، أو قطعة من غليظ القطن أو الحرير الموصلى ، تلف حول طربوش تحته لبدة بيضاء أو سمراء . وبعض الفقراء لا يملكون غير اللبدة ، فلا عمامة ولا سراويل ولا نعل ؛ إنما يرتدون الجلباب الأزرق أو الأسمر أو أسماًلاً بالية . وعلى النقيض من ذلك ، يرتدى الكثيرون صدرية تحت الجلباب الأزرق ؛ ويلبس بعضهم ، وعلى الأخص خدم المعظماء ، جلباباً أبيض وصدرية وقطاناً أوجبة ، أو الإثنين معاً ، ثم « العرى » الأزرق أخيراً . وتشد أكام « العرى » الواسعة إلى أعلى بحبل (٣) يمر حول كل من الكتفين ويشبك خلف الظهر ويعقد . وقد تعود الخدم (والسواس خاصة) هذه الطريقة ، ويستعملون لها حبالاً من الحرير الأحمر أو الأزرق القاتم . ويرتدى الكثير من أفراد الشعب في الشتاء عباءة كالتي وصفناها من قبل ، ولكنها أغلظ منها ، وبدلاً من اللون الأسود تكون أحياناً ذات خطوط عريضة سمراء وبيضاء أو زرقاء . وهناك نوع آخر من الأكسية كثير الاستعمال

(١) ويلبس الزعبوط في الشتاء غالباً .

(٢) يسمى « كمر »

(٣) يسمى « شمار »

يتخذ من الصوف الأسود أو الأزرق القاتم ، وهو أوسع من العباءة ويسمى « دقية » (١) . أما النعال فهي من الجلد المراكشي الأحمر أو الأصفر أو من جلد الخراف . ونعال السواس تكون من الجلد المراكشي الأحمر القاتم ، ولكن أحذية البوابين والسقائين تكون عادة من الجلد الأصفر .

وتمتاز عمامة المسلم باللون الأبيض عن عمامة القبطى واليهودى وغيرهما من رعايا الباب العالى ، فهؤلاء يعممون بالأسود أو الأزرق أو الرمادى أو الأسمر الخفيف ، ويلبسون عامة الثياب القاتمة . ويرجع استخدام الألوان للتمييز بين المذاهب والعشائر والأسر المالكة إلى عهد بعيد . فإن الإمام إبراهيم بن محمد لما قتل الخليفة الأموى مروان اتخذ بنو العباس الثياب السود لباساً لهم حداً عليه ، ومن هنا أصبح سواد اللباس والعمامة الزى المميز للعباسيين وولائهم . حتى أنهم كانوا إذا غضبوا على عامل حكموا عليه بلبس الأبيض . أما اللون الأبيض فقد اختاره مدعى النبوة (الملقب) ليميز حزبه عن العباسيين ؛ كما اختاره فاطميو القاهرة لعدائهم لبني العباس . وكان سلطان مصر الملك الأشرف شعبان ، الذى حكم من سنة ٧٦٤ إلى ٧٧٨ هـ جرية — ١٣٦٢ إلى ١٣٧٦ ميلادية ، أول من أمر بتمييز الأشراف بالعمامة الخضراء . ومن الدراويش الرفاعيين من يلبسون عمامة من الصوف الأسود أو من الموصلى الزيتونى القاتم . أما عمائم الأقباط واليهود وغيرهم ، فهي عادة من الموصلى أو الكتان الأسود أو الأزرق . والعمائم الغالبة الآن فى مصر لا تختلف أشكالها كثيراً . فعمائم الخدم معقدة ذات تلافيف حلزونية مدرجة ، وكذلك عمائم كبار التجار والمتوسطين منهم وغيرهم من سكان العاصمة والمدن الكبيرة ، إلا أنها أقل حجماً منها . والعمامة التركىة فى مصر أكثر أناقة ؛ والعمامة السورية تمازج بينهما . وكان العلماء ورجال الدين والأدب يلبسون العمائم الواسعة الكبيرة ، ويسمونها « مقلة » ، كما ترى فى شكل ١٦ . والعمامة موضع الاحترام والإجلال ؛ ولها فى منزل المومنين كرسى (٢) توضع عليه ليلاً ولا يستعمل لغير هذا الغرض .

(١) وهناك نوع من الثياب الزرقاء أو البيضاء يسمى « ملية » يلبسها بعض الرجال وأغلب النساء ؛ وسنصفها عند الكلام على ملابس النساء ويتشع بها الرجال فوق الكتفين أو حول البدن .

(٢) يسمى « كرسى العمامة » .

وكثيراً ما يعد هذا الكرسي في جهاز العروس ؛ كما كان من المعتاد أيضاً أن يكون للمرأة كرسي آخر لغطاء رأسها . وتحضرني حكاية قصها على صديق أسوقها إليك مثلاً لمقدار الاحترام الذي يكنه الشعب للهمة . فقد روى أن عالماً سقط من فوق حماره في شارع من شوارع المدينة . فقد حرجت مقلته بعيداً عنه . فتجمع المارون وأخذوا يحجرون وراء الهمة صائحين : ارفعوا تاج الإسلام ! ارفعوا تاج الإسلام ! بينما كان العالم المسكين طريح الأرض يناديهم منقطاً : « أنهضوا أولاً شيخ الإسلام » .



شكل ١٦
(عمامة العلماء « المقلّة »)

ننتقل الآن إلى وصف هيئة النساء العامة وملاحظهن . فالمصريات منذ بلوغهن الرابعة عشرة حتى العشرين ، هن من حيث الجسم مثال الجمال ؛ ومحياهن يسر العين ويجذب النفس . ولكن سرعان ما يزوى هذا الجمال بعد أن يستحير الشباب ويستكمل الجسم نموه . وطبيعة الجو تؤثر على طبيعة الصدر قبل الآوان ، فتتخفي هيئته وتستوى أجزؤه ؛ بينما يحفظ الوجه بكل فتنته . وبالرغم من أن تراخي الزمن لا يذهب رواءهن ، فإن كثيرات منهن متى بلغن الأربعين يصبحن ، ولو كن جميلات في شبابهن ، قبيحات الصورة كرهات النظر . وأتوثة المصريات يبدأ نموه عند التاسعة أو العاشرة تقريباً ؛ فتبلغ عنفوانها في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة . ويلاحظ أن سحن النساء كسحن الرجال ، إلا أن الشمس لا احتجابهن لا تسفعهن ، ويمتزن بمحياهن البيضي الجميل ، وقد يعرض في بعضهن . أما العيون فدعاء ، نجلاء ، لوزية الشكل ، وطفاء الأهداب ، تفيض وداعة تملك النفوس ، وسجراً يسبي القلوب . ولم أر فيما رأيت عيوناً أجمل من العيون المصرية ؛ ويزيدها جاذبية احتجاب الملامح بالنقاب . وتأثيرها في النفوس يزيده نخل الجفون ، كما ترى في شكل ١٧ . والسكحل سناج اللبان المطرى



شكل ١٧
(عين مكحلة)

المحروق . ويصنع أيضاً من سناج قشر اللوز . وهذان النوعان ، مع الاعتقاد بفائدتهما للعين ، يستعملان للزينة فقط . إلا أن هناك أنواعاً أخرى تستعمل لخواصها الطبية الحقيقية ، وأخصها مسحوق الرصاص^(١) ، المضاف إليه العنزروت وعرق الذهب وسكر

(١) « كحل الحجر » .

النبات ومسحوق الذهب البندق ، وأحياناً مسحوق اللآلئ . ويقال إن الأثمد



شكل ١٨ — (مكحل ومراود)

كان يستعمل قبلاً لتكحيل أصول
الأهداب . وتكحل العين بمـرود صغير
من الخشب أو العاج أو الفضة ، دقيق الطرف
كإبر الحدة ، يبل أحياناً بماء الورد ثم يغمس
في المسحوق ويمرر بين الجفنين . والوعاء
الزجاجي الذي يوضع فيه الكحل يسمى
« مكحلة » ، شكل ١٨ . وعادة

التكحيل كانت شائعة بين الجنسين في مصر القديمة ؛ وهي ظاهرة في نقوش المعابد
والمقابر المصرية ورسومها . وكثيراً ما اكتشف في المقابر القديمة مكاحل فيها



شكل ١٩

(مكحلة ومروود قديم)

آثار الكحل ومراودها ، (شكل ١٩) . ولكن طريقة
التكحيل القديمة تختلف بعض الاختلاف عن الطريقة
الحديثة كما ترى في شكل ٣٠ . وقد رأيت في ضواحي
القاهرة نساء يكحلن أعينهن على الطريقة القديمة ، ولم
أصادف ذلك إلا مرتين .

وهذه الطريقة نفسها كانت شائعة في عقائل الإغريق

ونساء اليهود في قديم الزمن^(١) . وعين المصرية على الجملة أجمل ما في وجهها .



شكل ٢٠

(الطريقة القديمة في التكحيل)

ويلاحظ أن جمال الملامح في المصريات أقل من جمال الهيئة ؛
ولكن بصرته بوجوه يميزها نوع من الحسن ينم عن
حلاوة العذوبة ويمرر عن فتنة الأنوثة ، فيأخذ بمجامع القلب
إلى حد يفكر الإنسان وقتاً ما أن الله لم يخلق للمصريات

مثيلات في أي بلد آخر . والقليل من النساء يسفرن أمام الغريب مدفوعات إلى
ذلك بالرغبة في إظهار جمالهن ، وإن ادعين غير ذلك . ومن ثم لا يستطيع الأجنبي

(١) أنظر سفر الملوك الثاني الإصحاح التاسع الآية الثلاثون ونصها : « ولما سمعت
إيزابل كحلت بالأثمد عينها وزينت رأسها » ، وحزقيال ٢٣/٤٠ . وكثيراً ما يستعمل الملقاط
لتزجيج الحاجبين وزيادة تقوسهما .

أن يبنى رأياً صحيحاً من هؤلاء النسوة . ولكن مثل هذه العميون لا يمكن أن تخلق إلا في الوجه الحسن ولو كانت تقاطيعه متوسطة الجمال . أما الأنف فستقيم القفا ؛ والشفاة أغلظ من شفاة الرجال ، دون أن تصل إلى غلظة شفاة الزوج ؛ غير أن الفم وغيره من قسماة الوجه تقرب من الجنس الحبشى . وأما الشعر فهو من ذلك الأسود الحالك المصقول ، الذى يناسب السحن كلها غير السحنة البيضاء ، وقد يكون غليظاً بمض الشيء ، ذا حلق من دون تجعيد .

ويخضب نساء الطبقات الراقية والوسطى والكثير من الفقيرات أيديهن وأقدامهن بمجينة أوراق الحناء ، فتكتسب أطرافهن لوناً أحمر مشرباً بالصفرة ، أو برتقالياً قائماً . والكثيرات منهن لا يصبغن غير أطراف الأصابع ، وبعضهن لا يتعدين عقود الأنامل ، والبعض الآخر يرسمن خطاً على صف المقود التالية ؛ ويوجد غير ذلك من الأشكال الغريبة الأخرى ، إلا أن الطريقة الغالبة هى تخضيب أطراف الأيدي والأرجل ، حتى المفاصل الأولى ، وكذلك



شكل ٢١
(تخضيب الأيدي والأقدام بالحنة)

راحة الكف وبطن القدم^(١) ؛ وأحياناً يضاف خط بجانب المفاصل الوسطى وآخر فوق أصابع القدم بقليل ، كما ترى فى شكل ٢١ . والخضاب يكون بسحق أوراق الحناء وعجنها بالماء ، ثم تبسط على راحة الكف وأجزاء اليد الأخرى ، ثم تثنى الأصابع وتقبض اليد ، وتربط برباط من الكتان لئلا بطولها ؛ وكذلك القدم .

ولا يفصل الخضاب إلا بعد أيام ، فيجدد كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وعادة الخضاب ليست قاصرة على مصر ، بل تمتد لها إلى بلدان الشرق التى يمونها شاطئ النيل بالحناء . والحناء على الأظافر تكون أكثر لمعاناً وأشد صفاء وأطول بقاء . كما أن تخضيبها أو تخضيب الأصابع يعتبر بحق زينة للنساء ، إذ يحسن لون البشرة

(١) ويقال إن التخضيب له تأثير لطيف على البشرة ، وعلى الأخص يق الجلد شدة الرخوة والحساسية .

ويكسبه رقة . بيد أن بعض النساء يعمدن إلى طرق لا يستسيغها الذوق الأوربي ، فيُـمـقـن الحناء بمـعـجـون من الجير والسفاج وزيت بذرا الكتان ، فيتحول لون الحناء الجميل إلى لون أسود أو زيتوني مشرب بالسواد . وكثيراً ما يلاحظ ميل النساء إلى هذه الطريقة ، فَيُـرَيِّن مـخـضـبـات الأظافر أو الأصابع بهذا اللون القاتم ، إلا أنهن يتركن العقود الوسطى بمحمة الحناء ؛ والكف على النقيض من ذلك يتوسطه خط عريض أسود ؛ وبعضهن يتبعن أبسط الطرق ، فيسودن الأنامل وراحة الكف كلها .

هناك عادة أخرى ، لا تختلف كثيراً عن عادة الخضاب ، شائعة بين نساء



شكل ٢٢

- ١ - (فتاة موشومة)
- ٢ - (نماذج من وشم الذقن)
- ٣ - (وشم الأيدي والأقدام)

بالنيلج . وتوشم الأعضاء عادة في سن الخامسة أو السادسة ، وتقوم بعمله نساء

الدهماء في مدن الريف وقراه ، وفي العاصمة بدرجة أقل : تلك هي عادة الوشم « الدق » ، يكون في الوجه وغيره ، أو على الأقل في أعلى الذقن وظهر اليد اليمنى ، واليسرى أحياناً ، وعلى الذراع اليمنى أو الذراعين معاً ، وفي القدم ، ووسط الصدر، والجهة . وأغلب علامات الذقن والكفين شيوعاً يدينها الشكل رقم ٢٢ . وطريقة الوشم أن يوخز الجلد بمجموعة من الإبر ، تكون سبعة في العادة ، على الشكل المراد رسمه ، ثم يدلك الموضع بمزيج من سفاج الخشب أو الزيت ومن لبن امرأة . ثم بعد أسبوع ، قبل أن يبرأ الجرح ، يوضع عليه معجون من أوراق السلق الطازجة أو البرسيم ، فيكسبه لوناً أزرق أو مشرباً بالخضرة ، أو بدلا من ذلك يدعك مكان الإبر

النور . ويلاحظ أن أغلب نساء الصعيد الأقصى ، وهن يمتزبن بلونهن القاتم ، يشمن الشفاه ليكسبن أسفانهن بريقاً . إلا أن ذلك يشرب لونهن القاتم زرقة لا يقبلها الذوق الأوربي^(١) .

ومن يميزات المصرية الواجب ذكرها قوامها المشقوق ومشيتها الجميلة . وهذه الصفة تشاهد خصوصاً في الفلاحة . ولا شك أن سبب ذلك ما تحمله على رأسها من جرار الماء وغيرها من الأثقال .



ش-كل ٢٣ - (ملابس المنزل)

أما ملابس نساء الطبقتين الوسطى والعليا فتتمتاز بجمال نسيجها وأناقة زيتها (شكل ٢٣) . وقيص المرأة ، كقميص الرجل ، فضفاض ، ولكنّه قصير فلا يكاد يصل إلى الركبتين . وهو أيضاً من النسيج نفسه ، أو من الكريب ، أسود أو غير أسود . أما السراويل ، وتسمى « شفتيان » ، فهي واسعة ، وتكون من الحرير أو القطن المفوف أو المطبوع أو المطرز أو من الأبيض الواحد الشكل . وتشد بشكّة حول الوركين تحت القميص^(٢) ، أما أطرافها السفلى فتشد إلى أعلى وتربط تحت الركبتين تماماً ، إلا أن طولها يهبط بها حتى

(١) أما المادة المستعملة عادة لتف الشعر فهي نوع من الصمغ المسمى لبان شامى ، يوضع على الجلد ذاتياً ، إلا أن هذه العملية ليست على حد قولهم ضرورية ؛ لأنه إذا وضع كما يؤكّدون دم خفّاش على بشرة الطفلة الحديثة الولادة لا ينبت فيها شعر .

وتسمى المرأة التي عملت لها هذه العملية « موطوطة » من الوطواط . ويعمد بعض النساء إلى تف الشعر بعد ذلك الموضع برماد الفحم فقط .

(٢) أما التركيات ، كما قيل لى ، فهن يربطن سراويلهن فوق القميص .

القدمين وغالباً إلى الأرض . ويلبس فوق القميص والسنتيان سترة طويلة ، تسمى « يلك » ، من نسيج السنتيان ، تشبه الففطان ، ولكنها أكثر التصاقاً بالجسم والذراعين ، وأكمامها أطول . واليلك له أزرار تشده إلى الجسم ، من الصدر إلى ما تحت الحزام ، حتى لا يتهدل ، كما هو الحال في الففطان . وهو مشقوق الجانبين من أعلى الورك إلى أسفل ، ويشق عادة بحيث يكشف عن نصف الصدر لولا التميمص . ولذلك كان الكثير من النساء يرتدين قميصاً واسع الصدر . ولا بد أن يكون اليلك ، طبقاً لأحسن الأزياء ، ضافياً حتى الأرض أو يكون له ذيل قصير . وقد يستبدل به صدرية قصيرة ، تسمى « عنترى » ، تصل إلى ما تحت الوسط بقليل ، وتشبه اليلك المقطوع الأسفل . ويمنطق الوسط بشال مربع ، أو بمنديل مطرز ، يطوى منحرفاً ويربط في استرخاء ويتدلى طرفاه خلف الظهر . وقد يطوى طبقاً للزى التركي ، مثل حزام الرجال ، وإنما يكون أكثر استرخاء . وتوضع فوق اليلك جبة من الجوخ أو الخمل أو الحرير مطرزة بالذهب أو بالحرير الملون . وهي تختلف عن جبة الرجال بعدم سمعتها ، وبالأخص في مقدمها ، وتكون بطول اليلك . وكثيراً ما يستعمل بدلها سترة ، تسمى « سلطة » ، من الجوخ أو الخمل مطرزة على غرار الجبة . ويتكون غطاء الرأس من طاقية وطربوش ، ثم منديل مربع ، يسمى « فارودية » ، من الموصل ، الموشى أو المطبوع ، أو من الكريب ، يلف حولها بقوة ، ويسمى هذا « ربطة » . وكانت هذه المناديل تستعمل منذ قريب ، ولا زالت تستعمل أحياناً ، لربط عمامات النساء ، التي تكون مرتفعة مستوية بخلاف عمام الرجال . وهناك نوع من التيجان ، يسمى « قرصاً » ، وبعض الحلى الأخرى توضع على غطاء الرأس ؛ وقد ألحقت بهذا الكتاب فصلاً خاصاً بحلى النساء وصفها وصورها . وهناك أيضاً « الطارحة » ، وهي قطعة طويلة من الموصل الأبيض مبنوكة الطرفين بالحرير الملون والذهب ، أو من الكريب الملون المرصع بأسلاك الذهب وصفائح ذهبية ، كفلوس السمك (ترتر) ، تطرح فوق الرأس وتمتدلى على الظهر حتى تكاد تدانى الأرض أحياناً .

أما الشعر ، فيضفر ضفائر ، من إحدى عشرة صغيرة إلى خمس وعشرين عادة ، على أن يكون العدد فردياً ؛ ويضاف إلى كل جديلة ثلاثة خيوط من الحرير

الأسود ، يعلق بها قطع ذهبية صغيرة تسمى « صفا » ، وهى موصوفة فى ملحق



(شكل ٢٤)

سيدة متحلية بالقرص والصفاء

للكتاب . ويقص الشعر فوق الجبهة ،

وتتدلى منه على الصدغين خصلتان

غزيرتان^(١) حلقاً أو جدائل^(٢) . والقليل

من سيدات مصر يلبسن الجوارب ، غير

أن أكثرهن ينتملن المز (أى الخداء

الداخلى) وهو من الجلد المراكشى

الأصفر أو الأحمر المطرز بالذهب أحياناً .

وينتملن بابوجا من الجلد المراكشى

الأصفر ، مرتفع الطرف الأمامى مدببه ،

عندما يمشين على البساط والحصر ،

أو يستعملن قبقاباً^(٣) يعالو إلى تسع بوصات

ولا يقل عن أربع ، ويزين بالصدف أو

بالفضة ... الخ ؛ والقبقاب يستعمله الرجال

والنساء فى الحمام دائماً ، ولا يستعمله

النساء فى المنزل ؛ إلا أن بعضهن ينتملنه حتى لا يسحبهن ذيل الثوب على الأرض ،

وبعضهن يتخذنه ليمدون طويلات

تلك هى ملابس السيدات داخل المنزل ؛ أما ثياب الخروج ، فتسمى

« تزييرة » . فالسيدات ، كلما يخرجن من المنزل ، يتدثرن ، علاوة على الملابس

السابق وصفها ، بدثار كبير فضفاض ضاف (يسمى « توب » أو « سبلة ») يكاد

عرض كميّه يعادل طوله^(٤) ، ويكون من الحرير القرنفل أو الوردى أو البنفسجى .

ثم يضمن بعد ذلك « البرقع » ، أى غطاء الوجه ، وهو عبارة عن قطعة طويلة

(١) تسمى الواحدة منها « مقصوصا »

(٢) ويقسم النساء بمقصوصهن — كما يقسم الرجال بلجيتهم — فيمسكنه باليد صائحات :

« حياة مقصوصى » .

(٣) ويسمى عادة « قبقاب » بالضم

(٤) مثل توب نساء الطبقة الدنيا كما فى الشكل رقم ٢٦ .

من الموصلى الأبيض تحجب الوجه كله ، ما عدا العينين ، وتسقط حتى القدمين .
ويشد البرقع إلى الرأس بشريط ضيق يمر على الجبهة ، ويخاط مع طرفي النقاب
الأعلىين بمصابة تلف حول الرأس . ثم يرتدين « الحبرة » . وحبرة السيدة المتزوجة
تتكون من نسجين من الحرير الأسود اللامع ، ويوجد في أعلى الحبرة ، من الداخل
على بعد ست بوصات من طرفها ، رباط ضيق من الحرير الأسود يربط حول الرأس .



وبين الشكل رقم ٢٥ طريقة
لبسها . إلا أن البعض يقلدن تركيبات
مصر ، فيضممن مقدم الحبرة ، بحيث
تخفى الملابس كلها ما عدا جزءاً
من النقاب يملو اليدين . أما غير
المتزوجات فيرتدين حبرة من الحرير
الأبيض أو شالا . وبعض نساء
الطبقات الوسطى لا يستطعن اقتناء
الحبرة ، فيلبسن عوضاً عنها « إزاراً »
وهو قطعة بيضاء من نسيج القطن
على شكل الحبرة ويلبس مثلها .
أما الحذاء ، فهو « خف » من
الجلد الأصفر يدخل في بابوج .

شكل ٢٥ - (زى الخروج)

وثياب الخروج متعبة مربة عند المشى . وهى وإن كانت محتملة لدى سيدات
الطبقة الراقية ، اللاتى قلما يشاهدن راجلات ، فقد يرتديها غيرهن ممن لا يملكن
أجرة الركوب . وإعداد هذه الملابس لإخفاء زينة المرأة وكل ما فيها من جاذبية
أو ملاحاة لا عيب فيه ، إذ أن الثوب ذاته يموزه الكثير من الأناقة . إلا أن
هناك اعتباراً يقتضينا أن نلاحظ عدم ملائمة هذه الثياب لغرضها الأصلي ، وهو
أن العيون ، التى تكاد تكون دائماً جميلة ، يزيد بها جمالاً حجب تقاطيع الوجه ، التى
يندر أن يبلغ جمالها جمال العين ؛ ثم إنها تجعل الأجنبي يتصور الوجه الجذاب

وجهاً معيياً دميلاً لاختفائه وراء القناع^(١) . ويرجع استعمال النقاب إلى قديم الزمن ، غير أن الظاهر من نقوش الفراعنة ورسومهم أن المصريات في ذلك العهد كن سافرات ، ولكنهن في الوقت الحاضر ، حتى الخادمت منهن ، يتخذن من فضل طرحتهن قناعاً يخفين وراءه الوجه ، إلا عيناً واحدة ، كلما وجدن في حضرة رجال العائلة التي يخدمنها .

وملابس أغلب المוסرات من الطبقة الدنيا تتألف من سروال (كشنقيان



شكل ٢٦ - (نساء الطبقات الدنيا)

السيدات الراقيات ، إلا أنه من أبيض القطن أو الكتان الواحد (الشكل) ؛ وقميص أزرق من الكتان أو القطن ، لا يكون بسعة قميص الرجال ، يصل إلى القدمين ؛ وبرقع أسود من غليظ الكرب^(٢) ؛ وطريحة زرقاء قائمة من الموصلي أو الكتان . وبعضهن يلبسن فوق القميص الطويل أو بدلاً منه ثوباً من الكتان كثوب السيدات الراقيات^(٣) (شكل ٢٦) . وبعضهن يلبسن قميصاً قصيراً تحت القميص الطويل ويضفن إليه أحياناً صديرياً أو عترياً . وتشمر أكم

(١) لاشك أن أفضل وقاية من الأذى عدم التعرض له وذلك بسبب من أسباب انزواء المرأة المسلمة وانتقائها عند الخروج وهاتان المادتان لا تفرضهما غير الرجل فحسب بل والخوف أن تضر بها نظرة حاسد .

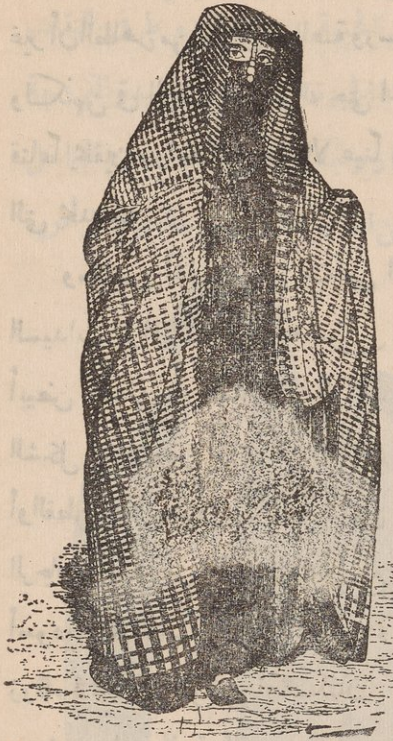
وكان الرجل الفريد الجمال في جزيرة العرب قديماً يتقنع تحريزاً أيضاً ، وعلى الأخص عند ما كان يتصد الأسواق وغيرها . أنظر كتاب « آثار وثنية في المدينة الإسلامية » . وسترمارك ص ٣٧٠ ، "Survivances Païennes Dans La Civilisation Mahométane" ،

Westermarck, Payot, Paris 1935 . (المترجم)

(٢) أما إذا كن من سلالة النبي فيلبسن برقعاً أخضر .

(٣) أنظر الصورة اليسرى من الشكل ٢٦ .

الثوب فوق الرأس حتى لا تضايق الشخص أو لتحل محل الطرحة^(١). وقد يتدثر



شكل ٢٧ - (الملاية)



شكل ٢٨ - (براقع سود مخلاة)

بعضهن فوق الرأس حتى لا تضايق الشخص أو لتحل محل الطرحة^(١). وقد يتدثر بعضهم بعمطف ذي مربعات شطرنجية يشبه الحبرة ويلبس مثلها أو مثل الطرحة^(٢)، ويتكون من قطعة من القطن المنسوج أشكالاً مربعة، زرقاء وبيضاء، أو خطوطاً متشابكة تصبغ

أطرافه بصبغ أحمر، ويسمى «ملاية»^(٣)

(شكل رقم ٢٧). وزين أعلى البرقع

بلا لى زائفة، وقطع صغيرة من النقود

الذهبية، وبعض الحلى الذهبية الصغيرة

المسماة «برق»، وأحياناً بخرز من المرجان

تحتها قطعة من النقود الذهبية وبعض

النقود الفضية، وغالباً بحبات من

النحاس أو الفضة، تسمى «عيون»،

تعلق في الأطراف (شكل رقم ٢٨).

وتلف الرأس بمنديل أسود، يسمى

«عصبة»، بحاشية حمراء وصفراء،

يطوى منحرفاً ويعد عقدة واحدة من

الخلف (شكل رقم ٢٩). وقد يلبس

الطربوش والفارودية بدلاً من العصبة.

وأحسن الأحذية التي ينتعلها نساء الرعاع

تكون من الجلد الأحمر المراكشي المنثنى

الطرف، ولكن يغلب أن يكون طرفها

(١) أنظر الصورة اليمنى في الشكل رقم ٢٦

(٢) وهناك نوع راق من الملايات يكون من الحرير المختلف الألوان إلا أنه نادر الاستعمال والقطعتان اللتان تؤلف منهما الملاية يخاطان معاً كقطعتي الحبرة

(٣) عوضاً عن «ملاية»

مستديراً . والبرقع والنعال شائعا الاستعمال في القاهرة والوجه البحرى . أما في الصعيد فقلما يستعملان . وعند الضرورة يستبدل بالبرقع إسدال الطرحة على الوجه . والملاحظ أن نساء الطبقات السفلى ، حتى في العاصمة ،



شكل ٢٩ - (العصبة)

لا ينتقبن . والثياب الشائعة في معظم القطر المصرى هى القميص الأزرق ، أى الثوب ، والطرحة . أما في أقاليم الصعيد الأقصى ، وعلى الأخص ، ما فوق مدينة إخم ، فأغلب نساءها يتغطين بقطعة من الصوف الأسمر القاتم ، تسمى « هلالية » ، تلف حول الجسم وتضم أطرافها فوق الكتفين^(١) (شكل رقم ٣٠) ، وتستعمل قطعة



شكل ٣٠

(قروية من الصعيد الأقصى من مدينة طيبة)

مثله كطرحة . وهذا الثوب القاتم اللون ، بالرغم من جماله ، يشوه هيئتهن كالوشم الأزرق الذى يرسمه على شفاههن . والكثير من نساء الطبقة الدنيا يتحلين بحلى زائفة مختلفة ، من أقراط وعقود وأساور ، ومن خزام الأنف أحيانا ، وبعضها موصوفة ومصورة في ملحق الكتاب .

ويرى المصريون أن واجب تغطية الرأس وما خلفه أولى من تغطية الوجه ، وحجب الوجه أولى من حجب أكثر أجزاء الجسم . وكثيراً ما رأيت في هذا البلد نساء لا تكاد تستترن أسماهن الحفيرة ، وأخريات في زهرة الشباب ، أو في متوسط العمر ، لا يحملن على أجسادهن غير خرقه ضيقة تشدد حول الوركين .

(١) لا بد أن الفارىء قد لاحظ أن هذا الثوب القاتم حالة من حلل الاغريقيات والرومانيات في قديم الزمن

الفصل الثاني

الطفولة وتربية الأطفال

يستمرشد المسلمون في تربية أطفالهم والاعتناء بهم بأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم وتعاليم الأئمة . ومن أول الواجبات عند ولادة الطفل الأذان في أذنه اليمنى ، ولا بد أن يكون المؤذن ذكراً . ويقرأ بعضهم الإقامة ، وهي تشبه الأذان تقريباً ، في الأذن اليسرى . والغرض من ذلك حفظ الطفل من الجن . وقد يقلى للغرض نفسه عبارة : « باسم الرسول وابن عمه علي » .

وكانت استشارة المنجمين ، قبل تسمية الطفل واتباع ما يخترأونه له ، عادة شائعة في مصر والبلاد الإسلامية الأخرى : وقبلما يتبع أحد الآن تلك العادة القديمة ، فيختار الأب لابنه اسماً من غير احتفال ولا تكلف ؛ أما تسمية البنات فتكون عادة باختيار الأم . وكثيراً ما يسمى الأولاد بأسماء الرسول صلى الله عليه وسلم (محمد ، أحمد أو مصطفى) أو أهل البيت (علي ، حسن ، حسين ، الخ ...) أو أصحابه الأفاضل (عمر ، عثمان ، عمرو الخ ...) أو الرسل والأنبياء ، مثل : (إبراهيم ، إسحق ، إسماعيل ، يعقوب ، موسى ، داود ، سليمان الخ ...) أو يسمون عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد القادر وما شابه ذلك . أما البنات فكثيراً ما يسمين بأسماء نساء الرسول أو ابنته الحبيبة أو غيرها من نساء عائلته مثل خديجة ، عائشة ، آمنة ، فاطمة ، زينب ، أو يسمين بأسماء تعني محبوبة ، مبروكة ، نفيسة . أو بأسماء الزهور أو أى معنى لطيف آخر (١) .

(١) جرى ذوق العصر في القاهرة على تغيير الأسماء الخمسة الأولى والاسم الأخير إلى خدوجه ، عيوشه ، أمونة ، فطومه ، زنوبه ، نفوسه . وهناك أسماء أخرى تنطق بهذه الطريقة نفسها وهي تطلق هنا على سبيل الفضل والجاه (ويخطئ الكتاب الأوروبيون في كتابة اسم الرحالة الشهير ابن بطوطة بالشديد Ibn-Batootah فيكتبونه ابن بطوطة بالخفيف Ibn-Batùtah أو Ibn-Batùtah .

ولما كان الإسم لا يتحتم توارثه على العموم ، فقد جرت العادة أن يميز الشخص بعلم أو أكثر : إما « كنية » مثل « أبو علي ^(١) » ، « ابن أحمد » الخ ... أو « لقب » ، مثل « نور الدين » ، « الطويل » الخ ... أو « إسم » يتعلق بالبلد أو المولد أو الأصل أو المذهب أو التجارة أو الحرفة الخ ^(٢) ... مثل : الرشيدى ، الصباغ ، التاجر . وكثيراً ما يتوارث بعض هذه الأعلام ، وعلى الأخص الألقاب والنسب ، فتصبح لقب العائلة .

أما ملابس أطفال الطبقة الوسطى والعليةا فهي كملابس الوالدين ، ولكنها قدرة غير مهندمة . ويلبس أطفال الفقراء إما قميصاً وطاقيّة من القطن أو طربوشاً ، وإما أن يتركوا عمرة حتى سن السابعة أو ما بعد ذلك . وقد لا يصعب عليهم الحصول على خرقة تستر بعض الجسم كما فى أغلب القرى . ويلاحظ أن البنات الصغيرات ، اللاتي لا يمكن إلا قطعة من رث النسيج لانكفى الجسم والرأس معاً ، يفضلن تغطية الرأس ، وأحياناً يدفعهن الدلال إلى حجب الوجه بفضلة من النسيج بينما يترك الجسم كله مكشوفاً . أما الرقيقات فى سن الرابعة أو الخامسة ، فيلبسن كأمهاتهن النقاب الأبيض . ويخلق رأس الولد ، حينما يبلغ الثانية أو الثالثة أو قبل ذلك ، وتترك له خصلة فى وسط الرأس وأخرى فوق الجبهة ^(٣) . وقلماً يخلق رأس البنات . ويحمل الأطفال فوق أكتاف أمهاتهم وصريياتهم ^(٤)

(١) وهناك معنى مجازى لهذه الكنية . أنظر ما يتعلق به فى حاشية بآخر الفصل الرابع

(٢) يسمى « نسبة » أو « اسم منسوب »

(٣) من الشائع عند أكثر فلاحي مصر ، بمناسبة خلق رأس الطفل لأول مرة ، أن تدع ذبيحة من العز على قبر أحد أولياء الله ، الأقرب إلى البلد . ويعد اللحم لولية يدعى إليها الأصدقاء ويحضرها من يريد . وتلك العادة أكثر شيوعاً فى الصعيد وعند القبائل التى لم يعض على إقامتها بشاطىء النيل زمن طويل . وكان العرب الجاهليون يجرون على هذه العادة . وكانوا يتصدقون بمقدار وزن الشعر ، فضة أو ذهباً . وقد تلقى هذه العادة بعض الضوء على الحالة المذكورة فى سفر صموئيل الثانى ، الاصحاح الرابع عشر الآية ٢٦ ، ونصها : (وعند حلقة رأسه إذ كان يخلقه فى آخر كل سنة لأنه كان يثقل عليه فيخلقه ، كان يزن شعر رأسه مئتي شاقل بوزن الملك) ، المتعلقة بوزن أبشالوم شعر رأسه بعد ما حلقة . وتسمى الذبيحة « عقيقة » وتقدم ضحية لافتداء الطفل من النار . وقد حرم الرسول صلى الله عليه وسلم عادة خلق بعض رأس الطفل وترك البعض الآخر .

(٤) أنظر أشعياء الاصحاح التاسع والأربعون ، الآية « ونصها : ... فيأتون بأولادك فى الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن .

على هيئة ركوب الخيل ، أما إذا كانت المسافة قريبة فيحملون فوق الورك .
تظهر المוסرات في تربية أطفالهن تسامحاً زائداً وشفقة مفرطة ، ولكن
الفقيرات لا يبذلن نحوهم إلا العناية القليلة بقدر ما تقتضيه الطبيعة من الحاجة
الضرورية . وقد جعل الشرع تمام الرضاعة حولين كاملين إلا إذا وافق الزوج
على غير ذلك ، فيفطم الطفل عادة بعد السنة الأولى أو بعد سنة ونصف سنة . وينشأ
الطفل — ذكراً أو أنثى — في الأوساط الموسرة ، بين جدران الحریم ، أو على
الأقل ، داخل المنزل . ويستمر هكذا ، تحت رعاية النساء ، حتى يعهد به إلى معلم يعلمه
القراءة والكتابة كل يوم . ومن المهم ملاحظة أن ما يتعلمه الطفل في الحریم ، من
واجبات الاحترام المشوبة بالمطف والمحبة نحو الوالدين وكبار السن ، يهيئه للاتصال
بالعالم الخارجى كما سترى بعد قليل

وكثيراً ما يصطحب النساء أطفالهن عند الخروج للزيارة أو للتنزه ؛ فتحمل
كل جارية أو خادمة طفلاً أو تجلسه أمامها على الحمار ، إذ جرت العادة أن تركب
الخادومات مثل سيداتهن الحميم . وكان النساء إذا ركن الحميم أدلين كل ساق على
جانب ، ولكن قلما ينعم أطفال الأغنياء بهذه التسلية الهينة ؛ فقد أثر على صحتهم
طول الحجاب وشدة العناية وإفراط التغذية ؛ فيصيحون لذلك كثيرى القلب ،
متكبرين ، أنانيين . ويندر كذلك أن يشهد نساء الطبقة الوسطى في تربية أطفالهن ،
ويتوقف تقدير الزوج لزوجته أو تقدير الناس لها إلى درجة كبيرة على كثرة النسل
والعناية بالأطفال ؛ لأن الشرقيين رجالاً ونساء ، أغنياء وفقراء ، يعتبرون العقم
لعنة وعاراً . ومن الشائن أن يطلق الرجل امرأته بلا سبب قوى ما دامت قد
ولدت له طفلاً وما دام الطفل حياً . فالمرأة الولود تكون موضعاً لحب الزوج واحترام
الناس ، وبيتها يكون مثابة للسرور والإيناس .

يلاحظ في مصر أن القليل من المال يكفى لإعالة ذرية كثيرة^(١) وأسرة
كبيرة . ومهما يكن تدليل الأطفال والولوع بهم عظيماً ، فهو لا يكتفون ويظهرون
لأبويهم احتراماً عميقاً خليقاً بالمدح . ويعتبر المسلمون العقوق من أعظم الخطايا .

(١) وقد ذكر ديودور الصيقلى أن قدماء المصريين كانوا يكسون أولادهم ويربونهم
بأقل نفقة .

وهم يضعونه لجسامته مع الكيثر الست الأخرى ، وهي الشرك بالله وقتل النفس
وقذف المفقيات بالزنا وأكل أموال اليتامى والربا الفاحش والتخلف عن جهاد
المدو . وقلما ترى في مصر أو في العرب من لا يطيع والديه . ويصطحب الطفل ،
في الطبقات الوسطى والعليا ، بتقبيل يد أبيه ، ثم يقف أمامه باحترام وخشوع
حتى يصدر إليه أمراً أو يسمح له بالانصراف . ولكن العادة جرت أن يقبل الأب
ابنه ويلاطفه . ولا يقل احترام الطفل لأمه عنه لأبيه ، وكذلك احترام أفراد العائلة
الآخرين بمقتضى سنهم وقرابتهم وصر كرم . ومن هنا تنشأ في الطفل السهولة واللباقة
في تصرفاته خارج الحرم ، كما تنشأ فيه الطاعة والولاء للذات كثيراً ما يمدان ، من
غير حق ، نتيجة الحكم الاستبدادي في الشرق^(١) . ويندر أن يجلس الأبناء أو يأكلوا
أو يدخنوا في حضرة الأب إلا إذا سمح لهم بذلك . وكثيراً ما يقومون أيضاً على
خدمته وخدمة ضيوفه عند تناول الطعام وفي المناسبات الأخرى . ويظل الأبناء
كذلك حتى بعد أن يصبحوا رجالاً . وقد دعيت مرة في شهر رمضان إلى الإفطار
على مائدة تاجر مصري أعدت أمام داره . وكان يدعو كل شخص يمر بالقرب منا ،
مهما كان فقيراً ، إلى مشاركتنا الطعام . ومع ذلك كان يقوم على خدمتنا اثنان من
أولاده أكبرهما يبلغ الأربعين . وقد لاحظت أنهما لم يتناولوا بالرغم من صيامهما
طول اليوم غير جرعة ماء ؛ فرجوت الأب أن يسمح لهما بالإفطار معنا ، فأجاب
رجائي في الحال ، ولكنهما رفضا . وتمتع الأم بكبر قسط من عطف أطفالها ،
ولكنها لا تتمتع مثل الأب بكبر قسط من الاحترام . وقد رأيت خدماً
كثيرين يملطون أمهاتهم ما يدخرون من أجرهم ، وقلما كنت أرى من يدخر
شيئاً لأبيه .

ويلاحظ أن الأطفال المصريين ، ما عدا أطفال الأغنياء ، يظلون دائماً قذري
الشكل ممزق الثياب ، مع أنهم محل الرغبة وموضع التفكير . وقد يشمئز الأجانب
من رؤيتهم ، ويسرعون في الحكم على المصريين بأنهم شعب قذر دون أن يبحثوا

(١) إن نظام الحكومة الشرقية ليس إلا اتساعاً لنظام المنزل الأبوي (Urquhart's Spirit of the East vol, ii p. 249) (روح الشرق تأليف أوركهارت الجزء الثاني

عن سبب آخر لذلك . ومن الملاحظ أيضاً أن أكثر الأطفال تدليلاً وعناية ، أقدرهم جسماً وأحقرهم ثياباً . وليس من الغريب أن ترى السيدات الجميلات ، في شوارع القاهرة ، متئدات في مشيتهن ، معطرات الجو بمطر المسك ، مراعات في زينتهن الكاملة دقة النظافة ومنتهى الرقة ، معتنيات بكحل عيونهن ، مخضبات الأصابع ، بينما يرافقهن طفل ، قد يكون الوحيد ، وهو ملطخ الوجه ملوث الثياب . ومن الأشياء التي أثارت عجبى عند قدومى إلى هذا البلد مناظر من هذا القبيل ؛ وقد لفتت نظرى لغرابتها وتناقضها ، فأخبرت أن الأم الحانية على أطفالها تهمل هئداهم ، فتتركهم بلا نظافة ، وتلبسهم أحقر الملابس عمداً ، وعلى الأخص عندما يرافقونها في الخارج ، خوفاً من شر العين . ويخشى من الحسد بصفة خاصة على الأطفال ، لأنهم يعتبرون نعمة عظيمة يشتهبها الجميع . ويرجع للسبب نفسه حجب الأطفال في الحريم طويلاً ؛ حتى أن البعض يلبس الذكور من أطفالهن ملابس الإناث ، لأن البنات أقل تعرضاً للحسد . وأطفال الفقراء ما زالت هيئتهم بعد أكثر إهمالاً . فهم ، فضلاً عن قلة ملابسهم وحقاتها أو تمام عريهم ، قدرون إلى أقصى حد . تغشى عيونهم الأدران والذباب دون أن يكتروا لذلك . ويعتبر المصريون أن غسل العين أو حتى لمسها ، عند ما يسيل منها الصديد الذى يجذب الذباب ، مضر بها . ويؤكدون أن فقد البصر قد ينتج من كثرة لمس العين أو غسلها عند ما تصاب بهذا السيلان ، غافلين عن أن الغسل إنما يلطف الألم .

ويختن الولد في سن الخامسة أو السادسة ، وأحياناً بعد ذلك ^(١) . وقبل الختان يحتفل القاهريون وغيرهم من الحضريين ، إذا توفر لديهم مال ، بزف الولد في موكب يمر بالشوارع المجاورة للمنزل . وكثيراً ما يحتملون زفة الختان مع زفة عرس في الوقت نفسه تقليلاً من نفقات الاحتفال . وفي الحالة الأخيرة يتقدم الموكب الولد وحاشيته . والمحتفل به يلبس أحياناً عمامة من الكشمير الأحمر ، وقد يرتدى ، لاعتبارات أخرى ، ثياب أنثى ، فلبس البلك والسلطة والقرص والصفاء وغيرها من حلى النساء ، ليجذب العين الحاسدة إليها ويلهمها عن شخصه . وتستعمار هذه الملابس عادة من بعض السيدات المومرات ، وتكون من أخف

(١) عند الفلاحين لبس أقل من سن الثانية عشرة حتى الرابعة عشرة

الملابس وأبهائها ، كما تكون كافية السعة لقلائم الولد . ويستعمار كذلك حصان جميل المعدة ليركبه المحتفل به . ويمسك الولد بيده اليمنى منديلاً مطرزاً مطويًا يضمه باستمرار أمامه ليحجب بعض وجهه انقاء شر العين . ويتقدم المحتفل به صبي الحلاق ، الذي سيقوم بعملية الختان ، وثلاثة من الموسيقيين أو أكثر ؛ وآلاتهم لا تعتمدى الزمار والطبول ، كما ترى في (شكل ٣١) . فالشخص الذي يتقدم الموكب هو صبي الحلاق ، كما ذكره ، ويحمل « الجمل » ، وهو صندوق خشبي نصف أسطوانى ، ذو قوائم أربع قصيرة ، زين وجهه قطع من المرايا ومن النحاس البارز النقش ، ويفطى ظهره بسمتار . وهذا الجمل هو شمار الحلاق . ويحمله الخادم بالطريقة



شكل ٣١ — (زفة الختان)

المبينة في الرسم ، ثم يتبعه الزمار والطبالان (وقد يتقدم بعضهم الجمل) ، ثم الولد يقود جواده سائس ؛ وأخيراً يمشى خلفه الكثير من القريبات والصديقات . وكثيراً ما يحتفل بختان ولدين معاً ، وقد يحملهما حصان واحد . أما موكب العرس الذي كثيراً ما يتضمن موكب ختان كما سبق فسنستكمل عنه في حينه . وسنذكر أيضاً وصفاً لبعض العادات الأخرى المتعلقة بالختان ،

وبالأخص واحدة منها أقل شيوعاً وأكثر وجاهة ، في الفصل المتعلق بمختلف الأفراس والأعياد الخاصة (١) .

(١) وهناك عادة ذكرها سترابو Strabbe (ص ٨٢٤) باعتبارها سادت مصر في عهده ؛ ولا زالت شائعة في أنحاء مصر براعيها المسلمون والقبط جميعاً إلا في الاسكندرية وفي بعض المناطق الساحلية . وهي تسود أيضاً جزيرة العرب وإن كانت أقل شيوعاً . وقد لاحظ رولاند Retand الذى وصف هذه العادة وصفاً ناقصاً في كتابه (في الدين الاسلامي) نشرة ١٧١٧ (De Religione Mohammedica p 75 ed., 1777) أن جالينوس Galen ذكرها أيضاً

وقلما يبذل الأبوان كثيراً من وقتهما أو انتباههما في تربية الطفل تربية ذهنية ،
قائمين بتثبيت بعض المبادئ الدينية في ذهنه الصغير ؛ فإذا كانت لديهم القدرة ،
يمهدون به للمدرسين . ويلقن الطفل ، في سن مبكرة بقدر الإمكان ، الشهاداتتين
وحب الإسلام . وأكثر أطفال الطبقات العليا والوسطى ، وبعض أطفال الطبقات
الدنيا ، يتعلمون في الكتّاب القراءة وتلاوة القرآن أو ترتيله (١) ؛ ثم يتعلمون
بعد ذلك أغلب قواعد الحساب الشائعة .

والكتّاب كثر العدد ، لا في العاصمة فحسب ، بل في كل مدينة كبيرة ؛
كما يوجد في كل قرية كبيرة مدرسة واحدة على الأقل ؛ ويلحق بكل مسجد وسبيل
وحوض في العاصمة كتّاب يتعلم فيه الأطفال بأيسر الأجور ؛ إذ يتناول « الشيخ » أو
« الفقي » (٢) كل خميس من أب الطالب نصف قرش أو أى شئ آخر . ويتناول مدرس
المدارس الملحقة بالمساجد ، أو بغيرها من مباني العاصمة ، سنوياً ، طربوشاً وقطعة
من الموصلى الأبيض للعمامة وقطعة من الكتان وحذاء . كذلك يتناول كل ولد
طاغية من الكتان وقطعة من نسيج القطن طولها أربع أذرع بلدية أو خمس ،
وقد يأخذون نصف ثوب من الكتان مقداره ١٠ أو ١٢ ذراعاً بلدياً وحذاء وأحياناً
يمطون قرشاً أو نصف قرش ؛ وهذه الخلع تؤخذ من أموال موقوفة على المدرسة
وتقدم في شهر رمضان . ولا يحضر الأولاد إلا ساعات الدرس ثم ينصرفون إلى
منازلهم . ويكتب الدرس عادة على ألواح من الخشب المصبوغ بالأبيض ، تمسح
بعد كل درس ويكتب عليها الدرس الجديد . وتعلم الكتابة أيضاً على اللوح نفسه .
والعادة أن يجلس المدرس وتلاميذه على الأرض ، وكل تلميذ بيده لوحه أو نسخة
من القرآن ، أو جزء من أجزائه الثلاثين ، توضع على كرسي من الجريد ؛ ويلقى
الأولاد جميعهم درس القراءة أو ينشدونه بصوت واحد عال ، هازين رؤوسهم
وأجسامهم هزاً لا ينقطع أماماً وخلفاً ؛ وكذلك أغلب قراء القرآن يتبعون تلك
العادة ظناً أنها تساعد على التذكر . وليتصور القارىء أى ضجة يحدثونها (٣) .

(١) أنظر فصل الموسيقى .

(٢) هذا اللفظ تحريف لكلمة « فقيه » التي تطلق في مصر على الذين حذقوا الدين
والفقه . أما الرجل الذى يحترف تلاوة القرآن أو يدرس تلاوة القرآن ، فيسمى عادة « فقي » .

(٣) والعقوبة العادية هي ضرب الطفل بجريدة من جريد النخل على بطن القدم

وأول ما يتعلم الأولاد ، حروف الهجاء ثم الشكل ، ثم يتعلمون القيمة العددية لكل حرف من حروف الهجاء (١). وقد جرت العادة قبل وصول التلميذ إلى تلك المرحلة الثالثة في تعليمه ، أن يزين المدرس اللوح بالخبر الأسود والأبيض والصبغ الأخضر ، ثم يكتب حروف الهجاء بترتيبها العددي ويرسلها إلى والد التلميذ ؛ فيعيدها هذا إليه وعليها قرش أو قرشان . وهكذا يكرر ذلك في مراحل التعليم اللاحقة ، وفي كل مرة يكتب المدرس التالي على اللوح . وعند ما يحفظ الولد القيمة العددية لحروف الهجاء ، يتمرن على قراءة الكلمات السهلة ، مثل أسماء الرجال ، ثم صفات الله التسع والتسعين ، وبعد ذلك يحفظ الفاتحة فيكررها حتى يبعثها تماماً ، ثم يشرع في حفظ السور الأخرى . ويفتد أن يتعلم الأولاد الكتابة إلا عند ما يخصصون لبعض الوظائف التي تتطلب معرفتها . وفي هذه الحالة يتعلمون الكتابة ، والحساب كذلك ، على يد « قباني » ، وهو الشخص المنوط به وزن البضائع في السوق على القبان . أما الذين يسلكون أنفسهم في النظام الديني أو في أي مهنة علمية فيتبع غالبيتهم تعليمًا منظماً في الجامع الأزهر .

وأغلب معلمى الكتاتيب قليلو العلم والاطلاع . والقليل منهم من تتعدى معرفته القرآن وبعض الأناشيد والأدعية ، فيؤجرون لتلاوتها وتلاوة القرآن في المناسبات الخاصة . وقد حدثوني أخيراً عن رجل لا يحسن القراءة والكتابة نجح في شغل وظيفة مدرس . فقد كان يحفظ القرآن كله ، ولذلك سهل عليه الإصغاء إلى الأطفال وهم يسمعون الدرس . أما تعليمهم الكتابة ، فقد كان يستخدم فيها « العريف » ، مدعيًا ضعف النظر . وبعد شغله هذا المنصب بأيام ، جاءته امرأة فقيرة ليقرأ لها خطاباً جاءها من ابن لها ذهب للحج . فتظاهر الفق بالقراءة ولكنه لم يفهم بحرف واحد . فتوجست المرأة من سكوته شراً واستفتحت من هدوئه أخباراً سيئة ، فقالت له : « هل أصوت ؟ » . فأجابها « نعم » . وسألته : « هل أمزق ثيابي ؟ » . فأجابها : « نعم » . فرجعت المسكينة إلى منزلها ، وأقامت هي وصاحباتها مناحة ومأتماً . ولم يطل عليها الزمن حتى عاد ولدها ، فسألتها ماذا يعنى بهذا الخطاب الذي

(١) عندما تستعمل حروف الهجاء للدلالة على الأعداد ترتب على ترتيب الحروف الهجائية

يخبرها بموته ؟ فلما شرح لها ما في الخطاب ، ذهبت إلى المدرس وطلبت منه أن يوضح لها لماذا قال لها أن تصوت وتمزق ثيابها ، مادام الخطاب يقرر أن ابنها بخير وأنه في طريق العودة ؟ فأجابها غير مضطرب : « إن الله عنده علم الغيب . فمن لى أن أعرف أن ولدك سيعود سليماً ؟ وكان خيراً لك أن نظنيه ميتاً حتى لا تنتظري عودته ، وقد يخيب انتظارك » . فصاح بعض الجالسين مادحاً حكمته : حقاً إن « فقينا » الجديد رجل ثاقب البصر حكيم . وهكذا بين عشية ونحاه ارتفعت شهرة الرجل لغلطة غلطها (١)

وبعض الآباء يحملون لأولادهم شيخاً يعلمهم في المنزل . والمادة أن يعلم الأب ابنه الوضوء والصلاة وغير ذلك من الواجبات الدينية والأخلاقية على قدر إمكانه . وقد أمر الرسول (صلعم) أن يعوّد الصلاة من يبلغ السابعة ، ويضرب من يمتنع منهم عند العاشرة ، كما أمر أن ينام الأولاد كل وحده في هذه السن . ومع ذلك يندر أن يقوم المصريون بواجب الصلاة قبل البلوغ .

قلما يتعلم البنات القراءة والكتابة . وكذلك لا يتعلمن الصلاة ، حتى بنات الطبقة الراقية . ويستخدم بعض الأغنياء « شيخاً » لتزور الحريم يومياً ، فتعلم بناتهم وجواربهم إقامة الصلاة وتلاوة بعض سور من القرآن . وقد تعلمن القراءة والكتابة ، إلا أن هذا ، حتى لانساء الطبقة الراقية ، شيء كالى يندر أن يتم (٢) . وهناك عدة مدارس تعلم فيها البنات الخياطة والتطريز الخ . ولكن إذا سمحت الظروف يعهد بالبنات إلى « معلمة » تعلمن تلك الأشغال في منازلهن .

(١) وقد وجدت بعد ذلك قصة تكاد تشبه هذه الحادثة تماماً في كتاب ألف ليلة وليلة طبعة القاهرة . وهى حكاية من الحكايات الملحقة بالفصل الثامن عشر من الترجمة التى ترجمتها لذلك الكتاب . ولذلك إما أن تكون القصة التى بلغتها غير صحيحة ، وإما أن يكون الرجل المشار إليه مقلداً للقصة السابقة . والحالة الأخيرة قد تكون محتملة ؛ فقد حكى لى عدة حكايات مماثلة تستحق التصديق فضلاً عن أنى أعرف أن واحدة منها أمر واقعى .

(٢) وقد تتلقى بنات الطبقات الوسطى علومهن مع الأولاد فى مدرسة واحدة . إلا أنهم عادة يلبس الحجاب ولا يخالطن الأولاد . وكثيراً ما شاهدت بنات حسان الهندام يقرأن القرآن فى مدرسة للبنين .

الفصل الثالث

الدين والشرعة

رأيت حذف هذا الفصل لقلة فائدته للقارىء المسلم ، إذ أن المؤلف يصف الدين وأحكامه وصفاً دقيقاً قد عمل القارىء لمعرفة إياه .

فهو يشير أولاً إلى مذاهب الإسلام الأربعة ، ثم يفسر الشهادتين تفسيراً مختصراً وينتقل بعد ذلك إلى الكلام عن اعتقاد المسلمين وجود الملائكة والجن وخلود الروح الخ ... والجنة والنار ويتكلم عنهما .

ثم يحدثنا عن أركان الإسلام الخمسة : فيذكر في الصلاة الوضوء وكيفية التيمم ، ثم الصلاة وأوقاتها وطريقتها ، والأذان ، وصلاة الجمعة والخطبة ، وأخيراً يصف الجامع ونظامه .

ثم يتكلم عن الزكاة ، ثم الصوم ، أوقاته وأحكامه ، ثم حج البيت وبعض مناسك الحج . ويشير بعد ذلك إلى العيدين الصغير والكبير ، وإلى الجهاد وقتال المشركين . ثم يذكر بعض نصوص التحريم في الشريعة : فيحدثنا عن تحريم التبهيد ، واعتبار بعض الخدرات والمسكرات في حكمه ؛ ثم الميتة والدم ولحم الخنزير الخ ، وذكر اسم الله عند ذبح الحيوان ، وحكم بعض الحيوان وما يصطاد منه ؛ وأخيراً الميسر والتصوير ...

بعد ذلك يتكلم عن الزواج ، فيخوض في عدد الزوجات واختلاف الدين بين الزوجين ، ومن تحرم على الرجل من النساء الخ .. والتسرى ، ثم الطلاق وأحكامه الرجمي ، والبائن ، والعدة ...

ثم يتكلم عن أحكام التورث ، والقتل في عصر الإسلام وفي عصره ، والسرقة ، والزنا والردة الخ ...

وأخيراً يختم الفصل بنبهة عن الوهابيين .

الفصل الرابع

(١) الحكومة

قاست مصر ، هذه السنوات الأخيرة ، تقلبات سياسية عظيمة ، وزالت تبعيتها للباب العالي إلا قليلا . وقد استقل حاكمها الحالى محمد على تقريبا ، بعد أن أباد الغز (٢) ، أو المماليك ، الذين شاركوا أسلافه الحكم ، إلا أنه أعلن ولائه للسلطان وأصبح يؤدي الخراج للأستانة كما هى العادة ، ثم إنه خضع لأحكام القرآن الأساسية والسنة ؛ وهو ، خلافاً لذلك ، يتمتع بسلطة لا حد لها (٣) . فهو يستطيع أن يقضى على أى فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة أو تعيين سبب . وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليمتصن ذلك حكم الإعدام . ولكن يجب ألا يفهم من كلامى أننى ألح بميله إلى سفك الدماء بلا موجب . إن من طبع هذا الوالى الصرامة الحازمة لا القسوة الشريرة . وقد دفعه طموحه الطامح إلى

(١) لما كان الاصلاح السياسى الذى أجراه محمد على سنبقى أهميته العظيمة على الدوام ، ولما كانت التغييرات التى أحدثها خلفاؤه فى نظمه قليلة الأهمية ، وعلى العموم مخالفة لكل تقدم ، فقد أقيمت هنا دون تغيير جوهرى وصف حكومة مصر فى سنتى ١٨٣٤ و ١٨٣٥ وهما خير سنى حكمه .

(٢) الغز من أمم الترك غرب آسيا . (ويسمون أيضاً الخزر . ويدفعنا ذلك إلى الاعتقاد أن ذلك الاسم تغير بنقله إلى العربيه فحول الخاء غينا وضعفت الزاى) .
انظر مقدمه ابن خلدون الاقليم الخامس من المقدمة الثانية من الفصل الأول من الكتاب الأول .

أما ما بين القوسين فقد ذكر فى الترجمة الفرنسيه Les Prolégomènes D. Ibn Khal
doun - M. D. Slane ص ١٥٧ الجزء الأول (المترجم)

(٣) وإن كانت أرض ولايته تقصت كثيراً منذ كتابة هذا إلا أن سلطته فى مصر بقيت كما هى على التقريب .

جميع الأعمال ، فكان يجلب لنفسه المدح تارة أو الملامة تارة أخرى (١) .
 ويوجد في قلعة العاصمة مجلس للقضاء ، يسمى « الديوان الخديوى (٢) » ،
 رأسه ، في غياب الباشا ، نائبه « الكرخيا » (٣) حبيب أفندى . ويبت رئيس
 الديوان الخديوى فى الأمور التى تخرج عن اختصاص القاضى ، أو التى تكون
 واضحة بحيث لا تحتاج إلى الرجوع إلى القاضى ، أو أى مجلس آخر . وقد أقيمت
 فى أنحاء العاصمة دور كثيرة للشرطة ، فى كل منها بلوك نظام ، أى فرق
 منظمة . ويسمى الشرطى « قلق » (٤) أو « قراقول » (٥) . ويقبض على
 من يتهم بالسرقة أو السطو الخ . ويقاد إلى دار الشرطة الرئيسى فى الموسيقى ،
 حيث يسكن أغلب الفرنج (٦) . وبعد أن تثبت التهمة كتابة ، يقاد المتهم إلى
 « الظابط » ، أى رئيس شرطة العاصمة . وبعد أن يسمع الضابط القضية يرسل

(١) إن حكومة مصر منذ الفتح العربى لم تتغير كثيراً عما هى عليه الآن فى تأثيرها على
 شمائل السكان وعاداتهم وطباعهم . ولذلك أرى أن لا حاجة إلى عرض تاريخ الماضى لتوضيح
 هذا الكتاب . إلا أنه يجب الإشارة إلى أن المصريين لا يسمح لهم الآن بالاستمرار فى معاملة
 النصارى واليهود بتلك الغلظة التعصية الشديدة التى كانوا يعاملونهم بها قبلاً . ومن هنا يدين
 السياح الأوربيون لمحمد على بالشكر ويعترفون له بالجميل . وقد يزيد هذا التقيد شعور التعصب
 الزائد بآدى الأمر ، ولكنه سيطلقه على الأرجح بمرور الزمن . ولم يتم بعد هذا التنبؤ ،
 وعلى النقيض من ذلك أثار استعمال العطاء ومستخدمى الحكومة للبدع الأوربية فى ملبسهم
 وشمائلهم وعاداتهم المنزلية تعصب رجال العلم والدين وجملة الشعب عموماً

(٢) « خديوى » نسبة إلى الكلمة التركية « خديف » أى الأمير

(٣) هكذا ينطق به فى مصر والأصح « كياحيا » أو « كتخدا »

(٤) من التركية « قول لى »

(٥) والعامة يقولون « كركون »

(٦) وكان حى الأفرنج يمتد من الخليج إلى الأزبكية وقد اقتضت كثرة الثورات تجمع
 الأجانب حول دارالقنصل الفرنسى الذى كان يرمي مصالحهم حينذاك . وأهم شوارع ذلك الحى
 شارع الموسيقى وقد سمي باسم الأمير عز الدين موسك — أحد أقارب السلطان صلاح الدين
 ابن أيوب — الذى أنشأ قنطرة على الخليج بالقرب من ذلك المكان

انظر كتابى تأليف Marcel Clerget Le Caire الجزء الأول ١٨٢ والخطط المقرينة

ذكر قناطر الخليج الكبير

(المترجم)

التهمة المحاكمة أمام الديوان الخديوى (١) . وعند ما ينسك التهم الجريمة الموجهة إليه ، ولم يكن هناك دليل على الإدانة ، يجلد ليحمل على الاعتراف بجريمته . وحينئذ ، إن لم يكن قبلاً ، يمتد التهم بالجريمة إذا كانت طبيعتها لا تعرضه لعقوبة شديدة . ويمتد اللص عادة بعد هذا التعذيب بقوله : « إن الشيطان أغرائى ففعلت » . وعقوبة المجرمين يرتبها نظام مستبد ، ولكنه لطيف حكيم . ويكون عادة بإلزامهم ، مقابل قوت قليل ، القيام ببعض الأشغال العمومية ، مثل نقل القمامة وحفر القنوات الخ ؛ وقد يجند الشبان الأقوياء متى كانت التهمة طفيفة . ويستحق محمد على ، على استخدامه المجرمين لإصلاح البلد وتحسينه ، المدح الذى كان وقفاً على سابا باكون Sabacon (٢) الفاتح الحبشى وملك مصر ، الذى يقال إنه أدخل هذا النظام . إلا أن الباشا كان شديداً فى معاقبة الجرائم التى ترتكب ضد شخصه ، فالإعدام هو العقوبة المادية فى أحوال كهذه .

وهناك عدة مجالس دينياً لإدارة شؤون الأقاليم المختلفة : وأهمها ، أولاً : « مجلس المشورة » ، ويقال أيضاً « مجلس المشورة الملكية » ، تميزاً له عن المجالس الأخرى . ويختار الباشا أعضاء هذا المجلس والمجالس المشابهة الأخرى ممن يتحلون بمواهب أو صفات أخرى ؛ ولذلك تخضع جميع قراراتهم لإرادته ورغبته . وهم آتته ورهن إشارته ، ويكونون لجنة تشرف على إدارة البلد العامة ، وشئون الباشا التجارية والزراعية . وتعرض العرائض الموجهة إلى الباشا ، أو إلى ديوانه ، المتعلقة

(١) كثيراً ما يستبد القائمون بأمر هذا المجلس وما أشبه كما أن إتمام الاجراءات ينقصه الوفاق والأدب . فكثيراً ما يستعمل الموظفون الأتراك حتى الكبراء منهم ألفاظاً لا أستطيع أن أذكرها لشدة ما تنقزز منها النفس ، نحو المتقاضين

(٢) ساباكو Sabaco أو شاباك Shabbak أحد ملوك الأقباش . جرد حملة على مصر ونشر سلطانه عليها (٧٢٨ قبل الميلاد) ولقب بملك مصر ، ولكنه ترك مباشرة الحكم لأخته أمينريتس Ameniritis وزوجها بيانخى Piankhi وكثيراً ما يرى شاباك وأخته على جدران معابد طيبة وغيرها

وتؤكد الروايات اليونانية القديمة أن هذا الملك الحبشى حكم مصر حكماً لطيفاً فلم يلجأ أبداً إلى حكم الأعدام واستخدم المجرمين فى حفر القنوات وبناء الخزانات

(انظر The Histrians'o History of the world الطبعة الخامسة سنة ١٩٢٦

(المترجم)

(الجزء الأول ص ١٧٦)

بالمصالح الخاصة أو بشئون الحكومة ، على أعضاء المجلس وتخضع لتقديرهم وحكمهم ، إلا إذا وقعت في اختصاص المحاكم الأخرى المذكورة فيما بعد . ثانياً « مجلس الجهادية » ، أو « مجلس المشورة العسكرية » . واسمه يدل على مدى اختصاصه . ثالثاً « مجلس الترسيخانة » أو البحرية . رابعاً « ديوان التجار » . وقد أنشئ هذا المجلس ، الذى يتكون أعضاؤه من تجار مختلفى البلاد والدين ، تحت رئاسة « الشاه بندر » ، لينظر في بعض الأحوال الناشئة عن المعاملات التجارية الحديثة مما لم ينص عليه في القرآن أو السنة .

ويتولى قاضى القاهرة القضاء في مصر لمدة سنة واحدة ثم يرجع عند انتهائها إلى الآستانة . وجرت المادة أن يقوم القاضى من القاهرة ، مع قافلة الحج الكبيرة ، إلى مكة ، فيقضى واجبات الحج ، ويبقى في المدينة المقدسة سنة واحدة ، وفي المدينة المنورة سنة أخرى (١) ، يقضى بين الناس . ويشتري القاضى منصبه بالممارسة من الحكومة ، التى لا تقيم أى اعتبار لمواهبه . غير أنه يجب أن يكون ذا علم ولو قليلا ، وأن يكون عثمانياً حنفى المذهب . وقبلما يجيد القضاة اللغة العربية لأن معرفتها لا تلزمهم . ولا يكاد القاضى في القاهرة يعمل شيئاً غير التصديق على حكم « نائبه » ، الذى ينظر فى أغلب الدعاوى العادية ، والذى يختاره القاضى من علماء استنبول ، أو التصديق على قرار « المفتى » الحنفى ، الذى يقيم دائماً في القاهرة ، ويصدر فتواه في القضايا الصعبة . ولكن النائب على الأكثر قليل المعرفة باللغة المصرية العامية . ولذلك يجب على القاضى في القاهرة ، حيث يتكلم أغلب المتقاضين العربية ، أن يضع غاية ثقته في « الباش ترجمان » ؛ ومنصب هذا دائم ، ومن ثم فهو يعرف أنظمة المحكمة ، وخاصة نظام الرشوة ؛ وهو على أتم استعداد لأن يلحق هذا النظام لكل من يستجد من القضاة والنواب . وقد يكون القاضى جاهلاً بالشرع جهلاً غليظاً في كثير من تفاصيله ، وقد حدثت عدة أمثلة من هذا النوع ، ولكن يجب أن يكون النائب بارعاً في الشرع علماً وعملاً .

وعند ما يرفع الشخص قضية يذهب إلى المحكمة ، ويطلب من الباش وسول

(١) جرت العادة أن يقدم القاهرة في أول رمضان ولكن حدد فيما بعد أول محرم

أن يرسل « رسولا » ليحضر الخصم . ويتناول الرسول قرشاً أو قرشين (١) .
يقسمهما مناصفة بينه وبين رئيسه على انفراد . ويحضر المدعى والمدعى عليه في
بهو المحكمة الكبير : وهو غرفة كبيرة تواجه فناء فسيحاً ، ولها واجهة مكشوفة
بها صف من الأعمدة والمقود . ويجلس فيها كتبة يسمى الواحد منهم « شاهداً » ،
وعمله أن يصنى إلى أقوال الطرفين في القضية ويدونها ، ورئيسهم الباش كاتب .
ثم يقصد المدعى أى واحد من هؤلاء الكتبة ويقرر أمامه ظروف القضية ، فيثبتها
الشاهد كتابة ، ويتناول جملاً قدره قرش أو أكثر ؛ ثم بعد ذلك يصدر حكمه ،
إذا كانت القضية لا قيمة لها ، والمدعى عليه يعترف بعادتها ؛ وإلا قدم الطرفين
إلى النائب في غرفة داخلية . وبعد أن يسمع النائب القضية ، يأمر المدعى أن
يستصدر فتوى من مفتى الحنفية ، الذى يتناول جملاً ينذر أن يقل عن عشرة
قروش ، ويزيد غالباً على مائة قرش أو مائتين . ويصدر النائب حكمه في القضايا
التافهة منفرداً وبأقل تعب . أما القضايا المهمة أو المعقدة ، فإنها تنظر في غرفة
القاضى الخاصة ، أمام القاضى نفسه ، والنائب ، ومفتى الحنفية ، الذى يستدعى للفصل
فيها بفتوى ؛ وقد تزيد القضية صعوبة أو أهمية ، فيستدعى بعض علماء القاهرة .
وبعد أن يصنى المفتى إلى القضية ، يصدر حكمه كتابة ، فيصدق القاضى عليه ويختم
الورقة بختمه ، وهذا كل ما عليه أن يعمل في أى قضية . ويستطيع المتهم أن
يبرى نفسه باليمين إذا لم يقدم المدعى شهوداً ؛ فيضع يده اليمنى على القرآن
ويقول : بالله العظيم ، ثلاث مرات ، مردفاً : وبما يحثويه هذا من كلام الله . ويجب
أن يكون الشاهد عدلاً ، أو يزعم أنه كذلك ، وألا تكون له مصلحة في القضية .
ويلزم لكل دعوى شاهدان (٢) على الأقل ، أو رجل وامرأتان ؛ ويجب أن
تركى الشاهدين شخصان آخران . وشهادة الكافر على المسلم لا تجوز شرعاً في

(١) وكان القرش المصرى عند ما كتب هذا يساوي خمس الشلن أو بنسبن وخمسي بنس ٢٢

(٢) هذا الحكم أخذ من الأسفار الموسوية الخمسة . أنظر التثنية الاصحاح ١٩ الآية

١٥ (ونصها : لا يقوم شاهد واحد على إنسان في ذنب ما أو خطية ما من جميع الخطايا التي
يخطيء بها . على فم شاهدين أو على فم ثلاثة شهود يقوم الأمر) . ويستطيع الرجل أن يتمتع
عن الشهادة .

حالة العقوبة الشديدة ؛ والشهادة لصالح الابن أو الحفيد أو الأب أو الجد لا تقبل ؛ وكذلك شهادة الأرقاء ؛ ولا يستطيع السيد أن يشهد لصالح عبده .
جرت العادة إلى وقت قريب أن يدفع الرسوم من يكسب القضية . أما الآن فيدفعها الطرف الآخر . والرسوم القضائية في قضايا بيع الأموال تكون ٤ ٪ من مجموع الأملاك ، وفي قضايا الوصايا ٤ ٪ ، إلا إذا كان الوارث قاصراً فيدفع ٣ ٪ ؛ أما القضاء في المسائل المتعلقة بملكية العقار ، فيكون رسمه ٢ ٪ ، إذا كانت قيمة العقار معلومة ، وإلا يكن إيجار سنة . هذه هي الرسوم الشرعية ؛ ولكن كثيراً ما يلزم المتقاضى بأكثر من القدر الواجب . ويحدد نائب القاضى مقدار الرسوم في غير الأحوال المتعلقة بالملكية . وهناك رسوم أخرى غير الرسوم القضائية يجب دفعها بعد الحكم . مثلاً ، إذا كان الرسم القضائى مائتين أو ثلاثمائة قرش ، وجب دفع قرشين تقريباً إلى الباشترجان ؛ ومثلهما للباش رسول ، وقرش للرسول ، أو لكل رسول قام بعمل .

وكثيراً ما تؤثر مكانة المتقاضين أو الرشوة في حكم القاضى . ويرتضى النائب والمفتى على العموم ، ثم يتناول القاضى نصيبه من النائب . وقد يحكم في القضية لصالح الطرف الذى يدفع أكثر من الآخر ، وعلى الأخص ، عندما تطول الخصومة . فصرامة المدل لا تتحقق دائماً لاستخدام المتقاضين الرشوة والشهادة الزور . وقد يصعب الوثوق بالمدى الهائل الذى وصلت إليه عادة الرشوة وشراء شهود الزور في المحاكم الإسلامية ، وقد يقتضى ذلك أدلة قوية تستند إلى سلطة لا ريب فيها . وهأنذا أورد مثل هذا الدليل بتلخيص دعوى نظرت من زمن غير بعيد ، قصها على ناموس الشيخ المهدى وإمامه ، وكان حينئذ مفتى القاهرة الأعلى (لكونه المفتى الأكبر لمذهب الحنفية) ، وكانت الدعوى قد عرضت عليه بعد أن أصدر القاضى حكمه فيها .

توفى تاجر من تجار القاهرة عن أملاك قدرها ستة آلاف كيس^(١) ، ولم يكن له وارث غير بنت واحدة . فلما سمع السيد محمد المحروق الشاه بقدر بهذا

(١) والكيس خمسمائة قرش . وكان يساوى حوالى سبعة جنيهات استرلينية ويساوى الآن خمسة جنيهات فقط .

الحادث ، رشا فلاحاً عادياً ، كان بواباً لشيخ محترم ، وكان الناس يعرفون عائلته ،
ليدعى أنه ابن أخى المتوفى . ورفع الأمر إلى القضاء . ولما كانت الدعوى ذات أهمية
عظيمة استدعى بعض أكابر علماء المدينة ليحكموا فيها . وكانوا جميعاً محل رشوة
المحروقي أو تأثيره ، كما سيبين الآن . وأتى بشهود زور ليشهدوا بصدق ادعاء البواب ،
وبأخزين ليزكوا هؤلاء الشهود . فقضى القاضى بثلاثة آلاف كيس لابنة
المتوفى ، وبالنصف الآخر للبواب ؛ وتناول المحروقي المبلغ المحكوم به بعد أن خصم
منه ثلاثمائة قرش أعطاها البواب .

وكان المفتى الأكبر الشيخ المهدي غائباً عن القاهرة أثناء نظر الدعوى .
فلما عاد بعد أيام ، توجهت ابنة التاجر المتوفى إلى منزله ، وقصت عليه أمرها متوسلة
إليه أن ينصفها . ومع أن المفتى اقتنع بما أصابها من جور ، ولم يشك في صدق
ما نسبته إلى المحروقي في هذه القضية ، فقد أخبرها أنه لا يستطيع نقض الحكم
إذا لم يجد مخالفة في إجراءات الدعوى ، وأنه سيطلع على الدعوى في سجل
المحكمة . ثم أسرع إلى الباشا ، الذى كان للمفتى عنده حظوة كبيرة لملمه
واستقامته ، وشكا إليه أن المحكمة قد أسقطت حرمتها بإفراطها في الظلم ، وأن
العلماء يقبلون شهادة الزور مهما كان أمرها واضحاً ساطعاً ، وأنهم أصدروا أخيراً
حكماً أثناء غيابه أثار لفظ المدينة ومحبها . فاستدعى الباشا القاضى وجميع العلماء
الذين قضوا في الدعوى لمقابلة المفتى في القلعة . ولما اجتمعوا خاطبهم في شكوى
المفتى كما لو كان الأمر صادراً منه . فظهر السخط عليهم لهذه التهمة وطلب
القاضى أن يعرف علام تستند هذه التهمة . فأجابه الباشا إلى قرائن عامة ، ولكنها
تستند خاصة على القضية التى سلمت فيها المحكمة بادعاء بواب قرابة ووراثه
لا يمكن الاعتقاد بحقه فيها . فأبان القاضى أنه أصدر الحكم تبعاً لإجماع العلماء
الحاضرين حينئذ . فقال الباشا لنقرأ محضر الدعوى . فأتوا بالمحضر ؛ فلما فرغوا
من تلاوته ، قال القاضى ، بصوت جهورى ولهجة صليفة ، « وهكذا حكمت ! »
فصاح المفتى ، بصوت أعلى وأكثر سلطة ، « وكان حكمك زوراً » . فشخصت
الأنظار دهشة ، آناً إلى المفتى ، وآناً إلى الباشا ، وآناً آخر إلى العلماء . وأدار
القاضى والعلماء رؤوسهم ، وأخذوا يعبثون بلحاهم . ثم صاح القاضى ، ضارباً صدره

بيده : « أنا ، قاضى مصر ، أصدر حكماً زوراً ؟ » . وصاح العلماء : « ونحن ! نحن يا شيخ مهدي ! نحن علماء الإسلام نقضى قضاء زوراً ؟ » ، وقال المحروق ، وقد كان يحضر مجالس الباشا لما بينهما من معاملات تجارية ، « يا شيخ مهدي احترم العلماء كما يحترمونك » . فصاح المفتى « يا محروق ! هل لك شئ فى هذا الأمر ؟ صرح بنصيبك منه وإلا فالزم السكوت . اذهب وتحدث فى مجتمعات التجار ولا تسمح لنفسك مرة أخرى أن تنبس ببنت شفة فى مجلس العلماء » . فترك المحروق القصر فى الحال ، لأنه أدرك كيف ينتهى الأمر ، وأن عليه أن يرتب أموره . وطالب العلماء المفتى بالدليل على بطلان قرارهم . فسحب المفتى من صدر قفطانه كتيباً فى أحكام المواريث وقرأ عليهم : « لإثبات دعوى القرابة والوراثة يجب التحقق من اسم أبى المدعى وأمه وجده لأبيه ولأمه وجدته لأبيه ولأمه » ، ولم يكن شهود الزور معدين لإعطاء هذا البيان ، فكان هذا نقصاً فى الشهادة ينقض الحكم . وحجى بالبواب أمام المجلس ، ولما أنكر الفرية التى جعلوه محوراً ، أمر الباشا أن يجلد بشدة ؛ ولكن على الرغم من التعذيب الذى احتمله ، لم يعترف إلا بأنه لم يتناول من الثلاثة آلاف كيس غير ثلاثمائة قرش . وفى أثناء ذلك ذهب المحروق إلى سيد البواب ، وأخبره بما حدث فى القلعة وما ينتظر ، ووضع بين يديه ثلاثة آلاف كيس ، ورجاه أن يذهب حالاً إلى المجلس ويسلم هذا المبلغ قائلاً إنه كان أمانة عنده من خادمه . وقد تم ذلك ، وأعيدت النقود إلى ابنة المتوفى . وفى قضية أخرى سلب فيها باشا من الباشاوات (غير محمد على) نفوذه على القاضى ومجلس العلماء حتى أصدروا حكماً مخالفاً للشريعة ، فعارضهم الشيخ المهدي بالطريقة نفسها . وهذا المفتى مثل نادر فى النزاهة والاستقامة . ويقال إنه لم يتناول على فتاويه أجراً . وقد توفى هذا الشيخ بعيد زيارتى الأولى لمصر . ويمكننى أن أسرد حوادث أخرى على ذبوع الرشوة فى القضاء ، ولكن ما قدمته يكفي .

فى القاهرة خمس محاكم دنيا . وفى بولاق ، ميناء القاهرة الرئيسى ، محكمة ؛ وفى مصر العتيقة ، مينائها الجنوبى ، محكمة أخرى . ويرأس كل محكمة من هذه المحاكم الصغيرة شاهد من المحكمة الكبرى ، نائباً عن كبير القضاة ، الذى يصادق

على تصرفاته . وتحال على هذه المحاكم القضايا المتعلقة ببيع الأموال والوصايا والزواج والطلاق؛ فالقاضي يزوج اليتيمات القاصرات اللاتي ليس لهن أقارب بالقانون يقولون الوصاية . والنساء كثيراً ما يلجأن إلى أحكام الشريعة لإجبار أزواجهن على الطلاق . ويوجد أيضاً في كل مدينة من مدن الريف قاض ، يكون على العموم من أهل البلد ، ولا يكون أبداً تركياً ؛ وهو يقضى في جميع القضايا ، أحياناً في حدود معرفته للشريعة ، وعادة طبقاً لفتاوى المفتي . ويقوم القاضي بخدمة القضاء في أكثر من قرية .

ولكل مذهب من المذاهب الأربعة « شيخ » ، أى رئيس ديني ، يختار من أعلم علماء المذهب ، ويقم بالقاهرة . ويؤلف شيخ الجامع الأزهر ، وهو شافعي المذهب دائماً ، مع شيوخ المذاهب الأربعة والقاضي ونقيب الأشراف وغيرهم كثيرين ، مجلس العلماء^(١) ، الذي كان يثير الرهبة والاحترام في نفوس الحكام الترك والمماليك ويحد من طغيانهم ؛ وقد فقدت الآن هذه الهيئة نفوذها على الحكومة إلا قليلاً . ويتحاكم الطرفان المتنازعان في الخصومات القافية أمام شيوخ المذاهب غالباً ، إذ أن كلا من هؤلاء هو مفتي مذهبه الأكبر ، ومحل الاحترام العظيم والامتنال التام . على أن الباشا كثيراً ما يعرض على هؤلاء الشيوخ القضايا الصعبة الخاصة بأحكام القرآن والسنة . ولكنه لا يرى دائماً رأيهم ، مثل استشارته إياهم في شرعية التشريع للعلم ، فلما أعلنوا أن التشريع يتنافى وأحكام الدين ، قرر ممارسته لطلبة الطب المسلمين .

وينحضم حرس العاصمة للقيادة العسكرية أكثر من خضوعه للسلطة المدنية . وقد كان من سنوات قليلة تحت رئاسة « الوالي » و« الظابط » . إلا أنه منذ زيارتي الأولى لمصر ألغيت سيادة الأول . وكان واجب الرئيس أن يقبض على اللصوص وغيرهم من المجرمين . وكانت المومسات تحت ولايته ، وكانت عنده قائمة بمددهن ، وكان يفرض عليهن ضريبة . وكان يشرف أيضاً على سيرة النساء على العموم ، ويضيف من تهم بفاحشة واحدة إلى قائمة المومسات ، وتفرض عليها الضريبة إلا

(١) ويعطى لقب عالم بصفة أخص إلى أساتذة الفقه . ويستعمل الكتاب الأوروبيون جمع هذه الكلمة عوضاً عن مقردها .

إذا فضلت أن تتفادى هذا العار برشوة ذات اعتبار . وكان النظام المطرد ، ولا زال ، أن يلتزم شخص بحماية الضريبة من المومسات (١) المازبات والمتروجات على العموم . ولكن أولئك الأخريات قد يقتلن إذا لم يستطعن الخلاص بالرشوة أو بحيلة أخرى . ومثل هذه الإجراءات مع ذلك تخالف القانون من ناحيتين ، فنص القانون أن كل من يتهم امرأة بالزنا أو ارتكاب الفاحشة ، دون أن يقدم أربعة شهود على الجريمة ، يجلد ثمانين جلدة ، وينص على عقوبات أخرى غير فقد الاعتبار والفرامة توقع على من حكم عليها .

سبقت الإشارة إلى عمل الضابط . وهو الآن رئيس الشرطة . أما مخبروه الذين لا تميزهم ميزة ، فينتشرون في أحياء العاصمة ، ويختلطون بالناس في القاهى وكلهم عيون وآذان . وأغلبهم لصوص عُنى عنهم . وهم يرافقون الحرس في دورته الليلية خلال شوارع القاهرة . ولا يسمح لأحد غير الممي بالتجول في الخارج بلا مصباح أو أى نور بعد غروب الشمس بحوالى ساعة ونصف . وقلما ترى سائراً بعد ساعتين أو ثلاث . ولا يكاد الليل ينصف حتى تمر في العاصمة جميعها فلا تقابل أكثر من عشرة أشخاص أو عشرين ، خلا المراقبين والحراس وبوابى الحارات والدروب . وعند ما يمر عابر سبيل يناديه الحارس بالتركية : « من هذا ؟ (٢) » فيرد المار بالعربية : « ابن بلد ! (٣) » . والحارس الخاص كذلك يصيح : « وَّحد الله » أو « وَّحد » فقط . فيجيبه السائر : « لا إله إلا الله » . ولا يختلف النصارى عن المسلمين في هذا القول ، فهم يفهمون التوحيد فهماً مختلفاً والفروض أن اللص أو من يشرع في مخالفة القانون لا يجرؤ على النطق بهذه الكلمات . وبعض الأشخاص يجيبون الحارس بصوت مرتفع : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ويستخدم الحارس الخاص لحراسة الأسواق والأحياء ليلاً . وهم يحملون نبوتاً ولا يحملون مصباحاً .

والعادة أن يتجول « الضابط » ، أو أفا الشرطة ، في شوارع القاهرة ،

(١) منذ كتابة هذا أجبرت الماهرات في مصر على ترك مهنتهن الفاحشة .

(٢) « كيمن دور أ » عوضاً عن « كم دور أ » .

(٣) ويجيبه « أعمى » لذا كان لا يرى .

ويرافقه غالباً السياف « والشعلجي » ، أى حامل الشعلة المستعملة إلى الآن ^(١) . وهذه الشعلة تشتمل حال إضرامها فلا يصعد لها إلا حين تحرك في الهواء ، عندما تضرب فجأة في الخارج . وهكذا تؤدي عمل مصابيحنا الممتمة . وقد يوضع على الطرف المشتمل إناء صغير أو جرة أو يغطى بشيء آخر حين لا نلزم الإنارة . ويقال إن اللصوص كثيراً ما يشعرون بالشعلة في الوقت المناسب فينفادون مقابلة حاملها . وعقوبة من يقابله الشرطى بلا نور هي الضرب ، وقبلها يحاول المقاومة أو الهرب . وكان لرئيس الشرطة سلطة مطلقة في ضرب عنق أى مجرم أو مذهب بلا محاكمة ، حتى ولو كان القانون لا يعاقبه بالإعدام . وكذلك كان له مرؤوسون كما سترى بعد . وقد ندر في السنوات الأخيرة مباشرة هذه السلطة ، وأعتقد أنه لم يعد يسمح لهم بذلك الآن . ويقوم أعوان الضابط بدورهم الليلية مع الجنود لأنهم أحسن معرفة منهم بمخايب اللصوص والأشمار ومناهجهم . ويندر أن يباشر الضابط نفسه سلطة تخرج عن حد القرع أو الجلد .

كثيراً ما يتخذ رؤساء الشرطة وسائل غريبة ، مثل التي تراها في بعض قصص ألف ليلة وليلة ، لاكتشاف المجرم . وأذكر هنا حادثاً ، لا يختلف في صحته أحد ، على سبيل المثال . وسأوريه بالطريقة التي سمعتها : قصد ذات يوم رجل مسكين أغا الشرطة وقال له : يا سيدي ، أقبلت إلى اليوم امرأة وقالت لي : خذ هذا الفرس ودعه في حيازتك وقتاً وأقرضني خمسمائة قرش . فأخذته منها يا سيدي ، وأعطيتها الخمسمائة قرش وانصرفت . وبعد انصرافها قلت لنفسى : لأنظر إلى هذا القرص ، وتأملتة فإذا هو من النحاس الأصفر ، فلطمت وجهي وقلت : سأذهب إلى الأغا وأقص عليه قصتي عسى أن يحقق هذه المسألة ويوضحها ، فليس هناك غيرك من يستطيع مساعدتي في هذه القضية . فقال له الأغا : إصنع إلى ما أقوله لك يارجل . أنقل ما في دكانك ولا تترك فيه شيئاً ثم أفضله ، وبكر في الذهاب صباح اليوم التالي ، وبعد أن تفتح دكانك صبح قائلاً : يا حسرتاه على أموال ! ثم خذ في يديك مدرتين واضرب نفسك بهما وضح : يا أسفاً على أموال

(١) ويخطئ البارون هاسر برجستال باستعمال « مشعلجي » بدلا من « شعلجي » .

فالعامل الأخير لا يحمل مشعلا ولكن شعلة مقتولة وقد وصفت الفعل ورسمته في الفصل السادس

الناس ! فإذا سألك أحد : ما ذا حدث ؟ فقل له : ضاعت أموال الناس ، فقدت رهنًا كان عندي لامرأة ، لو كان ملكي لما انتحبت هكذا . هذا كفيل بأن يكشف لنا الأمر . ووعده الرجل بتنفيذ ما طلب منه ، ففعل كل ما في دكانه . وفي بكرة اليوم التالي ذهب إلى دكانه وفتحه وأخذ يصيح : يا ويلاه على أموال الناس ! وأخذ مدرتين وضرب نفسه بهما وجعل يدور في أنحاء المدينة صارخاً : يا حسرتاه على أموال الناس ! ضاع رهن لامرأة كان عندي ، لو كان ملكي لما أهمني . فسمعت المرأة التي رهنَت القرص صياحه وتبينت أنه الرجل الذي خدعته ؛ فقالت لنفسها : اذهبي وارفعي دعوى عليه ؛ وذهبت إلى دكانه راكبة حماراً لتكسب نفسها أهمية وقدرًا ؛ وقالت له : يا رجل ، أعطني مالى عندك ؛ فأجابها : ضاع ؛ فصاحت : قطع الله لسانك ! هل أضمت مالى ؟ لأذهبن إلى الأغا ولاخبرنه بذلك ؛ فقال لها : اذهبي ! وذهبت إلى الأغا وسردت شكواها . فبعث الأغا في طلب الرجل . فلما جاء قال للمشتكية : مالك عنده ؟ فأجابته : قرص من الذهب البندق الأحمر ؛ فقال الأغا : يا امرأة ، عندي هنا قرص ذهبي أود أن أريك إياه ؛ فقالت : أرينيه ، يا سيدي ، فإني أعرف قرصى . فخل مندبلاً وأخذ منه القرص الذي رهنته ، وقال : أنظري فنظرت إليه وعرفته ، فطأطأت رأسها . وقال الأغا : ارفعي رأسك وأخبريني أين نقود هذا الرجل ؟ فأجابت : يا سيدي ، إنها في بيتي . فأرسل معها إلى المنزل السياف مجرداً من سيفه ، وعادت بكيس فيه النقود . وأعيدت الخمسة قرش إلى صاحبها . ثم أمر الأغا السياف بأخذ المرأة إلى الرميطة ، وهي مكان فسيح مكشوف أسفل القلعة ، ليقطع رأسها هناك ؛ ووافذ الأمر !

أما أسواق القاهرة ، والموازين والمكاييل ، فتخضع لمراقبة المحتسب . وهو يجوس من حين لآخر خلال المدينة ، يتقدمه عامل يحمل قسطاساً كبيراً ، ويقعده الجلادون والخدم . وهو يمر على الدكاكين والأسواق ، واحداً واحداً ، وأحياناً يتفقد واحداً هنا وواحداً هناك ، فيفحص الميزان والأوزان والآكيال ، كما يستفهم عن أثمان المؤن من مأكولات وغيرها . وكثيراً ما يستوقف خادماً ما ، يقابله صدفة في الطريق حاملاً مأكولات قد اشتراها ، فيسأله عن ثمنها ووزنها .

فإذا تبين له أن البائع استعمل موزان أو مكييل مغشوشة ، أو طفف الميزان ، أو زاد على سعر السوق ، أنزل به العقوبة في الحال . والعقوبة العامة هي الضرب أو الجلد . ورأيت مرة رجلاً تنفذ عليه عقوبة مختلفة ، لبيعه خبزاً ناقص الوزن : خزم أنفه ، وعلقت فيه كعكة ، بطول الشبر وبسمك عرض الأصبع ، وجرد من ثيابه ، إلا قطعة من الكتان حول صلبه ، وشدَّ ، وذراعه خلفه وقدماه فوق قاعدة صغيرة ، إلى قضبان شبك من شبابيك جامع الأشرفية في أهم شوارع المدينة . وبقي كذلك حوالي ثلاث ساعات معرضاً لأنظار الجمهور المحتشد وأشعة الشمس المحرقة .

وكان ممن عين محتسباً ، بعيد قدومي الأول إلى مصر ، رجل كردى اسمه مصطفى كاشف ، تولى سلطته بأقصى الطرق ، فكان يقطع شحمة الأذن أو طرفها لجرم مهما صغر ولغير جرم . وفي مرة قابل رجلاً شيخاً يقود حميراً محملة بطيخاً ، فأشار المحتسب إلى واحدة من أكبرها حجماً ، وسأل عن ثمنها . فأمسك المجوز شحمة أذنه وقال : اقطعها يا سيدي ! فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة ، فكان الجواب واحداً . فاغتاظ المحتسب ، ولكنه لم يمالك أن ضحك ، وقال : هل أنت مجنون أو أصم ؟ فأجاب المجوز : « لا ، لست مجنوناً ولا أصم ، ولكنني أعرف أنني إذا قلت ثمن البطيخة عشرة فضة ، فستقول « اقطع أذنه » ؛ وإذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة ، فستقول « اقطع أذنه » ؛ لذلك اختصرت الأمر وقلت اقطعها ودعني أتبع طريقي » . ولم ينبج إلا ما في تهكمه المفاجئ من فكاكة .

كان قطع الأذن هو العقوبة المادية التي يوقعها هذا المحتسب ؛ ولكنه اتبع أحياناً طرقاً مختلفة . فقد عاقب جزاراً ، باع لحماً ينقص عن الوزن الحقيقي أوقية ونصفاً ، بقطع هذا القدر من ظهره . وأمر بتجريد بائع كثافة ، حصل على زيادة في الثمن تافهة ، من ثيابه ووضعه على الصينية النحاسية المستديرة حيث تسوى الكثافة ، وتركه كذلك حتى احترق احتراقاً رهيباً . وكان يعاقب الجزارين بوضع كلابة في أنوفهم يملق بها قطعة من اللحم . وفي ذات يوم قابل هذا المحتسب رجلاً حاملاً صندوقاً كبيراً صفت فيه قتل نخارية من سمود ، وهو يبيعهابوصفها من قنا ، فأمر أتباعه أن يكسروا القل على رأسه واحدة واحدة . وكان يظهر طغيانه خارج

ولايته . ففي ذات مرة خطر له أن يرسل حصانه إلى الحمام ، وطلب من صاحب حمام بجواره أن يعد المدة لاستقباله والعناية بتحميته وتنعيم جلده . فثقل على صاحب الحمام هذا الأمر المجيب ، وخطر بأن قال : إن أرضية الحمام من الرخام ، وقد ينزلق الجواد فيقع ؛ وقد يصاب ببرد عند خروجه ، فيحسن لذلك نقل ماء الحمام إلى الإصطبل حيث تباشر عملية الحمام . فقال مصطفى كاشف : « إنى أرى السبب غير ذلك . أنت لا تريد أن يذهب جوادى إلى حمامك » . وأمر بعض خدمه أن يطرحوه أرضاً ، ويضربوه بالعصى حتى يأمرهم بالكف . ولم يأمرهم بالكف حتى مات المسكين .

ولسفوات قليلة خلت كانت العادة أن يسمى بين يدى المحتسب ، عند طوافه بالمدينة لفحص الموازين والمكاييل ، رجل معه ميزان أكبر حجماً من الميزان المستعمل . ويقال إن قب هذا الميزان كان أنبوبة مخوفة بها زئبق ، فكان حامل الميزان يستطيع إذا عرف الدين رشوا سيده أن يرجع إحدى الكفتين بسهولة . ويشرف على الأسواق العامة المستخدمون المكفون بمراقبة تجارة الباشا وصناعاته المختلفة . ووظيفتهم كوظيفة المحتسب سواء بسواء . وقد اشتهر بعضهم بارتكاب أرذل أنواع البغى والقسوة . وكان أحدهم ، ويسمى على بك ، « ناظر القماش » ، إذا وجد أحداً يملك نولاً خاصاً ، أو صادفه يبيع ما نسجه ، يشده في قطعة من هذا النسيج ، يغمسها في الزيت والقار ؛ ثم يعلقه هكذا في فرع شجرة ، ويوقد فيه النار . فأباد الكثيرين بهذه الطريقة الوحشية . وقد مات هو نفسه حرقاً في جم غير أثناء انفجار مخزن بارود بمنحدر القلعة الشمالى سنة ١٨٢٤ . وقال صديقى الذى حدثنى عن فظائع هذا الوحش : « عند ما نقلت جثته لدفنها ، صلى عليها الشيخ الروسى ، شيخ الجامع الأزهر يومئذ ، فى مسجد الحسين ؛ وكنت أقوم بالتبليغ خلف الإمام ، فلما نطق الشيخ بالدعاء ، ساد السكوت بين الحاضرين الكثيرين ، ومضى الشيخ يقول : وكان من الصالحين ، فلم يسمع لأحد صوت . فارتبك الشيخ ، وقال بصوت خافت : ليرحمه الله . ثم قال صديقى ، مواصلاً حديثه ، الآن نستطيع أن نؤكد أن مصير هذا الرجل الملعون إلى جهنم . ومع ذلك لا تزال زوجته تقيم له ختمة فى منزلها ، وتوقد له كل ليلة شمعتين فى مسجد الحسين ! » .

والكل يحى من أحياء العاصمة شيخ ، يسمى « شيخ الحارة » ، وهو يباشر سلطته
للمحافظة على النظام ، ولفض صغير المشا كل بين السكان ، ولطرد من يعكر صفو
الجيران . وتنقسم العاصمة إلى ثمانية أقسام ، يرأس كل منها شيخ يسمى « شيخ التمن » .
وكذلك كان لكل طائفة من الطوائف التجارية والصناعية المختلفة في العاصمة
وفي غيرها من المدن الكبيرة شيخ يحكم في المنازعات المتعلقة بهذه التجارة أو
الحرفة ، ويصدق على قبول الأعضاء الجدد .

كذلك يخضع خدم القاهرة لأمر شيخوخهم . ويستخدم الخدم بواسطة
هؤلاء الشيوخ ، إذ يشهدون لهم بحسن السلوك مقابل قرشين أو ثلاثة ؛ فإذا
ارتكب الخادم سرقة يلزم الشيخ بمويعض السيد ، ولو لم يحصل على المال المسروق
واللصوص أيضا ، منذ سنوات قليلة ، اتخذوا كبيراً منهم شيخاً عليهم .
وكثيراً ما كان هذا الشيخ يطالب بالبحث عن المسروقات ، وتقديم المجرمين
للمحاكمة ؛ وكان على العموم يقوم بذلك . ومما يستحق الذكر أن هذا النظام
العجيب كان سائداً في عهد المصريين القدماء (١) .

يحكم بطريرك الأقباط ، وهو الرئيس الأعلى لكنيسة ، في القضايا الصغيرة
بين المتقاضين من طائفته في العاصمة ؛ ويقوم مرؤوسوه من القسس مقامه في البلاد
الأخرى ؛ وقد تستأنف أحكامهم أمام القاضي . والمسلم الذي يعتدى عليه قبطي
أن يرفع أمره إلى البطريرك أو إلى القاضي . أما القبطي الذي يقاضى المسلم فيجب
عليه أن يقصد القاضي ؛ واليهود كذلك . والفرنجة أو الأوربيون على العموم
لا يخضعون إلى غير قناصلهم ، إلا إذا جنوا على مسلم ، فيسلمون إلى السلطات
التركية ، التي تستأنف أمامها ، من ناحية أخرى ، قضايا الفرنجة الذين يعتدى
عليهم أى مسلم .

ويخضع سكان الأقاليم لحكم المستخدمين الأتراك والمصريين . ويقسم القطر
المصرى إلى عدة مديريات واسعة ، يتولى كلا منها عثمانلى . وتقسم هذه المديريات
إلى مراكز ، يديرها موظفون من الوطنيين يلقبون « بالمأمور » و « الناظر » .
وللقرية ، كالمدينة ، شيخ ، يسمى « شيخ البلد » ، ويكون من أهل القرية المسلمين .

وكان هؤلاء المستخدمون جميعاً ، ماعدا شيخ البلد ، أتراكاً من قبل . وكان هناك ولاية أتراك آخرون يقولون المراكز ، وكان يطلق عليهم اسم « كاشف » و « قائمقام » ؛ وقد حدث هذا التغيير قبيل زيارتي الثانية لمصر . ويشكو الفلاحون من أن حالهم أصبحت أسوأ مما كان قبلاً . ولكنهم على العموم يقاسون طغيان الولاية الأتراك أشد مقاساة .

وبين الحادث الآتي حالة الفلاح المصرى فى بعض الأقاليم بعض البيان . فى ليلة ما ذهب حاكم مدينة طنطا (١) ، وهو تركى (٢) سبىء السيرة والسلوك ، إلى أهرام الحكومة بالمدينة ، فوجد فلاحين نائمين هناك ، فسألها من يكونان وماذا يفعلان فى هذا المكان . فقال أحدهما إنه أحضر من إحدى قرى المركز ١٣٠ أردباً من القمح . وقال الآخر إنه أحضر ٦٠ أردباً من أرض تابعة للمدينة . فقال الحاكم لهذا : « أيها اللص ! هذا الرجل يورد ١٣٠ أردباً من قرية صغيرة ، وأنت تورد ٦٠ أردباً من أراضى المدينة ؟ فأجاب فلاح طنطا : « هذا الرجل لا يورد القمح إلا مرة واحدة كل أسبوع ، أما أنا فأورده كل يوم » . فأسكته الحاكم وأمر أحد الخدم أن يشنقه على فرع شجرة قريبة . فنفذ الأمر ، وعاد الحاكم إلى منزله . وفى الصباح التالى عاد ثانياً إلى الأهرام ، فبصر برجل ينقل غلالاً كثيرة إلى الداخل . فاستفسر عنه وعن المقدار الذى أتى به . فأجابه الخادم الذى شنق الفلاح فى الليلة السابقة : « هذا هو الرجل يا سيدى الذى شنقته لإطاعة لأوامرك ليلة أمس ، وقد أحضر ١٦٠ أردباً » فصاح الحاكم : « ماذا ؟ هل بعث الرجل من قبره ؟ » فأجابه الخادم : « لا يا سيدى . إننى علقته وقدماه كانتا تلمسان الأرض ، ولما انصرفت حللت عقدة الحبل . إنك لم تأمرنى بقتله » فقدمم التركى قائلاً : « آها ! إن الشنق والقتل شيئان مختلفان . إن اللغة العربية غنية . فى المرة القادمة

(١) هكذا تنطق الآن . وكانت سابقاً طنطدا (المؤلف)

أنظر الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك الجزء الثالث عشر صفحة ٥٥ : طنطدا بمهمة مفتوحة فنون ساكنة فidal مكسورة فتنة فوقية مقصورة . كذا سمع من بعض الفضلاء ، والعامية يقولون طنتا وهى مدينة كبيرة ، واسمها القبطى القديم طنيطاد ، وقال ابن حوقل إن طنطدا قرية كبيرة بها جوامع وأسواق وملحق بها جملة قرى . (المترجم)

(٢) سليمان أغا السلحدار وقد توفى حين كتابة هذا الكتاب .

سأقول اقتل . اعن أبى داود (١) . وهذه هى كنية الرجل .

وأذكر حادثة أخرى تناسب المقام زيادة فى بيان طبيعة الحكومة التى تحكم المصريين يومئذ . عين فلاح ناظرأعلى المنوفية ، قبيل قدومى الثانى إلى مصر . وفى أثناء جباية الضرائب ، طوب فلاح فقير بمبلغ ستين ريالاً ، والريال تسمون فضة ، فالمبلغ مائة وخمسة وثلاثون قرشاً . فقال الفلاح إنه لا يملك غير بقرة لا تكاد تصلح شأنه وتقيم أوده هو وعائلته . فلم يأمر الناظر بضربه ، كما هى العادة عند ما يمتنع الفلاح عن دفع الضريبة ، وإنما بعث بشيخ البلد لياتى ببقرة الفلاح المسكين ، ثم أمر بعض الفلاحين بشرائها . فلم يستطع أحد شراءها لقلة المال . فأرسل الناظر فى طلب الجزار ، وأمره بذبح البقرة ، وتقطيعها ستين قطعة . وبعد أن دفع إلى الجزار رأس البقرة أجرة له ، أحضر ستين فلاحاً معاً ، وأجبر كلا منهم على شراء قطعة من البقرة بريال . فذهب صاحب البقرة ، باكيًا شاكياً ، إلى محمد بك الدفتردار رئيس الناظر ، وقال له : « يا سيدى أنا مظلوم بأئس . لم أكن أملك غير بقرة واحدة ، بقرة حلوب . كان لبنها قوتنا أنا وعائلى ، وكانت تحرث لى الأرض وتدرس الغلال . وكانت معيشتى كلها عليها . وقد أخذها الناظر وذبحها وقطعها ستين قطعة باعها إلى جيرانى بستين ريالاً ، بينما كانت تساوى مائة وعشرين ريالاً أو أكثر . أنا مظلوم بأئس غريب عن هذا المكان لأنى من قرية أخرى ، ولكن الناظر لم يرحمنى . وقد أصبحت أنا وعائلى نسأل قوتنا ولم ندخر شيئاً . رحمتك وعدلك ياسيدى . أتوسل إليك بقداسة حريمك » . فأمر الدفتردار بإحضار الناظر وسأله : « أين بقرة هذا الفلاح ؟ » فقال الناظر : « بعتها » . « بكم ؟ » . « بستين ريالاً » . « ولماذا ذبحتها وبعتها ؟ » . « كان على صاحبها ستون ريالاً ضريبة على الأرض ، فأخذت البقرة وبعتها وفاء للمبلغ » . « وأين الجزار الذى ذبحها ؟ » . « فى منوف » . فأرسل الدفتردار فى طلب الجزار ، فلما قدم قال له : « لماذا ذبحت بقرة هذا الرجل ؟ » فأجاب الجزار : « إن الناظر أمرنى وما كان لى أن أعصى أمره لئلا يضربنى ويخرب بيتى . وقد ذبحتها وأعطانى الرأس أجرة لى » ، فقال الدفتردار : « يا رجل هل

(١) أبوداود ، أبوعلى الخ : كنية يستعملها فلاحو مصر على العموم ولا تعنى والداود أو والد على . وإنما تعنى الذى أبوه داود أو على .

تعرف من اشترى اللحم؟» فرد الجزار بالإيجاب . فأمر الدفتردار ناموسه بكتابة أسماء السنتين رجلا وإرسالها إلى شيخ بلدتهم لإحضارهم إلى منوف حيث أقيمت الشكوى؛ وسجن الناظر والجزار . وفي اليوم التالي قدم شيخ القرية ومعه الفلاحون الستون . فأخرج السجينان وأوقفا بين يدي الدفتردار ، فسأل شيخ البلد والفلاحين : « هل كانت بقرة هذا الرجل تساوي سنتين ريالاً ؟ » فأجابوا : « يا سيدى إن قيمتها كانت أكبر » فبعث الدفتردار إلى قاضى منوف وقال له : « يا قاضى ، هذا رجل ظلمه الناظر بأخذ بقرته وذبحها وبيع لحما بستين ريالاً . فما حكمك ؟ » فأجاب القاضى : « إن من يظلم أحد الرعية طاعية قاس . ألا تساوى البقرة مائة وعشرين ريالاً ، فباعها الناظر بستين؟ إنه ظلم صاحبها » . فقال الدفتردار لبعض جنده : « اقبضوا على الناظر وجردوه من ملابسه وأوثقه » ثم قال للجزار « يا جزار ألا تحشى ربك ؟ لقد ذبحت البقرة ظلماً » فأوضح الجزار مرة أخرى أنه إنما اضطر إلى إطاعة أمر الناظر . فقال الدفتردار : « أنفذ ما أمرك به ؟ » فأجاب الجزار : « نعم » . فقال الدفتردار : « إذبح الناظر » . وسرعان ما قبض الجند عليه وألقوه على الأرض ، ونحروه الجزار كما ينحرون الحيوان . فقال الدفتردار : « قطعه سـتين قطعة » . فنفذ الجزار الأمر والحاضرون يتأملون هذا المنظر ولا يجرؤون على الكلام . ثم أمر الدفتردار الفلاحين السنتين أن يتقدموا واحداً واحداً ، وفرض على كل منهم قطعة من لحم الناظر بدفع ريالين . وبهذه الطريقة حصل على مائة وعشرين ريالاً . وبعد انصراف الفلاحين سأل الدفتردار القاضى : ماذا يكون جزاء الجزار؟ فأجاب القاضى أن يجازى كما جازاه الناظر . فأمر الدفتردار أن يعطى رأس الناظر . وفرح الجزار بنصيبه الذى لا يساوى شيئاً وهو يحمد الله على أن حظه لم يخنه أكثر من ذلك ، وانصرف وهو لا يكاد يصدق أنه نجا بهذه السهولة . أما صاحب البقرة فدفعت إليه ثمن لحم الناظر .

ويتعدى أغلب حكام الأقاليم في طغيانهم حدود السلطة التي خولهم الباشا إياها ؛ حتى شيخ القرية يسئ استعمال سلطته الشرعية عندما ينفذ أوامر رؤسائه . وليست وظيفة شيخ القرية منصباً يقبض صاحبه مرتبه بلا عمل . ففي وقت جباية الضرائب ، كثيراً ما ينال شيخ القرية من الضرب أكثر مما ينال مرؤوسيه ؛

إذ أنه عند ما لا يورد سكان القرية المبالغ المطلوب ، يضرب الشيخ لتقصير الفلاحين وهو لا يدفع دائماً نصيبه حتى يشبع ضرباً . ويفتخر الفلاحون أجمعون بما يتركه الكرياج على أجسادهم من آثار لرفضهم دفع الضرائب . وكثيراً ما يقباهون بمدد الضربات التي نالوها قبل أن يدفعوا بنودهم . ويصف إميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus (١) مصر في زمنه بالخلق نفسه (٢)

ويباغ إيراد والى مصر ، على ما يقال ، ثلاثة ملايين جنيه استرليني (٣) . يرد نصفها تقريباً من الضرائب المباشرة على الأقطان ، ومما يؤخذ من الفلاح ظلماً بطريق غير مباشر . ويرد النصف الباقي على الأخص من الرسوم الجركية ، والضرائب على النخيل ، ومن يبيع محصولات الأرض المختلفة التي تكسب الحكومة منها ما يزيد على الخمسين في المائة . وقد نعى الباشا الحالى إرادته إلى هذا القدر باتباعه أشد الوسائل تعسفاً ؛ فقد نزع من الملاك أراضيهم ومنعهم معاشاً بنسبة مساحة الأرض وصفاتها ؛ ولذلك لم يكن للمزارع ما يخلفه لأولاده غير كوخه . وقد يترك لهم بعض الماشية وبعض مدخرات طفيفة .

وتقدر ضرائب الأقطان المباشرة حسب مزايا الأرض الطبيعية . ويباغ متوسطها حوالى ثمانية شلنات للفدان (٤) . ولكن الفلاح لا يستطيع أن يحصى ما تطلبه الحكومة منه . فهو يعانى الكثير من الطلبات غير المباشرة (وهي تختلف باختلاف السنين ولكنها تفرض على الفدان) من الزبدة ، والعسل ، والشمع ، والصوف ، والسلال المصنوعة من السمف ، والحبال المفتولة من ألياف النخيل ، وغير ذلك من المحاصيل . ويجبر الفلاح أيضاً على دفع أجرة الجمل التي تحمل الغلال إلى شونة الحكومة ، وعلى القيام بنفقات عديدة أخرى . وتستولى الحكومة على جزء من

(١) وهو أشهر مؤرخى الرومان فى القرن الرابع بعد الميلاد . وكان من يونانى سوريا ولد بأناطكية بين سنتى ٣٢٥ و ٣٣٠ على التقريب ، وتوفى بعد سنة ٣٩١ . سلك نفسه فى نظام الجيش واشترك فى عدة حملات ثم رحل إلى إيطاليا حيث كتب تاريخ الأمبراطورية الرومانية فى ٣١ جزءاً

(المترجم)

(٢) كلما تساهل الفلاح فى الدفع طلب منه أكثر . الكتاب الثانى والعشرون .

(٣) وبعضهم يقدره بخمسة ملايين والبعض الآخر أكثر من مليونين بقليل

(٤) وقد أقتصت مساحة الفدان أخيراً .

محصول الأرض^(١)، وقد تستولى على المحصول كله ، بثمن مناسب معين ، لا بفي ، مع ذلك ، في عدة أقاليم ، ما تبقى من ديون الفلاحين المصريين^(٢) . وكثيراً ما يضطر الفلاح ، للحصول على ضروريات الحياة ، أن يسرق محصول أرضه ، ويحمل ما يستطيع حمله إلى كوخه سراً . ويحضر الفلاح بذور أرضه بنفسه أو يأخذها سلفة من الحكومة ، ولكنه في هذه الحالة قلما يحصل على كمية كافية من التقاوى ، لأن القائمين بالأمر ، يسرقون منها مقداراً كبيراً قبل أن يسلموها للفلاح . ولا يتسع هذا الكتاب لذكر ما يعانيه الفلاح المصري من ظلم الأمور والمستخدمين وخياناتهم . ويندر أن يستطيع الفلاح أن ينعم بالحياة مع شدة العذاب ، لذلك لا أرى ضرورة للقول بأن الفلاح قلما يثابر على تحمل أعباء الزراعة إلا إذا أجبره على ذلك الحكام .

ولم يستول الباشا على الملكية الخاصة فحسب ، بل أضاف إلى خزائنه كثيراً من دخل المنشآت الدينية ، باعتبار أن أموالها المتراكمة تزيد على اللازم . وقد بدأ يفرض ضريبة ، حوالى نصف ضريبة الأرض المنتظمة ، على الأراضي الموقوفة على المساجد والسبل والمدارس العامة ... الخ . ثم استولى على هذه الأراضي استيلاء تاماً ، ومنح عوضاً عنها بعض رواتب سنوية ، لترميم المباني ، ولنفقة الأشخاص التابعين للوقف ، من نظار وموظفين دينيين وخدم وطلبة وغيرهم من المستحقين . وقد أثار الباشا بهذا مقت رجال العلم والدين الشديد ، وعلى الأخص نظار المساجد ، الذين كانوا يثرون من الأموال الوافرة المودعة تحت رعايتهم وأمانتهم . أما ما وقف على خدمة المساجد والمنشآت العامة (وهي أوقاف مختلفة وقفها كثيرون من طبقات مختلفة) فلم يمسها الباشا حتى الآن .

وقد بلغت ضريبة النخيل حوالى مائة ألف جنيه استرليني ، وهي تقدر حسب أنواع النخيل ، وتكون ، على العموم ، بمقدار قرش ونصف قرش على كل نخلة وتبلغ ضريبة الدخل ، المسماة « الفِرْدَة » ، على العموم ٣٣ أو أكثر من دخل الرجل أو مرتبه السنوى ، إذ أمكن تحديد ذلك . إلا أن الحد الأقصى لا يتعدى

(١) وتستولى الحكومة دائماً على بعض المحصولات كلها مثل القطن والكتان الخ .

(٢) حتى ديون قرية ما كثيراً ما تفرض على سكان قرية أخرى سبق أن دفعوا ما عليهم

خمسائة قرش . وهي تفرض في المدن الكبيرة على الأفراد ، وفي القرى على المنازل .
وتبلغ ضريبة الدخل في العاصمة ثمانية آلاف كيس ، أو حوالى أربعين ألف
جنيه استرلينى .

ويدفع سكان العاصمة وغيرهم من سكان المدن الكبيرة ضريبة ثقيلة على
الحبوب الخ . وضريبة الحبوب ثمانية عشر قرشاً على الأردب من كل نوع ؛ وهذا
المقدار يساوى ثمن القمح في مصر وقت المحصول الطيب .

(١) كان لا بد من دفع ضريبة الدخل على كل شخص يملك ثروة معينة ، وكان هذا الضريبة تدفعها كل سنة .

(٢) هذه الضريبة كانت تدفعها كل سنة كل شخص يملك ثروة معينة ، وكان هذا الضريبة تدفعها كل سنة .

الفصل الخامس

الحياة المنزلية

الآن ، وحسبنا ما نظرنا في حالة مسلمي مصر الأخلاقية والاجتماعية ، نستطيع أن نلقى نظرة على حياتهم المنزلية وعاداتهم المألوفة . ولنبدأ بالطبقتين العليا والوسطى .

يطلق على رب العائلة ، أو من يبلغ سن الرجولة ، إذا لم يكن خادماً أو خاملاً ، لقب « شيخ » احتراماً وتشريفاً . والمعنى اللغوي لكلمة شيخ هو عجوز ، ولكن كثيراً ما تستعمل مرادفة لفظة « سيد » ، وإن أطلقت بصفة أخص على رجال الدين وأولياء الله . ويقال للشريف (من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم) « السيد » أيًا كان منصبه . وكثير من الأشراف يشغلون خدماً وزبالين وسائلين ومع ذلك يلقبون بالسيد ، ويميزون بالمهامة الخضراء (١) ؛ إلا أن غالبهم يفضلون على هذه الامتيازات لقب الشيخ والمهامة البيضاء . ويسمى من قام بفریضة الحج « الحاج » (٢) . على أن هناك جملة حجاج ، مثل الأشراف ، يفضلون لقب الشيخ . ويطلق على المقائل بوجه عام لقب « الست » .

وقبل أن أصف عادات رب العائلة ، يجب أن أشير إلى الطبقات المختلفة التي قد تتكون منها العائلة . الحريم ، أي نساء المنزل ، ولهن غرف خاصة بهن (يطلق عليها ، كما يطلق على النساء « الحريم ») ، لا يسمح للرجال بدخولها ، ما عدا رب العائلة وبعض الأقارب الأدين والأطفال . ويتألف الحريم من زوجة أو أكثر ،

(١) كثيراً ما يتزوج رجال هذه الطبقة ونسأوها من غير الأشراف ولما كان لقب الشريف يورث من أي الأبوين فقد كثر عدد من يتمتع بهذا التمييز كثرة عظيمة .

(٢) هذه الكلمة تنطق هكذا في القاهرة وأغلب أنحاء مصر . ولكن أكثر البلاد العربية تنطقها « حاج » (بتطعش الجيم) ويستعمل الأتراك والفرس بدلا منها كلمة « حاجي »

ثم من الجوارى ، والبيض من الجوارى والحبشيات أو نساء الجلا (١) يقتنين على العموم للتسرى ، وأما السود منهم فيتخذن للخدمة ، وأخيراً الخادמות الحرائر . أما التابعون المذكور فهم عبيد سود أو بيض ، ثم خدم أحرار وهم الأكترية . وكلما يبيح المصريون لأنفسهم ما أباح الدين من تعدد الزوجات . ولا يزال عدد من يماشراً أكثر من امرأة بالزواج أو التسرى قليلاً . حتى أن أغلب الذين يكتفون زوجة واحدة لا يتسرون لئتمتعوا بالهدوء المنزلى ، إذ لم يكن سبب آخر . ولكن بعضهم يفضل اقتناء جارية حبشية للتسرى على القيام بالنفقات الزوجية المرهقة ، ويجعل لخدمتها جارية سوداء أو خادمة مصرية . ويندر أن يحتفظ الرجل بزوجتين أو أكثر في المنزل نفسه ، وإلا خصص لكل منهم غرفة متميزة . ويقوم على خدمة رب الدار وضيوفه خادم أو أكثر ، ومنهم خادم يسمى « سقا » ، ولكنه على الأخص يقوم على خدمة السيدات وهن خارج المنزل فقط (٢) ، ثم البواب وهو يجلس دائماً على باب المنزل ، والسائس للاعتناء بالاصطبل . وكلما يمتلك المصريون ممالك ، إذ أن أغلبهم في حوزة أغنياء الترك . ويندر أيضاً أن يكون لأحد غير عظماء الأتراك أغوات . ويفتخر أغنياء التجار المصريين عند ما يسير في ركابهم ، أو يحمل شبكهم ، عبد أسود .

يبكر المصرى في نومه وفي استيقاظه ، وهو ينهض للصلاة قبل الفجر ، وبينما يقوم بفروض الوضوء والصلاة ، تجهز له امرأته أو جاريته القهوة ، وتحشو له شبكة تبغاً ، وتقدمهما له حين ينتهى من فروضه الدينية .

وكثير من المصريين لا يتناولون شيئاً قبل الظهر غير القهوة وتدخين الشبك وبعضهم يتناول أكلة خفيفة في ساعة مبكرة ، ويتكون الفطور من الخبز والبيض

(١) الجلا Galla شعب حاي يسكن شرق أفريقيا ، وهو مشتت في أقاليم الحبشة الوسطى وكينيا . ويبدو أن لفظة « جلا » لقب حبشى

ويقول أرنو دابادي Arnaud d'Abbadie أن مسلمي الأحباش يروون أن الرسول (صلعم) حينما أرسل إلى « الجلا » من يدعوهم إلى الاسلام قال رئيسهم : كلا ! (أو جلا ، أى لا) فلما سمع الرسول بذلك قال : إذاً لنكن تسميتهم ذالة على امتناعهم عن الإيمان .

و « الجلا » جنس جميل الشكل إلى درجة عجيبة ، كمت البشرية ، ناعم الشعر موجه ، وسماه على العموم أوربية . (أنظر دائرة المعارف البريطانية ، مادة Gallas) . المترجم (٢) إلا إذا كان هناك أغا ، والسقا على العموم هو رئيس الخدم .

والزبد والجبن والقشدة أو لبن الزبادى الخ ... أو فطيرة تؤكل وحدها أو بالمسل
يصب فوقها أو بالسكر . ومن الألوان المألوفة في الفطور الفول المدمس ، وهو
يدمس بأنضاجه على مهل ليلة بطولها في إناء من الفخار ، يدفن إلى رقبتة في نار
الفرن أو الحمام ، بعد أن تسد فوهته سداً محكماً . ويؤكل الفول بزيت بذرة الكتان
أو بالزبد ، وقد يصمر عليه قليل من الليمون . ويباع هذا الفول في أسواق القاهرة
وغيرها من المدن . ويتكون طعام الفقراء من الخبز و« الدقة » ، وهي خليط من
الملح والفلفل مع الزعتر أو النعناع أو الكمون وإحدى المواد الآتية أو أكثرها
أو جميعها : وهي الكزبرة والدارسينى والسمن والحصى . ويصنع الخبز مستديراً
مسطحاً ، بطول الشبر تقريباً وفي عرض الأصبع أو أقل .

ويعتبر بالتدخين والقهوة كل من يستطيع هذا الترف ، في الصباح
المبكر وأحياناً أثناء النهار . وهناك كثيرون ينسدر أن تراه بدون شبك ،
إما بين أيديهم وإما مع الخادم . ويضع المدخن ، لاستعماله اليومى ، دخانه في
كيس من الصوف أو الحرير أو الخمل ، يحفظه في عب قفطانه ، وكثيراً ما يكون
معه كيس آخر به الزناد والصوفان .

ويبلغ طول قصبة التدخين (وأسمائها عديدة منها الشبك ^(١)) والعود الخ)
أربع أقدام أو خمساً ، والبعض أقصر من ذلك ، والبعض الآخر أطول بكثير .
وما يستعمل عادة في مصر يصنع من خشب « الجر مَشَق » . وأكثر طول القصبة ،
من الفم إلى ثلاثة أرباعها يغطى بالحرير الذى تحم طرفيه سلوك ذهبية محبوكة
بالحرير الملون ، أو تحدهما ماسورتان من الفضة المذهبة ؛ ويتدلى من الغطاء
الحريرى في الحد الأسفل شراية حريرية . وكان هذا الغطاء مخصصاً بادية الأمر
ليبلل بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالي الدخان . ولكن الشبك لا يغطى إلا إذا
كان عتيقاً أو قبيح الشكل . وكثيراً ما يستعمل أيضاً الشبك المصنوع من خشب
السكرز ، خصوصاً في الشتاء ، وهو لا يغطى أبداً . ولا يبرد الدخان في شبك
السكرز صيفاً مثل ما يبرد في الشبك السابق ذكره . أما « الحجر » فهو من

(١) من التركية (شبق)

الآجر (١) ؛ وأما الفم ، أو « التركيبة » ، فيتكون من قطعتين أو أكثر من الكهرمان الفاتح اللون ، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع بالمينا والحجر اليماني واليشب والعقيق ، أو غير ذلك من الأحجار الكريمة أو المعادن النفيسة . والفم آثم ما في الشبك ، وقد يرصع بالماس . ويبلغ ثمن الشبك ، إلا أكثر شيوعاً بين الطبقة الوسطى ، من جنيه إلى ثلاثة جنيهات أسترلينية . ويوضع فوق الشبك أنبوبة من الخشب كثيراً ما تغير كلما تلوثت بزيت الدخان . والشبك ذاته يتطلب النظافة كثيراً ، وينظف بألياف الكتان مشدودة في سلك طويل . ويميش كثيراً من فقراء القاهرة على تنظيف الشبك .

ويدخن أفراد الطبقة الراقية في مصر تبغاً له عطر لطيف لذيد ، يجلب أكثره من جوار اللاذقية في سوريا . وأحسن الأصناف « الدخان الجبلى » يزرع على تلال هذه المدينة . وهناك صنف قوى ينسب إلى مدينة صور ، وهو « الدخان الصورى » يخلط أحياناً بالصنف السابق ، يستعمله أفراد الطبقة الوسطى . وعند ما يدخن المصريون أو الشرقيون يسحبون نفساً طويلاً ، فيصل كثيراً من الدخان إلى الرئة . ويمبرون عن التدخين عادة بشرب الدخان أو شرب التبغ . والتقليد يبصق عندما يدخن . ولم أر أحداً يفعل ذلك إلا نادراً جداً .

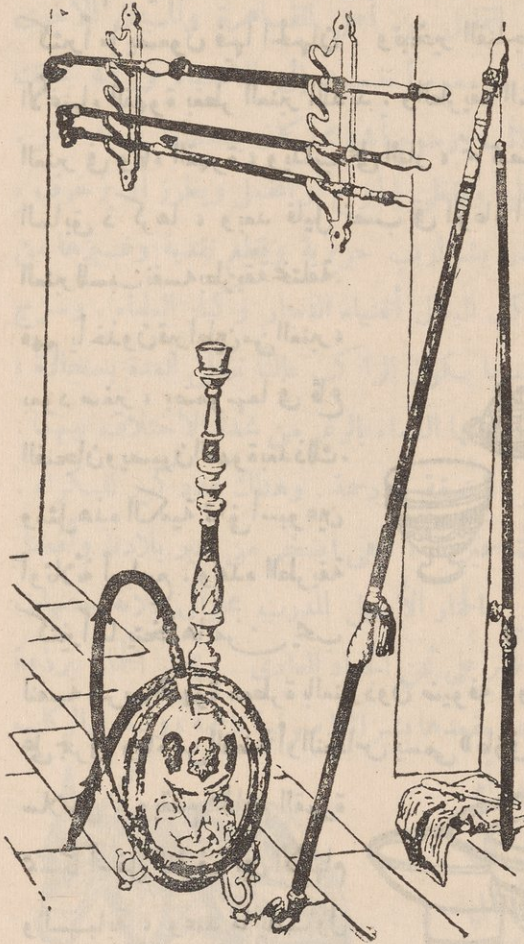
ويستعمل بعض المصريين الشبك الفارسى الذى يمر فيه الدخان خلال الماء ، وهذا النوع يستعمله عادة أفراد الطبقة الراقية ، ويسمى نارجيلة لأن الوعاء الذى يحوى الماء جوزة هندية (واسمها بالعربية نارجيلة) . وهناك نوع آخر ذو وعاء زجاجى يسمى « شيشة » (٢) . وكلا النوعين له أنبوبة طويلة لينة . وهناك نوع خاص من التبغ الفارسى يسمى « تنباك » يستعمل فى شبك الماء . وهو يغسل أولاً عدة مرات ويجعل بمد ذلك فى حجر الشبك وهو رطب ، ثم يوضع عليه جمرتان أو ثلاث من الفحم . وللتنباك عطر لطيف مقبول . ولكن شدة استنشاق الدخان فى هذا النوع من التدخين يضر بالرئة الضعيفة (٣) . ومدخن الشبك الفارسى يجذب الدخان

(١) ويوضع تحت الحجر صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصر من النار ، ويستعمل أيضاً صينية خشبية ليوضع فيها الرماد .

(٢) كلمة فارسية بمعنى (زجاجة) .

(٣) وهى مع ذلك توصف لمن يصاب بالسعال . ويستعمل أحد أصدقائى (أشهر شعراء القاهرة) - وهو مصاب بالربو - النرجيلة من الصباح إلى الليل بلا انقطاع تقريباً

إلى رتتيه مثل ما يستنشق الهواء الخالص . وترجع كثرة أمراض الكبد في بلاد



شكل ٣٣ — قصبات التدخين

العرب إلى استعمال النرجيلة ، كما أنه في مصر يتألم الكثيرون جد الألم بسبب هذا . وهناك نوع يسمى « جوزه » يشبه النرجيلة ، إلا أن أنبوبة قصبية قصيرة بدلا من أنبوبة النرجيلة القابلة للانثناء . ويستعمله رجال الطبقة السفلى التدخين القنباك والحشيش . أما القهوة فهي تصنع قوية لا تحلى بالسكر ولا تخفف باللبن . وفنجان القهوة صغير لا يسع الكثير منها . وهو من الخزف ولا أذن له . فيوضع في ظرف من الفضة أو النحاس تبعا لحالة الشارب . وهو يشبه تقريبا في شكله وحجمه ظرف

البيض عندنا ^(١) . وتحضير القهوة يغلي الماء أولا ، ثم يضاف إليه اللبن ، بعد أن يحمص ويطحن حديثا ، ويقرب ، ثم يماد وعاءه على النار مرات حتى تنضج القهوة . ويبدأ ويبدأ ، ثم تصب في الفنجان قبل أن يزول ما تكون على سطحها من القشدة . ويحب المصريون القهوة القوية الخالصة حبا شديدا ، ولما يضيفون إليها السكر ؛

(١) ويتكون الطقم الكامل من عشرة فناجين بظروفها موحدة الشكل ، ومن فنجان آخر بظرفه ، من نوع أرق ، يقدم لرب الدار أو الضيف الممتاز . وترى في الصورة رقم ٣٤ « البكرج » والظروف والصينية من الفضة . وتحت هذه المجموعة ظرف وفنجان من النوع نفسه على مقياس أكبر ثم ظرف نحاسي فوقه فنجان . وبعض الظروف تصاغ بالفضة المذهبة أو الموحدة الشكل ويقتنى القليل من الأثرياء ظروفًا ذهبية قد ترصع بالماس والياقوت وغيرها من الأحجار ، إلا أن كثيرا من السامين لا يستحسنون استعمال الأوعية الذهبية أو الفضية

وبعضهم يحليها عندما يشمر بتمب . ولا يضيفون إليها اللبن أو القشدة أبداً ، ولكن كثيراً ما يضمون فيها الجبهان . وتبخير الفناجين بالمصطكا شائعة . وقد يطر الأغنياء القهوة بقطر العنبر اللذيذ . والطريقة الشائعة أن يوضع حوالى قيراط من العنبر فى وعاء القهوة ، ويذاب على النار ، ثم تنضج القهوة فى وعاء آخر ، بالطريقة السابق ذكرها ، وبعد قليل تصب فى الوعاء الأول . ومن الناس من يستعمل العنبر للسبب نفسه بطريقة مختلفة .



(شكل ٣٤) طقم قهوة

فهم يأخذون قيراطين من العنبر ، بعود صغير ، يضمونها فى قاع الفنجان ويصبون القهوة بمذلك . ومثل هذه الكمية تكفى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وهذه الطريقة كثيراً ما يتخذها من يحب

لنفسه شرب القهوة معطرة بالعنبر دون ضيوفه . وقد يقدم « بكرج » القهوة موضوعاً على جرفى وعاء من الفضة أو النحاس يسمى « عازقى »^(١) ، ويملق هذا الوعاء فى ثلاث سلاسل . ويقدم الخادم القهوة



(شكل ٣٥) العازقى والنقل

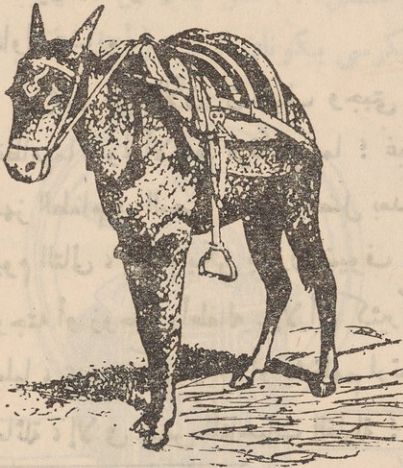
ممسكاً أسفل الظرف بين الإبهام والسبابة ، وعند ما يتناول الفنجان والظرف يستعمل كلتا يديه واضعاً شماله تحت يمينه . وتستعمل مجرة تسمى « منقلأ » ، ويسمىها العامة « منقلأ » ، من

النحاس المبيض بالقصدير ، ويحرق فيها البخور أحياناً . ويتلذذ المصريون بالعطور تلذذاً عظيماً^(٢) . وكثيراً ما يبخرون غرفهم ، وأكثر المواد استعمالاً لهذا الغرض بخور من نوع ردىء يسمى « بخور البر » ، ويستعمل كذلك الجاوى والعود .

(١) يعتبر البارون هامر برجستال أن هذه الكلمة محرفة ويضع عوضاً عنها كلمة « شاسكى » مع أن لفظة عازقى هى المستعملة بين المصريين .

(٢) وقد يعطرون اللحية والشاربين بقطر الزباد .

وقلما يرى المصري ماشياً أبعد من عتبة داره إذا استطاع أن يقتنى ركوبة أو يستأجر حماراً . ولكن القليل من أهل القاهرة والمدن الأخرى من يخاطر باقتناء جواد^(١) ، معرضاً نفسه إلى الاشتباه في أنه يمتلك أموالاً زائدة ، تفرض عليها ضرائب ورسوم أشد مما كان يتحملها بوجه آخر . ويحشى سرج الجواد الحديثة بالقطن ويغطي بالجوخ أو الخمل ويطرز أو يزخرف . ويزين اللجام عند الرأس والصدر بشرارب حريرية وقطع نقدية وغيرها من الزخارف الفضية . والعادة أن يركب البغال أغنياء التجار وكبار العلماء . وسرج البغال كبرذعة الحمير تقريباً . وعندما يكون الراكب عالماً تغطي العدة بسجادة ، وكذلك قد تكون العدة التي يستعملها النساء بالرغم من شدة الاختلاف بينهما . وتستعمل الحمير في شوارع القاهرة الضيقة المزدحمة . وهناك عدد كبير للسكران . واشتهرت القاهرة من زمن بجودة حميرها ، فهي أضخم من حمير بلادنا وأفضل منها في كل ناحية . ويقدر ثمن الحمار الأصيل المدرب بحوالى ثلاثة جنيهات أو أربعة ، وقد يزيد ثمن بعض لحمير على ثمن الجواد العادي . ويجهز الحمار ببرذعة محشوة يغطي مقدمها بالجلد الأحمر ، ومقعداً بشرائط صوفية ناعمة ، ويكون الراكب عالياً دائماً . ويتقدم الراكب خادم أو



(شكل ٣٦) حمار معد للركوب

خادمان ليفسحوا الطريق ، ويحمل كل منهما « نبوتا » قابضاً عليه من أسفل رافعاً إياه إلى أعلى . وقد يرافق الراكب للغاية نفسها خادم يجري بجانب الحمار أو أمامه صائحاً في المارة ليخلوا الطريق عيماً أو شمالاً^(٢) . ومع ذلك يجب أن يكون الراكب حذراً ، فلا يعتمد على خادمه كل الاعتماد ، لئلا تصرعه أحوال

(١) ويرافق السيد خادم يحمل له الشبك سواء أكان راكباً أم راجلاً .

(٢) مثل هذا : إوعي . يمينك . شمالك . ظهرك . وشك . جنبك . رجلك . كعبك . وإلى التركي : صاقين (أى احترس) ، وهي الصيحات المألوفة ، وكثيراً ما يضاف إليها : يا أفندى ! (للتركي) : يا شيخ ! (للمسلم العجوز أو المتوسط العمر) : يا صبي ! (للشاب) =

الجلل الكبيرة . وهذه الحوادث قد لا يكون مفر منها في شوارع القاهرة الأكثر ضيقاً والأشد ازدحاماً . وعندما ينزل السيد إلى منزل ما أو دكان ما ، يملأ الخادم له الشبك ويشمله

ويقضى المصرى أغلب وقته ، إذا لم يكن له عمل منتظم يشغله ، في الركوب والزيارة ، أو شراء حوائجه ، أو في التدخين أو شرب القهوة كثيراً وعلى مهل ، أو في التحدث مع الأصدقاء في المنزل ، أو التمتع بترف الحمام ساعة أو أكثر صباحاً . وفي الظهر عليه أن يؤدي الصلاة إذا كان يقوم بفروضة الدينيه ؛ إلا أنى لاحظت أن القليل من المصريين نسبياً قد لا يهتم هذه الفروض ، وأن هناك كثيرين يندر أن يقيموا الصلاة أبداً . وبعد الظهر مباشرة (إذا لم يكن فطوره متأخراً) يتناول غداء خفيفاً ثم يأخذ الشبك والقهوة . وعند ما تشتد حرارة الجو لا يمنع نفسه من القيلولة . وكثيراً ما ينسحب ليستريح في الحريم حيث تراعى زوجته أو جاريته راحته أو تدلك له قدميه ؛ وحينئذ ، أو عند ما يرغب في الخلوة ، يقول الخادم للزائرين إن السيد في الحريم ، فلا يستدعيه أحد إلا إذا كان لعمل ضرورى . وهو يتمتع مرة أخرى ، بين صلاة العصر إلى الغروب ، بالتدخين والقهوة بمصاحبة أصدقائه في المنزل أو في الخارج . وبعد غروب الشمس يتناول عشاءه .

ويجب على الآن أن أصف وجبتى « الغدا » و « العشا » وكيفية تناولهما ونظامهما . ولم ألاحظ فرقاً بينهما ؛ غير أن وجبة العشاء هي الأهم . والمادة أن يجهز الطعام في العصر ، وما يفضل بعد وجبة العشاء يقدم أثناء وجبة الغداء في اليوم التالى ، إذا لم يكن بالمنزل ضيوف . وعلى العموم يتناول رب الدار طعامه مع زوجته أو زوجته وأطفاله . إلا أن كثيراً من الرجال ، وعلى الأخص رجال الطبقة العليا ، بمنعهم كبرياؤهم ، أو يشغلهم ارتباطهم بمجتمعاتهم ، عن تناول الطعام مع العائلة ، إلا في بعض المناسبات القليلة ؛ وحتى بعض رجال الطبقة السفلى يندر أن

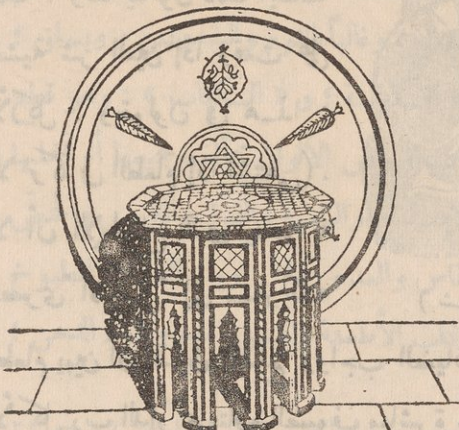
= يا ولد ، أو يا ابنى ! (للولد) : يا شريف ! (للأشراف المعينين بالأخضر) : يا معلم ! (للنصرانى أو اليهودى من أهل البلد) . يا خواجه ! (للأفريقى) : يا ست ! (لاسيدات الطبقة العليا والوسطى) : يا بنت ! (للفقيرة) . ويجب أن ينادى المرأة من الطبقة السفلى « يا بنت » ، مهما كان سنها كبيراً ، ولما فالأرجح أنها لا تتحرك قيد أنملة ؛ وكثيراً ما يطلق على الفتاة الصغيرة أو المرأة الشابة « عروسة » . أما لقب « حاجة » ، فهو نداء شائع للنساء في الطريق .

يأكلوا مع زوجاتهم وأولادهم . ويجب على رب الدار ، عند ما يكون في منزله صديق له ، أن يأمر بإحضار الطعام في وقته ، وهذا لا بد منه إذا كان الضيف أجنبياً ويفسل كل شخص يديه ، وفيه أحياناً ، بالصابون والماء قبل أن يتناول الطعام (١) ، أو على الأقل يصب على يده اليميني بعض الماء (أنظر شكل ٣٧) ويحضّر الخادم لذلك طستاً وإبريقاً من النحاس المبيض أو النحاس الأصفر (٢) . وللطست غطاء به عدة ثقوب ، وفي وسطه نتوء لوضع الصابون ، فيمر الماء عند الغسيل خلال هذه الثقوب إلى داخل الطست بحيث إذا قدم هذا إلى شخص آخر



(شكل ٣٧) غسل اليدين قبل الأكل وبعده

لا يرى الماء القذر . ويعطى لكل فوطه والمائدة صينية مستديرة من النحاس المبيض ، أو من النحاس الأصفر أحياناً ، قطرها بين قدمين أو ثلاث أقدام . وتوضع على كرسي ارتفاعه حوالي خمس عشرة بوصة . ويصنع الكرسي من الخشب وقد طعم بالصدف أو الباغة أو المظم الخ . فالصينية والكرسي يكونان السفرة (أنظر شكل ٣٨) وتوضع على الصينية أرغفة الخبز المستديرة ، التي سبق وصفها ، كاملة أو مقطعة أنصافاً . ويصف معها حول الصينية أنصاف من الليمون ، لتعصر على الماء كولات التي قد تحتاج إلى الحامض ، وملقعة من خشب البقس أو الأبنوس أو الباغة لكل آكل . وكثيراً ما يستعمل



(شكل ٣٨) الكرسي والصينية

(١) أنظر إنجيل مرقس ، الإصحاح السابع ، الآية الثالثة : « لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون » (٢) وتكون هذه الأوعية ، في منازل بعض الأثرياء ، من الفضة . وقد رأيت بعضها من النحاس المذهب .

الخبز بدل الصحون . وبعد ذلك توضع أطباق اللحوم والخضر على اختلاف أنواعها ، جميعها مرة واحدة ، تبعاً للمادة المصرية ، أو طبقاً طبقاً ، حسب الطريقة التركية . وهذه الأطباق تكون من النحاس المبيض أو الخزف .

ويجلس الآكلون على الأرض حول الصينية ، وعلى ركبتى كل منهم فوطته . أما إذا وضعت الصينية بجانب ديوان منخفض ، فيجلس البعض على الديوان ، والآخرون على الأرض . ولكن عندما يكثر العدد ، توضع الصينية في وسط الغرفة ، ويجلس الجميع حولها ، واضعين إحدى ركبتهم على الأرض والأخرى (اليمنى) قائمة . وهذا هو الوضع المستحسن أثناء تناول الطعام (انظر شكل ٣٩) . وبهذه الطريقة يستطيع اثنا عشر شخصاً أن يجلسوا حول صينية سمعها ثلاث أقدام . ويشمر كل شخص عن ذراعه اليمنى حتى الكوع أو ما تدلى من كفه . وقبل أن يشرع أحد في الأكل يسمى باسم الله ^(١) بصوت منخفض ظاهر ؛ ويبدأ رب الدار بالبسملة . ويعتبر هذا



(شكل ٣٩) جماعة يتناولون الطعام

ملاطفة منه ودعوة إلى المدعوين لتناول الطعام . وعلى من يقال له بسم الله أو تفضل أن يقول ، إذا رفض الدعوة ، « هنيئاً » أو ماشابه ذلك . وقد يكون ذلك أيضاً خشية شر العين إذا وقعت على الأكل . ويقولون في هذا : (لا بركة في الطعام إذا اشتهى) . إلا أن الإلحاح الذي يدعو به المصري الأجنبي إلى مشاركته

الطعام يبين أن الذوق السليم وواجب الضيافة يحتمان عليه قول البسملة . ويبدأ بالأكل رب الدار ثم يتلو الضيوف مباشرة .

والمصريون لا يستعملون السكين ولا الشوكة ، وإنما يستعملون بدلاً منهما

(١) أو بسم الله الرحمن الرحيم

الإبهام وأصبعين من اليمنى . وتستعمل الملاعق لتناول الحساء أو الأرز أو غيرها من الأصناف التي لا يسهل تناولها بدونها . وقد تستخدم اليدين معاً في أحوال ساذكرها الآن . وفي حالة ما توضع الأطباق جميعها مزة واحدة ، يغترف كل واحد من أى صنف يشتهيهِ أو من جميع الأصناف على التماقب . وعند ما يقدم الطعام طبقاً طبقاً ، يتناول الواحد من الطبق بعضه ، ثم سرعان ما يرفع ليقدّم غيره^(١) . ومن الأدب أن تناول صديقك قطعة مختارة . وأرى أن طريقة تناول المصريين والشرقيين طعامهم بالأصابع أرق مما يتصور الأوروبيون الذين لم يشاهدوهم أو لم يسموا الوصف على حقيقة . فالواحد منهم يأخذ من الخبز قطعة يغمسها في الطبق ، ثم يرفعها إلى فيه مصحوبة بقطعة صغيرة من اللحم أو غير ذلك من محتويات الطبق^(٢) . وتكون قطعة الخبز مزدوجة بحيث تحيط بقطعة اللحم الخ ؛ ولا يستخدم عادة غير الإبهام والإصبعين الأولين . وإذا تناول شخص قطعة لحم تزيد على اللقمة وضعها عادة على رغيته .

يجهز الطعام بحيث يسهل تناوله بالطريقة السابق وصفها . وهو يتكون في مجموعته من « اليخنى » : وهو لحم مسلوق وبصل مقطع أو قليل من البامية أو غيرها من الخضرة ؛ و « القاورمة » : وهو لحم كثير التوابل مع البصل ؛ و « ورق محشى » : وهو ورق العنب أو الكرنب أو الخس ، يحشى بالأرز واللحم المفروم ، بعد أن يتبل بالملح والفلفل والبصل ، وغالباً بالثوم والبقدونس ، ويسلق ؛ و « محشى » الخيار أو الباذنجان أو القرع الكوسة ؛ و « الكباب » : وهو قطع صغيرة من لحم الضأن تشوى على السفود . وبعض الألوان تتألف جميعها أو أغلبها من الخضرة مثل : الكرنب والرجلة والإسباناخ والبامية والفول والترمس والحمص والقرع المقسم إلى قطع صغيرة والفلفل والعدس الخ . ويعد السمك المطبوخ بالزيت كذلك طبقاً مألوفاً . وتطهى أغلب الأطعمة بالسمن لعدم وجود الدهن ؛

(١) وقد أكل سيدنا عيسى وتلاميذه من طبق واحد . أنظر إنجيل متى ٢٦ — ٢٣

« فأجاب وقال : الذى يغمس يده معى فى الصفحة هو يسلمنى »

(٢) أو يغمس لقمته فى الطبق فقط . أنظر راعوت ٢ — ١٤ : « فقال لها بوعز عند

وقت الأكل تقدمى لى ههنا وكلى من الخبز واغمسى لقمته فى الخبز »

وتوضع فيها التوابل بكثرة . ويذوب السمن في الصيف تماماً . ولا بد من استعمال اليدين ممّا لتقطيع ما يقدم من الطيور : وقد يقوم بهذه العملية شخصان معاً ، كل بيده اليمنى فقط ؛ ولكن بعضهم يقوم بذلك وحده بدون مساعدة ويبد واحدة . ولا يقبل بعض العرب لمس الطعام ، على أى حال ، بيسراهم ^(١) ، إلا إذا كانت عنانهم مبتورة . وليس من غير المعتاد أن تقدم الطيور المزروع عظامها المحشوة بالزبيب والفسق والخبز المغت والبقدونس ، أو حمل بأكله محشواً بالفسق الخ ؛ وهنا يسهل نزع اللحم بيد واحدة . وكثيراً ما تخلط الحلوى باللحم مثل : العناب والخوخ والمشمش الخ والسكر مع اليخنى ؛ وكثيراً ما تقدم أيضاً مختلف أصناف الحلوى دون مراعاة نظام خاص بالنسبة للأصناف الأخرى . ومن أصناف الحلوى المحبوبة الكنافة ، وتصنع من دقيق القمح ، وهي أدق من الشعرية ، وتقلي بالسمن وتحلى بالسكر أو العسل . ولا تخلو المائدة من البطيخ في موسمه . وهو يقطع قبل الأكل ، ويترك في الهواء ليبرد بالتبخّر ؛ ولكن يجب ملاحظته حتى لا ينفث الثعبان سمه فيه ؛ لأن الثعبان ، على حد قولهم ، يحب البطيخ حباً شديداً ، ويشم رائحته على مسافة بعيدة . والبطيخ كثير في مصر كثرة زائدة ، وهو غالباً لذيق الطعم . وآخر طبق يقدم الأرز المفلفل (بيلاف الأتراك) ، ويوضع عليه الزبد ويتبل بالملح والفلفل . إلا أن كثيراً ما يتبعه ، على موائد الأثرياء ، « خشاف » ^(٢) يتكون عادة من الماء والزبيب المسلوق فيه ويحلى بالسكر ، ثم يضاف إليه عند ما يبرد قليل من ماء الورد ^(٣) . وكثيراً ما يحل البطيخ محله . ^(٤)

ويأكل المصريون باعتدال ولكن بسرعة . وحالما ينتهى أحدهم بحمد الله

(١) لأنها تستخدم استخداماً نجساً .

(٢) من الفارسية (خوش آب) أى الماء الحلو .

(٣) ويشرب بملعة من الباعة أو الجوز الهندى .

(٤) وأهم فواكه مصر وأحسنها البلح والعنب والبرتقال والليمون على أنواع مختلفة والتين والحمضيات والشوكى والمان والموز والبطيخ والكمثرى وما شابههما . والخوخ والمشمش متوافران ، ولكن ينقصهما الطعم اللذيذ . والكمثرى نادرة وأغلبها تجلب من سينا وسوريا ويبدو لك من هذا التعداد أنه ليس بمصر فاكهة طيبة .

ويقوم دون أن ينتظر الآخرين^(١) ، فيقدم له الخادم الطست والأبريق ليفسل يديه وفه بالصابون والماء كما سبق .

ولا يشرب المصريون على الأكل غير الماء . وقد يقدم على مائدة الأغنياء « الشربات » التي سأصفها الآن . ولا يشرب العرب على الأكل إلا قليلاً من الماء ، أو لا يشربون مطلقاً ؛ وهم على العموم يتناولون جرعة كبيرة بعد الأكل مباشرة . ويمتاز ماء النيل بحلاوته ؛ ولكن ماء الآبار ، في القاهرة وغيرها ، يميل إلى الملوحة . ويشرب الماء في أوعية من الفخار أو طاسات من النحاس^(٢) . وأوعية الفخار نوعان : « الدورق » (شكل ٤٠) و « القلة » (شكل ٤١)



(ش ٤٠) أوعية الماء المسماة « دورق » وسداداتها المختلفة



(شكل ٤١) أوعية الماء المسماة « قلة »

والأول ذو حلق ضيق ، والثانية حلقها واسع . وهما من صلصال ذي مسام يبرد الماء برودة لذيذة بالتبخّر ؛ وهما يوضعان لذلك في تيار الهواء . وكثيراً ما يسود داخل الوعاء بدخان بمض الأخشاب الصمغية ، ثم يعطر بدخان خشب « القفل » والمصطكا . ويستعمل لهذا الغرض وعاء صغير من الفخار ، يسمى بمبخرة (شكل ٤٢) ، يوضع فيه الفحم اللازم لحرق الخشب والمصطكا ، ثم تعلق القلة أو الدورق مقلوباً فوقه . ويشد حول رقبة الدورق خرقة ،

(١) من المكروه أن يقوم الإنسان أثناء تناول الطعام حتى ولو كان ذلك احتراماً لقدم عظيم . وقد حرم الرسول على أتباعه القيام أثناء الأكل أو على وشك تناول الطعام ولوحات الصلاة (٢) وكان قدماء المصريين يستعملون أقدماً نحاسية للشرب فيها (هيرودوتس الكتاب الثاني الفصل السابع والثلاثون) .

على بعد بوصة من الحلق ، لمنع السفاج أن يفتشر بعيداً على خارج الوعاء . وكثيراً ما يوضع أيضاً قليل من ماء زهر البرتقال ^(١) فيكسب الماء طعماً لذيذاً .

والأوعية سدادات من الفضة أو النحاس أو القصدير أو الخشب أو أغطية من السعف المجدول . وهي توضع في صينية يسقط فيها الماء الرشيح . وكثيراً ما تستعمل الأوعية الصينية (شكل ٤٣) في الشتاء عوضاً عن الفخار



(شكل ٤٢) المبخرة والدورق الصيني

حتى لا يبرد الماء برودة شديدة ^(٢) . وبين الشكل رقم ٤٣ كاستى الشرب الآكثر شيوعاً . وبعض الكاسات ينقش في داخلها آيات قرآنية . ولم أر ذلك كثيراً . ويسمى الشارب قبل الشرب ويحمد الله بعده ، فيقول له كل من الأصدقاء الحاضرين : هنيئاً ، فيرد عليه : الله يهنيئك .



(شكل ٤٣) طاستان لشرب الماء

وبالرغم من إشارة قصص ألف ليلة وليلة إلى مأذبة الدمام ، فإن المصريين المسلمين في هذا العصر لا يقدمون النبيذ في

المجتمعات العامة في أى وقت من الأوقات على العموم . إلا أن الكثيرين لا يمتنعون عادة عن شرب النبيذ مع الأصدقاء المقربين . وحينئذ لا يدخل الخادم غير النداءى ، أما غيرهم فيقول لهم : إن السيد ليس بالدار ، أو أنه في الحريم . وهؤلاء يحتسون النبيذ أثناء العشاء وقبله وبعده ؛ ويستحسن قبل العشاء ، لأنه ، على حد قولهم ، يثير الشهية . وقد أخبرنى صديق مسلم ، تاب عن الخمر بعد إدمان (ولا يمكننى

(١) موية زهر أو موية زهر نارنج

(٢) وقد لاحظ البارون هامر برجستال أنه كان يجب هنا الإشارة إلى وعاءين آخرين (في النمرة الأولى لهذا الكتاب) ، على الأخص لأن اللغات الأوربية اقتبست اسمهما وهما :

الجرة water-jar والدجان La dame-jeanne

أن أحدث في هذا الموضوع عن تجربة ، لأنني لم أشرب النبيذ أبداً ، ولم يدعى مسلم قط إلى ندوة شراب) أن مائدة المدام تتألف من صينية مستديرة ، أو طبق زجاجي ، توضع على الكرسي ؛ ويصف عليها إبريقان للنبيذ والعنبر ، أو أكثر من إبريقين مما أحياناً ، وعدة أكواب صغيرة وصحون صغيرة فيها فاكهة يابسة وطازجة ومخللات أحياناً ؛ وأخيراً يوضع على الصينية شمعتان ، وغالباً باقة زهر تثبت في شمعدان .



(شكل ٤٤) أقداح الشرابات

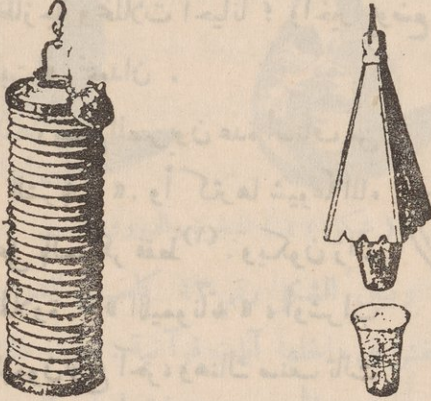
ويصنع المصريون عدة أصناف من « الشرابات » . وأكثرها شيوعاً الماء المحلى بالسكر فقط^(١) . ويكون زائد الحلاوة . و« الليموناته » ، أو شراب الليمون نوع آخر ، وهناك صنف ثالث

أحب إلى النفس ، وهو شراب البنفسج ، ويكون بسحق زهر البنفسج ووضع مع السكر في الماء وتركه على النار حتى يغل ، وهذا الشراب أخضر اللون . وهناك أيضاً شراب التوت ، وشراب الحميض ، والزبيب^(٢) الذي يباع في الشوارع ، والعرق سوس ، والخروب . ويقدم الشراب في أكواب مغطاة ، تسمى الواحدة على العموم « قلة » (شكل ٤٤) ؛ وبعض المألوف من هذه الأكواب يزين بزخارف مذهبة من الزهور وغيرها . وهي توضع على صينية مستديرة وتغطى بقطعة من الحرير المطرز أو الجوخ المرصع بالذهب . ويعلق على ذراع الخادم فوطة مستطيلة الشكل عريضة الحاشية المرصعة بالذهب والمطرزة بالحرير الملون . ومن الجلى أنها تقدم لمسح الفم بعد الشراب ، ولكنها في الواقع للعباهة أكثر منها للاستعمال . يمضي المصريون ما بين وجبة المساء وصلاة المساء في التدخين وشرب القهوة . ويستأنفون لذة التدخين بعد فراغهم من الصلاة . وقد يلعبون الضامة أو الشطرنج أو غير ذلك ، أو على الأقل يتسامرون ، فينقضي الوقت دون أن يشعروا بأدنى ضيق . ويقضي أفراد العائلة المصرية وقتهم ، عند ما تسمح الظروف ، في حبور وبهجة ،

(١) ويسمى « شرابات » أو « شرابات سكر » أو « سكر » فقط .

(٢) وهذا الاسم يطلق أيضاً على نوع من الأشربة المسكرة

ولكن في هدوء . وكثيراً ما يقوم الرجال بزيارة أصدقائهم ليلاً وقت العشاء أو بعد ذلك . ويستضيفون أثناء خروجهم بمصباح مستدير مموج الجوانب ، يسمى «فانوس» ، ويصنع من النسيج المشمع المشدود إلى حلقات من السلك ، بينما أعلاه وأسفله يصنعان من النحاس المبيض . ويرى هذا النوع في الشكل رقم ٤٥ ،



(شكل ٤٥)

وبجانبه النوع الشائع ، وهو القنديل ، بغطائه الخشبي العادي الذي يقيه شدة الهواء . وهذا القنديل وعاء زجاجي صغير ، ذو أنبوبة صغيرة في قاعه ، يدخل فيها ذبالة من القطن تلف على عود من القش . ويصب فيه الماء ثم الزيت . وكثيراً ما يعلق

القنديل على مدخل المنازل . ويخيم على داخل البيوت أثناء الليل جو قاتم ثقيل . ويكفي لإضاءة الأبهاء الواسعة العالية ضوء شمعة أو شمعتين توضعان على الأرض أو على كرسي ، وقد تحاطان بوقاء زجاجي كبير ، أو توضعان في مصباح من الزجاج ، لأن النوافذ من الخشب المشبك . والقليل من المصريين من يسهر صيفاً إلى أكثر من الساعة الثالثة أو الرابعة ، أي ثلاث ساعات أو أربع بعد غروب الشمس (إذ أن الوقت يحسب عندهم من الغروب) . وكثيراً ما يسهرون خمس ساعات أو ستاً في الشتاء . جرت العادة أن ينصرف التاجر ، بعد تناول الفطور مباشرة ، إلى حانوته أو مخزنه ، ولا يعود إلى المنزل قبل الأصيل ^(١) . ولديه هناك الفراغ الكافي للتدخين متى شاء ؛ وكثيراً ما يدخل حرقاؤه معه ، فيقدم إلى بعضهم شربكه الخاص ، والقهوة يستحضرها من أقرب مقهى . وقد يمضي أغلب يومه في التسكيم مع الحرقاء أو مع جيرانه من التجار . والتاجر يقيم صلاته على العموم في دكانه . ويتناول بعد صلاة الظهر طعاماً خفيفاً ، مثل طبق من كباب ورغيف من الخبز ، يحضرهما إليه خادم صغير من المنزل أو من السوق يومياً ، أو بعض الخبز مع الجبن أو المخللات

(١) سأصف الحوانيت وأخبار التجار في فصل الصناعة .

أو غير ذلك مما يشتريه من الباعة المتجولين . ويدعو التاجر دائماً الحريف إلى مشاركته الطعام ، وقد يلج في الدعوة . ويحتفظ في دكانه بقلّة كبيرة يملأها عند اللزوم سقاء متجول . ويعود التاجر إلى منزله مساء للعشاء ، وسرعان ما ينام .

والعادة أن ينام الرجل هو وزوجه في سرير واحد ، إلا أن أفراد الطبقة الموسرة يتخذون غالباً سريراً منفصلة . ويتكوّن السرير عند متوسطي الحال مما يأتي : حشيرة (١) طولها حوالي ست أقدام ، وعرضها ثلاث أقدام أو أربع ، توضع على سرير منخفض من جريد النخيل ، ومخدة ليستريح عليها الرأس ، وملاءة تفرش فوق الحشيرة والمخدة . وغطاء الصيف خفيف ، ويسمى « حراماً » .

أما غطاء الشتاء فغليظ محشو بالقطن ، ويسمى « لحافاً » . وقد توضع الحشيرة على الأرض إذا لم يوجد سرير ، أو توضع اثنتان معاً واحدة فوق الأخرى ، وكثيراً ما يكتنفها مسندان من مساند الديوان . والسكّة (٢) تعلق فوق السرير بأربعة خيوط تشد إلى مسامير تدق في الحائط . ويندر أن يغير المصري ملابسه عند النوم ؛ وفي الشتاء ينام بملابسه العادية جميعها إلا الجبة ، أو الملابس الجوخية ؛ أما في الصيف فينامون عراة أو شبه عراة . وينصب السرير شتاء في غرفة صغيرة تسمى « خزنة » ، وصيفاً في غرفة واسعة . ويطوى فرش السرير نهائياً ويوضع على جانب ، أو في الخزنة السابق ذكرها . وعند اشتداد الحر ينام أغلب الناس على أسطح المنازل ، أو في « الفسحة » ، وهي غرفة لا سقف لها ؛ ولكن تعرضهم للهواء الطلق أثناء الليل بسبب لهم الرمد وأمراضاً أخرى . وأكثير أنواع الأسرة شيوعاً ما يصنع من جريد النخل ، وهو يجلب البق الذي يكثر كثرة فاحشة في مصر أثناء الصيف ، مثل كثرة البراغيث في الشتاء . وقد سبق ذكر هذه الحشرات والبلايا الأخرى التي يتعرض لها المصريون ليلاً ونهاراً (٣) . والقمل أكثر هذه الحشرات إثارة للاشمئزاز ؛ ولكن الذي يغير ملابسه الداخلية كل يومين أو ثلاثة قلما تضايقه هذه الحشرة ، وإن لم يكن تجنبها سهلاً دائماً حتى مع

(١) طراحه (٢) « التاموسية » : وهي تصنع من الموصل أو الكتان

أو الكريب وهي عبارة عن مظلة بطول السرير وعرضه .

(٣) في مقدمة الكتاب .

النظافة التامة . وإذا كان القمل يضايق فإن من السهل الخلاص منه ، لأنه لا يلبصق بالجلد وإنما يوجد على العموم في الثياب . ومن الممكن أن ينظف المنزل من البراغيث بكثرة الغسل والكنس ، وأن يمنع الذباب من الدخول بوضع الشباك على الأبواب والنوافذ ، وإن كانت حلقاتها واسمة . ولكن من المستحيل أن يظهر المنزل المصرى من البق ، إذا كان أثنائه من الخشب كما هو الحال غالباً .

وحياة الخدم الذكور كلها دعة وراحة ، ما خلا السائس الذى يجب عليه أن يرافق سيده وقت الركوب ، فيجرى أمامه أو بجانبه . وقد يقوم بعمله هذا في أشد الأوقات حرّاً ولدة ساعات طويلة دون أن يبدو عليه التعب . ولكل ثرى من أثرياء القاهرة ، تقريباً ، بواب يلزم باب المنزل ، وعدة خدم ذكور آخرين . وأغلب هؤلاء مصريون ؛ ويستخدم أيضاً النوبيون في القاهرة وفي غيرها من مدن مصر وكثيراً ما يقوم النوبيون بحراسة الأبواب ، وهم على العموم أكثر أمانة من الخدم المصريين . وأجرة الخادم تافهة لا تتعدى ريالاً أو ريالين في الشهر ، إلا أنه يتناول منجماً كثيرة (١) . فيعطى السيد كل خادم في عيد الفطر بعض الملابس الجديدة أو خلعاً كاملة من عرى وطربوش وعمامة . وعلى الخادم أن يدبر لنفسه ملابسه السنوية الأخرى ، ما عدا الحذاء أحياناً . وقد يتناول ، علاوة على ما يعطيه السيد ، بعض النقود من الضيوف ، أو من التجار الذين يعاملهم السيد ، وعلى الأخص عند ما يشتري صفقة كبيرة . وينام الخدم بملابس النهار على الحصر ، وينطون أنفسهم شتاء بدثار (٢) أو حرام . وكثيراً ما يرفع الخادم الكلفة مع سيده ، فيضحك ويمزح معه . وفي بعض الأحوال الأخرى يخضع كل الخضوع ويظهر له كل الاحترام ، ويتقبل كل ما يوقعه عليه من العقوبة البدنية بهدوء الأطفال .

ويراعى السيد الخادم العبد أكثر من الخادم الحر ؛ ويحيا العبد حياة توافق

(١) ويطلب الخادم من السيد الأورنى أجراً مرتفعاً . كما أنه يتناول منه منجماً أوفر عدداً وقيمة . وتلك العطايا إذا منحت بتعقل يكون لها أثر حسن ، ولكنها كثيراً ما تشجع على الكسل والخداع .

(٢) أنظر سفر الخروج ٢٢ / ٢٦ ، ٢٧ : « إن ارتهنت ثوب صاحبك فالى غروب الشمس ترده إليه . لأنه وحده غطاؤه . هو ثوبه لجلده . فى ماذا ينام .. »

الفصل السادس

تابع الحياة المنزلية

الآن ، وقد أطلت الحديث عن الرجال ، يجب أن أنتقل إلى الكلام عن الحریم . ولكن يجب أولاً أن أذكر بعض الشيء عن الزواج وحفلاته .

يعتبر المصريون امتناع الرجل عن الزواج بلا مبرر عند بلوغ السن الملائمة مخالفاً للآداب ومسيئاً للسمعة . ولقد لقيت أنا نفسي لارتكابى هذه الخطيئة (أقول ذلك حتى لا أذكر ما هو أشد قسوة) مضايقات ومكاره كثيرة ، واحتملت عقاباً شديداً أثناء زيارتى الأوليين لمصر . فقد بدألى فى المرة الأولى أن أنتقل من المنزل الذى سكنته بعض شهور فى شارع كبير من شوارع القاهرة إلى منزل آخر فى حي مجاور ، وكتبت عقد الإيجار ودفعت العربون ، ولكن جأنى وكيل المالك بعد يومين يخبرنى أن سكان الحى ، وأكثرهم أشرف ، يعترضون على سكنى بينهم لأننى أعزب ؛ ولكنهم يقبلوننى بكل سرور إذا اقتنيت على الأقل جارية تنفى عنى عار العزوبة . فأجبتته إننى لا أنوى الإقامة فى مصر ، فلا أحب أن أتخذ لى زوجة أو جارية قد يضطررنى الرحيل إلى تركها . فأعاد إلى العربون . وساعدنى الحظ فى حي آخر ، فلم يعترض على عزوبتى أحد ، وإنما طلب منى الوعد بعدم السماح لأى شخص يلبس القبعة أن يزورنى فى الحى . ولكن ، بعد أن استقررتى المقام ، أخذ شيخ الحى يحاول إقناعى بوجوب الزواج . ولم يقم وزناً لكل ما أبديته من الحجج التى تمنعنى عن الزواج وقال : « تذكر لى أنك تريد ترك مصر بعد سنة أو سنتين . وأن هنا أرملة شابة جميلة تسكن على مقربة منك ، ويسرها أن تصبح زوجتك مع رضاها بأن تطلقها حينما تترك البلد . وفى وسعك طبعاً أن تفعل ذلك إذا لم تعجبك » . وقد استطاعت هذه الشابة صراخاً أن تجعلنى أبصر وجهها الجميل أثناء مرورى بالمنزل الذى تسكنه مع أهلها . فقلت لصاحبى إننى رأيت وجهها بطريق

المصادفة ، وأنها آخر امرأة أرغب في الزواج منها في مثل هذه الظروف لتأ كدى من أننى لا أستطيع طلاقها أو فراقها إذا عشت معها . وقد شق على أن أسكت صديق الخدم . لقد ذكرت في المقدمة أن الأعزب أو من لا يقتنى جارية يضطر إلى السكنى في الوكالة ، إلا إذا كان يعيش مع أهله ؛ ولكن الفرنج الآن يعفون من هذا القيد .

وتبلغ المصريات الرشد في سن مبكرة قبل نساء البلدان الباردة . وكثيراً ما يتزوجن في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وقد يفضجن قبل السن بشكل يستحق الاعتبار ، ويتزوجن في العاشرة (١) . إلا أن هذا الزواج المبكر غير شائع وقلماً ببقين بدون زواج بعد السادسة عشرة . وقد تصبح الفتاة المصرية أمّاً في الثالثة عشرة أو قبل ذلك . ونساء مصر على العموم ولودات ، ولكن الأجنبية اللاتي توطن مصر عقبات غالباً . ويندر أن يعيش من يولد في مصر من أولاد الأجانب إلى سن الكهولة ولو كانت الأم مصرية . ولهذا يرجع السبب في تبنى المالك المتعقبن غيرهم من المالك .

ومن الشائع بين العرب في مصر وغيرها أن يتزوج الرجل من ابنة العم أو الخال . ويستمررون بعد الزواج على التنادى بألقاب القرابة . لأن رابطة الدم لا تفصم ، ولكن صلة الزوجية عرضة للزوال . ومثل هذا الزواج يدوم على العموم بسبب رابطة القرابة ، وقد تربطهما وحدة البيئة في طفولتهما ، ولكن قلماً يسمح للفتى أن يرى وجه قريبته في الطبقتين العليا والوسطى ، أو يقابلها أو يحادثها حين تقرب من سن البلوغ إلى أن تصبح زوجته .

وتم زواج العذراء في القاهرة بالطريقة الآتية ، إلا إذا كانت أرملة أو مطلقة فيكون الحفل صغيراً . تبدأ أم الراغب في الزواج أو إحدى قريباته بوصف الفتاة التي تكون عرقها وذكر أحوالها ، وترشده في اختياره (٢) . وقد يستخدم

(١) وكثيراً ما يخطبن قبل ذلك بسنتين أو أكثر

(٢) وكان لإرسال إبراهيم رسولا إلى بلده للبحث عن امرأة لاسحق ابنه (أنظر سفر التكوين ٢٤) يعتبر تماماً عين الوسيلة التي قد يتبعها العرب المحدثون في مثل هذه الظروف لو تيسر الأمر لهم .

خاطبة وهي امرأة عملها أن تساعد الرجال في الزواج . وقد يستخدم أكثر من
خاطبة . وتقدم الخاطبة بيانها عن الفتيات مسارة ، فتصف الواحدة أنها كالغزال
جمالاً ورشاقة وصغيرة السن ، والأخرى أنها ليست جميلة ولكنها غنية ، وهكذا .
والعادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع خاطبة لزيارة عدة بيوت .
وللخاطبة حق الدخول لاخترافها سمسة الزواج ، إذ أن النساء كالرجال يستخدمنها
أيضاً . وقد تقوم الخاطبة بمهنة (الدلالة) أيضاً ، تبيع الحلى والملايس الخ ،
فيسهل عليها دخول البيوت تقريباً . وتقدم النساء اللاتي يرافقن الخاطبة للبحث
عن زوجة لقريبن ، باعتبارهن زائرات فقط ، وقد لا يلبثن طويلاً إذا لم يصادفن
مرادهن ، ويفهم الطرف الآخر طبعاً القصد من الزيارة . ولكن إذا وجدن بين
نساء المنزل (ولا بد من رؤيتهن جميع من يصلحن للزواج) فتاة أو امرأة شابة
تتحلى بالصفات اللازمة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن ، إذا لم يكن طلب الزواج
وقمتن مستقبلاً ، عما تملك الفتاة من أملاك وحلى الخ . وقد تملك الفتاة إذا توفى
أبوها منزلاً أو أكثر وحوانيت كثيرة الخ . وتملك كل بنت على وشك الزواج ،
في الطبقتين العليا والوسطى ، مجموعة من الحلى الذهبية والجواهر في جميع الأحوال
تقريباً . وبعد أن يستعلم الزائرات عن هذا وغيره يقدمن تقريرهن إلى الراغب في
الزواج . فإذا رضى بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية ويرسلها ثانية إلى عائلة
الفتاة لتعرفهن رغباته . وتبالغ الخاطبة على العموم في حديثها عن صفات الرجل
الجذابة وثروته الخ ، فتحدث مثلاً عن شاب خامل ، تعلم هي أنه لا يكاد يملك شيئاً
ولا يمتاز بشيء ، بقولها : « يا أبنتي ، إن الشاب الذي يرغب في الزواج منك صغير
السن لطيف العشرة أنيق أمرد ثرى جميل اللبس مغرم باللطائف ؛ إلا أنه
لا يستطيع أن يتمتع بهذا الترف وحده ، فهو يريد أن تكوني شريكته . وسيمطيك
كل ما يشتري بالمال ؛ وهو لا يخرج كثيراً ؛ وسيمضي وقته كله إلى جانبك
بلاطفك وبدلك » .

قد يزوج أهل الفتاة فتاتهم لمن يشاؤون دون موافقتها إذا كانت قاصرة .
ويمكنها أن تختار زوجها إذا كانت بالغة . وتمين من ينوب عنها في ترتيب الزواج
وعقد العقد . والعادة أن تجتهد الخاطبة وقريبات القاصرة في الحصول على موافقتها .

وكثيراً ما يعارض الأب في تزويج ابنته بمن ليس مثله من المهنة أو التجارة ،
أو في تزويج الصغرى قبل الكبرى ^(١) . ويندر أن يستطيع العريس اختلاس
نظرة من عروسه قبل أن تصبح في حوزته ، إلا إذا كانت من الطبقة السفلى فيسهل
عليه أن يراها .

وعند ما تشرع المرأة في الزواج تعين وكيلاً ينوب عنها في عقد العقد . وهذا
التوكيل واجب إذا كانت الفتاة قاصرة ، ويكون أبوها حينئذ وكيلها . وفي حالة
وفاته يكون أدنى الأقارب الذكور أو الوصى المختار أو المعين . أما إذا كانت بالغة
فتمعين هي وكيلها ، أو تعقد الزواج بنفسها ، وذلك نادر .

وبعد أن يختار الرجل عروسه طبقاً لبيان قريباته أو الخاطبة ، وبعد المعدات
الأولى السابق ذكرها ، يقابل مع بعض أصدقائه وكيل العروس ، ويحصل منه على
الموافقة ، ثم يسأله عن مقدار المهر إذا كانت العروس قاصرة .

ولا بد من دفع المهر كما ذكرت في فصل سابق . ويقدم المهر على العموم
بالريال ، باعتبار كل تسعين فضة . والريال نقد أسمي لا وجود له . ويبلغ المهر عادة إذا
كان دخل العروسين متوسطاً ألف ريال ، وقد لا يزيد على نصف هذا المبلغ .
ويقدر الأغنياء المهر بالكيس ، وهو خمسمائة قرش ، ويحددون المبلغ إلى عشرة
أكياس أو أكثر . هذا في حالة العذراء ؛ أما مهر الثيب فأقل بكثير . وكثيراً
ما يحدث بعض المساومة في تحديد المهر كأي عملية مالية أخرى ؛ فإذا طلب الوكيل
ألف ريال يحتمل أن يمرض الطرف الآخر ستمائة ، ثم ينتهي الأمر بعد الزيادة
والنقصان إلى ثمانمائة ريال . ويشترط دفع ثلثي المهر حالا قبل العقد ، ويدفع الثلث
الأخير إلى الزوجة عند الطلاق بغير إرادتها أو وفاة الزوج .

وتم الاتفاق على هذا الأمر بقراءة الحاضرين الفاتحة . ثم يحدد يوم قريب ،
قد يكون بعد اليوم التالي ، لدفع مقدم المهر والاحتفال بعقد الزواج ، الذي يسمى
عقد النكاح ^(٢) . ويسمى لإنجاز العقد كتب الكتاب ، ولكن قلما توجد وثيقة

(١) أنظر التكوين ٢٩ — ٢٦ « فقال لابان لا يفعل هكذا في مكاننا أنت تعطى

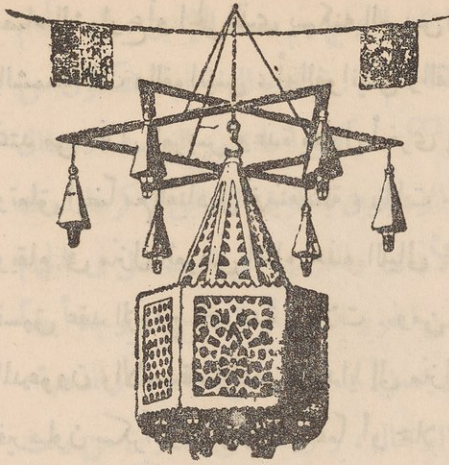
الصغيرة قبل البكر »

(٢) من الاعتقاد الشائع في مصر أن من يعقد زواجه في شهر محرم يخيب زواجه وتتحل

عراه . ولذلك قلما يعقد عقد في هذا الشهر . ويعتبر شوال أكثر الشهور ملائمة لذلك

مكتوبة تثبت الزواج ، إلا إذا كان العريس ، بسبب انتقاله إلى مكان آخر ، يخشى أن يضطر إلى إثبات الزواج حيث لا يتيسر له إحضار شاهدي العقد . وقد يتم عقد الزواج حالما ينتهي الطرفان من الاتفاق على المهر ، ولكن كثيراً ما يعقد بعد يوم أو يومين من ذلك الوقت . ويذهب العريس في اليوم المحدد مع صديقين أو ثلاثة إلى منزل العروس قرب الظهر عادة ، فيستقبلهم وكيل العروس وبعض أصدقائه . ويجب عقد الزواج بشهادة شاهدين مسلمين إلا إذا استحال ذلك . ويقرأ جميع الحاضرين الفاتحة ، ثم يدفع العريس مقدم المهر . ويعقد بعد ذلك العقد بكل بساطة . فيجلس العريس على الأرض أمام وكيل العروس ، وكلاهما واضع إحدى ركبتيه على الأرض ، ثم يمسك كل منهما معنى الآخر ويرفع إبهامه ويضغط به على إبهام الثاني . ويتولى تلقين الطرفين صيغة العقد بعض الفقهاء ؛ فيضع على اليدين التماسكتين منديلا ، ثم يستهل العقد عادة بخطبة لا تخرج عن بعض الإرشادات والصلوات وبعض الآيات والأحاديث التي تشير إلى فضل الزواج ومزاياه . ثم يطلب من الوكيل أن يقول : « أخطب لك (أو أزوجك) ابنتي (أو موكلتي) فلانة (ويسمى العروس) العذراء ^(١) (أو العذراء البالغة) بمهر قدره كذا » ، وقد لا يذكر المهر . ثم يطلب من العريس أن يقول : « أقبل خطبتها (أو زواجها) وأخذها تحت رعايتي وأتكفل بحمايتها ، واشهدوا على ذلك أيها الحاضرون » . ويردد الوكيل قوله هذا على العريس مرة ثانية وثالثة ، فيجيبه الأخير في كل مرة بما سبق . وحينئذ يقول كلاهما « والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين » . ويعيد الحاضرون قراءة الفاتحة . وليس للخطبة التي تنقل في هذه المناسبة كلام موضوع أو نظام معين ، وقد تحذف إطلاقاً . وقد يقبل العريس (ويندر ذلك إلا إذا كان من الطبقة السفلى) بعد انتهاء العقد أيدي أصدقائه وغيرهم من الحاضرين ؛ ثم يقدم الشربات إليهم ويمكثون حتى تناول الغداء . ويهدى إلى كل منهم منديل مطرز تقدمه عائلة العروس ؛ بينما يتناول الفقيه منديلا مشابهاً تصر فيه قطع صغيرة من النقود الذهبية يقدمه له العريس . وتحدد ليلة الدخلة قبل انصراف الحاضرين . وتلك هي الليلة التي تنتقل فيها العروس إلى منزل العريس حيث يراها لأول مرة .

(١) وإن لم تكن عذراء يعبر عن ذلك بكلمة (سيب) أو على الأصح ثيب .



ويمهل العريس عروسه حوالى ثمانية أيام أو عشرة بعد عقد الزواج على العموم ، ويرسل إليها فى أثناء ذلك من حين لآخر بعض الفاكهة والحلوى الخ ، أو يهدى إليها مثلاً أو بعض الأشياء الثمينة . وتستغل عائلة العروس ، فى الوقت نفسه ، بإعداد الجهاز . ويصرف مقدم

المهر فى شراء الجهاز الذى يصبح ش ٦٤ قنديل وخلافه معلق احتفالاً بعقد زواج ملكا للعروس ؛ فإذا طلقت يعاد إليها . وتدفع عائلة العروس مبلغاً أكبر قد يزيد على المهر نفسه فى إعداد الجهاز ، ولذلك لا يمكن القول بحق أن الزوجة تُشتري (١) ويرسل الجهاز عادة إلى منزل العريس على ظهور الجمل . وكثيراً ما يشمل الجهاز كرسي العمامة الذى سبقت الإشارة إليه . وكرسي العمامة كبير الحجم بسيط الصنعة إذ يصنع أسفله وظهره من الغاب ، وهو لا يستعمل للجلوس أبداً . وقد تكون له مظلة . وتوضع العمامة عليه ، وتغطى بقطعة من الحرير السميك ترصع عادة بسلوك ذهبية . وقد يحتوى الجهاز على كرسيين : أحدهما للعمامة الزوج ، والآخر لعمامة الزوجة .

ويستقبل العريس عروسه فى مساء الجمعة أو الإثنين (٢) ، ويعتبر يوم الجمعة أسعد الأوقات . فلنقرر إذاً أن العروس تنتقل إلى عريسها مساء الجمعة ، ويومئذ

(١) وفى الريف مع ذلك يتناول الأب أو الوصى الشرعى على العروس المهر ولا يعطى مقابل ذلك شيئاً غير الفتاة وبعض الجيوب الخ أحياناً . فيجهز العريس فى هذه الحالة عروسه بكل شيء حتى ملابسها .

(٢) لقد أخطأ (بركهاردت) بقوله أن يومي الاثنين والخميس ينجز فيهما الحفل الذى يسبق ليلة الدخلة مباشرة . وكان الواجب أن يذكر يومى الأحد والخميس . وقد ارتكب أيضاً بعض الأخطاء عند الكلام على حفلات الزواج عند المصريين فى كتابه الأمثال العربية (ص ١١٢ - ١١٨) ومن الواجب على أن أذكر ذلك وإن كنت أخشى أن تكون شهرة (بركهاردت) فى تجميع الأشياء سبباً فى جعل القارئ يظن أنه على حق فى هذه المواضع . ولكنى أكتب هذا الكلام فى القاهرة وكتاب «بركهاردت» أمامى بعد شدة البحث والخبرة .

تضاء الشوارع أو الحى الذى يسكنه العريس ، أثناء الليلتين السابقتين أو قبل ذلك ،
 بالشمععدانات والفوانيس ، أو الفوانيس والقناديل الصغيرة ، يعلق بعضها فى حبال
 تمتد من منزل العريس وعدة منازل أخرى إلى المنازل المقابلة على جانبي الشارع ؛
 وتعلق أيضاً مع القناديل أو منفصلة ، رايات حريرية ذات لونين : أحمر وأخضر (١).
 ويقام فى منزل العريس أثناء هذه الليالى — وعلى الأخص الليلة الأخيرة التى
 تسبق عقد الزواج — عدة حفلات . ومن المعتاد فى هذه المناسبات أن يرسل
 المدعوون والأصدقاء الخالص الهدايا إلى منزل العريس قبل الدعوة بيوم أو يومين ؛
 فيرسلون سكرًا وبنًا وأرزًا وشمًا أو حملاً ... وتوضع الهدايا السابقة على صينية
 نحاسية أو خشبية ، وتغطي بنسيج مطرز أو من الحرير . وتستخدم لتسليم المدعوين
 فرق موسيقية ومغنيات ومغنون وراقصات ، أو تقام « ختمة » أو « ذكر » (٢).
 وتقدم العائلات الموسرة إلى الخاطبة وإلى « داية » العائلة و « البلانة » وظئر العروس ،
 بعد إتمام العقد بيوم أو يومين ، قطعة من النسيج الذهبى ، وشالا كشميرياً
 أو قطعة حريرية مفوفة من نسيج اليك والشنميان ؛ فتضع هؤلاء النسوة هذه
 الملابس على الكتف اليسرى ، ويربطن أطرافها معاً على الجانب الأيمن ، ويركبن
 الحير وأمامهن طبالان أو أكثر ، ويمررن على صديقات العروس ليدعوهن
 إلى مرافقتها إلى الحمام ذاهبًا وإيابًا ، وإلى حضور الحفلات التى تقام بتلك
 المناسبة . وكلما يمررن على منزل تؤدب لهن مائدة إذ أنهن يعلن عن زيارتهن فى
 يوم سابق . وتسمى أولئك « مُودنات » ، أو على الأصح « مُودنات » ،
 وينطقها العامة « مدُنات » ؛ وقد رأيتهن أحياناً يسرن راجلات ، ولا يتقدمهن
 الطبالون ، ولكنهن كن يزغردن بدل دق الطبول .

من العادات التى تراعيها طبقات الشعب أن تذهب العروس ظهر الأربعاء

(١) ويسمى القنديل الموضح فى شكل ٥٤ المصنوع من الخشب المدهون أخضر واحمر
 وبيض وازرق « ثريا » ويسمى الاطار الذى يعلوه والذى يتدلى منه ستة قناديل « خام سليمان »
 وتسمى المجموعة كلها جل قناديل

(٢) لا أصف هذه الحفلات هنا لأننى أفردت لها فصلاً يتعلق بالحفلات الخاصة . والختمة
 عبارة عن تلاوة القرآن جميعه ؛ وأما الذكر فهو ترديد اسم الله وصفات التوحيد الخ. وسأتكلم
 عنهما بالتفصيل فى فصل آخر عند وصف الحفلات الدورية العامة .

الأول أو بعيد الظهر ، أو يوم السبت إذا كان الزواج يتم مساء الإثنين ، إلى الحمام في أبهة واحتفال^(١) . ويسمى هذا « زفة الحمام » . فيتقدم الزفة فرقة تتكون من حزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع^(٢) . وكثيراً ما تنهز الفرصة للاحتفال بختان الولد ، فيسير هذا وحاشيته خلف الموسيقيين بالطريقة السابق ذكرها . وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير المطرز أو الساذج . ويوجد أيضاً سقاء يروى ظلاً السائرين ، ورجلان آخران يحمل أحدهما قفلاً من الساذجة أو المذهبة ، أو من الصيني ، مملوءاً بماء الورد أو زهر البرتقال ، يرش منه على السائرين من وقت لآخر . ويحمل الآخر مبخرة من الفضة يحرق فيها العود وغيره من المواد العطرية . ولكن يفدر أن تسير الزفة بهذه الطريقة . وتكون حاشية العروس من صديقاتها وقريباتها المتزوجات ، يتقدمن اثنتين اثنتين ، وتقلوهن الفتيات العذارى . ويلبس المتزوجات الملابس العادية ويتدثرن بالحبرة الحريرية السوداء ؛ أما الأخريات فيلبسن الحبرة الحريرية البيضاء أو الشال . ثم تتبعهن العروس تحت مظلة حريرية ذات ألوان زاهية ، قرنفلية أو وردية أو صفراء ، أو ذات لونين معاً على هيئة خطوط عريضة غالباً ما تكون وردية وصفراء . ويحمل المظلة من قوائمها الأربعة ، المعلق على كل منها منديل مطرز ، أربعة رجال . ويفتح صدر هذه المظلة . وتحقق العروس تحت ملابسها ، فتتدثر ، من قبة الرأس إلى أخمص القدمين ، بشال كشير أحمر ، أو نادراً ، بشال أبيض أو أصفر . ويتوج رأسها بغطاء من الورق المقوى ، يوضع عليه الشال ، فيحجب عن الأنظار وجهها وملابسها الثمينة وحليها خلا قصة أو قصتين^(٣) (وحلي أخرى أحياناً) من الماس والزمرد ، تعلق على هذا الموضع من الشال الذي يغطي الجبهة . ويرافق العروس تحت المظلة اثنتان أو ثلاث من قريباتها ، وامرأة أخرى تروح عليها ، عندما تشد الحرارة ، بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود ،

(١) وقد رأيت مرة هذه الزفة وأخرى سأصفها فيما بعد تسير بعد ذلك الوقت بكثير وتعود بعد الغروب بساعة .

(٢) ونوع الموسيقى على العموم بدائي وتعزف عادة ألحاناً شعبية .

(٣) أنظر وصف هذه الحلي في الملحق .

يزين أسفلها مرآة صغيرة . وقد تقام زفة واحدة لعروسين معاً تحت مظلة واحدة . وتسير الزفة ببطء شديد وتتبع طريقاً ملتوياً ليطول العرض . وتتوجه إلى اليمين عند البدء في السير ؛ ويأتى في ذيل الزفة فرقة موسيقية أخرى مثل الأولى أو فرقة من طبالين اثنين أو ثلاثة . ويلاحظ أن السائرات في زفة العروس من الطبقة السفلى يزغردن كثيراً . وزغرد كذلك نساء الطبقة الفقيرة كلما شاهدن زفة .



(شكل ٤٧) زفة عرس « قسم أول »

وقد يستأجر الحمام كله للعروس وحاشيتها ، فيمضين ساعات أو ساعتين على الأقل في الاستحمام واللعب وتناول الطعام . وكثيراً ما تستأجر العوالم (القيان) لتسليهن في الحمام . ثم تعود الزفة بالنظام نفسه . ويحمل أهل العروس نفقات الزفة ، إلا أن العريس يقيم المأدبة التي تعقب ذلك .

وتعود العروس من الحمام إلى منزل أهلها ، فتتناول مع رفيقاتها العشاء . وتصحبهن القيان لاستئناف اللهو . وتدور أغانيهن على الحب والزواج . وبعد ذلك تعجن بعض الحناء ، وتضع العروس قطعة من المجين في يدها ، ثم تتناول « النقوط » من ضيفاتها ؛ فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة في تلك المجيمة حتى لا يبقى موضع فيها ، فتقشطها العروس حينئذ بعيداً عن يدها على حافة وعاء مملوء ماء ، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها وتربطها بالكتان حتى الصباح ، فتصبغ بلون أحمر برتقالي قان . وتستعمل المدعوات ما تبقى من الحناء لصبغ أيديهن . وتسمى هذه الليلة « ليلة الحنا »



(شكل ٤٨) زفة عرس « قسم ثان »

ويقيم العريس الحفلة الكبرى في هذه الليلة ، وأحياناً في اليوم السابق .
 فيعرض « المحزون » ألبابهم أمام المنزل أو داخل الفناء إذا كان المنزل واسعاً .
 وقد وصفت الألباب الشائعة الأخرى التي تعرض على المدعوين لتسليتهم .

وتزف العروس إلى منزل عريسها في اليوم التالي . وتسمى هذه الزفة لأهميتها
 « زفة العروسة » . أما الزفة السابق وصفها ، فتسمى « زفة الحمام » لتمييزها عن
 الأخيرة . وقد تسير العروس إلى الحمام بغير أبهة أحياناً تقليلًا لمصاريف الاحتفال ،
 وتكون الزفة إلى منزل العريس فقط . وزفة العروس كالزفة السابقة تماماً .
 وتتناول العروس الفطور مع حاشيتها ، ثم تبدأ الزفة بعيد الظهر . فتسير ببطء
 وانتظام ، كزفة الحمام ، سيراً طويلاً خلال الشوارع الرئيسية لأجل العرض ، ولو كان
 منزل العريس قريباً . وقد تدوم الزفة ثلاث ساعات أو أكثر عادة . وقد يتظاهر
 أمام الزفة مبارزان لا يلبسان غير السراويل ، أو يتضارب فلاحان بالنبوت
 أو غيره . وترحب العائلات الموسرة بمن يجيد تسلية المتفرجين بحيلهم وألبابهم
 المعجبية أثناء زفة العروس ، وتقدم إليهم هدايا جميلة ^(١) . وحينما زوج السيد عمر
 نقيب الأشراف ، الذي كان الوسيلة الكبرى لبوغ محمد على ولاية مصر ، بنقه

(١) وأكثر ما يشاهد في هذا الوقت العمل الشاق الذي يقوم به سقاء يطلق عليه لقب
 « قيم » ، ليحصل على هدية ولقب زهيد . فيحمل قربة ثقيلة تملأ رملاً وماء أطول وقت دون
 أن يستريح بالقعود إلا إذا حبا . وقد شاهدت أخيراً في زفة عرس قوما يحمل قربة من الرمل
 والماء ترن أكثر من قطارين ، ابتداء من غروب اليوم السابق قبل الزفة وأثناءها حتى الغروب

منذ حوالي خمس وأربعين سنة، سار أمام الزفة شاب قد شق بطنه وأخرج أمعاءه على صينية من الفضة، ثم أعادها إلى موضعها بعد الزفة، ولزم السرير عدة أيام قبل أن يشفى من آثار هذا الجنون الكريه. وضرب آخر ذراعه بسيفه أمام المتفرجين، ثم شد جرحه قبل أن يخرج السلاح بمضعة مناديل تشربت بالدم. وقد وصف لى هذه الألعاب شاهد عيان. وهناك مشهد أكثر غرابة وأشد إثارة للاهتمام لا يقل شيوعاً في هذه المناسبات عادة، إلا أنه يفدر أن يشاهد الآن^(١). وقد يعرض الحواري أيضاً حيلاً مختلفة. إلا أن أكثر الألعاب تكون تقليداً للمعارك. وقد تعرض مثل هذه الألعاب في الاحتفال بختان. وقد تسير في الزفة العظيمة عدة عربات يركبها صناع وتجار من مختلف الفنون والحرف الممارسة في العاصمة يمثلون أعمالهم العادية. ويوجد في إحدى العربات بعض الرجال يصنعون القهوة ويقدمونها إلى المتفرجين أحياناً، وفي عربة أخرى يجلس بعض الموسيقيين، وفي عربة ثالثة بعض العوالم. وتركب العروس في مثل هذه الزفة عربة أوربية مغلقة، ولكن كثيراً ما تركب العروس وقرباتها وصديقاتها الحمير فوق البرازع المرتفعة، ويتقدمهن الموسيقيون والمغنيات ويلوهن فرق أخرى في نهاية الزفة. وتؤدب للعروس ورقيات مادية عند بلوغهم منزل العريس، وسرعات ما تنصرف الصديقات، وتبقى أم العروس وأختها وحدها معها، أو إحدى قربياتها الأخريات، وامرأة أخرى تكون «البالنة» عادة. وتسمى الليلة التالية «ليلة الدخلة».

ويبقى العريس في الدور الأسفل. ويذهب قبل الغروب إلى الحمام، فيغير ملابسه؛ وقد يغيرها في المنزل. وبعد أن يتناول وجبة العشاء مع بعض أصدقائه، ينتظر قليلاً إلى قبيل الصلاة أو إلى هزيع من الليل، ثم يذهب حينئذ، حسب العادة الشائعة، إلى أحد المساجد المشهورة، مثل مسجد الحسين، لإقامة الصلاة. وتقام له بهذه المناسبة زفة إذا كان شاباً، فيتوجه إلى المسجد مسبقاً بفرقة من طبالين وزمار أو زمارين، وبصحبه بعض أصدقائه وحامل المشعل. والمشمع عبارة عن عصا طويلة ينتهي طرفها الأعلى بإطار إسطوانى من الحديد يوضع فيه

(١) وقد وصفه «بركهاردت» وصفاً صحيحاً في كتابه «الأمثال العربية» ص ١١٥ — ١١٦

خشب مشتمل ؛ وقد يكون لها أكثر من وعاء واحد للنار (أنظر شكل ٤٩) .



(شكل ٤٩) مشاعل

وتسير الجماعة إلى المسجد عادة بخطى سريعة ونظام قليل ، وتختم الزفة فرقة موسيقية كالأولى أو فرقة طبالين . ويلبس العريس عادة قفطانا ذا خطوط حمراء وجبة حمراء ، ويعتم بشال من الكشمير باللون نفسه ، ويمشي بين صديقين في مثل ثيابه . وتقام الصلاة للاحتفال فقط ، وفي أكثر الأحيان لا يصلي العريس مطلقا ، أو يصلي من غير وضوء ، مثل المالك الذين يقيمون صلاتهم خوفا من سادتهم فقط ^(١) .

وتعود الزفة من المسجد في نظام أتم وأبهة أعظم وبطء شديد . وربما كان سبب ذلك أنه لا يليق بالعريس أن يسرع إلى المنزل ليحظى بعروسه . ويتقدم الزفة ، كما سبق ، موسيقيون وحاملو مشاعل ، يتبعهم رجالان يحملان على كتفهما إطاراً معلقاً في مندرة ، يتبدل منه ستون فانوساً صغيرة أو أكثر ، مقسمة إلى أربع دوائر تملأ إحداها الأخرى ؛ ولا تثبت الدائرة العليا بحيث يستطيع أحد حاملي الإطار أن يديرها من حين لآخر . وينير لألاء هذه الفوانيس والمشاعل الكثيرة الشوارع التي تمر فيها الزفة ، فتحدث تأثيراً جميلاً يستحق الاعتبار . ويتقدم العريس وأصحابه وغيرهم ، في شكل حلقة مستطيلة ، متقابلين ، وفي يد كل منهم شمعة أو أكثر ، وأحياناً يحملون أغصاناً من شجر الحناء أو بعض الزهور ، عدا العريس وصديقيه على كل جانب ، وهم يمضون في مؤخر الحلقة التي تشمل عشرين شخصاً أو أكثر . وكثيراً ما يقف الموكب برهة ، يقف أثناء ذلك دق الطبول ونفثات الزمار الحادة ، التي تبلغ مسامع العروس قبل وصول الزفة إلى المنزل بنصف ساعة أو أكثر .

(١) ومن هنا سميت هذه الصلاة « صلاة بمالكية » أو « صلاة المالك » .

وينتهي الموكب كما سبق بفرقة موسيقية ثانية .

هذه هي الطريقة الشائعة في زفة العريس ؛ وهناك طريقة أخرى ، أكثر اعتباراً ، تسمى « زفة سادق » . يسير العريس فيها بين أصدقائه ، كالطريقة السابقة ، وبين حاملي المشاعل دون الموسيقيين ، ويستخدم مكان هؤلاء رجال يسمون ، لاحترافهم الغناء في مثل هذه الأوقات ، « ولاد ليالى » . ويتوجه العريس بين هذه الحاشية إلى المسجد . ثم يعود الموكب على مهل ، ويشرع المغنون في الغناء أو إنشاد الموشحات في مدح الرسول (صلعم) . ويرتلون متعاقبين ما تيسر من القرآن بعد الوصول إلى المنزل ، ثم يقرأون جميعاً الفاتحة ، وينشد أحدهم بعد ذلك قصيدة في مدح الرسول (صلعم) ؛ وأخيراً ينشد الجميع مرة أخرى الموشحات . ويتناولون النقوط من العريس وأصدقائه .

سرعان ما يترك العريس ، بعد عودته من المسجد ، أصدقاءه في الدور الأسفل يتمتعون بتدخين الشبك واحتساء القهوة والأشربة . وتظل أم العروس وأختها ، وأخيراً من قريباتها ، في الدور الأعلى ، بينما تكون هي والبلانة في غرفة منفصلة . وينبغي أن يبدي العريس الشاب بعض الحياء مثل العروس ؛ فيحمله لذلك أحد أصدقائه في بعض الطريق المؤدى إلى الحريم . وقد تجلى العروس ، إذا كانت من الطبقات الموسرة ، أمام العريس في ملابس مختلفة تصل إلى سبعة ؛ وعلى العموم يرى العريس عروسه مع البلانة وحدها ، فيمنحها عند دخوله الغرفة منحة فتنسحب في الحال . وتغطي العروس رأسها بشال لا يرفعه العريس قبل أن يهبها هبة مالية تسمى « كشف الوش ^(١) » ، بينما تظهر العروس في سبيل رفع الغطاء نفوراً وممانعة شديدة لتعبر عن خفرتها البتولى . ويسمل العريس عند كشف النقاب ، ثم يحيي العروس قائلاً : « ليلة مباركة ! » . فتجيبه إن لم يرج عليها من الخجل : « بارك الله فيك » . وقد يرى العريس حينئذ لأول مرة وجه عروسه . ويجد العريس على العموم أن العروس كما وصفت له تقريباً . وكثيراً ما تنفجر حينئذ طقوس عجيبة ، فيرفع العريس ملابس العروس جميعها ما عدا القميص ، ويجلسها على حشية سرير يتجه نحو مكة ، كما يولى ظهر العروس هذه الجهة ، ثم يجذب حجر

(١) كلمة (وش) تحريف عامي لكلمة وجه أو وجه (بتعطيش الجيم) .

قيصها إلى الأمام ويسطه على الحشمية . ويقف أمامها على بعد ثلاث أقدام تقريبا ،
ويصلي ركعتين واضعاً رأسه ويديه عند السجود على هذا الجزء من القميص .
ولا يبق العريس مع عروسه أكثر من بضع دقائق^(١) ، بعد أن يكون قد أشبع
فضوله بمشاهدة جاذبيتها ، ويطلب من النساء ، اللاتي يتجمعن عند الباب
وهن قلقات ، أن يزغردن . وتصل الصبيحات الحادة إلى مسامع الرجال في الدور
الأسفل وإلى الجيران ، وتجاوب النساء بالزغاريد مخبرات أن العريس رضى بعروسه .
ثم يهبط العريس إلى أصدقائه ويبقى معهم ساعة أو أكثر قبل أن يعود إلى زوجته .
ويندر جداً أن يطلق الزوج زوجه إذا خاب فيها رجاءه ، وإنما يستبقها أسبوعاً
أو أكثر .

الآن وقد وصفت طريقة الاحتفال بزواج العذراء في القاهرة ، أضيف بعض
كلمات عن بعض حفلات شاهدها في أحوال أخرى خاصة بالعذارى والثيبات سواء
يندر أن يذهب بنات العظماء إلى الحمام العمومي قبل الزواج لوجود الحمام في
المنزل . وعند ما تخلو منازل المائلات الموسرة أو المتحضرة من حمام ، تذهب
العروس مع قريباتها وصديقاتها إلى الحمام ، وإلى منزل العريس ، دون زفة ، راكبات
الحمير فوق البراذع المرتفعة . وتقدر العروس بشال كشمير على طريقة الخبرة .
وقد ترافق حاشية العروس فرقة عوالم يركبن الحمير أيضاً ويغنين طول الطريق .
وقد يكون لمائلة العروس أو العريس أغاوات ، فيتقدمون العروس راكبين .
وقد يجري على رأس الزفة رجل يصيح : « صلوا على النبي » . وينثر هذا الرجل
عند باب المنزل بعض أوراق السلق ، ليسير عليها السيدات اتقاء لأحداث الدهر .
ثم يصيح الرجل نفسه قائلاً : « نصر من الله وفتح قريب » .
وقد يتم عقد الزواج عند المصريين من غير أبهة ولا احتفال ، حتى في حالة
زواج العذراء ، برضا عائلتي العروسين المتبادل ، أو بموافقة العروس نفسها .
أما الثيب فلا تزف أبداً عند الزواج . ويكفي أن تقول المرأة لمن يتقدم لزوجها :
« وهبت لك نفسي » ، فتصبح امرأته شرعاً متى كانت بالغة ، حتى من دون شهادة ،

(١) أرجو من يرغب في بعض التفصيل أن يرجع إلى بركهاردت ص ١١٧ فقد يكون
وصفه أكمل ، ولكن يبدو أنه عني بالإيجاز في هذه الحالة بصفة خاصة .

إذا استحال الحصول عليها . وقد يعقد المسلمون في مصر وغيرها من البلاد العربية الزواج بالثيب بهذه الطريقة البسيطة . ويبلغ مهر الثيب على العموم ربع مهر العذراء أو ثلثه أو نصفه .

وتتم حفلات الزواج في القاهرة عند الطبقات التي تعمل الطبقات السفلى ، وإن حقرت معيشتها ، بنفس طريقة الطبقة الوسطى . إلا أنهم يراعون البساطة عند ما يستحيل تحمل نفقات مثل هذه الزفة السابق وصفها ، فتسير العروس متدثرة بشال أحمر ، ويحيط بها فريق من قريباتها وصديقاتها في أحسن حللهن أو فيما يستعمرن من الملابس . ولا يبهج الموكب من صيحات الفرح غير الزغاريد التي يرددنها من وقت لآخر .

وتختلف الزفة في القرى عن الزفة السابقة . فالعادة أن تتركب العروس جملاً ، وهي متدثرة بشال ، حتى تبلغ منزل العريس . وقد يجلس معها على الجمل بعض النساء والبنات ، اثنتان على جانبها ، واثنتان أو ثلاثة ورائها . ويكون الهودج كبيراً ويغطى بالبسط وغيرها . ويتبع العروس جماعة من النساء يغنين . وكثيراً ما يتقابل أصدقاء الطرفين وصديقاتهما في منزل العريس ، مساء يوم الاحتفال والأيام السابقة ، ويلهون في الهواء الطلق طويلاً بالأغاني والرقص الذي ينقصه المهارة على ألحان الدف والطبل . ويعني الجميع رجالاً ونساء ، ويرقص النساء فقط . وقد اختصرت الكلام في وصف الحفلات الريفية لتجنب ترديد الوصف في موضوعات متشابهة . ولنرجع إلى عادات أهل القاهرة .

في الصباح التالي للزفاف ، يمرض « الخولات ^(١) » و« الغوازي » (رجالاً ونساء) ألما بهم أمام منزل العريس أو في الفناء ^(٢) . وفي الصباح عينه ، إذا كان العريس شاباً ، يدعوه الشخص الذي سبق أن حمله إلى الحريم إلى قضاء اليوم في الريف مع الأصدقاء . ويسمى هذا « الهروبة » . وقد ينظم ذلك العريس نفسه ، ويشارك في النفقات إذا زادت على ما يقدمه أصدقاؤه من النقود في هذه المناسبة . ويستأجر الموسيقيون والراقصات لتسليتهم . ويسير العريس من الطبقة السفلى في مؤخرة الموكب

(١) ويسمى الخول أيضاً « غايش » وجمعها « غياش » .

(٢) ويسمى هذا « صباحية العروس » .

مسيبوا ببعض الطبايع والزمارين . ويحمل كل من أصدقائه وغيرهم باقة من الزهر ، كما يفعلون أحيانا في زفة الليلة السابقة . ويرافق الحاشية حاملو المشاعل والمصابيح عند عودتها بعد الغروب ، بينما يحمل الأصدقاء علاوة على الباقات شمعا (١) . وهناك حفلات لاحقة تقام بمناسبة الزواج أيضاً ستوصف في فصل لاحق .

وبفضل العريس على العموم ، إذا وفق إلى ذلك ، أن تعيش أمه في منزلها ، حتى يتسنى لها أن تحمي شرف زوجته وبالتالي شرفه أيضاً . ويقال إن الحماة تسمى كذلك لهذا السبب (٢) . ويقال إن المصريات يعلن إلى الدسائس ؛ وأخشى ألا يكون هذا الحكم ظالماً . وقد يسكن الزوج وزوجه في بيت أمها ويتولى الإنفاق عليهما . وهذا يوجب على الأم أن تهتم بالنفقات جد الاهتمام ، وأن تدقق في ملاحظة ابنتها خوفاً من أن تطلق . ولكن يقال إن الأم في هذه الحالة تعمل وسيطة لابنتها ، فتعلمها الحيل والمكايد التي تتسلط بها على زوجها وتبذر نقوده . ويندر أن يقل الخوف من تأثير أم الزوجة عليها ولو كانت لا تنعم برؤية ابنتها إلا في مناسبات عرضية . ولذلك يرى الرجال أنه من الحكمة أن يتزوجوا بنتاً لا أم لها ولا قريبات ؛ حتى إن بعضهم يحرم على زوجته أن تستقبل امرأة غير قريباته . ولكن قلما يفرض هذا التقييد الشديد .

لا يصعب على من اختلط بمجتمع الرجال المسلمين في القاهرة ، كما قد يتصور الأجنبي ، أن يقال ، من غير زواج ، أدق المعلومات الكثيرة عن مشؤون النساء وعاداتهن فأغلب رجال الطبقة الوسطى المتزوجين ، والقليل من الطبقة العليا ، يتحدثون طوعاً عن مسائل الحريم إلى من يصرح لهم باستحسانه آراءهم في الأخلاق . ولا تعتبر الزوجة على العموم متعقلة في الحريم ، لأنها تكاد تكون مطلقة الإرادة في الخروج وزيارة الصديقات واستقبال الضيفات ؛ ولا جرم أنه ليس

(١) ويتقابل أصدقاء العروسين وأقاربهما في ريف الصعيد في اليوم اللاحق للزواج . وترقص العروس وقتاً قصيراً على نغبات تصفيق الرجال والدفوف وغيرها . وتطرح العروس على رأسها طرحة تصل إلى الكعنين وتنطى وجهها تماماً بمنديل من القطن المطبوع وتحلى بأجمل ملابس العرس التي تعلق على باب الدار بعد الزواج في بعض مناطق ريف مصر . ثم يتم الرقص بعض النساء محتجبات كالعروس ومتدثرات بأحسن ملابسهن أو ما يستعرن .

(٢) وينطقها العامة (جه) وهي مشتقة من فعل حمى بمعنى صان ووقى .

للجوارى هذا الاختيار، إذ هن سواء خضعن للزوجة، كما يخضعن للسيد، أو للسيد فقط، تحت سلطة لا حد لها تقريباً. ومن أهم ما يرى إليه رب الدار بتخصيص حريم منفصل أن يتلافى رؤية الخدم وغيرهم من الرجال لنسائه دون نقاب كما يأمر الدين. وتبين الآية التالية أنه يجب على المسلمة أن تحفى عن الرجال، خلا بعض الأقارب وغيرهم، ما يلفتهم إلى شخصها أو زينتها: (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولا يُبدِينَ زينتهنَّ إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهنَّ على جُيوبهنَّ، ولا يُبدينَّ زينتهنَّ إلا لبعولتهنَّ أو آبائهنَّ أو آباء بعلوتهنَّ أو أبنائهنَّ أو أبناء بعلوتهنَّ أو إخوانهنَّ أو بنى إخوانهنَّ أو نسائهنَّ أو ما ملكت أيمانهنَّ أو التابعتنَّ غيرأولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربنَّ بأرجلهنَّ ليعلم ما يخفينَّ من زينتهنَّ. (١)) ويُشير الجزء الأخير من الآية إلى عادة رن الخلخال الذى كان يستعمله نساء العرب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولا يزال المصريات يتحلين به (٢)

ويجب على أن أذكر هنا تعليقيين لمفسرين فاضلين (٣)، مدرجين فى ترجمة سيل Sale للقرآن، توضيحاً للآية السابقة، حتى لا تؤدى إلى فهم العادات المتأخرة الخاصة بدخول الحريم أو عدمه فهما خطأ. والتعليق الأول خاص بكلمة (أو نسائهن) وقد شرحت كما بلى: «أى المسلمات، ويرى البعض أن مسفور المؤمنة أمام الكافرة مخالف للشرع، أوللحشمة على الأقل، إذ لن تعف الكافرة عن وصفها للرجال. ويفترض الآخرون أن هذا الاستثناء يشمل النساء جميعهن على العموم، وتختلف آراء العلماء فى هذا الموضوع». ولا يمقر الآن فى مصر، وفى كل بلد إسلامى آخر على ما أعتقد، دخول امرأة، من أى طبقة أو من أى دين، حريم المسلم أصراً مخالفاً.

ويتعلق الشرح الآخر بجملة (ما ملكت أيمانهن): «يشمل هذا الاستثناء

(١) سورة النور الآية ٣١.

(٢) أنظر لإشعيا ٣ / ١٦ «وقال الرب: من أجل أن بنات صهيون يتشاخن ويعشن ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ونخشن بأرجلهن».

(٣) والتعليقان للبيضاوى وجلال الدين — أنظر ترجمة سيل Sale للقرآن ص ٢٦٦.

(المترجم)

جميع الأرقاء من الجنسين ، وكما يرى البعض ، الخدم غير الأرقاء مثل هؤلاء المنتمين إلى شعب آخر . و يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مرة إلى ابنته فاطمة عبداً ، وعندما أحضره أمامها لم تكن متدثرة بثوب ضاف ، فكان لا بد أن تترك رأسها أو قدمها مكشوفاً ؛ فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم ، حينما لحظ ارتباكها ، أن لا تهتم ، لأنها ليست في حضرة أحد غير أبيها وعبدها . وقد يكون الحال كذلك اليوم عند عرب الصحراء ، ولكن لم يبلغنى قط أنه يسمح للعبد البالغ في مصر أن يرى حريم رجل فاضل ، سواء كان العبد في خدمة الحريم أو لا ؛ وقد أكد لي أنه لا يسمح بذلك أبداً . وقد يكون سبب منح القرآن عبد المرأة هذا الامتياز استحالة الزواج به ما دام عبداً لها ؛ ولكن ليس هذا موجباً لمنحه حق الدخول إلى الحريم في مثل هذا المجتمع . ومما يستحق الاعتبار أن الآية السابقة لم تمنح الأعمام حق رؤية بنات الأخ أو الأخت مكشوفات الوجه . ويرى البعض أنهم ليسوا أهلاً لذلك خشية أن يصفوهن إلى أبنائهم ؛ ولا يليق بالرجل أن يصف سحنة امرأة أو شخصها (كأن يقول أن لها عينيْن نجلاوين وأنفاً مستقيماً وفقاً لصغيراً الخ) إلى من تحرم عليه رؤيتها . ولا عيب في وصف المرأة وصفاً عاماً مثل قولك : « إنها فتاة لطيفة مكحلة بالكحل ومخضبة بالحناء » .

ولا يسمح للرجل عامة أن يرى غير زوجته وجواريه ومن حرمن عليه لقراءة أو رضاعة بدون نقاب ^(١) . وقد أشرت في الفصل الأول إلى قدم عهد النقاب ؛ كما ذكرت أيضاً أن المصريات يعتبرن تغطية أعلى الرأس ومؤخره ألزماً من تغطية الوجه ، وحجب الوجه أهم من حجب أغلب أجزاء الجسم الأخرى . فالمرأة التي لا يمكن حملها على كشف وجهها أمام رجل ، قد لا تخجل من الكشف عن صدرها أو ساقها . وهناك حقيقة كثيرات من الطبقة السفلى يظهرن دائماً سافرات أمام العامة ، ولكنهن مدفوعات إلى ذلك لفقرهن ولصعوبة إحكام الطارحة ، التي يندر أن تتجرد منها امرأة ، فوق الرأس لتجمل محل البرقع ؛ وخاصة إذا شغلت كلتا اليدين في تثبيت ما يحملن من الأثقال . وتسرع المرأة

(١) ويسمح للاغوات أن يروا وجه النساء وكذلك الأطفال .

الجليلة ، عندما يصادفها رجل ، مكشوفة الوجه أو الرأس ، بلبس الطرحة أو إحكام وضعها ؛ وكثيراً ما تصبح : « يا دھوتى ! » أو « يا ندامتى ! » . ولكن كثيراً ما يدفع الدلال المرأة المصرية إلى كشف وجهها أمام الرجل متظاهرة أنها فعلت ذلك عفواً ، أو ظنت أنها لا تراه . وقد ينعم الرجل أيضاً برؤية وجه سيدة مصرية أحياناً ، بينما هي تعتقد حقاً أنها بعيدة عن الأنظار ، من شباك مفتوح أو فوق سطح . ويوجد في القاهرة منازل صغيرة ليس لها غرف سفلى لاستقبال الضيوف من الرجال ، فيصعد هؤلاء إلى الدور الأعلى صائحين صراخاً : « دستور ! يا ساترا ! » ، أو ما شابه ذلك لينبهوا من يصادفون من النساء في الطريق لينسجبن أو يحتجبن ، فتسحب المرأة فضلة من طرحتها أمام وجهها إلا عينا واحدة . ويصل شعور المسلمين بحرمه النساء إلى درجة غريبة ، حتى أنه يحرم على الرجال دخول قبور بعض النساء ؛ فلا يسمح مثلاً لغير النساء بزيارة زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرهن من أسرته في مدافن المدينة . ولا يدفن الرجل والمرأة في قبر واحد أبداً ، إلا إذا فصل بين الجثتين جدار . ويوجد مع ذلك من لا يهتم كثيراً بهذا الأمر وإن قل عددهم . ولى صديق مسلم من هؤلاء يسمح لى على العموم أن أرى أمه عقد ما أذهب لزيارته . وأمّه أرملة فى الخمسين من عمرها تقريباً ، ولكن ضخامة بدنها ودلالة سهاها على عدم الكبر يجعلانها فى سن الأربعين . وتقبل عادة إلى باب غرفة الحريم حيث أستقبل ، نخلو المنزل من غرف سفلى للاستقبال ، وتجلس هناك على الأرض ، ولكنها لا تدخل الغرفة أبداً . وقد تكشف أحياناً وجهها تماماً كما لو كان الأمر عرضياً ، فتبدو عيناها وقد أحاط بهما الكحل الكثير ، كما أنها لا تحاول أن تخفى حليها الماسية والزمردية وغيرها ، بل على العكس من ذلك تحاول إبرازها . ولم يسمح لى صديق برؤية زوجته أبداً ، مع أنه أذن لى بمحادثتها مرة فى حضوره ، خلف زاوية فى عمر أعلى السلم .

وأعتقد أن نساء مصر لا يضيق عليهن بالشدة المشاهدة فى البلاد الأخرى الخاضعة للباب العالى ؛ ولذلك ليس من غير المعتاد أن ترى نساء الأوشاب يتدللن ويمزحن مع الرجال علناً ، والرجال يضعون أيديهم عليهن دون حرج . وقد يُظن أن نساء الطبقتين العليا والوسطى يشعرون بالجور والتعاسة فى عزلتهن ، ولكن

ليس هذا هو الحال عادة ؛ بل على العكس نلاحظ أن الزوجة المصرية التي تتعلق بزوجها قد تظن ، إذا أطلق لها زوجها الحرية ، أنه يهملها ولا يحبها كثيراً ؛ وتحسد أولئك اللاتي يخضعن للرقابة الدقيقة .

وليس من المألوف أن يتزوج المصري بأكثر من امرأة ، أو يتسرى بأكثر من جارية ، مع أن الشرع يبيح له أربع زوجات ، كما أشرت قبلاً ، والتسرى ، طبقاً للرأى الغالب ، حسب رغبته . إلا أن الرجل ، وإن اقتصر على زوجة واحدة ، يمكنه أن يبدل كيفما شاء . وبقينا ليس هناك كثيرون في القاهرة لم يطلقوا امرأة إذا طال أمد الزواج . ويستطيع الزوج أن يطلق زوجته وقما يريد بقوله : « أنت طالق » . فإذا استعقرت إرادته على ذلك عن صواب أو عن خطأ ، وجب على المرأة أن تعود إلى أهلها أو صديقاتها . وتعرض المرأة لطلاق لا تستحقه مصدر لحزن وقلق لا تجدهما في أى اضطراب آخر . وقد تصبح لذلك في حالة عوز شديد . وهذا التعرض يبدو طبعاً ، على العكس تماماً ، لأولئك اللاتي يأملن تحسين حالتهن . ويستطيع الرجل أن يطلق زوجته مرة أو مرتين ويردها إليه في كل مرة من غير حفل . ولكنه لا يستطيع أن يردها سريعاً في المرة الثالثة قبل أن تتزوج رجلاً آخر وتطلق منه ؛ وهذا بعينه نتيجة الطلاق ثلاثاً المعبى عنه في جملة واحدة : « أنت طالق بالثلاثة » . ولكن قد يتفق الرجل والمرأة على مخالفة الشرع ، أو يشكر الرجل أنه أوقع عيى الطلاق . وتجد المرأة في الحالة الأخيرة صعوبة كبيرة في تنفيذ الطلاق قانوناً إذا أرادت ذلك .

وأذكر ، لتوضيح هذا الموضوع ، قضية أدخل فيها أحد معارفى شاهداً على عيى الطلاق . فقد كان جالساً في مقهى مع رجلين آخرين ، كان أحدهما قد غضب على امرأته لشيء قالته أو فعلته . وأرسل هذا بعد حديث قصير في هذا الأمر يدعو زوجه ، ثم أوقع عليها عيى الطلاق ثلاثاً ، وأشهد زميله على ذلك . ولكنه سرعان ما ندم على فعله وأراد أن يعيد مطلقته ، فرفضت العودة إليه ولجأت إلى (شرع الله) . فقدمت القضية إلى المحكمة . وقررت المدعية أن المدعى عليه أوقع عليها الطلاق ثلاثاً ، وأنه يريد الآن ردها إليه لتعيش معه كزوجة على خلاف الشرع . وأنكر المدعى عليه الطلاق . فسأل القاضى المدعية : « هل لديك شهود ؟ » فأجابته

« عندى شاهدان » . وكانا هما الرجلين اللذين شاهدا الحادث فى المقهى . فقررنا أن المدعى عليه طلق امرأته ثلاثاً فى حضرتها . فأكد المدعى عليه أن التى طلقها فى المقهى كانت امرأة أخرى . ولكن المدعية نفت وجود زوجة أخرى . فلقت القاضى نظرها إلى استعجالة معرفتها ذلك ، وسأل الشاهدين عن اسم المرأة التى طلقها الرجل أثناء وجودها . فأجابا أنهما يجهلان اسمها . فطلب منهما أن يقسما ، إذا استطاعا ، أن المدعية هى المرأة المطلقة أمامهما . فأجابا أنهما لا يستطيعان ذلك لأنهما لم يريا المرأة سافرة أبداً . فرأى القاضى إزاء ذلك أن يرفض الدعوى . وأجبرت المرأة على العودة إلى منزل زوجها . كانت تستطيع أن تطلب حضور المرأة التى اعترف الرجل بتطليقها فى المقهى ، ولكن كان من السهل أن يحضر امرأة تقوم بالدور المطلوب ، ما دام لا يطلب منها وثيقة الزواج . وفى مصر يعقد الزواج دائماً من غير كتابة ، ومن غير شهادة أحياناً .

كثيراً ما يحدث أن يرد الرجل امرأته بعد طلاق ثالث (بشرط أن ترضى هى نفسها باستئناف المعاشرة ، وألا يوجد شهود بوقوع الطلاق) دون أن يخضع للقانون الثقيل السابق ذكره . وجرت العادة أيضاً أن يستخدم الرجل فى مثل هذه الظروف رجلاً آخر يتزوج المطلقة بشرط أن يطلقها فى اليوم التالى لزواجهما ، فيعقد عليها الزوج الأول من جديد ، وإن خالف ذلك روح الشريعة مخالفة صريحة . ولكن قد تمسك الزوجة عن القبول ، إلا إذا كانت قاصرة ، فيزوجها أبوها أو الوصى عليها من يشاء . ويختار عادة للقيام بهذا العمل رجل فقير قيمح الشكل أعمى غالباً ، يطلق عليه لقب « مستحل » (بكسر الحاء أو فتحها) ، أو « مُحِلِّل » . وكثيراً ما يوجب المستحل بجهال المرأة التى يتزوجها بالشروط السابقة أو بثروتها فيرفض أن يتركها ؛ ولا يستطيع القانون أن يجبره على تطليقها إلا إذا ظلم ؛ وطبيعى أنه يحرص على عدم الجور فى معاملتها . ولكن الرجل يستطيع أن يستخدم « المستحل » دون تعرض لهذا الخطر . فقد جرت العادة أن يستخدم أثرياء الترك وبعض المصريين عبداً أسود من عبيدهم ليقوم بهذا العمل . وقد يشتري العبد أحياناً لهذا الغرض ، أو يطلب من النخاس أن يقدم العبد على سبيل العارية . وأحسن العبيد أقبحهم شكلاً . ويختار الترك على العموم

عبدًا غير بالغ ، إذ يسمح لهم مذهبهم بذلك . وعندما تستكمل المرأة عدتها ، يقدم لها مطلقها العبد ، بعد أن يحصل على رضاها بذلك من قبل ، ويسألها الموافقة على الزواج به ؛ فتوافق أمام الشاهدين ، ويقدم لها المهر لتكمل شرعية الزواج . وبذلك يصبح العبد زوجها الشرعى . وبعد العقد فوراً ، أو فى الصباح التالى ، يقدم الزوج الأول إلى مطلقته هذا العبد ملكاً لها ، فتدخل عقدة الزواج بقبولها إياه ؛ إذ أن الشرع لا يبيح للمرأة أن تزوج من عبدها إلا إذا أعتقته . وتستطيع الزوجة ، عندما يفسخ زواجها بقبولها العبد ، أن ترده إلى زوجها ثانية ؛ ولكن يفدر أن يسمح الزوج للمستحل بالبقاء فى المنزل . وبعد ذلك تستطيع الزوجة ، عند ما تنتهى عدتها ، أن تعود إلى زوجها بعد أن فارقت مدة العدتين ، وذلك مايقرب من نصف سنة أو يزيد .

ومن الميسور أن نتصور ما تنتجه سهولة الطلاق من ضرر ينال الجنسيتين معاً . وفى مصر رجال يتزوجون فى عشر سنين عشرين امرأة أو ثلاثين أو أكثر من ذلك . وفيها كذلك نساء لم تتقدم بهن السن يتزوجن عشرة رجال أو أكثر على التوالى . وقد أخبرت أن هناك رجالاً تعودوا الزواج كل شهر تقريباً بامرأة جديدة . ولا يصعب ذلك على الرجل ولولم يملك إلا القليل ؛ إذ يستطيع أن يختار ، من بين نساء الطبقات السفلى ، أرملة شابة أو مطلقة ترضى أن تصبح زوجة له بمهر يقرب من عشرة مثلفات ، ولا يلتزم عند ما يطلقها بأكثر من ضعف هذا المبلغ أثناء عدتها . ولكن يجب القول بأن المصريين على العموم يمتبرون مثل هذه التصرفات فاضحة ؛ ولما توافق عائلات الطبقات العليا والوسطى أن يزوجن بناتهم من رجل مزواج .

ويقل تعدد الزوجات فى الطبقات العليا والوسطى عنه فى الطبقات السفلى . وتعد الزوجات مفسد لأخلاق الزوج وزوجاته ، ولا يبرره غير تقليله ارتكاب الفاحشة . ويستطيع الفقير أن ينعم بزوجتين أو أكثر ، وتستطيع كل منهن أن تقوم بضروريات معيشتها تقريباً بأى صنعة أو عمل . إلا أن أغلب رجال الطبقات العليا والوسطى منصرفون عن ذلك لما يحده تعدد الزوجات من نفقات وتعب . وقد يضطر الرجل الذى يحب زوجته العقيم إلى الزواج بأخرى أحياناً ،

تتكون له ذرية ؛ وقد يتزوج بثالثة أو رابعة للسبب نفسه . بيد أن السبب البين والمألوف لعدد الزوجات هو عدم استقرار الشهوة ؛ ولكن قل من يرضى هواه بالأسلوب السالف . وأعقد أن ليس هناك أكثر من رجل واحد بين كل عشرين رجلاً ينعم بزوجتين .

وتتمتع زوجة الرجل الأولى بالمكان الأول بين زوجاته الأخريات ، وتسمى « الست الكبيرة » . ومن هنا كان كثيراً ما يحدث ، عند ما يرغب الرجل في الزواج ، أن يشترط أهل الفتاة المخطوبة أو الفتاة نفسها أن يطلق الزوجة الأولى أولاً . وطبيعى أن المرأة لا تستحسن زواج الرجل بأكثر من واحدة . ويُعبد الرجل الثرى ، أو المتوسط الحال ، حتى الفقير ، لكل من زوجاته مسكناً منفصلاً . وتستطيع الزوجة أن تجبر زوجها على أن يخصص لها « مسكناً شرعياً » منفصلاً ، أو شقة (بها غرفة واحدة للنوم وللجلوس ومطبخ ودورة مياه) منفصلة عن غرف المنزل الأخرى . وتسمى كل من الزوجتين أو الزوجات « ضرة » (١) . وكثيراً ما يتحدث الناس عن مشاجرات الضرائر . ويستنتج طبعاً أن الصداقة لا تحصل دائماً بين امرأتين يقتسمان حب رجل واحد وحده . وكذلك الحال على العموم بين الزوجة والسرية اللتين تعيشان في منزل واحد وفي أحوال متشابهة (٢) ويحدث أحياناً إذا عقلت السيدة ، وحملت من دونها ، زوجة كانت أوسرية ، أن تصبح الأخيرة مفضلة لدى الرجل ، و« تصغر في عينها » سيدة المنزل كما صغرت امرأة إبراهيم في عيني هاجر للسبب نفسه (٣) ؛ ولذلك كان كثيراً ما تفقد الزوجة الأولى مكانتها وامتيازاتها ، وتصبح الأخرى سيدة المنزل ، يعاملها منافساتها والحریم جميعه والزائرات ، لحظوتها عند الزوج ، بنفس الاحترام الظاهر الذى كانت تتمتع به الزوجة الأولى . ولكن قد تستعمل الكأس المسمومة أحياناً للتخلص منها

(١) وينطقها العامة كذلك (أو بالحرى درة « بالدال ») بدلا من ضرة (بفتح الصاد) وقد يكون ذلك في الأصل تحويراً لمعنى كلمة ، إذ أن كلمة درة تسمية عامة للبيضاء .

(٢) ويأمر الشرع الزوج الذى يتزوج بأكثر من واحدة أن يلزم العدل بينهما في كل شئ . ولكن يندر الخضوع لهذا الأمر .

(٣) أنظر سفر التكوين ١٦ : ٤ (فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينها) .

وكثيراً ما يكون تفضيل الزوجة الثانية سبباً في تقييد الزوجة الأولى في المحكمة « نائمة » ، بناء على طلب الزوج أو طلب الزوجة الأولى نفسها . ومع ذلك كان كثيراً ما يرى زوجات يخضعن إلى أزواجهن الخضوع المثالي الصادق في مثل هذه الأحوال ، ويمالأن الزوجة المفضلة بود وطيبة (١) .

لبعض الزوجات جوار يشترين خاصة ، أو يقدمن إليهن قبل الزواج . وأولئك الجوارى لا يصبحن سريات للزوج إلا بإذن تسمح به السيدة أحياناً (كما كان حال هاجر جارية سارة) ، ولكن ذلك نادر جداً . وكثيراً ما تأتي ، الزوجة لجارتها أن تسفر في حضرة زوجها . وقد يتسرى الزوج بالجارية دون إذن سيدتها ، وقد تحمل منه ، فيصبح الطفل عبداً ، إلا إذا بيعت الأم أو أهديت إلى الأب قبل ولادة الطفل .

والجوارى البيض غالباً في حوزة الأتراك الأثرياء . أما سرارى المصريين في الطبقتين العليا والوسطى فهن من الحبشيات . ويبدو أولئك الحبشيات من سيماهن ولون وجههن من جنس وسط بين الزوج والبيض ، وإن كان الفرق بينهما وبين الجنس كبيراً . ولكن الحبشيات يعتقدن أن ما بينهما وبين الجنس الأبيض من تفاوت قليل ، فلا يمكن حملهن على القيام بخدمة زوجات سادتهن مع الخضوع الواجب . وتشعر الجارية السوداء نحو الحبشية الشعور نفسه ، ولكنها تخدم البيض بكل ارتياح . وأذكر هنا أن الجوارى اللاتي يسمين حبشيات لسن ، ما عدا القليل منهن ، من بلاد الحبشة ، ولكنهن من أقاليم الجبال المجاورة . وأغلب الحبشيات جميلات . ويقدر ثمن الحبشية المتوسطة الجمال من عشرة جنيهات استرلينية إلى خمسة عشر ، ولكن هذا نصف ما كان يدفع عادة ثمناً للواحدة من سنوات قليلة خلت . ويقدر أصحاب الشهوة في مصر الحبشيات كثيراً . ولكنهن رقيقات التكوين ، فيفنى أغلبهن رويداً في هذا البلد . ويقدر ثمن الجارية البيضاء عادة من ثلاثة أضعاف إلى عشرة أضعاف الحبشية ، وثمان السوداء حوالى النصف أو الثلثين

(١) وطبعاً يعتبر أجل زوجات الرجل أو أجل جواريه أفضل نسائهم وقتاً ما . ولكن أكثر النساء حظوة لا تكون في أحوال كثيرة ، لأن لم تكن أغلبها ، أجملهن . ولذلك ليس حب المسلم دائماً مجرد شهوة ولا تتعلق أيضاً مكانة الزوجة وراحتها ، كثيراً وبلا تغير ، ببذوات الرجل أو بجاذبيتها الشخصية مثلاً تتعلق سيرتها العامة وأهليتها .

أو ما يزيد بكثير إذا كانت تجيد الطهى . وتقوم الجوارى السود بالخدمة .
ويدخل جميع الجوارى تقريباً فى دين الإسلام . ولكنهن على العموم
لا يعرفن من دينهن الجديد إلا قليلاً . وأغلب الجوارى البيض اللاتى كن
بمصر أثناء زيارتى الأولى يونانيات . وقد أسرت الجيوش التركية والمصرية
تحت قيادة إبراهيم باشا كثيرين من أبناء هذا الشعب البائس ، وأرسل كثيرون
منهم ذكوراً وإناثاً وأطفالاً ليعبأوا فى مصر . وقد قل طلب الجوارى البيض
فياً بعد لشيوع الفقر بالطبقات العليا فى مصر . ويجلب من الجركس والكرج
عدد قليل قد تلقى بعضهن نوعاً من الثقافة الأولية ، إذ يتعلمن الموسيقى وبعض
الفنون الأخرى . وقد شغلت الجوارى البيض مكانة أعلى من مكانة الحرائر فى مصر
عند الرأى العام . فكثيرات منهن كن رفيقات لعظماء الأتراك ، أو زوجاتهم ؛
وكان الأتراك يفضلوهن على الأخريات . ويلبس أولئك الجوارى أخف الملابس ،
ويتقلدن الحلى النفيسة ، وينعمن تقريباً بكل مستطاع ، ويعتبرن فى بعض الأحوال ،
إذا لم يستعملن للخدمة ، سعيديات . وقد أثبت ذلك أخيراً ، منذ انتهاء الحرب
فى اليونان ، أن جوارى كثيرات بقين أسيرات فى الحريم ، ولم يرغبن فى الحرية ،
ولا يمكن افتراض عملهن نتيجة جهل بحالة أسرهن وأقاربهن ، أو خوف التمرض
للفقر ؛ وإن كان يحتمل أن بعضهن حمل على البقاء تحت تأثير الظروف الدينية
والأخلاقية التى خضعن إليها قسراً ، ولأنهن دخلن فى سلطان سادتهن أطفالاً .
ولكن إذا كان بعضهن سعيديات وقتاً ما على الأقل فهن قليلات نسبياً . وقد قدر
لأغلبهن أن يخدمن زميلاتهن الخطيات أو السيدات التركيات ، أو أن يتقبلن
كرها ملاطفات مجوز غنى ، أو رجل أنهك الإفراط جسده وعقله ؛ ثم يمرض
للبيع إذا لم يكن لهن أطفال عند ما يسأمن سادتهن أو سيدياتهن ، أو عندما
يموتون ؛ أو يحررن ويزوجن من بعض الوزراء ، الذين لا يستطيعون أن يمنحوهن
إلا القليل مما تعودنه من الرفاهية . وتعتبر جوارى الطبقات الوسطى أحسن حالا
من جوارى الأغنياء ؛ فلا يكرصفوهن فى أغلب الأحوال منافسة ، عندما يستخدمن
للتسرى ، ولا يتعبن أو يشتمد عليهن عندما يخصصن للخدمة . وكثيراً ما تكون
حالة السرية أسعد من حالة الزوجة إذا دامت المحبة المتبادلة بينهما وبين سيدها . إذ أن

الزوجة قد تطرد في وقت غضب الزوج ، فيوقع عليها طلاقاً لا رجعة ، فيه فتمسى في حالة فقر ؛ بينما يندر أن يطرد رجل جاريته دون أن يدبر لها الأمر ، فإن لم تكن تعودت الترف لا تتألم كثيراً أو لإطلاقاً من هذا التبدل . فيعتقها السيد ويعفجها مهرأ وزوجها رجلاً طيب السمعة أو يقدمها إلى صديق .

وسبق أن ذكرت أن السيد لا يمكنه التصرف في جارية حملت منه واعترف بولدها . وكثيراً ما يحدث أن تمتق هذه الجارية بعد الحمل فوراً وتصبح زوجة ؛ فلا تستطيع الجارية عندما تمتق أن تقوم طويلاً مقام الزوجة شرعاً إلا إذا تزوج بها السيد . ويرى بعض الناس أن من العار بيع الجارية التي بقيت طويلاً في خدمتهم . ويفسد « الجلاب » أو تاجر الرقيق ، في الصعيد والنوبة ، الجوارى الحبشيات والسود أقبح فساد . ويندر أن ينجو من في سن الثامنة أو التاسعة من شدة عنف النخاسين . وكثيراً ما يلقى هؤلاء الأطفال ، والأحباش منهم خاصة ، أنفسهم في النيل أثناء السفر (١) ، هرباً من قسوة « الجلاب » . وتعتبر الجوارى من أى طبقة أغلى ثمناً من الذكور في السن نفسه . وتعد من لم تصب بالجدرى أقل ثمناً ممن أصيبت به ويُعطى المشتري ثلاثة أيام ، تظل الجارية أثناءها في حريمه ، أو في حريم صديق له ، ليقدم النساء له تقريراً عنها . ومن أسباب إعادة الجارية إلى التاجر أن تخط في نومها أو تصر بأسنانها أو تتكلم أثناء النوم . وتشبه ملابس الجوارى ملابس المصريات .

يقوم الخادما المصريات بأحق الأعمال . ويطفين وجوههن في حضرة سادتهن ، فيسجن بعض الطرحة على الوجه فلا يظهرن غير عين وبد للقيام بالعمل . وإذا ما استقبل ضيف في حجرة من حجر الحرير ، انسجبت النساء إلى حجرة أخرى . وبقيت خادمة منتقبة لخدمته .

تلك هي أحوال طبقات النساء المختلفة . ويجب علاوة على ذلك أن نصف عاداتهن وأعمالهن وصفاً سريعاً .

لا تحرم الزوجات ، كما تحرم الجوارى ، من امتياز تناول الطعام مع رب العائلة غالباً لحسب ، بل يجب عليهن أيضاً أن يقمن على خدمته أثناء طعامه ، أو عندما

(١) ويرسل الجلاب جواريه عن طريق الصحراء والبعض الآخر عن طريق النهر .

يدخن شبكه ويحتسى قهوته في الحريم . وكثيراً ما تستغل الزوجات كالحاديات ، فيحشون الشبك ويشملنه ، ويصنعن القهوة ، ويجهزن الطعام أو بعض الأصناف اللذيذة على الأقل . وإذا استقطعت الحكم تبعاً لتجربتي الخاصة ، قلت إن أغلبهن طاهيات بارعات . وكلما أوصى إلى بطبق صنعة زوجة مضيق ، وجدته لذيذاً بصفة خاصة . وتهتم السيدات في الطبقات العليا والوسطى بإرضاء أزواجهن وجذب قلوبهم اهتماماً متواصلاً بحيل شتى . ويظهر دلال النساء ، حتى في مشيتهن العادية ، عند ما يخرجن ، بهز الجسم هزاً خاصاً (١) . وتحتشم الزوجات عادة في حضرة الزوج قليلاً أو كثيراً . ولذلك يسرهن ألا تتكرر زيارة الزوج للحريم أو تطول أثناء النهار . وكثيراً ما يستسلمن في غيابه إلى ابتهاج صاخب .

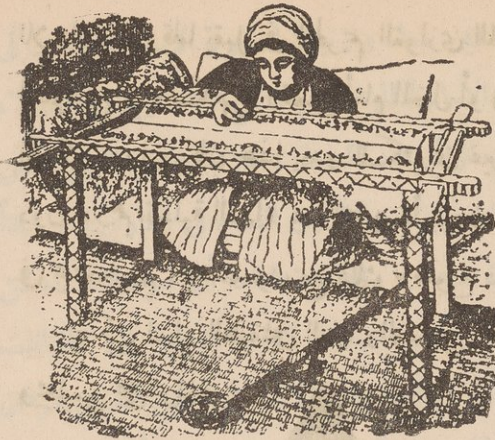
ولا يختلف طعام المرأة عن طعام الرجل إلا في قلة مقداره ؛ ولا تختلف كذلك طريقة تناول الطعام . ويسمح لأغلب النساء أن ينعمن بترف التدخين ؛ ولا يعتبر النساء مهماً علا مركزهن هذه العادة غير لائقة بهن ، إذ أن رائحة أنواع التبغ الجيد المستعمل في مصر لطيفة جداً . ويلاحظ عادة أن شبك النساء أرشق من شبك الرجال وأكثر زخرفة . ويكون مبدى الشبك أحياناً من المرجان بدلا من الكهرمان . ويستعمل النساء العطور ، مثل المسك وقط الزباد الخ ، وكذلك الأدهان ، كثيراً ، ويستعملن خاصة بضعة عقاقير تؤكل أو تشرب للحصول على بدانة ملائمة (٢) . وبعض هذه السمومات تثير الاشتزاز إلى أقصى حد ، لأنها تتكون خاصة من الحنافس المسحوقة . وقد تعود كثير من النساء مضغ اللبان واللدن اللذين يطيبان النكهة . كما تعودن كثرة الوضوء ليكن طاهرات . ولا يبذل النساء وقتاً طويلاً في التبرج ؛ وقلما يغيرن ملابسهن طول اليوم بعد أن يلبسن في الصباح . ويضفرن شعرهن في الحمام ولا يحللفه بعد ذلك عدة أيام .

والاعتناء بالأطفال أول ما يهتم به السيدات المصريات ، وعليهن أيضاً إدارة الشؤون المنزلية ؛ إلا أن الزوج وحده في أغلب الأسر يقوم بنفقات المنزل .

(١) ويسمون هذه الحركة (غنجا)

(٢) لا يعجب المصريون ، بخلاف المغاربة وبعض الأفريقيين والشرقيين ، بالمرأة المفرطة البدانة

ويصف المصري عادة حبيبته في أغاني الحب برشاقة القد وهيف الحصر .



(شكل ٥٠) المنسج وهو يصنع من خشب الجوز
المطعم بالصدف والباغة وأكثر المناسج شيوعاً
ما يصنع من الزان

ويعضي السيدات ساعات الفراغ
غالباً في الاشتغال بالإبرة ، وعلى
الأخص في تطريز المناديل
والطرح بالحرير الملون والذهب
على إطار يسمى «منسج» (أنظر
شكل ٥٠) . وتكسب
الكثيرات ، حتى في منازل
الأثرياء ، من تطريز المناديل
وغيرها بهذه الطريقة إذ يستخدمن

« دلالة » تيممها في السوق أو في حريم آخر . وكثيراً ما تشغل زيارة حريم الحريم
آخر اليوم كله تقريباً . ولا تخرج تسليمة النساء عن الأكل والتدخين واحتساء
القهوة والأشربة والثروة وعرض زينتهن . ولا يسمح لرب الدار في مثل هذه
الأحوال أن يدخل الحريم إلا لعمل خاص لا بد منه ؛ ويجب عليه في هذه
الحالة أن يعلن قدومه ، ويترك للزائرات الوقت الكافي للاحتجاب أو الانسحاب
إلى غرفة أخرى . وينغمس النساء في المرح والهجة لاطمئنانهن بالوحدة
وعدم المفاجأة ، ولما يمن بطبيعتهن إلى الجذل والتبسط . وقد تقوم إحدى
السيدات أحياناً بتسليمة الجماعة ، عندما ينضب الحديث العادي ، بسرده القصص
المعجبية أو الفكاهية . وقبلها يعلم السيدات المصريات الموسيقى أو الرقص ؛
ولكنهن يتلذذن كثيراً بسماع محترفي الموسيقى والرقص ورؤيتهم .
وكثيراً ما يسليهن أنفسهن وضيقاتهن بالضرب على « الدرابكة »
« والطار »^(١) إذا لم يقيسر وجود المازفين . ويندر ذلك في المنازل التي يستطيع
المارة أن يسمعوها منها أصداً الاحتفال . وكثيراً ما يستخدم القيان (العوامل) في
أي مناسبة تبهج النساء كيلا د طفل أو الاحتفال بمختار أو عرس الخ ؛ ولكن
ذلك لا يحدث عند العائلات الجليلة ، في المناسبات العادية ، لاعتبارها إياه مخالفاً

(١) سنصف هذه الآلات ونوضحها بالرسم في فصل آخر .

للاداب . وقاما يقبل في الحرم الفوازي اللاتي يمرضن رقصاتهن سافرات في الشوارع ؛ ولكنهن رقصن أمام المنزل أو في الفناء في مثل المناسبات السالفة الذكر ، وإن كان هذا يبدو للكثيرين غير لائق . ولا يستأجر « الآلاتية » دون غيرهم لتسليية النساء ، وإنما يستأجرون خاصة لتسليية الرجال ويمزفون دائماً في مجتمعاتهم ، ويسمعون مع ذلك بوضوح داخل الحرم (١) .

يركب نساء الطبقتين العليا والوسطى الحمير عندما يخرجن للزيارة أو لغيرها . ويجلسن على براذع مرتفعة عريضة تغطي بسجادة صغيرة (أنظر شكل رقم ٥١) ، ويسير في ركابهن رجل واحد أو رجلان



(شكل ٥١) سيدات راكبات الحمير

كل منهما في جانب . ويركب نساء الحرم جيمهن معاً الواحدة خلف الأخرى . ويظهرن وهن راكبات بالطريقة الموصوفة في هيئة غريبة جداً ، فيبدون غير مطمئنات في جلستهن على هذا الارتفاع . ويطلق على الحمار (٢) الذي يجهز بالبرذعة المرتفعة : « الحمار العالي » . ولكني أعتقد أن الحال ليست من الصعوبة بحيث تظهر ، فإن الحمار قد شد حزامه جيداً ورسخت مشيته ، فهو يسير ببطء ورهو وحركة مهله . ويركب سيدات الطبقات العليا ، كما يركب سيدات الطبقات الوسطى ، الحمير المجهزة بهذه الطريقة ؛ ويفندر أن يرين فوق البغال أو الجياد . وتكرى الحمير على العموم . وإذا لم تستطع السيدة الحصول على حمار عال ، تركب آخر مما يركبه الرجال ، بعد أن يوضع على البرذعة سجادة . وكثيراً ما يفعل ذلك نساء الطبقة الدنيا ونساء الطبقة الوسطى . ولا يمشي السيدات أبداً في الخارج إلا إذا

(١) سنصف ألعاب الآلاتية والعوالم والفوازي في فصل آخر .

(٢) ويسمى أيضاً (حمار مغطى)

قصدي مكاناً قريباً جداً ؛ فيمشين ببطء وارتيباك لصعوبة الاحتفاظ بالخلف في أقدامهن ، ويمسكن أطراف الحبرة الأمامية الموضحة في شكل ٢٧ . ويقمتع النساء ، سواء ركنن أم مشين ، بالاحترام الزائد عند العامة ؛ فلا يشخص إليهن حسن التربية ، وإنما يحول نظره إلى اتجاه آخر . ولا يرى النساء في الخارج ليلاً أبداً إلا إذا اضطرهن إلى ذلك ضرورة ملحة . والقاعدة العامة أن يعود النساء من الزيارة قبل غروب الشمس . ولا يذهب سيدات الطبقة الراقية إلى الحوانيت أبداً ، وإنما يرسلن في طلب ما يشأن . وهناك « دلالات » يدخلن الحريم لعرض أنواع الزينة وأمتعة النساء الخ . ولا يذهب أولئك السيدات إلى الحمام العمومي ، إلا إذا دعين لمرافقة بعض صديقاتهن ؛ إذ أن لأغلبهن حماماً في المنزل (١) .

(١) منذ صدرت هذه الطبعة الثالثة أقامت أختي مسز پول (MrsPool) مع ولديها وزوجتي وأنا أكثر من سبع سنين في القاهرة ، ونشرت سلسلة رسائل تحت عنوان (الانجليزيات في مصر) عرضت فيها لنساء هذا البلد عند ملاحظاتها عن حريم الأتراك خاصة . وقد استقبل كتابها استقبالا حسناً لا يحوجه إلى توصية .

الفصل السابع

تابع الحياة المنزلية

أما الحياة المنزلية عند الطبقات السفلى ، فهي بسيطة إلى حد أنها ، بمقارنتها بحياة الطبقات الوسطى والعليا ، التي تكلمنا عنها الآن ، لا يفيدنا العلم بها شيئاً كبيراً . تتكون الطبقات السفلى من الفلاحين ، ما عدا فئة قليلة جداً تسكن المدن الكبيرة على الأخص . وأغلب هؤلاء الذين يسكنون المدن الكبيرة ، والقليل ممن يسكن المدن الصغيرة وبعض القرويين ، هم من صغار التجار أو أهل الحرف أو ممن يكتسبون معاشهم بالخدمة أو بمختلف الأعمال . وأرباحهم على أى حال طفيفة تكاد تكفيهم . وقد لا تضمن لهم ولعائلاتهم ضروريات الحياة

ويتكون طعام الطبقة السفلى على الأخص من الخبز ، المصنوع من الدخن أو الذرة ، واللبن والبيض والفسسيخ والخيار والشمام والقرع ، على أنواع كثيرة الاختلاف ، والبصل والكراث^(١) والفاول والحمص والترمس والمدس الخ ، والبلح ، الطازج والمجفف ، والمخللات . ويأكلون أكثر الخضروات نيئة . ويقطع الفلاحون كيزان الذرة ، عندما تقرب من النضج ، ويأكلونها مشوية أو مطبوخة . ولا يدخل الفلاحون الأرز في طعامهم العادى لغلو ثمنه . وقلما يذوقون اللحم . وينعم أغلبهم مع ذلك بترف تدخين تبغ بلدهم الرخيص الذى يجفف ويفرم . ولون هذا التبغ يضرب إلى الخضرة وهو لطيف العطر . وكثيراً ما لا يجد الفقراء غير « الدقة » ، التى وصفتها فى فصل سابق ، يغمسون فيها خبزهم بالرغم من نجس أثمان الأطعمة المذكورة آنفاً . ومما يثير الدهشة أن يكون الفلاح قوياً صحيحاً مع بساطة طعامه وقلته وما يعانى به من كد

وقلما يحيا نساء الطبقات السفلى حياة الخمول . وإن بعضهم ليسكد أكثر من

(١) أنظر سفر العدد ١١ / ٥ (قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر بجائناً والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم) .

الرجال . وأهم أشغال النساء تجهيز الطعام ، وجلب المياه ، في جرار كبيرة يحملنها على الرأس من الموارد ، وغزل القطن والكتان أو الصوف ، وعمل « الجلسه » أقراصاً مستديرة مسطوحة من روث البهايم المخلوط بالتبن ، للوقود ؛ وبضمن هذه الأقراص على حوائط منازلهن أو فوق أسطحها أو على الأرض لتجفف في الشمس ، ثم يستعملنها لوقود الأفران ولأغراض أخرى . ويخضع نساء الطبقة السفلى لأزواجهن أكثر من خضوع نساء الطبقات الراقية . ولا يسمح دائماً للمرأة الفقيرة أن تتناول الطعام مع زوجها . وإذا خرجت معه سارت وراءه . والعادة أن تحمل الزوجة كل شيء إلا الشبك أو العصا . ويفتح بعض النساء في المدينة حوانيت يبعن فيها الخبز والخضر الخ ... فيساعدن مساعدة الزوج أو أكثر في الإنفاق على الأسرة . ويضم الفقير الذي يرغب في الزواج مسألة المهر موضع الاعتبار . ويكون المهر عادة من عشرين ريالاً إلى أربعة أضعاف هذا المبلغ إذا كان نقوداً فقط ، ويقل إذا شمل بعض الملابس كما هو الحال في معظم القطر المصري . ولما يتردد الفقير في الزواج إذا استطاع أن يقدم المهر ، فأى مجهود إضافي يبذله يساعده على قوت وزوجه وطفلين أو ثلاثة أطفال . ويصلح الأطفال عند سن الخامسة أو السادسة لرعى القطعان ، ويساعدون آباءهم في أعمال الفلاحة ، عندما يتقدم بهم السن إلى أن يتزوجوا . وكثيراً ما يعتمد الفقير في مصر على أولاده الاعتماد التام لمعيشته في سن السكولة ؛ ولكن أغلب الآباء يحرمون هذه المساعدة ، فيقصون حياتهم على السؤال أو يموتون جوعاً . وقد حدث من زمن غير بعيد ، أن ألقى محمد علي صرساء في قرية على شاطئ النيل ، أثناء سفره من الإسكندرية إلى القاهرة ، فأسرع إليه رجل فقير ، وأمسك بكمه بقوة لم يستطع معها أحد من الحاشية منعه ، وشكا إليه أنه كان وقتاً ما في رغد ، ثم تحول الأمر إلى عوز تام بتجنيد أولاده في الجيش وهو كبير السن . تخفف عنه الباشا بأن أمر أن يعطيه أغنى رجل في القرية بقرة .

وقد يكون الأطفال مع ذلك حملاً ثقيلاً على والديهم الفقراء . ولذلك لا تجد من النادر في مصر أن يباع الأطفال علناً ، بواسطة أمهاتهم أو نساء أخريات يستخدمن الآباء لذلك . ولكن هذا لا يكون إلا في حالة الضيق الشديد .

وكثيراً ما يلجأ الأب والأقارب الفقراء إلى التخلص من الطفل الذى ماتت أمه ولم يقطم ، عند ما لا يستطيعون الحصول على ظئله . وقد يوضع الطفل أحياناً على باب المسجد ساعة صلاة الجمعة ، فيحدث عادة أن تأخذ الشفقة بعض المصلين عند خروجه من المسجد ، فيحمله إلى منزله حيث ينشأ في أسرته كطفل مقبى ، لارقيق ؛ وقد يعنى بعضهم بالطفل حتى يجد له رجلاً أو امرأة تتبناه . وقد حدث منذ زمن غير بعيد ، أن عرضت امرأة على سيدة من أسرة يعرفها صديق لى أن تبنيها طفلاً ، سنه بضعة أيام ، وجدته على باب مسجد . فقبلت السيدة تربية الطفل لوجه الله ، رجاء أن يحفظ لها طفلها الوحيد جزاء هذا الإحسان ؛ ثم ناولت المرأة التى أحضرت الطفل عشرة قروش ، ولكنها رفضت الأجر المقدم . وهذا يبين أن الأطفال يصبحون أحياناً مجرد سلع ؛ ويستطيع من يشتريهم أن يجعلهم عبيداً له ، يتصرف فيهم كما يشاء . وقد أخبرنى أحد النخاسين ، وأكيد لى غيره خبره هذا ، أن والدين قد يبيعان الصغيرات أحياناً باعتبارهن جوارى محلو بات من بلاد أخرى ؛ وأن كثيراً من أولئك البنات سلمن إليه بإرادتهن ليمينعهن ؛ وقد ألقى في روعهن أنهن سينعمن باللباس الفاخرة والترف العظيم ، وعلمن أن يقلن إنهن أحضرن من بلادهن فى سن الثالثة أو الرابعة ، ولذلك يجهلن لغتهن الأصلية ، وإنما يمكنهن التكلم بالعربية فقط .

وكثيراً ما يحدث أيضاً ، أن الفلاح بضطره الضنك الشديد إلى وضع ابنه ، مقابل مبلغ من المال ، وضماً أسوأ بكثير من الرق . وذلك عندما يطلب مجندون من القرية ، فإن شيخ البلد يعمد إلى الطريق الأسهل ، فيجند أولاد من يقتنون أملاكاً ، وهؤلاء يستطيعون أن يخلصوا أولادهم من الجندية ، بأن يعرضوا على الفلاحين الفقراء أن يجفدوا أولادهم بدل أولادهم ، مقابل جنية أوجنيتين لكل ولد . ويفوزون بطلبهم عادة ، مع أن حب البنوة سائد عند المصريين بقدر حب الأبناء لوالديهم . ويكره أغلب والدين مفارقة أولادهم ، عندما يجندون خاصة ، كما يدل على ذلك الوسائل التى يعمدون إليها لمنع تجنيدهم . وقد لاحظت ، أثناء زيارتى الثانية لمصر ، أنك لا تكاد تجد ، فى أى قرية ، شاباً صحيح الجسم ليس بأسفانه كسر (حتى لا يمكنه أن يقرض الفشكة) ، أو بأصابه نقص ، أو بعينه إصابة أو عوى ، حتى لا يجند . ويتخذ

النساء المتقدمات في السن وغيرهن هذا الأمر حرفة منتظمة ، فيدرن على القرى لتنفيذ هذه العمليات ؛ وقد يقوم أبوا الولد أنفسهما بهذا الأمر . ويبدو ، مما قيل آنفاً ، أن العاطفة ليست وحدها دائماً السبب الذي يدفع أهل الطفل إلى الانتحاء إلى مثل هذه الوسائل حتى لا يحرموا أطفالهم .

ولا يمكن تصوير فلاحى مصر من حيث حالتهم المنزلية والاجتماعية وشئائهم صورة ملائمة . ويشبه الفلاحون ، على أسوأ الاعتبار ، أسلافهم البدو ، دون أن ينعموا بكثير من فضائل أهل الصحراء ، إلا في درجة منحطة ؛ وكثيراً ما أحدث ما ورثوه عن اجدادهم أسوأ تأثير في حياتهم الداخلية . وقد ذكرنا من قبل أن المصريين انحدروا من عدة قبائل عربية سكنت مصر في عصور مختلفة ، وأصهروا إلى الأقباط ، وأن التمييز بين القبائل لا يزال قائماً بين سكان القرى في القطر كله . وقد انشعبت بمرور السنين سلالة كل قبيلة من المقيمين إلى عدة فروع ، وسميت هذه القبائل الصغيرة بأسماء متميزة ، أطلقت على القرية أو القرى أو المركز الذي يقيمون فيه . ولم يحتفظ الذين أقاموا طويلاً في مصر بالمعادات البدوية الكثيرة ، ولم يصونوا نقادة جنسهم ، وإنما أصهروا إلى الأقباط الداخلين في دين الإسلام أو سلاتهم ؛ ولذلك تحتقرهم القبائل التي أقامت في مصر بعدهم ، فيسمونهم ازدراءً « فلاحين » ، بينما يحملون لأنفسهم تسمية العرب أو البدو . ويزوج هؤلاء الآخرون متى شاؤوا من بنات الأولين ، ولكنهم لا يزوجون بناتهم لهم ؛ ويشأرون للدم إذا قتل شخص من قبيلة وضيفة أحدهم ، بقتل اثنين أو ثلاثة أو أربعة . وقد أشير إلى تلك الشريعة البدوية الوحشية الخاصة بثار الدم وسيادتها بين سكان قرى مصر في فصل لاحق . فيقتل أحد أقارب القاتل ، من ذريته أو من سلالة الجد الأكبر لأبيه ، القاتل أو أحد الأقارب المذكورين من ناحيته ؛ ولذلك كثيراً ما ينشب القتال بين قبيلتي القاتل والقاتل ، وقد يستمر أو يتجدد كل حين عدة سنين . وكثيراً ما يكون الأمر كذلك نتيجة إهانة يسيرة بين شخصين ينتميان إلى قبيلتين مختلفتين . وكثيراً ما يعود الثأر بعد جيل أو أكثر من ارتكاب القتل ، بينما كانت الحصومة في ذلك الوقت هادئة ، وربما لم يكن يذكرها أكثر من شخص واحد . وهناك قبيلتان في الوجه البحري إحداهما (سمد) والأخرى (حرام)

اشتهرتا بهذه الحروب والخصومات الصغيرة (١) ؛ ولذلك يطلق اسمها عادة على أى شخصين أو فريقين عدوين . ومما يثير الدهشة ، أن يباح في الأيام الحاضرة مثل هذه الأعمال ، التى إذا ارتكبت في مدينة من مدن مصر عوقب عليها بالموت أكثر من شخص . وقد أباح القرآن الثأر ، ولكنه قيد تنفيذه بالعدل والاعتدال . وتحالف هذه الخصومات حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالتقاتل والمقتول في النار » .

ويشبه الفلاحون البدو في أحوال أخرى . فعند ما تخون الفلاحة زوجها ، يقذف بها هذا أو أخوها في النيل ، بعد أن يربط في عنقها حجر ، أو تقطع إربا ويقذف ببقاياها في النهر . وقد يعاقب الأب أو الأخ العذراء التى تنهم بمنكر . ويعتبر أهل المرأة أن جريمتها تمسهم أكثر مما تمس الزوج ؛ وكثيراً ما يحرقون إذا لم يعاقبوا .

(١) مثل قبيلتي (قيس) و (يمن) في سوريا .

الفصل الثامن

عادات المجتمع العام

يؤدي احترام المسلم للتجارة إلى اتساع دائرة معرفته بالناس على اختلاف درجاتهم انشاعاً عظيماً ؛ وينشط قانون انفصال الجنسين حرية المعاملات بين التجار إلى مدى بعيد ، إذ يسمح للتاجر أن يشارك غيره ، بصرف النظر عن اختلاف الثروة أو الدرجة ، دون خشية اقتران شخصين متفاوتين بالزواج ؛ وتتمتع النساء مثل الرجال بسعة المعاملات التجارية مع الغير من جنسهن .

ويتكاف المسامون ويدققون في شئائهم الاجتماعية إلى أقصى حد ؛ ويقوم الكثير من عاداتهم الشائعة على تعاليم الدين ، وذلك يميزهم في مجتمعاتهم من كل قوم آخرين . ومن عاداتهم تحية بعضهم بعضاً بقولهم : « السلام عليكم » (١) فيرد من يحيونه بقوله : « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » (٢) . ولا يوجه المسلم هذا السلام إلى من يخالفه في الدين (٣) ، ولا بالعكس (٤) . ويجب على المسلم أن يحيي المسلم بهذه التحية ؛ إلا أن إهمال هذا الواجب لا حرج فيه . ويجب رد التحية على الإطلاق ؛ فالتحية (سنة) وردها (فرض) . وقد يحيي المسلم مع ذلك خطأ من يخالفه في الدين ، وليس على هذا أن يرد التحية . وينقض المسلم تحيته عندما يتبين خطأه بقوله : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ؛ وكذلك يفعل أحياناً إذا حيا مسلماً ورفض أن يرد السلام .

وأهم آداب السلام كما أملاها الرسول (ص) ، وكما يتبناها المصريون المحدثون

(١) أو « سلام عليكم »

(٢) أو « عليكم السلام » فقط . ولكن العبارة الطويلة تستعمل عادة تبعاً لأمر

القرآن (سورة النساء آية ٨٦) .

(٣) وقلماً يفعل ذلك مسامو مصر .

(٤) ومع ذلك يرد المسلم أحياناً بعبارة « وعليكم » عندما يحياه غير المسلم هذه التحية

ما يأتي : يبدأ الراكب بالسلام على الراحل ، والمابر على الجالسين قلوا أو كثروا ، والفئة القليلة أو أحدهم على الفئة الكثيرة ، والصغير على الكبير (١) . ولما كان يكفي أن يوجه السلام واحد من الجماعة ، فكذلك يكفي أن يرد واحد . ويجب على المسلم أيضاً أن يحيي أهل المنزل عند دخوله وخروجه . ويجب دائماً أن يبدأ بالتحية ثم يتحدث . وللاّ دأب السابقة بعض الشواذ . فلا يلزم مثلاً ، في المدينة المزدهمة ، تحية أكثر هؤلاء الذين قد يمر بهم الإنسان ، ولا في الطريق حيث يقابل المرء عدة عابرين . إلا أن العادة جرت على أن يحيي الرجل المومر أو الحسن الهندام أو الشيخ المحترم أو أى شخص وجيه من يبدو أنه رفيع المكانة أو عظيم الثروة أو من رجال العلم ، ولو كان الطريق حافلاً . وعادة المهذبن أن يضع من يسلم أو من يرد السلام يده اليمنى على صدره ، أو يلمس شفتيه ثم جبهته أو عمامته ، ويسمى ذلك « تَيْمِيْنَه » . وتؤدي التيمينة الأخيرة ، وهي أكثر احتراماً ، لمن علا قدره ، لا مع السلام فحسب ، ولكن أثناء الحديث أيضاً ، وبدون سلام حينئذ .

ولا يؤدي من كان من الطبقة الدنيا السلام إلى العظيم دائماً ، وعلى الأخص إذا كان تركياً ، وإنما يكتبى بأداء التيمينة . ويظهر احترامه لمن سماه كزه بإحشاء اليد إلى أسفل ثم رفعها إلى شفتيه وجبهته دون أن ينطق بالسلام . ومن العادات الشائعة أيضاً ، أن يقبل الرجل يد العظيم ، ظهرها وحده أو ظهرها وباطنها أحياناً ، ثم يضعها على جبهته لإظهار احترامه الخاص ؛ إلا أن العظيم لا يسمح بذلك في أغلب الأحوال ، وإنما يلمس اليد التي تمد إليه ، فيضع الحبي حينئذ يده على شفتيه وجبهته فقط . وتقبل القدمان دلالة على الخضوع والمذلة ، لالتماس العفو عن ذنب ، أو للشفاعة لشخص آخر ، أو لطلب إحسان من عظيم . ويقبل الولد يد أبيه ، والزوجة يد زوجها ، والعبد والخادم الحر غالباً ، يد السيد . ويقبل أرقاء العظيم وخدمه كم ملابسه أو طرفها .

وعند ما يحيي الأصدقاء الخواص بعضهم بعضاً يتصافحون باليمنى ، ثم يقبل كل منهم يده ، أو يضعها على شفتيه وجبهته ، أو يرفعها إلى جبهته فقط ، أو يضعها

(١) وقد ذكر هيرودوتس احترام المصريين للمسنين كما أشار إلى تحياتهم المهيبة (الكتاب الثاني ص ٨٠) .

على صدره دون أن يقبلها . ويتعاقبون بعد الغياب الطويل وفي بعض المناسبات الأخرى ؛ فيقبل كل منهم الآخر على الناحيتين اليمنى واليسرى . وهناك طريقة أخرى للتحية شائعة الاستعمال بين الطبقات الدنيا . فعندما يتقابل صديقان بعد سفر، يتصافحان ، ويهني كل منهما الآخر على سلامته ، ويتمنى له الهناء والرفاهية ، مردداً عبارتي : « سلامات » و « طيبين » ، على التعاقب ومصرراً . وعندما يبدآن هذه التحية ، التي تدوم وقتاً قبل أن يأخذا في الحديث ، يتصافحان كالعادة المتبعة عندنا ، ويفيران وضع اليد كلما يلفظان العبارتين السابقتين ؛ فيدير كل منهما أصابعه على إبهام الآخر ، عندما يردد العبارة الثانية ، ويعود إلى الوضع الأول عند العبارة الأولى للطبقة المهذبة تحيات وتهنئات أخرى متكلفة تتبع السلام . كما أن هناك عبارات خاصة للرد على أكثرها ؛ أو عبارتين أو أكثر قد تستعملان في بعض الأحوال . غير أن الرد الذي لم تلزمه العادة قد يعتبر دليلاً على الجهل أو الخساسة . وعندما يسأل رجل صديقه : « كيف صحتك ؟ » (١) يجيبه الآخر : « الحمد لله » . ويستدل المستفهم ، باللهجة التي يرد بها الآخر ، إذا كان صديقه معافى أو مريضاً . وعندما يقول الواحد للآخر : « طيبين » يجيب الآخر عادة : « الله يبارك فيك » ، أو « الله يسلمك » . وعندما يتقابل صديقان لم يلتقيا عدة أيام أو وقتاً طويلاً يقول أحدهما بعد السلام : « أوحشتنا » فيجيبه الآخر : « الله لا يوحشنا منك » . وقد يشغل ذكر التهنئات الفخمة التي يستعملها المصريون عادة صفحات من هذا الكتاب .

ولا يدخل الرجل منزل غيره بدون استئذان ، لأن القرآن حرم ذلك صراحة (٢) ؛ وعلى الأخص إذا كان يريد أن يصعد إلى إحدى الغرف العليا ، فلا بد في هذه الحالة أن يصيح طالباً الإذن ، أو يعلن قدومه عند ما يصعد السلم ، بالطريقة التي وصفتها سابقاً . وإذا لم يجد أحداً أسفل المنزل يصفق بيديه عند الباب أو في الفناء ، وينتظر نزول الخادم إليه ، أو الإذن له بالجلوس في حجرة سفلى ، أو بالصعود إلى غرفة عليا . ثم يجي رب الدار عندما يدخل الغرفة التي يجلس فيها ، فيرد عليه رب الدار

(١) « ليش حالك » .

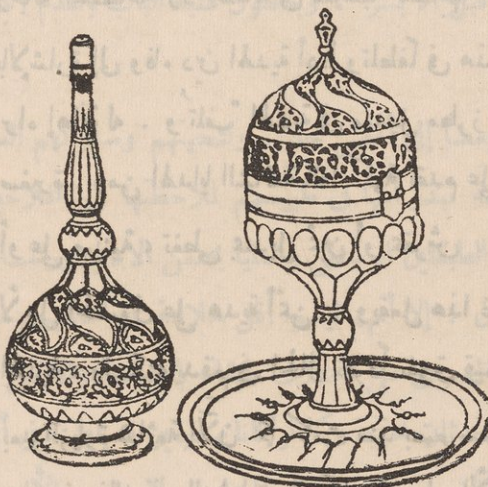
(٢) سورة النور آية ٢٧

ويرحب به بأدب وبشاشة . ويقف رب الدار لمن كان أعظم منه (١) ولأقرانه على العموم . ويتقدم لاستقبال من هم أعلى منه مركزاً إلى الفناء ، أو بين الفناء وغرفة الاستقبال ، أو في مدخل الغرفة أو وسطها ، أو على بعد خطوة من مكان جلوسه . وكثيراً ما يكتفى عند استقبال أقرانه بأن يتحرك حركة خفيفة ، كما لو كان يهيم بالوقوف . ولا يتحرك لمن دونه مقاماً . ويقدم رب الدار إلى الرفيع القدر ، وإلى أقرانه غالباً ، أفضل مكان ، في ركن من الديوان ، على يمين من يواجه « صدر » الغرفة ، أى طرفها الأعلى ، ويعتبر المجلس الممتد بطول « الصدر » أكثر إجلالا من المجلسين الممتدين على الجانبين ، ويسمى كل منهما « جنباً » . ولا يجلس من هم دون رب الدار في الصدر أبداً ، إلا إذا دعاهم إلى ذلك ؛ وكثيراً ما يرفضون هذه الشرف . ويجلس أقران رب الدار واضعين رجلاً على رجل ، أو رافعين ركبتيهم ومستنديين على المساند ؛ وكثيراً ما يجلس من دونه ، بادي الأمر على الأقل ، على أعقابهم أو على حافة الديوان ، أو على الحصير أو البساط إذا كان فرق المسكنة بينهما كبيراً . وتقتضى دقة الآداب ألا يظهر الزائر يديه عند دخول الغرفة أو عند الجلوس ، ويجب أن يسبل كفيه عليهما ؛ وألا يمد رجله عند ما يجلس على الديوان ، وألا يترك قدميه مكشوفتين . ولكن هذه القواعد لا تراعى إلا في منازل العظماء . وتردد التهاني والتحيات بعد السلام ، وعلى الأخص عبارتا « طيبين » و « إيش حالكم » ، صرات عديدة أثناء المحادثة

وقد يقوم أحياناً خادم الزائر نفسه بتقديم الشبك ؛ فيخرج السيد كيس التبغ من عبه ويناول الخادم إياه ، فيملاً الشبك منه ثم يطويه ويعيده بعد ذلك ، أو عند انتهاء الزيارة . وفي غير هذه الحالة ، يقدم خادم المضيف شبكاً إلى الزائر ، وآخر إلى سيده ، ثم يناول القهوة (٢) ؛ لأن التدخين بدون قهوة كالطعام بلا ملح ، كما يقول العرب . ويحجي الزائر رب الدار ، عندما يتناول الشبك والقهوة ، بالقيمته ، فيردها الأخير إليه ؛ وكذلك الأمر عند ما يعيد الفتيحة إلى الخادم . كما أن رب الدار يحجي ضيفه بالطريقة نفسها إذا لم يكن الفرق بينهما كبيراً . وكثيراً ما يلبث

(١) أى لمن فاقه في المسكنة أو الغنى أو في الشهرة الدينية أو الأدبية .
(٢) ويتناول الزائر الشبك والقهوة قبل رب الدار إذا كان عظيماً أو لاقبل مركزه كثيراً

الخدم في الغرفة مدة الزيارة ، واقفين باحترام ، عند طرف الغرفة الأسفل ، ضامين اليدين (اليسرى في اليمنى) فوق الحزام . وينادى على الخدم عادة بالتصفيق بأصابع اليمنى على راحة اليسرى ؛ ويسمع صوت التصفيق في المنزل لأن النوافذ من الخشب المشبك . ويدور الحديث على الأخبار اليومية ، وحال التجارة وأسعار المؤن ، والدين والعلوم أحياناً . وتروى الحكايات الفكاهية ؛ ويحدث كثيراً أن تسرد القصص والأمثال البذيئة في خير المجتمعات . وقبلما يتحدث الناس في المجتمعات الطيبة عن نساءهم ؛ ولكن كثيراً ما يفعل ذلك الأصدقاء الخالص ، ومن لا يراعى بدقة قواعد الأدب ، بطريقة لا تكون لطيفة دائماً . ويستفسر المهذبون كل عن (منزل) الآخر للاطمئنان على الزوجة والمائلة . وكثيراً ما تشغل الزيارات وقتاً طويلاً ، وقد تستمر أحياناً طول اليوم ، وعلى الأخص زيارات الحريم . ويتكرر حشو الشبك ، أو تبدل بغيرها ، كلما اقتضت الضرورة ذلك ، لأن الراثر لا ينقطع عن التدخين مدة بقاءه . ويماد تقديم القهوة والأشربة أحياناً . وقد سبق وصف طريقة تقديمها . وتقدم التهانى نفسها إلى الزائر بعد الشراب وكذلك بعد جرعة ماء (١) وجرت العادة في منازل الأثرياء أن يرش الضيوف قبل انصرافهم بماء الورد وماء الزهر ، ويطيبون ببخور بعض المواد العطرية . وقد أصبحت هذه العادة غير شائعة في السنوات الأخيرة . وتكون قارورة العطر ، المسماة « ققما » ، من الفضة الساذجة أو المذهبة ، أو من النحاس الدقيق ، أو من الفخار الصيني ، أو من الزجاج ؛ ولها غطاء به ثقب صغير . أما أداة



(شكل ٥٢) الققم والمبخرة

البخور ، المسماة « مبخرة » ، فتكون من أحد المعادن المذكورة ؛ ويجهز وعاء الجرب بالجلس أو بملاً نصفه ؛ وبغطائه عدة ثقوب لصعود الدخان (أنظر شكل ٥٢) . وتستعمل المبخرة بعد الققم . ويقدمها الخادم إلى الزائر أو السيد ، فيحول البخور نحو

وجهه ولحيته الخ ، بيميناه . وتفتح المبخرة أحياناً لإرسال البخور بلا عائق .
وأكثر المواد استعمالاً : العود والجاوى وقشر العنبر . ويملأ الخشب المطرى
قبل أن يوضع على الجمر . ويستعمل العنبر للغرض نفسه ، ولكن يندر استعماله
إلا في منازل الأثرياء لغلوه ثمناً . وينصرف الزائر بعد أن يُعطّر؛ ولكنه لا يخرج
قبل أن يستأذن ، ثم يقرأ السلام ويقدم غير ذلك من التحيمات والتمنيات التي يرد
عليها رداً موافقاً . ويجب على رب الدار ، إذا كان الزائر يفضلُه من كزاً ، ألا يقوم له
فحسب ، بل يرافقه إلى أعلى السلم أو إلى باب الغرفة ثم يودعه في أمان الله

ومن المعتاد أن يعطى الزائر ، قبل انصرافه من الزيارات العظيمة ، هدية صغيرة
(قرشين أو ثلاثة قروش أو أكثر حسب الظروف) إلى أحد الخدم أو بعضهم .
ويرافق الزائر أحد الخدم ، إذا كانت مطيئة على الباب أو في الفناء ، ليساعده على
الركوب . وينتظر هذا الخادم الحسنة الالتفات ، على الأخص ، عطية . وعندما
يعطى الزائر الخدم نقوداً فعلى السيد أن يرد المثل تماماً عند رده الزيارة

وكثيراً ما يتبادل الأصدقاء الهدايا تبعاً للعادة العامة . ويقدم الأصدقاء الهدايا عند
أى حفل خاص . والقاعدة العامة أن يرد إلى مقدم الهدية واحدة مماثلة ، أو في
قيمتها ، عند مناسبة مماثلة . والشائع أن يعبر المهدى إليه ، في مثل هذا الحفل ، عن
رجائه استطاعة رد الهدية في مناسبة مشابهة . ويعتبر هذا الشكر المصحوب
بالإشارة إلى وفاء دين الهدية أدباً وتلطفاً في هذا البلد ، وإن كان الأوروبي الكريم
يراه إهانة له . وتُلف الهدية في منديل مطرز يعاد إلى الرسول مع منحة مالية
صغيرة . ومن الهدايا الشائعة الفاكهة تقدم على أوراق الشجر ، والحلوى في طبق
أو على صينية ، تغطى بمنديل ثمين أو بمفرش . وكثيراً ما تقدم الهدية إلى العظيم
لأجل الحصول على هدية آثمن . ويفعل هذا غالباً الخادم ؛ وقلماً يرفض السيد
الهدية ، ولكنه يدفع في الحال نقوداً تفوق قيمتها . وليست عادة منح الخدم منحة
بعد الزيارة شائعة الآن كما كانت منذ بضع سنوات . إلا أنه لا يزال أغلب الناس
يراعون ذلك في الزيارات الكبيرة وعلى الأخص في العيدين ، كما يراعى ذلك
المدعوون إلى الحفلات الخاصة . ومنصف عادات أخرى مثل العادات الأولى

يراعيا المصريون في هذه الحفلات في الفصل السابع والعشرين . ويعتبر رفض الهدية إهانة لمقدمها ، وتعبيراً عن زوال الخطوة

وهناك عادات كثيرة يراعيا المصريون ، لا في الزيارات الكبيرة ، أو في حضرة الغرباء ، أو عند مقابلة الأصدقاء المعارضه فحسب ، بل في العلاقات العادية . فعندما يعطس الرجل يقول : الحمد لله ، فيقول كل من الحاضرين حينئذ ، ما عدا الخدم : يرحمكم الله ، فيرد عليهم : يهدينا ويهديكم الله ، أو بعبارة مماثلة . وإذا تشاء يضع ظهر يسراه على فمه ، ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ولا يقال له شيء في هذه الحالة ، لأن تجنب ذلك أجدر ، إذ المعتقد أن الشيطان يقفز إلى فم المقتائب . والعادة أن يستغفر الله من يخالف قواعد الآداب بدلا من الاعتذار للحاضرين . وهناك عدة عبارات تقال بعد الحلقة أو الإستحمام أو الوضوء أو الصلاة ، أو أى فعل يستحق الثواب ، أو عند القيام من النوم ، أو عندما تشتري ملابس جديدة أو تلبس ، وفي عدة مناسبات أخرى . ولتلك العبارات أجوبة خاصة

والقاعدة أن يكرم المسلمون يمناهم يداً وقدماً ؛ فيستعملون اليد اليمنى للأغراض الجليلة ، واليسرى للأعمال التي تعتبر ، على رغم ضرورتها ، حقيرة ؛ ويلبسون الحذاء الأيمن ويخلعونه قبل الأيسر ، ويخطون عقبة الباب بالقدم اليمنى قبل اليسرى

وبجامل المصريون بعضهم بعضاً إلى أقصى حد . ولتحديثهم وسلوكهم العام رقة ووقار خاصان ومهارة سلسة تبدو أنها في طبيعتهم للملاحظة في الفلاحين أيضاً . ويتفاخر أهل المدن من الطبقتين الوسطى والعليا بحسن الأدب ورشاقة المنهج وقوة الذكاء وطلاقة اللسان ؛ إلا أنهم ليسوا أقل خلاعة في أحاديثهم من مواطنيهم الأقل تربية . ويمتاز المصري على اختلاف طبقاته بالبشاشة والأنس . ومن المؤلف أن ترى غربيين يتحدثان بحرية ، كما لو كانا صديقين قديمين ، في أى مكان ، ويقدم أحدهما شبكه إلى الآخر . وليس من غير المعتاد ، ولا من سوء الأدب ، أن يستفسر الغريب ، في أول مقابلة عرضية ، عن اسم الآخر وصناعته أو تجارته

ومسكنه . وكثيراً ما تنشأ في مثل هذه المناسبات صداقة دائمة بينهما (١) . وقبلما
يسمع في مجتمعات الطبقتين العليا والوسطى ما يعمس شعور الحاضرين ؛ ولا يجرؤ
الخليع مهما كانت خلاعة أن ينطق أى عبارة يقصد بها الهزؤ . ومع ذلك فأغلب
الناس من جميع الطبقات خلعاء في أحاديثهم ويحبون الدعابة إلى أقصى حد .
وحدث المصريين مؤثر حار ، ولكن أفرأحهم تكون أبداً بلا جلبة تقريباً .
وقلما يستسلمون للضحك العالي وإنما يعبرون عن سرورهم بالابتسام أو الهتاف

(١) وكثيراً ما يتخاطب الناس بألفاظ القرابة مثل الأب والابن والعم وابن العم والأخت
والأخت والأم والبنت والحالة وبنت الحالة الخ

الفصل التاسع

اللغة والآداب والعلوم

احتفظت القاهرة بشهرتها النسبية التي امتازت بها عدة قرون ، أنها خير مدرسة للأدب العربي وعلم التوحيد والفقه الإسلامى . ولا جرم أن التعليم انحط كثيراً عند العرب عامة ، إلا أنه كان أقل انحطاطاً في القاهرة . فشهرة علماء هذه المدينة لا تدانيها شهرة . ولا يزال مسجد « الجامع الأزهر » يجذب إليه الطلاب من كافة أنحاء العالم الإسلامى .

ويلاحظ أن اللهجة العربية التي يتكلمها أهل القاهرة من الطبقتين الوسطى والعليا أدنى من لهجات بدو الجزيرة العربية وسكان المدن المجاورة مباشرة . من حيث النطق وقواعد الصرف والنحو ؛ إلا أنها تفضل اللهجات السورية كثيراً ، واللهجات المغربية أكثر . وأهم الخصائص التي تلاحظ في نطق المصريين ما يأتى : ينطق القاهريون ومعظم المصريين حرف الجيم جامداً ، بينما يعطشه عرب الجزيرة وسورية وغيرهما . ولكن يجدر أن نلاحظ أن حرف الجيم ينطق جامداً (١) في بعض جنوب جزيرة العرب . وهو منشأ اللغة العربية كما يقال ، وينطق حرف القاف همزة حيث يسود نطق الجيم الأول ، غير أن المثقفين ينطقونه قافاً على حقيقته . وتنطق الجيم معطشة أو قريبة من ذلك في بعض مناطق مصر ، كما تنطق القاف جيماً . وينطق المصريون جميعاً ، وكذلك أغلب الشعوب التي تتكلم العربية ، حرف الراء تاء ، والذال دالاً ، والطاء ضاداً أوزايأ أحياناً . ومن أهم خصائص اللهجة العربية المصرية من حيث التركيب إضافة حرف الشين للدلالة على النفي ، مثل « ما يرضاش » بدلا من « ما يرضى » و « ما هوش طيب » (ويقول العامة موش طيب) بدلا

(١) ويبدو على الأرجح أن عرب مصر احتفظوا في هذه الحالة بنطق كان مألوفاً ، لأن لم يكن عاماً ، عند أسلافهم في آسيا . أنظر Grammaire Arabe - De Sacy الطبعة الثانية الجزء الأول ص ١٧ و ١٨

من « ما هو طيب » ، ووضع اسم الإشارة بعد المشار إليه مثل « البيت ده » ، وكثرة استعمال التصغير في الصفات بلا مسوغ مثل « صغير » بدلا من صغير و « قريب » بدلا من قريب .

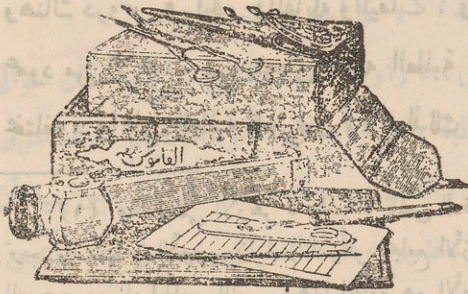
ولا يوجد فرق كبير بين اللهجة الدارجة والفصحى كما يفرض المستشرقون الأوروبيون . ويمكن وصف اللهجة الدارجة أنها تبسيط اللهجة القديمة ، بحذف حركات الكلام الأخيرة خاصة ، وبوجه آخر إهمال التفرقة بين أنواع إعراب الاسم المختلفة وبعض أشخاص الأفعال (١) . كما أنه لا يوجد فرق كبير بين اللهجات العربية في البلدان المختلفة كما يتصور بعض من لم يخاطب أهل هذه البلاد . وتتشابه هذه اللهجات أكثر مما تتشابه لهجات بعض مناطق إنجلترا المختلفة . وتفيض اللغة العربية بكلماتها المترادفة ، فتجد بعض الكلمات تستعمل في بلد ما وما يرادفها في بلد آخر . فيقول المصريون مثلاً « لبنًا » ، بينما يقول السوريون « حليبًا » ؛ ويطلق السوريون اللين على الصرب (اللين الحامض) . وكذلك الحبز يسميه المصريون « عيشًا » ، بينما يطلق عليه في البلدان العربية الأخرى خبزاً . إلى غير ذلك من الأمثلة العديدة من هذا النوع . ويلاحظ أن نطق المصريين ألطف وأعذب من نطق السوريين وأكثر البلدان التي تتكلم العربية .

والأدب العربي غنى شامل ؛ وأهميته في كمية كتيبه أكثر مما هي في كفاءتها . ويباغ عدد الكتب التي تبحث في الدين والفقه الربع تقريباً ، يتلو ذلك كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والفروع المختلفة لعلم اللغة Philology . وتشغل كتب التاريخ (وعلى الأخص تاريخ الأمة العربية) والجغرافيا المرتبة الثالثة ، وأخيراً الشعر . أما المؤلفات الطبية والكيميائية والرياضية والجبرية وغيرها فقليلة جداً بالنسبة لغيرها .

ويوجد في القاهرة عدة مكتبات كبرى ، ويلحق أغلبها بالمساجد ، ويتألف

(١) بدأ العرب يسطون لغتهم في القرن الأول للهجرة تبعاً لانتشارهم في البلدان الأجنبية التي ما كانت تستطيع أن تتعلم لغة الفاتحين الصعبة ولانبات ذلك انظر « الأخبار الإسلامية » لأبي الفداء « عربي ولاتيني » Abulfedae Annales Muslemici الجزء الأول ص ٣٢ ، و ٤٣٤ . ويمكن تقديم عدة أدلة أخرى إلا أن هذا الأمر معروف . وتؤكد العربية الحديثة بمشابهتها للعبرية دلائل الانحطاط الظاهر في تلك اللغة الأخيرة .

معظمها من كتب التوحيد والفقه ومعاجم اللغة ؛ إلا أن هذه المكتبات مهمة إهمالاً يرثى له ، وتفتنى محتوياتها بسرعة وإلى حد بعيد لعدم أمانة القائلين بأمرها أو باستعمالها وإهمالهم . ويقضى بمض التجار الأثرياء وغيرهم مكتبات حسنة . ويبلغ عدد تجار الكتب في القاهرة كما أخبرت ثمانية فقط (١) إلا أن حواشيتهم غير مجهزة تجهيزاً حسناً . ويدور الكتبي كلما عثر على كتاب نفيس على حرفائه وهو يكاد لا يثق بالحصول على مشتر . وقلما تخاطب أوراق الكتاب معاً ، وإنما يدرج الكتاب عادة في غطاء مجلد ، وكثيراً ما يكون له غلاف (٢) خارجي من الورق القوي والجلد . وتتكون « الكراسية » من خمس ورقات مزدوجة كل منها في الأخرى ؛ وترتب الأوراق ملازم صغيرة دون أن تخاط ، فيستطيع أكثر من قارئ استعمال الكتاب معاً ، فيتناول كل كراسيا . وتوضع الكتب مسطوحة الواحد فوق الآخر . ويكتب عنوان الكتاب على واجهة الغلاف الخارجي أو طرف الأوراق . وورق الكتب غليظ لامع . ويستورد غالبا من البندقية ويطلع في مصر . والخبر كثيف لزج . ويستعمل القلم للكتابة ، وهو أكثر ملائمة للخط العربي . وعند ما يكتب العربي يضع الورق فوق ركبته أو على راحته اليسرى ، أو على « مسندة » تتكون من بمض أوراق قد يزيد عددها عن دسجة وتشد معاً عند الأطراف الأربعة ، فتكون كالكتاب الرقيق . ويحمل الكتاب الخبر والأفلام في « الدواية » المذكورة



(شكل ٥٣) كتب وأدوات الكتابة وهي تتكون من القلم والمقطة والمقشط والدواية والمسطرة والمسندة (وقد وضعت عليها الآلات الخمس المذكورة سابقاً) والمقص وقد وضع وعنده فوق الكتاب الأعلى .

في الفصل الأول من هذا الكتاب ويوضع معهما المقشط والمقطة : وهي آلة من العاج يوضع عليها القلم ليقط . ويسطر الكاتب الورق بالمسطرة : وهي قطعة من الورق القوي يشد عليه بمض الورق خيوط ملصقة بالغراء ، فيجمل المسطرة تحت الورقة ويضغط على كل خيط بخفة . وتضمن عدة

(١) وهم مصريون ، ويوجد أيضاً بعض الأتراك (٢) « ظرف »

الكاتب مقصداً لقطع الورق ، إذ لا يليق أن يكون أطراف الورق ممزقة . ويعيش الكثيرون في القاهرة على نسخ المخطوطات . ويبلغ أجر نسخ الكراسة ، وهي عشرون صفحة في كل صفحة خمسة وعشرون سطراً ، بالخط العادي ، ثلاثة قروش ، ويزيد المبلغ إذا حسّن الخط ، ويتضاعف إذا شكل الكلام .

ويتلقى الذين يعدون أنفسهم لوظيفة دينية أو علمية دروسهم في الأزهر . ويتعلمون قبل ذلك القراءة والكتابة وتلاوة القرآن أحياناً . والأزهر ^(١) ، جامعة الشرق عامة ، بنيان واسع الأرجاء ، يحيط بفناء مربع فسيح . ويوجد على أحد جوانب الفناء ، من جهة القبلة ، مكان الصلاة الرئيسي ، وهو رواق فسيح . وعلى كل جانب من الجوانب الثلاثة الأخرى أروقة صغيرة مقسمة إلى عدة أقسام ، يخصص الواحد منها لطلبة بلد معين أو مديرية خاصة من مديريات مصر . ويقع الأزهر في قلب القاهرة . وعمارته لا تستحق الاعتبار ، وإحاطته بالمنازل تحفى خارجة إلا قليلاً . ويسمى من يتلقى العلم في الأزهر « مجاوراً » . ولكل رواق مكتبة لاستعمال الطلبة ؛ ويتعلم الطلبة من الدروس التي يلقيها المدرسون ومن محتويات الكتب الموجودة بمكتبات الأروقة .

ويتكون برنامج الدراسة من علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان والعروض والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث والفقه والحساب في حدود المسائل الشرعية . وهناك دروس في الجبر والمقابلة والميقات . ويجلس الشيخ على الأرض عند أسفل عمود من الأعمدة ، ويتحلق حوله الطلبة . ويقرأ طلبة المذاهب المختلفة كتباً مختلفة . وأغلب الطلبة قاهريون ، وهم لذلك شافعيون ؛ وشيخ الأزهر شافعي دائماً

(١) ولا يسمى الأزهر « جامعة » بالمعنى الدقيق ، إلا أن المسلمين يعتبرونه كذلك . وقد ترجم السياح الأوروبيون اسم الأزهر بجامع الأزهار بدلاً من جامع الأزهر الذي هو الاسم الصحيح ومعناه الجامع النير . وهذا الجامع هو الأول من نوعه بالنسبة لجوامع القاهرة القديمة من حيث عهد إنشائه وسعته . وظاهر الأمر أن ما تقدم في هذه الحاشية (وكانت مدرجة في الطبعة الأولى من هذا الكتاب) لم يلتفت إليه البارون هامر برجستال ، إذ أنه كتب ملاحظاً (في Vienna Jahrbücher Literatur ١٨ ص ٧١) أنه كان يجب أن أكتب بدلاً من « أزهر » كلمة « إزهر » إذ أن الأولى كما يقول تعني « أزهار » . واسم هذا الجامع ينطقه غالب المصريين والعرب على العموم كما كتبه « أزهر » ، ثم أن جمع الزهرة « أزهار » إلا أن الترك ينطقون الكلمة السابقة « إزهر » .

ولا يدفع الطلبة للدراسة في الأزهر أجراً ، إذ أن أغلبهم فقراء . ويتناول أغلب الأجانب ، الذين لهم أروقة خاصة ، راتباً من الطعام يومياً ، يصرف لهم من إيراد العقارات الموقوفة عليهم . والمادة أن يتناول طلبة القاهرة وما جاورها مثل هذا الراتب ، إلا أنهم لا يتمتعون بذلك طويلاً ، خلا شهر رمضان ، لأن محمد على استولى على جميع الأراضي الزراعية الموقوفة على المساجد ، ففقد الأزهر أكبر جزء مما وقف عليه . ولا تنفق الحكومة شيئاً غير نفقات الصيانة اللازمة وأجور المستخدمين . ولا يتناول المدرسون أجراً ، وليس لهم وسيلة منظمة لكسب معيشتهم غير التدريس في المنازل ونسخ الكتب الخ ... إلا إذا ورثوا ملكاً أو كان لهم أقارب يعملونهم ؛ وقد يتناول المدرس هدية من الأغنياء . وبستطيع أى طالب كفاء أن يصبح مدرساً بإجازة شيخ الجامع . ويتبع الطلبة غالباً طريقة المدرسين لكسب معاشهم ، أو يتلون القرآن في المنازل أو على القبور أو في مكان آخر . وعند ما يتقدم الطلبة في دروسهم التقدم الكافي ، يدخل بعضهم في القضاء أو الافتاء أو إمامة المساجد أو التدريس ، في قراهم أو مدتهم ، أو في القاهرة . ويحترف البعض الآخر التجارة . وقد يستمر بعضهم طول حياته يتلقى العلم مبتغياً الوصول إلى مصاف كبار العلماء . وقد نقص عدد هؤلاء الطلبة الذين لارواق لهم ، كثيراً ، منذ الاستيلاء على الأراضي الموقوفة على الأزهر . ويبلغ عدد طلبة الأزهر ، ما خلا العميان ، حوالى ألف وخمسمائة ^(١) ، كما أخبرني أحد المدرسين .

يلحق بالأزهر ، في ركنه الشرق ، « زاوية العميان » ، ويعيش فيها الآن حوالى ثلاثمائة ضريب فقير ، وأغلبهم من الطلبة ، على الأوقاف المحبوسة عليهم . وقد عرف هؤلاء بسلوهم طريق التمرد والعنف والتعصب . وقد حدث منذ زمن غير بعيد أن دخل سائح أوردبى الأزهر ، وشاع أمر حضوره ، فأخذ العميان يبحثون عنه صائحين : أين الكافر ؟ سوف نقتله ! وجعلوا يتحسسون طريقهم إليه للقبض عليه . بينما لم يظهر غيرهم رغبة ما في مهاجمة الدخيل . وكثيراً ما كانوا ينتهجون ، قبل تولى محمد على الحكم ، مسلك الطيش والضجيج كلما حسبوا أنفسهم مظلومين ، أو كلما

(١) ويقول الكثيرون إن عددهم لا يقل عن ثلاثة آلاف ، ويقول الآخرون إنه لا يزيد على الألف . ويختلف الطلبة كثيراً باختلاف العصور .

أنقص راتبهم في الطعام . فكانوا يخرجون إلى الشوارع ، مصطحبين بعض الأدلاء ، مسلحين بالعصى ، يخطفون عمائم العابرين ، وينهبون محتويات المتاجر . ولم يكذب يمين الشيخ القويسني^(١) ، أشهر علماء الأزهر الحاليين ، شيخاً لزاوية العميان منذ بضع سنين ، وكان كفيفاً ، حتى أوجب جلد كل ضرير هناك ؛ إلا أن العميان ثاروا عليه ، وقيدوه ، ثم جلدوه جلداً أشد بكثير مما قاسوه ؛ وأكرهوه أخيراً على ترك منصبه .

وكان التعليم مزدهراً ازدهاراً عظيماً في القاهرة قبل دخول الجيش الفرنسي أكثر منه في السنين الأخيرة . وقد عانى التعليم كثيراً مما أحدثه هذا الغزو من الرعب والهرج . وكان يكفي ، قبل ذلك العصر ، أن يقوم الشيخ المتخرج من الأزهر بالتدريس لولدين من أولاد الفلاحين المتوسطي الثروة ليعيش في بجموحة . إذ أن تلميذه كانا يقومان على خدمته ونظافة منزله وتجهيز غذائه ؛ فكانا ، وإن شاركاه الطعام ، يعتبران خادمين له في كل آن ؛ فيتبعانه أينما ذهب ، ويحملان نعليه (و كثيراً ما كانا يقبلان حذاءه بعد خلعه) عند دخوله المسجد ، ويعاملانه في كل حين معاملة الأسماء . وكان الشيخ حينئذ يلبس الملابس الفضفاضة والمقلة العظيمة . وكثيراً ما كان المسارعة يسرعون إليه ، عند ما يمر بالطريق ، راجلاً أو راكباً ، طالبين منه الدعاء ؛ ويعتقد من تحقق رجاءه أن البركة حلت به . وإذا مر الشيخ بإفرنجى راكب ، وجب على الإفرنجى أن يترجل . وإذا ذهب إلى الجزار لشراء اللحم (إذ يرى أن الذهب بنفسه خير من إرسال غيره) ، رفض هذا أن يتناول الثمن ، وقبل يده معتبراً طلب الشيخ شرفاً وبركة . أما الآن فقد انحط شأن هؤلاء الشيوخ حتى يصعب عليهم الحصول على معاشهم ، إن لم تكن مواهبهم منقطعة النظير .

ولا جرم أن علماء المسلمين يعوقهم الدين^(٢) عن السير في بعض سبل العلم . وقد تفصل الخرافة في أمور اختلف فيها علماء الناس أجيالاً طويلة . وهناك وسيلة غريبة لحسم النزاع في أى موضوع ديني أو علمي أو في أى حادث ، أضرب لها مثلاً . فقد قص عليّ إمام الشيخ المهدي المفتي السابق الحكاية التالية : كان الشيخ

(١) وكان منذ كتابة هذا شيخاً للأزهر وهو الآن متوفى .

(٢) لعله يقصد بالدين بعض آراء أهله كرايهم في المنطق والفلسفة .

محمد البهائي ، وهو رجل مثقف يعتبره العامة ولياً من أولياء الله ، يستمع إلى درس الشيخ الأمير الكبير ، شيخ المالكية ، عند ما قرأ هذا حديثاً للرسول ، من الجامع الصغير ^(١) للسيوطي ، وهو « أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة في الجنة » ؛ وأخذ يشرح الحديث ، بعد أن لخص تاريخ الحسن والحسين ، ملاحظاً أن لا أساس للرأي القائل بوجود رأس الحسين في مسجده بالقاهرة . وهنا قال محمد البهائي : فتملكني غم شديد لهذه الملاحظة لما ألفتها ما أعتقد وما زلت أعتقد ، بوجود الرأس الشريف في هذا المشهد . ولكنني ما كفت لأعارض الشيخ لشهرته وسعة علمه . وانتهى الدرس وخرجت أبكي . فلما جن الليل ، قمت أدعو الله وأبتل إليه ، ولجأت إلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم متوسلاً أن أراه في المنام ، ليخبرني بحقيقة الأمر . فرأيتني أسير إلى المشهد الحسيني . فلما دنوت من القبة ، أبصرت بها نوراً ساطعاً ، فدخلت فوجدت أحداً الأشراف واقفاً بالباب . خيئته فرد التحية وقال : « سلم على رسول الله » . فأرسلت النظر نحو القبة فرأيت الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً على عرش ، وعلى جانبيه وقف رجلان . فرفعت صوتي قائلاً : « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله » عدة مرات وأنا أبكي . فسمعه صلى الله عليه وسلم يقول لي : « ادن يا بني ، يا محمد » . فأخذ الرجل الأول بيدي وقدمني إلى الرسول صلى الله عليه وسلم خيئته فرد التحية وقال : « جزاك الله خيراً على زيارة رأس الحسين يا بني » . فقلت : « يا رسول الله هل رأس الحسين هنا ؟ » فأجاب : « نعم . إنه هنا » . فخارقتني الحزن وفرحت وثبتت جناني وقلت حينئذ : « يا رسول الله سأقص عليك ما أكرهه شيخى وأستاذي الأمير في درسه » . وأعدت عليه قول الشيخ . فأطرق صلى الله عليه وسلم ثم رفع رأسه وقال : « إن النقلة معذورون » . واستيقظت فرحاً سعيداً ولما ينقض الليل بعد . فعمل صبري بطوله ، وجمعت أنرقب طلوع النهار لأذهب إلى الشيخ فأقص عليه الرؤيا . فلما طلع الفجر ، أقمت صلاتي ، وخرجت إلى منزل الشيخ ، وأخذت أطرق الباب بشدة . فأسرع البواب فزعا يسأل من الطارق . فلما عرفني فتح الباب ، ولو كنت غيري لضربني . ودخلت الفناء وأخذت أصيح :

(١) وهو مجموعة مختصرة مشهورة في الأحاديث النبوية .

« سيمدى ! يا سيمدى ! » . فاستيقظ الشيخ صائحاً : « من هذا ؟ » فأجبهته :
« أنا تلميذك محمد البهائى » فتمجّب الشيخ لحضورى فى هذا الوقت وقال :
« يا الله ! ما هذا ؟ ما الخبر ؟ » فقد ظن أن حادثاً عظيماً نزل بالناس . ثم قال :
« انتظر حتى أقيم الصلاة » . فظلمات واقفاً حتى نزل الشيخ إلى الغرفة السفلى
ودعانى إلى الصمود . فصعدت دون أن أحييه أو أقبل يده تحت تأثير الرؤيا ،
وإنما قلت : « إن رأس الحسين فى مشهده بمصر ، لاشك فى ذلك » . قال الشيخ :
« وما دليلك على ذلك ؟ وإذا كان مستندك صحيحاً فأرنيهِ » . فقلت : « ليس هذا
فى كتاب » . فقال الشيخ : « هل رأيت رؤيا ؟ » فرويت له الرؤيا ، وعرفته أن
الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنى أن الواقف بالباب هو على بن أبى طالب ، والواقف
على عيمن العرش أبو بكر ، وعلى يساره عمر بن الخطاب ؛ وأنهم حضروا الزيارة رأس
الإمام الحسين . فوقف الشيخ وأخذ ييمدى وقال : « هيا بنا نزور المشهد الحسينى »
فلما دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله . آمنت أن رأسك
الشريف هنا بعد الرؤيا التى رآها هذا الرجل ، لأن رؤية الرسول فى المنام حقيقية ؛
فقد قال صلى الله عليه وسلم : من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان
لا يمثّل بى » . وحينئذ قال الشيخ : « لقد آمنت أنت وآمنت أنا ، ولا يمكن أن
تكون هذه الأنوار خادعة » .

وقد أثار حديث الرسول صلى الله عليه وسلم السابق مناقشات أخرى بت فيها
بالطريقة نفسها ، أى بالرؤيا . ولا يجزئ أحد على مجادلة صاحب الرؤيا ، إذا كان
ذائع الصيت فى العلم والورع .

يفيد ما أشرت إليه فى بدء هذا الفصل أن بالقاهرة عدة علماء فى وقتنا الحاضر ،
وأن بغيرها من المدن المصرية بعض العلماء الآخرين . ويعتبر الشيخ حسن العطار ،
وهو شيخ الأزهر الآن^(١) ، أحد مشاهير العلماء المعاصرين . وهو وإن لم يبلغ فى
التوحيد والفقّه مبلغ بعض معاصريه كالشيخ القويسنى خاصة ، ضليع فى الأدب .
وهو مؤلف كتاب « الإنشاء » ، الذى يعتبر مجموعة فائقة من الرسائل العربية فى
مختلف الموضوعات ، وضعها نموذجاً للاسلوب الإنشائى . وقد طبع هذا الكتاب

(١) وقد توفى هذا الأديب الفاضل وقت كتابة هذا الكتاب .

في مطبعة بولاق . وقد ذكرت اسم هذا المؤلف تنفيذاً لوعده قطمته على نفسه ،
إذ طلب أن أنه بمعرفتي له ، وأن أبين رأيي في عمله ، ظناً أنني سأنشر في بلادى
أحاديث عن أهل القاهرة .

وقد اشتهر بحق الشيخ محمد شهاب بجودة أدبه ورقة شعره . وكان أنسه
وذاؤه يجذب الأصدقاء إلى منزله كل مساء ، وكنت أحياناً أشارك في مسراتهم .
فكان الشيخ يستقبلنا في غرفة صغيرة مريحة ، فيدخن كل منا شبة ، وتقدم
إلينا القهوة . وكان حديث الشيخ أعذب ما يقدم لنا . وفي القاهرة أيضاً علماء
يتمتعون بشهرة عظيمة في اللغة والشعر . ويستحق الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ،
وهو من مؤلفي القاهرة المتأخرين ، أن يشار إليه بصفة خاصة ، إذ أنه وضع
تاريخاً جليلاً لحوادث مصر منذ القرن الثاني عشر للهجرة (١) . وقد توفي عام
١٨٢٥ أو ١٨٢٦ عقب قدومي القاهرة لأول مرة . وتنتمي أسرة الشيخ الجبرتي
إلى الجبرت ، في جنوب شرق الحبشة ، على شاطئ المحيط . ويدين أهل جبرت
بالإسلام . ولهم رواق في الأزهر ، ومثل ذلك في مكة ، وفي المدينة .

لم يكن الشعر الجاهلي يفهم على حقيقته في القرنين أو الثلاثة الأولى للهجرة
لغربة ألفاظه ؛ فمن باب أولى لا نجد الآن من يستطيع شرح هذه النصوص
القديمة . غير أن هناك في مصر من تضلع من علوم الصرف والنحو والبلاغة
والأدب ، بالرغم من سيادة التوحيد والفق في هذا البلد . وقلما يعرف علماء مصر
تاريخ بلادهم معرفة جيدة ، وأقل من ذلك معرفتهم بتاريخ الأمم الأخرى .
أما الذين لا يحترفون الأدب من سواد الشعب فمحصولهم الأدبي منقطع النوع .
ويجيد الكثير من التجار الأغنياء فن القراءة والكتابة ، ولكن قل من يخصص
أكثر وقته لدراسة الأدب . ويعتبر من حفظ القرآن جميعه أو أكثره ،
واستطاع أن يتلو قصيدتين أو ثلاثاً ، أو يضمن الحديث بعض الأمثال ، رجلاً
كامل الثقافة . وهناك تجار في القاهرة أميون ، فيلجأون إلى أصدقائهم ليكتبوا لهم
حساباتهم ورسائلهم . إلا أن هؤلاء التجار لا يهتمون بذلك على العموم ،

(١) ويوافق بدء القرن الثاني عشر للهجرة اليوم السادس عشر أو السابع عشر من
أكتوبر سنة ١٦٨٨ ميلادية .

فيقومون بعمليات حسابية ذهنية معقدة ، بسرعة فائقة ودقة مذهشة .
ويخطيء المسيحيون في أوروبا في اعتقادهم أن المسلمين أعداء العلم على اختلاف
أنواعه تقريباً . والحقيقة أن العلم في الوقت الحاضر تحده حدود ضيقة . فقل من
يدرس الطب والكيمياء (وندين بمعرفتنا بها للعرب) والرياضيات وعلوم الفلك .
وتجد أغلب الأطباء والجراحين المصريين حلاقين ، يجهلون العلم الذي يباثرونه
جهلاً مضراً ، وتنقصهم المهارة فيما يمارسونه ؛ ويرجع بعض ذلك إلى تحريم الدين
تشریح الجسد . إلا أن بعض المصريين الشبان يتلقون الآن دراسة أوربية في
الطب والتشريح والجراحة وعلوم أخرى لخدمة الحكومة . وكثيراً ما يرفض
المرضى من المصريين كل مساعدة طبية ، متوكلين على العناية الإلهية أو معتمدين
على السحر . ويدرس في هذا البلد علم تحويل المعادن أكثر من دراسة علم الكيمياء
الصرف ، وعلم التنجيم أكثر من علم الفلك . ولا يستعمل في مصر من آلات
الفلك غير الاسطرلاب والربع المقنطر Quadrant تقريباً . ويندر أن نشاهد
مرصدة (١) (تلسكوب) هنا . ولعلنا تستعمل الإبرة المغناطيسية (البوصلة) إلا
لمعرفة القبلة ؛ ويصنع لهذا الغرض ، في دمياط ، بوصة صغيرة ملائمة ، « تسمى
قبليّة » ، تبين اتجاه القبلة في المدن الكبيرة للبلاد المختلفة . وأغلب المدن بها مزاويل
تبين الوقت ظهراً وعصراً في أماكن متعددة وفصول مختلفة . ويجهل هؤلاء الذين
يدعون علم الفلك الأصول العلمية الصحيحة ؛ ويعتبرون القول بدوران الأرض
حول الشمس إلحاداً مطلقاً . ويستخدمون علم النجوم في حساب التقويم السنوي
تتألف السنة الهجرية من اثني عشر شهراً قرياً (٢) . ويتأخر التقويم القمري

(١) هذا ما قرره المجمع اللغوي . أنظر مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية الجزء

(المترجم)

الرابع .
(٢) جرى المؤرخون الأوربيون على أن أول يوم في الهجرة كان يوم الجمعة السادس عشر
من يوليو سنة ٦٢٢ ميلادية ؛ إلا أن كوسان دي برسفال Caussin de Perceval في كتابه :
مقالة في تاريخ العرب Essai sur l' Histoire des Arabes بين خطأ ذلك . فالعام الهجري
الأول كان العام الحادي عشر بعد المائة من عهد كان العرب يستعملون فيه حساباً قرياً شمسياً
ناقصاً ، جاعلين العام الثالث من كل ثلاثة أعوام ثلاثة عشر شهراً قرياً . وقد حرم الرسول
صلى الله عليه وسلم هذه الطريقة في الشهر الثاني عشر من العام العاشر للهجرة وقت الحج . ومن
هذا يتضح أن العام الأول للهجرة بدأ على الأرجح يوم الإثنين التاسع عشر من أبريل سنة ٦٢٢
ميلادية . وطبقاً لرأي كوسان دي برسفال تبدأ السنين العشرة الأولى في التواريخ التالية : =

عن التقويم الشمسى سنة فى كل ثلاث وثلاثين سنة ونصف تقريباً . ولذلك لا يستعمل هذا التقويم إلا فى تحديد الأعياد الدينية والمواسم السنوية ؛ فلا يستعمل فى حساب الفلك ولا فى تحديد الفصول . وإنما يستخدم فيها التقويم القبطى . وقد ذكرت فيما يلى الشهور القبطية بأسمائها الحديثة (١) مع ما يقابلها من التقويم الميلادى

توت ويبدأ فى العاشر أو الحادى عشر من سبتمبر	برمات ويبدأ فى التاسع من مارس
بابة » » » أو الحادى عشر من أكتوبر	برمودة » فى الثامن من إبريل
هاتور » فى التاسع أو العاشر من نوفمبر	بشنس » فى الثامن من مايو
كيهك » فى التاسع أو العاشر من ديسمبر	بؤونة » فى السابع من يونيو
طوبة » فى الثامن أو التاسع من يناير	أييب » فى السابع من يوليو
أمشير » فى السابع أو الثامن من فبراير	مسرى » فى السادس من أغسطس

ويلحق بالسنة القبطية خمسة أيام أو ستة تسمى أيام النسيء . والشهر القبطى ثلاثون يوماً . ويضاف إلى كل سنة من السنوات الثلاث المتتالية خمسة أيام ،

== العام الأول الإثني ١٩ إبريل سنة ٦٢٢	العام السادس الخميس ٢٣ إبريل سنة ٦٢٧
» الثاني السبت ٧ مايو سنة ٦٢٣	» السابع الثلاثاء ١٢ إبريل سنة ٦٢٨
» الثالث الخميس ٢٦ إبريل سنة ٦٢٤	» الثامن الاثنين أول مايو سنة ٦٢٩
» الرابع الإثني ١٥ إبريل سنة ٦٢٥	» التاسع الجمعة ٢٠ إبريل سنة ٦٣٠
» الخامس السبت ٣ مايو سنة ٦٢٦	» العاشر الثلاثاء ٩ إبريل سنة ٦٣١

وهكذا يبدو أن الأعوام الأول والرابع والسابع كان يتألف كل منها من ثلاثة عشر شهراً قرياً ، وأن العام السابع كان آخر هذه الأعوام ؛ وهكذا يبدأ الحساب القمري العادى بالعام الثامن . ويمكننا أن نستخدم استناداً على هذا الرأى الجداول التى تشير إلى بدء السنين الهجرية . ولكن لا ينبغي أن نعتمد على دقة هذه الجداول لأن بدء الشهر يحدد برؤية الهلال ، ولذلك يختلف باختلاف الأماكن . ولم تبدأ السنة الهجرية من يوم هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة ، كما يفترض أغلب مؤرخينا الذين بحثوا هذا الموضوع ، وإنما تبتدىء من أول يوم للقمر أو من شهر محرم السابق لهذا الحادث . ويقال إن الرسول بعد أن ظل مختفياً مع أبى بكر ثلاثة أيام فى غار ثور بدأ هجرته إلى المدينة فى التاسع من الشهر الثالث أى ربيع الأول بعد ستة وثمانين يوماً من بدء هذا التاريخ .

(١) وقد ذكرت الأسماء القبطية القديمة فى كتاب Horae Aegyptiaca تأليف R. S. Poole ص ٧ — ٩ ، وقد أشير فيه أيضاً إلى اشتقاقها من أسماء الألهة المصرية القديمة فى ص ١٤ و ١٥ و ١٨ .

وإلى السنة الرابعة مئة أيام . والسنة القبطية الكبيسة تليها مباشرة سنة ميلادية كبيسة . فالسنة القبطية تبدأ في الحادى عشر من سبتمبر فقط عندما يسبق هذا الشهر سنة قبطية كبيسة أو تلحقه سنة ميلادية كبيسة . ولذلك تتشابه الأيام المتقابلة في التقويم القبطى والميلادى بعد شهر فبراير التالى . ويبدأ القبط تأريخهم من عصر دقلديانوس سنة ٢٨٤ م

ويقسم المصريون المحدثون السنة إلى ثلاثة فصول كما كان يقسمها أسلافهم ؛ وهى : الشتاء والصيف والنيل . ويستعمل الفلكيون تقويم الأبراج القمرية ، التى اعتاد أهل الجزيرة العربية تنظيم شؤونهم المتعلقة بالفصول عليها

ويبدأ الوقت المدنى فى مصر ، وغيرها من البلدان الإسلامية ، من غروب الشمس إلى الغروب التالى ؛ فيحسب الليل السابق مع النهار التالى ، وتسمى الليلة السابقة ليوم الجمعة مثلاً ليلة الجمعة . ويوافق غروب الشمس الساعة الثانية عشرة ، فتكون الساعة واحدة ، بعد غروب الشمس بساعة ، والساعة الثانية بعده بساعتين ، وعلى هذا المتوال يحسب الوقت حتى الثانية عشرة . وبعد الثانية عشرة صباحاً تبدأ الساعة واحدة مرة أخرى ، ثم الساعة الثانية وهكذا (١) . ويعلأ المصريون ساعاتهم ويضبطونها عند الغروب ، عندما يسمعون آذان المغرب على العموم . وتضطرهم طريقة حسابهم الوقت من الغروب ، إلى ضبط ساعاتهم كل مساء ، إذ أن الأيام تختلف طولاً وقصراً

ويبين الجدول الآتى أوقات الصلاة عند المسلمين (٢) مع ما يقابلها من الوقت الأوروبى الظاهر عند الغروب ، على خط عرض القاهرة ، فى بدء كل منطقة من مناطق البروج

يطبع فى مطبعة الحكومة ببولاق (٣) تقويم صغير سنوى . ويشمل هذا

(١) وبالتالى إذا طرحنا ساعة الظهر العربية فى يوم معين من ١٢ نحصل على ساعات الغروب الأوروبية فى هذا اليوم .

(٢) وقد ذكرنا هنا أوقات العشاء والفجر والعصر تبعاً للحساب الأكثر شيوعاً فى القاهرة .

(٣) وقد طبع فى هذه المطبعة أكثر من مائة كتاب مدة زيارتى الثانية لمصر ، وكان أكثر هذه الكتب لاستعمال الجيش والبحرية ومستخدى الحكومة . وقد طبع منذ ذلك الوقت فى المطبعة نفسها كتاب ألف ليلة وليلة وخطط المقرئى وعدة كتب أخرى على نفقة بعض الأفراد .

التقويم السنة الشمسية ، منذ بدأ الاعتدال الربيعي إلى نهايته ، وأيام الأسبوع والشمهور الإسلامية والقبطية والسريانية والإفرنجية ، مع الإشارة إلى حركات الشمس في منطقة البروج ، وأوقات الشروق والظهر والعصر . ويصدر التقويم بنبذة في أهم المواسم والأعياد الإسلامية والقبطية وغيرهما ، وبعض الملاحظات والإرشادات المتعلقة بالفصول . ويلحق بالتقويم نتيجة طبية وزراعية لكل يوم من أيام السنة . ويشير التقويم إلى الخسوف والكسوف ، كما يشمل أموراً كثيرة تلائم خرافات الشعب ، وتتضمن آثاراً من التقويم المصري القديم . ويقوم بعمل هذا التقويم قسيس سوري مسيحي ، اعتنق الإسلام ، يسمى يحيى أفندي (١)

غروب				عشاء		فجر		ظهر		عصر	
إسلامي		أوربي		إسلامي		إسلامي		إسلامي		إسلامي	
س	ق	س	ق	س	ق	س	ق	س	ق	س	ق
يونيو ٢١											
١٢	٠٠	٧	٤	١	٣٤	٨	٦	٤	٥٦	٨	٣١
يوليو ٢٢ - مايو ٢١											
١٢	٠٠	٦	٥٣	١	٣٠	٨	٣٠	٥	٧	٨	٤٣
أغسطس ٢٣ - إبريل ٢٠											
١٢	٠٠	٦	٣١	١	٢٢	٩	٢٤	٥	٢٩	٩	٤
سبتمبر ٢٣ - مارس ٢٠											
١٢	٠٠	٦	٤	١	١٨	١٠	٢٤	٥	٥٦	٩	٢٤
أكتوبر ٢٣ - فبراير ١٨											
١٢	٠٠	٥	٣٧	١	١٨	١١	١٨	٦	٢٣	٩	٣٥
نوفمبر ٢٢ - يناير ٢٠											
١٢	٠٠	٥	١٥	١	٢٢	١١	٥٩	٦	٤٥	٩	٤١
ديسمبر ٢١											
١٢	٠٠	٥	٤	١	٢٤	١٢	١٥	٦	٥٦	٩	٤٣

وليس المصريين معرفة بالجغرافيا إلا فئة قليلة أكثر ثقافة . ويكاد المصريون يجهلون موقع أكثر البلدان الأوربية الكبيرة جهلاً تاماً لعدم وجود الخرائط الجيدة . وقلماً يجرؤ بعض المتعلمين منهم على إعلان كروية الأرض ؛ إذ أن أكثر علمائهم على عكس هذا الرأي . والرأى السائد بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم أن الأرض مهاد يحيط به المحيط (٢) الذي يحده جبال (قاف) كما يزعمون . ويمتقد هؤلاء أن هذه الجبال هي ذروة الأرض السابعة ، كما يعتقدون أن السموات سبع طبقات تعلو إحداها الأخرى

(١) وقد استبدل أثناء مقامي الأخير بمصر بتقويم يحيى أفندي تقويم آخر ألفه محمود أفندي ، وهذا التقويم الأخير مطابق للأغراض الفلكية وأحسن من السابق وهو مشرف لمؤلفه أيضاً .

(٢) كما كان يعتقد اليونان في عهد هوميروس وهزيود Hésiode .

فإذا كان هذا هو حال العلم عند المصريين المحدثين ، فلا يعجب القارىء إذا وجد بعد هذا الفصل فصلاً إضافياً يصف خرافاتهم ، والإلمام بهذه الخرافات لازم ليعتبر القارىء أخطاءها ، وليستطيع أن يفهم طباع المصريين . وإنا لتتوقع لهذا الشعب تقدماً عظيماً من الناحية الفكرية والأخلاقية باقتباس العلوم الأوروبية في عهد محمد علي ، ذلك الاقتباس الذي قوّم إلى حد ما سلطته الجائرة ، ولكن ليس من المحتمل أن يتحقق هذا الرجاء قريباً على مدى واسع (١)

(١) لاحظ البارون هاسر برجستال بحق أن هذا الفصل ناقص . وكان بودى أن أزيد فيه لولا شعورى بواجب التقيد برغبة القارىء . وأخشى أن أكون قد استنفدت صبره بتسجيل موضوعات لا تهم غير المستشرقين ، فلم أدون ، بناء على التعديل الأخير ، غير بعض ملاحظات قليلة سريعة نتيجة لما رأيته من أن العلوم الأوروبية مقصورة على هؤلاء المستخدمين الذين أكرهوا على تلقي العلم من المدرسين الإفرنج ، ومن أن العادات الأوروبية لم يجرؤ على اتباعها غير بعض الأتراك . وقد صرح لى بعض المصريين الذين تلقوا علومهم في فرنسا أنهم ما كانوا يستطيعون أن يسيغوا شيئاً مما تعلموه هناك في عقول مواطنيهم حتى الأقربين إليهم .

الفصل العاشر

الخرافات

يمتد العرب بالخرافات اعتقاداً عظيماً ؛ ويمد عرب مصر أكثرهم تعلقاً بهذه الاعتقادات الباطلة . وأكثر هذه الخرافات اعتباراً الاعتقاد بالجن . ويقال إن الجن أصلهم سابق على آدم ، وإنهم في خصائصهم العامة طبقة من الكائنات تتوسط بين الملائكة والإنس ، وتقل عنهما فضلاً . خلقت الجن من نار ، وتستطيع أن تتشكل بأشكال الأناس والبهائم والوحوش الخيالية ، وتخفى عن الأنظار كما تريد . والجن يشربون ويأكلون ، ويتناسلون مثل البشر أو معهم ، كما أنهم عرضة للموت ، وإن كانوا يعيشون أجيالاً عديدة . ويسكن الجن سلسلة جبال قاف ، التي يزعمون أنها تحيط بالأرض جميعها ، كما ذكر في الفصل السابق . ويعتقد بعض الجن الإسلام ، والآخرون كفر . ويسمى هؤلاء الكفرة أيضاً شياطين ، ويرأسهم إبليس ؛ إذ أنه ، تبعاً للرأى السائد ، جنى مثل غيره من الشياطين ، لأنه خلق من نار ؛ بينما خلق الملائكة من نور معصومين من الخطأ .

ويخشى العرب الجن أخيارهم وأشرارهم كثيراً ؛ ويحفظون لأخيارهم احتراماً عظيماً . وقد جرت العادة عند هذا الشعب ، عند ما يصب أحدهم ماء أو غيره على الأرض ، أن يصيح أو يمدم : « دستور » ، مستأذناً أو مستغفراً الجنى الذى قد يوجد هناك . ويظن أن الجن ينتشرون في طبقة الأرض الصلبة ، مثلاً ينتشرون في السماء حيث يقتربون من حدود السماء الأولى ، فيسترقون السمع عن المستقبل ، ويستطيعون هكذا أن يساعدوا المرافين والسحرة . ويمتقدون أيضاً أن الجن يسكنون الأنهار والخرائب والآبار والجمامات ^(١) والأفران والمراحيض . ولذلك عند ما يدخل أحد مرحاضاً أو يدلى دلواً في بئر أو يوقد ناراً الخ ... يقول : « دستور » أو « دستور

(١) العادة في مصر أن يرسم المسلمون والمسيحيون صليباً على مدخل الحمام إذ يعتقدون أن هذا يمنع الجن من دخوله .

يا مباركين . وبقول الداخل بيت الراحة هذه العبارة مبتهلاً إلى الله أن يحميه من الأرواح الشريرة . إلا أن البعض لا يذكرون اسم الله باعتبار أنه لا يليق النطق به في مثل هذا المكان ، فيكتفون بقولهم : « أعوذ بك من الشياطين ذكوراً وإناثاً » . وتفسر هذه العادات إحدى قصص ألف ليلة وليلة التي يحكى فيها أن تاجراً قتل جنياً بنواة تمر كان يأكلها . ويظهر الجنى في القصة نفسها وفي غيرها قادمًا في زوبعة من الرمل أو الغبار . والاعتقاد العام عند عرب مصر ، أن الزوبعة التي تثير الغبار أو الرمل ، وتكسح الحقول والصحارى ، يسببها تخليق هذه الكائنات (١) . ويفوه المصريون عادة ، عندما تبدو الزوبعة قريبة منهم ، بتعويدة لابتعادها ، فيهتف بعضهم : « حديد يا مشئوم » ؛ إذ يظنون أن الجن يخافون هذا المعدن كثيراً . ويصيح آخرون : « الله أكبر » . ويعتقدون أن الشهب سهم يقذف به الله الشياطين ؛ ويصيح المصريون عند ما يرون شهاباً ساقطاً : « سهم الله في عدو الدين » . ويسمى العامة الشياطين عفاريت ، وقد ورد ذلك في القرآن بهذا النص « قال عفریت من الجن » . وقد ترجم سيل Sale هذا اللفظ : « قال جن هائل » . ويعتقدون أن العفاريت يخطفون عن الجن الآخرين بعظيم قدرتهم ودوام شرهم . ويسمى الشيطان الأقوى مارداً .

يرتبط تاريخ الجن بعدة أساطير لم يذكرها القرآن ، ولذلك لا يؤمن بها المسلمون العقلاء (٢) . ويتفق الجميع على أن الجن خلقوا قبل الإنسان ؛ إلا أن البعض يقولون بطبقة أخرى من الكائنات السابقة على آدم ذات طبيعة مشابهة . ويعتقد العامة أن الأرض كان يسكنها قبل آدم جنس من المخلوقات يختلف عن البشر شكلاً وقوة ، وأن أربعين ملكاً من هؤلاء ، أو اثنين وسبعين تبعاً لقول آخر ،

(١) وقد قست ارتفاع زوبعة في مدينة طيبة في ظروف ملائمة ، فقد لاحظت ارتفاعها من مكان عال وقت مرورها بجموعة من النخيل ، هزتها هزاً عنيفاً ، على بعد منى ، وقد بلغ ارتفاع الزوبعة سبعائة وخمسين قدماً . وأظن أنني رأيت زوابع أكثر ارتفاعاً ، وقد قست زوابع أخرى في المكان نفسه فبلغ ارتفاعها بين خمسمائة قدم وسبعائة .

(٢) يتكون تاريخ الجن ، في جملة المعتقدات والعادات التي تسود البلدان الإسلامية ، من عدة طبقات منضودة . منها ما هو آثار باقية من زمن الجاهلية ، ومنها ما أضافه الإسلام ومنها أخيراً ما يرجع ، في البلد المنتشرة به ، إلى معتقدات خاصة بذلك البلد سابقة على الإسلام .

سمى كل منهم سليمان ، حكموا هذا الشعب تباعا . وكان آخر هؤلاء السليمانيين يسمى جان بن جان . ويتوهم البعض أن الجن ، ويسمون أيضا جانا (١) ، اشتقوا تسميتهم من اسم هذا الملك . ومن هنا يعتقد البعض أن الجن يشبهون هذا الجنس السابق ، ولكن البعض يؤكد أن الجن كانوا طبقة من الكائنات مختلفة أخضعها الجنس الآخر .

ويعتقدون أن الجن كثيرا أو دائما يتشكلون بأشكال القطط والكلاب والحيوانات المفترسة . وقد روى الشيخ خليل المدافعي ، وهو من أشهر علماء مصر وقد ألف كتباً عديدة في مختلف العلوم ، وتوفي في سن متقدمة أثناء زيارتي الأولى لمصر ، الحكاية التالية : « كان له ، كما يقول ، قط أسود عزيز ينام عند ذيل كائنه . ففي منتصف إحدى الليالي سمع طرقا على باب داره ، فقام القط وفتح مصراع الشباك وهتف : « من ؟ » فأجابه صوت : « أنا فلان الجنى (و ذكر اسما غريبا) افتح الباب » فقال قط الشيخ : « إن الزلاجة قرى عليه اسم الله (٢) » فقال الآخر : « إذن اقذف لي رغيفين من الخبز » فأجاب القط : « إن سلة الخبز سمي عليها » فقال الغريب : « حسن ، أعطني على الأقل جرعة ماء » . ولكنه رد عليه بأن وعاء الماء محفوظ بالطريقة نفسها . فسأل ماذا يستطيع أن يفعل وهو يوشك أن يموت جوعا وعطشا ؟ فأشار عليه القط أن يذهب إلى باب الدار التالية . وذهب هو بنفسه وفتح الباب ثم لم يلبث أن عاد . وفي الصباح التالي ، غفل الشيخ عن عادة كان يراعيها دائما ، فأعطى القط نصف الفطيرة التي كان يفطر بها ، بدلا من قطعة صغيرة اعتاد أن يمطيها إياها . ثم قال له : « يا قطي ، أنت تعلم أنني فقير ، فجنني إذن بعمى الذهب » . فاخفى القط في الحال بعد هذا الكلام ، ولم يره الشيخ بعد ذلك . والحكايات من هذا النوع تستوجب السخرية ، لكن من المستحيل أن نقف على حقيقة عقلية الشعب الذي أحاول وصفه دون أن أورد حكاية أو أكبر ويؤكد العامة أن أشرار الجن كثيراً ما يعتلون الأسطح والشبابيك ، ويقذفون

(١) ويعتبر بعض الكتاب الجن أقل طبقات الجن قدرة .

(٢) وعادة الفقهاء (المتأديين والأتقياء) أن يسموا عند قفل الباب بالزلاجة أو تغطية الخبز أو خلع الملابس ليلا أو في مناسبات أخرى . وهذا كما يعتقدون يحفظ أموالهم من الجن . ويقال للشئ الذي ذكر عليه لاسم الله « مسمى عليه » .

بالقرايميد والحجارة في الشوارع والأفنية . وقد أخبرت من أيام قليلة بمحادثة من هذا النوع أفزعت سكان أهم شارع في القاهرة أسبوعا بأكمله ، إذ كانت القرايميد تقذف بكثرة من بعض المنازل كل يوم طول هذه المدة ، ولم يصب أحد . وقد ذهبت إلى مكان هذه الدعابة الجنية المزعومة للنظر والاستقصاء ، ولكن قيل لي عند وصولي إن الرجم انقطع . ولم أجد أحدا أنكر قذف القرايميد ، أو شك في أنه من أعمال الجن . وكانت الملاحظة العامة عند ذكر هذا الموضوع قولهم : « الله يحفظنا من شر أعمالهم »

وقد أخبرني صديق ، بهذه المناسبة ، أنه قابل بعض انجليز لا يعتقدون بوجود الجن . وقد استدل بذلك على أنهم لم يشاهدوا أبدا تمثيلا عاما ، وإن كان مفتشرا في بلدهم ، الذي سمع عنه منذ ذلك الحين باسم « كوميديا » ، قاصدا بهذه العبارة التمثيل المسرحي . ثم قال بعد أن وجه الكلام إلى أحد مواطنيه ، ودعاني لأصدق على حديثه : « منذ زمن قصير وصف لي جزائري منظرا من هذا النوع كأن قد رآه في لندن » ؛ فقاطعه مواطنه سائلا : « أليست إنجلترا في لندن ؟ أم لندن مدينة في إنجلترا ؟ » فأجابه صديقي بتحفظ ، وهو ينظر إليّ ، أن لندن عاصمة إنجلترا ، ثم أوجز موضوع المسرح ، فقال : « لا يمكن وصف الدار التي عرض بها التمثيل . كانت الدار مستديرة ، صفت على أرضيتها مقاعد عديدة ، وحولها مقصورات كثيرة ، الواحدة تعلو الأخرى ، حيث جلس أفراد الطبقات العليا ؛ وكان هناك فرجة مربعة كبيرة أسدل عليها ستار . وعندما غصت الدار بالمتفرجين ، الذين دفعوا مبالغ كبيرة للدخول ، أظلم المكان فجأة ، وكان الوقت ليلا ؛ وكانت الدار قد أضيئت بعدة مصابيح ، إلا أنها أطفئت كلها تقريبا في وقت واحد دون أن يمسه أحد . ثم رفعت الستارة الكبيرة ؛ فسمع المشاهدون هدير الموج وصفير الهواء ، ورأوا ، دون تمييز في الظلام ، الأمواج ترتفع وتزيد وتضرب الشاطئ ؛ وسمع في الحال صوت رعد صرعب ، ثم أضاء البرق للمشاهدين البحر الهائج ، وسقط حينئذ سيل من المطر الحقيقي . بعد ذلك صفا الجو فظهر البحر بوضوح ، وشوهدت باخرتان على بعد اقتربا ثم اشتبكتا في قتال أطلقت فيه نيران المدافع ؛ وعرضت بعد ذلك مجموعة مختلفة من المناظر الفريدة . وأضاف صديقي : « من الواضح الآن ، أن مثل هذه المعجائب

لا بد أن تكون من أعمال الجن ، أو على الأقل عملات بمساعدهتهم . وقد شرحت له هذه الظواهر ، ولكنى لم أستطع إقناعه بخطأه .

ويقال إن الجن يسجنون أثناء شهر رمضان . ومن هنا نرى بعض المصريات يرششن ، في وقفة عيد الفطر ، ملحاً على أرض الغرف ، بمسملات ، لمنع هذه المفزعات من دخول منازلهن .

ويجب أن أشير هنا إلى بقية عجيبية من خرافة مصرية قديمة . إذ يعتقدون أن لكل حي من أحياء القاهرة حارساً خاصاً من الجن ذا شكل أفعى (١) Agathodaemon . ويعتقدون أن القبور المصرية القديمة والهياكل المظلمة تسكنها العقاريت . وقد استحال على أن أقنع أحد خدي بدخول الهرم الأكبر معي ، لرسوخ هذه الفكرة في ذهنه . وينسب الكثير من العرب بناء الأهرام ، والآثار المصرية المدهشة جميعها ، إلى جان بن جان وأتباعه الجن . فهم لا يتصورون أن تقيم هذه الآثار يد بشر

تطلق عبارة عقريت بالحرى على الشيطان ، إلا أن أرواح الأموات تسمى أيضاً بهذا الاسم . وينسج من هذه حكايات لا يقبلها العقل ، كما أنها تلقى في النفوس رعباً هائلاً . إلا أن هناك من لا يخشاه إطلاقاً . وكان في خدمتي طاه مضحك يتعاطى الحشيش أحياناً . وقد سمعته ذات ليلة ، بعيد دخوله خدمتي ، يدمدم ويهتف على السلم ، كما لو كان دهشاً لحادثة ما . ثم قال بأدب « ولكن لم تجلس في تيار الهواء ؟ تفضل بالصمود إلى المطبخ وسأنتي بحديثك قليلاً » . ولما لم يرد

(١) إن للأفعى في أنحاء العالم أثراً بارزاً في الدين والأساطير والآداب الشعبية . فراها تحتل مقاماً مقدساً في الهند وبابل وآشور ومصر واليونان ... والأفعى Agathodaemon (أى الروح الطيبة) في الأساطير اليونانية إله يحرس الزرع والكرم . وكان اليونان يصرّبون عقب الطعام كأساً من النبيذ الصافي نخب حارسهم . وفي مصر القديمة نجد أفعى حارسة لكل رقعة إدارية . وفي آشور وبابل كانت تعد رمز الخلود والبعث ...

Ch, Letourneau تأليف Evolution de la religion (Bibliothèque Anthropologique)
Le Nil et la civilisation — Encyclopaedia Britannica : Serpent Worship
Religion de Bebaylonie et d' Assyrie — Moret تأليف Egyptienne
(الترجم) Dhorme تأليف (Collection Mame)

على خطابه المؤدب . كرره عدة مرات حتى ناديت عليه وسألته إلى من يتحدث . فأجاب : « إنه عفريت جندى تركى صعد من البئر وجلس على السلم يدخن شيبكه ويرفض أن يتحرك . تقدم من فضلك وانظر إليه » . ولما ذهبت إلى السلم وأخبرته أننى لا أرى شيئاً ، لاحظ أن سبب ذلك صفاء العقل . وقد قيل له ، فيما بعد ، إن المنزل ظل مسكوناً طويلاً ؛ وقد قرر أنه لم يُخبر قبلاً بهذا الموضوع المزعوم ، أن جندياً تركياً قتل هناك . وقد صرح لى أنه كثيراً ما يرى العفريت بعد ذلك ويعتقد المصريون وبعض الشرقيين بوجود الغيلان أيضاً . ويحسبون أن هذه الكائنات طبقة من الشياطين . ويقال إنهم يظهرون في أشكال الحيوانات والوحوش ، وأنهم يسكنون المقابر وغيرها من الأماكن المنعزلة ، وأنهم يأكلون الجثث ويقتلون من يوقعه سوء الحظ في طريقهم ويلتهمونه . ومن هنا تطلق عبارة الغول على آكلى لحم البشر

لا يجوز عقلاً أن تثير هذه الأوهام التى توجد في أذهان شعب جاهل دهشتنا . ولكن المصريين لا يظهرون احتراماً خرافياً للكائنات الوهمية فحسب ، وإنما يجاوزون ذلك إلى بعض أفراد من البشر مثلهم . وكثيراً ما يكون ذلك التقديس إلى أقل الناس استحقاقاً له ^(١) . فيعتبرون الأبله أو المجنون مخلوقاً عقله في السماء وجسده يختلط بالبشر . ويعدونه لذلك ولياً . ومهما ارتكب الولي المشهور من الخطايا — وكثيراً منهم يخالفون الدين — فهي لا تؤثر على قداسته ، إذ تعتبر نتيجة تجرد عقله من الأشياء الدنيوية ؛ فروحه أو قواه العقلية كلها مستغرقة في التقوى ، ولذلك تترك شهواته بلا رقيب . ويحبس المجانين الخطرون ؛ أما هؤلاء الذين لا خطر منهم فيعتبرون أولياء . وأكثر أولياء مصر المشهورين معتمهون أو بله أو خداعون . ويسير بعضهم عمراً تقريباً ، ويتمتعون باحترام زائد ، بحيث أن النساء ، بدلاً من تجنبهم ، يتكبدن أحياناً الكثير من تصرفاتهم الشاذة في الطريق العام ؛ ولا يشعر العامة بأى عار من هذه الأعمال التى يندر مع ذلك حدوثها . ويرى آخرون لابسين صرقة مختلفة الألوان ، تسمى « دلق » ^(٢) ،

(١) كما هو الحال أيضاً في سويسرا .

(٢) وتنطق أيضاً وعلى الأصح « دلق » إلا أن العامة ينطقونها كما سبق .

وهو مزين بالخرز، ومعممين بعمة بالية ، وحاملين عصا شبك في أعلاها سبائب نسج مختلفة الألوان . ويأكل بعضهم التبن ، أو خليطاً من التبن والزجاج المكسر ؛ ويلفتون النظر بأعمال غريبة مختلفة . وكثيراً ما قابلت ، أثناء زيارتي الأولى ، في شوارع القاهرة ، رجلاً زرى الشكل عارى الجسم تقريباً ، مضفر الشعر طويلاً ، راكباً حماراً يقوده رجل آخر . فيوقف دائماً حماره أمامي مباشرة بحيث يقطع على الطريق ، ويقرأ الفاتحة ، ثم يمد يده للسؤال . وقد حاولت أن أتجنبه في أول مرة ؛ إلا أن أحد المارين حذرنى ملاحظاً أن الرجل ولى ، وأن على أن أحترمه وأن أمنحه ما يريد حتى لا تصيبني مصيبة . ويقعش رجال هذه الطبقة على الصدقات التي كثيراً ما يتناولونها دون سؤال . ويسمى القديس المشهور «شيخ» أو «مرايط» أو «ولى» ، ويسمى أيضاً ، على الأصح ، إذا كان به بله أو جنون أو خبل ، «مجنوب» أو «مسلوب» . وتطلق عبارة «ولى» بدقة على القديس التقى السامى فقط ، ومعناها المختار . إلا أنها تطلق عامة على البُله أو المتبالمين ، حتى أن بعض الأذكيا جمعوا لفظ الولي معادلاً للفظ «بليد» ، ملاحظين أن تيفك العبارتين متساويتا المعنى والقيمة العددية للحروف المكونة لكل منهما . إذ أن «ولى» مكونة من الواو واللام والياء ، وقيمة كل على التوالى ٦ ، ٣٠ ، ١٠ أى ٤٦ ؛ و«بليد» مكونة من الباء واللام والياء والدال ، وهى على التوالى ٢ ، ٣٠ ، ١٠ ، ٤ ، ومجموعها ٤٦ . وكثيراً ما يسمى النبي ولياً للدعاة .

ويعتقد مسلمو مصر وغيرها من البلدان اعتقادات باطلة عجبية بالأولياء . وقد حاولت أن أستفهم عن أكثر هذه الاعتقادات غموضاً ، فكان الرد على : «إنك تتدخل في أمور (الطريقة)» ، أى منهج الدراويش الدينى . إلا أننى وقفت على كثير من الآراء العامة في هذه الموضوعات . وأظن أن ذلك هو كل ما يطلب تقريره في كتاب مثل هذا . وسأورد مع ذلك أقوال بعض المعلمين والدراويش فيما يتعلق ببيان إيمان العامة

كل من يرتاب في وجود الأولياء يُرمى بالمرموق ؛ ويتلى للحكم عليه نص القرآن : «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» . ويعتبر هذا النص كافياً للدلالة على أن هناك طبقة من الأفراد متميزة على البشر العاديين . وقد

بتسائل ، من هؤلاء الأشخاص أو ما حالهم ؟ والرد على ذلك ، أنهم أشخاص
قصروا أنفسهم على عبادة الله واحتفظوا بإيمان صادق ، ومن الله عليهم بالقدرة على
فعل الكرامات تبعا لقوة إيمانهم (١)

يسمى أقدس الأولياء « قطبا » ؛ ويحمل هذا اللقب ، على رأى بعضهم ،
رجلان ، ويقول البعض الآخر أربعة . وتعنى عبارة « قطب » محورا ، ومن ثم
أطلقت هذه الكلمة على الولي الذي يثق به الناس ويتبعونه . ويطلق هذا اللفظ
للسبب نفسه على الحكام الزمانيين أو السادة الأجلاء . وقد أُخبرت أن الرأى
القائل بأربعة أقطاب خطأ شائع ، أصله توالى ذكر عبارة (الأقطاب الأربعة)
التي تشير إلى مؤسسى أشهر الطرق الصوفية (الرفاعية والقادرية والاحمدية
والإبراهيمية) ؛ ويُعتقد أن كلاً من هؤلاء كان قطب زمانه . وقيل لى أيضاً أن
الرأى القائل بقطبين خطأ عام ، أساسه اسمان : (قطب الحقيقة) و(قطب الغوث) ،
لا يختص بهما على الأصوب غير شخص واحد فقط . ويطلق الذين يعتقدون
بوجود قطب واحد عليه عبارة (القطب المتولى) ، وهو الحاكم الآن ، والذين
يعتقدون بوجود قطبين ، على القطب العامل . وبحكم القطب الذى يراقب الأولياء
جميعهم (سواء أكان هناك قطب آخر أم لم يكن ، لأنه إذا وجد يكون دون
الأول) أولياء متفاوتى الرتب يقومون بأعمال مختلفة ، مثل النقباء والأنجباء
والأبدال الخ ؛ وهم يعرفون وظائف بعضهم بعضاً ، وقد يعرف ذلك الأولياء
الآخرون .

ويقال إن القطب كثيراً ما يظهر ، ولكنه لا يعرف ؛ وكذلك أتباعه ذوو السلطة .
وهو يظهر دائماً متواضعا رث الثياب . ولا يشهد فى مؤاخذه من يخالف الدين
أو يتظاهرى بالتقوى . ومع أن القطب يخفى دائماً فإن أيا كان وجوده معروفة ،
ولكنه قليلا ما يظهر فيها . والمعتقد أن القطب يكون فوق الكعبة . وهو يصيح
مرتين فى جوف الليل قائلا : « يا أرحم الراحمين » ، فيردد المؤمنون حينئذ ذلك
الدعاء من أماكن الكعبة . وقد سألت حاجا فاضلا فى هذا الموضوع ، فأقر لى أنه
رأى بعينه إماما مرتبا ليصيح هذه الصيحة . ولا يعرف ذلك غير القليل من

(١) ويسمى ما يقوم به الولي من مجائب « كرامة » وما يأتيه الرسول « معجزة »

الحجاج . ويعتقد مع ذلك أن سطح الكعبة مركز القطب الرئيسي . ويفضل هذا المجهول الموقر من كزاً آخر بباب القاهرة المسمى باب زويلة ، وهو في الطرف الجنوبي من ذلك القسم الذي يكون المدينة القديمة ، وإن كان في قلب البلد الآن ؛ فقد امتدت العاصمة كثيراً نحو الجنوب والغرب . ويسمى العامة باب زويلة « التولى » (١) لاعتقادهم أنه مركز هذا الكائن المجهول . ومن وراء أحد مصراعي الباب العظيم ، الذي لا يقفل أبداً ، فضاء صغير يقال إنه مكان القطب . ويقرأ الكثير من المارين الفاتحة ؛ ويتصدق البعض على سائل يجلس هناك ، ويعتبره الرعاع أحد خدام القطب . ويدق المصابون بالصداع مسماراً في الباب لفك السحر . كما أن المصابين بوجع الأسنان يخلعون سنّاً ويولجونها في أحد شقوق الباب ، أو يلصقونها به بأي حال آخر ، حتى يضمنوا عدم إصابتهم بالمرض نفسه . وكثيراً ما يحاول بعض الفضوليين الاختباء وراء الباب ، أملين عبثاً اختلاس النظر إلى القطب ، لعله يظهر هناك . وللقطب في مصر مراكز أخرى أقل شهرة . أحدها في قبر السيد أحمد البدوي بطنطا ، والآخر في مدينة المحلة وغيرها . ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة إلى القاهرة أو من مكان إلى آخر في لحظة . ولا يقتصر القطب على سكنى أما كنهه العديدة المفضلة ، وإنما ينتقل في أنحاء العالم ، بين جميع البشر من مختلفي الأديان ، متخذاً شكلهم وملبسهم ولفظهم ، ويوزع عليهم بواسطة أتباعه الأولياء أحكام القدر نعماً ونقماً . وحينما يموت قطب يتولى غيره مكانه في الحال .

ويروي الكثير من المسلمين أن إلياس ، ويخلطه العامة بالخضر (٢) ، كان قطب زمانه ، وأنه يولّي الأقطاب المتعاقبين ؛ إذ يقررون أنه لم يمت ، ويزعمون أنه شرب من عين الحياة . ويبدو أن اعتقادهم في القطب مأخوذ مما قص علينا في التوراة عن إلياس ورفعته إلى السماء ، وانطلاقه من مكان لآخر تحمله روح الله ،

(١) عوضاً عن باب التولى .

(٢) لم يكن الخضر حسب رأى العلماء رسولا وإنما كان رجلاً صالحاً . كان وزير ذى القرنين الأول ومستشاره ، ولكنه على حد سواء رجل ملتبس في أمره معاصر لسيدنا إبراهيم ، ويقال إن الخضر شرب من ينبوع الحياة وهو لذلك حي حتى يوم الحساب ، وأنه يظهر كثيراً للمسلمين في حيرتهم ، ويلبس الخضر الملابس الخضراء ومن ذلك اشتق اسمه .

ومنحه أليشع سلطته الخارقة للعادة وتقليده إياه وظائفه ، وخضوع الرسل الآخرين له ولوليه المباشر ^(١) . وينبذ بعض الأولياء لذات الدنيا وصحبة الإنسان ، ويمكفون على التأمل في السماء وينقطعون للصلاة متوكلين على العناية الإلهية لسد حاجاتهم ، إلا أن خلوتهم تعرف ، فيحضر العرب لهم الطعام يومياً . وهذا يذكرنا مرة أخرى بقصة إلياس ، إذا وضعنا ، كما يرى بعض الناقدين ، كلمة (عرب) بدلا من لفظة (غريان) في الآيتين الرابعة والسادسة من الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثاني : « وقد أمرت (العرب) أن تعولك » ، « وكانت (العرب) تأتي إليه بخبز » .

ويقال إن القطب يكلف بعض الأولياء القيام ببعض الأعمال الشاقة ، حسب قول محدثي ، ويقال لهؤلاء الأولياء (أصحاب الدرك) . وقد فسرت لي هذه العبارة ، ولا أعلم على أساس ، بمعنى المراقبين ^(٢) . وقد حكى لي الحكاية التالية لبيان وظائف هؤلاء : اشتدت رغبة أحد تجار هذه المدينة الأتقياء في أن يصير ولياً ، فتوجه إلى آخر ينتمي لهذه الطبقة المقدسة فتوصل إليه أن يساعده على التشرف بمقابلة القطب . وبعد أن احتمل الطالب امتحاناً صارماً لمعرفة بواعثه ، طاب منه أن يتوضأ مبكراً في الصباح التالي ثم يقصد مسجد المؤيد ، حيث يوجد بإحدى زواياه باب زويلة أو المتولى السابق ذكره ، فيقبض على أول من يراه خارجاً من الباب لهذا المسجد . وفعل الرجل ما قيل له . وكان أول من خرج رجل شيوخ مهيب المنظر ، ولكنه رث الثياب يلبس زعبوطاً من الصوف أسمر اللون ، وقد دل ذلك على أنه القطب . فقبل الطالب يده وتضرع إليه أن يقبله بين أصحاب الدرك . فقبل القطب التماسه بعد تردد طويل ثم قال : « التزم القسم الذي يشمل الدرب الأحمر ^(٣) وما يجاوره » . وفي الحال وجد الطالب نفسه

(١) أنظر سفر الملوك الأول الإصحاح ١٨ آية ١٢ والملوك الثاني الإصحاح الثاني ٩ - ١٦ .

(٢) ووافق هذا التأويل تفسيراً ذكره كاترمير Quatremère لكلمة (درك)

في كتابه تاريخ السلاطين المماليك Histoire des Sultans Mamelouks الجزء الأول ص ١٦٩ وقد استخرج هذا التفسير من مقابلة عدة عبارات جاءت بها هذه الكلمة .

(٣) وهو شارع يوصل من باب زويلة إلى الجنوب الشرقي ويكون جزءاً من الشارع الكبير الذي يمتد إلى القلعة .

ولما ، ولاحظ أنه يعرف أشياء تخفى على البشر العاديين ، إذ يقال إن الله يعلم الولي جميع الأسرار اللازمة معرفتها . ويقال عادة إن الولي يعلم الغيب ؛ ويبدو هذا مناقضاً لما نقرأ في عدة مواضع من القرآن ، أنه لا يعلم الغيب غير الله . إلا أن المسلمين ، وهم قلما يرتبكون في مناقشة ما ، يبينون أن عبارات القرآن يقصد بها معرفة الأسرار بمعناها المطلق ، وأن الله يطلع الأولياء على مثل هذه الأسرار كلما شاء ذلك .

ولما تولى الولي السابق ذكره أعماله أخذ يتجول في قسمه . فرأى بائع فول يبيع لحرفائه كالعادة ، فتناول حجراً وكسرها قدر الفول . فقفز البائع إليه وتناول جريدة بالقرب منه وضرب الولي بها ضرباً مبرحاً . ولم يشك الولي ولم يصرخ وانصرف حين أذن له . وحاول بائع الفول بعد انصراف الرجل أن يلتقط بعض ما تفتأ من القدر ، وكان قد بقي منها قطعة في مكانها ؛ فلما نظر فيها رأى شيئاً ساماً مميماً . فصاح مرتاعاً مما فعل : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! أستغفر الله العظيم . ماذا فعلت ؟ هذا الرجل ولي وقد أتلّف الفول الذي كاد يسم حرقاًني » . وجعل ينظر إلى كل مار طول هذا اليوم عسى أن يرى مرة أخرى الولي الذي أساء إليه ليستغفره . ولكنه لم يره لأن الولي كان مرضوض الجسم لا يستطيع أن يمشي . وفي اليوم التالي نهض الولي بالرغم من ورم أعضائه ، وأخذ يخرج خلال قسمه ، فكسر جرة لبن كبيرة في دكان لا يبعد عن دكان بائع الفول كثيراً ؛ فعامله اللبان معاملة الفوال . وبينما كان يضربه ، أسرع بعض الناس إليه وأخبروه أن هذا الرجل الذي يضربه ولي ، ثم سردوا عليه قصة الحية التي كانت في قدر الفول ، وقالوا اذهب وانظر جرتك فستري فيها شيئاً ساماً أو نجساً . ونظر الرجل فوجد في بقية الجرة كلباً نافقاً . وفي اليوم الثالث سار الولي في الدرب الأحمر يمرج على عصا متألماً ، فرأى خادماً يحمل على رأسه صينية عليها أطباق من اللحم والخضر والفاكهة ، أعدت لجماعة كانوا ذاهبين إلى النزهة في الريف ؛ فوضع الولي عصاه إذ ذاك بين رجلي الخادم فقلبه ، وتناثرت محتويات الأطباق في الشارع . فأخذ الخادم يصب على الولي اللعنات ويضربه ضرباً عنيفاً ؛ وتجمع الناس ، ولاحظ أحدهم كلباً يأكل من هذا الطعام ثم لم يلبث أن نفق . فسارع إلى منع الخادم من ضرب الرجل ، وأخبره بالحادث الذي أثبت ولايته .

جعل الخادم يعتذر للولى ويرجوه أن يصفح عنه . غير أن الرجل سمَّ وظيفته الجديدة فابتهل إلى الله وإلى القطب أن يعفى منها ؛ وأجيب إلى توسلاته واستردت قدرته الخارقة للعادة . فعاد إلى دكانه وهو أسعد من قبل .
هذه القصة يتقبلها القاهريون كأنها حقيقة ، ومن ثم أدرجتها هنا . لأنها عند الكلام على الخرافات نواجه الآراء أكثر مما نواجه الأفعال . ولست متأكداً أن القصة جميعها كاذبة ؛ فقد يكون هذا الولى المزعوم قد استخدم من يدخل الثعبان أو السكب في الوعاءين اللذين كسرها . وقد قيل لى إن أكثر من واحد قد اشتهر بالولاية بمثل هذه الحيل .

وفي مصر أولياء كثيرون يتعسفون تقشف النساك الهنود . وفي القاهرة الآن ولى طوق عنقه بالحديد ، وشد نفسه إلى أحد جدران غرفته ، وظل على ذلك ثلاثين عاماً ، كما يقال . ويزعم البعض أن هذا الولى كثيراً ما شوهد متدراً كالنائم بملءة ، ثم بعد ذلك مباشرة تزاح الملءة عنه ، فلا يجدونه تحتها . ويذكر هذه القصص ويؤمن بها قوم يهتمون بالعقل الرشيد والضحك من هذه القصص أو عدم تصديقها يثير السخط الشديد . وقد حكي لى أخيراً أن ولياً قطع رأسه لجرم لم يرتكبه ، فتسكلم بعد فصل رأسه عن جسده^(١) ؛ وأن آخر حز عنقه في أحوال مشابهة ، نخط دمه على الأرض إعلان براءته : أنا ولى من أولياء الله وقد مت شهيداً .

وهناك ظاهرة غريبة في خلق المصريين وغيرهم من الشرقيين ، وهى أن المسلمين والمسيحيين واليهود يتخذون خرافات بعضهم بعضاً ، بينما يعمقون العقائد الأصلية . وقد يستخدم المسلمون عند المرض قسوس النصارى واليهود للدعاء لهم ؛ وكذلك النصارى واليهود يدعون الأولياء المسلمين للغرض نفسه . ومن المألوف أن ترى المسيحيين يترددون على الأولياء ، فيقبلون أياديهم ويسألونهم الدعاء والنصح ، ويجزلون لهم المال والعطايا .

وينسب المسلمون إلى الرسول معجزات كثيرة لا يقرها الإسلام . وهم يقولون

(١) مثل رأس الحكيم «دوبان» في قصص ألف ليلة وليلة .

أن هناك معجزات كثيرة لا تزال تتم إكراماً للنبي وشاهداً على رعاية الله له .
ويروى الحجاج الذين زاروا المدينة أنهم يرون كل ليلة شمعاً من النور الكامد
يشع من قبة القبر النبوي إلى ارتفاع هائل ؛ إلا أن الشمع يخطفى عن الناظر
عند ما يقترب من القبر^(١) . وهذه معجزة من أكثر المعجزات اعتباراً ويروون
أنها تشهد للآن . وقد سألت أحد أصدقائي الحصفاء عن صحة هذا الزعم ، فأيده
وجزم أنه كان يرى الشمع كل ليلة مدة إقامته بالمدينة . وقال : إن ذلك دليل على
رضا الله وإكرامه لسيدنا محمد (ص) ؛ ولم أجرو أن أستفهم عن حقيقة ما يزعم
رؤيته بعينه ، ولا الإشارة إلى أن أكثر الأنوار التي تضاء في المسجد كل ليلة
قد تحدث ذلك الأثر . غير أني سألت صديقي أن يصف لي بناء القبر وقبته الخ ،
فأجاب أنه لم يدخل الضريح ولا الكعبة لاضطراب أعصابه ، نتيجة لإعظامه هذه
الأماكن المقدسة وخاصة قبر الرسول الذي يؤثر فيه تأثيراً شديداً ، ولأنه حنفى
المذهب ، لا يليق به أن يسير فوق هذه الأرض المقدسة ويتعرض كل حين لمكاره
المشي حافياً ؛ ومن ثم كان عليه في هذه الحالة أن يلبس خفاً داخل الحذاء الخارجي
وهذا ما لا يقدر عليه . ويزعم الحجاج أيضاً أنهم يرون دائماً ، على مسير ثلاثة أيام
من المدينة ، نوراً في اتجاه المدينة المقدسة ، ويمتقدون أنه ينبعث من قبر الرسول .
ويقولون إنهم حينما يتجهون يشاهدون هذا النور تجاه المدينة . ولهذه الروايات
جمال يؤثر في النفوس .

ويحمل المسلمون ، وبخاصة المصريون^(٢) ، على اختلاف مذاهبهم ، ما خلا
الوهابيين ، للأولياء المتوفين احتراماً وتقديساً لا سندهما في القرآن أو
الأحاديث ، أكثر مما يحملون للأحياء منهم . ويشيدون فوق أغلب قبور
الأولياء المشهورين مساجد كبيرة جميلة . وينصبون فوق قبور من هم أقل

(١) يقال أيضاً أن هناك ظواهر مشابهة أقل بهاء تميز بعض قبور المدينة وغيرها .
(٢) ويوجد عادات خرافية كثيرة ، يراعونها في الكثير من أعمالهم العادية ، نتيجة
لاحترامهم المفرط للرسول وللأولياء على العموم . كأن يقولون عادة عند إضاءة المصباح ،
في الدكاك خاصة : « اذكر محمداً ولا تنس فضائل علي ، الفاتحة للرسول ولكل ولي » .
ثم يقرأون الفاتحة . ويقولون عادة عند ما يرون الهلال الرؤية الأولى : « اللهم صلى على سيدنا محمد ،
اللهم اجعلك شهراً مباركا » . وعندما ينظرون أنفسهم في المرآة : « اللهم بارك في سيدنا محمد » .
وإذا كان هذا القول يصدر إبطالاً للحسد ، فالظاهر أن العربي يخشى أثر نظرة إعجابه بنفسه أيضاً .

منهم شهرة بناء صغيراً مبيضاً بالكلس ومتوجاً بقبة . ويقام فوق القبر مباشرة نصب مستطيل من الحجر أو القراميد ، يسمى « تركيبة » ، أو من الخشب ، ويسمى « تابوتا » ؛ ويغطي النصب عادة بالحجر أو الكتان المطرز ببعض الآيات القرآنية ويحيط به قضبان أو ستر من الخشب ، يسمى « مقصورة » . وأكثر أضرحة الأولياء في مصر مدافن إلا أن أكثرها يحتوي على آثار قليلة لهم ؛ وبعضها ليست إلا قبوراً فارغة أقيمت تذكراً للميت . وأكثر هذه المقامات قدسية مقام الحسين ، إذ يقال إن رأس الحسين الشهيد مدفون به . ومنها أيضاً مسجد السيدة زينب ، وهو دون الأول قدسية ، ومسجد السيدة نفيسة ، ومسجد الإمام الشافعي الذي ينتمي إلى مذهبه أكثر القاهريين . وتوجد هذه الأبنية السابقة ، ما خلا الآخرين ، داخل العاصمة . أما مسجد السيدة نفيسة فهو في إحدى الضواحي الجنوبية ، ومسجد الإمام الشافعي في المقبرة الجنوبية الكبيرة .

ويزور المصريون هذه الأضرحة وغيرها أحياناً ، إما إجلالاً للميت ، وقياماً بأعمال تستحق الثواب لأجل هؤلاء المكرمين ، معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات ، وإما بقصد التماس البرء من مرض أو طلب النسل ، مقتنعين أن فضائل الميت تكفل قبول دعواتهم قبولاً مرضياً . ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ، ويقدمون لهم النذور . ويحجي الزائر عند وصوله الضريح الميت بالسلام ، ويسلم عليه أيضاً عند دخوله المدفن . ولكني أعتقد أنه قلما تراعى هذه العادة الأخيرة . ويواجه الزائر رأس الميت ، ومن ثم يولى القبلة ظهره . ويطوف حول المقصورة من اليسار إلى اليمين ، ثم يقرأ الفاتحة بصوت لا يسمع أمام باب المقصورة أو أمام جوانبها الأربعة . وقد يتلو بمد ذلك سورة أطول من الفاتحة ، كما قد يتلو في هذه الحالة (خاصة) . ويقرأ هذه الأدعية لأجل الولي وإن كان يعتقد أيضاً أن الأجر ينعكس على الزائر الذي يتلو الصلاة . ويختم الزائر ذلك عادة بقوله : « إني وهبت ما قرأت من القرآن الكريم إلى من نذر له هذا المكان » أو « إلى روح هذا الولي » . ويبقى ثواب ما قرئ للقارئ وحده إذا لم يبين ما سبق أو لم يقصده ويبتهل الزائر بعد تلاوة هذا إلى الله لاستدراار النعم فيقول عادة : « اللهم أتوسل إليك بالرسول وبمن وقف له هذا المكان أن تهبني هذه النعمة وتلك الأخرى »

أو « حملى على الله وعليك يا من كُرتس لك هذا المكان » . ويواجه البعض وهو يفعل ذلك جانباً من جوانب المقصورة . ويقال إن اللائق أن يواجه الإنسان المقصورة والقبلة ، ولكنى أعتقد أن القاعدة نفسها تراعى في هذه الحالة كما تراعى في السلام ؛ وتوضع اليدين أثناء ذلك وضع الاتبها للخاص عقب الصلاة العادية ثم تسحبان بعد ذلك على الوجه . ويقبل الكثير من الزائرين عقبه باب المقام وجدرانه ونوافذه ومقصورة الخ ... إلا أن الشديد المحافظة يستقبح هذا لاعتباره تقليداً لعادة مسيحية . ويوزع الأغنياء والميسورون عند زيارتهم قبور الأولياء المال أو الخبز على الفقراء . وكثيراً ما يمنحون السقائين نقوداً ليصرفوا الماء على الفقير والظلمان إكراماً للولى^(١) . وهناك أيام خاصة في الأسبوع لزيارة بعض الأضرحة . فيزور الرجال مسجد الحسين على الأكثر يوم الثلاثاء ، والنساء يوم السبت . ويزورون مسجد السيدة زينب يوم الأربعاء ، ومسجد الإمام الشافعى يوم الجمعة . والعادة في هذه الحالات أن يحمل الرجال معهم آساً يضعون بعضه على النصب أو فوق الأرضية داخل المقصورة ، ويأخذون الباقي ثانية لتوزيعه على الأصدقاء . ويضع الفقير أحياناً خوصاً ، كما يفعل أغلب الناس على قبور الأصدقاء والأقارب . وتضع نساء القاهرة بدل الآس والخوص ورداً وزهوراً ويسمينها الخ . لا تكاد القرية المصرية تخلو من ضريح ولى يزوره الكثيرون ، ولا سيما النساء ، في يوم خاص من الأسبوع . ويحمل بعض النساء إلى هنالك خبزاً للمايرين الفقراء وغيرهم . ويضع بعضهم أيضاً قطعاً نقدية صغيرة فوق القبر ، مقدمة للشيخ أو صدقة لأجله . وقد اعتاد الفلاحون كذلك أن يندروا لأولياهم ذبائح . مثال ذلك أن ينذر الرجل للشيخ فلان (المتوفى) ماعزاً أو ضأناً إذا أبل من مرض أو أنجب ولداً أو بلغ مرأماً ، فيضحى بالذبيحة عند قبر الشيخ ، إذا قضى حاجته ، ويولم بلحم النذر للفقراء . وثواب ذلك يبقى للولى . وكثيراً ما ينذر الجداء الصغيرة لتذبح في المستقبل ، فيشرم أذنهما اليمنى أو يعلها بعلامة ما . وليس من النادر أن ينذر الفلاح نذراً لا يبتغى منه شيئاً غير البركة . وقد ينذر أحياناً عجلاً يذبحه حين يكبر ويسمن . فيترك العجل طليقاً يرعى برضاء الجيران

في كل مكان ، حتى حقول القمح . ثم يذبح المعجل ويؤدب بلحمه مأدبة عامة .
وكثيراً ما ذبحت ثيران كبيرة بهذه الطريقة .

يكرم كل ولى مشهور تقريباً بالاحتفال بمولده . فيزور الناس قبره في ذلك
اليوم تبركاً ، ويستأجرون الفقهاء لتلاوة القرآن على روح الولى . ويقوم
ال دراويش بالذكر . ويلقى من يسكن بجوار الضريح مصابيح أمام أبوابهم ،
ويقضون نصف ليلهم في التدخين واحتساء القهوة والاستماع إلى رواية القصص في
المقاهى أو تلاوة القرآن والأذكار . وأمام بابى الآن عدة مصابيح علقت احتفالاً
بمولد شيخ يجاور ضريحه المنزل الذى أسكنه . وكثيراً ما يلقى المسيحيون
المصريون كذلك المصابيح في مثل تلك الأحوال . وتستمر هذه الأعياد بضعة أيام
غالباً . وأشهر موالد القاهرة بعد المولد النبوى مولدا الحسين والسيدة زينب ،
وقد وصفتهما في فصل لاحق من الأعياد الدورية العامة في مصر . ولا يواصل
أكثر المصريين زيارة قبور الأولياء المشهورين للتبرك فحسب ، وإنما يواصلونها
خشية نزول المصائب بهم إذا قصرُوا في ذلك . وهكذا يقاسى الآن أحد معارف
مرضاً يعزوه إلى إهماله حضور مولد السيد أحمد البدوى في العامين الأخيرين ،
وقد جاء أوان الاحتفال بأحد موالده . ويكاد ضريح هذا الولى يجتذب زائرين من
العاصمة وأنحاء مصر السفلى أثناء الموالد السنوية الكبيرة بقدر ما تجتذب مكة
حجاجاً من أنحاء العالم . ويقام للسيد البدوى ثلاثة موالد سنوية إكراماً له .
ويقام أحدها حوالى اليوم العاشر من شهر طوبه (١٧ أو ١٨ يناير) والثانى في
الاعتدال الربيعى^(١) أو نحو ذلك ، والثالث وهو المولد الكبير يقام بعد الانقلاب
الصيفى بشهر تقريباً (أو حوالى منتصف شهر أيب) عندما يزيد ارتفاع النيل
ولم تقطع السدود بعد . ويستمر كل مولد ثمانية أيام ، فيبدأ يوم جمعة وينتهى
بعد ظهر الجمعة التالية . وتقام في كل ليلة ألعاب نارية . ويحتفل بمولد السيد
إبراهيم الدسوقي بعد كل الموالد السابقة بأسبوع في دسوق على الضفة الشرقية
من فرع النيل الغربى . وكان السيد إبراهيم ولياً ذائع الصيت بلى السيد البدوى
في الشهرة . وتعتبر موالد السيد البدوى والسيد إبراهيم الدسوقي أسواقاً عامة

(١) ويسمى (شمس الكبيرة) .

فضلاً عن كونها أعياداً دينية . وقيم أكثر زائري مولد السيد إبراهيم في
مراكبهم . ويعرض بعض دروايش السعدية من أهل رشيد ألعابهم بالثعابين ،
ويحمل بعض هؤلاء ثعابين شدد فيها بحلقة فضية وقاية من لدغها ؛ وبأكل آخرون
بعض هذه الثعابين حية . ولا يزيد الاحتفال الديني في الموالد جميعاً على إقامة
الذكر ^(١) وتلاوة القرآن . وقد جرت العادة أن يقوم المسلمون ، كما كان يفعل
اليهود ، بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها وتغطية الترابية
أو التابوت أحياناً بغطاء جديد ؛ وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعل
اليهود ^(٢)

يكثر الدراويش في مصر كثرة عظيمة ؛ ويحترم المصريون ، وخاصة الطبقات
السفلى ، هؤلاء الذين يكفون على الرياضة الدينية ويمشون على الصدقة ، احتراماً
كبيراً . ويستخدم بعض الدراويش الحيل المختلفة للاشتهار بقداسة فائقة وقدرة
القيام بالكرامات . ويعتبر الكثير منهم أولياء .

ويحمل من ينحدر مباشرة من ذرية أبى بكر ، أول الخلفاء ، لقب « الشيخ
البكرى » ، ويعتبر ممثل ذلك الخليفة ، ويسيطر على جميع طوائف الدراويش
بمصر . ويعتبر الشيخ البكرى الحالى ، وهو أيضاً من سلالة النبي صلى الله عليه
وسلم ، نقيب الأشراف . ولعمر أيضاً ممثل هو « شيخ العنانية » أو « أولاد
عنان » ، وهم طائفة من الدراويش سموها هكذا باسم « ابن عنان » أحد شيوخهم
المشهورين . وليس لعثمان ممثل ، إذ أنه لم يترك خلفاً . ويسمى خليفة على « شيخ
السادات » ، وهو لقب دون لقب « نقيب الأشراف » . ويدعى كل شيخ من
هؤلاء الثلاثة صاحب « سجادة » سلفه العظيم . وكذلك شيخ الطائفة من
طوائف الدراويش يسمى صاحب « سجادة » مؤسس الطائفة . وتعتبر السجادة
العرش الروحي . وفي مصر أربع سجاجيد كبيرة ؛ وهى لملك الطوائف الكبيرة
التي سأذكرها الآن

أشهر طوائف الدراويش في مصر ما يأتى :

(١) سأصف الذكر وصفاً تاماً في فصل آخر عن الأعياد الدورية العامة

(٢) أنظر لمنجيل متى ٢٩/٣٢ .

أولاً : طائفة (الرفاعية) . أسسها السيد أحمد الرفاعي الكبير . وأعلام الرفاعية وعمائمهم سوداء ، وقد تكون العمائم من الصوف الحالك الزرقة أو الموصل القاتم الخضرة . ويشتهر دراويش الرفاعية بأعمالهم العجيبة ^(١) . ويدعى (العلوانية) أو (أولاد علوان) وهم فرقة من الرفاعية أنهم يفرزون المسامير الحديدية في أعينهم وأجسامهم دون أن يقاسوا ألماً . والظاهر أنهم يفعلون ذلك بطريقة تخضع من يصدق مثل هذه الأعمال . وهم يحطمون أيضاً على صدورهم كتلاً من الحجارة ويبتلعون الحجر والزجاج . ويقال إنهم يخترقون أجسامهم بالسيوف ، وخديهم بالمسلات دون ألم أو جرح . غير أنه قلما تشاهد هذه الألعاب الآن . وكانت العادة كما أخبرت أن يقوم الدرويش بتجويف قطعة من جذع النخل ويحشوها بخرق غمست في الزيت والقطران ويشعلها ، ثم يحمل هذا الجسم الملتهب تحت ذراعه في موكب ديني وليس على جسده غير سروال فينبعث اللهب على صدره وظهره ورأسه ولا يبدي ألماً . و (السعدية) فرقة أخرى من الرفاعية أشهر من الأولى أسسها الشيخ سعد الدين الجبأوى . وأعلامها وعمائم أعضائها خضراء ، وقد تكون العمائم قائمة . ويوجد في هذه الطائفة دراويش يسكنون الثعابين السامة والعقارب بلا خوف ، ويلتهمون بعضها . إلا أنهم ينزعون أنياب الثعابين حتى يأمنوا شرها . ولا شك أنهم يعدمون العقارب سمها أيضاً . ويركب شيخ السعدية في بعض المناسبات كولد النبي (صلعم) حصاناً ويسير به على أجسام بعض دراويشه وغيرهم وهم راقدون على الأرض ؛ ويقرر جميعهم أن وطء الحصان لم يؤذم ^(٢) ويسمى هذا الموكب « الدوسة » . ويعيش الكثير من دراويش الرفاعية والسعدية على إخراج الثعابين من البيوت . وسأتكلم عن براعة هؤلاء المشعوذين في فصل آخر .

ثانياً : (القادرية) . أسسها السيد عبد القادر الجيلاني النبيه الذكر . ويشارك القادرية وعمائمهم بيضاء . وأغلبهم صيادون ؛ فيحملون في الموكب الدينية شبكا مختلفة الألوان يرفمونها على دعائم تميزاً لطائفتهم .

ثالثاً : (الأحمدية) . وهم طائفة السيد أحمد البدوي . وهذه الطائفة كثيرة العدد

(١) ويعتبر دراويش مصر أقل مهارة من الهنود في ألعاب الشعوذة .

(٢) سأصف هذا وغيره من أعمال الدراويش وصفاً كاملاً في الفصول المتعلقة بالأعياد

ومحل الاحترام . وراياتهم وعمائمهم حمراء . وتعتبر (البيومية) ، ومؤسسها السيد علي البيومي ، و (الشمرأوية) ، ومؤسسها الشيخ الشعراوي^(١) ، و (الشناوية) ، ومؤسسها السيد علي الشناوي ، فرقا من الأحمدية . ويشترك الشناوية في اليوم الأخير من مولد شفيعهم الكبير السيد أحمد البدوي في طنطا بنصيب غريب ، إذ يجرون حماراً في ذلك اليوم ويتركونه يدخل المسجد من تلقاء نفسه . فإذا دنا من الضريح حيث يحتشد الجماهير ، تنف كل من استقطاع بعضاً من شعره كتمويذة ، حتى يصبح جلد الحيوان المسكين عارياً كراحة اليد . وهناك فرقة أحمدية أخرى ، تسمى (أولاد نوح) ، كلها شبان يلبسون « طراير » تملوها شرابة من قطع الجوخ المختلف الألوان ، ويحملون سيوفاً خشبية وسياطاً من الحبال السميك المجدولة ، المسماة « فرقة » ، ويلبسون عدة عقود من الخرز .

رابعا . (البراهمة) أو (البرهامية) وهم طائفة السيد إبراهيم الدسوقي الذي سبق الكلام عن مولده . وأعلامهم وعمائمهم خضراء . وهناك فرق أخرى ينتمى بعضها إلى الطوائف السابقة ؛ ومن أشهرها (الحفناوية) و (العفيفية) و (الدرداشية) و (النقشبندية) و (المبكرية) و (الليثية)

والإمام بكل عقائد الدراويش وقوانينهم وشعائرم مستحيل ، إذ أن أكثرها مثل عقائد الماسونية ، لا تداع على غير المطلعين على أسرارها . وقد وصف لي درويش أعرفه كيف أخذ « المهد » ، أى ميثاق التعريف بالسر ، وهو يكاد يكون واحداً عند الطوائف جميعها . استقبل شيخ الدرداشية صاحبي هذا ، فتوضأ وجلس أمامه على الأرض . ثم ضم كل من الشيخ والمريد يده اليمنى إلى يد الآخر بالطريقة السابق وصفها عند عقد الزواج . وبهذه الحالة واليدين مغطتان بكف الشيخ أخذ المريد المهد مردداً وراء الشيخ هذا الكلام التالي بادئاً بالتوبة :

« أستغفر الله العظيم (ثلاث مرات) الذي لا إله إلا هو الحي القيوم . أتوب إليه وأستغفره وأسأله النجاة من النار » . ثم يسأله الشيخ هل يتوب إلى الله ؟ فيجيب المريد أنه يتوب إلى الله ، ويرجع إلى الله ، وإنه نادم على ما ارتكب من المعاصي ، ويقرر أنه لا يعود إلى غيه . ثم يردد بعد الشيخ أنه يستخير الله العظيم

(١) تنطق هكذا بدلا من الشعرائي .

والرسول الكريم ، وإنه يولى عليه السيد عبد الرحيم الدمرداش الخلقى الرفاعى النبوى ، محمدياً مثال شيخه ومرشده إلى الله تبارك اسمه وتعالى . وإنه لا يحيد عن تعاليم الطريقة ولا ينفصل عنها ، ويشهد الله على ذلك مقسماً بالله العظيم ثلاث مرات . ثم يقرأ الشيخ ومريده الفاتحة معا . ويختتم المريد الحفل بتقبيل يد الشيخ .

وتقوم أعمال الدراويش الدينية على الذكر خاصة . فيصيحون أو ينشدون ، واقفين فى حلقة مستديرة أو مستطيلة ، أو فى صفين متقابلين ، أو جالسين : « لا إله إلا الله » أو « الله الله الله » ، أو يرددون أدعية أخرى ، ويكررونها حتى تخور قواهم ؛ وهم أثناء ذلك يحركون الرأس أو الجسم جميعه أو الذراعين . ويستطيعون لدأبهم على ذلك أن يواصلوا هذه الحركة بلا انقطاع مدة تثير الدهشة وكثيراً ما يصحبهم من وقت لآخر عازف أو أكثر على « الناي » أو على « الأربوع » وآخرون ينشدون القصائد الدينية . ويستخدم بعض الدراويش أثناء الذكر طبلاً صغيراً يسمى « بازاً »^(١) أو دفاً . ويقوم البعض الآخر برقص غريب سأسفحه مع أشكال مختلفة للذكر فى فصول قادمة .

هناك شعائر درويشية كأشكال الدعاء ، وطرق الذكر الخ ، لا يراعيها غير طوائف خاصة ؛ كما توجد شعائر أخرى تقوم بها الطوائف المختلفة . ونذكر من هذه طقوس (الخلوئية) و (الشاذلية) ، وهما فرقتان كبيرتان لكل منهما شيخ . والفارق الرئيسى بينهما أن لكل منهما أسلوبه الخاص فى الأدعية التى يرددونها صباح كل يوم ، وأن السابقين يتميزون عن الآخرين بالخلوة أحياناً ؛ ومن ثم سموا « خلوتية » . وهؤلاء يتلون دعاءهم قبل الفجر ، ويسمى « ورد السَّحَر » . أما دعاء الشاذلية ، فيقرأونه بعد الفجر ، ويسمى « حزب الشاذلى » . وقد يمتكف الخلقى أربعين يوماً وليلة فى خلوته ، صائماً من بزوغ الفجر إلى غروب الشمس طول هذه المدة . ويمتكف جماعة منهم أحياناً فى خلوات مسجد الشيخ الدمرداش شمال القاهرة ثلاثة أيام وليال بمناسبة مولد هذا الولي ، ولا يتناولون أثناء ذلك غير قليل من الأرز وكوبه من الشراب عند المساء . ويشغلون أنفسهم بقراءة

(١) أنظر وصف هذه الآلات فى فصل الموسيقى .

أدعية لا يعرفها غيرهم ؛ ولا يخرجون من الخلوة إلا للصلاة جماعة في المسجد ، ولا يجيبون أبداً من يكلمهم إلا بقولهم : « لا إله إلا الله » . ويتبع هذا النظام تقريباً أولئك الذين يعتكفون مدة الأربعين يوماً فيقضون الوقت مردين الشهادة سائلين المغف حامدين الله .

يكاد دراويش مصر جميعهم أن يكونوا تجاراً أو صناعاً أو مزارعين . وهم لا يحضرون طقوس بعضهم إلا مصادفة . غير أن بعضهم لا عمل له غير الذكر في الموالد والحفلات الخاصة والإنشاد في الجنازات . ويطلق على هؤلاء لفظ « فقير » ومعنى ذلك الموزع عامة ، إلا أنه يطلق على الأتقياء المساكين خاصة . ويعتاش البعض من تقديم الماء إلى المارة في شوارع القاهرة وزوار الأعياد الدينية . فيحملون الماء على ظهورهم في أباريق من الفخار أو من جلد الماعز . والقليل منهم يسلكون حياة التجول ، ويمشون على الصدقات بلجاجة ووقاحة شديتين . وبعض هؤلاء يميزون أنفسهم على طريقة الأولياء المشهورين بلبس « الدلق » أى السترة المرقعة ، وحمل العصا المعلق في أعلاها قطع النسيج المختلفة الألوان . ويلبس البعض الآخر ملابس غريبة مختلفة الألوان .

ويتخذ بعض الرفاعية ممن لا يحترفون إخراج الثمانيين من المنازل ، حياة التجول في بلاد القطر مستفيدين من خرافة مضحكة أذكروها الآن . كان سى^(١) داود العزب وهو ولى مبجل من بلدة تفاهنة^(٢) في الوجه البحري يملك عجلاً يقوم على خدمته . فتمود بعض الرفاعية منذ وفاته تربية العجول في بلدة هذا الولي أو مدفنه وتعمريها على صعود السلم والاضطجاع عندما تؤمر بذلك ؛ ثم يذهب كل منهم وعجله متجولاً في البلاد لجمع الصدقات . ويسمى العجل « عجل العزب » . وقد دعوت مرة أحد هؤلاء الدراويش إلى منزلى . وكان العجل ، وهو الوحيد الذى رأيته ، جاموساً يتدلى منه جرسان ، أحدهما فى طوق حول عنقه ، والآخر فى حزام حول جسمه . وقد صعد السلم جيداً ، إلا أنه أظهر ضعف مرانه من كل الوجوه . ويعتقد انعاماً أن عجل العزب يجلب إلى المنزل بركة الولي الذى سعى هذا الحيوان باسمه .

(١) « سى » اختصار عانى لكلمة « سيدى » المختصرة من « سيدى » .

(٢) أهلها بلدة « تفهنا العزب » بمركز زفتى مديرية الغربية . (المترجم)

وفي مصر دراويش جواله من الترك والفرس ، وإلى هؤلاء الدراويش تنسب
صفة اللجاجة والوقاحة أكثر مما تنسب إلى القلائل من المصريين الذين يعيشون
معيشتهم . ويحدث كثيراً في شهر رمضان خاصة أن يذهب درويش أجنبي إلى
مسجد الحسين ، الذي يتردد إليه كثير من الترك والفرس ، وقت صلاة الجمعة
فيمر بين المصلين ، عند ما يخطب الخطيب ، ويضع أمام كل امرئ قصاصة من
الورق كتب عليها بمض كلمات نحت على الصدقة . وبهذه الطريقة يتناول من
المصلين كلهم أو غالبهم قطعاً من ذوات الخمسة فضة أو العشرة فضة أو أكثر .
ويحمل الكثير من دراويش الفرص في مصر ملعقة خشبية ، وطاسة مستطيلة من
جوز الهند أو من الخشب أو المعدن ، حيث يتناولون الصدقات ويضعون الطعام .
ويلبس أغلب الدراويش الأجانب ملابس خاصة تبعا لطوائفهم . وأهم ما يميزهم
لباس الرأس ، وأكثر أنواعه شيوعاً ما صنع من اللبد على شكل قالب السكر
المخروطي . وتتكون ملابسهم الأخرى من صدرية وسروال واسع أو آخر ضيق
أو قميص وحزام ، وعباءة غليظة . ويتظاهر الفرص هنا بأنهم سنيون . ويعتبر
الأتراك أكثر الطائفتين إزعاجاً ولجاجة .

وأذكر هنا خرافة أخرى هي اعتقاد المصريين والعرب عامة بأن لاطيور
والحيوانات لغة تفهم بها وتسبح بحمد الله .

(١) ...
(٢) ...

الفصل الحادى عشر

تابع الخرافات

ومن أهم المميزات فى خرافات المصريين المحدثين اعتقادهم بالتأثيم والأحجية التى يستند أكرها على السحر ؛ ويستغل بكتابة هذه التعاويذ أحياناً جميع معلى للكتائب القروية تقريباً . على أنه قلما يدرس من يقوم بهذا العمل شيئاً من السحراً أكثر من الحصول على بعض صيغ من الأحجية ، يتألف معظمها عادة من آيات قرآنية وأسماء الله مع أسماء الملائكة والجن والرسل أو الأولياء المشهورين ، يختلط بها تركيبات عديدة وأشكال هندسية . ويتوهم الناس أن ذلك كله له خاصية خفية عظيمة .

وأكثر الأحجية اعتباراً مصاحف القرآن . وقد جرت العادة أن يحمل أترك الطابقتين الوسطى والعليا ، وغيرهم من المسلمين ، مصحفاً صغيراً فى غلاف من الجلد المزركش أو المخمل يملقونه على الجانب الأيمن بخيط من الحرير يمر فوق الكتف الأيسر . غير أن هذه العادة لم تعد شائعة كثيراً . وقد لاحظت أثناء زيارتى الأولى أنه قلما يرى تركى فاضل من السلك الحربى لا يحمل الغلاف السابق ذكره ، مع أنه كثيراً ما لا يحوى حجاباً . ولا يزال النساء يحملن المصحف وغيره من الأحجية ، فيضعنها فى أغلفة من الذهب أو من الفضة المذهبة أو الساذجة . ويميزو المسلمون إلى المصحف وأكثر الأحجية قوة كبيرة ، ويعتبرونها حافظة من المرض والسحر والحسد وغير ذلك من البلايا .

وهناك كتاب أو درج يسمى بعد المصحف مكانة به سور قرآنية تكون فى العادة سبهما كسور : الأنعام والكهف ويس والدخان والرحمن والملك والنفأ أو غيرها . ويوجد حجاب آخر يوضع عادة داخل غطاء الرأس ، ويعتقد أنه يقي حامله من الشيطان ومن كل روح شريرة . وهذا الحجاب قطعة ورق كتبت عليها

الآيات التالية^(١) : « ولا يؤوده حفظهما وهو العليُّ العظيم » : (سورة البقرة آية ٢٥٥) ؛ « فآله خيرٌ حافظاً وهو أرحمُ الرحيم » : (سورة يوسف آية ٦٤) « يحفظونه من أمر الله » : (سورة الرعد آية ١١) ؛ « وحفظناها من كلِّ شيطان رجيم » : (سورة الحجر آية ١٧) ؛ « وحفظاً من كلِّ شيطان مارد » : (سورة الصافات آية ٧) ؛ « وحفظاً ذلك تقديرُ العزيز العليم » : (سورة فصلت آية ١٢) « والله من وراءهم مُحِيط ، بل هو قرآنٌ مجيدٌ ، في لوح محفوظ » : (سورة البروج الآيات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) . وكثيراً ما تكتب أسماء الله التسعة والتسعون في ورقة يحملها الشخص ، فتجمله كما يعتقد محلاً خاصاً لرعاية هذه الصفات الكريمة جميعها . ويعتقد كذلك أن كتابة أسماء الرسول التسعة والتسعين على أى شيء ، تكون حجاباً ، كما روى الإمام علي عن النبي (ص) ، يبعد كل مصيبة ووباء ويحفظ من الضعف والحسد والسحر والحريق والدمار والقلق والحزن والضيق . ويضيف المسلم ، بعد ذكر كل من هذه الأسماء ، قوله : اللهم صل وسلم عليه^(٢) . وتنسب مثل هذه الخصائص إلى حجاب يتضمن أسماء أصحاب الكهف واسم كلهم^(٣) . وتنقش هذه الأسماء أحياناً في قاع طاسات الشراب ، وغالباً على صينية الطعام المستديرة من النحاس المبيض . وهناك حجاب آخر يظن أن له تأثيراً ماثلاً ؛ ويتألف هذا الحجاب من أسماء مخلقات النبي ، وهي تتألف من سبعين ومصحف ، في أجزاء غير مرتبة ، ومكحلة وسجادتين ورحا وعصاً ومسواك وحلة^(٤) والابريق

(١) وتسمى « آيات الحفظ » .

(٢) كتب إلى أحد الأصدقاء ، وكان أستاذي ، قبل أن أترك منزلي بالقاهرة للعودة إلى إنجلترا ، على قصاصة ورق : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ثم قطعها نصفين وأعطاني النصف المكتوب عليه : محمد رسول الله ، ثم أخفي النصف الآخر في أعلى دولا ب صغير في غرفة الجلوس المعتادة ؛ وذلك لضمان عودتي إلى القاهرة ثانية ، إذ يعتقد أن الشهادة لا يمكن أن تبقى ناقصة ، فيعبدني هكذا دوام الاحتفاظ بالنصف الآخر إلى النصف السابق .

(٣) يقول إن هؤلاء كانوا فتية من نصارى افيزوس Ephesus لجأوا إلى كهف هرباً من اضطهاد الأباطور دقيوس Decius فناموا هناك تحت حراسة كلهم مدة ٣٠٠ سنة شمسية أو ٣٠٩ قرية . (سورة الكهف) .

(٤) يحتفظ في مسجد النوري بالقاهرة بقميص يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلبسه : وقد صر هذا القميص في شال كشميري ولا يعرض لغير الغطاء .

الذي كان يستعمله النبي (صلى الله عليه وسلم) للوضوء ، ونعل وبردة^(١) وثلاث حصر ودرع ورداء طويل من الصوف ، وبغلة الأبيض (الدليل) وناقته (المضياء) . وتكتب أيضاً بعض الآيات القرآنية على قصاصات من الورق يحملها الناس وقاية من الشرور واستشفاء واكتساباً للحب والصدقة الخ . ويحمل الكثير من المصريين المحدثين ، رجالاً ونساء وأطفالاً ، هذه الأحذية وغيرها في أغلفة من الذهب أو الفضة أو القصدير أو الجلد أو الحرير الخ .

ومن الشائع أن ترى الأطفال المصريين يحملون أحذية ضد الحسد^(٢) داخل غلاف مثلث الشكل^(٣) ، يعلق في أعلى غطاء الرأس . وكثيراً ما يعلق على الجياد مملقات مماثلة . ويتقي المصريون الحسد بشقى الاحتياطات ، ويسمعون قلقين لدفع نتائج الوهمية عنهم . وقد يعبر البعض عن إعجابه بشيء إعجاباً يعتبر غير لائق ، فيمنعه من أزعجه هذا بقوله : « صل على النبي » فإذا امتثل الحاسد وقال : « اللهم صل عليه » لا يخشى شره . ومن غير اللائق أيضاً أن يعبر الشخص عن إعجابه بآخر أو بأى شيء لا يملكه بقوله : « يا سلام^(٤) » أو « ما أجمله » . ويستحسن في مثل هذه الأحوال أن يقول : « ما شاء الله » ، التي تشير إلى الإعجاب والخضوع

(١) البردة التي يلبسها فلاحو مصر قطعة مستطيلة من الصوف السميك تشبه الحرام فيما عدا اللون ، إذ تكون على العموم سماء أو قهباء . ويبدو أنها كانت في الأزمنة الأولى مخططة دائماً . إلا أن بعض البرد الحديثة ساذج والبعض الآخر وخطوط متقاربة جداً بحيث تبدو للناظر القريب أنها ذات لون واحد . وتوصف بردة النبي صلى الله عليه وسلم أنها كانت حوالى سبع أقدام ونصف طولاً ، وأربع ونصف عرضاً . وكان يستعملها كما تستعمل الآن لللبس نهاراً والتغطية ليلاً .

(٢) تبين هذه الخرافة عادات كثيرة كانت تبدو خلافاً لذلك غامضة .

(٣) من الملاحظ أن شعوب البحر الأبيض المتوسط يستعملون منذ القدم أشياء أو رسوماً ، تشبه العين إلى حد ما ، طسماً يدفعون به شر العين . ومن ثم يمكننا أن نستنتج أن تلك الشعوب تستخدم تلك الأشياء بسبب هذا التشابه .

ويستخدم المثلث أيضاً ، وكثيراً ما يرمز إلى العين بهذا الشكل ، كحز في بلاد البحر الأبيض والجزيرة العربية والهند . ويذكر أحد الرحالة في القرن السابع عشر L. D' Arvieux في كتاب Travels in Arabia the Desert أن الأتراك والعرب كانوا يستخدمون الأحذية المكتوبة بطونها على شكل مثلث ويضعونها داخل كيس جلدى بالشكل ذاته ، ويعلقونها إلى أعناق الجياد أثناء شر الحاسدين . أنظر وستمارك الفصل الثاني . (الترجم)

(٤) أو « يا سلام سلم » ، ولفظة السلام من أسماء الله .

لإرادة الله أو الرضا بها. فكثيراً ما يكون الأجدر بالمبدى إعجابه أن يقول ما شاء الله
 ويصلى على الرسول . وقد بينت في الفصل الثانى من هذا الكتاب خوف نساء
 مصر من أثر الحسد على أولادهن . والمادة في هذا البلد أن يقول من يحمل ولد
 غيره بين ذراعيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على سيدنا محمد » ، ثم يقول :
 « ما شاء الله » . والشائع أيضاً أن يقول المصرى عندما يبدى إعجابه بصبي : « أعوذ
 رب الفلق لأجلك » ، مشيراً إلى سورة الفلق التى تنتهى بالتعوذ من شر الحسد .
 وقد ينظر بمض الناس إلى طفل ، أو بلوح أنه يحسده ، فيعمد الوالدان أحياناً إلى
 قطعة من أطراف ملابسه ، فيحرقانها مع قليل من الملح . ويضيف البعض إلى ذلك
 الكزبرة وحجر الشب الخ ، ويبخران الطفل بالدخان ويذران عليه الرماد . ويجب
 عمل هذا على ما يقال قبيل الغروب عند ما يحمر قرص الشمس .

ويستعمل المصريون الشب كثيراً لمنع أثر الحسد ، فيضعون على الجر قبيل
 الغروب قطعة منه بحجم الجوزة تقريباً حتى تنقطع عن الفوران . ويتلو من يقوم
 بهذا العمل ، أثناء احتراق الشب ، الفاتحة والسور الثلاث الأخيرة ثلاث مرات .
 ويبدو كما قيل أن الشب عند ما ترفع من النار تتخذ شكل الحاسد . ثم يسحقها
 ويمزجها بقليل من الطعام يرميه إلى كلب أسود لياً كله . وقد شاهدت هذه
 العملية يقوم بها رجل ظن أن امرأته نظرت إليه نظرة حاسدة . وقد أخذت قطعة
 الشب وقتئذ شكلاً يشبه شكل النساء كثيراً ، فقرر الرجل أنه وضع خاص تعودت
 عليه امرأته . إلا أن الشكل الذى يتشكل به الشب يكاد يتوقف على ترتيب الجر ،
 ومن الصعب أن يكون هذا الشكل بحيث لا يرى فيه الخيال بعض الشبه بالإنسان .
 — وهناك طريقة أخرى يقوم الناس أنها تدفع تأثير الحسد ، وهى أن تؤخذ قطعة
 من الورق بآبرة ، ويقول الواخذ هذه عين فلان الحاسد — ويعتبر الشب حجاباً
 ناجماً ضد الحسد . وقد يعلق الناس أحياناً قطعة من حجر الشب مسطوحة
 ومزينة بشراريب فى أعلى غطاء رأس الطفل . وتستعمل الأصداف والخرز بالطريقة
 نفسها وللغرض نفسه . وهناك أصداف صغيرة تعتبر واقية من الحسد خاصة ، تعلق
 فى عدد الجمال والحياض وغيرها من الحيوان ، وعلى غطاء رأس الأطفال أحياناً .
 ولا شك أن هذه المعتقدات يقصد بها جذب العين ، فتمنعها من رؤية الشيء المراد
 حفظه من الحسد .

يستعمل كثير من المصريين ، والنساء غالباً ، « الميعة المباركة » لإبطال الحسد .
 والميعة مزيج من عقاير مختلفة ستذكر فيما بعد ، وتجهز وتباع في الأيام العشرة
 الأولى من شهر محرم فقط . وكثيراً ما نرى حينئذ بائعي الميعة يتجولون في شوارع
 القاهرة صائحين : « يا بركة عاشورا المبارك ^(١) ، أبرك السنين على المؤمنين يا ميعة
 مباركة » . ويحمل بائع الميعة فوق رأسه صينية مستديرة يغطيها بقصاصات من
 الورق المختلف الألوان ، ويضع عليها المزيج الثمين . ويتوسط الصينية كوم كبير
 من نفل مادة قائمة الحمرة تستعمل للصبغة ، وتمزج بقليل من الميعة والسكربرة
 والحبة السوداء ^(٢) . ويحيط بالكوم الكبير أكوام أصغر ، أولها من الملح
 الملون الأزرق والنيلىج ، وثانيها من الملح الملون الأحمر ، وثالثها من الملون الأصفر ،
 ورابعها من الشيخ ، وخامسها من تراب اللبان . وتلك هي مواد الميعة المباركة .
 ويدعو المشترون عادة البائع داخل المنازل ، فيضع الصينية أمامه ، ويتناول صحناً
 أو قطعة ورق حيث يضع من الميعة بقدر رغبة المشتري . فيأخذ من كل صنف
 قليلاً ، ويضيف إليه مقداراً آخر المرة بعد المرة منشداً أثناء ذلك دوراً طويلاً يبدأ
 هكذا : « باسم الله وبالله ، ولا غالب إلا الله ، رب المشارق والمغارب ، كلنا عبيده ،
 يلزمنا توحيد ، وتوحيده جلالة » . وبعد أن يثنى على فضائل الملح يقول : « أرقيك
 من عين البنت ، أحمي من الخشت ، ومن عين المرء ، أحمي من الشرشرة ، ومن عين
 الولد ، أحمي من الزرد ، ومن عين الراحل ، أحد من المناجل .. الخ » . ثم يروى
 كيف أبطل سليمان حسد العين ، ويمدد بعد ذلك الأمتعة التي لا يخلو منها المنزل
 على الأرجح فيرقبها جميعاً من الحسد . وأكثر عبارات هذه الرقية مضحكة جداً ،
 إذ هي ألفاظ أدخلت للسجع فقط . ويحتفظ المشتري بالميعة المباركة ، التي تباع
 الحفنة منها بخمسة فضة ، طول العام التالي ؛ فيحرق قليلاً منها كلما خشي حسد
 العين بحيث يتصاعد الدخان إلى الحسود .

جرت العادة عند طبقات القاهرة العليا والوسطى ، أن يعلقوا ، في احتفالهم
 بالعرس ، القناديل في الطريق أمام منزل العريس . وكثيراً ما يحشد الجمهور حول

(١) هذا هو اسم اليوم العاشر من محرم .

(٢) أو حبة البركة .

قنديل كبير جميل لمشاهدته ، فالمادة حينئذ أن يُلْهوا المشاهدين بكسر جرة كبيرة ، أو بحيلة أخرى حتى لا تسب عين حاسد سقوط القنديل . وكثيراً ما تحدث حوادث تؤيد إيمان المصريين بخرافاتهم المتعلقة بالحسد . ومثل ذلك ما رواه صديق لى : من مدة قصيرة رأى جملاً يحمل جرتى زيت كبيرتين فصاحت امرأة أمام الجمل : يا سلام ! يا لها من جرتين عظيمتين ! ولم يقل الجمال : صلى على النبى ؛ فلم يلبث الجمل أن سقط وكسرت رجله وكسرت الجرتان . وقد أخبرنى أحد أصدقائى القاهريين بشكوى أسردها هنا توضيحاً لما قررت . قال صديق : « لما عدل الباشا عن احتكار بيع اللحم منذ أيام أصبح الجزائريون يذبحون الحيوانات ويبيعونها فى حوانيتهم . ومن المزعج تماماً أن ترى الحروف الجميل معلقاً أمام عين الجمهور كاملاً بأليته ^(١) وأعضائه ، فيشتهيه كل سائل يمر بجانبه فكأنما يتناول المرء سمّاً » وقد شكّا إلى طاهٍ الشكوى نفسها ، فكان يفضل أن يكلف نفسه مشقة الذهاب إلى دكان جزار لا يعرض اللحم على أنظار المارة ولو كان بعيداً . (٢)

يضع الكثير من تجار العاصمة ، وغيرها من المدن المصرية ، على واجهة حوانيتهم ورقة كتب عليها اسم الله أو اسم الرسول أو الإسمان معاً أو الشهادة أو البسملة أو حديث نبوى أو آية قرآنية مثل : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً (سورة الفتح الآية الأولى) نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (سورة الصف آية ١٣) أو ابتهاج إلى الله مثل « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم » . وكثيراً ما ينطق التاجر بهذا الابتهاج عند ما يشرع فى فتح حانوته صباحاً ، وكذلك الباعة

(١) يعتبر دهن الألية لذيذاً .

(٢) لم يذكر المؤلف إحدى الطرق المهمة لمنع الحسد ، وهى « خمسة وخمسة » وتكون برفع اليد إلى وجه الحاسد . وتصنع أحجبة على شكل اليد لذلك الغرض .
ويجد القارىء فى الكتب التالية أبحاثاً وافية عن الحسد ومراجع وافرة :

— Notes sur quelques amulettes égyptiennes. فى . للأستاذ شارل بشتلى ، فى

Bulletin de la Société de Géographie d' Egypte. T. 17

— Amulettes, Talismans et Pantacles تأليف Jean Marquès Rivière. Payot

— Survivances païennes dans la civilisation mahométane. Westermarck

(المترجم)

المتجولون ، كبائعي السلع الصغيرة والخبز والخضر الخ . عندما يخرجون لجولاتهم اليومية . والمادة أيضاً أن يضع الرجل من الطبقة السفلى أول نقد يتناوله على شفته وجهته ثم في جيبه .

وكثيراً ما نرى في القاهرة غير الكتابات التي تعلق على الحوانيت ، هذا الداء « يا الله » يفتش على أبواب الدور الخاصة ، والمبارتين : « الخلاق العظيم هو الباقي » أو « هو الخلاق العظيم الباقي » ترسمان بأحرف كبيرة على الباب ، كحرز وتذكراً لرب الدار أنه بشر يتوفاه الله ^(١) . وكثيراً ما تكتب هذه الكلمات على الدار إذا كان صاحبه السابق أو أغلب سكانه السابقين أو جميعهم قد توفوا .

إن أفضل الوسائل لإبعاد الملل والأمراض كتابة آيات من القرآن ^(٢) في وعاء من الفخار يصب فيه قليل من الماء . ويرج حتى تزول الكتابة ، ثم يشرب المريض الماء المنقوع فيه هذا الكلام المقدس ، وهو ما يلي : ويشف صدور قوم مؤمنين (سورة التوبة آية ١٤) . يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور (سورة يونس آية ٥٧) . فيه شفاء للناس (سورة النحل آية ٦٩) . ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين (سورة الإسراء آية ٨٢) . وإذا مرضت فهو يشفين (سورة الشعراء آية ٨٠) . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء (سورة فصلت آية ٤٤) . ومن هذه الآيات أربع لا تشير إلى أمراض الجسم وإن استعملت لذلك ، بل تشير إلى أمراض العقل . وتشير الآية الثالثة إلى فضائل المسمل . وقد سألت شيخى أن يبين لى موضع هذه الآيات من القرآن فرجاني عندئذ ألا أترجمها بلغتى ؛ لأن ترجمة القرآن بغير ذكر النص الأصلي محرمة ، لأنه خجل من جريان المادة باستعمال هذا الكلام طلسماً فكره أن يعرف مواطن ذلك . وقد أوضح لى اعتقاده التام فى تأثير هذه الآيات حتى على المريض الكافر وأظهر ثقته التامة بقوتها . وقال ملاحظاً : « إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال : لو توكلمت على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفاصاً وتروح بطاناً » . وقد هدأت وسواسه فى ذلك بإخباره أن للقرآن ترجمة إنجليزية

(١) أنظر الباب المنقوش فى مقدمة الكتاب .

(٢) وتسمى آيات الشفاء .

ويعطى المريض أحياناً لشفاء الأمراض وإزالة أثر السموم ، جرعة ماء في طاس معدني نقش بداخله آيات قرآنية ورسوم وأشكال طلسمية . وقد أهدى إلى أخيراً في القاهرة طاسة مثل هذه أعجب بها أصدقائي المسلمون كثيراً . وينقش أيضاً خارج الطاسة كتابات تمدد فضائلها ، وتشير إلى خواصها من إبطال السموم والحسد وشفاء الأمراض والعلل ما عدا مرض الموت . وقد رأيت هنا طاسة أخرى كالسابق وصفها تماماً ، غير أن نقوشها زالت قليلاً . ويعتقد أن أسرار القرآن كثيرة جداً . وفي ذات يوم رفضت أن أتناول طعاماً خشية الضرر ، فنصحت بقراءة سورة قريش إلى آخر « الذي أطعمهم من جوع » ، وأن أردد هذه العبارة الأخيرة ثلاث مرات . وقد جزم لي أن في هذا وقاية أكيدة من كل سوء أخشاه .

هناك أشياء مختلفة يعدها المسلمون كالأحجية ، مثل تراب القبر النبوي وماء زمزم المقدس وستار الكعبة الأسود^(١) . ويقدر المسلمون ماء زمزم كثيراً لأنه يرش على الأكرافان . وسمي أعرابي ، كنت أعطيته في الصعيد أثناء زيارتي الأولى لمصر دواء أفاده ، أسأل عن قليل من ماء زمزم ، إذ أن الكثير من المراكب الفاصلة بالحجاج المائدين من مكة كانت نازلة في مجرى النيل . وربما ظن الرجل لسؤاله هذا أنني مسلم تقي ، ومن ثم منحني ما كنت أحاول الحصول عليه ليمبر عن امتنانه ، فذهب إلى منزل صديق له ، وعاد إلى صركي حاملاً ربطة صغيرة فتحها أمامي قائلاً : « ها هي أشياء أعرف أنك ستقدرها تقديراً عظيماً . هاها علبتان من القصدير مملأتان بماء زمزم ، إحداها لك تحتفظ بها لترشها على كفئك ؛ وهذا سواك غمس في ماء زمزم ، فتقبله مني ، ونظف به أسفانك فلن تؤلمك ولن تتلف أبداً » . وأضاف قائلاً : (وهو يظهر لي ثلاث كمكات من التراب الأشهب صغيرة مستطيلة مسطحة طول كل منها قيراط تقريباً وقد طبع عليها : باسم الله ، تراب من أرضنا ، مزج برين بمضنا) « وهذه صنعت من تراب فوق قبر الرسول صلعم ، وقد اشتريتها بنفسى عند عودتي من الحج ، وإنني أعطيك إحداها ، وستجد فيها شفاء من كل داء ،

(١) يعلق على الكعبة سنوياً ستار جديد في اليوم الأول من عيد الأضحى الذي يتبع الحج مباشرة . ويقطع الستار القديم قطعاً يباع أكثرها إلى الحجاج .

وسأحتفظ بالثانية لى ، أما الثالثة فناكلها معها . وعلى ذلك كسر إحدى الكمكات نصفين وأكل كل منا نصيبه . وقد وافقته على أنها لذيدة وقبلت هداياه مسروراً ، وقد أمكننى فيما بعد أن أزيد ما عندى من تحف عن مكة ومن ذلك قطعة من ستار الكعبة أحضرها الشيخ إبراهيم^(١) (بركهارت) من مكة ، وأعطانى إياها وريشه عثمان . وتوضع الكمكة أحياناً فى غلاف من الجلد وتحمل كتمويذة . وتصنع أحياناً أفراساً على شكل الكثرى الصغيرة وبحجمها ، وتعلق على الستر المحيط بمقام الأولياء أو على المقام ذاته أو على نوافذ المقام أو بابه .

والأحجية التى يستعملها المصريون لجلب السعادة أو منع الشقاء كثيرة ، والعادات الخرافية التى يمارسونها لهذه الأغراض مختلفة بحيث لا يكفى لوصفها مفصلة مجلد كبير . وتسمى هذه الأساليب التى لا يكون أساسها الدين أو السحر أوالتنجيم « علم الرُّكة » ، أو علم المغزل ، إشارة إلى سخافتها ، ولأن النساء يعتمدن عليها غالباً^(٢) . ويعتبر البعض هذه الكلمة تحريفاً عامياً لعبارة « علم الرقية » أى علم السحر ، ويرى البعض الآخر أنها حلت محل العبارة الأخيرة بطريق التورية . وقد ذكرت عرضاً بعض العادات مما وصفته ، وسأذكر بعض أمثلة أخرى .

(١) يوحنا لدفيج بركهارت رحلة ومستشرق سويسرى (١٧٨٤ — ١٨١٧) رحل إلى سوريا ومصر ، وأسلم أو ادعى الإسلام للحصول على معلومات أوفى عن الحياة فى الشرق ، وتسمى باسم إبراهيم بن عبد الله . وحج إلى مكة ، فكان أول أوربى أو مسيحي يدخل الأراضى المقدسة . توفى بالقاهرة ودفن فيها . وله عدة مؤلفات منها : رحلات إلى النوبة رحلات إلى سوريا والأرض المقدسة . الأمثال العربية أو عادات المصريين المحدثين وشمائلهم : (المترجم)

(٢) « إن الركة فى اصطلاح النساء العجائز قطعة من الحشب ينفض عليها الكتان ، وكانت هذه العملية تعهد إلى النساء فكن يجتمعن للقيام بما فرضه عليهن أزواجهن أو سادتهن من الأعمال ، فتدور المحادثة بينهن على الافتخار بنجاح (وصفة) تجربتها لإحداهن لبت من بناتها ، ومن هنا نسبة هذه الصفات للركة »

انظر كتاب طب الركة تأليف عبد الرحمن إسماعيل طبع بالقاهرة ١٣١٠ — ١٣١٢ هجرية « باسم مؤتمر المستشرقين العاشر الذى سبيلتم فى مدينه جنيف فى سبتمبر سنة ١٨٩٤ » وقد ظهر فى جزءين ولم يطبع الثالث .

وقد ترجم هذا الكتاب القيم إلى الانجليزية .

Folk Medicine in Modern Egypt By John Walker, London 1934,

(المترجم)

من الشائـم كثيراً أن يعلق القاهريون عود الند فوق أبواب المنازل الجديدة خاصة ، ويعتبر هذا حجاباً يكفل للسكان عمراً مديداً وحياة سعيدة والمنزل بقاء طويلاً (١). ويعتقد النساء أيضاً أن الرسول يزور المنزل الذي يعلق فيه هذا النبات ويبقى العود معلقاً هكذا بدون طين أو ماء سنوات عديدة ، ويزهر أيضاً . وقد سمي لذلك « صبراً » ؛ وعلى الأصح « صبرة » ، إذ أن كلمة « صبر » تطلق عامة على العصير .

وجرت العادة عند ما يخشى شر إنسان أن يكسر خلف ظهره وعاء من الفخار . ويفعل هذا أيضاً لقطع كل علاقة أخرى مع مثل هذا الشخص .

ويعمد الجهلاء في مصر ، حيث ينتشر الرمد ، إلى الكثير من العادات الخرافية المضحكة لمعالجة هذا المرض . فيأخذ البعض قطعة طين من جسر النيل عند بولاق أو بالقرب منها ، ثم يعبرون النيل ويضعون القطعة على الجسر الآخر عند امبابه ، وحسبهم هذا لضمان الشفاء . ويعلق آخرون للغرض ذاته في غطاء الرأس فوق الجبهة أو العين المريضة قطعة ذهبية (بندق) ذات وصف خاص متقابلة النقشين (٢) . غير أنه يعتقد أن دخول المرء ، حاملاً في جيبه بندقياً أو ريبالا على المريض بالرمد أو بحمى مما يزيد المرض . والاعتقاد العام أيضاً أنه إذا دخل المرء جنباً على مصاب بالرمد ، يشتد المرض عليه ، وتظهر نقطة في إحدى عينيه أو في كليهما . وأعرف رجلاً أصيب بالرمد ، فحبس نفسه في غرفته ثلاثة شهور مدة المرض خوفاً من ذلك ، فلم يسمح لأحد بالدخول عليه ؛ وكان خادمه يضع الطعام خارج الغرفة عند الباب ؛ وأصيب مع ذلك بنقطة على إحدى عينيه .

وكثيراً ما يقوم النساء بعادة أخرى شديدة الغرابة تنقزز منها النفس منعماً للعقم ، تعد مساحة الرميطة الكبرى غربي القلعة مسرحاً لإعدام المجرمين ؛ وكان فيما مضى يكاد يضرب عنق المحكوم عليهم بالإعدام في العاصمة دائماً في هذا المكان من المدينة . وجنوبي هذا المكان بناء يسمى « مغسل السلطان » ، حيث توضع جثة

(١) وقد روى أحد السياح أن هذا يكون في منازل الحجاج فقط . ولكن الحال ليس كذلك على الأقل في مصر .

(٢) ويسمى هذا « بندق مشاهرة »

المضروب عنقه على مائدة حجرية لغسلها قبل الدفن . وتتجمع المياه في حوض لا يفرغ أبداً ، فيظل ملوئاً بالدماء كرية الرائحة . فيذهب الكثير من النساء إلى ذلك المكان للبرء من الرمد أو للحصول على النسل أو لتمجيل الولادة في حالة الحمل المتأخر . فتمر المرأة صامتة ، والصمت لازم إطلاقاً ، تحت المائدة الحجرية متقدمة بالقدم اليسرى ، ثم تمر فوق المائدة سبع مرات ، وتغسل بعد ذلك وجهها بالماء الدنيس ، وتمطى كهلاً وزوجه يلزامان هذا المكان خمس فضة أو عشرة ، ثم تنصرف ومازالت صامتة . وكثيراً ما يفعل ذلك المصابون بالرمد من الرجال . ويقال إن هذا المغسل بناه ييبرس الشهير قبل أن يصبح سلطاناً عند ما لاحظ جثث المحكوم عليهم ترفس وتدفن دون أن تغسل . ويخطو بعض النساء جثة المدمم سبع مرات صامتات ليصبحن حبالى . ويغمس البعض الآخر ، مدفوعاً بالرغبة نفسها ، قطعة من القطن الزهرى في الدم ويستعملها فيما بعد بطريقة يجب ألا أذكرها . وهناك عادة مضحكة يمارسها المصريون لعلاج بثرة تظهر على حافة الجفن ، ويسمونها « شحجاته » ، ومعنى هذه الكلمة الحرق في سائلة (١) . فيذهب المصاب إلى سبع نساء تسمى كل منهن فاطمة في سبعة بيوت مختلفة ، ويسأل كلًا منهن قطعة خبز . ويتكون الدواء من هذه القطع السبع . وأحياناً يخرج المصاب في حالة مشابهة وللغرض نفسه قبل طلوع الشمس إلى المقابر ، ويدور حولها صامتاً من اليمين إلى اليسار بعكس الطريقة المعتادة . وهناك طريقة وهمية أخرى للعلاج ، وهي أن يثبت المصاب قطعة قطن على طرف عصا ، ثم يغمسها في أحد الأحواض التي يعثرب منها السكلاب في شوارع القاهرة ، ويمسح العين بها . ويهتم المريض هكذا بوقاية يده من الماء الدنيس عند ما يوشك أن يضع منه على موضع آخر من جسمه ويلتق بعض المصريات المسلمات في رقابهن أصبغا مجففة فصلت عن جثة مسيحي أو يهودى متوهمات أن ذلك يعالج الحمى المتقطعة (الملاريا) . وتدل هذه العادات دلالة تستحق الاعتبار على مفعول الخرافة المنحط وتأثيرها القوي على العقل ، إذ أن المسلمين على العموم يدققون في مراعاة الفروض الدينية التي تأمرهم بالامتناع عن كل دنس أو قدر .

(١) وهي تحريف كلمة شحادة

جرت العادة عند ما يمجز الطفل عن المشي ، بعد أن يدرك السن المناسبة ، أن يوثق أمه قدميه بسعف تعقدها عقدات ثلاث وتضعه على باب مسجد أثناء صلاة الجمعة ، وتسأل بعد الصلاة أول الخارجين وثانيهم وثالثهم أن يحمل كل عقدة من السعف ، ثم تحمل الطفل إلى المنزل مؤمنة أن هذا العمل سوف ينتج الأثر المراد عاجلاً من العقاقير من يزعمون أنه ترياق أو شاف لبعض الأمراض . وقد يكون لهذه الأدوية بعض التأثير ، ولكن الخرافة تنسب إليها فضائل لا تصدق . ويرى المصريون ، حتى غالبية المتعلمين والمهذبين ، في الخواصيات المفيدة أو المضرّة لمختلف المواد النباتية والحيوانية أسخف الآراء ؛ إذ يؤيدها في بعض الأحوال أحاديث تروى عن النبي ويدعمها اعتبار حكماهم المشهورين . ويستعمل الباذهر^(١) ترياقاً بحكه مع قليل من الماء في طاس تملأ بعد ذلك ويشربها المصاب . ويستعمل لذلك أيضاً وبالطريقة نفسها قدح من قرن الخرتيب يدعك بقطعة من المادة نفسها . ويعالج الكثير من أهل القاهرة مرض اليرقان بالشرب من ماء « بئر اليرقان » . وهو بئر تمتلكه عجوز ونجني منه فائدة كبيرة ؛ فللبئر فوهتان أسفل إحدهما وعاء جاف للأشياء التي يقذف بها ؛ فتطلب العجوز ممن يرغب استعمال الماء الطيب أن يسقط خلال هذه الفوهة ما محتاج إليه من سكر وبن الخ .

يلجأ المسلمون إلى عادات خرافية شتى يستشيرونها عند التردد في عمل ينتوون فعله أو تركه . فيستخدم البعض جدولاً يسمى « زائجة » . وهناك جدول من هذا النوع ينسب إلى إدريس أو أخنوخ . ويقسم الجدول إلى مائة خانة صغيرة يكتب في كل منها حرف . ويتلو من يستشير الجدول الفاتحة والآية التاسعة والخمسين من سورة الأنعام : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » ثلاث مرات . ويضع بعد ذلك أصبعه على الجدول دون أن ينظر إليه ، ثم يمين الحرف الذي يشير إليه أصبعه ويدونه ، ثم يدون الحرف الخامس اللاحق للأول ، فالخامس التابع للثاني ، وهكذا حتى يعود إلى الحرف الأول . ويكون من مجموع هذه الحروف الجواب^(٢)

(١) حجر البزهر .

(٢) أكثر الزائجات استحساناً معقدة للغاية .

ويقتضى العمل بالزائر جملة حسابات فلكية معقدة .

ويعمد البعض إلى القرآن لحل مشكلاتهم ، ويسمون هذا « استخارة » .
 فيرددون الفاتحة وسورة الإخلاص والآية السابقة ثلاثاً ، ثم يتركون المصحف
 يسقط مفتوحاً ، أو يفتحونه عرضاً ، ويستخرجون الجواب من السطر السابع
 في الصفحة اليمنى . وكثيراً ما لا يحمل الكلام جواباً صريحاً ، إلا أنه يعتبر
 إيجابياً أو سلبياً حسبما يدل معناه على الخير أو الشر ، كأن يشير إلى وعد أو وعيد .
 ويعمد البعض ، بدلا من قراءة السطر السابع ، عدد الحرفين الخاء والشين في
 الصفحة كلها ، فإذا غلبت الخاءات كانت النتيجة مناسبة : فالخاء تمثل الخير
 والشين الشر .

هناك طريقة استخارة أخرى ، وهي أن يمسك المستخير حبتين من حبات
 السبحة بعد أن يتلو الفاتحة ثلاث مرات ، ثم يعد ما بينهما من الحبات قائلاً عند
 الأولى : سبحان الله ؛ وعند الثانية : الحمد لله ؛ والثالثة : لا إله إلا الله ؛ ويردد
 هذه العبارات على التوالي حتى الحبة الأخيرة . فإذا وقعت العبارة الأولى على الحبة
 الأخيرة ، كان الجواب إيجابياً ومناسباً ؛ أما العبارة الثانية ، فلا تدل على شيء ؛
 والأخيرة نافية . ويمارس الكثيرون هذه الطريقة .

وكذلك يلتمس البعض عندما يرقدون ليلاً أن يوجههم الله في المنام ، فيجعلهم
 يرون شيئاً أبيض أو أخضر أو ماء ، إذا كان العمل المنتوى يستصوب ، أو إذا
 كانوا يتوقعون توفيقاً قريباً ؛ وإلا جعلهم يرون شيئاً أسود أو أحمر أو ناراً .
 فيقرأون لذلك الفاتحة عشر مرات ، ولا ينقطعون عن ترديد هذه العبارة « اللهم صل
 على سيدنا محمد » حتى يغلبهم النعاس .

يؤمن المصريون بالأحلام إيماناً عظيماً ، وكثيراً ما ترشدهم الأحلام في بعض
 أمور حياتهم المهمة . ولديهم في تفسير الأحلام مؤلفان كبيران لابن شاهين
 وابن سيرين ، والأخير تلميذ السابق . ويستشير المصريون حتى المتعلمون منهم
 هذين الكتائين بشقة كاملة . وعند ما يقول شخص لآخر : « لقد رأيت رؤيا » ،
 يجيبه الآخر « خير » ، أو « خير إن شاء الله » . وقد جرت العادة عند ما يرى
 أحدهم رؤيا سيئة أن يقول : « اللهم صل على سيدنا محمد » ؛ ويبصق من فوق
 كتفه اليسرى ثلاث مرات لمنع كل شر .

ويوجد في مصر ، كما يوجد في أكثر البلدان الأخرى ، خرافات تتعلق بأيام الأسبوع ، فيعتبر بعضها سعيداً والآخراً نحساً ؛ ويعتبر المصريون يوم الأحد مشئوماً بسبب الليلة التي تليه ، إذ يعتبر المسلمون ليلة الإثنين منحوسة لأنها إيلة وفاة الرسول (صلعم) ؛ غير أن البعض يراها سعيدة للدخول بالمروس خاصة ، وإن لم تعتبر موافقة لهذا الأمر بقدر ليلة الجمعة . ويعتبر البعض أيضاً اليوم التالي يوماً سعيداً ، والبعض الآخر يراه مشئوماً ، أما الثلاثاء فيعتقدون أنه منحوس ، ويسمى « يوم الدم » ؛ إذ يقال إن عدة شهداء أفاضل قتلوا في هذا اليوم ، ولذلك يعتبرونه يوماً مناسباً للفصد . والأربعاء لا يدل على شيء . ويسمى الخميس « المبارك » ، ويستمد بركته خاصة من الليلة واليوم التاليين . ويعتبرون مساء الجمعة سعيداً جداً وخاصة للدخول بالزوجة . والجمعة أبرك الأيام إذ هو يوم الراحة عند المسلمين ، ويسمى « الفضيلة » . أما السبت فهو أنحس الأيام . ويرون أن من الخطأ العظيم أن يسافر المرء في ذلك اليوم ، ويمتنع أكثرهم عن حلق اللحية أو تقليم الأظافر فيه . وكان أحد أصدقائي متردداً في رفع قضية على خصمين في مثل ذلك اليوم المنحوس ، وقرر أخيراً أن ذلك اليوم هو خير أيام الأسبوع لرفع القضية ، لأن النحس لا بد واقع على أحد طرفي الخصومة فقط ، ولا شك أنه سيقع على خصميه لأنهما اثنان وهو واحد . وهناك أيام من السنة تعتبر ذات حظ كبير من اليمن ، مثل أيام العيدين الفطر والأضحى ، والبعض الآخر يعتبر يوم الأربعاء من الأسبوع الأخير من شهر صفر نحساً ، فيعمد الكثيرون إلى البقاء في منازلهم لاعتقادهم أن المصائب تقم على الإنسان في ذلك اليوم^(١) . ويستدل بعض الناس على الخير والشر من الأشياء التي يرونها عند خروجهم من المنزل صباحاً ؛ فعلى حسبها يكون اليوم سعيداً أو نحساً . ويعتبرون الأعور علامة سوء ، وخاصة من فقد عينه اليسرى .

(١) مع أن رسول الله (صلعم) استنكر هذه الخرافة .

الفصل الثاني عشر

السحر والتنجيم والسيمياء

لو صدقنا ما يقصونه في مصر عادة لظهر لنا أن بهذا البلد في هذه الأيام سحرة لا يقولون مهارة عن حكماء فرعون وسحرته الذين تتحدث عنهم التوراة .

ويخلط عقلاء المصريين بين نوعين من السحر : « الروحاني » و « السيمياء » . والضرب الأول سحر روحى يعتقدون أنه يحدث عجائبه بفعل الملائكة والجن وأسرار بعض أسماء الله ووسائل أخرى خارقة للعادة . والضرب الآخر سحر احتيالي غير موحى به ؛ ويعتقد أقل المسلمين تصديقاً أن أهم عامل في ذلك هو تأثير بعض المطور والمقافير في البصر والخيلة تأثير الأفيون تقريباً . ويظن البعض أن الأفيون يستخدم في أعمال هذا السحر الأخير .

وينقسم السحر الروحاني ، الذى يعتبره المصريون عموماً سحراً صادقاً ، إلى « علوى » و « سفلى » أو « رحمانى » ، نسبة إلى الرحمن إحدى صفات الله ، « وشيطاني » . ويقال إن السحر العلوى أو الرحمانى ، علم يعتمد على عون الله وملائكته والجن الصالحين ، وعلى أسرار شرعية أخرى ، وأنه يستخدم دائماً لأغراض طيبة ، وأنه لا يدركه ويمارسه غير الصادقين الذين يتعلمون من الحديث ، أو القراءة ، أسماء هؤلاء العاملين الذين يفوقون الطبيعة البشرية ، وأدعية تكفل إجابة رغباتهم . وتفصل كتابة الأحجية لفرض صالح بهذا الفرع من السحر وبالتنجيم وبعلم أسرار الأعداد . وأقصى ما يدرك في السحر العلوى هو معرفة « الإسم الأعظم » . وهذا هو أعظم أسماء الله الذى يعتقد المتعلمون أنه لا يعرفه إلا الأنبياء والرسل . ويقال إن من يعرف هذا الإسم يستطيع ، بمجرد النطق به ، أن يحيي الميت ، ويميت الحى ، وينقل على الفور حيثما يشاء ، ويأتى بأى معجزة أخرى . ويظن البعض أن أفاضل الأولياء يعرفون هذا الإسم . ويعتقدون أن السحر

السفلى يقوم على عمل الشيطان وأشرار الجن ، وأن أشرار الرجال يستعملونه لأغراض خبيثة . وإلى هذا الفرع ينسب علم « السحر » الذى يطلقه العرب على الرقية الشريرة فقط .

ويعمد هؤلاء الذين يمارسون « ضرب الندل » ، وسأسر دأمله له ، إلى تنفيذها بواسطة الجن ، أى باستخدام علم الروحاني ؛ إلا أن هناك رأياً آخر فى هذا الموضوع سأذكره توأ . وقد بينت إحدى الوسائل التى يعتقد أن الجن يساعدون بها السحرة فى الفقرة الثانية من الفصل العاشر .

ويرى المتعلمون أن « السيميا » علم كاذب وفن احتيالى ينتج آثاره المدهشة بتلك الوسائل التى ذكرت سابقاً ؛ ويعتبرون أن « ضرب الندل » تابع للسيميا بسبب استعمال البخور فى إجرائه .

ويدرس الكثيرون فى مصر علم النجوم أو التنجيم . ويستخدمونه على الأخص لحساب المواليد وتعيين أوقات السعد الح . ولمعرفة أى البروج يخضع له الشخص . ويتم ذلك بحساب القيم العددية لحروف اسم الشخص واسم أمه . وكثيراً ما يكون ذلك فى حالة إقدام اثنين على الزواج للتحقق من توافقهما . وقد أخبرت أن « علم الرمل » يستند غالباً على التنجيم . ويزعم القائلون به أنه يكشف الماضى والحاضر والمستقبل ، بواسطة علامات يرسمونها عرضاً على الورق أو الرمل ، ومن هنا سمى هذا العلم .

يدرس الكثيرون فى مصر « الكيمياء » أيضاً . وهناك فئة تنعم بمواهب يستطيعون أن يبلغوا بها شهرة أفضل مما يدر كونه من هذه المهنة . ويواصل هؤلاء جهدهم المقيم حتى يبلغوا الكبر ، بالرغم مما يلاتون من سخريه حصفاء الرأى ، وذم الذين يفررون بهم عن غير قصد . ومع ذلك فقد يحصلون على معلومات كيميائية وافرة بدراسة هذا العلم الكاذب . والاهتمام بالكيمياء فى حالة الانحطاط العلمى الموجودة الآن بمصر يبرهن على العقلية المصرية الرقيقة .

وهناك ، أو كان هناك^(١) مصرى يدعى الشيخ اسماعيل أبو الروس من مدينة دسوق ذاع صيته فى السحر الروحاني . ويتحدث المصريون حتى أكثرهم علماً وريانة

(١) علمت أنه توفى أثناء زيارتي الثانية لمصر .

عن مهارته السحرية أحاديث لا تصدق ؛ فيتحدث بعضهم مؤكداً زواجه بجنمية ، وآخرون ، عن استخدامه جنياً يستشيريه ويأمره في الباطن ، دون أن يستعمل طلسماً ما مثل مصباح علاء الدين . ويقال إن الشيخ كان يستخدم دائماً قوته الخارقة في أغراض طيبة أو بريئة ، وأن محمد علي ، كما يقول البعض ، كان يكرمه ويستشيريه كثيراً . وقد أخبرني أحد أصدقائي المسلمين الأذكى في القاهرة أنه زار أبا الروس في دسوق بصحبة الشيخ الأمير بن الشيخ الأمير الكبير شيخ المالكية . فسأل صاحب صديقي مضيفهما أن يبين لهما بعض ما يدل على براعته في السحر ، فأجابه إلى طلبه . فقال الشيخ الأمير : « قدم إلينا القهوة في فناجين أبي الموجودة بالقاهرة » . وانتظرا قليلا ، ثم أحضرت القهوة ؛ فنظر الشيخ الأمير إلى الفناجين وظروفها وصرح أنها طقم أبيه بلا شك . وبعد ذلك قدم الشراب في قفل أبيه . ثم كتب رسالة إلى أبيه وأعطاها لأبي الروس طالباً الحصول على الرد ؛ فأخذها الساحر ووضعها وراء وسادة الديوان ، وبعد قليل رفع الوسادة وأراه أن رسالته اختفت وحلت محلها أخرى . فأخذها الشيخ الأمير وقرأها ، فوجد فيها رداً كاملاً على ما كتبه بخط صرح بأنه خط أبيه ، وأخباراً عن عائلته تبين له محتها التامة بعيد عودته إلى القاهرة^(١) . وقد وقع أثناء زيارتي الأخيرة لمصر حادث سحري عجيب تدخلت فيه الحكومة وكان محل حديث الناس وتمعجبهم في العاصمة كلها . وسأروى هذه الواقعة تماماً كما قصها على الكثيرون في القاهرة ، دون أن أحذف منها المبالغات التي دمجوا بها حديثهم ، لا لأنني جاهل مبلغ محتها خصب ، بل لأبين إلى أي حد عظيم يؤمن المصريون بالسحر .

عزل مصطفى الدجوى كبير الكتاب في مجلس القاضي من وظيفته ، وحل مكانه آخر يسمى مصطفى كان صيرفيا . فأرسل الأول إلى الباشا التماساً لإعادته ثانية ؛ إلا أنه مرض مرضاً شديداً قبل أن يصله رد ، فاعتقد أن ذلك نتيجة سحر استخدمه مصطفى الصيرفي بكتابة تمويذة تسبب موته ؛ ولذلك أرسل إلى الباشا مرة أخرى يتهم الصيرفي بهذه الجريمة . فأحضر التهم أمام الباشا ، فاعترف بفعله ودل على الساحر

(١) وقد تحدثت في ترجمتي لألف ليلة وليلة الفصل الأول هامش ١٥ عن ساحر أكثر شهرة هو الشيخ أحمد صادومه ذاع صيته في مصر في النصف الثاني من القرن الأخير .

الذى استخدمه . ولما قبض على الساحر لم يستطع إنكار التهمة ، فسجن حتى ينجو الدجوى أو يموت . وأودع حجرة صغيرة يتناوب حراستها حارسان . وهنا يبدأ القسم العجيب فى القصة : عندما جن الليل ، وبعد أن نام أحد الحارسين ، سمع الآخر صوت همهمة غريبة ، فنظر من خصاص باب الحجرة ، فرأى الساحر جالساً وسط الغرفة يدمدم ببعض كلمات لم يستطع فهمها . وفى الحال انطفت الشمعة التى كانت أمامه ، وظهر فى الوقت نفسه أربع شمعات أخرى فى كل ركن من أركان الغرفة . ثم وقف الساحر تجاه أحد الحوائط ، وضربه بجمهته ثلاثاً ، وفى كل مرة كان الحائط ينفرج عن رجل يبدو أنه يخرج منها . ولم يلبث هؤلاء أن اختفوا بعد أن حدثهم الساحر قليلاً ، وكذلك اختفت الشمعات الأربع ، وعادت الشمعة الأولى وسط الغرفة مضيئة كما كانت قبلاً ، ورجع الساحر إلى جلسته ، وساد السكون . وهكذا أبطلت التعويذة التى كانت معدة لقتل الدجوى . وفى الصباح التالى ، شعر المريض بتحسّن كبير بحيث توضع وأقام صلاته ، ومنذ ذلك الوقت تم شفاؤه سريعاً . وأعيد إلى وظيفته السابقة ؛ وفى الساحر من مصر . وقد نفي ساحر آخر ، بعد أيام قليلة ، لسكراته حجاباً جعل بنتاً مسلمة تصاب بحب قبطى حباً جامعاً .

وقد أثار فضولى فى موضوع السحر ، بعيد قدومى إلى مصر ، حادث قصته على مستر صولت Salt قنصلنا العام . فقد سُرقَت من منزله أمتعة اتهم بسرقتها أحد خدمه . فاستدعى ساحراً مغربياً شهيراً ليحمل المذنب ، إذا كان أحدهم مذنباً ، على الاعتراف بذنبه . وحضر الساحر وقال إنه سيدين صورة اللص بحيث تبدو كاملة لأى صبي لم يبلغ سن المراهقة ؛ وطلب من رب الدار أن يحضر أى ولد يختاره . وكان هناك عدة أولاد يعملون فى حديقة مجاورة للمنزل ، فدعى أحدهم لهذا الغرض . فرسم الساحر بالقلم على راحة يد الولد اليمنى شكلاً هندسياً صلباً فى وسطه قليلاً من الخبر ؛ وطلب من الولد أن ينظر فى الخبر بعزم . ثم أحرق بعض البخور وعدة قصاصات من الورق كتب عليها تعاويذ ، واستدعى فى الوقت نفسه أشياء مختلفة تظهر فى الخبر . وأعلن الولد أنه رأى هذه الأشياء وصورة المتهم أخيراً . فوصفه بقامته وهيئته وملبسه ؛ وقال إنه عرفه ، ونزل

مباشرة إلى الحديقة ، وقبض على أحد العمال الذي اعترف أمام السيد بجرمه .
وقد شوقني الحديث السابق إلى مشاهدة حادث كهذا . ولكن لجهلي اسم
الساحر ومكانه كنت عاجزاً عن الوصول إليه . على أنني علمت ، بعيد عودتي إلى
إنجلترا ، أن هذا الساحر اشتهر بين السياح المتأخرين في مصر ، وأنه يقيم في القاهرة
وأنه يسمى الشيخ عبد القادر المغربي . وقد أحضره جاري عثمان مترجم القنصلية
البريطانية ، بعيد قدومي الثاني إلى مصر ؛ فضربت له موعداً ليثبت مهارته التي
اشتهر بها . وحضر الساحر في الموعد المعين ، قبل الظهر بساعتين تقريباً ، ولكن
كان يلوح عليه القلق ؛ وتطلع إلى السماء مراراً ، ثم لاحظ أن الجو غير موافق .
وكان اليوم عابساً كثيراً الضباب عاصف الهواء . وكانت التجربة قد عملت مع
ثلاثة صبيان على التوالي ، ولكنها لم تنجح تماماً مع أولهم ، وفشلت مع الآخرين .
فقال الساحر إنه لا يستطيع أن يقوم اليوم بأكثر من ذلك ، وأنه سيحضر مساء
يوم آخر . وقد حافظ على وعده وقرر أن الوقت ملائم . وأخذنا ندخن الشبك
ونحتسي القهوة وهو يحدثني أحاديث مختلفة منتظرين جاري عثمان ليشارك التجربة .
والساحر جميل الشكل ، طويل القامة ، قوى البنية ، وجهه أقرب إلى البياض ،
ولحيته شديدة السواد ، رث الثياب ، أخضر العمة كبيرها لا تتسابه إلى النبي (ص)
لطيف الحديث بلا تكلف . وقد أخبرني أنه يباشر أعماله العجيبة بواسطة الأرواح
الطيبة ، ولكنه قال لآخرين أن سحره شيطاني .

وطلب الساحر أولاً قلماً وجبراً وقطعة ورق ومقصاً ليعد تجربة مرآة الخبر
السحرية التي تسمى ، مثل بعض الأعمال المشابهة الأخرى ، « ضرب المنديل » .
ثم قطع قصاصة ضيقة كتب عليها بعض أدعية ، علاوة على تمويذة أخرى يعتقد
أن التجربة تتم بها . ولم يحاول أن يخفي ذلك . ولما طلبت نسخة منها قبل بسهولة
وكتبها في الحال موضعا لي في الوقت نفسه أنه يبلغ غايته بفعل الكلمتين الأوليين
« طرش » و « طريوش » وهما اسمتا تابعية الجنين . وقد قارنت النسخة بالأصل
فوجدتها مطابقة تماماً . وهذا نصها :

« طرش طريوش انزلوا انزلوا ، احضروا إلى مذهب الأمير وجنوده ،
إلى الأحمر الأمير وجنوده . احضروا يا خدام هذه الأسماء » .

« وهذا الكشف » فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » صحيح
صح .

وبعد أن كتب هذه الكلمات ، فصل الأدعية عن التعميدة وقطع الأولى إلى
ست جذافات . ثم شرح لى أن القصد من التعميدة التي تتضمن جزءاً من الآية
الحادية والعشرين من سورة الكهف ، هو فتح عين الصبي بطريقة غير عادية
وجعل بصره حاداً يرى ما لا نراه .

و كنت قد أعددت بإرشاد الساحر قليلاً من اللبن والكزبرة (١) وعجوة
بها حجر . فوضعت كل هذا في الغرفة مع الصبي الذي أعد لإجراء التجربة .
و كانوا قد دعوه من الشارع ، بناء على طلبي ، من بين بعض الصبيان حين عودتهم
من أحد المصانع . وكان الصبي يبلغ من العمر ثمان سنوات أو تسماً . وعندما
سألت الساحر أن يبين لى من يستطيع النظر في مرآة الجبر السحرية أجابني :
للصبي دون البلوغ ، والبنت المذراء ، والجارية السوداء ، والمرأة الحامل . ووضع
الساحر المجرة أمامه ، ثم أجلس الصبي على كرسي ، وأمر خادى أن يضع في



المجرة بعض لبن وكزبرة . ثم أمسك
يد الصبي اليمنى ، ورسم على راحته مربعاً
سحرياً نقلت نسخة منه هنا (شكل
رقم ٥٤) ويتضمن هذا الشكل أرقاماً
عربية (٢) . ثم صب في وسطه قليلاً من
الجبر ، وطلب من الصبي أن ينظر فيه
ويخبره إذا كان يمكنه رؤية وجهه
معكوساً فيه . فأجاب الصبي إنه يرى
وجهه جلياً . فقال الساحر ، وهو يمسك

(شكل ٥٤) المربع السحري ومرآة الجبر

(١) ويضيف الساحر على العموم إلى ذلك بنجوراً جالواً .
(٢) يلاحظ إذا جمعنا الأرقام عمودياً أو أفقياً أو بالورب نحصل على المجموع

بيد الصبي طول الوقت (١) ، أن يظل محدّق النظر وألا يرفع رأسه .
ثم أخذ الساحر إحدى قصاصات الورقة المكتوب عليها الأدعية ، وألقاها
في الجمرة على الجمر والبخور الذي كان قد ملأ الغرفة بدخانه . وبينما كان يفعل
ذلك أخذ يدمدم دمدمة لم تنقطع طول العملية إلا حينما كان يوجه للصبي سؤالاً
أو يعرفه ما يجب قوله . ووضع في مقدمة طاقيه الصبي الورقة المكتوب فيها
الآية القرآنية . وسأله عند ذلك إذا كان يرى شيئاً في الجبر ، فأجابه بالنفي ؛
ولكنه لم يلبث أن قال ، وهو يرتعش ويبدو أكثر خوفاً : « أرى رجلاً يكس
الأرض » . فقال « الساحر أخبرني بعد أن ينتهي من الكس » . فقال الصبي في الحال
« لقد فعل » . فقطع الساحر إذ ذاك دمدته مرة أخرى ليسأل الصبي إذا كان
يعرف ما هو البيرق ؛ فلما رد بالإيجاب أمره أن يقول : « هات بيرقاً » . ففعل
الصبي ذلك ولم يلبث أن قال : « لقد أحضروا بيرقاً » . فسأله الساحر : « على أي
لون هو ؟ » . فأجاب الصبي « أحمر » . فقال له اطلب بيرقاً آخر . فلم يلبث أن قال
إنه رأى بيرقاً آخر ، وأنه أسود اللون . وبالطريقة نفسها قال الساحر للصبي أن
يطلب ثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً . فقال الصبي إنها أحضرت على
التوالي وإنها أبيض وأخضر وأسود وأحمر وأزرق . فسأله الساحر حينئذ : « كم
بيرقاً أمامك الآن ؟ » فأجابه « سبعة » . ووضع الساحر أثناء ذلك ثمانية
القصاصات المكتوبة عليها الأدعية وثالثتها في الجمرة ؛ وإذا كان يضيف لساناً
وكزبرة مراراً فقد أصبح الدخان يؤلم العين . وعندما أخبره الصبي أن البيارق
السبعة ظهرت له أمره أن يقول : « أحضر خيمة السلطان وانصبها » . ففعل ذلك
وقال بعد لحظة : « أحضر بعض الرجال الخيمة ، وهي خيمة كبيرة خضراء ،
وهم ينصبونها » ثم أضاف تواً : « لقد نصبوها » فقال الساحر : « الآن مر الجنود
بالحضور وبنصب معسكرهم حول خيمة السلطان » . ففعل الصبي كما أمره وقال
على الفور : « أرى عدداً عظيماً من الجنود يخيمهم . لقد نصبوا خيمهم » . فقال
له حينئذ أن يأمر الجنود بالاصطفاف . ولم يكذب بأمرهم حتى قال إنهم اصطفوا .

ووضع الساحر رابع القصاصات في الجحر ، وسريعاً ما ألحق بها الخامسة . وقال
توأ : « قل للبعض أن يحضروا ثوراً » . فأصدر الصبي الأمر وقال : « أرى ثوراً
أحمر يسحبه رجال أربعة ويضربه ثلاثة » . فقال له أن يأمرهم بذبحه وتقطيعه
ووضع لجه في أوعية وطهيه . ففعل كما أمره ، ووصف هذه العمليات كما تمت
حسب الظاهر أمام عينه . فقال الساحر : « قل للجفود يأكلون » . ففعل الولد
وقال : « إنهم يأكلون . لقد أكلوا . وهم يغسلون أيديهم » . فقال له الساحر
إذ ذاك أن يدعو السلطان ففعل الولد وقال : « أرى السلطان ممتطياً جواداً
أشهب وعلى رأسه قلنسوة مرتفعة حمراء . لقد ترجل عند خيمته وجلس داخلها » .
فقال الساحر : « مرهم بتقديم القهوة للسلطان وبتأليف المجلس » . فأصدر الصبي
هذه الأوامر وقال إنها نفذت . وكان الساحر قد وضع آخر القصاصات الست في
الجمرة . ولم أميز من مهمته شيئاً غير ألفاظ الدعاء المكتوب التي ردها مراراً ،
ما عدا مرتين أو ثلاثاً سمعته يقول : « إذا استعملوا أخبرهم . وكونوا أنتم صادقين » .
إلا أن أكثر ما رده كان غير مسموع . ولما لم أسأله أن يعلمني علمه فلا أدعى
الحزم بأنني أعرف تماماً أدعيته .

تحدث الساحر إليّ وسألني إذا كنت أرغب في أن يرى الصبي شخصاً
ما غائباً أو متوفى . فذكرت اللورد نلسون ؛ ومن الواضح أن الصبي لم يسمع عنه
أبداً ، لأنه نطق اسمه بصعوبة كبيرة بعد محاولات . وأمر الساحر الصبي أن يقول
للسلطان : « إن سيدي يحملك ويطلب منك إحضار اللورد نلسون ، أحضره
أمام عيني حتى يمكنني رؤيته سريعاً » . فقال الصبي ذلك وأضاف في الحال : « لقد
ذهب رسول وعاد وأحضر رجلاً يلبس ملابس أوربية سوداء ^(١) ، والرجل فقد
ذراعه اليسرى » ، ثم وقف لحظة وقال وهو ينعم النظر عن قرب في الخبر : « لا ،
إنه لم يفقد ذراعه اليسرى وإنما وضعا على صدره » . وقد جعل هذا الاستدراك بيان
الصبي أكثر تأثيراً مما لو كان بدونه ، لأن اللورد نلسون كان يعلق كفه الخالي
إلى صدر سترته ، ولكنه فقد ذراعه اليمنى لا اليسرى . فسألت الساحر ، دون أن
أبين أنني أتهم الصبي بالخطأ ، إذا كانت الأشياء تبدو في الخبر كما لو كانت أمام العين

(١) يسمى المصريون المحدثون الأزرق القاتم أسود .

فعملاً أو كما لو كانت تنعكس في المرآة التي تظهر اليمين يساراً . فأجابني إنها تبدو كما في المرآة ، فحمل هذا وصف الصبي صحيحاً^(١) .

وكان ثاني من دعوتهم مصرياً أقام في إنجلترا بضع سنوات فاتخذ الملابس الأوربية ، وكان المريض قد أزمه الفراش طويلاً قبل إبحاري لمصر . فرأيت أن اسمه ، وهو شائع في مصر ، قد يحمل الصبي على الخطأ في وصفه ؛ مع أنه حدث في زيارتي السابقة للساحر أن وصف صبي آخر هذا الرجل ذاته بأنه يلبس ملابساً أوروبياً مثل ذلك الذي رأيته به آخر مرة ، أما الآن فقد قال الصبي « ها هو ذا رجل لف في ملاءة وجيء به على نعش » . ويدل هذا الوصف على أن الشخص المذكور لا يزال ملازماً فراشه أو أنه مات^(٢) ، وقال الصبي إن وجهه مغطى ؛ فقال له الساحر أن بأمر رفع الغطاء . ففعل ثم قال « إن وجهه شاحب ، وله شاربان ولا لحية له » . وهذا صحيح .

وقد استدعيت عدة أشخاص آخرين على التوالي ، ولكن أوصاف الولد لهم كانت ناقصة وإن لم تكن جميعها غير صحيحة . فكان كل وصف يبدو أقل وضوحاً عن السابق كما لو كان بصره يغنى شيئاً فشيئاً ؛ فكان يلبث برهة أو أكثر قبل أن يستطيع أن يصف من يراه . فقال الساحر إن من العبث إجراء التجربة معه . فجيء بصبي آخر ورسم المربع السحري على يده إلا أنه لم يستطع رؤية شيء . فقال الساحر إنه فوق السن المناسبة .

أدهشتني هذه الأعمال تماماً ، غير أنها خيبت ظني قليلاً لفشلها مرات في حضور بعض أصدقائي ومواطني . وقد سخر منها في إحدى هذه المناسبات إنجليزى

(١) كنت كلما طلبت من الصبي أن يدعو أحداً انتبه بدقة إلى الساحر وعثمان معاً . فلم يوجه الأخير كلمة أو إشارة ما ؛ ولقد كان حقاً يجهل مظهر الشخص المطلوب . وقد عنيت بالآلات يتصل من قبل بالصبيان ؛ وقد رأيت التجربة تفشل عند ما كان يستطيع إرشادهم أو إرشاد الساحر . وقصارى القول أن من الصعب أن يتصور احتياطاً لم أتخذه . ومن المهم أن أضيف أن لغة الساحر كانت أكثر وضوحاً لي منها للصبي ، فبينما كنت أفهمه فوراً كان يضطر أحياناً إلى تغيير كلامه ليجعل الصبي يدرك ما يقول .

(٢) وقد سرفني أن أسمع ، بعد كتابة هذا بشهور قليلة ، أن الرجل المشار إليه هنا قد تعافى . ولم أستطع أن أحقق ما إذا كان ملازماً فراشه وقت إجراء هذه التجربة .

من الحاضرين ، وقال : إن لا شيء يقنعه غير وصف صحيح لهيئة أبيه ، إذ كان على يقين من أن أحداً من الجالسين لا يعرف عنه شيئاً ، فدعا الصبي والد الإنجليزي باسمه ، ثم بين أنه يلبس الملابس الإفريقية ويضع يده على رأسه ، ويلبس منظاراً . ويقف على قدم واحدة ويقيم الأخرى وراءه على نحو ما يفعل النازل من المقعد . وكان الوصف دقيقاً من كل الوجوه ، فقد كان وضع اليد على الرأس ناشئاً من صداع دائم ؛ ووضع القدم من تصلب الركبة لسقوط الرجل عن ظهر حصانه أثناء الصيد . وقد أكد لي الحاضرون في هذه الجلسة أن الصبي أحكم الوصف في كل دعوة . ووصف الصبي مرة أخرى شكسبير شخصه وملبسه وصفاً دقيقاً . ويمكنني أن أضيف إلى ذلك عدة أحوال أخرى أثار فيها الساحر ذاته دهشة معارف الرزاء من الإنجليز ، وفي يوم آخر جهز الساحر ، بعد أن قام بالتجربة بواسطة الصبي كالمعادة ، المرأة السحرية في يد إنجليزية شابة ، فلم تكذب تنظر فيها لحظة حتى قالت إنها ترى مكنسة تسكنس الأرض دون أن يمسه أحد ، وتملكها الفزع فرفضت استئناف النظر .

قررت هذه الوقائع بعضها من تجاربي الذاتية ، والبعض الآخر مما وصل إلى علمي عن قوم محترمين . وقد يظن القارئ أن الصبي كان يرى في كل مرة صوراً تنعكس في الخبر ؛ ولكن ذلك لم يكن ، أو أنه كان متفقاً مع الساحر ، أو أنه يرشد بطريق الأسئلة . أما أنه لم يكن هناك اتفاق فقد تحققت من ذلك تحققات مرضية باختيار الصبي الذي قام بالعمل من بين المارين بالشارع ، علاوة على رفضه رشوة عرضتها عليه فيما بعد لحثه على الاعتراف بأنه لم يرحقاً ما كان يقرر رؤيته . وقد امتحنت صدق صبي آخر في مناسبة لاحقة وبالطريقة نفسها ، فكانت النتيجة واحدة . وكثيراً ما تخيب التجربة تماماً ؛ ولكن عند ما يصيب الصبي القائم بالعمل مرة يستمر في النجاح على العموم ؛ وعند ما يخطيء بادي الأمر يصرفه الساحر توتاً قائلاً إنه كبير السن . وقد يفترض البعض أن البخور أو الخيال المتأثر أو الخوف يؤثر في نظر الصبي ؛ ولكن لو كان الأمر كذلك لما أبصر تماماً ما كان يطلب من أمور لا يمكن أن يكون عنها معلومات خاصة سابقة . ولم أستطع أنا

ولا غيرى اكتشاف طريق ما ينفذ بنا إلى السر . ورجائى من القارى ، إذا كان مثلنا عاجزاً عن إيجاه الحل ، ألا يدع البيان السابق يثير في ذهنه رغبة فيما يتعلق بأجزاء الكتاب الأخرى (١) .

(١) لقد طيب خاطرى أن أرى رجائى يتحقق . وأود أن أستطيع القول أن الحادث فسر الآن . فقد أشار بعضهم في العدد ١١٧ من مجلة Quarterly Review ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ إلى أن هذه الأعمال كانت تتم بواسطة انعكاس الصور على سطح مرآة مقعرة وإرسالها إلى نظر الصبي على سحب الدخان . على أننى لا أستطيع التسليم بذلك ، لأن مثل هذه الطريقة لا يمكن أن تكون قد استعملت دون أن أراها ؛ ولا الصورة تنقلب (ما لم تكن الصورة هكذا) بانعكاسها على سطح المرآة واستقبالها على سطح آخر ، لأن الصبي كان مطرق الرأس يتفرس في راحة يده ، فلا يمكن أن تتكون الصورة فوق الدخان ، الذى كان كثيراً وليس كثيفاً ، بين عين الصبي والمرآة المزعومة . والصعوبة الكبرى هى وصف الهيئة الصحيحة لأفراد من عامة الناس غير مشهورين ، كما لاحظت المجلة المذكورة في مقال الحق به حاشية غربية تقدم بعض صور جديدة لهذه الصعوبة . وقد كنت عارفاً لأهم الوقائع المذكورة هناك ، ولكن كان ينقصني الأقدام على نشرها . غير أنه يمكننى الآن أن أذكرها هنا . فقد روى أن سائحين أحدهما مسيو ليون دى لابورد Leon De Laborde ، والآخر إنجليزى لم أستطع معرفته ، تدربا على يد الساحر عبد القادر ونجحوا في إجراء أعمال مماثلة . وقد أنكر الأخير قطعاً كل مؤامرة للخداع . وأكد أنه لم يفعل شيئاً غير ترديد ما علمه الساحر . ومنذ كتابة الملاحظة السابقة شاهدت مرتين أعمالاً يجريها هذا الساحر الحديث الشهرة ، وكانت جميعها فاشلة تماماً ؛ وهكذا كانت جميع تجاربه الأخيرة كما أخبرنى البعض . ومن هنا ، ومن ملاحظة أبدعها لى في حضور المرحوم اللورد نوجنت Nugent ، أنه كان ينجح على العموم إذا كان الوسيط عثمان مترجمه ، وقد توفي بعد زيارتي الثانية لمصر ، يصعب على أن أستنتج أن الأسئلة المرشدة التى كان يلقيها فى أغلب الأحوال عثمان وغيره ، وهم قوم متعلمون أذكاء ، بدون وعى ، وأن التخمينات الحاذقة فى أحوال أخرى هى أسباب نجاحه الرئيسية . ولا أستطيع بافتراض الأسئلة المرشدة ، أن أحصى نجاحه فى الأحوال التى كنت أراقبها بنفسى ؛ ولكن هذه كما سبق القول فشلت كثيراً فى حضور بعض الأصدقاء والمواطنين .

الفصل الثالث عشر

الأخلاق

إن طباع المصريين المحدثين تتأثر إلى درجة كبيرة بالدين والشرع والحكومة ، كما تتأثر بالمناخ وأسباب أخرى ؛ ومن ثم يصعب جداً أن نكون رأياً صحيحاً عنها . غير أنه يمكننا أن نقرر بثقة أن المصريين يمتازون أكثر من الشعوب الأخرى ببعض الصفات الذهنية العظيمة ، وبخاصة سرعة الإدراك وحضور الذهن وقوة الحافظة . وهم في حدائهم موهوبون على العموم بهذه الصفات وبقوى عقلية أخرى ، غير أن العلل السابقة الذكر تحط منها تدريجاً .

وليس في أخلاق المصريين الأصلية ما يستحق الاعتبار مثل الكبرياء الدينية . فهم يعتبرون كل من خالفهم في الدين هالكين . وقد ذكر القرآن في سورة المائدة في الآية الحادية والخمسين : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منهم فإنه منهم (١) » .

ومن بواعث الأدب أو الصالح الذاتي أن يتحدث المسلم أحياناً إلى المسيحي ، وخاصة الأوربي ، بلهجة كريمة ؛ وقد يصرح بصداقته وهو يضمن الازدراء له . ولما كان المصريون المسلمون يحكمون على الفرنج بمقتضى ما يظهر من الذين يسكنون مدنهم ، وأكثرهم من شذاذ الآفاق ونفایة البلاد ، فمن الصعب لوهمهم على ازدراءهم . ويعامل أهل مصر المسيحيين مع ذلك بلطف ، فالمسلمون قد عرفوا بالتسامح كما اشتهروا باحتقار الكفار .

(١) وقد فسرت الآيتان السابعة والخمسون والثامنة والخمسون من السورة نفسها سبب هذه الوصية بقولها : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

ويعتقد المسلم أن التقى يرفع صاحبه ، إلا أن رغبة الظهور بالتقوى تفضى بالكثيرين إلى الرياء . وكثيراً ما يلهج المسلم ببعض الأدعية إذا لم يكن مشغولاً بعمل أو تسليمة أو حديث . وإذا أقلقته فكرة أثيمة أو ذكرى شر ارتكبه يصيح متنهداً « أستغفر الله العظيم » . وكثيراً ما يشمل التاجر نفسه في حانوته بتلاوة القرآن أو بالتسبيح ، إذا فرغ من مساومة حرقائه أو من تدخين شبكه . كثيراً ما يقسم المسلم بالله وبالرسول وبرأس مخاطبه وحيته . وعندما يُخبر أحدٌ بخبر يثير دهشته وعدم تصديقه يصيح : والله ؟ فيجيبه الآخر : والله . وكما أن العادة أن يبسم المسلم قبل الطعام والشراب ، يفعل ذلك أيضاً عندما يتناول دواءً أو يكتب شيئاً أو يبدأ مشروعاً مهماً ، ثم يحمد الله بعد البسملة . وعندما يتعاقد اثنان يتلوان الفاتحة معاً . والعادة عندما يتجادل البعض في عمل أو رأى ، أن يصيح أحد الطرفين ، أو آخر يود فض النزاع أو تهدئه المتخاصمين : « الصلاة على النبي » ، أو « صلوا على النبي » فيقولان بصوت منخفض : « اللهم صل عليه » ثم يستأنفان المجادلة ولكن باعتدال على العموم . كثيراً ما يُسمع في المجتمع المصري العبارات الدينية تترى الحديث في الأمور الحقيرة والخليعة أيضاً . وقد يكون ذلك أحياناً بطريقة تحمل من الجهل أخلاق هذا الشعب على أن يظنه هزواً بالدين . ويكرر المصريون اسم الله في الكثير من أغانيهم الماجنة ، من غير قصد للاهانة طبعاً ، وإنما يفعلون ذلك لاعتمادهم إقحام اسم الله في كل ما يدعو إلى الدهشة أو العجب . فيعبر الماخن عن انفعاله بالجمال عند رؤيته فتاة فائقة بقوله أثناء كلامه الفاحش :

« تبارك الذي خلقك يا بدر » .

وسأورد المقتوعة الأخيرة من أحد الموشحات مثالا للطريقة الغريبة التي يختلط بها الفجور والدين في الأدب العامي المصري :

قابلي الرشيق بعد البعد والاحتجاب . فقبلت ثنياه وخده ، ورن الكأس في يده . وفاح المسك والعنبر من محبوب أرشق قواماً من غصن البان . وبسط سرياً سندسياً ، وقضيت الوقت في سعادة متصلة . لقد استعبدني ظي تركي . والآن أستغفر الله ربى من كل خطاياي ومن كل ما هجس في نفسي . إن

أعضائي تشهد على . ومتى قهرنى الحزن فأنت أملئ يا ربى فى كل ما يحزننى .
 أنت تعلم ما أقول وما أنوى . أنت الكريم الغفور . إني ألوذ بجمالك فاغفر لى ...
 وقد زارنى أحد أصدقائى المسلمين بعد كتابة الملاحظات السابقة توأ ، فقرأت
 عليه القصيدة . وسألته أيليق أن يمزج الدين بالخلاعة هكذا ؟ فأجاب : « نعم ،
 يليق كل الياقة . فهذا رجل يذ كر خطاياهم ثم يستغفر الله ويصلى على الرسول » .
 فقلت : « ولكن هذه قصيدة قيلت لتسليمية هؤلاء الذين ينهمكون فى المذات
 المحرمة . ثم لاحظ أن الصفحة التى تصف الفسق تقابل التى تذكر أسماء الله
 عندما أطوى الكتاب فيكون وصف المذات الأثيمة فوق ذكر الاستغفار » .
 فأجاب صديق : « ذلك عبث . اقلب الكتاب جاعلا أسفله أعلاه ينعكس الحال
 فيغطى الغفران المعصية . وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز : قل يا عبادى الذين
 أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً وهو
 الغفور الرحيم » (الآية ٥٢ من سورة الزمر) . وقد ذكرتى إجابته ما لاحظته
 كثيراً من أن غالبية العرب ، وهم شعب كثير التناقض ، يستمرون فى مخالفة
 الشرع اعتماداً على أن عبارة : « استغفر الله » تمحو كل خطيئة . وكان بين يدي
 صديقى نسخة من القرآن ، فوجدت فيها عند بحثي على الآية المقتبسة ورقة عليها
 كلمات من الكتاب الكريم ، وكان الرجل على وشك أن يحرقها لئلا تسقط
 فتداس . فسألته : أيجوز ذلك ؟ فأجاب : إما أن تحرق وإما أن تلقى فى مجرى
 ماء . والأفضل حرقها ، إذ أن الكلمات تصمد مع اللهب فتحملها الملائكة إلى
 السماء . ويستشهد المسلمون حتى أشدهم تقى بالقرآن عند المزاح . وقد حدث مرة
 أن طلب أحدهم أن أهدى إليه ساعة ، فأوعز إلى بهذه العبارة الملتبسة : إن الساعة
 آتية أكاد أخفيها (الآية ١٥ من سورة طه)

وكثيراً ما يشاهد المرء ، فى المجتمع المصرى ، ناساً يتلون آيات وأحاديث
 تناسب المقام ؛ ولا يعتبر مثل هذا الاقتباس ، كما هو الحال فى مجتمعاتنا ، نفاقاً
 أو مملأً ، وإنما يثير إعجاب المستمعين ويصرفهم عن تافه الحديث إلى جده .
 ويشغف مسلمو مصر وغيرها من البلدان ، على ما أعتقد ، بالحديث الدينى .
 وتُحْيى أكثر الحفلات عند الطبقتين الوسطى والعليا فى القاهرة بتلاوة (خاتمة)

أو إقامة (ذكر) . وقلمنا يجرؤ أحدهم على التصريح بتفضيل الموسيقى على الخاتمة أو الذكر اللذين لا جرم ينتهجون بهما . والحق أن الطريقة التي يرتل بها القرآن أحياناً حسنة جداً ، ولو أن سماع الخاتمة كلها قد يُمل غير المسلمين .

يدهشني شدة تمسك المسلمين بدينهم على الدوام ؛ غير أنني أعجب لقلة محاولتهم دعوة الغير إلى الإسلام . وكثيراً ما عبرت عن دهشتي لتعافلهم عن نشر دينهم ، مخالفين أسلافهم في صدر الإسلام ، فكانوا يجيئونني : « أى فائدة في هداية ألف كافر ؟ هل يزيد ذلك عدد المؤمنين ؟ أبداً . لقد قدر الله عدد المؤمنين ولا يستطيع الإنسان أن يزيده ولا أن ينقصه » . ولم أخاطر بالرد خشية أن يؤدي اعتراضى إلى جدال لا حذله . وقد سمعتهم يدافعون عن إهمالهم لإدخال الناس في دينهم بذكر الآية السادسة والأربعين من سورة العنكبوت : « ولا تجادلوا أهل الكتاب » ، دون أن يذكروا العبارة التالية مباشرة : « إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد » . ولو كان المسلمون عملوا بهذه الوصية لأدى جدالهم إلى تحرير أفكارهم وترقية معارفهم .

يقدس المسلمون المحدثون الرسول غاية القداسة ، ويقسمون . كثيراً باسمه . وبلتمس شفاعة المتعلمون والجاهلون على السواء . ويتأثر الحجاج من زيارة القبر النبوى أكثر مما يتأثرون بقيامهم بالشعائر الأخرى . وهناك فئة لا تأتى عملاً لم يتقرر قيام الرسول به فيمتنعون خاصة عن أكل مالم يأكله ولو ثبت إباحة تناوله . وما كان الإمام أحمد بن حنبل يأكل البطيخ لأنه ، مع علمه أن الرسول أكله ، لم يستطع أن يعرف ما إذا كان يتناوله بقشره أو بدونه ، أو إذا كان يكسره أو ينهشه أو يقطعه ؛ كما أنه نهى امرأة جاءت تستفهمه عن الغزل ليلا على ضوء مشاعل الغير أثناء مرورهم في الشارع ، لأن الرسول لم يذكر شرعيتها ولم يُعرف عنه أنه انتفع من ضوء غيره بدون إذن . وقد أعجبت مرة بمنافض جميلة ينفذ فيها رماد الشُبُك ، فسألت صانعها لماذا لا يسمها باسمه ؟ فأجاب : « معاذ الله ! إن اسمي أحمد ، وهو أحد أسماء الرسول فهل تريد أن أضمه في النار ؟ » وقد سمعت شكوى الناس من الباشا لأنه وسم جمال الحكومة وجيادها باسمه (محمد على) . وقال الذى ذكر لى هذا الحادث : « إن الیسَم الذى نقش عليه هذان الاسمان الواجب احترامهما ، اسم

الرسول (ص) واسم ابن عمه رضى الله عنه ، يوضع في النار وهذا منكر ؛ ثم يوضع على رقبة الجمل ، فيسيل الدم النجس ، فيدنس الاسمين المقدسين على الحديد وعلى جلد الحيوان ؛ والمحتمل عندما يندمل الجرح ، بل الحتم ، أن يضع الجمل ، وهو راقد ، رقبة على شيء قدر .

ويبحث مثل هذا الشهور المسلمين على أن يعترضوا على طبع كتبهم . ويندر أن يكون لهم كتاب لا يتضمن اسم الله ، ولا أذكر أنى رأيت كتابا خلا منه ؛ فالقاعدة أن يصدر الكتاب بالبسملة ، وتبدأ المقدمة بحمد الله والصلاة على الرسول . ويخشى المسلمون أن يدنس المداد الذى يطبع به اسم الله ، أو الورقة التى يطبع عليها . ويخشون أيضا أن تصبح كتبهم عند طبعها رخيصة الثمن فتقع بين أيدي من لا يصونها . وفكرة استعمال فرجون من شعر الكلب ، وكانت تستعمل أولا هنا ، لوضع الخبر على اسم الله أو على كلامه تكدرهم كثيرا . ومن ثم لم يطبع الكتب في مصر حتى الآن إلا الحكومة ؛ غير أن اثنين أو ثلاثة استأذنوها في طبع بعض الكتب في مطبعتها فأذنت لهم . وأعرف كتابيا هنا رغب طويلا في طبع كتب كان يثق بمطبعها ، ولكنه لم يستطع أن يتغلب على ترددده في شرعية هذا العمل .

يثير احترام المسلمين للقرآن الدهشة . فهم يحرصون على ألا يكون المصحف أدنى الصدر ، سواء أكان محمولا أم معلقا . ويودعونه مكانا مرتفعا طاهرا ، ولا يضعون فوقه كتابا ولا شيئا آخر . ويقولون عادة عند الاقتباس منه : « قال الله تعالى في كتابه العزيز » . ويعتبرون من غير اللائق أن يلمس المصحف نصراني أو يهودي ، أو غير مؤمن بتمامه ؛ ولكن البعض يدفعه الجشع ، وإن نذر ذلك ، إلى بيعه إلى هؤلاء . ومن المحرم أيضا أن يلمس المسلم القرآن ما لم يكن على طهر شرعى . ولهذا كثيرا ما يطبع قوله تعالى : (لا يمسه إلا المطهرون) فوق الغلاف . وتنطبق هذه الملاحظات عينها على أى كلام من القرآن . ومما يستحق الاعتبار ، مع ذلك ، أن ينقش على أكثر النقود العربية القديمة كلمات قرآنية أو الشهادة ، مع أنها سمكت ليستعملها اليهود والنصارى ، مثل المسلمين . ولكنى سمعت أن هذا الإجراء ملوم عليه بشدة .

وقد سألت مرة صديقاً مسلماً هل يعتبر التين موافقاً للصحة في مصر ؟
 فأجاب : ألم يذكر التين في القرآن ؟ إن الله أقسم به في قوله : والتين والزيتون .
 لا شك أن المسلمين المحدثين أتقياء إلى حد الحماسة ، وإنما يعوزهم الثبات ونبذ
 الخرافات . ويندر ، على ما أعتقد ، أن يوجد فيهم ملحدون حقاً ، وهؤلاء
 لا يجراؤن على إظهار إلحادهم خوفاً على حياتهم . وقد سمعت عن اثنين أو ثلاثة
 منهم ارتدوا عن دينهم بمخالطتهم الأوربيين مخالطة طويلة وثيقة ؛ وقابلت ملحداً
 واحداً كانت له معي مناقشات طويلة . وقد ذكرت عرضاً في الفصول السابقة
 عادات كثيرة تبين الشعور الديني السائد بين مسلمي مصر . ويستعمل المتسولون
 في هذا البلد نداءات دينية ساذجة أمثلة منها فيما بعد . ويشبه هذه النداءات
 صياح باعة الخضر وغيرها . وقد أدهشني هتاف حارس الليل ، في الحى الذى سكنته
 أئماء زيارتى الأول بحاله وسموه : « سبحان الملك الحى الذى لا ينام ولا يموت » .
 ويصيح الحارس الحالى فى الحى ذاته : « يارب يا دائم » . ويمكننى أن أضيف
 أمثلة كثيرة أخرى توضح تدين الشعب الذى أحاول وصفه . إلا أنه ينبغي أن
 أقرر هنا أن التدين ضعف كثيراً بين المسلمين . فإنك لا تنفك تسمع منهم أئماء
 الحديث معهم مثل قولهم : « إنها نهاية الدنيا ! لقد تردى العالم فى الكفر » .
 ويعتقدون أن حالة المسلمين الآن تدل على قرب النهاية . ويبين ما ذكرت فى
 بعض عقائد الوهابيين ، على أنها عقائد المسلمين الأولين ، إلى أى حد كبير حاد
 المسلمون عن تعاليم القرآن كما بلغت أولاً .

يظهر الرجال ، تحت تأثير إيمانهم بالقضاء والقدر ، فى أوقات الابتلاء ، صبرا
 مثالياً ، وبعد الحوادث المفجعة ، استسلاماً وتجلداً عجيبين يكادان يقربان من
 البلادة (١) ؛ ويعبرون عن أسفهم بقولهم متهمدين « الله كريم » . أما النساء ،
 فهن على النقيض ، يبدن حزنهن بالإسراف فى البكاء والصراخ . وبينما يلوم
 المسيحى نفسه بحق على كل حادث مكدر يظن أنه جلبه على نفسه ، أو كان يمكنه

(١) وليس المسلمون مع ذلك بلداء كما يرى بعض السياح ، إذ أنه ليس من غير الشائع
 أن تراهم يبكون ؛ ولا يعتبرون إظهار الشعور هكذا تخشاً ، بل يصورون أبطالهم ، فى قصائدهم
 وأقاصيصهم ، ليكون عند الحزن الشديد .

تجنبه ، يتمتع المسلم عند تقلبات الزمان وصروف الدهر بهدوء بال عجيب . ولا ينفك مستسلماً عند دنو أجله فيصيح : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ويجيب من يستفسر عن حاله : « الحمد لله . الله كريم » . ولا يمنع الإيمان بالقضاء والقدر المسلم مع ذلك من السعي إلى تحقيق غايته ؛ فإيمانه بالقدر ليس مطلقاً ، ولا هو يجعله يهمل مجتنب الخطر ، إذ حرم القرآن بقوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ؛ غير أنه في بعض الأحوال كانتشار الطاعون وغيره من الأوبئة أمر الرسول (ص) المسلمين ألا يدخلوا مدينة موبوءة وألا يخرجوا منها . ويختلف المسلمون في جواز الحجر الصحي ، إلا أن عمومهم يرونه غير ملائم .

ويجمل الإيمان بالقدر المسلم مجرداً من الادعاء بمعرفة أعماله المستقبلية أو أى حادثة آتية . فلا يتحدث أبداً عما ينوى عمله أو يتوقع حدوثه دون أن يقول : « إنشاء الله » ؛ وكذلك عند ما يروى واقعة سابقة غير محققة ، يقدم كلامه أو يختمه بقوله : « الله أعلم »

يتمتع المصريون بفضيلتي الجود والاحسان ، اللتين يثبتهما الدين في قلوبهم ، إلى درجة عالية . ولكن يبدو من تصريحهم أن انتظار الثواب في الآخرة يحرضهم على الصدقة ، بقدر ما تحرضهم الشفقة ببني جنسهم ، أو الرغبة المزهة في القيام بما يأمر الله . ويمكن من بعض الوجوه أن نمزو كثرة المتسولين في القاهرة إلى ميل السكان إلى الإحسان . ومن آثار هذه الفضيلة أيضاً إقامة السبل الجميلة ، التي تراها في هذه المدينة ، والسبل الوضيعة في القرى والحقول (١)

كان يسرنى كثيراً ، أول اختلاطى بالمصريين ، أن أشاهد شفقتهم في معاملة الحيوان ، وأن أرى البعض يجمع أطراف ثيابه المرسلة ليتحاشى لمس كلب ، ثم يقذف للحيوان الدنس قطعة من الخبز الذي يأكله . وكانت جرائم القتل والسرقه وغيرها نادرة حينئذ . ولكنى أجد اليوم أغلب المصريين قد انقلبوا إلى الأسوأ في شفقتهم نحو الحيوان وبني جنسهم . ويبدو لأول وهلة أن شدة الحكومة المفرطة قد أوجدت في الشعب البغى والميل إلى الإجرام ؛ إلا أنني أميل إلى الظن بأن سلوك الأوربيين أفضى كثيراً إلى هذه النتيجة ، إذ لا أنذكر أنني

(١) وأكبر السبل في القاهرة ما أقيم في عهد الترك والماليك .

رأيت قسوة في معاملة الحيوان إلا حيث يسكن الفرنج أو حيث يترددون مثل الإسكندرية والقاهرة وطيبة . ويتقزز المرء من رؤية حمير النقل المتعسة في القاهرة . فأكثرها مصاب بجروح قرمزية كالياقوت الجرى ، وتقرعها على الدوام حبال غليظة من مسد تربط بظهر البرذعة . وكثيراً ما يضرب الأطفال والرجال الكلاب في الشوارع لمجرد اللهو . وكثيراً ما رأيت أطفالاً يلهون بمضايقة القطط التي كانت محبوبة كثيراً قبلاً^(١) . وكانت جرائم السرقة والقتل تحدث أسبوعياً تقريباً أثناء الشهرين أو الثلاثة التالية لقدومى الثانى . وكان الحكام الترك يجورون على الفلاحين ؛ ولكن بعض هؤلاء ، حين خلفوهم على الحكم ، فاقوهم في العافيان . والرأى العام أنهم ألين من الأتراك^(٢) .

ومع أنى أشاهد الآن على التوالى الكلاب الشريفة تُضرب في شوارع القاهرة ، وهى هادئة لا تضر ، فلا أزال أرى بعضهم يطعمونها ، وأغلبهم فقراء . وفى كل حى من أحياء المدينة أحواض صغيرة تملأ يومياً للكلاب . ويؤجر أصحاب الحوانيت في شارع واحد من شارع لرش الأحواض للكلاب . ويوجد أيضاً حوض للكلاب عند كل دكان لبيع الشراب . ويمكن أن نذكر هنا أن كلاب القاهرة ، وقلما يكون لها صاحب ، تكون جماعات منظمة مختلفة تقصر كل منها نفسها على حى تطرد منه كل كلب دخيل . وهذه الحيوانات تكثر جداً في القاهرة . وهى تحرص على المموم أن تتجنب الإنسان ، كما لو كانت تعلم أن أغلبية السكان تنبذها . ولكنها كثيراً ما تنبح عند ما ترى أحداً يلبس الملابس الأفرنجية ، وتضابق المارة ليلاً . وهذه الكلاب مفيدة لأنها تأكل سقط

(١) أعتقد أن من المناسب أن أذكر هنا أن لدى باعنا قويا على الاعتقاد بأن بركهاردت استفهم خطأ حينما ذكر (« فى الأمثال العربية » رقم ٣٩٣) أن الأطفال الشرقيين فى مصر وغيرها يعذبون الثعابين بوضعها فى كيس من الجلد ، ثم يلقون عليها جيراً يطفئونه بعد ذلك بالماء . ولم أجد واحداً سمع بهذه القسوة . وليس من الممكن أن يجرؤ الأولاد فى هذا البلد على وضع ثعبان فى كيس لأنهم يخشونه كثيراً ، أو أنهم يغرمون قروشاً كثيرة فى شراء كيس يتلقونه بهذه الطريقة . وربما يشير المثل الذى بنيت عليه هذه الرواية إلى طريقة لقتل الثعابين لا اللهو بها .

(٢) وكثيراً ما يسمع الفلاح العربى يقول هذا المثل : « ظلم الترك ولا عدل العرب » ويطلقون لفظ « العرب » هنا على طبقهم بدلا من لفظ البدو الذين يطلق عليهم الآن عادة اللفظ السابق . أنظر بركهاردت « الأمثال العربية » رقم ١٧٦ .

الذبايح التي يرى بها من حوائط الجزيرة والبيوت . كما أن الكثير منها يتردد على أكوام الزبالة حول الماصمة ، فتتقات ، مع الصقور ، من رمم الجمال والحجر التي تنفق في المدينة . وأغلب الكلاب صهب اللون ، والظاهر أنها تماثل بنات آوى شكلاً وميولاً .

ولا يمنع رأى المسلمين في الكلاب من الاحتفاظ بها للحراسة ، وأحياناً للتدليل . وقد حدث منذ زمن قصير حادث غريب من النوع الأخير . فقد اتخذت امرأة وحيدة في هذه المدينة ، كلباً يؤانسها في وحدتها . فاخطف الموت هذا الأنيس الوحيد ؛ فعزمت المرأة ، لحزنها وعطفها عليه ، أن تدفنه كئى مسلم في قبر لائق في مدافن الإمام الشافعي المقدسة . فغسلت الكلب طبقاً للقواعد المريعة عند وفاة المسلم وكفنته في كفن جميل ووضعته في نعش ، واستأجرت نادبات وأقامت عليه مأتماً حقيقية . ولم يتم ذلك دون أن يشير عجب الجيران الذين لم يستطيعوا معرفة المتوفى ولم يتدخلوا لأنه لم يكن بينهم وبينها ألفة قط . ثم استأجرت المرأة مرتلين ليقدموا الجنازة ، وتلاميذ لينشدوا ، ويحملوا المصاحف أمام النعش . وسار الموكب في نظام مهيب ، وتبعت المرأة والنائحات النعش ، وهن يملأن الجو بصراخهن ؛ غير أن الموكب لم يسر كثيراً إذ اجتأت إحدى الجارات وسأت السيدة الحزينة من المتوفى ؛ فأجبتها : « إنه ابني السكين » . فكذبتها السائلة ، فاعترفت الشكلى بأنه كلبها ، ورجت جارتها الفضولية أن تكتم السر ؛ إلا أن احتفاظ المرأة المصرية بالسر ، وبسر مثل هذا ، مستحيل . فأذيع الخبر في الحال ، وسرعان ما تجمع جمهور غاضب أوقف الجنازة . وصب المرتلون والمفسدون غضبهم على مستخدميهم بعدما استخلصوا منه نقودهم ، لأنه مكر بهم . ولولم يتدخل الشرطة ، لذهبت المرأة على الأرجح ضحية هياج الشعب (١) .

(١) يشير دربلو Herbelot د' إلى حالة مشابهة نوعاً . وهي أن تركياً احتفل بدفن كلبه العزيز في حديقته ، فاتهم أمام القاضي بأنه دفن الحيوان طبقاً للشعائر الإسلامية . وتفادى التركي العقاب ، ولعله كان شديداً ، بأخبار القاضي أن الكلب أوصي إليه بقدر من المال . أنظر هاموس "Bibliothèque Orientale" مادة « قاضي » . (المؤلف)

وبرتلوى دربلو دملثيل Barthélemy d' Herbelot de Molainville (١٦٢٥ - ١٦٩٥) مستشرق فرنسى تلقى علومه في جامعة باريس واهتم بدراسة اللغات الشرقية فسافر إلى موانئ

والمجيب أن القبط الشريفة ، في القاهرة ، تطعم على نفقة القاضى . فيوضع في الساحة الكبرى أمام المحكمة عصر كل يوم مقدار من سقط الذبائح ، وتدعى القبط معاً لتأكل . وقد وقف السلطان الظاهر بيبرس على القبط ، كما علمت من كبير كتاب القاضى ، حديقة تسمى « غيط القطة » بجانب مسجده شمالى القاهرة . ولكن هذه الحديقة باعها الأمراء عليها ومشتروها ، على التوالى . وقد باعها السابقون بحجة أنها خربة ، فلا تصلح للانتاج إلا بعد نفقات كثيرة . وتستغل الحديقة الآن حكراً بخمسة عشر قرشاً سنوياً ، تنفق في إطعام القبط المتروكة . ومن ثم أقيمت نفقة القبط كلها على القاضى بحكم منصبه الذى يجعله حارساً على الأوقاف الخيرية ، فعليه أن يتحمل إهمال سلفه . ومع ذلك أهمل واجب إطعام القبط أخيراً . ويتخلص الكثيرون في القاهرة من القبط ، بإرسالها إلى بيت القاضى وإطلاقها في الساحة الكبرى .

ذكرتُ قبلاً مؤانسة المصريين بعضهم لبعض . وهم يخاطبون الأجانب الذين لا يوافقونهم في الشائيل والمادات ، ولا يذهبون مذهبهم في التفكير ، بأدب يشوبه الجفاء والحذر . وكثيراً ما يظهر المصريون نحو الأجانب وفيما بينهم أيضاً فضولاً وقبحاً . وهم يخشون كثيراً أن يجعلوا لهم أعداء ، فيدفعهم خوفهم هذا إلى أن يؤيد كل منهم الآخر ، ولو كان في ذلك جرم .

ويعتبر المرح صفة ظاهرة في الشعب المصرى . ويظهر البعض احتقاراً كبيراً للتسليمية التافهة . ولكن الكثيرين يجدون فيها بهجة . ومن المدهش أن ترى المصريين يتسلون بأقل شئ ، فهم يتهيجون حينما يوجد حشد وضجة وحركة . وتخلو حفلاتهم العامة مما يسلى الرجل المثقف . ويبدو أن الطبقات السفلى تسمع كثيراً بالجلوس في المقهى للتدخين وشرب القهوة بعد العمل اليومى .

== إيطاليا للتحدث مع الشرقيين الوافدين إليها استكمالاً لدراسته وعاد إلى فرنسا ولم يلبث أن عين ناموساً شرفياً للملك ، وفي ١٦٩٢ عين مدرساً للغة السرانية في Collège de France ، وأهم مؤلفاته القاموس العام عن شعوب الشرق المسمى Bibliothèque Orientale ، وقد آتته جالند Galland في سنة ١٦٩٧ وله قاموس آخر في اللغات التركية والفارسية والعربية واللاتينية لم يطبع .

إن الضيافة فضيلة في الشرقيين تثير الإعجاب الحق للغاية . ويستحق المصريون من أجلها كل ثناء . ويطلق عادة على الزائر أو الضيف في مصر كلمة « مسافر » . وقل في مصر من يفكر في تناول طعامه وفي بيته غريب دون أن يدعو إلى مؤاكلته ، إلا إذا كان المدعو من طبقة دنيا فيدعى إلى مأدبة الخدم . ويعتبر امتناع المسلم عن الأمر بإعداد المائدة في الوقت المعتاد ، لأن زائراً دخل عرضاً مخالفة فاضحة للآداب . ويتناول أفراد الطبقة الوسطى عشاءهم أحياناً أمام أبواب دورهم ، عندما يمشون منفردين ، فيدعون كل عابر جليل الهيئة ليأكل معهم . ويفعل هذا عادة أفراد الطبقة الدنيا . والاستضافة في المدن نادرة ، لأن فيها وكالات أو خانات يستطيع الغرباء المبيت فيها ؛ كما أن الحصول على الطعام فيها أمر هين . أما في القرى فكثيراً ما يضيف المسافرون شيخ القرية أو غيره من السكان ؛ وفي العادة أن يقدم الضيف من الطبقتين العليا والوسطى ، عطية إلى خدم المضيف ، أو إلى المضيف نفسه . ولكن يندر أن تقبل عطية الضيف في البادية . والمسافر أن يستقرى ، بموجب السنة ، من يستطيع أن يقره ثلاثة أيام . وتقدم لنا التوراة في قصة إبراهيم وإضافته الملائكة الثلاثة ، صورة كاملة للطريقة التي يستقبل بها الشيخ البدوي الآن الوافدين على غيمه . فهو يأمر زوجه أو نساءه بعمل الخبز في الحال ؛ ثم يذبح نعجة أو غيرها ، ويطهيها على عجل ؛ ثم يحضر لبناً وأى طعام آخر مهيباً فيقدمهما لضيوفه مع الخبز واللحم الذي أعده . ويقف البدوي بين أيدي عظماء الضيوف أثناء تناولهم الطعام ، كما فعل إبراهيم في القصة المشار إليها . ويكاد أغلب البدو يؤثرون الضيف على أن يرضوا بالإساءة إلى ضيوفهم مدة الضيافة .

كان من المعتاد أن ترى في القاهرة طوائف من « الطفيليين » الذين يستفيدون من ضيافة مواطنهم ، فيمشون على التطفل . إلا أن هذه الطائفة نقص عددها أخيراً . وكان من المؤكد تقريباً أن يوجد بعض هؤلاء الأبطال حيث تولى ولية ، ولا يمكن التخلص منهم إلا بنفحة من النقود . وهم يتجولون أيضاً في البلاد دون أن يملكوا فلساً واحداً ، فيمتطفون على المنازل الخاصة ، كما احتاجوا إلى طعام ، ويسمعون إلى ذلك بمختلف الحيل . وحكى لي أن طفيليين

عزما على الذهاب إلى مولد السيد البدوي في طنطا ، وهي على مسيرة يومين ونصف يوم من القاهرة سافراً هيناً . فسار الطفيليان الهوينا حتى بلغا قليوب في نهاية اليوم الأول ، وتحيراً في الحصول على عشاء . فذهب أحدهما إلى القاضي ، وبعد أن حيّاه قال : « يا مولانا القاضي . أنا في طريق من الشرقية إلى مصر ، ومعي رفيق في ذمتي لي خمسون كيساً ، يحملها معه ويرفض أن يمطيني إياها ، وأنا في حاجة إليها الآن » . فقال القاضي : « أين رفيقك ؟ » فأجاب المدعي : « هنا في هذه المدينة » . فأرسل القاضي من يحضر التهم ، وأمر في أثناء ذلك بإعداد عشاء طيب ، إذ كان يتوقع رسماً كبيراً في قضية كهذه ؛ وهذا ما كان يفعله قضاة الأرياف في مثل هذه الظروف . ودعا القاضي الخصمين إلى العشاء ، والمبيت قبل النظر في القضية . ونظرت الدعوى في الصباح ، فسلم التهم بوجود الخسین كيساً معه وقال : « إنه مستعد لردّها لأنها تقعبه ، فهي ليست سوى أكياس الورق التي يباع فيها البن » . ثم قال : « نحن طفيليان » . فطردهما القاضي غاضباً .

إن اعتدال المصريين في الطعام والشراب مثالي . فقلما رأيت ، منذ قدومي الأول مصرياً في حالة سكر ما لم يكن عازفاً في سامر ، أو راقصة ، أو عاهرة من السفلة . ويبدى المصريون احتراماً عظيماً للخبز باعتباره سند الحياة^(١) . ولا يجيزون البتة التبذير في أصغر قطعة منه إذا استطاعوا تجنب ذلك . وكثيراً ما لاحظت بعضهم يرفع قطعة الخبز إذا سقطت عرضاً في الطريق إلى فمه وجهته ثلاث مرات ، ويفضلون وضعها على جنب لكي يأكلها كلب على أن يدوسها المارة . وقد روي لي كثيرون الحادث التالي الذي يدل على احترام المصريين للخبز إلى حد غير معقول ؛ ولكن ينبغي القول أن هذه الرواية يصعب تصديقها : كان خادمان يتناولان طعامهما جالسين لدى باب سيدهما عندما أبصرا مملوكاً يتجه نحوهما راكباً في جمع من رجاله . فقام أحد الخادمين احتراماً للقادم العظيم ؛ فصاح القادم غاضباً : « أيهما أحق بالاحترام ، الخبز أم أنا ؟ » ثم أشار بيده إلى المذنب إشارة معلومة دون أن ينتظر منه جواباً ، فضرب عنقه في الحال .

يراعى المسلمون المصريون من الطبقتين العليا والوسطى النظافة بدقة . وتعتبر

(١) ويطلقون على الخبز لفظ « عيش » ومعناه الحياة .

الطبقة الدنيا في مصر أكثر اعتناء بالنظافة من غيرها في أغلب البلدان الأخرى . ولعل المسلمين ما كانوا يهتمون بالنظافة إلى هذه الدرجة لو لم يأمر بها الدين . ويبدو مما سبق ذكره في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، أن الواجب ألا نحكم على المسلمين ، نظراً لنظافتهم ، من تركهم أطفالهم في حالة قدرة . ولا شك أن الوضوء أمر حكيم ؛ فالصحة لا تكون في البلاد الحارة إلا بالنظافة . ويحرص المصريون حرصاً خاصاً على تجنب كل ما قرر الدين قذارته ونجاسته ؛ فيمتنع المسلمون عن شرب النبيذ لعدة أسباب ، أحدها أنه نجس . وأعتقد أنه يندر حمل مسلم على تناول قطعة من لحم الخنزير ؛ ما عدا فلاحى البحيرة ، فأكثرهم يأكلون لحم الخنزير البرى والفيران (١) . وقد تحدثت مرة مع مسلم في موضوع الخنزير ، فقال إن الفرنج شعب يفتري الناس عليه كثيراً ؛ فلا شك أن المعروف عنهم أنهم يأكلون الخنزير ، ولكن بعض المفتريين هنا يؤكدون أنهم لا يأكلون لحم هذا الحيوان النجس فحسب ، بل يأكلون جلده وأحشائه والدم ذاته أيضاً . فلما اعترفت له بصدق التهمة ، انفجر يلعن الكفار ويدعو عليهم بالدرك الأسفل من النار .

يدين أكثر القضاة الذين يبيعون اللحم إلى أهل القاهرة المسلمين باليهودية . وقد اشتكى ، منذ سنوات مضت ، أحد العلماء الكبار إلى الباشا من هذا الأمر والتمس وقفه . وسمع بذلك عالم آخر فتيمة وألح أمام الباشا في أن هذا العمل لا يخالف الشرع . فقال المشتكى : « قدم دليلك » . فأجاب الآخر : « دليلي قوله تعالى : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » . فاستدعى حينئذ رئيس القضاة اليهود وسأله هل يقول شيئاً قبل ذبح الحيوان ؟ فأجاب : « نعم . نحن نقول دائماً مثل المسلمين : باسم الله . الله أكبر . ولا نذبح الحيوان إلا بحز نحره » . فصرف المشتكى حينئذ .

(١) والكلاب أيضاً يأكلها الكثير من المغاربة المستوطنين الاسكندرية . وقد استقر بعض هؤلاء في حى طولون بالقاهرة .

ويقول عبد اللطيف البغدادي ، الذى وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد ، « الإفادة والاعتبار في الأمور الشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » : « ... ومنهم أصناف يأكلون الفأر المتولد في الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط » . (المترجم)

ذهب رجل منذ أيام قليلة إلى خباز ليشتري فطيرة ، فرآه يسحب من الفرن طبقاً به لحم خنزير كان يشويه لأفرنجنى ؛ فاستدعى الرجل في الحال شرطياً من أقرب قسم لأنه يعتقد أن من الممكن أن تكون الأشياء الأخرى لامست اللحم النجس فتلوث . وألزم الشرطى أن يقود الخباز إلى الضابط . فلم يجزع الخباز واحتج بجهله أن اللحم كان خنزيراً . واعتبر الضابط الحادث مهما يستدعى رفعه إلى ديوان الباشا . فرأى رئيس الديوان أن الأمر خطير يصعب الحكم فيه فأرسل المتهم إلى المحكمة . فاستفتى القاضي المفتى فأفتى أن كل طعام لا يكون نجساً في أصله تطهره النار بما يلوته . فيعتبر طاهراً كل طعام أنضج في الفرن ولو لامس الخنزير واستقدم الباشا من أوربا ، منذ مدة قصيرة ، لديوان حريمه طبقاً من الحشايا والوسائد حشيت بشعر الخيل . ففتحت السيدات إحدى الوسائد ليتحققن من المادة التي تجعلها وثيرة على هذا الشكل اللطيف . فلما رأيتها من شعر الخنزير ، كما اعتقدن ، تفرزن أشد التفرز ، وأصررن على طرح الديوان بأكمله .

واستخدم الباشا منذ سنوات قليلة رجالاً فرنسيًا لتكرير السكر . فاستعمل الدم لهذا الغرض . ومنذ ذلك اليوم قل من يجرو من المصريين على استهلاك السكر الذي يصنعه هذا الأفرنجنى . فاضطر الباشا إلى تحريم استعمال الدم في مصانعه واستبدل به زلال البيض . وقد رأى بعض المصريين أن السكر الأوربى يفضل السكر المصرى ، فاستعملوا الأول على اعتبار أن ما كان طاهراً في الأصل يمكن أن يطهر مرة أخرى بعد تلوثه . ولكن مضطر إلى استعمال السكر المصرى غير المكرر في عمل الشراب لضيوفى ، إذ أن البعض يناقشنى طويلاً في هذا الموضوع .

جرت العادة أن يصب المصريون على ملابسهم بعد غسلها ماء نقياً ناطقين بالشهادتين (١) . وقد ذكرت عند الكلام على الدين عادات أخرى في النظافة براعى المصريون أغلبها . ولكن المصريين بالرغم من هذه العادات والمبادئ في الطهارة وتعودهم الاستحمام ، لا يغيرون ملابسهم الداخلية كثيراً بقدر ما تفعل بعض الشعوب التي تعيش في أقصى الشمال والتي لا تحتاج إلى ذلك كثيراً . ويذهب

(١) ويعبرون عن ذلك بقولهم : إن فلانا « شاهد الحوايج » بدلا من « غسل الحوايج » ونشهد عليها .

المصريون إلى الحمام مراراً في ملابس قدرة يلبسونها بعينها ثانية بعد استحمام تام .
 يشتهر المصريون بفضيلة الحب البنوي . وقد سبق أن ذكرت الإحترام
 الظاهر الذي يؤديه الولد إلى والديه . ويظهر المصريون أيضاً احتراماً زائداً
 للمسنين^(١) وبخاصة المشهورين بالتقوى والعلم . ويعتبر حب المصريين لوطنهم ، وعلى
 الأخص مسكنهم ، صفة بارزة أخرى في طبائعهم . ويخشى المصريون على العموم
 هجر مسقط رأسهم . وقد سمعت الكثيرين يقررون السفر إلى الخارج بغية كسب
 عظيم ، ولكن عزمهم يفتقر عندما يقترب موعد السفر . وقد خفف أخيراً من
 حدة هذا الشعور ما يمانيه البعض من شدة الظلم . ولا شك أن هذا الشعور نشأ
 إلى درجة عظيمة من جهل الناس لحالة البلاد الأجنبية ومساكنها . وقد سمعت
 البعض يدلل على حب المصريين العجيب لمسقط رأسهم ، بأنه يندر أن ترضى
 امرأة أو فتاة ، أو يسمع والدها ، بالاقتران بمن لا يمد بالبقاء في مدينتها أو بلدها .
 ولكني أظن أن الإحجام عن ترك الوطن في هذه الحالة ينتج من خوف المرأة
 أن تفقر إلى حماية أهلها . ويتعلق البدو بصحراواتهم ، ويحتقرون الحضريين
 والفلاحين . ولكن الكثيرين منهم يميلون إلى الاستقرار على شواطئ النيل
 الخصبة أيضاً . ومع أن المصريين من نسل البدو إلى حد كبير ، فهم لا يشابهونهم
 في حب الصحراء ، وإن شابهوهم في حب الوطن . وتزود الرحلة إلى الصحراء
 من يقوم بها من المصريين بقصص مطنبة في المتاعب والمجازفات والمعائب ، التي
 يفرمون بروايتها إلى مواطنيهم ذوى الخبرة القليلة .

يتم الكسل جميع طبقات المصريين ، ما عدا الذين يضطرون إلى كسب
 حياتهم بالأشغال اليدوية الشاقة . وهذا الكسل نتيجة المناخ وخصوبة الأرض .
 ويبذل العامل بالآلات أيضاً ، بالرغم من شدة طمعه في الربح ، يومين في عمل
 يستطيع بسهولة إنجازهما في يوم ؛ ويهمل أكثر الأعمال ربحاً ليصرف وقته في
 التدخين . غير أن البواب ، والسائس الذي يجري أمام جواد سيده ، والنوتية
 الذين يستخدمون في جر المراكب صاعدين في النهر وقت سكون الجو واشتداد
 حرارته ، يقاسون ، مثل الكثير من الفعلة الآخرين ، تعباً شديداً .

(١) أظن لاولين ١٩ — ٣٢ : « من أمام الأسيب تقوم وتحترم وجه الشيخ وتحشى
 إلهك . أنا الرب » .

يعرف المصريون أيضاً بصلابة الرأي إلى حد الإفراط . وقد ذكرت ، في فصل سابق ، أن المصريين اشتهروا ، منذ عصر الرومان ، بامتناعهم عن دفع الضرائب حتى يضربوا ضرباً موجعاً ، وأنهم كثيراً ما يفتخرون بمقدار الجلدات التي يناولونها قبل أن يتخلوا عن نقودهم . وهم لا يرون غرابة في مثل هذا التصرف . وقد حكى لي مرة أن فلاحاً فرض عليه الحاكم ما قيمته خمسة شلنات تقريباً ، ففضل أن يقاسى الجلد على أن يدفع هذا المبلغ الزهيد ، وقرر أنه لا يملكه ، فأمره الحاكم بالانصراف . وقبل أن ينصرف لطمه على وجهه ، فسقطت من فمه قطعة ذهبية بقدر المبلغ المطلوب تماماً ، فكان الضرب مع قسوته عجز عن حمله على الدفع . وتبدو هذه الحال غريبة في طباع المصريين . ولكن يسهل تبريرها بأن المصريين يعلمون تماماً أنه كلما دفعوا عن طيب خاطر طمع الحاكم في أموالهم . على أن المصريين بوجه آخر يمتازون بشدة العناد وصعوبة المقادة ، بالرغم من امتثالهم الشديد في طباعهم ومنهم . ويندر أن يحمل المرء الصانع المصري على أن يصنع شيئاً حسب الطلب تماماً . فلا بد أن يفضل رأيه على رأي مستخدمه ، ويصعب أبداً أن ينجز عمله في الميعاد المضروب . ولا يعموز فلاحى مصر ، مع خضوعهم الشديد لحكامهم ، الشجاعة عندما ينهضون لخصومة يدينهم . وهم يبرعون في الجندية .

ولا شك أن المصريين مثل شعوب الأقاليم الحارة يفوقون الشعوب الشمالية في الاستسلام للشهوات . على أن هذا الإفراط لا ينسب إلى المناخ فقط ، ولكن ينسب على الأخص إلى نظام تعدد الزوجات ؛ وسهولة الطلاق كلما اشتبهى الرجل زوجة جديدة ، وإلى عادة التسرى . ويقال أيضاً كما أعتقد حقاً إن المصريين ، فيما يختص ذلك ، يسبقون الشعوب المجاورة التي تماثلهم في الدين والنظم المدنية^(٢) ، وإن بلدهم لا يزال يستحق تسمية « دار الفاسقين » التي أطلقها القرآن على مصر القديمة ، طبقاً لرأى خير المفسرين . وقد أشاع الماليك الفاحشة في مصر ، فأصبح الفسق هنا أكثر انتشاراً منه في البلدان الشرقية ؛ ولكنه على حد القول قل كثيراً في السنوات الأخيرة .

(١) وليس معنى ذلك أنه يقع على الأتراك أو عرب الصحراء .

يستبيح المصريون من الجنسين وفي كل طبقة ، البذاءة المفرطة في الحديث ؛ حتى أعف النساء وأقرهن ، عدا القليل منهن ، يستعملن الكلام الغليظ ، ولكن دون بذاءة . وكثيراً ما ينطق المثقفون عبارات فاحشة ، لا تلائم غير أحنط المواخير . ويذكر أرق النساء ، في حضرة الرجال ، أشياء وأحاديث ، قد تعف الماهرات في بلادنا عن ذكرها ، دون أن يدركن مخالفة ذلك للآداب .

توصف نساء مصر بأنهن ، في أهوائهن ، أفسد النساء اللاتي ينتمين إلى أمة متحضرة . ويخلع مواطنوهم من الرجال هذه الصفة عليهن بسخاء حتى في أحاديثهم مع الأجانب . ولا شك أن في المصريات كثيرات يشذزن عن ذلك . ويسرنى أن أسوق هنا تعليقاً لصديق الشيخ محمد عياد الطنطاوى على عبارة في ألف ليلة وليلة ، قال : « يمد الكثيرون الزواج مرة ثانية من الأعمال الشائنة . ويسود هذا رأى مدن الريف وقراه . ويمتاز أخوالى بهذا ، حتى أن المرأة عندهم ، إذا توفى زوجها أو طلقها في شبابها ، تترمل ما بقيت فلا تزوج مرة أخرى أبداً » .

ولكنى أخشى أنه ينبغى التسليم ، نظراً إلى غالبية المصريات ، بأنهن جد فاجرات . وقد اشتط أكثرهن ، كما يقال ، في استعمال الحرية . ولا يعتبر أغلبهن مصونات إلا إذا أغلقت عليهن الدار ؛ وقل منهن من يخضعن لهذا القصر . ومن المعتقد أن المصريات يملكن شيئاً من الدهاء في تدبير الحيل التي يعجز الزوج عن تجنبها مهما كانت فطنته وحرصه ، وأنه قلما تخيب لذلك حيلهن مهما عظم الخطر الظاهر لما يباشرنه . وقد يكون الزوج نفسه أحياناً وسيلة لإشباع ميول زوجه الإجرامية بدون علمه . وتعرض لنا بعض قصص ألف ليلة وليلة في مكائد النساء صوراً صادقة عن حوادث لا يندر وقوعها في عاصمة مصر الحديثة . ويرى كثيرون في القاهرة أن جميع النساء تقريباً على استعداد أن يدبرن الدسائس متى استطعن ذلك بدون خطر ، وأن الكثيرات يباشرن ذلك فعلاً . ويؤلمنى أن يكون رأى السابق صحيحاً ؛ وأكاد أكون مقتنعاً أن الحكم الأخير شديد القسوة ، إذ يبدو من التقاليد السائدة المتعلقة بالمرأة أنه لا بد من مكذوب . ويصعب على من لا يعرف العادات والطباع الشرقية معرفة كافية أن يدرك مشقة الاختلاط بالمرأة في هذا البلد . فلا يصعب على المرأة من الطبقة الوسطى أو العليا

إدخال عشيقها في مسكنها فحسب ، بل يستحيل عليها تقريباً أن تلقى رجلاً ذل حريم على أفراد في منزله الخاص ، أو تدخل منزل رجل أعزب دون أن تشير ملاحظات الجيران وتدخلهم المباشر . وإذا لم يكن بُد من التسليم بإقدام الكثيرات من المصريات على المكائد مع وجود مثل هذه المخاطر ، فقد يكون صحيحاً أن الصعوبات التي تعترضهن هي العائق الرئيسي لكثير من المكائد . أما عند نساء الطبقة السفلى ، فالمكائد أكثر وقوعاً وأسهل إنجازاً .

يمكن أن نغزو ميل المصريات إلى اللذات الشهوانية ، وفساد أخلاق الكثيرات منهن إلى عدة أسباب ينسب بعضها إلى المناخ ، والبعض الآخر إلى حاجتهن إلى التعليم المناسب والتسليمية البريئة والاشتغال بعمل . ولكن ذلك يرجع على الأكثر إلى سلوك الأزواج أنفسهم ، وهو سلوك أكثر خزيًا لهم من الصرامة الشديدة التي يستعملونها في تنظيم الحريم . فجميع الأزواج في مصر يسمعون إلى تحريك شهوة نساءهم بكافة الوسائل التي في قدرتهم ؛ مع أنهم في الوقت ذاته ، يكدون ويشاربون لمنع زوجاتهم من إشباع هذه الشهوة بطريق يخالف الشرع . وهم يسمحون للنساء بالإصغاء من وراء الشبائيك إلى الأغاني الخليعة والروايات الفاحشة التي ينشدها في الشارع رجال يؤجرون لذلك . كما يسمحون لهم بمشاهدة رقص « الغوازي » الشهوان « والحلوات » الخنثين . ويأذنون للغوازي ، وحرقتن الدعارة ، بدخول حريم الأغنياء ، لا لتسليمية السيدات بالرقص فحسب بل لتعليمهن الفنون الشهوانية . وقد يجلب أحياناً لتسليمية الحريم دُعي لا حشمة فيها .

روى لي عن كيد المصريات حكايات لا حصر لها . أذكر نموذجاً منها القصة التالية ، وقد حدثت أخيراً : تزوج نخاس شابة جميلة من هذه المدينة ، وكان يملك مالا يهيء له عيشاً رغداً ، ولكنه فقد أكثره ، فكان له من ثروة امرأته عوض . ولم يلبث الرجل مع ذلك أن أهمل زوجه . ولكنه كان قضى عهد الشباب ، فلم تكثر زوجه لذلك ، ومالت إلى رجل آخر يعمل زبالاً ، وكان قد تعود الحضور إلى منزلها . فاشتريت لهذا الزبال دكاناً بجانب المنزل ، ونفحته مبلغاً من المال يصلح به شأنه . ثم أخبرته أنها ابتكرت طريقة ليزورها في اطمئنان تام . وكان لحریمها شباك بمصرعين قامت أمامه على قرب منه نخلة تملو المنزل . فلاحظت أن الشجرة

تقدم لعميقها وسيلة للوصول إلى غرفتها والهرب منها وقت الخطر . وكان لها خادمة واحدة تعهدت بمساعدتها على تحقيق رغباتها . وفي اليوم السابق لأول زيارة لعميقها أمرت خادمتها أن تنبئ الزوج بما سيحدث في الليلة التالية . فعزم الزوج على مراقبة زوجته ، وأخبرها أنه لن يعود إلى المنزل تلك الليلة ، ثم اختبأ في غرفة سفلى . ولما جن الليل جاءته الخادمة تنبئ به بحضور الزائر إلى الحريم . فصعد إلى أعلى ولكنه وجد باب الحريم مقفلاً . وعند ما حاول فتحه صرخت زوجته ، وحينئذ هرب عشيقتها من الشباك عن طريق النخلة . واستغاثت الزوجة بجيرانها وأخبرتهم أن لصاً في دارها . ولم يلبث أن حضر كثيرون منهم ، فوجدوها قد أوصدت باب غرفتها على نفسها ، وزوجها في الخارج ، فأخبروها أن ليس بالبيت غير زوجها وخادمتها . فقالت إن من يدعونه زوجها هو اللص لأن زوجها يبيت خارج المنزل . فأخبرهم الزوج حينئذ بما حدث ، وأكد أن رجلاً معها . وكسر الباب وبحث في الغرفة ، ولكنه لم يجد أحداً . فلامه الجيران ، وشتمته زوجته لافترائه عليها . واصطحبت في اليوم التالي اثنين من جيرانها ، الذين حضروا على صراخها ليشهدا أن زوجها قذفها في عرضها ، واتهمته في المحكمة أنه رمى امرأة عفيفة دون رؤية أوشهود . فحكم عليه بثمانين جلدة تبعاً لما جاء في القرآن : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » . وطالبت الزوجة بعد ذلك من زوجها أن يطلقها فرفض . وعاشا معاً ثلاثة أيام بعد هذا الحادث في سلام . وفي الليلة الثالثة ، دعت الزوجة عشيقتها ليزورها ، وقيدت زوجها يديه ورجليه أثناء نومه وشدته إلى حشيته . وجاء عشيقتها ، فأيقظ الزوج وهدده بالموت العاجل إن صاح . ومكث مع الزوجة ساعات في حضوره . ولما خرج المعتدى ، فكثت الزوجة وثاق زوجها ، فنادى الجيران ، وأخذ يضربها بقسوة وهي تستغيث . وحضر الجيران ورأوه هائجاً ، فلم يشكوا في قولها أن الرجل مجنون . فخلصوها من قبضته ، وهم يحاولون تهدئته بالكلام اللطيف ، ويدعون الله أن يشفيه . وأسرعت الزوجة باستدعاء رسول القاضى ، وذهبت معه هي وزوجها وكثير من الجيران الذين شاهدوا الحادث إلى القاضى . وأجمع الجيران على أن الزوج مجنون ؛

فأمر القاضي بوجوب إرساله إلى المارستان^(١). ولكن الزوجة تكلفت الشفقة والتمست السماح لها بتقييده في غرفة من غرف منزلها ، حتى يمكنها أن تخفف من آلامه بالاعتناء به . فوافق القاضي مثنياً على عطف المرأة ، وداعياً أن يكافئها . وحصلت الزوجة بعد ذلك على طوق من حديد وسلسلة من المارستان ، وقيدت زوجها في حجرة سفلى من المنزل . وجعل عشيقها يزورها كل ليلة في حضور الزوج ؛ ثم تلح عليه بعد ذلك أن يطلقها بلا جدوى . وكان الجيران يحضرون يومياً للسؤال عنه ، فيشكوه لهم من أصرائه ويتهمها ، فلا يجيبونه بغير قولهم « شفاك الله ! شفاك الله ! » . واستمر هكذا شهراً ؛ فلما تبين للزوجة إصراره على الرفض أرسلت في طلب حارس من المارستان ليقله إليه . والتف الجيران حوله عند خروجه من المنزل ، وصاح أحدهم : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! شفاك الله ! » وقال آخر : « يا خسارة ! كان رجلاً فاضلاً حقاً » وقال ثالث ملاحظاً : « حقاً ... إن الباذنجان^(٢) كثير الآن » . وأخذت الزوجة تزور زوجها كل يوم في المارستان ملحة في طلب الطلاق ، وهو يرفض . فتقول له : « ستظل إذن مقيداً حتى تموت ، وسيأتى عشيقى عندي على الدوام » . وأخيراً رضى الزوج بالطلاق ، بعد أن حبس سبعة أشهر . فأخرجته من المارستان ونفذ وعده . وكان عشيق الزوجة من طبقة دون طبقتها ، فلا يمكن أن يكون زوجها لها ؛ فبقيت غريبة ، وظلت تستقبله متى تشاء . غير أن الخادمة كشفت عن حقيقة الأمر . ولم يلبث الحادث أن أصبح حديث الناس .

تتعرض الزانية إذا كانت زوجة لثرى أو لذى منصب ، كما يتعرض عشيقها لأهوال عظيمة^(٣) . وقد حدث أخيراً أن انتهزت زوجة أحد ضباط الجيش

(١) وينطقها العامة مرستان بضم الميم وكسر الراء .
ذكر المؤلف كلمة مارستان بكسر الراء والمعروف فتح الراء . وهذه الكلمة فارسية أصلها بيارستان مركبة من بيار بمعنى مريض وستان بمعنى مكان ثم اختصرت فصارت مارستان .
أنظر العرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي طبعة دار الكتب سنة ١٣٦١ هـ .
(المترجم)

(٢) يقال إن الجنون ينتشر ويشد في موسم الباذنجان الأسود .
(٣) وقال لى أحد الأصدقاء : كم رجل فقد حياته بسبب النساء ! لقد كان يعيش في هذا المنزل الذى تسكنه الآن شاب خليع جميل الصورة . وقد قطع رأسه هنا في الطريق أمام باب منزله لعلاقة أثيمة مع زوجة أحد البكوات . وقد بكته نساء مصر جميعاً .

الكبار فرصة غياب زوجها عن العاصمة ، فدعت لزيارتها تاجراً مسيحياً اعتادت أن تشتري منه الحرائر . فذهب التاجر إلى منزلها في الوقت المين ، فوجد عند الباب أحد الأغوات قاده إلى منزل آخر ، وجعله يتفكر في ملابس سيدة . ثم عاد به وأدخله على سيدته . وقضى التاجر الليل كله تقريباً في بيت المرأة ، ثم نهض قبل أن تستيقظ ، وأخذ في جيبه كيس نقود كان قد أعطاه إياها . ونزل إلى الأغا ليقوده مرة أخرى إلى المنزل الذي تفكر فيه ، فاسترد ملابسه ، وقصد دكانه . ولم تلبث السيدة التي افتقدت الكيس أن ذهبت إليه ، واتهمته بأخذه . ثم أخبرته أنها لا تريد نقوداً ولكنها تبقى رفقته فقط . ورجته أن يعود إليها في الليلة التالية فوعد بالحضور . غير أن إحدى خادمت السيدة ذهبت إلى دكان التاجر عصراً ، وأخبرته أن سيدتها مزجت بعض السم في الماء لتقدمه إليه . ويقال إن المرأة كثيراً ما تختار هذه الطريقة لتنتقم من عشيقها لأقل إهانة .

يندر أن ترتكب الزوجة المسلمة الزنا دون أن تعاقب بالموت إذا شهد على الواقعة أربعة شهود . ويرفع الشهود أو الزوج دعوى الزنا . وقلما تنجو الزانية من العقاب إذا ضبطها أحد الضباط . فلا يلزم في هذه الحالة شهود أربعة ، وإنما تعمد المرأة سراً ، إذا كانت من عائلة محترمة ، تحت سلطة الحكومة الاستبدادية . غير أن الرشوة قد تخلصها أحياناً ، لأنها تُقبل دائماً إذ لم يكن هناك خطر . وتسكاد عقوبة إغراق الزانية تحل الآن محل الرجم في القاهرة وغيرها من مدن مصر الكبيرة .

ويحكى أن امرأة فقيرة من هذه المدينة تزوجت من بائع طيور ؛ وبينما هي تعيش مع زوجها وأمها في سكن ، اتخذت ثلاثة مساكن أخرى ، وتزوجت ثلاثة أزواج آخرين كانوا جميعاً يتغيبون عن القاهرة . وحسبت هكذا أنه يسهل عليها إذا جاء أحد الثلاثة إلى المدينة لبعض أيام ، أن تجد عذراً للذهاب إليه . ولكن حدث لسوء حظها ، أن قدم الثلاثة في اليوم نفسه ، وذهبوا في مساء ذلك اليوم يسألون عنها في منزل أمها . فارتبكت لحضورهم معاً ولوجود زوجها الأول أيضاً . ففتظاهرت بالمرض ، وسرعان ما تصنعت الإغماء ، فحملتها أمها إلى غرفة داخلية . واقترح أحد الأزواج إعطاءها شيئاً يقويها ، وأراد آخر تجربة دواء مختلف .

وأخذ الجميع يتناقشون في أى الأدوية أفضل . وقال أحدهم : « سأعطيها ما يحلولى ؛ أليست امرأتى ؟ » فصاح الآخرون في صوت واحد : « امرأتك ! إنها امرأتى » وأثبت كل منهم زواجه . فقدّمت الزوجة إلى المحكمة وحكم بإدانتها ، وقُذف بها في النيل . وقد حدث حادث مشابه لهذا أثناء زيارتى الأولى ، فقد تزوّجت امرأة ثلاثة من جنود النظام ، فدفنت في حفرة إلى صدرها وأعدمت بالرصاص .

قد تعتمد المرأة أحياناً على الظروف المخففة ، أو على معونة أصدقاء أقوياء ، لتنجو من عقوبة الإعدام إذا ضبّطت في معاشرتة أئيمة ؛ وذلك كالحادث التالى :

زوّج الباشا إحدى جواربه من نخاس غنى ، كان الباشا قد اشترى منه كثيراً من مماليك وجواربه . ولم يكن الرجل يخون زوجه فحسب ، بل كان يهملها تماماً . فصاحبت تاجراً كانت تعامله صحبة غير لائقة . وحدث ذات يوم في غيبة الزوج أن رأى أحد عبيده السود رجلاً في شباك الحريم . فذهب نواً إلى غرفة الزوجة ليبحث عن الرجل . وسمعت الزوجة قادمًا ، فأدخلت عشيقها في غرفة ملحقة وأغلقتها عليه . ففتح العبد الباب عنوة . فهجم عليه الرجل بمخنجر كان يحمله في حزامه ، ولكن العبد قبض على النصل بيده . وعاقته الزوجة حتى هرب عشيقها ، ثم قبلت يده وتوسلت إليه ألا يخبر زوجها فيسبب قتلها . غير أنها وجدته صلياً لا يلين . وذهب العبد في الحال إلى سيده وأراه يده الدامية وأخبره بالحادث . وهربت المرأة في أثناء ذلك تنشد الحماية في حريم الباشا . وطلب الزوج من الباشا أن يرد زوجته عليه ليقتلها . فاستدعاه الباشا وسألها عن جريعتها ، فرمت بنفسها عند قدميه وقبلت طرف ثوبه ، وأخبرته بسوء أخلاق زوجها وإهماله الشديد لها . فبصق الباشا في وجه النخاس ، لأنه اعتبر أن سلوكه إهانة له ، وأعاد الزوجة إلى حريمه . ولم يمش عشيقها طويلاً بعد ذلك ؛ فقد خفق في منزل بعض البغايا ، ولم تعاقب البغى لعدم ثبوت التهمة عليها .

يؤخذ على المصريين والمسلمين عامة القسوة الشديدة في معاملة النساء . حقاً إنهم لا يعتبرون استشارة الفتاة القاصر قبل زواجها ضرورياً . ولكن الغالب أن الرجل في الطبقتين الوسطى والعليا ، يكاد يختار زوجه على السماع دون أن يراها ، إذ لا حيلة له في رؤيتها قبل أن يعقد العقد وتنقل إلى منزله . فيستحيل

لذلك أن يكون هناك محبة متبادلة قبل الزواج . والحقيقة أن الجنسيتين معاً تنقل عليهما القوانين والعادات الجائرة ، ولكنهما من حسن الحظ يعتبران هذه القيود ملائمة مشرفة ، وقد يشمران بالعار في التخلص من هذه العادات . وقد لاحظت أن الحجاب الواقع على النساء يكون باختيارهن إلى حد كبير . واعتقد أنه أقل صرامة في مصر منه في أى بلد آخر من بلاد الدولة العثمانية . ومن المؤكد أن هذا الحجاب أقل جداً مما صورته لى الكثيرون . وينظر النساء إلى هذا الاحتجاب بفخر من حيث أنه يدل على عناية الزوج بهن ؛ كما أنهن يقدرن أنفسهن بقدر حجبهن كالكنوز^(١) . ولا يليق في المجتمعات الطيبة ، أن يستفسر المرء بطريقة مباشرة عن حال زوجة الصديق ، أو امرأة ما في منزله إلا إذا كانت قريبة له . وسأل أحد معارفى المصريين آخر كان في باريس عن أغرب الأشياء التى رآها في بلاد الكفار ، فأجابه الآخر وهو يظن أن كل ما شاهده حرى أن يثير إعجاب العاقل البعيد عن التعصب : « لم أر شيئاً يستحق الاعتبار مثل هذه الحال : جرت العادة ، في باريس وغيرها من مدن فرنسا ، أن يدعو كل من الأغنياء والعظماء أصدقاءهم ومعارفهم ، رجالاً ونساءً معاً إلى حفل في منزله . ويستقبل الضيوف في غرف تضاء بمدة شموع وقناديل . وهناك يختلط الرجال بالنساء ، وأولئك كما تعلم سافرات . ويستطيع الرجل أن يجالس زوجة رجل آخر ، وهو لم يرها من قبل ؛ ويستطيع أن يسايرها ، ويحادثها ، ويراقصها أيضاً ، في حضور زوجها ، الذى لا يفيض ولا يغير لئلا هذا السلوك المخزى » .

يشتهر المصريون أيضاً بكرمهم وجشعهم على السواء . وإن اجتماع مثل هاتين الصفتين المتناقضتين في ضمير واحد يدهش ؛ ولكن هذا هو الحال مع هذا الشعب . ويعتبر الغش والمكر في التجارة ، ويوجد في جميع الشعوب ، إحدى نقائص المصريين الدائمة . وقلمايتردد المصرى في مثل هذه الأحوال عن الكذب ليكسب . ويميل الشعب الذى يئن تحت نير الجور والجشع ، الذى امتازت به حكومات مصر طويلاً ، إلى الشح دائماً . لأن المرء بالطبيع يتمسك بما هو أكثر عرضة للضياع . ولذلك يعمد المصرى المضيع ، إذا ملك مبلغاً من المال لا يلزمه

(١) وتخطب السيدة المحترمة في رسالة كما يأتى : السيدة المصونة والجوهرة المسكونة .

حالا ، إلى شراء مصاغ لامرأته أو لنسائه ؛ إذ يسهل عليه تحويل المصاغ ثانية إلى نقود . ومن ثم أيضاً جرت العادة في هذا البلد ، وفي أكثر البلدان التي تخضع لهذه الظروف السياسية ، أن ينحى الرجل أمواله في منزله تحت البلاط أو في أى موضع آخر . ولما كان الكثيرون من هؤلاء يموتون فجأة ، دون أن يطلعوا أسرم على مكان « الخبأ » ، فإن من المألوف أن تكتشف نقود عند هدم المنازل . وهناك رذيلة تقرب من الجشع وهى الحسد . وأعتقد أنها تكثر بين المصريين المحدثين ، والشعوب العربية بأجمعها على السواء . ويعترف الكثيرون مدفوعين بسلامة النية أن هذا الميل السكريه يكاد يتركز في أذهان شعوبهم تماماً . والمصريون أمناء في الوفاء بديونهم . وقد بين الرسول صلعم أن لا شيء ، حتى الاستشهاد ، يكفر عن دين لم يوف . وقل من المصريين من يقبل فائدة على قرض أقرضه ، إذ أن الشرع يشدد في تحريم ذلك .

إن دوام الصدق فضيلة نادرة للغاية في مصر الحديثة . وقد ترخص الرسول في الكذب إذا وفق بين الناس في منازعة ، أو أرضى زوجة ، أو أفاد في حرب على أعداء الدين . غير أن الكذب في أحوال أخرى محظور بشدة . ويبرر ذلك بعض التبرير عادة الكذب السائدة بين العرب المحدثين ، إذ أن السماح لشعب بالكذب في أحوال يعود به بالتدريج الكذب في غيرها . ومع أن أكثر المصريين يكذبون عمداً ، فقلما تسميهم يرجعون عن تحريف غير مقصود دون أن يقولوا : « لا . أستغفر الله . إنه كذا وكذا » . كما يقولون عندما يقررون شيئاً لا يتأكدون منه تماماً : الله أعلم .

ويمكننى أن أذكر هنا ، وأنا أشعر بالفخر ، الحادث التالى : كان في القاهرة صائغ أرمي اشتهر بالصدق إلى درجة أن عملاءه قرروا تسميته اسماً يدل على تمتعه بفضيلة قلما توجد فيهم ؛ فلقبوه بالإنجليزى ، وصار من بعد ذلك لقباً لعائلته . والمعتمد أن تسمع التجار هنا يقولون عندما يطلبون ثمناً لا ينوون إنقاصه : كلمة واحدة ، « كلمة الإنجليز » . وكثيراً ما يقولون أيضاً في هذا المعنى : « كلمة الفرنج » . ولكنى لم أسمع أبداً بأمة كرم هذا التكريم غير الإنجليز والمغاربة . وقد اشتهر هؤلاء دون أغلب العرب الآخرين بالصدق في القول .

أشرت سابقاً إلى عادة القسم بالله السائدة بين المصريين ، وينبغي أن أضيف هنا أن الكثيرين منهم لا يترددون عن القسم ليدرأوا عن أنفسهم تهمة الكذب . وقد يقولون في هذه الحالة أحياناً : والله (بكسر الهاء) أو عادة : والله . كأنهم يزعمون أن الصيغة الأخيرة يجوز استعمالها في الدعاء . أما « والله » (بالكسر) فهو قسم صريح ، والنطق به كذباً إنم كبير . ويكفر عن اليمين بإطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صيام ثلاثة أيام . على أن هذه الكفارة رخص القرآن بها لقسم طئش فقط . ولكن المصريين المحدثين يراعونها أحياناً ليحذروا أنفسهم من وزر قسم كاذب مقصود . ويفضلوا الصوم على الكفارات الأخرى . وهناك إيمان أعقد أن بعض المسلمين لا يترددون في القسم بها كذباً مثل قولهم ثلاثاً : « والله العظيم » ، أو القسم على المصحف بقولهم : « بما يحتوى هذا من كلام الله » ، ولكن القسم الذى لا يزال يعتمدون عليه هو قولهم : « على الطلاق » أو « على الحرام » أو « على الطلاق بالثلاثة » . فإذا كذب الرجل في أحد هذه الأقسام الثلاثة ، تصبح امرأته طالقة إذا ثبت حنثه . وإذا كان للرجل أكثر من زوجة ، وجب حينئذ أن يخفار إحداهن فيخصص بها الطلاق . غير أن هناك كاذبين فاسدين يقسمون زوراً بأشد الإيمان إراماً . وقد قال الشاعر يصف هذا الخلق .

وأكذب ما يكون أبو المعلى إذا آلى يمينا بالطلاق

ويسهل تحريض المصريين على المشاجرة ، وخاصة السفلة الذين يتشائمون في ثورتهم بسب الآباء والأمهات واللعن الح ، ويسرفون في نعمت كل من الآخر بأحط النفوت كأن يقول : يا ابن الكلب ، أو يا قواد ، أو يا خنزير ؛ وهناك تسمية أخرى يرونها أشد الشتائم على الدوام ، وهى قولهم : يا يهودى . وعندما يسب أحد المتخاصمين الآخر ، يجاوبه هذا بلعن أبيه وأمه ، وأحياناً بلعن العائلة جميعها . ويهدد كل منهما الآخر ؛ ولكن قلما يبادران إلى الضرب . غير أننى رأيت ، فى أحوال قليلة ، بعض السفلة ثائرين إلى درجة أن كلا من المتشاجرين كان بعض الآخر ويقبض عليه من حلقه . وشاهدت أيضاً عدة مرات أفراداً من الطبقتين الوسطى والسفلى يتحملون السب الغليظ . وكثيراً ما سمعت

الفصل الرابع عشر

الصناعة

من المحزن أن يوازن المرء بين فقر مصر الآن وبين رخائها قديماً ، حينما كان اختلاف الصناعات وأناقتهما وإتقانها تثير إعجاب الأمم المجاورة ، وكان المصريون في غنى عن التجارة الخارجية لتنمية الثروة أو زيادة الرفاهية . وقد دل الكشف عن الآثار على أن المصريين انفردوا إلى حد كبير في السمو بالفنون في عهد موسى وقبل ذلك أيضاً . ولم يكن الفراعنة والسكينة وقواد الجيش في تلك الأزمنة الغابرة يعيشون وحدهم في ترف رفيع ، ويلبسون أرق الأنسجة الكتانية ، ويجلسون على سرر وكراسي تستخدمها نماذج لأناث أبهائنا الحديثة ، بل كان الكثير من أغنياء المزارعين وغيرهم من الأفراد كأولئك . ولا تزال الطبيعة تجود بنعمها على سكان وادي النيل كما كانت في قديم الزمن . غير أن المصريين لم يعودوا ينعمون لعدة أجيال بحكومة مستقرة ، فكان كل من الولاة المتعاقبين في هذه المدة الطويلة يعتمد إلى تنمية ثروته الخاصة لعدم توطد ولايته . وهكذا هلك بالتدريج كثير من المصريين ، وقضى على الباقين أن يعيشوا في عوز أليم . وإذا كان الذكور من السكان يكاد عددهم يزيد على القدر اللازم لزراعة الأراضي التي يغمرها الفيضان ، أو يسهل ربحها بالوسائل الصناعية ، كان عدد هؤلاء الذين يحترفون الصناعة في هذا البلد شديد القلة نسبياً . ولا تنم أعمال المصريين عن براعة كبيرة لقلة التنافس وعدم تشجيع الأغنياء . غير أن انحطاط الصناعات اليدوية يرجع ، إلى حد بعيد ، إلى سبب آخر وهو أن السلطان سليم التركي بعد أن غزا مصر نقل على ما قال الجبرتي (١)

(١) في ابتداء كتابه (المؤلف) .

قال الجبرتي في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر ملوك الجراكسة « وأخذ (أي السلطان سليم) محبته ما انتقاه من أرباب الصنائع التي لم توجد في بلاده بحيث أنه فقد من مصر نيف وخمسون صنعة » .
(المترجم)

عدداً كبيراً من البارعين في الحرف التي لا تمارس في تركيا ، ففضى بذلك على أكثر من خمسين صناعة يدوية في مصر .

حرم الإسلام ، كما سبق أن بينت ، استخدام التصوير والنحت في رسم الأحياء . غير أن بعض المسلمين المصريين يحاول رسم الرجال والأسود والجمال وغيرها من الحيوان والزهور والقوارب ، وذلك على الأخص لزخرفة واجهات الحوانيت وأبواب الحجاج كما يقولون ؛ وإن كانت محاولاتهم هذه تفوق مهارسوم صغار الأطفال عندنا . ولكن الدين الإسلامى يسر الصناعة خاصة ، باستلزامه أن يعرف كل امرئ فناً أو عملاً يمكنه ، وقت الضرورة ، من سد حاجته وإعالة من يتولى أمرهم ، والقيام بواجباته الدينية والأدبية . ويرع المصريون على الأكثر في فن الماهرة . فتجد أجمل نماذج الماهرة العربية في العاصمة المصرية وضواحيها ؛ وليست المساجد والأبنية العامة الأخرى وحدها هي التي تستحق الاعتبار لمعظمها وجمالها ، ولكن الكثير من المساكن الخاصة أيضاً تثير الإعجاب ، ولا سيما هيئتها الداخلية وزخرفها . على أن هذا الفن كغلب الفنون الأخرى انحط كثيراً في السنوات الأخيرة فقد أخذ المصريون عن الأتراك طرازاً جديداً ساذج الشكل ، بمضه شرقى وبمضه أوربى وفضله على العربى وتم الأبنية ذات الطراز القديم ، أبوابها وسقفوها وبلاطها التي سبق وصفها عن ذوق فريد . وكذلك أكثر الصناعات المصرية تنم عن الذوق وإن كان الكثير منها ينقصه الإتقان . وكان الخراطون ، وشغلهم الأول عمل الشباييك ، كثيرى العدد ، وكان عملهم حينذاك أكثر إتقاناً ؛ أما الآن فقد قلت أعمالهم ، لأن نوافذ المنازل الحديثة تصنع من الزجاج . ولا يظهر المصريون المحدثون في صناعة الزجاج التي اشتهروا بها قديماً مهارة كبيرة ؛ فقد انحط عندهم فن الزجاج الملون ؛ غير أنهم لا يزالون موضع الإعجاب في صناعة النوافذ الزجاجية ، وإن لم يكن ذلك بقدر ما كان في السنوات الماضية ، قبل أن ينقص تفضيل الطراز الجديد من أعمالهم . والصناعة الخزفية في مصر غليظة . وهي تشمل عمل القلل والجرار ، لحفظ المياه وتبريدها . ويستحق المصريون الشهرة التي نالوها في مهارة إعدادهم السخيتان . ويستعمل المصريون السعف وأوراق النخيل في صناعات مختلفة ؛ فيصنعون من السعف الأقفاص والكراسى والصناديق والسرراخ ... ومن الأوراق ، السلال

والقفف والحصر والمكانس والمذبات . وغير ذلك من الآلات . ويفتلون من ألياف النخيل أكثر الجبال المصرية . ويصنعون أحسن الحصر ، التي يستخدمونها صيفاً بدل البسط ، من السمار . وقد فقدت مصر الشهرة التي نعمت بها قديماً في صناعة الكتان الرقيق ؛ فالملابس الكتانية والقطنية والصوفية التي تنزل في هذا البلد غليظة الصنف حقيرة .

اشتهر المصريون طويلاً في صناعة التفرخ . ويبدو أن هذه الصناعة كانت شائعة في مصر في سالف الأزمنة ، وإن وصفها الكتاب الأولون وصفاً غامضاً . وهم يطلقون ، في الوجه البحري ، على البناء الذي يتم فيه التفرخ « معمل الفراخ » ، وفي الصعيد ، « معمل الفروج » . وفي الوجه البحري أكثر من مائة معمل ، وفي الصعيد أكثر من نصف ذلك العدد . ويكون أغلب مراقبي هذه المعامل ، إن لم يكن جميعهم ، من الأقباط . وتفرض الحكومة على هذه المعامل ضريبة . ويبني المعمل بالآجر أو اللبن ، ويتكون من أفران ومواقد صغيرة للنار ، على صفين متوازيين ، يفصل بينهما دهليز مقبوع ضيق . ويبلغ حجم كل من الأفران ، تسع أقدام أو عشرة طولاً تقريباً ، وثمانى أقدام عرضاً ، وخمسة أوساً ارتفاعاً . ويملو كلا منها موقد مقبوع ، لا يختلف عنها حجماً ، والأفضل أن يكون أقل ارتفاعاً . ويتصل الفرن بالدهليز ، بواسطة فتحة تسمح للإنسان بالدخول ، كما يتصل بالموقد بفتحة مماثلة . وتتصل المواقد ، في الصف نفسه ، بعضها ببعض أيضاً ، ولكل كوة في قبوه مرور الدخان ، ولا تفتح إلا عرضاً . وكذلك الدهليز يوجد به عدة كوى كالسابقة في سقفه المقبوع ، ويوضع البيض في الأفران ، فوق الحصر أو على القش ، عادة على طبقات ثلاث يملو بعضها بعضاً . ويحرقون السرقين (الجلة) في المواقد التي تملو الأفران . ثم يقفلون مدخل المعمل بإحكام . ويتقدم المعمل ، حجرتان أو ثلاث حجرات صغيرة ، للمراقب ، والوقود ، والفراخ الناقفة حديثاً . ويجرى هذا العمل شهرين أو ثلاثة ، في صيف كل عام . ويبدأ التفرخ مبكراً في الصعيد . ويشمل كل معمل بين اثني عشر وأربعة وعشرين فرنًا ، ويتلقى حوالى مائة وخمسين ألف بيضة في الموسم السنوى ، يخيب منها ربعها أو ثلثها . ويورد الفلاح البيض ، فيفحصه المراقب ، ويناول

الفلاح عادة مقابل كل بيضتين فرخة صغيرة . ويستعمل نصف الأفران في الأيام العشرة الأولى ، وتوقد النار في المواعد العشرة التي تملؤها . ثم تطفأ في اليوم الحادى عشر ، وتوقد المواعد الأخرى ، ويوضع البيض الطازج في أسفل الأفران . وفي اليوم التالى ، ينقل بعض البيض من الأفران السابقة ، ويوضع في رماد مواعدها . وتظل الحرارة أثناء العملية بين مائة ومائة وثلاث درجات ، بقياس فارنهايت . ويعرف القائم بهذا العمل ، من تجاربه الطويلة ، الحرارة اللازمة لنجاح العملية دون الاستمانة بآلة ترشده ، لتعوده هذا العمل من صغره . وفي اليوم العشرين ينقف بعض البيض الموضوع أولاً ؛ ولكن أغلبه يفرخ في اليوم الحادى والعشرين . وتوضع الفراريج الضعيفة في الدهليز ، وما بقى يوضع في أقصى الغرف الداخلية ، حيث تبقى يوماً أو يومين قبل أن تسلم إلى مستحقها ، وعند ما تنقف البيضات الأولى ونصف الثانية تغلق الأفران التي كانت فيها دفعة ثالثة ؛ ثم توضع دفعة رابعة ، بالطريقة نفسها ، عند ما تفرخ الدفعة الثانية . ولا يقل الدجاج الذى تنقف بهذه الطريقة طعماً عن دجاج البيض الذى يحتضن طبيعياً . ويقل دجاج مصر ويبضه في كلتا الحالتين حجماً وطعماً عن دجاج بلادنا ويبضه . وقد وجدت في إحدى الجرائد المصرية ، التي تنشر بأمر الحكومة (العدد ٢٤٨ : ١٨ رمضان سنة ١٢٤٦ ، ٣ مارس سنة ١٨٣١) الإحصاء التالى :

الوجه البحرى	الوجه القبلى	
١٠٥	٥٩	عدد معامل التفريخ في العام الحالى
١٩٣٢٥٦٠٠	٦٨٧٨٩٠٠	عدد البيض المستخدم
٦٢٥٥٨٦٧	٢٥٢٩٦٦٠	عدد البيض المعطوب
١٣٠٦٩٧٣٣	٤٣٤٩٩٢٤٠	عدد المفقوس

لا تزال تجارة مصر عظيمة ، وإن انحط شأنها كثيراً منذ اكتشاف طريق الرجاء الصالح بين أوروبا والهند ، ونتيجة لسياسة محمد على وخلفائه باحتكار التجارة ، والاستيلاء على البضائع . وقد تقدمت التجارة كثيراً في السنوات القليلة الأخيرة لاستخدام البواخر الكثيرة بين الإسكندرية وإنجلترا ، وفرنسا ،

والنمسا من ناحية ، وبين السويس والهند من ناحية أخرى ، وبإنشاء السكك الحديدية في الوجه البحري .

تستورد مصر من أوربا : الأقمشة الصوفية من فرنسا خاصة ، والشيت ، والموصلى الساذج ، والمصور للمهائم من اسكتلندة ، والحرير والخممل ، والكريشة والشيلاان القلدة عن الكشميري ، من سكوثلندا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وورق الكتابة من البندقية خاصة ، والأسلحة النارية ، والنصال المستقيمة من ألمانيا ، وتستورد هذه للتوبيين الخ ... ، والساعات ، والفناجين ، والأواني الخزفية ، والزجاجية المختلفة ، وأغلبها من ألمانيا ، والخردة ، والألواح الخشبية ، والمعادن ، والخرز ، والنبيذ ، وغيره من الأثربة . وكذلك يستوردون الرقيق الأبيض ، والحرير ، والمفاديل والقوط المطرزة ، ومباسم الشبك ، والبواييج ، وضروباً من السلع المصنوعة ، والأدوات النحاسية والبرزية الخ من الآستانة . ويستوردون من آسيا الصغرى ، البسط وسجاجيد الصلاة ، والقين الخ . ومن سورية الدخان والحرير المخططة ، والعباءات ، والصابون . ومن جزيرة العرب البن ، والتوابل ، وعقاقير عديدة ، والسلم الهندية كالشيلاان والحرير الموصلي الخ . ومن الحبشة وسفار والبلدان المجاورة ، الجوارى ، والذهب ، والعاج ، وريش النعام ، والكراييج ، وأقراص التمر الهندي ، والصموغ ، والسنا . ومن الغرب ، أى شمال أفريقية غرب مصر : الطراييش ، والبرانس ، والأحرمسة ، وأحذية السخميان الأصفر .

وأهم ما يصدر إلى أوربا القمح ، والذرة ، والأرز ، والفول ، والقطن ، والقنب والنيلج ، والبن ، والتوابل المختلفة ، والصموغ ، والسنا ، والعاج ، وريش النعام وإلى تركيا ، العبيد السود والأحباش ذكوراً وأنثاء ، والأغوات ، والأرز والبن والتوابل والحناء الخ . وإلى سوريا المبيد ، والأرز الخ ، وإلى جزيرة العرب الحبوب خاصة . وإلى سنار والبلدان المجاورة أقمشة من القطن والسكتان والصوف ، وبعض الحرير المخططة السورية والمصرية ، والأبسطة الصغيرة ، والخرز وحلى أخرى ، والصابون ، والسيوف المستقيمة السابق ذكرها ، والأسلحة النارية ، والأدوات النحاسية ، وورق الكتابة .

ليتين القارى قيمة النقود فى القاهرة أثناء السنوات الأخيرة أقدم فيما يلى قائمة أسعار بعض الأطعمة العادية أثناء زيارتى الثانية . ومنذ أن أصبحت مصر مرة ثانية طريق الهند ، وجمع السائحون الذين زاد عددهم عن السنوات السابقة ، زادت أسعار السلع المختلفة زيادة عظيمة . وتقل الأسعار فى مدن الأرياف وقراها عنها فى العاصمة ، فيكون سعر اللحم والطيور والحمام نصف الأسعار المذكورة هنا تقريباً ، وسعر القمح والخبز يكون ثلثها أو نصفها :

قرش	فضة	
٦٣	٠٠	القمح : الأردب من ٥٠ إلى
٢٤٠	٠٠	الأرز : » حوالى
١	٠٠	الضأن : الرطل
٠٠	٣٥	لحم البقر : »
١	٢٠	الطيور : الواحد من قرش وعشر فضة إلى
١	٢٠	الحمام : الزوج » » » »
٠٠	٥	البيض : الثلاث بيضات
٢	٠٠	الزبد : الرطل
٢	١٠	السمن : » من قرشين إلى
٧	٠٠	الزبد : » من ستة قروش إلى
١٨	٠٠	التبغ الجبلى : الأقة من ١٥ قرشاً إلى
١٠	٠٠	التبغ السورى : » من خمسة قروش إلى
٢	٠٠	السكر المصرى المخروط : الرطل
٢	١٠	السكر الأوربى : الرطل
٠٠	١٠	العنب فى موسمته : »
٠٠	٣٠	العنب المتأخر : » من ٢٠ فضة إلى
١٦٠	٠٠	البسكويت : القنطار
٠٠	٢٠	الماء : القربة من ١٠ فضة إلى
١١	٠٠	خشب الوقود : حمل الحمار
٠٠	٣٠	الفحم : الأقة من ٢ فضة إلى
١	٣٠	الصابون : الرطل
٨	٢٠	الشمع المصنوع من الشحم : الأقة
٢٥	٠٠	الشمع الجيد : الأقة

وفى القاهرة أبنية عديدة تسمى الواحدة منها « وكالة^(١) » تخصص لإيواء

(١) ويقال « الوكالة » ، وينطقها الفرنج occaleh ، occal ، بدلاً من « دارالوكالة » وتعنى دار وكلاء التجار .

النجار ، وخزن بضائهم . والوكالة بناء يحيط بساحة مربعة أو مستطيلة .
وتتكون طبقتها السفلى من مخازن مقببة للبضائع ، تواجه الساحة ، وتستعمل



(شكل ٥٥)

دكا كين في إحدى شوارع القاهرة
وموضوع هذا الشكل دكان العطار وبيع
العقاقير والعطور والشمع الخ . . ويرى على
الدرفة جملة (يافتاح) أنظر الفصل الحادى عشر

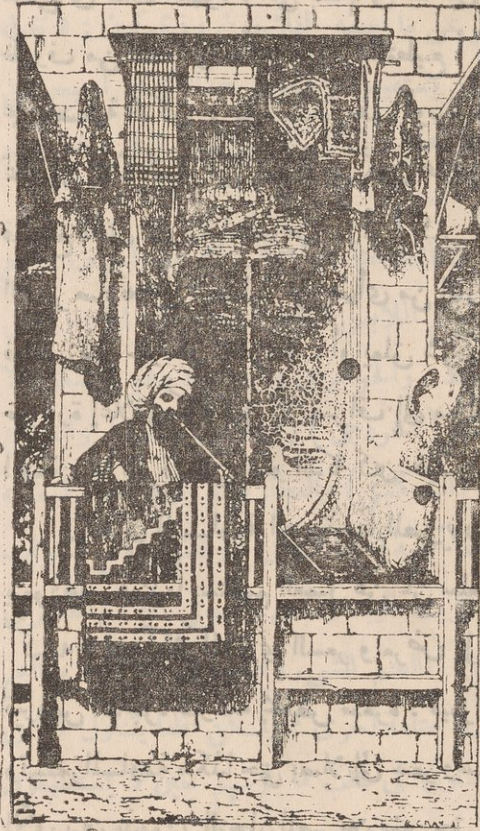
أحياناً حوانيت . ويملو هذه
المخازن مساكن يدخل إليها
من رواق يمتد على طول جوانب
الساحة الأربعة . وقد يملو هذه
المخازن بدلا من المساكن
مخازن أخرى . وتستعمل الغرف
المعدة للسكنى فى أكثر الوكالات
مخازن . ولا يكون للوكالة غير
باب عام واحد ، يقفل ليلا ،
ويحرسه بواب . وفى القاهرة
من هذا النوع حوالى مائتى
وكالة . ويقع ثلاثة أرباعها فى
نطاق المدينة الأصلية .

ذكرت قبلا ، فى مقدمة
هذا الكتاب ، أن شوارع
القاهرة الكبرى ، يقوم على
جانبيها صفان من الدكاكين ،
لا تتصل بالبناء الأعلى (شكل

رقم ٥٥) . ويلاحظ ذلك فى أكثر الشوارع الفرعية . وتخصص الدكاكين
عادة فى الشارع الواحد ، بعضه أو كله لتجارة واحدة ^(١) ؛ فيسمى كذا باسم هذه
التجارة ، أو باسم المسجد المقام هناك . ويطلقون على أحد أقسام الشارع الرئيسى

(١) وقد ظل الأمر كذلك طويلا فى البلدان الشرقية الأخرى . أنظر أرميا ٢٧/٢١ :
« فأمر الملك صديقا أن يضعوا إرميا فى دار السجن وأن يعطى رغيف خبز كل يوم من سوق
الحبازين حتى ينفذ كل الحبز من المدينة » .

في هذه المدينة : « سوق النحاسين » ، أو « النحاسين » فقط ، لأنهم يسقطون عادة لفظه « سوق » ؛ والأقسام الأخرى : « الجوهريّة » ، و « الخردجية » ، و « الفورية » ، وهذا القسم الأخير باسم المسجد المقام فيه ؛ وهذه هي بعض أسواق المدينة المهمة . ويطلقون على السوق التركي الرئيسي : « خان الحليلي » . ويفطون بعض الأسواق بمحصر ، أو ألواح ، تحملها عوارض تمتد في الشوارع أعلى الدكاكين قليلاً ، أو فوق المنازل (١) .



(شكل ٥٦)

دكان تاجر تركي في سوق « خان الحليلي »

إلى أسفل فوق المصطبة ، فتكون مقعداً مستويًا يفرش بالحصر أو البسط وبالوسائد

يتكون الدكان من كوة مربعة الشكل ، أو حجرة صغيرة (شكل ٥٦) ارتفاعها ست أقدام أو سبع تقريباً ، وعرضها بين ثلاثة أقدام وأربع . وقد يتألف الدكان ؛ من حجرتين تتقدم الواحدة الأخرى ، وتستعمل الأخيرة مخزناً (٢) . ويقام أمام الدكان مصطبة (٣) بالحجر أو الآجر يستوى سطحها بأرضية الدكان . وترتفع المصطبة عادة حوالي قدمين ونصف أو ثلاثة أقدام ، ويكون عرضها كارتفاعها . وتجهز واجهة الدكان بمصاريع ثلاثة سهلة الطي يملأ بعضها بمصاً ؛ فيثنى أعلاها إلى فوق ، ويطوى الآخرون إلى أسفل فوق المصطبة ،

(١) وقد علمت عند ما تركت مصر نهائياً أن أغلب هذه الأغشية يوشك أن يزال .

(٢) يحتفظ التاجر ببعضه الزائدة في هذا المخزن أو في مسكنه أو في وكالته .

(٣) أزالته الحكومة المصاطب من أغلب الشوارع .

أحياناً . وتستبدل بعض الدكاكين بالمصاريع السابق ذكرها أبواباً منثنية . ويجلس التاجر غالباً على المصطبة ، ما لم يضطر إلى الانسحاب قليلاً داخل الدكان ، ليخلى المكان لمن يصعد إليه من حرفائه ، الذين يخلعون أحذيتهم قبل أن يطأوا الحصيرة أو البساط بأقدامهم . ويقدم التاجر الشيك إلى حرفائه الدائمين ، أو من يشتري بضاعة كثيرة ، إلا إذا كان هؤلاء يحملون شبكهم . ثم يرسل إلى أقرب مقهى في طلب القهوة ، التي تقدم في فناجين صغيرة من الخزف الصيني ، داخل ظروف من الفحاس الأحمر . ولا يستطيع أكثر من شخصين أن يجلسوا براحة على مصطبة الدكان ، ما لم تكن هذه أوسع من المعتاد . غير أن بعض المصاطب تمتد إلى ثلاثة أقدام أو أربع ، فيكون عرض الدكان حينئذ خمس أقدام أو ستاً ، فيفسح المجال لأربعة أشخاص ، أو أكثر ، يجلسون الجلسة الشرقية . ويقم التاجر صلاته على المصطبة على مرأى من المارة . وقد يترك التاجر دكانه وقتاً ، فيطلب من جاره أن يخفزه له ، أو يعلق شبكته على بابه . ويفدر أن يفكر التاجر في ضرورة إغلاق دكانه قبل الانصراف إلى منزله ليلاً ، أو الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة . أما الغرف التي تملو الدكاكين فقد وصفتها في مقدمة الكتاب .

إن طرق المساومة التي يتبعها المصريون في معاملاتهم تضايق كثيراً من لم يتعودها . فمتدماً يستفهم العميل عن ثمن سلعة ، يطلب منه التاجر أكثر مما يرجو كسبه ؛ فيستكثر المشتري السعر ويعرض على البائع نصف المبلغ أو ثلاثة أرباعه . فيرفض التاجر ، غير أنه يخفض سعره ؛ فيعرض العميل بدوره مبلغاً زائداً نوعاً ؛ وتستمر المساومة هكذا حتى يصل إلى سعر وسط ، فتم المبايعة . وأعتقد أن السائحين الأوروبيين يذمون التجار المصريين بغير حق ، وذلك بعد أن تحققت أن أكثرهم لا يكسبون أكثر من واحد في المائة . ويعمد من يجد سلعة توافقه ، ويبني اقتناءها بثمن زهيد ، إلى المساومة مع التاجر طويلاً . فيصعد إلى مصطبة الدكان ويستريح ، ثم يحشو شبكه ويشعله ، ثم يبدأ النقاش الذي يستمر طويلاً . وقد يقطع التاجر أو العميل المبايعة بأحاديث غير مناسبة ، كأنه عزم على ألا يناقش في الأمر أكثر من ذلك . ولا تلبث المساومة أن تعود . ويتناول خادم العميل من التاجر ، بعد إتمام الصفقة وانصراف سيده ، نفحة صغيرة من المال . ولا يتردد

الخادم في طلب هذه النفحة إذا لم يقدمها التاجر من تلقاء نفسه . ويقام في أغلب أسواق القاهرة مزادات في أيام محددة ، مرة أو مرتين في كل أسبوع . ويتولى هذه المزادات دلالون يستأجرهم أصحاب الشأن من الأفراد أو التجار ، ويرفع الدلال البضاعة في يده معلناً الأسعار ويصيح : « حراج » . وكثيراً ما يعتمد أفراد الطبقة السفلى عند إتمام صفقات بأجنس الأثمان إلى الصياح والإشارات ، فيظن من يجمل اللغة العربية أن طرفي المساومة يتشاجران ، وأن الغضب قد بلغ منهما أشده . وقد يستفهم المرء عن ثمن ما يبيعه الفلاحون ، فيقولون : « تقبله هدية » (١) ، واثقين أن المستفهم لن يستفيد من قولهم هذا الذي أصبح من لغو الحديث . ويكرر الفلاحون قولهم هذا عند الاستفهام مرة أخرى ، غير أنهم يطلبون على العموم أسعاراً باهظة .

من الممل أن أذكر جميع الحرف الشائعة هنا . وأصحاب أهم هذه الحرف : بائع الأجواخ وهو يبيع أقشة الملابس ، وبائع الملابس الجاهزة والأسلحة الخ . ويطلق عليه في كلتا الحالتين اسم (التاجر) فقط ، والحوهرى والصائغ ، وهو لا يشغل إلا حسب طلب عملائه ، وبائع الخردوات (الخردجى) والنحاس والخياط والصباغ والرفاء والحباك والعقاد وبائع الشبك (الشبكشى) والمطار وهو يبيع الشمع أيضاً ، وبائع التبغ (الدخاخنى) وبائع الفاكهة (الفاكهائى) والنقل وبائع الشراب (الشربلى) والزيت ، ويبيع مع الزيت الزيت والجبن والعسل الخ ، والخضرى والجزار والفران ، ويرسل إليه الخبز واللحم للشى . ويوجد في القاهرة مطاعم عديدة يطهى فيها الكباب وأصناف مختلفة أخرى ؛ ولكن قلما يتناول الناس طعامهم في هذه المطابخ ، وإنما يرسلون في طلب ما يلزمهم حين لا يستطيعون إعداد الطعام في منازلهم . وكثيراً ما يتناول التجار غداءهم وعشاءهم من هذه المطابخ . ويوجد أيضاً عدة دكاكين لصنع الفطير وغيره ويبيع الفول المدمس . وقد وصفت هذين الطعامين في فصل سابق . ويتناول أفراد الطبقة السفلى طعامهم عند (الفطاطرى) أو (الفوال) .

(١) كما فعل عقرون مع إبراهيم عند ما صرح الأخير برغبته في شراء مغارة المكفلية وحقله . أنظر سفر التكوين ٢٣ - ١١ : لا يأسيدى اسمعى ، الحقل وهبتك إياه . والمغارة التى فيه لك وهبتها لى عيون بنى شبي وهبتك إياها أدفن ميتك وقال هذا عادة مناً للحسد

بياع الخبز والخضر وغير ذلك من الأطعمة في الشوارع . وينادي الباعة المتجولون نداءات غريبة تستحق الذكر . فيصيح بائع الترمس : « مدد يا امبابى » . ويعنى بهذا القول إما الاستعانة بالشيخ الامبابى ، وهو ولى مشهور مدفون في بلدة امبابة ، على الشاطئ الغربى من النيل تجاه القاهرة ، وينبت بجوار هذه البلدة أجود الترمس ؛ وإما الإشارة إلى أن ترمس امبابة لذيد الطعم بفضل مدد الامبابى . ويصيح بائع الترمس أيضاً : « ترمس امبابه يغلب اللوز » ، أو يقول « ياما حلى بُنى البحر » . ويشير هذا النداء الذى قلما يسمع في غير الأرياف إلى طريقة إعداد الترمس للأكل . إذ أنه ينقع في الماء يومين أو ثلاثة لتزول مرارته ثم يغلى ويوضع بعد ذلك في قفة من الخوص تسمى : « فرد » يحاط عليه ويقذف به في النيل ، حيث يترك يومين آخرين أو ثلاثة ينقع مرة ثانية وبعد ذلك يجفف ويؤكل بارداً بعد أن يضاف إليه بعض الملح ويصيح بائع الليمون : « الله يهونها باليمون » . وكثيراً ما ينادى على اللب ، لب « عبد اللاوى » والبطيخ : « يامسلى الغلبان يال » أو عادة : « لب المحمص » . وينادى بائع « الحلاوة » وتصنع من قفل السكر المزوج ببعض عقاقير نداء غريباً : « بمسار يا حلاوة » . ويقال إن بائع الحلاوة يكاد يكون لصاً ، إذ أن الأطفال والخدم يعمدون إلى سرقة الأدوات الحديدية ، من المساكن التى يسكنونها ، ليستبدلوا بها الحلوى . ويصيح بائع البرتقال : « غسل يارتقال غسل » . ويستعمل بائع الخضر والفاكهة نداءً مشابهاً . ويصعب على المرء أحياناً معرفة ما يباع ، ما لم يتبع قاعدة أن ما يباع هو الأقل جودة ؛ فقولهم « حمير يا عنب » إنما يشير إلى بيع الحمير الذى يقل عن العنب جودة . ويستعمل بائع الورد نداءً فريداً : « الورد كان شوك من عرق النبي فتح » ، ويشير هذا إلى معجزة تنسب إلى الرسول . وتباع زهور الحناء الزكية بقولهم : « رواج الجنة ياتمر حنه » . وهناك نوع من الأنسجة القطنية تصنع على آلة يجر كها ثور . وتباع بقولهم : « شغل الثور يا بنات » .

مياه الآبار في القاهرة مشربة بالملوحة ، فيجلب السقاءون الماء من النيل للسكان متعشين من هذه المهنة . وكذلك يجلبون الماء من الخليج الذى يشق العاصمة أثناء الفيضان ، أو بالحرى مدة الشهور الأربعة التى تمقب فتح هذا

الخليج . ويحملونه من النبل في غير ذلك الوقت . وهم ينقلون الماء في مزادات من الجلد على الجمال والحمار ، وقد يحملونه على ظهورهم ، في قرب صغيرة ، لمسافة قريبة (أنظر شكل رقم ٥٧) . ويطلق على المزايدة التي يحملها الجمل لفظ « رِي » والري زقان واسمان من جلد البقر . ويسمى ما يحمله الحمار « قرية » ، وتكون من



(شكل ٥٧) سقاءون

جلد الماعز . ويحمل السقاء كذلك قرية من جلد الماعز إذا لم يملك حمرا . ويسع الري ثلاث قرب أو أربما . ويصيح السقاء عادة : « يعوض الله » ، فيدل هذا الالتفات على مروره . ويكاد أجر السقاء على القرية ، التي يحملها ميلا ونصف ميل أو ميلين ، لا يتجاوز أكثر من ميلين .



ويوجد أيضاً سقاءون يزودون المارة بالماء . ويسمى بعضهم (سقا شرية) (شكل ٥٨) . ويحمل هؤلاء قرية ذات أنبوبة نحاسية طويلة ، ويصبون الماء للظمان في طاس نحاسي ، أوقلة من الفخار . وهناك طبقة كثيرة العدد تتمهن الحرفة نفسها ويسمى الواحد منها (حَمَلِيَا) (شكل ٥٩) وأغلب هؤلاء دراويش من الرفاعية أو البيومية ، وهم معفون من ضريبة الفردة . ويحمل الحملي على ظهره إبريقاً من نخار رمادي يبرد الماء . ويحمل أحياناً قلة من الماء المعطر بماء الزهر ،

(شكل ٥٨) سقا شرية

المقطر من زهر الفارنج ، ليقدمه إلى أفضل عملائه . وكثيراً ما يضع في فوهة الأبريق غصناً من الفارنج . ويتناول الحلى من أفراد الطبقتين العليا والوسطى قطعة فضة إلى خمس فضة . ولا يتناول من الفقراء شيئاً ، أو يتناول منهم قطعة خبز ، أو أى طعام آخر يضعه في جراب يعلقه على جانبه . ويصادف المرء كثيراً من الحليين وبعض السقائين في ساحات الحفلات الدينية ، كالوالد وغيرها ، التي تقام في القاهرة وضواحيها . وكثيراً



(شكل ٥٩) حلى

ما ينفجهم زائر وقبور الأولياء نقوداً في مناسبات كهذه ليوزعوا الماء على الراغبين من المارة . وتسمى هذه الصدقة « تسبيل » ، وتكون إكراماً للولى ، أو في مناسبات أخرى غير الموالد . ويسمح لهؤلاء السقائين في هذه الأحوال أن يعلوا الأبريق أو القرية من « سبيل » عام ، لأنهم لا يتناولون شيئاً من المارة . وهم ينشدون لهذه المناسبة لحناً قصيراً ، داعين الظمان ليتناول من هذه الصدقة المقدمة باسم الله ، فيقولون : « سبيل الله ياعطشان » ويدعون لمن قدم الإحسان أن تكون الجنة والمغفرة من نصيبه فيقولون « الجنة والمغفرة لك يا صاحب السبيل » . ويوجد آخرون تماثل مهنتهم مهنة الحلى . ومن هؤلاء ، بائع العرق سوس المذكور في فصل سابق . ويحمل العرقسوسى جرة حمراء من الفخار على جانبه الأيسر ، ويربطها بسير من جلد أو غيره ، ويسندنها بيده اليسرى (شكل ٦٠) ؛ كما يحشو فوهة الجرة بليف النخل . ويحمل طاسين من النحاس أو قدحين من الصيني أو أكثر يقرعها مما . ويتجول كثير من بائى الشراب بالطريقة

نفسها. ويحمل بائع الشراب عادة وعاء «الشيشة» الزجاجي، ملآن بمنقوع الزبيب، في يده اليسرى، وأبريقاً كبيراً من القصدير أو النحاس الأحمر، وأقداحاً زجاجية



في يده اليمنى. ويحمل بعضهم صينية مستديرة من النحاس الأحمر المبيض وعليها كيؤوس ملآى من «التين المبلول» أو «البالح المبلول»، و«سطة» نحاسية أو طاساً من الفخار الصيني. ويبيع السحلب أيضاً بالطريقة نفسها؛ والسوبيا كذلك، وهي تصنع من لب عبد اللوى، يبل ويدق ثم ينقع في الماء ثم يصفى، ويحلى بالسكر، وقد تصنع من الأرز بدلا من اللب، وتحمل في أوعية كأوعية الزبيب؛ غير أن الأكواب هنا توضع في وعاء من القصدير يشده البائع بحزام إلى وسطه.

(شكل ٦٠) عرقسوسى

ذكرت قبلاً أن كثيراً من فقراء القاهرة يتميشون من تنظيف الشبك. ويحمل (المسلكاتى)، أى منظم الشبك، سلوكاً طويلة لهذا الغرض، يضعها في عصى مجوفة ثلاث أو أربع أو في أنابيب من القصدير، يشدها معاً ويملقها على كتفه (شكل ٦١). ويعلق مع العصى أو الأنابيب حقيبة صغيرة من الجلد بها ألياف من القنب يلفها على السلك لتنظيف الشبك. ولا يتناول المسلكاتى على تنظيف الشبك الواحد أكثر من نصف فضة.

يتميش الكثيرون من الطبقة السفلى رجالاً ونساء، في القاهرة وغيرها من مدن مصر، من التسول. والكثير من هؤلاء، كما هو المتوقع، دجالون كرهون. فبعضهم يشق مظهره على المرء، ولكنه يجمع أموالاً وافرة. وقد حدث منذ شهور قليلة حادث من هذا النوع شاع أمره في القاهرة. ذلك أنه كان هناك فلاح ضريح تقوده ابنته في شوارع القاهرة، وهما يكادان يسيران عاريين دائماً؛ وقد تعود هذا الفلاح أن يدعو كل يوم إلى منزله سائلاً تركياً ضريحاً، فيتناول العشاء معه.

وفي ذات ليلة غاب الفلاح عن منزله ، ولكن ابنته أعدت العشاء للصديق التركي الذي جلس يأكل وحده . وحدث أثناء ذلك أن مديده إلى جانبه ، فوقعت على جرة



(شكل ٦١) مسلكاتي

ملآى نفوداً ، فلم يتردد في حملها وهو منصرف . وكان في الجرة مائة كيس وعشرة من قطع الخيرية ، وهي قطع صغيرة ذات تسعة قروش ، أى ميساوى حينئذ أكثر من خمسمائة وخمسين جنهماً . فذهب المجنى عليه إلى القلعة يطلب إنصافه ، فاستعاد ماله ، ما عدا أربعين خيرية كان اللص قد أنفقها ؛ وقد حرم التسول على الفلاح بعد ذلك . وكثيراً ما يشاهد المرء في القاهرة الأطفال عراة تماماً . وقد رأيت

كثيراً فتيات بين سن الأثني عشر والعشرين عاماً يتسولن في الطرق دون أن يستترهن غير قطعة رثة حول الكشح . ولما يتأثر هؤلاء من برد الشتاء أو حر الصيف لتعودهم ذلك من الطفولة . ويستطيع الرجال أن يناموا في بعض المساجد . وليست حال المتسولين ، من وجوه أخرى ، سيئة جداً كما قد يرى الأجني من مظهرهم . ويكاد المتسولون بلا ريب أن يحصلوا على طعام أو نقود تكفي لسد حاجاتهم الضرورية ، وذلك لميل المصريين إلى الإحسان ، وتعود التجار تناول الطعام في دكاكينهم وإعطاء السائلين شيئاً منه . وهناك متسولون ينفقون جانباً كبيراً مما يجمعونه صباحاً في التمتع بتدخين الحشيش ليلاً ، فيتخيّلون أنهم أسعد الناس . ولا تخرج صيحات المتسولين في القاهرة عن دعاء الله . ومن أكثر الأدعية شيوعاً قولهم : (يا محن يا رب ا) (لله يا محسنين) (أنا طالب من عند ربى رغيف عيش) (ياما انت كريم يا رب) (أنا ضيف الله والنبي) . وقولهم مساء :

﴿عشأى عليك يا رب﴾ وفى ليلة الجمعة : (ليلة الجمعة الفضيلة) . وفى يوم الجمعة :
 (يوم الجمعة الفضيلة) . وكان هناك متسول ، تعود أن يمر بدارى يومياً ، يقول :
 ﴿توكل على الله ! لا إله إلا الله﴾ وإنى أسمع الآن متسولة تصيح : (عشأى عليك
 يا رب . من إيد مؤمن كريم موحد بالله . يا أسياى !) . ويرد الناس المتسولين
 عادة ، إذ أنهم كثيرون بحيث لا يمكن المرء أن يعطى كل من يسأله ، بقولهم :
 (الله يساعذك) . (الله يرزق) . (الله يمطيك) . (الله يعينك) . ولا يرضى
 السائل برفض لا يتضمن ما سبق ذكره أو ما يماثله . ومن المعتاد أن يرى المرء فى
 أشد الشوارع ازدحاماً ، سائلاً يطلب ثمن رغيف عيش يمسكه فى يده بينما يتبعه
 يافع الخبز . ويتجول بعض السائلين ، ولاسيما الدراويش ، وهم ينشدون قصائد فى
 مدح النبي صلعم ، أو يدقون الصنوج أو طبلة صغيرة . ويتجول الدراويش بين
 قرى الريف للتسول . وقد رأيتهم يمتطون الجياد . كما شاهدت أخيراً أحدهم ، يتنقل
 بين الأكواخ على جواد ، يستجدى الخبز ، ويصحبه رجلان يحمل كل منهما
 بيرقاً ، وثالث يقرع طبلاً .

تعتبر الزراعة أهم أعمال المصريين ، ويباشرها ، كما سبق أن ذكرت ، جميع
 السكان ما عدا القليل منهم . ويخصب النيل الجزء الأكبر من الأراضي القابلة
 للزراعة بفيضانه السنوى . ولكن الحقول التى تجاور النهر والقنوات الكبيرة
 يحفر فيها جور الماء وتروى بالآلات مختلفة الأنواع . و « الشادوف » أكثر هذه
 الآلات شيوعاً ، وهو يتكون من عمودين من الخشب ، أو من الطين والعصى ،
 أو من الطين والسمار ، يرتفعان إلى خمس أقدام تقريباً ، ويبلغ ما بينهما أقل من
 ثلاث أقدام ، ويملأها قطعة خشبية أفقية تمتد من قمة إلى أخرى ، ويعلق بها
 عتلة رفيعة تتكون من فرع شجرة ، وينتهى أحد طرفيها بثقل من الطين ،
 والطرف الآخر بوعاء يعلق بواسطة قضيبين طويلين من النخيل ؛ وبصنع الوعاء
 على شكل طاس من السلال أو من طوق ونسيج من الصوف أو الجلد . ويرفع
 الماء فى هذا الوعاء إلى علو ثماني أقدام تقريباً ويقذف به فى حوض معد لذلك .
 ويلزم لرفع المياه إلى الحقول فى أعلى الصعيد ، عند ما ينخفض النيل ، أربعة
 شواذيف أو خمسة . وهناك شواذيف كثيرة ذات عمتين يحركها رجلان . ويعتبر

الرى بالشادوف عملاً شافاً للغاية . وتوجد آلة أخرى للرى وهى « الساقية » ،
وتكاد تكون وحدها المستعملة لرى الحدائق فى مصر . وتتكون الساقية خاصة
من عجلة عمودية ، ترفع المياه فى مجموعة متتابعة من أوعية نخارية مشدودة بحبال ،
وعجلة عمودية ثانية ذات ضروس مثبتة إلى المحور ذاته ، وعجلة كبيرة أفقية ذات
ضروس ، يديرها ثوران أو بقرتان أو حيوان واحد ، فتتحرك العجلتين السابقتين .
وتصنع الآلة صناعة غليظة ، ويحدث تحريكها طقطقة كريهة . وهناك آلة ثالثة
تسمى « تابوت » ، يستعملها المصريون لرى الأراضى شمال مصر ، حيث لا يلزم رفع
المياه إلا لارتفاع قليل . ويشبه التابوت الساقية نوعاً ، والفرق الرئيسى بينهما أن
للتابوت ، بدلا من عجلة الساقية ذات الأوعية ، عجلة كبيرة مجوفة الدائرة ترفع
فيها المياه . وتستعمل « القطوة » فى الأقاليم نفسها ، وهى وعاء مثل وعاء الشادوف
يشد إلى حبال أربعة ، ويستعمل كثيراً لرفع المياه إلى جرة التابوت . ويحرك
القطوة رجلان يمسك كل منهما بحبلين . وتقوم الأرض ، فى نظام الرى الصناعى
إلى مربعات صغيرة ، يحدها ارتفاع من التراب ، أو إلى أخاديد ؛ فيسيل الماء من
الآلة فى قناة ضيقة إلى المربعات أو الأخاديد الواحد تلو الآخر .

لا تزرع الأراضى « الرى » ، أى التى يغمرها الفيضان ، ما عدا القليل منها ،
إلا مرة واحدة فى السنة . فيبذر القمح والشعير والعدس والبقول والتمرس
والحمص الخ ، بعد انسحاب المياه ، فى آخر أكتوبر أو ابتداء نوفمبر تقريباً . ويسمى
هذا الموسم « الشتوى » . أما الأراضى « الشراقى » ، وهى التى لا يصل إليها الفيضان
أعمالها ، وبعض الأراضى « الرى » ، فتنتج ثلاث غلات سنوياً بفضل الرى
الصناعى ، وإن لم تكن الأراضى الشراقى جميعها تزرع هكذا . وتنتج الأراضى
التي تروى صناعياً ، أولاً المحصول الشتوى ، إذ هى تبذر مع الأراضى الرى فى وقت
واحد ، بالقمح أو الشعير على العموم . وعقب ذلك تبدأ زراعة الصيفى ، أو مايسمونه
فى الصعيد « القيسى » أو « الجيسى » ، وتتكون عند الاعتماد الريسمى تقريباً
أو بعد ذلك ، فيزرع الذرة الصيفى أو النيلج أو القطن الخ . وأخيراً تأنى الزراعة
« الدمرى » مدة ارتفاع النيل ، وتبدأ عند الانقلاب الصيفى أو بعده بقليل ،
فتبذر الذرة الصيفى مرة أخرى أو الذرة الشامى الخ . وهكذا تجود الأرض

بمحصول ثالث . ويزرع القصب على مساحة كبيرة في الصعيد . ويزرع الأرز في الأراضي المنخفضة قرب البحر الأبيض المتوسط

يستعمل المصريون « النورج » لفصل حبوب القمح والشعير وقطع القش للعلف . والنورج آلة على هيئة مقعد ، تسير على عجلات حديدية صغيرة ، أو صفايح مستديرة دقيقة ، عددها على العموم إحدى عشرة عجلة مثبتة إلى ثلاثة محاور ، أربع عجلات في المحور الأمامي ، وأربع في المحور الخلفي ، وثلاث في المحور الأوسط . ويجر النورج بقرتان أو ثوران يدوران في حلقة فوق الحبوب . أما المحراث وآلات الفلاحة الأخرى فهي ذات نوع بدائي .

تشغل الملاحة النيلية عدداً كبيراً من المصريين . وأغلب نوتية النيل أقوياء بارزو العضلات . وهم يقاسون مشقة شديدة في التجديف وسحب المراكب ودفعها « بالمدرة » ، ولكنهم كثيرو الجذل ؛ ويزيد سرورهم كلما كثر عملهم ، إذ هم يسألون أنفسهم بالفناء . ويقعرون أكثر الربانة خبرة إلى جنوح سفنهم ، نتيجة للتغيرات المتواصلة التي تحدث في مجرى النيل ؛ ويلزم حينئذ أن ينزل البحارة إلى الماء لدفع المراكب بظهورهم وأكتافهم . وتصنع المراكب النيلية بطريقة تمنعها من الاصطدام بحيث ينفوس مقدمها في الماء عن مؤخرها ، ومن ثم يلزم أن تكون الدفة كبيرة جداً . وتكون أحسن أنواع المراكب النيلية ، وهي كثيرة العدد ، بسيطة الشكل رشيقة . وتكون غالباً على طول بين ثلاثين وأربعين قدماً ، ويكون لها ساريتان وشرعان مثلثان كبيران ، وقررة تقلو المؤخرة وترتفع إلى أربع أقدام تقريباً^(١) ؛ وتشغل القمرة ربع المراكب أو ثلثها طولاً ، وكثيراً ما تشغل الثلثين أو أكثر . ويستخدم عادة ملاح ليسك حبل الشراع الرئيسي ، إذ أن الزواجع الفجائية تسكر على النيل ، فيستطيع أن يترك الشراع يخفق عند أقل إشارة . ويجب أن يكون المسافر حذراً بصفة خاصة مهما اعتدل الجو

(١) وأصبحت قرات المراكب أخيراً أكثر ارتفاعاً ، لتلائم حاجات السياح الأوربيين .

الفصل الخامس عشر

استعمال التبغ والبن والحشيش والأفيون الخ

إن تحريم الخمر بأنواعها ، في التشريع الإسلامى ، جعل المسلمين يلجأون إلى وسائل أخرى تسبب لهم نشوة خفيفة أو ضرراً مختلفاً من الطرب الشديد .

وأكثر هذه الوسائل انتشاراً ، فى أغلب البلدان الإسلامية ، ما يسميه العرب « كيفاً » ، وهو تدخين التبغ ، ولا يمكننى أن أترجم هذا اللفظ بأكثر من « لذة لطيفة » . ويبدو أن هذا التبغ أدخل إلى تركيا وجزيرة العرب وغيرها من بلاد الشرق قبيل القرن السابع عشر من الميلاد ^(١) ، أى بعد سنوات قليلة من انتظام تصديره كسلعة تجارية من أمريكا إلى أوروبا الغربية . وكثيراً ما اشتد الجدل حول إباحة التدخين للمسلم ^(٢) ، غير أن ذلك جاز الآن . وقد غير التبغ من طباع المدمنين عليه من الترك والعرب ، وجعلهم على الأخص أكثر كسلماً كانوا عليه قبلاً ، فهم يضيعون فى تدخين شبكهم وقتاً طويلاً . إلا أنه كان ذا أثر آخر حسن ،

(١) يقول الاسحاق أن عادة التدخين بدأت تنتشر فى مصر بين عامى ١٠١٠ و ١٠١٢ هجرية (١٦٠١ — ١٦٠٣ ميلادية) .

(٢) يروى الجبرتي أنه كثيراً ما كان يحدث فى عهد محمد على باشا اليدكشى الذى ولى مصر ١١٥٦ إلى ١١٥٨ هجرية أن يجبر كل من يحمل شبكاً على أكل حجر الشبك ومحتوياته الملتبسة . وقد يبدو هذا غير معقول ولكن الأسنان القوية تستطيع أن تهشم حجر الشبك (المؤلف)

« وفى أيامه (أيام محمد باشا اليدكشى) كتب فرمان بتحريم شرب الدخان فى الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت ، ونزل الأغا والوالى فنادوا بذلك وشددوا فى الانكار والتنكيل بمن يفعل ذلك من عال أو دون ، وصار الأغا يشق البلد فى التبديل كل يوم ثلاث مرات ، وكل من رأى فى يده آلة الدخان عاقبه وربما أطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بالنار » .
أنظر تاريخ الجبرتي الفصل الثانى فى ذكر حوادث مصر وولاتها . الفقرة الخاصة بتولية محمد باشا اليدكشى مصر (المترجم)

فقد أغنى إلى حد كبير عن استعمال النبيذ الذى يضر على الأقل بصحة سكان الأقاليم الحارة . وتقدم قصص ألف ليلة وليلة ، التى كتبت قبل استعمال التبغ فى الشرق ، والتى تصور لنا بلا ريب عادات العرب وشماثلهم فى ذلك الوقت تصويراً صادقاً ، تقدم هذه القصص أدلة وافية على أن المسلمين وقتئذ أو فى العصر السابق مباشرة كانوا يشربون النبيذ علانية . ويمكن أن نقول دفاعاً عن الشبك ، كما يستعمله العرب والترك ، إن أنواع التبغ الخفيفة التى يستعملونها عادة لها تأثير لطيف ، فهى تهدئ الجهاز العصبي، وترهف الذهن بدلاً من أن تبلده . ولاشك أن الشبك يتضمن كثيراً من ملذات الشرقيين ، ويقدم إلى الفلاح منعشاً خفيفاً زهيداً ويحمده فى الغالب عن الملذات المضرة . وتعتبر القهوة نوعاً مماثلاً للتبغ وتؤخذ معه ، وقد ساعد على جعل النبيذ أقل انتشاراً بين العرب . ويؤيد هذا الافتراض لفظ « القهوة » ، وهى تسمية عربية قديمة للنبيذ . ويقال إن هذا الشراب المنعش اكتشفه فى الجزء الأخير من القرن السابع للهجرة ، أو الثالث عشر من الميلاد ، متعبداً يسمى الشيخ عمر ، دفعه الاضطهاد إلى أحد جبال اليمن مع بعض أتباعه ، وحمله الجوع على أن يشرب منقوع البن الذى ينبت هناك بالطبيعة . غير أن استعمال البن لم ينتشر فى اليمن إلا بعد هذا الزمن بجيلين . وقد استوردت مصر البن بين سنتي ٩٠٠ و ٩١٠ هجرية ، أى فى أواخر القرن الخامس عشر أو ابتداء القرن السادس عشر من الميلاد ، أو قبل إدخال التبغ إلى الشرق بجيل تقريباً . وكان يشربه حينئذ فى جامع الأزهر فقراء اليمن ومكة والمدينة ، الذين وجدوا فيه منشطاً لهم على العبادة والتسبيح ، وكانوا يمكفون على شربه بكثرة . وأدخل البن إلى الأستانة بعد ذلك بنصف قرن تقريباً^(١) . وقد أثارت القهوة منازعات حادة بين المتعبدين والمتعلمين فى جزيرة العرب ومصر والأستانة . فكان كثير من العلماء يؤكد أن القهوة لها خصائص مسكرة ، فتحرم على المسلمين^(٢) ؛ بينما كان آخرون

(١) أنظر دساقى De Sacy فى : مختارات من الأدب العربى Chrestomathie Arabe

الجزء الأول ص ٤١٢ — ٤٨٣ الطبعة الثانية .

(٢) وقد نسب بعضهم إلى القهوة الأضرار بالعقل والبدن إلى غير ذلك من الدعاوى والتعصبات المؤدية إلى الجدال والفتن وحصول ما أدى إلى منع بيعها وكسر أوانيتها بل وإلى تعزير باعتها بالضرب وغيره . أنظر الباب الأول من كتاب : « عمدة الصنف فى حل القهوة » =

يقررون أن للقهوة فضائل، إحداها مقاومة النوم، فتكون عوناً قوياً للاتقياء على عبادتهم ليلاً. وكثيراً ما كان بيع البن حينئذ يحرم ويحلل حسب رأى الحاكم. أما الآن فيقول جميع المسلمين تقريباً بحل القهوة، ويفرطون في استهلاكها، حتى الوهابيون الذين هم أشد المسلمين صرامة في الحكم على التبغ والتمسك بأحكام القرآن والحديث. وكانت القهوة تجهز قبلاً من حب البن وقشره معاً؛ ولا تزال تعد في جزيرة العرب منهما معاً، أو من القشر فقط. وتحتضر في البلاد الشرقية الأخرى من الحب وحده يقلى ويطحن أولاً فأولاً.

في القاهرة أكثر من ألف «قهوة»^(١). والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود^(٢). ويقوم على طول الواجهة، ماعدا المدخل، مصطبة من الحجر أو الآجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثاً وعرضها كذلك تقريباً؛ وفي داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبيين أو ثلاثة. ويرتاد المقهى أفراد الطبقة السفلى والتجار، وتزدحم بهم عصرًا ومساءً. وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ويحمل كل منهم شبكة الخاص وتبغ. ويقدم «القهوجى» القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد، أو عشر فضة «للبكرج» الصغير الذى يسع ثلاثة فناجين أو أربعة^(٣). ويحتفظ القهوجى أيضاً بعدد من آلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة^(٤). وتستعمل هذه الأخيرة في تدخين التبناك والحشيش الذى يباع في بعض المقاهى. ويتردد الموسيقيون والمحدثون على بعض المقاهى، في الأعياد الدينية خاصة.

يسمى المصريون أوراق القنب وحقاقه حشيشاً. وكان القنب يستخدم قديماً

== للشيخ عبد القادر محمد الأنصارى الجزيرى .

ومما قيل في عادة شرب الماء قبل تناول القهوة في الكتاب ذاته : (فائده) قال قاضى القضاة علامة زمانه تاج الدين عبد الوهاب بن يعقوب المكي المالكي في ليالى اجتماعى به زمن الموسم بداره بالسوق بمكة المقرفة ، إن شرب الماء البارد قبل القهوة مما يفيد رطوبة المزاج ويقل يابسها ولا يكون السهر حينئذ شديداً . وكنت أراه يفعل ذلك دائماً لهذا المعنى ، وهو من ذوي المعرفة والتجارب . (المترجم)

(١) يطلق لفظ القهوة ، وهو اسم الشراب على المكان الذى تباع فيه .

(٢) انظر الرسم الموجود في الفصل الحادى والعشرين .

(٣) وكثيراً ما يباع في المقهى أيضاً في ليالى الأعياد خاصة شراب الزنجبيل المحلى بالسكر

(٤) وصفت هذه الآلات في فصل سابق .

في بعض البلدان الشرقية مخدراً مبهجاً . ويخبرنا هيرودوت في كتابه الرابع ، في الفصل الخامس والسبعين ، أن الشيث^(١) كانوا يحرقون بذور القنب في احتفال ديني فيخدروهم دخانه . ويذكر جالينوس أيضاً خصائص القنب المخدرة . وقد انتشر مضغ أوراق القنب لإحداث النشوة في الهند منذ المصور الأولى . ومن ثم دخلت فارس . وقد انتقلت هذه العادة المضرة المذلة إلى مصر منذ ستة قرون تقريباً أي قبل منتصف القرن الثالث عشر من الميلاد . فأولع بها على الأخص أفراد من الطبقة الدنيا . على أن كثيراً من أفاضل رجال الأدب والدين ، ومن « الفقراء » استسلموا لإغرائها وأيدوا جوازها للمسلمين . وقد انتشرت هذه العادة الآن بين الطبقات السفلى في العاصمة وفي غيرها من مدن مصر . ولإعداد الحشيش وسائل مختلفة يطلق على كل منها اسم مختلف نحو : « شيره »^(٢) ، « بست » ... الخ . ويُقال إن الشائع هو استعمال أوراق القنب الغضة ، وحدها ، أو مخلوطة بالتبغ ، للتدخين ، وسحق الحقاق ، دون البذور ، ومزجها بمواد عطرية ، لصنع معجون مخدر . والحوامض تُفسد فعل الحشيش . ويُثير الحشيش المعتد للتدخين طرباً شديداً . وهو يدخن في الجوزة ، فيسحب المدخن أنفاساً سريعة ، ثم نفساً طويلاً يخرج منه الفم والأنف ويتبعه بنوبة سعال ، وبصاق دائم ينشأ من امتلاء الرئتين بالدخان . ويباع الحشيش في بعض المقاهي ، وفي محال أصغر حجماً وأكثر عزلة خصصها أصحابها لبيع الحشيش وغيره من المخدرات ، ويُطلق على الواحد منها « محششة » . ومن السلي أحياناً ، أن يُشاهد المرء مهازل من يترددون على هذه الأماكن ، وكلامهم من الطبقة الدنيا ، ويستمع إلى أحاديثهم . وتستعمل كلمة « حشاش » ومعناها مدخن الحشيش أو آكله ، للزدرء . وكثيراً ما يسمى المشاغبون حشاشين ، ويعتبر لفظ « حشاشين » (بالجمع) أصلاً لكلمة Assassin ، التي أطلقت أولاً في الحروب الصليبية على الفدائيين العرب في سوريا ، وكانوا

(١) الشيث Scyths قبائل بربرية انحدرت من آسيا الشمالية إلى شمال البحر الأسود حوالي القرن السابع قبل الميلاد . (الترجم)

(٢) نسبة إلى شيراز بفارس . انظر ص ١٦٦ Aegyptiaca (مصريات) تأليف

(الترجم)

يستعملون العقاقير المخدرة ، لكي يسلبوا أعداءهم الشهور (١)
 ليس استعمال الأفيون وغيره من العقاقير المخدرة شائعاً في مصر بقدر شيوعه
 في كثير من البلدان الشرقية الأخرى . ولا شك أن نسبة المصريين الذين تردوا
 في هذه الرذيلة إلى مجموع السكان ليست كبيرة بقدر نسبة الإنجليز المولعين بالسكر .
 ويسمى آكل الأفيون « أفيونياً » . ويعتبر هذا اللفظ أقل مهانة من كلمة
 « حشاش » ، إذ أن هناك كثيراً من أفراد الطبقتين الوسطى والعليا تصدق
 عليهم هذه التسمية . ويتعاطى من لم يدمن الأفيون هذا المخدر خاماً ، بقدر ثلاث
 حبات أو أربع . غير أن الأفيوني يزيد المقدار تدريجاً . ويصنع المصريون معاجين
 من الخربق والقنب والأفيون ، وعقاقير عطرية أخرى ، يتناولونها أكثر من
 الأفيون وحده عادة . ويسمى صانع المعجون أو بائه « معجونجيا » . وأكثر
 تلك الأنواع شيوعاً يسمى « برشاً » . ويقال أن من الأنواع ما يعيل بمقتاوله إلى
 الفناء أو المزاح أو الرقص ، أو يشرفيه أحلاماً لذيدة ، وقد يسكن فقط . وتباع تلك
 الأنواع جميعاً في « المحششة » . أشرت قبلاً إلى شراب « البوطة » الخمر (٢) ، الذي
 يشربه كثير من ملاحي النيل وآخرون من الطبقات السفلى في مصر . وقد شاهدت
 في مقابر طيبة جراراً كبيرة تحوى ثمانية جمعة من ذلك النوع المصنوع من الشعير

(١) أنظر نهاية الفصل الثاني والعشرين . ويبدو أن أحد الناقدين عزا إلى من الملاحظة
 السابقة إنني أنسب إلى نفسي اكتشاف هذا الاشتقاق . وتوضح إشارتي إلى كتي « Assassin »
 و « De Saey » في كشف الكتاب أن الأمر ليس كذلك وكنت أظن أن ملاحظة
 دسامي الجليل المتعلقة بهذا اللفظ معروفة عموماً بحيث لا تستلزم مني أن أذكرها في موضعين .
 (المؤلف)

طائفة الحشاشين هي إحدى شعب الحركة الاسماعيلية التي برأسها في الوقت الحاضر أغاخان
 وهو بصفته سليل أمراء الحشاشين يزعم أنه ينسب إلى أحد فروع الدولة الفاطمية .
 وقد أنشأ هذه الطائفة حسن بن الصباح بفارس وسورية . وقد قوى نفوذ الحشاشين
 بسورية خاصة حيث عرفهم الصليبيون . ويقال إن شيخ الطائفة كان يخدر مرهديه ثم يرسلهم
 إلى مكان معد لينعموا فيه بكل ما يلد حواسهم ، ثم يعيدهم إليه . يزعم أن هذا لون من ألوان
 النعيم الذي ينتظرهم بعد الموت . فيدبنون له بالطاعة العمياء . وهؤلاء هم الفدائيون الذين يقع
 عليهم اختياره لقتل أعدائه . وأصل كلمة Assassin من ذلك .

أنظر كتاب العقيدة والشريعة لجولدسبير ص ٢١٢ وما بعدها . الترجمة العربية . دار
 الكتاب المصري . وكتاب Les Societés Seréts (الجمعيات السرية) تأليف Heron -
 Lepper الفصل التاسع . Payot (المترجم)

(٢) فصل « الدين والشرع » الذي حذفته . ويذكر المؤلف هناك أن البوطة تصنع
 عادة من خبز الشعير يفت في الماء ويهرس ويخمر ، وأحياناً من القمح والدخن . (المترجم)

الفصل السادس عشر

الحمام

بعد الاستحمام ترفاً عظيماً ينعم به المصريون . وكثيراً ما يستحم في النيل سكان الريف وفقراء المدن المعدمين . ولا يندر أن ترى الفتيات والشابات يستحممن صيفاً ، عاريات الجسد ، في الأماكن المنزلة من النيل . وللأغنياء ، كما أشرت سابقاً ، حمامات في منازلهم الخاصة . غير أنهم كثيراً ما يذهبون إلى الحمام العمومي ؛ وكذلك نساؤهم اللاتي يدعون ، في مناسبات عديدة ، إلى مصاحبة صديقاتهن (١) .

بالقاهرة ما بين ستين وسبعين حماماً ، يدخلها الجمهور مقابل مبلغ صغير من المال . وبعض الحمامات تخصص للرجال والبعض الآخر للنساء والأطفال ؛ وهناك حمامات للجنسين على التوالي : فتكون للرجال قبل الظهر ، وللنساء بعده . ويعلق حينئذ على مدخل الحمام منشفة ، أو قطعة من الكتان أو الجوخ ، تحذيراً للرجال من الدخول . وينصرف الخدم قبيل الظهر ، وتحمل الخادومات مكانهم . وتزين واجهة الحمام ، وخاصة مدخله ، أعلاه وحوله ، كما تزين به المساجد ، بالأحمر والأبيض وبألوان أخرى أحياناً ، ولكن على نسق أكثر زخرفة عادة . ويتكون الحمام من غرف مبلطة بالرخام الأبيض يضم إليه ، في بعض المواضع ،

(١) كان للحمام العمومي ، في القرن التاسع عشر ، شأن كبير في حياة القاهرة الاجتماعية . فما كان القاهري يذهب للاستحمام فحسب . بل كان يذهب ليقابل أصدقاءه أيضاً . فكان الحمام أشبه « بالأندية » ، إذ كان المترددون إليه يتحدثون في السياسة والأدب ، ويعقدون الصفقات الخ... وكان الحمام يلعب في حياة النساء أيضاً دوراً مهماً ، إذ كانت وسيلتهن للخروج .

أنظر ص (٤) من كتاب Hammams du Caire (حمامات القاهرة) تأليف Edmond Pauty . مطبعة المعهد العلمي الفرنسي . القاهرة . — المترجم .

رخام أسود وقطع صغيرة من القرميد الأحمر الدقيق ، على نظام الدرقاعة بالمنازل الخاصة ، المبين رسمها في مقدمة الكتاب . وبمelo الغرف الداخلية قباب ذوات كوى صغيرة مستديرة مغطاة بالزجاج لدخول النور . ويستخدم غالباً ، في بناء الجدران والقباب ، الآجر والملاط . وهما ، لتمرصهما لبخار الحمام ، يؤولان إلى التشقق والسقوط ، إذا توقفت الحرارة أياماً قليلة . ويقام ، فوق مستوى أعلى مكان بالحمام ، ساقية يديرها بكرة أو ثور لرفع المياه من بئر أو صهريج إلى الرجل (القزان) .

يعتقد المصريون أن الحمام مكان مختار للجن ، ولذلك يتلو الداخل إليه دعاء يقيه الأرواح الشريرة ، ويدخل بقدمه اليسرى أولاً . والسبب نفسه لا يتلى القرآن داخل الحمام (١) . ويستودع الداخل ما لديه من ساعة ونقود « المعلم » ، أى حارس الحمام ، فيضعه في صندوق مقفل . ويسلم شبكه وسيفه ، إن كان يحمله ، إلى أحد خدم الحمام ، الذى ينزع من رجله الحذاء ويقدم إليه القبقاب . وتسمى الغرفة الأولى « مسلخاً » وبها ليونان أو ثلاثة أو أربعة ، تكون كالمصاطب أو أكثر منها سمة ، وتكسى بالرخام . ويتوسط هذه الغرفة « فسقيه » يرتفع ماؤها البارد من طبقة حجرية سفلى مثمثة الأضلاع مغطاة بالرخام ، تشبه تلك التى بالغرفة الداخلية . وتجهز أحد تلك اللواوين بالحشايا والوسائد ، وتخصص لراحة الطبقتين العليا والوسطى . أما اللواوين المخصصة للطبقة الدنيا ، فتجهز بالحصر عادة . ويشتمل « المسلخ » أيضاً ، فى كثير من الحمامات ، على دكة صغيرة لتناول القهوة .

يفضل المستحمون غالباً خلع ملابسهم فى « المسلخ » صيفاً ، وفى الشتاء يخلعونها فى غرفة داخلية مغلقة تسمى « بيت أول » ، يصل بينها وبين الغرفة الأولى ممر قصير ، على أحد جانبيه مرحاضان أو ثلاثة . ويطلق اسم « بيت أول » على هذه الغرفة لأنها أولى الغرف الدافئة ؛ ولكنها أقل دفئاً من الغرفة الرئيسية ، وتعتبر مدخلا لها . والغرفة « بيت أول » مصطبقتان ، ترتفع إحدهما عن

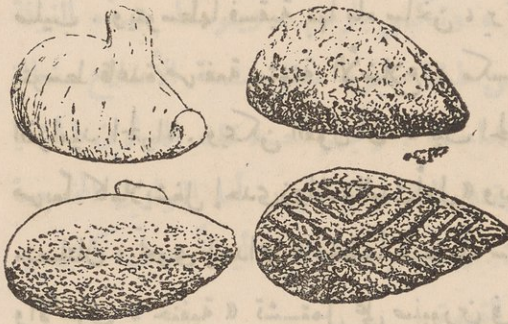
(١) كثيراً ما يهمل التحريم المشار إليه هنا والكثير غيره بالرغم من كثرة الأحاديث المشهورة التى تفرضه .

الأخرى ، وتكسوان بالرخام . ولا تتسع المصطبة المرتفعة لأكثر من شخص واحد وتمد لأفراد الطبقة العليا . بينما تتسع الأخرى لشخصين . وعندما تشغل المصطبة الأولى ويحتاج لمقعد مرتفع آخر ، توضع حشيتان أو ثلاث ، الواحدة فوق الأخرى ، على المصطبة الواطئة أو على الليوان . ويبسط لأفراد الطبقة العليا سجادة على المصطبة . ويتناول المستحم فوطة يصر فيها ملابسه ، وثانية يضمها حول وسطه ، وتصل هذه إلى الركبتين أو دونها قليلا وتسمى « محزماً » . ويحضر له عند اللزوم فوطة ناعمة يتمم بها ، تاركا أعلى رأسه عارياً ، ورابعة يضمها فوق صدره ، وخامسة يغطي بها ظهره . ويساعد المستحم على خلع ملابسه ولبس « المحزم » ولد أو شاب أمرد يسمى « لاونجيا » . وهذه التسمية تحريف لكلمة « ليوانجي » أي خادم الليوان .

عندما يتجرد المستحم من ملابسه ، ويرتدى ما سبق ذكره ، يفتح له « اللاونجيا » باب الغرفة الداخلية الرئيسية المسماة « حرارة »^(١) . وبهذه الغرفة أربعة لواوين منخفضة ، مثل التي توجد في المنازل الخاصة ، تكون على شكل صليب . ويتوسطها فسقية بها ماء ساخن ، يرتفع من حوض صغير قليل النور يتوسط قاعدة مرتفعة مئمنة الأضلاع ، مكسوة بالرخام الأبيض والأسود وقطع القراميد الحمراء . ويمكن القول أن « بيت الحرارة » يكون والغرفة المتصلة به مربعا كاملا يشغل إحدى زواياه « البيت أول » ويشغل الزاوية الثانية غرفتان صغيرتان متصلتان ، تحوى إحداها « مغطساً » به ماء ساخن ، يصعد إليه ببعض درجات ، والأخرى « حنفية » تشتمل على صنبورين في الحائط ، أحدهما للماء الساخن ، والآخر للماء البارد ، يصبان في حوض صغير أمامه مقعد . ولا يطلق اسم « حنفية » عادة على الصنابير وحدها ، بل على الغرفة التي تحويها أيضاً . ويشغل الزاوية الثالثة غرفتان صغيرتان أخريان كالسابقتين ، تشتمل إحداها مغطساً آخر ، مأوؤه أقل حرارة من السابق ، والأخرى « حنفية » أخرى . ويملا كل مغطس مجرى ماء يتدفق من قبة الغرفة . وتشغل الزاوية الأخيرة غرفة لا تتصل « ببيت الحرارة » يوجد فيها النار تحت القزان . ويملا « بيت الحرارة » ، في جزئه الأوسط ولواوينه

(١) بدلا من « بيت الحرارة »

والغرف الصغيرة المتصلة به ، قباب بها فتحات صغيرة مغطاة بالزجاج .
ولا يلبث المستحم بعد دخوله « بيت الحرارة » أن يتصبب جسده عرقاً
بسبب الحرارة الرطبة التي يحدتها ماء الفطسين والفسقية والقزان . ويتقدم عامل
الحمام ، المسمى « مكيساتى » ، على الفور إلى المستحم ، فيجرده من الفوط ويعطيه
« محزماً » مبللاً أو يترك « المحزم » السابق عليه ويبلله . ويجلس المستحم على
مقعد الفسقية الرخاى ، أو يتمدد على منشفة فوق إحدى اللواوين ، أو على حافة
إحدى الفطسين ، مذعناً لأولى العمليات ، عملية « الطقطقة » . فيطلق العامل
جميع مفاصل الجسم تقريباً ، فيلوى الجسم فى اتجاه واحد أولاً ثم فى الاتجاه الآخر
حتى يقطع العامود الفقري . ويطلق الرقبة أيضاً مرتين بأن يولى الرأس فى
الاتجاهين ، وتفزع تلك الحركة غير المتعود ، والأذنان كذلك يقطعتهما . ويلوى
الأطراف بعنف ظاهر ولكن ببراعة ، فلم يسمع بحادث مكدر أثناء هذه العملية
والقصد من هذه العملية تليين المفاصل . ويدلك « المكيساتى » جسم المستحم
أيضاً . ثم يدلك بطن قدمه بعد ذلك ، أو قبله ، بمحك من الطين المحروق (١).



والحك نوعان : أحدهما ذو مسام
خشن للمس مخطط السطح والآخر
من الصلصال المحكم المسام الناعم
للمس ، ما عدا الناحية المستعملة
فتخشن . وكلاً الحجرين قائم
يضرب إلى السواد . وتستهمل
النساء أحجار تُكسى بالفضة

(شكل ٦٢) أحجار من الطين المحروق

الرقيقة المنقوشة ، ما عدا السطح الأسفل الذى يحك به . والحك الخشن لازم لمن لا
يلبس الجوارب ، وذلك حال أغلب المصريين . أما الحك الآخر فيستعمله من هو
أكثر رقة . وكثيراً ما يستعمل فى ذلك الأطراف لتنعيم الجلد . أما العملية الثانية
فهى ذلك الجسم بكيس صغير من الصوف الخشن (٢) . بعد ذلك يغطس المستحم

(١) ويسمى « حجر الحمام »

(٢) ويسمى هذا العمل « تكيساً » ، ويسمى الكيس « كيس الحمام » ، ويسمى

العامل لذلك « مكيساتياً » أو على الأصح « مكيساً »

إذا شاء في أحد الفطسين . ثم يذهب إلى « الحنفية » حيث يعلق « المكيساتى » على مدخلها منشفة ، ويفسّل المستحم بالليف والصابون والماء العذب الذى يجلبه في وعاء نحاسى ويسخنه في أحد الفطسين ، لأن ماء « الحنفية » يصدر من بئر مالحة ، فلا يصلح للاغتسال بالصابون . ويستعمل المصريون الليف كما يستعمل الأوروبيون الأسفنج . ولا يستعمل ليف النخيل الأسمر اللون للاستحمام ، وإنما يستعمل ليف أبيض اللون ، يجلب من الحجاز . ويزيل « المكيساتى » رغبة الصابون بماء « الحنفية » ، ويخلق إذا لزم الأمر إبطى المستحم ، ثم ينصرف تاركاً إياه يتم حمامه . ويطلب المستحم بعد ذلك مجموعة من المناشف ^(١) يغطى بها جسمه ويعود إلى غرفة « بيت أول » . ويعتاد أفراد الطبقات الغنية أن ينفجوا « المكيساتى » نصف قرش أو قرشاً وإن لم يطلب منهم شيئاً .

وبعد المستحم فوق مصطبة « بيت أول » حشية تغطى بالمناشف ، ويجهز أحد طرفيها بوسادة أو وسادتين يتكىء عليها ، وهو يحتسى القهوة ، وينعم بالتدخين ، بينما يدلك لاونجى أو لاونجيان قدميه ويدلك جسمه وأطرافه . وينفج المستحم كل « لاونجى » خمس فضة أو عشرة أو أكثر . ويظل يدخن شيكه أوشيشته وقتاً ، ثم يرتدى ملابسه ويخرج . فيقدم له الحارس مرآة ومشطاً ، ما لم يكن حليق الشاربين واللحية . ثم يطلب المستحم ماله ، ويضع قرشاً إلى أربعة قروش على المرآة وينصرف . ويعتبر الحارس رئيس الخدم ، وعمله أن يحفف المناشف في « المسلخ » ويقوم بالحراسة . ويدفع المستحم عادة قرشاً واحداً لجميع الأعمال المذكورة سابقاً يذهب كثير من الناس إلى الحمام مرتين في الأسبوع . ويذهب آخرون مرة واحدة أو أقل . ويكتفى البعض بالاغتسال بالصابون والماء ثم يغطس في أحد الفطسين ، فيدفع طبعاً أجراً قليلاً .

وكثيراً ما يذهب النساء إلى الحمام ، ولكن لا بمقدار ما يذهب الرجال . ويفتح الحمام للنساء الطبقات المختلفة ما لم يؤجر خصيصاً لعائلة أو جماعة من السيدات . ويذهب إلى الحمام عادة نساء المنزل الواحد جميعاً وصغار الفتيان . ويأخذ النساء معهن السجاجيد ، وما يحتجن إليه من مناشف وطسوت الخ ، وماء عذب للاغتسال

بالصابون وللشرب . ويحضر بمضهن الفاكهة والحلوى ومرطبات أخرى . وكثيراً ما تصطحب السيدة الفنية « بلانتها » أو « مشطها »^(١) . ولا يرتدى الكثيرات من نساء الطبقة السفلى رداء في الحمام ، ولا منشفة حول الوسط أيضاً . ويأثر أخريات بالمنشفة وينتملن القبقاب دائماً . وقلماً توجد تسلية ينعم بها نساء مصر بقدرتتمعن بالذهاب إلى الحمام ، حيث يلهون كثيراً بمبديات سرورهن في ضجه . وينتهر النساء فرصة وجودهن بالحمام ليعرض حلين وأجل ملابسهن ، وليتحدثن بلا تكلف مع من يقابلهن هناك من صديقات وغيرهن . وقد تختار الأم لابنها عروساً من الفتيات أو النساء اللاتي تصادفهن في الحمام . ويؤجر الحمام في مناسبات عديدة ، عند الاحتفال بعرس مثلاً ، لعائلتين أو أكثر من صفوة النساء ، فلا يسمح لغيرهن بالدخول . غير أن المعتاد أن تؤجر السيدة « خلوة » لها ولصديقاتها وللخاديات . ويطلق لفظ « الخلوة » على حجرة « الحنيفة » . ويسود الاضطراب الكثير الجماعة المكونة من طبقات مختلفة . ولكن حيث يجتمع الصديقات تستسلم الفتيات للبهجة واللعب . ويصرف النساء ساعة أو أكثر تحت يدي « البلانة » ، فتدلكهن وتحمين وتصفّر شعورهن وتنشف شعرالبدن^(٢) الخ . وتتوجه المستحميمات بعد ذلك إلى « البيت أول » أو « المسلخ » حيث يرتدين بعض ملابسهن ، أو قبصاً مرسلًا وينعمن بالمطربات المختلفة التي يحملنها معهن ، أو يرسلن في شرائها من السوق . وتحمل من تدخن منهن شبكها الخاص معها ، ويتسلى النساء في الأعياد بالاستماع إلى الفناء ، فيؤجرن عالمتين أو أكثر لمرافقتهن إلى الحمام .

(١) تنطق هكذا عادة بدلاً من « ماشطة » .

(٢) قيل لي إن « النورة » وهي مادة تزيل الشعر تستخدم كثيراً في الحمام لتفضيلها على الصبغ الشائع الاستعمال وهي تتكون من الجير ونسبة قليلة لاتتعدى الثمن من الرهج . فيعجن هذا المركب بالماء قبل استعماله . ويزول الشعر بعد دقيقتين تقريباً بعد غسل المكان — أنظر كتاب Russel (رسل) ، Aleppo (حلب) ، الجزء الأول ص ١٣٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ الطبعة الثانية .

الفصل السابع عشر

الألعاب

إن أكثر ألعاب المصريين تلائم طبائعهم المهادنة . وهم يجدون لذة كبيرة في لعب الشطرنج ، ويسمونه « سطرنج » (بالسين) ، « والضامة » ، والنرد « الطاولة » . وتكون بيادق الشطرنج على شكل ساذج جداً ، إذ أن الدين يحرم على المسلمين تمثيل الكائنات الحية . ومع ذلك قلما ينتهى مسلعو مصر عن الميسر؛ فالألعاب القائمة على الحظ ، بعضها أو كلها ، تنتشر بين طبقات المصريين جميعاً ، وإن اعتبر البعض لعبق الشطرنج والضامة محرمتين أيضاً . ولا يكاد لعب الورق يقل شيوعاً عن الألعاب السابقة ، ويسمى خاصة ، على سبيل التمييز ، « لعب القهار » ^(١) ، إذ يلعبونه غالباً بنقود أو برهان آخر . وكثيراً ما نشاهد أفراد الطبقة الدنيا بمصر يقامرون في المقاهى . وكثير ما لا يتعمد الرهائن بمض فناجين من القهوة .

تعد « المنقلة » من الألعاب الدائمة الصيت عند المصريين ، ويلعبها اثنان على لوحة ، أو لوحتين تجمعهما مفاصل ، ذات تجاويف نصف كروية ، تسمى « بيوتا » ، عددها اثنا عشر تجويفاً ، على صفين متساويين . ويلعبونها باثنتين وسبعين ودعة أو حصوة ، وجمعها « حصى » . ويختص كل من اللاعبين بصف من الصفين . وتلعب هذه اللعبة على طريقتين . أولاًها ، وهى الطريقة المادية ، يعتمد أحد اللاعبين إلى توزيع جميع الحصى فى البيوت بغير تساوى ، واضعاً فى كل بيت أربعاً على الأقل . ولو وزع الحصى بالتساوى لكان فى كل بيت ست حصوات ، غير أنه يندر أن يتم ذلك ، إذ لا شك فى أن من يبدأ اللعب على هذه الحالة يخسر . ويسمى توزيع الحصى « تبويطاً » . ولأحد اللاعبين ، إن لم

يرضه توزيع الآخر ، أن يدير اللوحة . فيبدأ خصمه اللب حينئذ على خلاف
المادة . وإذا فرضنا أن أحد اللاعبين بدأ اللب ، فإنه يأخذ الحصى من البيت
الأول من يمين صفه ، ويوزعها على بيوت خصمه ، واحدة في كل بيت من اليمين
(يمين اللاعب) إلى الشمال ، وما زاد يفرقه بالطريقة نفسها على بيوته الخاصة من
الشمال إلى اليمين . فإن تبقى حصى بعد ذلك ، عاد إلى توزيعها على بيوت الآخر كما
سبق وهكذا . ويكف اللاعب عن اللب ويبدأ ملاعبه ، إذا كان آخر بيت وضع
فيه حصاه لا يحوى غيرها ، لخلوه من قبل ، إذ يجوز أن يترك البيت خالياً في أول
اللب . ولكن إذا كان هذا البيت الأخير يحوى حصاتين أو أربعاً ، فإنه يأخذها
علاوة على حصى البيت المقابل . وإذا كان البيت الأخير يحوى حصاتين أو أربعاً ،
وكان أحد البيوت السابقة ، أو أكثر من واحد ، يحوى أيضاً أحد هذين المدين
دون أن يتوسطها بيت ما به عدد آخر ، فإن اللاعب يأخذ ما تحويه هذه البيوت
السابقة علاوة على حصى البيوت المقابلة . أما إذا كان بالبيت الأخير ، علاوة على
الحصاة الموضوعة ثلاث حصوات أو خمس أو أكثر ، فإنه يخرجها منه ، ويستمر
في توزيعها بالطريقة السابقة . ومثال ذلك أن يكون آخر بيت وضع فيه حصاة
هو البيت الثالث من يمين صفه ، فيضع حصاة من حصى هذا البيت في البيت الثانى
من صفه ، ثم حصاة ثانية في البيت الأول ، ثم ثلاثة في البيت السادس من صف
خصمه وهكذا ... ويظل على هذا المنوال حتى يعترضه بيت ، أصبح بلعبه يحوى
حصاة واحدة أو حصاتين أو أربعاً ، فيأخذها له . ثم ينتقل اللب إلى الآخر .
ويبدأ اللاعب دائماً من البيت الأول على اليمين ، فإذا كان خالياً فمن أقرب بيت
إليه في صفه الخاص يكون به حصاة أو أكثر . وإذا كان أحد اللاعبين عنده
أكثر من حصاة واحدة في بيت أو أكثر من بيوته ، وكان الآخر لا يملك شيئاً ،
فيلزم الأول بوضع إحدى حصيته في أول بيت من بيوت خصمه . وإذا بقيت حصاة
واحدة في جانب واحد ، ولا شئ في الجانب الآخر ، تصبح الحصاة ملكاً لمن توجد
في جانبه . ويحصى كل من الطرفين ، عند ما تفرغ اللوحة تماماً ، ما أخذه من
الحصى . ويحسب من يملك الأكثر ما زاد على حصى الآخر رجحاً له . ويبدأ الرابع
اللب في الدور التالى بعد أن يوزع خصمه الحصى . ويربح اللب نهائياً من

يستمر ربحه حتى يبلغ الستين . ويلعب الشبان المنقلة بتلك الطريقة . ومن ثم سميت « لعب الغشيم » . أما الطريقة الأخرى فيلعبها الكبار المهرة ، وتسمى « لعب الماقل » وتكون كما يلي :

يوزع الحصى على بيت أو أكثر في جانب واحد ، وعلى ما يقابله في الجانب الآخر . ويوزع عادة على أربعة بيوت من كل جانب ، فيترك البيتان الأقصيان من كل جانب خاليين ، أو يوزع بأى طريقة أخرى يتفق عليها . كأن يوزع نصف الحصى تقريباً في البيت السادس من صف ، والباقي في البيت السادس من الصف الآخر . ولا يمد موزع الحصى ما يضعه في بيت ما . وله الخيار في أن يضع الحصى في بيت واحد من كل جانب أو في جميع البيوت . وللاعب الآخر أن يدير اللوحة إذا عترض على التوزيع ، ولكنه يفقد بذلك حقه في بدء اللعب . ولمن يلعب أولاً أن يبدأ من أى بيت من بيوته ، ثم يستمر في اللعب على الطريقة السابق وصفها ، فيضع حصاة في كل بيت كما يأخذ الحصى في الأحوال نفسها من الطريقة الأولى ، ثم يلعب الآخر . ويحصى اللاعب بعد الربح الأول ما يوجد في كل من بيوته ليلعب من البيت الذى يأتي له بأكبر فائدة . ولأى اللاعبين أن يوقف الآخر ليعمد الحصى التى أخرجها من بيت ما للتوزيع ، حتى يضمن توزيعها بدقة . ويحسب ربح كل من الطرفين بعد انتهاء الدور الواحد مثل الطريقة السابقة . ويكسب اللاعب من تتوالى أرباحه حتى تبلغ الستين .

وتفقد هذه اللعبة اللاعبين بتمرينهم على الحساب . ويلعبها المصريون عادة في القاهى ، فيتفق اللاعبان ، مخالفين الشرع في ذلك ، على أن يدفع الخاسر ثمن ما يتناوله هو وخصمه والمتفرجون من فنانين القهوة أو عدد معين منها . وهناك لعبة دائمة أخرى بين الطبقات الدنيا تسمى « طابا » . وهى تسمى في بلدان شرقية أخرى « طاب دوك » . ولاكنى لم أسمع بهذه التسمية في مصر أبداً . وطريقة هذه اللعبة أن يجهز أربع عصي صغيرة من الجريد ، طولها شبر تقريباً ، أى ثمانى بوصات ، وعرضها ثلثا بوصة . فيقطع جانب منها مستويًا أملس فيكون أبيض اللون . ويبقى الجانب الآخر على اللون الطبيعي للجريد . ويسمى الجانب الأول « أبيض » ، والآخر « أسود » وتسمى هذه العصي « الطاب » . ويجب أن يمد اللاعبان بعد ذلك

« سيجة » ، وهى لوحة مقسمة إلى مربعات تسمى « بيوتا » أو « دواراً » ، وعرض كل منها بوصتان ، مرتبة على صفوف أربعة . وقد تكون حفراً فى الأرض أو فى حجر مستو . وتكون البيوت عادة سبعة أو تسعة أو أحد عشر أو ثلاثة عشر أو خمسة عشر فى كل صف . وليبان اللعبة تختارهما سيجة ذات تسعة بيوت فى كل صف فيوضع عادة فى كل بيت من الصف الأول فى أحد الجانبين قطعة صغيرة من الحجر أو الآجر الأسمر بحجم الجوزة تقريباً . وفى كل بيت من الصف الأول فى الجانب الآخر قطعة من الآجر الأحمر أو القرميد . وقد توضع القطع فى عدد معين من بيوت هذين الصنفين ، كأن توضع فى البيوت الأربعة الأولى . ويجب تمييز القطع فى صف واحد من القطع فى صف آخر ، وتسمى القطع « كلاباً » ، والواحدة « كلب » . ويلعب هذه اللعبة اثنان . فيرمى أحدهما عصى الجريد الأربعة على عصا مفرزة فى الأرض أو ممسكة باليد ، وطرفها الآخر مسنداً على الأرض ، أو يرميها على حائط ، أو على عصا مائله على الحائط فإذا سقطت العصى وجانبها الأسود إلى أعلى ماعدا واحدة يقال إن اللاعب أتى « بطاب » وجمعه « طيب » ، أو « بولد » وجمعه « ولاد » ويحسب له واحد . وإذا سقط عصوان بيضاوان والأخريان سوداوان فيحسب اثنان . وإذا وقعت ثلاث بيض وواحدة سوداء يحسب ثلاثة . وإذا جاءت جميعاً بيض يحسب أربعة ، أو سود يحسب ستة . وعندما يأتى اللاعب بطاب أو أربعة أو ستة يرمى العصى مرة أخرى . ولكن عندما يأتى بطاين أو ثلاثة ينتقل اللعب إلى الآخر . ولكل من اللاعبين صف . ويرمى اللاعبان العصى بالتناوب حتى يأتى أحدهما بطاب ، فيلعب هذا الأخير على التوالى حتى يأتى بطاين أو ثلاثة . وإذا فرضنا أن اللاعب أتى ، فى أول اللعب ، بطاب وأربعة وطاين فإنه يحرك الكلب من أول بيت على اليمين إلى البيت السابع منه ، ويقع فى الصف الثانى . ويبدأ كل لاعب من البيت الأول على اليمين . ولا يستطيع أى اللاعبين تحريك كلب من بيته الأصلي دون أن يأتى بطاب من قبل . وتسمى الكلاب قبل نقلها من مكانها الأول « نصارى » . وتسمى بعد نقلها ، عندما يكون لها حق بدء اللعب ، « مسلمين » . ويقال لمن توصل من اللاعبين إلى جمل كلبه « مسلماً » إنه « مسلم » كلباً وإن الكلب « أسلم » . وكلما أتى لاعب بطاب يسلم

كلباً حتى يحمل كلابه كلها مسلماً ، فيعدها هكذا للجولان في البيوت . ولاكل لاعب أن يعد كلبين أو أكثر للدوران في وقت واحد . ولنيسط الوصف نفرض أن أحد اللاعبين يحرك كلباً واحداً . فهو يحركه في بيوت الصنفين الأوسطين ، من اليمين إلى الشمال ، في الصنف الأول منهما ، ثم من الشمال إلى اليمين في الصنف الآخر . ويستطيع إذاً أن يعيد الدورة نفسها أو يدخل في صف خصمه ، إذا وجد كلب ما في ذلك الصنف . غير أن اللاعب في الحالة الأخيرة ، لا يستمر في تحريك الكلب ذاته إلا في أحوال مستذكر فما بعد . ويأخذ اللاعب كلب ملاعبه كلما استطاع أن ينقل كلبه ، بعد رمية أو رميتين أو أكثر ، إلى بيت يشغله كلب خصمه هذا .

ومثل ذلك أن يكون لأحد الطرفين كلب في البيت الثالث من شمال الصنف التالي لصف خصمه ، وللآخر كلب في البيت الخامس وآخر في البيت التاسع من الصنف ذاته ، ويأتى الأول بطاب ثم بأربعة ثم بطابين ، فيمكنه أن يأخذ كلب البيت الخامس بالطابين ، وكلب التاسع بالأربعة ثم ينتقل إلى البيت التاسع في صف خصمه ويأخذ كلباً ثالثاً ، إذا كان هناك كلب ، ويستطيع اللاعب برمية ملائمة أو برميتين أو أكثر أن يحرك أحد كلابه إلى بيت مشغول بكلب آخر له ، وأن يضيف الكلبين معاً إلى كلب ثالث أو كلباً ثالثاً إليهما ، وهكذا يستطيع أن يجمع أى عدد من كلابه ويحركها معاً كأنها كلب واحد . غير أن اللاعب لا يستطيع أن يفصل هذه الكلاب ويلعب بها متفرقة إلا إذا أتى بطاب . وإذا استفاد اللاعب برمية تعيد هذه الكلاب إلى صف كانت قد صرت به ، متفرقة أو مجمعة ، ترد إلى قيمة الكلب الواحد . غير أن لا حاجة إلى الانتفاع بمثل هذه الرمية ، إذ يستطيع أن ينظر حتى يأتى بطاب ، وتسمى الكلاب مجمعة هكذا « عجة » . والقصد من جمعها هو المبادرة إلى وضعها في أمان ، كما سنبين حالا . ويستطيع أحد الطرفين ، إذا أدخل أحد كلابه في صف خصمه ، أن يتركه في أمان مادام لا يريد أن يستمر في اللعب به ، ولا يستطيع الطرف الآخر أن يعيد كلباً من كلابه إلى صفه الخاص . على أن الأول لا يمكنه أن يستمر في تحريك كلبه الذى دخل صف خصمه إلى أن يفرغ صفه من الكلاب ، أو ألا إذا كان في صفه « عجة » فقط ولم يأت بطاب . والطاب وحده يحجز

له أن يقسم « المجبة » . ويتقدم اللاعب في سيره داخل بيوت خصمه حسب الترتيب السابق ، وهو لا يستطيع أن يدخل الكلب نفسه في صف خصمه مرة أخرى . فلا يحركه ، بعد أن يمر بذلك الصف ، في غير الصفين المتوسطين بالطريقة المذكورة سابقا وكثيراً ما يلعب تلك اللعبة أربعة أشخاص أو أكثر بدون « سيجة » . فيسمى من يأتي بأربعة طيب « السلطان » ، فيمسك بمقرعة مكونة من قحف جريدة سميكه ، تشق شقين أو ثلاثة . ويسمى من يأتي بستة « الوزير » ، ويمسك العصا التي يقذف عليها الطاب . ويضرب السلطان بالمقرعة كل من أتى بطاين ضربة واحدة أو ضربتين أو أكثر ، حسب رأى الوزير ، على بطن قدمه أو قدميه مما . وعندما يأتي أحد بستة مرتين يصبح السلطان والوزير معاً .

وكثيراً ما يتسلى الفلاحون أيضاً بلعبة « السيجة » . وهي تختلف هنا عن سيجة الطاب ، فهي تتكون من عدة حفر في الأرض على خمسة صفوف ذات خمس حفر كل أو سبعة صفوف بسبع حفر كل أو تسعة صفوف بتسع حفر . وتسمى على التوالي : « الخمساوى سيجة » ، « السبعاوى » ، « التسعاوى » . وتسمى الحفر « عيوناً » . وتستلزم كل سيجة عدداً كافياً من الكلاب يشغل الميون جميعاً ما عدا عينا واحدة . ويضع أحد اللاعبين كلبين من كلابه في العيين الوسطيين من الصفين الخارجين أفقياً ، ويضع الآخر كلبين في العيين الوسطيين أماموياً ثم يضمن على التماقب كلبين في أى عين يختارانهما عدا العين الوسطى في السيجة . ويضع اللاعبان أكثر الكلاب بغير ترتيب مقصود ويبدأ اللعب بشغل الميون جميعها ما عدا العين الوسطى . ويحرك البادى أحد كلابه من عين قريبة إلى الوسط ؛ ويطلب الآخر منه ، إذا كانت العين التي خلت حالا لا تقبل عيناً يشغلها كلابه ، أن يفتح له طريقاً ؛ فيلتزم الأول بتحريك أحد كلابه ويحسرها هكذا . ويتم ذلك كلما اقتضاه ظروف مماثلة . وقصد كل لاعب ، بعد ترتيب كلابه أول اللعب أن يحرك كلباً له بحيث يحمل أحد كلاب خصمه بين كلبين له ، فيستولى عليه . فينغم كلاب خصمه بهذه الوسيلة كلما استطاع ذلك فوراً دون أن يسمح له بالتحرك . تلك هي قواعد اللعب . ويلاحظ أنه ، بالرغم من توزيع أكثر الكلاب مصادفة ، يجب التبصر في ترتيب الكلاب الباقية . ويشاهد فوق قمة

الهرم الأكبر رسوم عديدة للسيجة نقشها الصياد العرب على الحجر .
 يندر أن يمارس المصريون الألعاب البدنية ، ومع ذلك فهم يمتازون بالقوة
 الجسدية . فاللاحون مثلاً يعانون مشقة كبيرة في التجذيف وسحب المراكب ،
 والحمالون يرفعون أثقالاً تحمير العقل . وقد يتضارب فلاحان بالنبوت للتسليّة
 أو مقابل رهان أو جزاء زهيدين . ويحاول كل أن يصيب خصمه في رأسه .
 والنبوت سلاح هائل ، ويحملة الفلاح عادة في أسفاره وخاصة في جولاته الليلية ،
 وإن ندرت . وقد يشاهد المرء أيضاً مباريات في المصارعة . فيخلع المصارعون
 ملابسهم ، عدا السروال ، ويدهنون أجسامهم بالزيت . ولا تستحق ألعابهم الذكر .
 وقلما يقومون بها لغير أجر في الأعياد والمواكب الخ . ولا يندر أن ترى ، في
 مثل هذه المناسبات أيضاً ، معارك صورية يقوم بهارجلان ، لا يلبسان غير السراويل
 وقد تسليح كل منهما بسيف وترس صغير . ولا يحاول أى منهما أن يخرج خصمه ،
 فكل ضربة تقع على الترس .

كثيراً ما وصف لعب الماهليك وجنود الأتراك للجريد . غير أن طريقة فلاحى
 الصميد في لعبه حرية بالوصف إلى حد بعيد . فهم كثيراً ما يلعبونه في حفلات
 زواج ذوى النفوذ ، كشيخ القبيلة أو شيخ البلد ، أو في حفلات الختان ،
 أو عندما يضحى بثور منذور — ويترك حينئذ يرمى أينما يكون برضا الكل —
 على قبر ولى ويؤدب بلحمه مأدبة عامة . وينقسم المتبارون عادة إلى فريقين مختلفين
 باختلاف القرى أو القبائل أو البطون . ويتألف كل فريق من اثني عشر رجلاً
 أو عشرين تقريباً أو أكثر يركبون الخيول . ويقف كل فريق على بمد خمسمائة
 قدم أو أكثر من الآخر . ثم يركض فارس من أحد الفريقين نحو الفريق الآخر
 ويدعوم إلى النزال . فيطارده فارس من الفريق الآخر بأقصى سرعة ، وييده
 اليسرى أربع جريعات أو أكثر ، طول كل منها ستة أقدام أو أطول ببوصة
 أو بوصتين أو أقل من ذلك . ويكون الجريد على العموم بطول الرجل الطويل ؛
 ويكون ثقيلاً جداً لأنه يقطع حديثاً من أسفل جريد النخل ، فيكون مغمماً
 بالمصارة . ويقترب المطارد من الفارس الأول بقدر الأمكان ، ويقذف رأسه
 أو ظهره بالجريد الواحدة تلو الأخرى مصوباً طرفه الصغير إلى الأمام . والجريد بثلم

طرقاه . وقد يحدث المطارد بالآخر جراحاً هائلة بل ومميتة (١) . ويجتهد الفارس الأول أن يمسك الجريد أو يرد به ذراعه أو بسيف مغمد ، أو يتحاشاها بسرعة جواده الفائقة ؛ ثم يحاول ، بعد هذا الهجوم ووصوله إلى مكان فريقه ، أن يظهر براعته أمام مطارده بالطريقة التي أتبعها معه الأخير . ويدوم هذا اللعب عدة ساعات ، وهو يذكّرنا بمباريات الأقدمين (٢) ، وكان من ألعاب البدو الأولين . وينتشر لعب الجريد عند تلك القبائل التي لم تستوطن شواطئ النيل طويلاً بعد ، فحافظت على شمائل وعادات بدوية كثيرة . وقد قتل أثناء زيارتي السابقة لمصر ثلاثة رجال وفرس خلال ساعة بلعب الجريد في وادي طيبة الغربي . غير أنه ينذر أن يفقد اللاعب حياته بممارسة هذه الرياضة ؛ فلم أسمع على الأقل في العهد الأخير بمثل هذه الحوادث . ويستعمل فلاحو الوجه البحري جريداً بنصف طول الجريد السابق أو ما يزيد قليلاً .

وهناك ألعاب أخرى أقل شيوعاً سأصفها فيما بعد . وهي تقسم في الحفلات لتسلية المشاهدين فقط .

(١) حدث أثناء إقامتي الأخيرة بطيبة أن أصيب رجل قوى البنية جميل الهيئة ، وكان خير لاعب للجريد في المدينة ، بجرح يبلغ أثناء اللعب . وكنت قد جعلته في خدمتي كعارس ليلى . فلاقبت صعوبة في علاجه ، إذ أصابه هذيان استمر عدة ساعات كان فيها بين الحياة والموت . وكان الجريد قد أصابه بالقرب من أذنه وغرز أسفل عنقه .

(٢) يقصد المؤلف مباريات القرون الوسطى بأوروبا المصاة (Tournoi) وهي تشبه ألعاب الجريد . وكانت مباريات صورية للتمرين وعرض البراعة والشجاعة . ويبدو أن أول ظهورها بفرنسا وكانت قاصرة على النبلاء — (المترجم) .

الفصل الثامن عشر

الموسيقى

إن ولع المصريين بالموسيقى اعظيم ، غير أنهم يعتبرون هذا الفن الساحر (مثل الرقص) لا يليق بالعاقل أن يشغل وقته بدراسته ، وأنه يؤثر في العواطف تأثيراً قوياً ، ويدفع الرجل إلى المرح واللهو والذيلة . ومن ثم استنكرها الرسول (صلم) . ولـكنهم ، والدرأيش على الأخص ، يستخدمونها مع ذلك في الحفلات الدينية أيضاً . والمصريين مؤلفات قليلة جداً في الموسيقى ، لا يفهمها المحدثون منهم . ويظهر ميل المصريين الفطري إلى الموسيقى في تنسيق حركاتهم ، والتخفيف من عبء أعمالهم المختلفة ، بالأغاني والأناشيد . فالملح يغني وهو يجذب ، والفلاح يغني وهو يرفع المياه ، والحمال يغني وهو يحمل الأثقال ، والفيلة من رجال وصبية وبنات ، يغنون وهم ينقلون الآجر والملاط ويزيلون الأنقاض ؛ وكذلك النشار والحصاد وكثير من العمال الآخرين . ويدرك أطفال المصريين موسيقاهم في سن مبكرة وبسهولة فائقة ؛ بينما يصعب على الأجنبي أن يفهم أسلوبها أو يقلده . ويساعد ترتيل القرآن ، في المدارس ، على تنمية ميلهم الفطري للموسيقى .

ولا يخفى على أحد كيف كان العرب ينشرون العلم ، وقت أن كانت أوربا تتخبط في ظلام الجهل ، وإلى أي حد انتفعوا بمؤلفات الإغريق . ويبدو أن العرب وضعوا القانون الموسيقي ، الذي ساد بينهم أجيالاً عديدة ، بمعونة من نظريات الإغريق والفرس والهنود^(١) . ويشتهق لفظ « موسيقى » العربي ، وأسماء

(١) إن الموسيقى العربية ترجع إلى أصل سامي قديم ، كان ذا أثر عظيم في الموسيقى اليونانية ، إن لم يكن أساساً لها . ولاشك أن الموسيقى العربية تأثرت بالموسيقى الفارسية =

بعض الآلات الموسيقية العربية ، من اللغة الإغريقية . غير أن أغلب الاصطلاحات الفنية التي استعملها الموسيقيون العرب ، أخذت من اللغتين الفارسية والهندية . وهناك تشابه عجيب بين كثير من الأناام التي سمعتها في مصر وبعض الألحان الشعبية في أسبانيا (١) . وليس في ذلك ما يدهش ، فقد كان عرب أسبانيا يتقنون الموسيقى اتقاناً فائقاً . وتحوى مكتبة الاسكوريال في هذا الفن ، مؤلفات عربية كثيرة .

إن أهم خصائص النظام الموسيقي العربي تقسيم الأصوات إلى أبعاد ثلاثية . ومن ثم سمعت بعض الموسيقيين المصريين ينتقدون نظم الموسيقى الأوربية لنقصها في عدد المقامات . وتكسب سلم المقامات الدقيقة الرقيقة هذه عزف الموسيقيين العرب ، الذي يشبه النواح ، عذوبة خاصة . غير أنه يصعب تمييزها بدقة ؛ ولذلك قلما يراعيها ، في الغناء أو العزف ، من لم يدرس هذا الفن دراسة منتظمة . وتعتبر أغلب الألحان الشعبية المصرية ، وإن شابهت في أكثر الوجوه موسيقى العازفين المحترفين ، ساذجة جداً ؛ إذ أنها تتألف من نغمات قليلة ، تكرر في كل سطر أو سطرين من الأنشودة . ويجب أن أعترف أن الموسيقى الرفيعة التي سمعتها في مصر أحياناً تطربني كثيراً ، ويزيد طربي كلما تعودت أسلوبها . ولكني أقرر في الوقت نفسه أنني لم أجد أوريبيين كثيرين ساروا بها بقدر سروري . ويعجب أهل مصر على العموم بمغنيهم وعازفيهم ، ويصفقون هاتفين على التواتر :

= والبيزنطية ، كما أن الفرس والبيزنطيين استعاروا بدورهم من العرب ؛ غير أن القوانين الموسيقية المنقولة من الخارج ، لم تحل محل الموسيقى الوطنية العربية . ولكنها دخلت عليها وتلفتت بأصولها التي كانت لها سميات خاصة : « وأن ادراك هذه الحقيقة لعل غاية من الأهمية خفية أن يتسرب إلى الأذهان أن الموسيقى العربية من أصل فارسي أو رومي »

انظر بحث الدكتور هنري فارمر عن الموسيقى العربية في كتابي :
مؤتمر الموسيقى العربي المنعقد في القاهرة ١٩٣٢ ص ٣٨٣ الطبعة الأميرية .
Legacy of Islam (تراث الاسلام) ص ٣٥١ طبعة ١٩٤٣ (المترجم)

(١) ويلاحظ ذلك على الأكثر في الموسيقى المصرية الرفيعة ، وفي ألحان بعض الأغاني والأناشيد الشعبية أيضاً .
= (المؤلف)

١٥/١
١٤

« الله » (١) ، « الله يرضى عليك » ، « الله يحمى صوتك » . وما شا كل ذلك .
يسمى محترفو الموسيقى « آلائية » ، ومفردهما « آلاتى » ، أى العازف
على آلة . وهم على العموم يحترفون الغناء علاوة على العزف . والآلائية قوم
فسدت أخلاقهم ، ولا تكاد سمعهم تقل سوءاً عن سمعة محترفى الرقص . ومع
ذلك يستأجرهم الأغنياء فى أغلب المسامرات الفاخرة ، التى يقيمونها لتسليمة
الأصحاب . ويقدم إليهم حينئذ الأثربة الروحية ، فيحتسونها حتى يعجزوا أحياناً
عن الغناء أو العزف . ويبلغ ما يتناوله كل منهم ، فى ليلة من تلك الليالى ،
ما يساوى شلنين ، أو ثلاثة شلنات تقريباً . وكثيراً ما يتناولون أكثر من ذلك .
ويشترك الضيوف فى نفجهم الأجر .

يحترف الغناء أيضاً نساء يسمين « عوالم » ، والواحدة « عالمة » ، بتسكين
اللام أو كسرها . ومعنى هذا اللفظ فى اللغة الفصحى « امرأة متصفة بالعلم » ،
ولكن من الواضح ، على ما أرى ، أنه ، بإطلاقه على أولئك المغنيات ، يشتق
من الكلمة العبرية أو الفينيقية « علماء » ، ومعناها فتاة أو عذراء ، وعلى
الأخص مغنية . ولا شك أن عبارتى « عل علاموث شير » ، وهى عنوان
المزمور السادس والأربعين من سفر المزامير ، و « نبالم عل علاموث » ، سفر
الأيام الأول ٢٠/١٥ ، ينبغى أن تعنيا : « ترنيمة » و « رباب » ، أو ما يشابه
ذلك ، بتطبيعهما على العوالم ، أى « مغنيات » (٢) . ويحتمل ، كما قال جبروم (٣)

= ومن آثار العادات العربية بأسبانيا سلوك السامعين أثناء العزف ومقاطعتهم المغنين
والعازفين بصياحهم ! ole ! ole (الله ؟) وكذلك كان عازف القيثارة يبدأ وحده أولاً ،
فيعزف مقدمة طويلة ليهي نفوس السامعين وأفراد الفرقة ، ثم يبدأ المغنى بصيحة طويلة : آى !
ay ، أو ، كما كان الحال إلى سنة ١٩٢٢ ، بنواح : لىلى ! لىلى ! Leli ! Leli
أنظر Legacy of Islam ص ١٧ (المترجم)

(١) وكثيراً ما ينطقونها حينئذ بطريقة طويلة غير عادية ، فيمدون آخر اللفظ .
(٢) وجدت ، بالرجوع إلى النسخة العربية للكتاب المقدس ، ترجمة العبارتين
العبريتين هكذا : « على الجواب . ترنيمة » . و « بالرباب على الجواب » فيتضح لنا ، بتطبيق
الترجمة العربية على الأصل العبرى ، أن لفظ « علاموث » يعنى « الجواب » . ولعله يقصد
بالجواب ضد القرار . وعلى أى حال ، فلفظ علاموث العبرى يعنى فتيات
(المترجم) =

إن لفظ « ألما » معناه في اللغة القرطاجنية « عذراء » ، أن يكون أشهر مغنيات مصر قديماً من الفينيقيات . وكثيراً ما يستأجر الأغنياء العوالم عند إقامة حفل في الحريم . ويحتجب المغنيات عن نظر رب الدار ، إذا كان مع نسائه ، في غرفة صغيرة مرتفعة ، تسمى « تُقَيْسَة » أو « مُغْنَى » ، ملحقة بهو الحريم الرئيسي ، لا يفصلها عنه غير ستر من خشب المشربية ، أو في مكان ملائم آخر . وإذا كان هناك ضيوف من الرجال يجلسون في الفناء ، أو في غرفة سفلى ، بينما يجلس العوالم عادة حينئذ وراء شبابك من شبائيك الحريم تحجبهن المشربيات . وبعض العوالم يعزف على الآلات أيضاً . وقد سمعت أشهر عوالم القاهرة ، فاطربتنى أغانيهن أكثر من أجود عزف عزفه الآلاتية ، بل (وأستطيع أن أضيف بحق) ومن أى موسيقى أخرى تمتعت بها . وكثيراً ما تنال العوالم مبالغ كبيرة . وقد عرفت أحوالاً نفح الضيوف فيها عالة واحدة ما يزيد على خمسين جنيهاً في دار أحد التجار ، ولم يكن أحدهم ذا يسار . ويؤثر غناء العالة البارة في السامعين تأثيراً قوياً يدفعهم إلى بذل أموال يصعب عليهم تحمل خسارتها . ومن عوالم القاهرة فئة يتمتعن ببعض المناقب الأدبية ، فهن جديرات بأن يسمين عالمات بالمعنى الصحيح . ومنهن كثيرات من طبقة دنيا يرقصن في الحريم أحياناً ؛ ومن ثم أطلق السياح خطأ لفظ « عالة » على أولئك الراقصات ، اللاتي يرد ذكرهن في فصل لاحق . وقد يكون سبب ذلك الخطأ أن تلك الفتيات أنفسهن يتسمين كذلك أحياناً . ولباجأناً إلى ذلك على العموم عندما تحرم الحكومة عليهن ، كما حدث كثيراً ، احتراف الرقص .

وللمصريين ضروب عديدة من آلات الموسيقى ، يستعمل منها في الحفلات الخاصة : « الكمنجة » ، و « القانون » ، و « العود » ، و « الناي » .

== (٣) القديس جيروم St Jerome من رجال الكنيسة اللاتينية (٣٤٠ — ٤٢٠) .
اشتهر بكثرة أسفاره وسعة اطلاعه وقد ترجم التوراه إلى اللاتينية .

و « الكمنجة »^(١) لفظ فارسي . ويكتب على الأصح « كمنجه » وبمعنى قوساً . ويبلغ طول الكمنجة ثمانيا وثلاثين بوصة . ويتكون جسمها الرنان ، ويسمى « حقة » ، من جوزة نزع ربهما تقريباً ، وثقبت عدة ثقوب صغيرة . ويشد على مقدمها قطعة من جلد سمك « البياض » يوضع فوقها « الفزال » . ويصنع العنق ، ويسمى « الساعد » ، من الأبنوس المطعم بالسن ، وهو مستدير الشكل . وينتهي أسفله بقطعة من السن . ويتكون الرأس ، وتسمى « الخزنة » ، من السن أيضاً ، ويولج فيها « الملاوى » . وتكون « الملوى » من الزان ، ورأسها من السن . ويتكون أسفل الكمنجة ، ويسمى « سيخاً » ، من الحديد . ويمر السيخ خلال الحقة ، ويدخل في الساعد إلى عمق أربع بوصات أو خمس . ويشمل كل من وترى الكمنجة حوالى ستين شعرة من شعر الخيل ، ويربطان أسفل الخزنة تماماً ، إلى حلقة حديدية . ويمد كل منهما إلى الطرف الآخر بقطعة من أمعاء الخراف تشد إلى ملوى . ويمقد حول الساعد ، فوق الوترين ، أسفل اتصالها بالأمعاء قليلاً رباط جلدى مزدوج . ويبلغ القوس أربع وثلاثين بوصة

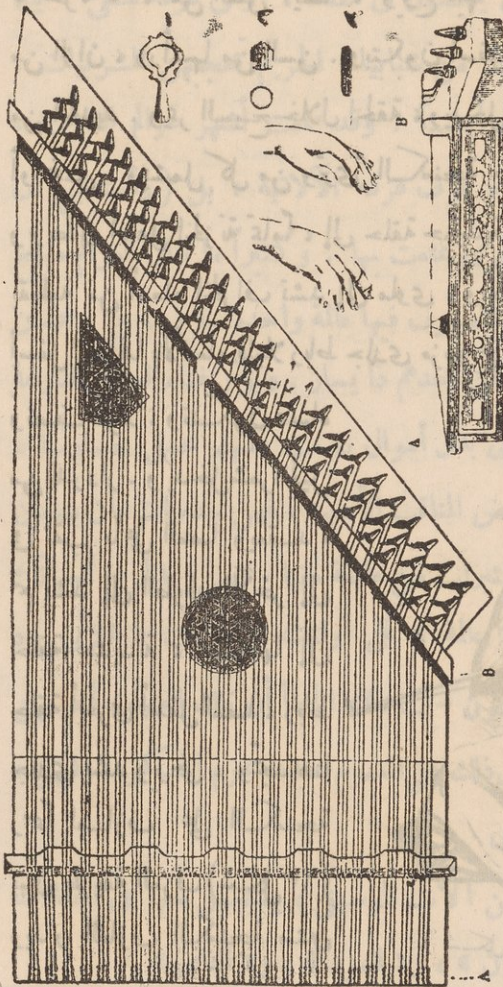


(شكل - ٦٣) عازف على الكمنجة

ونصف طولاً . وتتكون عصاه من الدرदार . ويدخل شعر الخيل في ثقب بأعلى العصا ويمقد . ثم يشد إلى الطرف الآخر إلى حلقة حديدية ، يصلها إلى حلقة أخرى أسفل العصا ، رباط جلدى يشد ويرخي . وتجد هنا رسماً لمازف على الكمنجة يبين طريقة العزف (شكل ٦٣) ويدير المازف الكمنجة ستين

(١) نهنى صديق مصرى بعد ظهور الطبعة الأولى لهذا الكتاب إلى أن الأصوب إطلاق اسم الرباب على هذه الآلة ، إذ أنه الاسم الشائع للكان ، ولكنى لم أسمع أبداً في مصر بغير اسم الكمنجة ، وهى تسمى كذلك أيضاً في سوريا

درجة تقريباً وهو يمر بالقوس من وتر إلى آخر . وقد رسمت هذا الشكل والأشكال الأخرى (المازفين على القانون والعود والناي) لأربع الموسيقيين . وهؤلاء المازفون يكونون فرقة مصرية كما تراها في الحفلات الخاصة . ويجلس عازف الكمنجة عادة على يمين عازف القانون ، أو في مواجهته ، ويجلس عازف العود على يسار الأخير ، ثم عازف الناي . وقد يوجد عازفون آخرون سأذكر آلتهم فيما بعد . وكثيراً ما يوجد مغنيان .



القانون نوع من السنطير .

واسمه مشتق من اليونانية ، وله

نفس المعنى ، أى قاعدة ، شريعة

عادة . ويزيد طول الآلة ، المبين

رسمها هنا (شكل ٦٤) ، بوصة

أو بوصتين على طول البمض

الآخر الذي رأيت . وأقصى

طول للقانون تسع وثلاثون بوصة

وثلاثة أرباع البوصة ، وعرضه

ست عشرة بوصة وعمقه بوصتان

وعشر بوصة . وقد يصنع القانون

كله من خشب الجوز عداً بمض

أجزاء مزخرفة . ويتكون وجه

القانون وظهره ، في الرسم المدرج

هنا ، من الواح الصنوبر الجميل

والجوانب « السور » ، من

الزان ، وكذلك « المسطره » ،

(شكل ٦٤) القانون
١ - المفتاح ٢ - الكشتوان ٣ - الريشة

وهي الجزء الذي يولج فيه الملاوي ، والأنف أيضاً ، بطول حافته الداخلية حيث

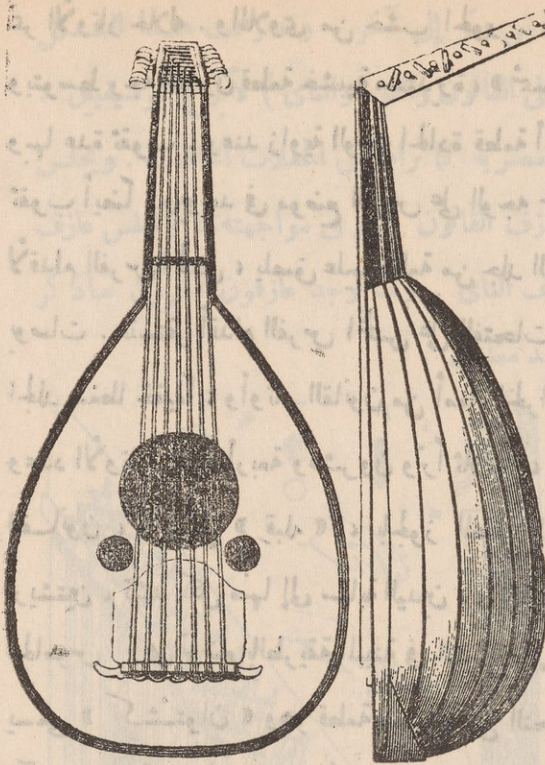
تمر الأوتار خلاله . والملاوى من خشب الحور . و « الفرس » من الصنوبر .
 ويتوسط وجه القانون قطعة خشبية مستديرة ، « شمس » ذات لون يعيل إلى الاحمرار
 وبها عدة ثقب . وعند زاوية الوجه الحادة قطعة أخرى من الخشب نفسه ، ذات
 ثقب أيضاً . ويوجد في موضع الفرس على الوجه خمس فتحات مستطيلة ، مقابلة
 لأقدام الفرس الخمس ، يلمص عليها قطعة من جلد السمك « رقة » ، عرضها تسع
 بوصات . فتستقر أقدام الفرس الخمس على الفتحات الخمس السابقة ، وتضغط على
 الجلد ضغطاً خفيفاً ، وأوتار القانون من أمعاء الخراف وليكل صوت ثلاثة أوتار .
 وعدد الأوتار جميعاً أربعة وعشرون وراً ثلاثياً ، ويفشى الجانب الأقصر من
 القانون ، ويسمى « قبله » ، بالجوز المطعم بالصدف ، ويعزف على القانون
 برشتين ، تشد كل منها إلى سبابة اليدين . والريشة قطعة صغيرة رقيقة من قرن
 الجاموس . وهي توضع بالطريقة المبينة في الشكل رقم ٦٤ ، بين الأصبع وخاتم ،
 يسمى « كشتوان » وهو قطعة مستوية من النحاس أو الفضة . ويضع العازف
 الآلة فوق ركبتيه (شكل ٦٥) والقانون بطربى ، عند العزف البارح أكثر من



(شكل ٦٥) عازف على القانون

أى آلة مصرية أخرى
 ويعد القانون للفرقة
 ذا عون كبير .
 ظل العود عدة
 أجيال أكثر الآلات
 استعمالاً ، وكان
 يستعمله أمهر
 الموسيقيين العرب ،

ويشيد بذكركه كثير من الشعراء والعود معناه أصلاً الخشب واللفظ ، مع أداة التعريف
 مصدر لكلمة loiuts الإيطالية ، و luth الفرنسية و lute الإنجليزية . ويبلغ
 طول العود ، المصور هنا (شكل ٦٦) ، من زاوية الساعد ، خمس وعشرين



(شكل ٦٦) العود

بوصة ونصف . ويتكون
جسم العود من الصنوبر
يحدّه طرف من الأبنوس .
ويركب الساعد بالأبنوس
بينما يكسى وجهه بالبقس
يحد من الأبنوس .
ويلصق بوجه الجسم ، وبه
شمستان من الأبنوس ،
قطعة من جلد السمك
« رقة » ، تحت ذلك الموضع
من الأوتار حيث تعمل
الريشة ، حتى لا يبلى
الخشب . وللعود سبعة

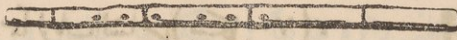
أوتار مزدوجة ؛ لكل نغمة وتران . والأوتار من أمعاء الخراف . وترتيب
الأوتار فريد : فالوتر الأدنى يوافق الوتر الأعلى في المكان الغربى ، الخ . يتلو ذلك
في السلم ، على اعتبار أن السابق هو النغمة الأولى ، النغمة الخامسة فالسابعة فالثانية
فالرابعة فالسادسة فالثالثة . وريشة العود من ريش العقاب . وطريقة مسك العود

يبينها الشكل رقم ٦٧



(شكل ٦٧) عازف علي العود

النأى أنواع كثيرة ،
يختلف كل منها عن الآخر
حجماً ، وقلاً يختلف في غير
ذلك . وأكثر الأنواع شيوعاً
ما يسمى « نأى الدراويش » .
ويسمى هكذا لكثرة استعماله
في حفلات الذكر ، مع أغاني
« المنشدين » . وهذا النأى



قصبة ساذجة (شكل ٦٨) ،

طولها ثمانى عشرة بوصة تقريباً ،

(شكل ٦٨) الناي

وقطرها سبعة أثمان البوصة في طرفها الأعلى ، وثلاثة أرباع في أسفلها . وبها ستة ثقوب في الصدر ، وثقب واحد في الخلف على العموم . ويبين الرسم المدرج هنا

لمازف على الناي (شكل ٦٩)

طريقة العزف عادة . ولكن قد

توضع اليد اليسرى إلى أعلى ،

ويعال الناي إلى يمين المازف

بدلاً من اليسار . ويصدر

الصوت من النفخ ، خلال ثقبه

الشفقين ، على حافة القصبة ،

وتوجيه الهواء داخلها على

الأخص . وتحدث الأصوات



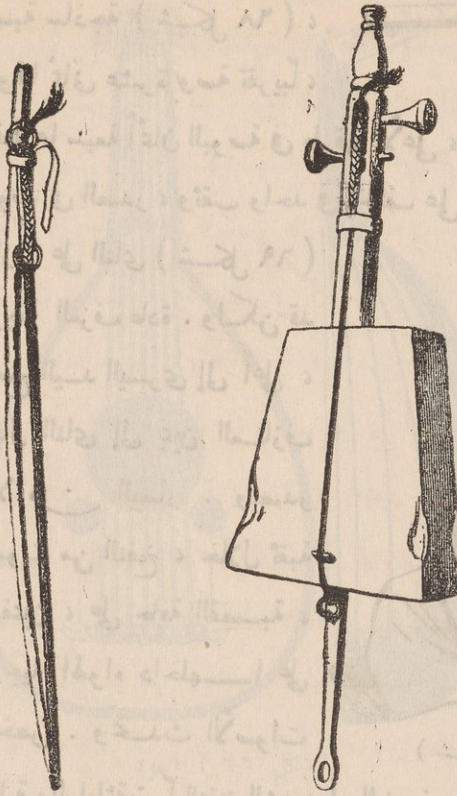
(شكل ٦٩) عازف على الناي

العالية والواظئة تبعاً للنفخ الشديد أو الضعيف . ويحدث الناي بين يدي المازف الماهر نغمات رقيقة ، ولكن ذلك يستوجب صرناً طويلاً . ويصنع الناي أحياناً من أنبوبة بندقية .

وهناك آلة تستعمل كثيراً في الحفلات الخاصة ، تسمى « رقاً » ، وهي تشبه « الطار » ، ولكنها أصغر قليلاً .

ويستعمل أيضاً في الحفلات المصرية آلة ، تسمى « طمبوراً » . ولكن غالباً ما يستعملها اليونانيون وغيرهم من الأجانب . وهؤلاء يستعملون أيضاً « صنطيراً » ، وهي آلة تشبه القانون ، غير أن لها جانبين مائلين بدلاً من جانب واحد ، وأوتارها سلكية مزدوجة عوضاً عن أوتار الخراف الثلاثية ، وتضرب بمصوين بدلاً من الريشة .

ويوجد نوع غريب من السكّان ، يسمى رباباً ، كثيراً ما يستعمله المغنون الفقراء لمصاحبة الغناء . والرباب نوعان : « رباب المغنى » ، « ورباب الشاعر » . ويختلف النوعان في أن الأول ذو وترين والآخر ذو وتر واحد . وقد أدرجت



(شكل ٧٠) رباب الشاعر

رسماً لرباب الشاعر (شكل ٧٠)،
ويلاحظ أنه سهل تحويل النوع
الثاني إلى النوع الأول ، إذ أن
له ملوين . ويبلغ طوله اثنتين
وثلاثين بوصة . وجسمه إطار
من الخشب ، يغطي صدره ،
دون ظهره ، برق . « والسبخ »
من حديد ، والوتر من شعر
الخيول . وقوس الرباب ، وطوله
ثمان وعشرون بوصة ، يشبه
قوس الكمنجة . والرباب يستعمله
دائماً رواة قصص أبي زيد الهلالي
وهم ينشدون الشعر . وراوى
تلك القصص يسمى « شاعر » .

ومن ثم سميت الآلة « رباب

الشاعر » ، و « الرباب الأبوزيدى » . ويستعمل الشاعر نفسه هذه الآلة ، بينما
يصاحبه عازف آخر على رباب مماثل .

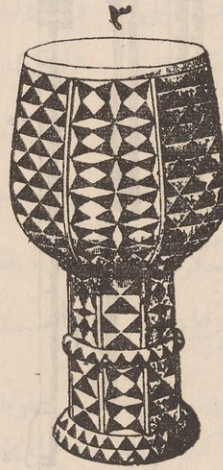
إن الآلات التي تستعمل في مواكب العرس والدرأوش الخ . تكون على
الأخص « الزمر » ، وعدة أنواع من الطبول ، أكثرها شيوعاً « الطبل البلدى »
و « الطبل الشامى » . ويشبه الأول الطبل الحربى العادى ، ولكنه ليس بعمقه .
وهو يعلق منحرفاً . والآخر من النحاس المبيض ، وأعلى من الرق . وقطره
ست عشرة بوصة تقريباً ، ولا يزيد عمقه فى الوسط على أربع بوصات . ويضرب
بمصوبين دقيقتين . ويعلقه الضارب فى عنقه بخيط يربط إلى حلقتين مثبتتين فى
طرف الآلة . وقد سبق أن رسمت هذه الطبول فى شكل « زفة العروس » .

يشاهد المرءى أكثر المواكب الدينية العظيمة ، أيام الحج وغيرها بالقاهرة ،
زوجين من الطبل الكبيرسمى « نقارة » . وهما من النحاس الأحمر ،

ولا يختلفان في الشكل ، فهما على هيئة ثلثي دائرة تقريباً ؛ ولسكنهما يختلفان في السمة . فالأ كبر قطره عند السطح المستوي قدمان تقريباً ، والآخر قدم ونصف . وهما يحملان على جمل ، ويربطان في مقدم السرج حيث يجلس الضارب . والطبل الأكبر يوضع على اليمين .

وكثيراً ما يستعمل الدراويش في المواكب الدينية ، وعند الاستجداء ، طبلا صغيراً ، يسمى « بازا » ، قطره ست بوصات أو سبع . ويمسك الباز باليسرى من نقوء صغير وسط الظهر . ويضرب باليمنى بسير من جلد قصير أو بمصا . ويستعمل الدراويش أيضاً ، في مناسبات مماثلة ، صنوجاً ، يسمى الواحد منها « كاساً » . ويستعمل « المسحر » الباز ليوفظ الناعمين إلى السحور في ليالي رمضان . ويستعمل الراقصون العموميون ، نساء ورجالا ، صنوجاً من النحاس تسمى « صاجات » . ويشد الراقص زوجين من الصاجات بأنشوطة من الخيط إلى الإبهام والسبابة من كل يد . وللصاجات النحاسية صوت أبهج من الصاجات الخشبية أو العاجية .

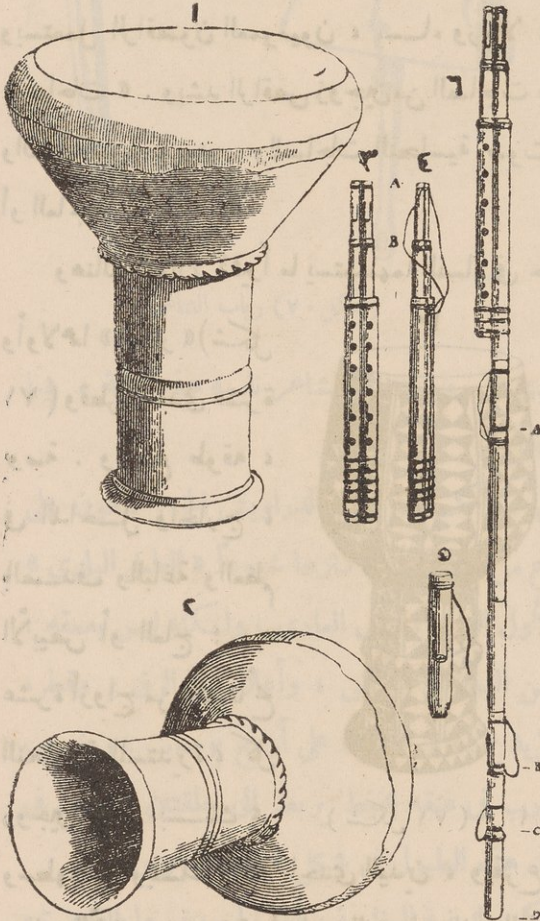
وهناك آلتان كثيراً ما يستعملهما النساء في حريم المتوسطى الثروة للتسلية .



وأولاهما « الطار » (شكل ٧١) وقطره إحدى عشرة بوصة . ويرص طوقه ، في الداخل والخارج ، بالصدف والباغة والمظم الأبيض أو العاج ؛ وبه عشرة أزواج من الصفائح النحاسية المستديرة ، كل

زوجين يعلق بسلك يمر وسطهما . ويمسك الطار بإحدى اليدين ، ويقرعه بأصابع اليد التي تمسك به وباليده الأخرى . وتنقر أصابع اليد على جانب الطوق فقط ، ويحدث ذلك صوتاً أعلى من صوت اليد الأخرى التي تقرع الوسط . ويستعمل أفراد الطبقة السفلى

طبلا أكبر من الأول وأكثر سداجة وليس بهصفاً مخ معدنية . أما الآلة الأخرى المشار إليها في أول هذه الفقرة فهي طبل ، يسمى « دربكة » (شكل ٧١) . وأحسن أنواعها ما صنع من الخشب ورصع بالصدف والباغة الخ . ويبلغ طولها خمس عشرة بوصة . وينطى طرفها الأكبر بقطعة من جلد السمك . ويترك الطرف الأصغر مفتوحاً . والدربةكة توضع تحت الذراع اليسرى ، وتعلق على العموم إلى الكتف اليسرى بحيط ، وتضرب باليدين معاً . وهي ، مثل الطار ، تحدث أصواتاً مختلفة عندما يضرب عليها بقرب الحافة أو في الوسط . ويصنع أكثر أنواع الدربةكة شيوعاً من الفخار . ويختلف قليلاً ، في الشكل ، عن السابق



وصفه . انظر شكل ٧٢ كثيراً ما يستعمل نوتية النيل دربكة من الفخار تزيد على تلك التي تستعمل في الحريم قدماً ونصف قدم إلى قدمين طولاً . ويستعملها أيضاً بعض القاصين وغيرهم . ويستعمل النوتي علاوة على الدربةكة قصبة مزدوجة تسمى « زمارة » . وهناك نوع آخر من القصبة المزدوجة يسمى « أرغولا » ؛ وإحدى قصبتيه أطول من الأخرى ، وتستعمل

(شكل ٧٢)

للندننة أو لأحداث قرار ٢،١ دربكة من الفخار ٤،٣ زمارة ٥ فم الزمارة ٦ أرغول

متواصل^(١) . والأرغول يستعمله الفوتية أيضاً ؛ وقد يستبدل بالنأى فى حفلات الذكر . وتحدث القصبة المزدوجة بنوعيهما أصواتاً غليظة ؛ ويشبهه صوت الأخيرة صوت العنيز كثيراً . وهناك نوع بدائى من العنيز ، يسمى « زمارة بسُمان » يندر أن يرى بمصر ، وزقه من جلد الماعز .
وأختم الآن هذا الفصل بعرض بعض نماذج من الأغانى الشعبية .

الأغاني

— ١ —

دوس^(٢) يا ليلي^(٣) دوس يا ليلي (ويعنى هذا الشطر ثلاثاً) عشق محبوبي فتنى
(ويكرر ما سبق بعد كل دور من الأدوار اللاحقة ويعنى جماعة أحياناً)

ما كل من نامت عيونه يحسب الماشق ينام
والله أنا مفـرم صباه لم على الماشق ملام

يا شيخ العرب يا سيد^(٤) تجمعى ع الخـل ليله
وان جاني حبيب قلبي لـعمل لكشمير ضـلـيله

كامل الأوصاف فتنى والعيون السود رموني
من هوام صرت أغنى والهوى زود جنوني

جمع جمع العوازل عن حبيبي يمنعوني
والله أنا ما أفوت هوام بسـيوف لو قطعـوني

قم بنا يا خل نسـكر^(٥) تحت ضل الـياسمينه
نقطف الخوخ من على أمه والموازل غافلين

(١) للأرغول ثلاث قطع تضاف إلى القصبة الطويلة . فيستعمل الأرغول بدونها أو يضاف إليه قطعة واحدة أو أكثر . وفم الأرغول مثل فم الزمارة منفصل .

(٢) إن القاعدة المتبعة فى أغلب الأغانى العربية الحديثة أن يطلق الذكر على المحبوب الذى هو مع ذلك أثني كما ترى فى الأشعار اللاحقة . وقد ذكرت الفاظ الأغانى كما تنطق فى القاهرة عدا حرف القاف فقد أدرجته كما ينطقه المتعلمون قافاً بدلاً من همزة

(٣) يا ليلي صيغة دارجة تدل على السرور وقيل أنها ترادف يا فرحى .

(٤) وهو الولي المشهور السيد أحمد البدوي المدفون فى طنطا .

(٥) والسكر هنا نشوة الحب وهذا هو معنى السكر على العموم فى الأغانى العربية .

يا بنات جُؤ المدينه (١) عندكم أشياء تمينه
تلبسو شاطح (٢) باللولى والقلاده (٣) ع نهـد زينه

يا بنات اسـكندريه مشيكم ع الفرش (٤) غيه
تلبسو الكشمير بتلى (٥) والشفايف سكرينه
يا ملاح خافوا من الله وارحموا العاشق لله
حبكم مكتوب من الله قدّر المولى على

— ٢ —

يا بو الجلف يا بو الجلف راح المحبوب ما عاد ولنى
(وتكرر بعد كل من الدورين اللاحقين)

راح المرسال ولم جاش وعين الحب بـتراشنى
يا بو الجليف (٦) يا بو الجلف يا ربنا ما نشـيكناش

وليه يا عين شـيكنا وبالأحـاظ جـرحـتينا
يا بو الجليف يا بو الجلف بالله رق واشـفينا

أسـقمـتنى يا حبيبي وما قصـدى إلا طـبك
عـسـاك يا بدر تـرحـمنى فإن قـلبـى يـحبـك
يا بو الورد يا بو الورد حبيب قلبى خليك عندى

دالحب جانى يتمايل وسـكر حالى جفونه
مديت إيدى آخذ الكاس سكرت أنا من عيونه
يا بو الورد يا بو الورد حبيب قلبى خليك عندى

(٥) تحريف للكلمة التركية (تل) وتطلق في مصر على الأسلاك الذهبية أو الفضية المستعملة في التطريز .

(٦) خصلة الشعر التى تسقط على الصدغ المسماة (مقصوص) المؤلف
وهى تحريف لكلمة السالفة وجمعها سوائف وفى العراق اليوم ينطقونها (زلف) . (المترجم)
(١) القاهرة .

(٢) حلية وصفت فى الملحق تشبه عقداً من اللؤلؤ وتعلق على جانبي العمامة .

(٣) عقد طويل يصل إلى الوسط .

(٤) ما يفرش على الأرض من أبسطة وغيرها .

- ٣ -

ما مر وسقاني حبيبي سكر نصف الليالى ع الدامه نسكر
ندر على وان أنى محبوبي لا عمل عمـايل ما عملهاش عنتر

يا بنت ملسك داب وبنت أيدك وأخاف عليك من سواد عينيك
قصدي أنا أسكر وأبوس خديك واعمل عمـايل ما عملهاش عنتر

فايته على ماليه الأرجيله رمية الورد فى الأرجيله
أتانى البنيه عاملاها حيله متى تقولى تعالى يا جـدع نسكر

طول الليالى لم ينقطع نوحى على غزال مفرد وخـد روى
ندر على وان أنى محبوبي لا عمل عمـايل ما عملهاش عنتر

يا دمم عيني على الحديد من حلك قال لى بزيدك شوق على بعاى خلك
إرحم مقيم يا جميل مشغول بك تعمى عيون اللى ما يحبك يا سمر

أسمر وحاوى الوردتين البيض حـبى نخلق فى ليالى العيد
ندر على وان أتانى سـيـدى لا عمل عمـايل ما عملهاش عنتر

- ٤ -

عاشق رأى مبتلى . قال له أنت رايح فين .

وقف قرأ قصته . بكيم سوا لتنين .

راحم لقاضى الهوى لتنين سوا يشكم .

بكيوا تلاته وقالوا حبنا راح فين .

الليل الليل . يا حلو الأيادى . حاوى الخوخ النادى .

انتم منين واحنا منين لما شبكتونا .

عاشق يقول للحمام هات لى جناحك يوم .

قال الحمام أمرك باطل . قلت غير اليوم .

حتى أطير فى الجو وانظر وجه المحبوب .

أخذ وداد عام وارجم يا حمام فى يوم .

الليل الليل .

الفصل التاسع عشر

الراقصون الموميون

اشتهرت مصر طويلاً براقصات الموميات ؛ وأشهر أولئك الراقصات ينتمين إلى قبيلة متميزة ، تسمى « غوازي »^(١) . والمرأة من هذه القبيلة تسمى « غازية » ، والرجل « غازياً » ؛ غير أن المعروف على الموم أن لفظ الجمع : « غوازي » يطلق على نساءها . وقد سبق أن أشرت إلى الخطأ في إطلاق تسمية « عوالم » على عامة الراقصات في مصر . والغوازي يرقصن ، سافرات ، في الطرق العامة ، ولتسليمة أخلاط الناس أيضاً . ولا يخلو رقصهن من الرشاقة ؛ وأهم خصائصه هز الأرداف هزاً سريعاً ، من جانب إلى آخر . ويأخذ الغوازي في الرقص بقدر من الحشمة ، ولكن سرعان ما تبرق نظراتهن ، ويسرع تلاطم الصنوج ، وتشهد حركة الجسم ، فيمرضن رقصاً مطابقاً لرقص القادسيات^(٢) ، كما وصفه مارسيال وجوفينال^(٣) . وتشبهه ملابس الرقص ما يلبسه نساء الطبقات الوسطى داخل الحريم ؛ فتشمل : اليك ، أو العنترى ، والشنتيان ، الخ . ، من نسيمج جميل . وهن يتحلين أيضاً بحلي مختلفة ؛ ويتكحلن ، ويتخضبن ، تبعاً

(١) منذ كتابة هذا ، حرمت الحكومة احترام الدعارة والرقص العام ، في أوائل يونية ١٨٣٤ . وعقوبة من يخالف هذا القانون خسون جلدة ، وللعائدة ، علاوة على الجلد ، الأشغال الشاقة سنة أو أكثر . أما الرجل الفريك فهو عرضة للجلد . غير أن هناك طريقة سهلة لتجنب العقوبة ، قد يتبعها الكثيرون . فالرجل يستطيع أن يتزوج بغياً زوجاً شريعياً ، ثم يطلقها في اليوم التالي : يسألها الزواج به فتقبل ، ثم يسألها عن قيمة المهر فتحددها ، فيعطيه إياه . فتصبح له زوجة شرعية . وفي اليوم التالي يطلقها دون أن يخشى أن تطالبه بنفقة العدة . إذ أن الزواج ، الذي تم وانقضى ، ما هو إلا وسيلة لتجنب العقوبة ، إذ ما اكتشفت البغي مع الرجل ؛ وفيما عدا ذلك يبيح الأمر سرّاً . وما تمتطيع النوى أن تطلبه لنفقتها مدة العدة لا يوازى ما قد تتناوله بالتزوج بزواج جديد كل يومين أو ثلاثة أيام .

(٢) كانت مدينة قادس ، في القرن الأول للميلاد ، مشهورة بترفها ومرحها ، وكانت تسمى « قادس البهجة » ، كما كان صيت الراقصات القادسيات ذائعاً في العالم الروماني (المترجم)

(٣) كاتبان رومانيان في القرن الأول للميلاد (المترجم)

للعادة السارية بين نساء الطبقتين الوسطى والعليا . ويصحبهن على العموم ، عازفون (من القبيلة نفسها غالباً) على السكبان أو على الرباب مع الطار (الدف) ، أو الدرابكة مع الزمارة أو الزمر . والعادة أن يضرب الطار امرأة عجوز .



(شكل ٧٣) الفوازى

كثيراً ما يرقص الفوازى ، عند ما يحتفل في الحريم بمرس أو بميلاد طفل الخ ، في فناء الدار ، أو في الطريق ، أمام الباب . ولا يدعون إلى حریم محترم أبداً ، غير أنه لا يندر أن يستأجرون اتسليمية جمع من الرجال في

منزل بعض الخلماء . ويتوقع في هذه الحالة أن يزيد رقصهن فجراً . وبعضهن لا يلبسن ، عند الرقص أمام جمع خاص من الرجال ، غير الشنقيان وثوب شف ملون ، شق صدره إلى منتصفه تقريباً . ويقدم إليهن خمر وافر لإزالة ما قد يبدين من مظاهر الخجل الأخيرة . وما يتبع ذلك أمسك عن وصفه .

ويكاد الأمر يحتاج أن أضيف أن أولئك النسوة هن أكثر عاهرات مصر فساداً . والكثير منهن جميلات للغاية ؛ وأغلبهن فاخرات اللبس . وهن على ما أظن ألطف نساء مصر جملة . والكثير منهن ذوات أنف يعيل إلى القنا . غير أنهن ، من أكثر الوجوه ، يشبهن بقية نساء مصر . ويتهيج المصريون ، النساء مثل الرجال ، بمشاهدة رقص الفوازى . ولكن الكثير من أفراد الطبقات العليا والتدينين ، يستقبحونه .

وإذا كان الفوازى يميزون على العموم بهيئة مختلف ، ولو قليلا ، عن سائر

المصريين ، فمن الصعب أن نشك في أنهم ، كما يدعون ، جنس مختلف . غير أن أصلهم يكتنفه غموض كثير . وهم يسمون أنفسهم « برامكة » ؛ ويمتزون بانتسابهم إلى أسرة البرامكة المشهورة ، التي كانت موضع رعاية هرون الرشيد ثم طغيانه العارم ، والتي نقرأ عنها في قصص ألف ليلة وليلة . ولكن ، وقد نبهني إلى ذلك أحد الأصدقاء فيما بعد ، يحتمل أن حقهم في الانتساب إلى البرامكة لا يعمد مشابهم تلك العائلة في السخاء ، وإن كان سخاء من ضرب مختلف . وكثيراً ما نرى في قبور المصريين القدماء رسومًا للنساء يرقصن في حفلات خاصة ، على نغم آلات متنوعة ، بطريقة تشبه رقص الغوازي ، بل وتفوقه خلاعة ؛ فنرى واحدة أو أكثر ترقص عارية تماماً^(١) ، بالرغم من وجودها أمام جمع من عليبة القوم ، رجالاً ونساء . ونرى ، من تلك الآثار الثابتة التاريخ ، بذكر أسماء الملوك عليها ، أن أسلوب الرقص ذلك كان شائعاً في مصر منذ سالف الأزمنة ، وقبل خروج اليهود أيضاً . ولذلك يحتمل أن يكون قد ظل مستمراً إلى يومنا هذا . وقد يكون الغوازي المعاصرات منحدرات من طبقة الراقصات اللاتي كن يسلمن المصريين في عصر الفراعنة الأولين . وكان يمكن أن نستنتج ، من مماثلة الرقص الأسباني Fandango^(٢) لرقص الغوازي ، أن العرب الفاتحين أدخلوه إلى أسبانيا ، لو لم نخبر أن القادسيات كن مشهورات بذلك الرقص في عصر أباطرة الرومان السابقين . ومع ذلك فهذا الرقص الخليع ، وإن بدا أنه كان يمارس مدة طويلة في أسبانيا ، لا يبعد أن يكون قد أدخل أولاً إلى قانس من الشرق ، وربما دخل بواسطة الفينيقيين^(٣) .

ولا يختلط الغوازي بالطبقات الأخرى ، فلا يتزوجن بغير أفراد القبيلة . غير أن الغازية قد تعاهد نفسها على التوبة ، فتتزوج بمرءى فاضل . ومثل ذلك الزواج

(١) يذكر ولكنسن Wilkinson في كتابه Ancient Egyptians (قدماء المصريين) الجزء الأول ص ١٣٨ أن الراقصات المصريات كن يلبس ثوباً شفافاً ، يكشف عن أجزاء الجسم وحركته ، وأنهن قد يبدون في النقوش عاريات تماماً ، ولكن ذلك يرجع إلى إخراج الرسم .

(٢) رقصة أسبانية قديمة ترقص بالصحنين (Castanets) على نغم القيثارة . تبدأ بطيئة وتندرج إلى الشدة

(٣) ويحتمل ، من الأثر الذي أحدثه ، أن الرقص الذي قامت به إبنة هيروديا كان من

النوع الموصوف هنا . أنظر متى ١٤ / ٦ ، ٧ ومرقس ٦ / ٢٢ ، ٢٣

لا يحقر من شأن الزوج . ويلقن الغوازي منذ الحداثة ألا يتقيدن في سبيل المال بقيود الخلق ؛ ولا يحترفن جميعاً الرقص . والغازية ترحب بأحقر فلاح لتحصل على أقل مال . وأغلبهن يتزوجن ، ولا بد أن يباشرن أولاً مهنة نفعية . ويخضع الزوج لزوجته ، فيكون لها خادماً وقوادةً وعازفاً ، إذا كانت تحترف الرقص . غير أن بعض الرجال يتميشون من الحداثة وتبويض النحاس . ويتمتع بعض الغوازي بخفض من العيش ، ويتحلين بأنفس الحلى ، ومع ذلك ترى كثيراً من عاداتهن تماثل عادات النور gypsies ؛ ويظن البعض أن الآخرين من أصل مصرى (١) .

ومما يستحق الذكر ادعاء بعض النور ، أنهم ينحدرون من أحد فروع العائلة المنتسبة إليها الغوازي . غير أن دعواهم مابرحت أقل اعتباراً من دعوى الآخرين ، إذ أنهم لا يجمعون على ذلك الرأي . وسأتكلم عنهم على الأخص في الفصل التالي ولا تختلف لغة الغوازي العادية عن لغة المصريين الآخرين ؛ غير أنهم يستعملون أحياناً بعض كلمات خاصة فيستغلق الحديث على الغير . ويدين الغوازي بالإسلام ؛ وكثيراً ما يرافق بعضهم قافلة الحجاج إلى مكة . ولما تخلو مدينة كبيرة من الغوازي فيسكنون على العموم جانباً منفصلاً من حي البغاء . ويرتحل الغوازي من مدينة إلى أخرى ، فتكون مساكنهم أكوأخاً حقيرة أو خصاصاً غير ثابتة أو خياماً . غير أن البعض يقيمون بالمنازل الكبيرة . ويقفني بعض الغوازي جواري سوداً يدفعهن إلى البغاء فينمين ثروتهن ، ويتاجرن بالمواشي . وهن يحضرن الحفلات الدينية الكبيرة وغيرها ، حيث ترى خيمهن العديدة ، ويعتبر رقصهن أهم تسليمة في تلك الحفلات . ويضيف بعض أولئك النسوة إلى مباهجهن الأخرى فن الغناء فيماثلن العوالم العاديات . ويلبس الطبقة الدنيا منهن ملابس البغايا . ويلبس بعضهن ثوباً رقيق النسج فوق قميص آخر ، وشنتيان وطريحة من الكريشة أو الموصلى ؛ ويتحلين بحلى كثيرة من عقود وأسورة وخلائيل ونقود ذهبية ، تصف فوق

(١) ليس للنور تاريخ ثابت ولا يزال الكثير من أخبارهم مجهولاً . وليس هناك ما يثبت أن هؤلاء الذين يطلق عليهم لفظ Egyptian (في إنجلترا ، gypsies ، في أسبانيا gitano ، في رومانيا faraoon ...) من أصل مصرى . والرأى الغالب أن النور أصلهم من الهند . وقد يكون سبب تلك التسمية تلك العادة التي سادت أوروبا وقتاً وقوامها وصف الشعب الذي يشتهر بممارسة السحر بأنه من أصل مصرى . أو لعل السبب غير ذلك (الترجم)

الجهة ، وقد يضمن خزاماً في الأنف . وهن جميعاً يتكحلن ويتخضبن . وهناك بعض آخر من الراقصات والعاشرات يتسمين غوازي ، والواقع أنهن لا يفتسبن إلى تلك القبيلة ^(١) .

ويتظاهر كثير من القاهريين أو يقنمون بأن رقص الغوازي لا يعيبه سوى أنه من النساء ، اللاتي يجب ألا يعرضن أنفسهن هكذا ؛ فيستخدمن رجالاً يحلون محلهن . غير أن هؤلاء وجلهم من الشبان ، ويسمون « خولات » ^(٢) ، قليلون جداً . وإذا كان هؤلاء يقومون بدور النساء فهم يرقصون رقص الغوازي تماماً ، كما أنهم يستعملون الصنوج . ولكنهم ، كأنهم يدفعون فكرة كونهم من النساء حقاً ، يرتدون ما يناسب حرقتهن غير الطبيعية ؛ إذ هم يجمعون بين صفتي الذكر والأنثى ، فيلبسون على الأخص سترة ضيقة وحزاماً وجبة . والأنوثة تغلب على هيئتهم العامة . فهم يرسلون شعورهم ويضفرونها ، وينتفون شعر الوجه ، ويتكحلن ويتخضبن . وكثيراً ما يتنقبون عند ما يسرون في الشوارع في غير وقت الرقص ؛ وهم لا يفعلون ذلك خجلاً ، وإنما يفعلونه تقليداً للنساء فقط . وكثيراً ما يفضلون على الغوازي ، فيستخدمن للرقص في الحفلات الخاصة . وكثيراً ما يرقصون أيضاً في الحفلات العامة .

ويوجد في القاهرة طبقة أخرى من الراقصين الذكور ، يشبهون « الخولات » في الرقص والملبس والهيئة العامة ؛ ويميزهم تسمية مختلفة « جِنك » . وهي تعبير تركي ذو معنى دارج يعبر تماماً عن خلقهم . وهم على العموم من اليهود والأرمن والأروام والترک .

(١) تحفل مدن مصر جميعاً في أغلب الأوقات بعاشرات من طبقات أخرى ؛ غير أن أولئك ومن سبق ذكرهن يكثرن بصفة خاصة في العاصمة وضواحيها ؛ وتسكاد بعض الأحياء تكون قاصرة عليهن . وكثيراً ما كان أولئك النسوة يسكن ، وقت إباحة الدعارة ، مسلك الوقاحة والجسارة . وكانت ملابسهن كملابس الغوازي ، أو تختلف عن ملابس المحترمات من النساء في زهاء الألوان وقلة التستر . وكان بعض النساء ممن يهمن المال لا يفرقن في ملابسهن عن النساء المحتشمات ، فلا تعرفها إلا حينما ترغب في الكشف عن شخصيتها لك . ولا تخلو منهن أحياء العاصمة . وأكثرهن مطلقات أو أرامل ، وكثيرات كن زوجات لرجال تضطرن أعمالهم إلى التغيب كثيراً . ويفرض على العاشرات المعروفات ضريبة « الفردة » . وقد بلغ ما دفعته عاشرات القاهرة أخيراً ثمانمائة كيس ، وذلك يوازي أربعة آلاف جنيه استرليني ، ولا يقل ذلك عن عشر ما يفرض على السكان جميعاً . وبين لنا ذلك بعض البيان نسبة أولئك إلى من يشتغل بعمل شريف . (٢) ويطلق على الفرد من تلك الطبقة أيضاً لفظ: « غايش » .

الفصل العشرون

الرافد والحواة وغيرهم

روى كثير من الكتاب المحدثين في وصف مصر قصصاً مدهشة عن فئة من المصريين يظن أنهم ، مثل قبائل Psylli ^(١) التي كانت تسكن شمال أفريقيا قديماً ، يملكون فناً خفياً ، أشير إليه في التوراة ^(٢) ، يقيمهم سم الثعابين . وقد صادفت كثيراً من أذكىاء المصريين حكوا على أولئك بالدجل ، غير أنني لم أصادف أحداً استطاع أن يقدم إلى شرحاً مرضياً عن عمل من أعمالهم ، هو أكثرها شيوعاً وأجدره بالانتفات وهاءنذا أصفه .

يتعیش كثير من دراويش الرفاعية والسعدية ، كما ذكرت في فصل سابق ، بالطواف في البلاد لرقى الثعابين وإخراجها من البيوت . ويحترف الفن نفسه بعض آخرون ليسوا على شهرة الأولين ، الذين يجولون بأنحاء مصر فيجدون عملاً وافراً ، غير أن أرباحهم تكاد تنكفل لهم معاشاً زهيداً . ويزعم الراقى أنه يكشف عن الثعابين التي تسكن المنازل ، ويحتذب ما يوجد منها ، كما يحتذب الصائد الطائر إلى شبكه بسحر صوته ، دون الاستعانة بحجاسة النظر ؛ وقد يكون ذلك بواسطة رائحة خاصة . ولما كان الثعبان يطلب المكان الظلم ليختبئ فيه ، فإن الراقى كثيراً ما يمارس مهارته في غرفة مظلمة ، حيث يسهل عليه أن يتناول ثعباناً من حجره ويحمله إلى الواقفين بالخارج ، مؤكداً أنه كان بالفرفة ؛ وما كان أحد

(١) شعب قديم كان أفرادهم يزعمون أنهم مصونون من لدغ الثعابين وأنهم يشفون

(الترجم)

الملدوغ

(٢) المزامير ٥٨ — ٥ ، ٤ : لهم حمة مثل حمة الحية . مثل الصل الأصم يسد أذنه

الذى لا يستمع إلى صوت الحواة الترقين رقى حكيم — الجامعة ١٠ — ١١ : إن لدغت الحية

بلا رقيه فلا منفعة للراقى — إرميا ٨ — ١٧ : لأنى هاءنذا مرسل عليكم حيات أفاعى

لا ترقى فتلدغكم يقول الرب .

(١)

ليجسر على الدخول بعد أن أكده وجود إحدى تلك الحيات بالداخل . غير أنه كثيراً ما يطلب من الراق أن يعمل في وضوح النهار يحيط به المشاهدون ، بعد أن يفتشه المنكرون ويجردوه من ملابسه . ومع ذلك كان ينجح تمام النجاح . ويتخذ الراق أثناء عمله هيئة الغموض ويضرب الحائط بجريدة قصيرة ، ويصفّر ، وينقّ بلسانه ، ويبصق على الأرض ، ويقول على العموم : « استحلفك بالله ، إذا كنت فوق ، أو إذا كنت تحت ، أن تتقدم . استحلفك بالإسم الأعظم ، إذا كنت طائماً ، تقدم . وإذا كنت عاصياً ، مت ! مت ! مت ! » ويخرج الراق الثعبان بمصاه عادة من شق الحائط ، أو يسقطه من سقف الغرفة . وكثيراً ما أكد لي أن الراق يتفق مع أحد خدم المنزل ليدخل فيه ثعباناً أو أكثر قبلاً . غير أنني علمت بوقائع ليس الحال فيها كذلك . وإني أميل إلى الاعتقاد أن هؤلاء الدراويش ملون بوسائل طبيعية ثابتة يكشفون بها عن الثعابين في مخابها ويجذبونها منها . غير أنه من المحقق أن مهرم لا يجرو على حل الثعابين السامة قبل أن يقتلع نابهاً . ويحمل كثير منهم أيضاً عقارب تحت غطاء رؤوسهم الحليقة . ولا شك أنهم يجردونها أولاً من قدرتها على الأذى ، وقد يثلمون الزباني فقط . وقد سبق أن ذكرت شهرة الدراويش بأكل الثعابين السامة الحية . وسأصف ذلك خاصة في فصل آخر (١)

في القاهرة فئة كبيرة يقوم أفرادها بأعمال قوامها خفة اليد ، ويسمون « حواة » لاستخدامهم الثعابين في ألعابهم . ويعمل الحواة عادة في الأماكن العامة ، يصحبه ولدان يساعده ؛ فيلتف حوله حلقة من المشاهدين يتناول من بعضهم منحة صغيرة أثناء اللعب وعقبه . وهو أكثر ما يظهر في الأعياد العامة ، وكثيراً ما يرى أيضاً في أوقات أخرى . ويقوم الحواة بأعمال وقحة وفكاهات ماجنة يذال عليها الثناء بقدر ما ينال على وسائله الأخرى . ويأتي بحيل مختلفة أذكر أكثرها شيوعاً . فهو يتناول من جراب جلدي كبير خمس حيات ضخمة أو سقا ، فيضع إحداها على الأرض ويجعلها ترفع رأسها وبعض جسمها ، ثم يعم أحد صبييه بحية ثانية ، ويطوق عنقه باثنتين أخريين . ثم ينزعها ويفتح فم الولد ويدخل ، حسب الظاهر ،

(١) عند الكلام على مولد النبي صلعم في أول فصل من فصول الأعياد الدورية العامة .

لسان قفل في خده ويقفله ؛ ثم يدفع في حلقه مسباراً حديدياً . ويقوم أيضاً بحيلة مماثلة أخرى . فيضع سكيناً على أنف الولد ، بعد أن يجلسه أرضاً ، ويقرع النصل حتى يبدو نصفه مغروزاً . وهناك عدة حيل فاحشه يقوم بها بمصاحبة الولد ؛ ومن الواجب ألا أصفها ، فبعضها تنقزز له النفس . أما الحيل التي يقوم بها منفرداً فهي أكثر تسليمة . فهو يسحب من فمه قدراً عظيماً من الحرير المختلف الألوان ، ويلفه حول ذراعه ؛ ويدخل في فمه قطعاً ثم ينفث ناراً ؛ ويخرج منه قطعاً من القصدير مستديرة كاللدولات ؛ ومن أنفه حجر شبك من الفخار . ويستعمل الحاوي أحياناً في أكثر ألعابه صدفة كبيرة تسمى « زمارة الحاوي » ، ينفخ فيها فتحدث أصواتاً كأصوات الصور . وتكاد أغلب حيله تشبه تلك التي يقوم بها أمثاله في إنجلترا وغيرها . وقد يأخذ الحاوي من أحد المشاهدين خاتماً فضا يضعه في صندوق صغير وينفخ في صدفته ، ويقول : « يا عفريت إبدله » . ثم يفتح الصندوق ، فيظهر بداخله خاتم مختلفاً ، ويفلق الصندوق ثانياً ، ثم يفتحه ويظهر الخاتم الأول . ويقفله مرة ثالثة ويفتحه ، فيظهر سبيكة من الفضة يقرر أنها الخاتم مذاب ، ويقدمها إلى صاحب الخاتم . فيصر الأخير على أن يرد إليه خاتمه بحالته الأولى ؛ فيطلب الحاوي حينئذ خمسة فضة أو عشر فضة ليصيفه ثانياً . وبعد أن يتناول النقود ، يفلق الصندوق وينفخ في الصدفة ، ثم يفتحه ويخرج الخاتم صحيحاً . بعد ذلك يحضر صندوقاً مغطى أكبر حجماً ، ويضع فيه طاقيّة أحد الولدين ، وينفخ في صدفته ، ويفتح الصندوق ، ويخرج منه أرنباً ؛ ولا يبدو للطاقيّة أثراً . ويعيد الحاوي الأرنب ، ويغطي الصندوق ، ثم يكشفه فيخرج منه كتكوتان ، يعيدها ثانياً وينفخ في الصدفة ، ثم يكشف الصندوق ، ويعرضه ملآن بالفطير والكنافة ويطلب من صبيه أن يأكل ما احتواه ، فيرفض أكله بدون غسل . فيأخذ أربيقاً صغيراً ويقبله ليبين خلوه ، وينفخ في صدفته ، ثم يدور على الحاضرين بالأربيق ملآن بالعسل . ويطلب الولدان بعد الأكل ماء ليفسلا يديهما . فيأخذ الحاوي الأربيق نفسه ويسلمها إياه ملآناً بالماء ، بالطريقة نفسها . ويأخذ الصندوق ويطلب الطاقيّة ، ثم ينفخ في الصدفة ويكشف الصندوق ، ويفرغ منه ، في حجر الولد ، أربع حبات صغيرة أو خمسة . فيقتذفها الولد بخوف ظاهر ، ويطلب بطاقيته . فيعيد

الحاوى الحيات إلى الصندوق ويكشفه بمدان ينفخ في الصدفة ويخرج الطاقة وأحد حيله الشائعة أن يضع عدداً من قصاصات الورق الأبيض في وعاء من النحاس المبيض (طست بائع الشراب) ، ويخرجها مصبوعة بألوان شتى . ويصب في الوعاء ماء ويضع قطعة من الكتان ، ثم يناول المشاهدين الوعاء ليشرّبوا منه شراباً من السكر . ويقطع أحياناً حسب الظاهر شالا من الموصلى نصفين ، أو يحرقه من الوسط ، ثم يعيده كاملاً . وكثيراً ما يتجرد من ملابسه جميعاً ، عدا لباسه ، ويطلب من رجلين أن يوثقا يديه وقدميه وأن يضمّاه في عدل . وبعد ذلك يطلب قرشاً ، فيقول له شخص ما أنه سيفاله إذا حل وثاقه . فيمد يديه محلولتين ، ويعيدهما ، ثم يرفع من العدل موثقاً كما كان أولاً . ويماد إلى العدل مرة أخرى فيخرج منه طليقاً مقدماً إلى المشاهدين صينية عليها أربعة صحن أو خمسة بهاماً كولات مختلفة يحيط بها شموع صغيرة مضاءة إذا كان الوقت ليلاً . وبأكل المشاهدون الطعام في القاهرة طبقة أخرى من المشعوذين يسمون « قِيم » . وكثيراً ما يصطحب القيم مساعداً في ألمابه . ففي أحدها مثلاً يجلس الأخير على الأرض ، ويضع أمامه تسماً وعشرين قطعة صغيرة من الحجر مرتبة ، ويطلب من أحد الحاضرين ، بعد أن يبتعد القيم ، أن يضع قطعة من النقود تحت حجر من الأحجار . ثم يدعو القيم إلى الكشف عن موضع النقد المخبأ ، فيكشف عنه في الحال . وسر هذه الحيلة سهل جداً . فإن الأحجار التسعة والعشرين تمثل الحروف الأبجدية العربية ، فيخاطب المساعد القيم ، عندما يطلب منه أن يبين مكان النقد ، مبتدئاً بالحرف الذى يمثل الحجر الذى يغطى النقد . ويستطيع القيم بالطريقة نفسها ، أو بواسطة إشارات يقوم بها المساعد ، أن يعرف اسم شخص موجود أو كلام أغنية رددت في غيابه ، إذ أن الاسم أو الأغنية يُسر إلى المساعد .

يعارس العرافة قبيلة من الدور غالباً . والنور في مصر قبائل صغيرة عديدة ، ويسمونهم إجمالاً « عَجْرَأ » ، وهو اسم لإحدى قبائلهم . والنور ، مثل الغوازي ، يزعمون أنهم من نسل البرامكة ، ولكن من فرع آخر . وكثيراً ما تشاهد العجريات العرافات يسرن مسافرات في شوارع القاهرة ، ويرتدين ملابس الطبقة الدنيا ، والتوب والطارحة ؛ ويحملن عادة أدوات العرافة في رق غزال .

وهن يستخدمن في عرافتهن مقداراً من الأصداف وقطعاً من الزجاج الملون والنقود الخ . يلقينها على الأرض ، ويستخلصن تنبؤاتهن من وضعها العرضي . وتمثل الصدفة الكبرى مستطوع الحظ ، وتمثل الصدقات الأخرى وغيرها حوادث مختلفة ، نكبات وخيرات ، يقدر حدوثها لذلك الشخص ، قريباً أو بعيداً ، أو عدم وقوعها أبداً ، حسب قربها أو بعدها من الصدفة الأولى . ويصيح العرافات عادة بما يدل على أنهن يكشفن عن الغائب ويخبرن عن الحاضر . ويصيح بعضهن أيضاً : « ندق ونطاهر » ^(١) . وأكثر غجر مصر حدادون ونحاسون ، أو متجولون يبيعون السلع التي يصنعها غيرهم من طبقتهم ، وعلى الأخص مصاغ من النحاس لا قيمة له .

يقوم بعض النور أيضاً بحرفة « البهلوان » . وتطلق هذه التسمية في الواقع على من يمارس الألعاب الرياضية أو المبارزة أو أعمال البطولة . وكان أمثال هؤلاء يعرضون قبلاً قوتهم ومهارتهم ، بصفتهن تلك ، في القاهرة . أما الآن فأعمال البهلوان تنكاد تُحصر في الرقص على الحبل . ويزاول هذا الفن أفراد من قبيلة الفجر . وقد يربط الحبل في مأذنة مسجد على ارتفاع عظيم من الأرض ، ويمتد مئات الأقدام مستنداً في عدة مواضع على سوار مثبتة في الأرض . ويستعمل الراقص دائماً مدرة طويلة للتوازن . وقد يرقص على الحبل أو يسير عليه منتعلاً قبقاباً ، أو مثبتاً قطعة من الصابون في أسفل كل قدم من قدميه ، أو معلقاً طفلاً بواسطة حبل على كل كعب من كعبيه ، أو شاداً ولداً إلى كل من طرفي المدرة ؛ ويجلس فوق صينية مستديرة توضع على الحبل . وقد شاهدت ثلاثة من هؤلاء ، ولم نكن ألبابهم من النوع الصعب الذي وصفته سابقاً ، وكانت أقل مهارة من ألعاب البهلوان العادي في إنجلترا . وكثيراً ما يقوم بتلك الألعاب نساء وبنات وصبية . ويقوم

(١) فهن يقمن بعمليتي الوشم والختان وقد وصفتهما على التوالي في الفصلين الأول والثاني . ويذكر الكابتن نيوبولد في مقال غريب عن نور مصر وبعض البلدان الشرقية ، نشر في مجلة الجمعية الآسيوية المكية ، في المجلد الرابع عشر ، ص ٢٨٥ - ٣١٢ ، إن العرافين في مصر ليسوا ، حسب قولهم أنفسهم من قبيلة الفجر كما أخبرت ، بل من قبيلة أعلى طبقة ، يسميها « هليبي Helebi » ، مختلفة عنها وإن كان هؤلاء يتزوجون من الفجريات .

الرجال والفتيان بأعمال أخرى ، مثل التدحرج وغيره من الحركات ، والقفز في وسط طوق .

وكثيراً ما يتسلى الطبقات الدنيا في القاهرة بالعباب « القرداتى » المختلفة ، ويقوم بها قرد وحمار وكلب وجدى . ويتبارز القرداتى والقرد بالعصا . ويتوخى القرداتى الغرابية في رداء القرد ، فيلبسه ملابس عروس أو امرأة منقبة ، ويضعه على ظهر حمار ، ويمرضه داخل حلقة المشاهدين ، وهو يتقدمه ضارباً على دف . ويدفع القرد أيضاً على الرقص والقيام بالعباب هزلية مختلفة . ويطلب من الحمار أن يختار أجمل بنت في الحلقة ، فيتقدم إليها وأنفه إلى وجهها ، فيضحك الفتاة والمشاهدين . ويأمر السكاب أن يقلد اللص فيتقدم زاحفاً على بطنه . وأحسن الألعاب ما يقوم به الجدى . فهو يؤمر بالوقوف على قطعة خشبية صغيرة ، يبلغ طولها شبراً وعرضها بوصة ونصف بوصة ، عند القمة والقاعدة ، فتكون سيقان الجدى الأربع متلاصقة ، ثم ترفع القطعة الخشبية والجدى فوقها وتوضع تحتها قطعة ثانية مثلها ثم الثالثة ورابعة وخامسة على التوالى .

كذلك كثيراً ما يسلى « المحبظون » . وهم ممثلون يضحكون الناس بفسكات مضحكة حقيرة . وكثير ما يرون أثناء الحفلات السابقة المهدة للزواج والظهور في منازل العظماء ، وأحياناً في ميادين القاهرة العامة ، حيث يجمعون حولهم حلقة من المشاهدين . وألباهم لا تستحق الذكر كثيراً . وهم على الأخص يلهون الجمهور وينالون ثنائه بفكاهات عامية وأعمال فاحشة . ولا يوجد نساء في فرق « المحبطين » فيقوم بدورهن رجل أوصى في ثياب امرأة . وإنى أورد نموذجاً من تمثيلهم : قطعة صغيرة من رواية مثلت أمام الباشا ، أثناء الاحتفال بختان ولد من أولاده . والعادة في تلك المناسبة أن يختن كثير من أولاد العظماء . وكان أشخاص الرواية : ناظرأى مدير إقليم ، وشيخ بلد وخادمه ، وكاتباً قبطياً ، وفلاحاً مديناً للحكومة وزوجه ، وخمسة أشخاص آخريّن يظهرون أولاً في هيئة موسيقيين وراقصين . وبعد قليل من الطبل والزمر والرقص يظهر الناظر وبقية الممثلين ، فيقول الأول : « كم قرشاً دين عوض من رجب ؟ » فيجيب العازفون والراقصان ، الذين

يقومون الآن بأدوار فلاحين : « من النصراني بالبحث في السجل » . ويحمل الكاتب النصراني دواة كبيرة في حزامه ، ويلبس لباس الأقباط ويعتم بالمعامة السوداء . فيسأله شيخ البلد : « كم على عوض بن رجب ؟ » فيجيبه : « ألف قرش » فيسأله كم دفع ؟ فيقول : خمسة قروش . فيخطب الفلاح قائلاً : « يا رجل ، لماذا لم تحضر النقود ؟ » فيجيبه : « ليس عندي نقود » فيصيح الشيخ : ليس عندك نقود ؟ اطرحوه . « فيأتون بجزء من مكي منفوخ على شكل سوط ويضربونه به . فيستغيث الفلاح بالناظر قائلاً : « وشرف ذيل حصانك يا بك ! وشرف سروال زوجك يا بك ! وشرف عصاة رأس امرأتك يا بك ! » وينتهي الضرب بعد عدة صيحات ، ثم يقاد إلى السجن . وتحضر امرأته تواءً لتطمئن عليه ، فيرجو منها أن تأخذ قليلاً من الكشك والببيض والشمرية وتذهب إلى منزل الكاتب ، وتستعطفه ليخلصه . فتذهب الزوجة بالهدية إلى منزل الكاتب ، وتسال من هناك عن المعلم حنا الكاتب ، فيدلونها عليه . فتقول له : « يا معلم حنا ، تفضل بقبول هذه الهدية وأنقذ زوجي ، الفلاح المدين بألف قرش » فيقول : « أحضري عشرين قرشاً أو ثلاثين رشوة لشيخ البلد » . فتتصرف وسرعان ما تعود بالنقود ؛ وتسلمها إلى شيخ البلد ، فيأخذها ويقول : « حسن جداً . اذهبي إلى الناظر » فتستحب وقتاً لتتكمّل وتتخضب ، ثم تقصد الناظر وتحيمه . فيسألها عما تريد فتخبره أنها زوجة عوض المدين بألف قرش . فيقول : « وما ذا تريدن ؟ » فتجيب : « إن زوجي مسجون وإني أستعجد بمروءتك لتخلصه » . وتبتسم ، وهي تلح في طلبها ، وتظهر أنها راغبة في مكافأته على هذا المعروف . فيقبل ذلك ، ويقوم بالدفاع عن الزوج ، ويخرجه من السجن . وقد مثلت تلك الهزلية أمام الباشا لتنبهه إلى سلوك القائمين على أمر الضرائب .

أدخل الأتراك « القراجوز » ^(١) مصر وكانت لغة الدمي التركية . ويتهج

المؤلف

(١) ويسمى ذلك العرض بالعربية • خيال الظل

وهذا هو رأى يبين لما أن خيال الظل كان موجوداً بمصر قبل دخول الأتراك : « كان هذا النوع من التسلية قاصراً في القرن الأخير على الطبقة الفقيرة ، ولم يكن الأمر كذلك دائماً . فهذا النوع من التسلية تاريخ طويل وقد كان يدور في القطر المصري كلاً من الطبقات العليا . فنسمع مثلاً =

أتراك القاهرة بألعاب تلك الدى الفاحشة ، غير أنها لا تجتذب من لا يفهم اللغة التركية ، وهى تحرك على طريقة الظلال الصينية « Chinese Shadows » ولذلك تمرض ليلاً فقط .

== أن صلاح الدين الأيوبي حضر مشهداً من خيال الظل حوالى عام ١١٧١ م . وكثيراً ما ذكر ابن إياس فى تاريخه تلك الروايات ، وهو يحكى أن السلطان التركى سليم بعد أن تم له فتح القطر المصرى أراد أن يرفه عن نفسه بمشاهدة خيال الظل . فرأى فيها إعدام طومان بك وهو معاق بباب زويله . ويقال أن طربه لمشاهدة هذه الرواية كان عظيماً حتى أنه اصططب الممثل معه إلى استنبول ليقدم الأعيه أمام ولده وولى عهده المشهور السلطان سليمان ... » من مقال لبول كاله بمجلة الأدب والفن السنة الأولى الجزء الرابع ص ٦٥ (المترجم)

افصل الحادى والعشرون

رواية الفصص العامة

ليس ما وصفت فى الفصل السابق هو خير تسليية للمصريين ؛ فالفصص



(شكل ٧٤)

يفشون مقاهى القاهرة
وغيرها من المدن ، فى
لىالى الأعياد الدينية
خاصة ، ويسامرون الناس
ببراعة تجذب القلوب .
يجلس القاص فوق مقعد
صغير فى أعلى المصطبة ،
المقامة بطول واجهة
المقهى ، أنظر شكل ٧٤ ؛
ويجلس بعض السامعين إلى
جانبه ، بينما يجلس البعض
الآخر على مصاطب المنازل
المقابلة فى الشارع الضيق ،
والباقون على مقاعد من
الجريد . وأكثرهم يدخن
الشبك ؛ وبعضهم يرتشف
القهوة ، وهم جميعاً
يستهجون أعظم الابتهاج
بسماع القاص لقوة تمثيله ،

ولموضوع القصة . وينفتح صاحب المقهى الحاكى مبلغاً زهيداً من المال لجذبه المتفرجين الذين لا يعطونه شيئاً محتموماً . فأكثرهم يعطى شيئاً ، وقل من يدفع منهم أكثر من خمسة فضة أو عشرة (١) .

و « الشعراء » أكثر طبقات الرواة عدداً . وهم يسمون أيضاً « أبو زبيده » ، نسبة إلى موضوع روايتهم « سيرة أبي زيد » (٢) . وهم في القاهرة خمسون تقريباً . ولا تخرج روايتهم عن سرد وقائع أبي زيد الهلالي .

ويقال إن قصة أبي زيد تستند إلى حوادث وقعت في منتصف القرن الثالث للهجرة . والمعتقد أنها دونت بعد ذلك العصر؛ ولكن من المؤكد أنها وضعت بعد ذلك بكثير ، إن لم تكن حرفت عند النسخ . والقصة عادة عشرة أجزاء أو أكثر من الحجم المربع الصغير . والقصة أسلوب من النثر والشعر ، على نمط الرواية والتمثيل . وهي ، في ثوبها الحالى ، ذات قيمة أدبية قليلة ، وأهميتها في تصوير عادات البدو وشمائلهم . وأغلب أبطال القصة ، رجالاً ونساء ، من قلب الجزيرة العربية ومن اليمن ، وبعضهم من الغرب (أى شمالى أفريقيا ، لوقوعها غرب الجزيرة) . وهم يعبرون عن عواطفهم القوية ، وأحاديثهم ، في شعر غير موزون . غير أن بعض أدباء القاهرة يرون أن ذلك الشعر كان جارياً على الأوزان العروضية ، ولكن الناسخين حرقوه . ومع ذلك فالقصة بالطريقة التى تروى بها ، وباللهجة الدارجة ، ممتعة بنغمها وبمادتها . وتكاد كل قطعة شعرية تبدأ بالصلاة على النبي وتنتهى بها .

ويروى الشاعر دائماً من الذاكرة ، فلا يستعين بكتاب . وهو ينشد الشعر ؛ ويعزف بعد كل بيت بعض نغمات على رباب الشاعر ، أو « الرباب الأبوزيدى » . ويسمى هكذا لاستعماله في هذه المناسبة فقط . وقد سبق أن وصفته في فصل سابق . ويصحب الراوى على العموم عازف على رباب آخر من النوع نفسه . ويكتفى العازف أحياناً بنغمة واحدة مقدمة وفاصلا .

(١) ويربح الراوى من المقاهى أكثر مما يتناول من أجر في حفل خاص ، إذ أن ربحه في الحالة الأولى يناسب ما يظهر من مهارة وحذق .
(٢) وينطقها العامة هكذا بدلاً من سيرة أبي زيد .

ويتميز بمض الرواة بتسمية خاصة : الهلالية ، والزغبية ، والزنازية ، تبعاً لما يختصون به من سرد وقائع الأبطال المختلفين من قبائل الهلالي والزغبى والزنازى ، المذكورة فى القصة .

وسأعرض هنا نموذجاً لقصة أبى زيد الهلالي ملخصاً من الجزء الأول منها ؛ وقد عنيت بقراءته لهذا الغرض (١) .

كان أبو زيد ، أو بركات كما كان يسمى أولاً على العموم ، عربياً من قبيلة بنى هلال أو الهلالية . وكان أبوه الأمير رزق (ابن نائل ، عم سرحان ، ملك بنى هلال) قد تزوج ، قبل مولده ؛ من عشر نساء لم ينجب منهن ، لشدة أسفه ، غير بنتين : شيخة وعنيفة . وقد حز فى نفسه أن إحدى نساته وهى الأميرة جلاس ، قد وضعت ولداً ليس له ذراعان ولا ساقان . ولما كان الأمير رزق لا يستطيع أن يتزوج بأكثر من أربع مما ، فقد طلق من لا تروقه من زوجاته ، واحتفظ بثلاث منهن ؛ ثم تزوج زوجته الحادية عشرة الأميرة خضرة ، ابنة شريف مكة . وسرعان ما ظهر على خضرة علامات الحمل ، فابتهج الأمير وانتعش أمله . فدعا الأمير غانم ، زعيم قبيلة الزغبية ، وجما غفيراً من أسرته ليشرافوا الحفل المزمع إقامته . وقبل أصدقائه الدعوة ، ونزلوا ضيوفاً عليه فى انتظار مولد الطفل .

وحدث أنباء ذلك أن كانت الأميرة خضرة تتريض مع الأميرة شيخة ، إحدى زوجات الملك سرحان ، وجمع من النساء ، فرأت طائراً يهاجم سرباً من الطيور المختلفة الجنس واللون ويقتلها . فتمعجت لهذا المنظر ، وتضرعت إلى الله أن يمن عليها بولد مثل هذا الطائر ، ولو يكون أسود . فاستجاب الله دعائها ووضعت غلاماً أسود . ولم يستطع الأمير رزق أن يصدق أن هذا الطفل ابنه ؛ ولكنه أبى أن يطلق زوجه لشدة حبه إياها ، وكان قد سمع وصف الطفل من النساء ولم يرد أن يراه ، أو يسمح لأى رجل أن يراه قبل اليوم السابع لميلاده . وفى اليوم السابع ، « أى يوم السبوع » أدب لضيوفه مأدبة فاخرة ، ثم أحضر الطفل

(١) لم أستطع رد النص إلى أصله ، لاختلاف النسخ باختلاف الرواة والناسخين .

(المترجم)

بعد ذلك أمامهم حسب العادة . خملته جارية وهو مغطى بمنديل على صينية من الفضة . ونقطه الضيوف بالنقود الذهبية والفضية ، حسب العادة المتبعة ، ثم رفع أحدهم المنديل ، فظهر أن الولد أسود . وكان الأمير رزق طول الاحتفال خارج الخيمة ، يساوره الهم والحزن فأقبل عليه أصدقاؤه يلومونه لوماً عنيفاً على محاولته اخفاء هذا الخزي الذي يتصورونه ، ولإبقائه على امرأة غير عفيفة مثل زوجته ، وأكرهوه على تطليقها حتى لا يجر العار بسببها على قبيلته . فأرسلها هي وابنها وبعضاً من جواريه ، اللاتي استأذن في البقاء معها ، في حراسة شيخ يسمى منيماً ، إلى أبيها بمكة .

و ضربت الجماعة خيامها في واد أثناء السفر . فتوسلت الأميرة خضرة ، إلى الشيخ منيع أن يسمح لها بالبقاء في هذا المكان ، لأنها تخشى العودة إلى منزل أبيها في مثل هذه الظروف . وحدث أن صر بهم أثناء ذلك الأمير فضل ابن بليسم وسمع قصتها ، فقرر حمايتها . ثم انصرف إلى خيمته ، وأرسل زوجته الأميرة لأمج البهية لتحضر الأميرة خضرة وابنها وجواريا . وتبنى الأمير فضل الولد ، ورباه مع ولديه ، وتعهده بالرعاية الأبوية . ولم يلبث بركات الصغير أن بدت عليه شمائل الفتوة . فقد قتل مدرسه ، بالضرب المبرح ، لأنه حاول أن يعاقب أحد أخويه بالتبني ؛ وأصبح وجوده يرعب زملاءه ، فيمجزون عن الإصغاء إلى المدرس الجديد ، فاضطر إلى تلقى الدرس وحده . وفي الحادية عشرة من عمره ، بلغ شأواً بعيداً في جميع العلوم المعروفة حينئذ في الجزيرة ، بما فيها الفلك والسحر والكيمياء وفروع مختلفة .

وانتصح بركات بنصيحة مؤدبه ، فذهب إلى متبنيه يطلب منه أن يهبه جواداً . وبدأه بالتحية فرد عليه قائلاً : « صباح الخير يا بني ، يا أعز من بني » . وتمجّب الشاب لهذا الكلام ، وتوجه إلى أمه يستجليها الأمر . فأخبرته أن الأمير فضل عمه ، وأن أباه قتله عربي من بني هلال ، يسمى رزق بن نائل . وهاجها ذكر آلامها وألمها ، فطفت ثروى قصتها كاملة لابنها في مجموعة من الشعر . وتأثر بركات لهذه القصة ، وأصبح كل همه وشغله أن يقتل رزق بن نائل ، معتقداً أنه قاتل أبيه .

ومنح الأمير فضل بركات خير جياده ، ولقنه فنون الحرب والصيد ، وكل ما يمارسه الرجال . وسرعان ما امتاز في الفروسية ، وفاق رجال القبيلة بمهارته في لعب البرجاس (ويشبه لعب الجريد) وأثار غيرتهم . وهزم جماعة من قبيلة تيدمة أغاروا على قومه مرتين ، وقتل زعيمهم عتوان بن داغر في أول موقعة . فاستنجدوا بالصليدي ملك مدينتهم ، فأوصى عليهم جसार بن جاسر ، أحد أمراء بني حمد ، أرسل إلى قبيلة الزحلان يطالبها بجزية خمسة عشر عاماً متأخرة كانت تدفعها إلى قبيلته ، وأصرهم أن يرسلوا بركات العبد (إذ كان يعتقد أنه عبد) مقيداً ليقتل . فكتب بركات باسم الأمير فضل رداً بالأذعان ، وأحضر عبداً يقاربه شكلاً وسناً وشده إلى ظهر رجل ، وذهب هو والأمير فضل وقبيلته لمقابلة جसार وقومه وعرب تيدمة . وقدم فضل العبد على أنه بركات إلى جसार الذي سر لامتهاله لأوامره ؛ فأضاف قبيلة الزحلان . غير أن بركات بقى على جواده ، ورفض أن يؤكل أعداءه خشية أن تمنحه قواعد الضيافة من تنفيذ المكيدة التي دبرها . فنظر إليه جसार ، واستفهم الأمير (فضل) عنه ، فأجابه أنه عبد مجنون يسمى مسعوداً . وجذب بركات جساراً بعيداً عن قومه ، وكشف له عن نفسه ، ودعا للزوال ، وبارزه وقتله واستولى على خيمته . ثم عفا عن بقية أعدائه ، ولكنه فرض عليهم الجزية التي كانت قبيلة زحلان تؤديها من قبل . ومن ثم أضيف اسم مسعود إلى اسمه السابق . وتغلب صراراً على مساعي بني حمير لاسترداد استقلالهم . وحاز شهرة عظيمة ، لا عند الأمير فضل وقبيلة الزحلان فحسب ، بل عند القبائل المجاورة أيضاً .

ولنعد الآن إلى الأمير رزق وقبيلته . لم يلبث الأمير رزق عقب رحيل زوجته أن اعتزل قبيلته حزناً على فقدائها واشتمراً من سلوك عشيرته نحوه بسبب مايقوهومونه عاراً . وانفرد بعبء واحد ، واتخذ سكنه خيمة من شعر الماعز الأسود ، بالقرب من المكان الذي كانت زوجته قد رأت فيه موقعة الطيور . ولم يلبث بنو هلال بعد هذا الحادث أن أصابهم قحط ما حق اضطر القوم ، وملكهم سرحان إلى الرحيل إلى أرض قبيلة الزحلان للالتجاع ؛ غير أن الجعفرية وبعض القبائل الصغيرة من بني هلال لحقوا بالأمير رزق ، وكان رئيسهم سابقاً ، وبقوا معه . وهاجم بركات سرحان وقومه ، وهزمهم وسمح لهم بالبقاء بعد أن أخضعهم خضوعاً ذليلاً .

وكان بنو هلال يكتفون الكراهية لبني الزحلان الذين كانوا يدفعون لهم جزية قبلا . وأرسل سرحان إلى رزق يتوسل إليه أن يسعى ليخلصهم من ذلم . فلبى رزق دعاءهم . وفي طريقه إلى عرب الزحلان ، كاد الرسول ، الذي كان قد جاء ليرشده ، يقنعه أن بركات ابنه ؛ ولكنه تحير في سبب تسميته بهذا الاسم ، لأنه كان قد سماه أبا زيد . وعندما بلغ غايته ، دعا بركات إلى النزال . وتقدم الأب لمنازلة الابن وهو يشك في أنه ولده ، بينما كان الأخير يجهل أنه على وشك أن يرفع يده في وجه أبيه ، ظنًا منه أن خصمه هو قاتل أبيه . وتعلم الأمير رزق لتأجيل المبارزة يوما بعد يوم . ولكنه عجز عن الاستمرار في ذلك ، فرضى بالنزال . وتقلب عليه ابنه ورماه عن فرسه ؛ ولم يقتله لأن أمه أوصته بالامتناع عن ذلك . ولم تلبث الأميرة خضرة أن كشفت له عن الحقيقة . فأرغم زعماء بني هلال على الاعتراف به ابنًا شرعيًا للأمير رزق ، جديرًا به ، وعلى استغفارهم عن الأضرار التي كابدها هو وأمه منهم . وصفح عنهم الأمير أبو زيد بركات ؛ وقد زاد هذا في سرور الأمير رزق لرجوع زوجته وابنه .

أما الحوادث التالية في قصة أبي زيد فكثيرة ممتدة . وأشهر أجزائها قصة الريادة . ونرى فيها أبا زيد وثلاثة من أبنائه أخيه ، في زى الشعراء ، وهو في زى عبد من عبيدهم ، يرتادون بلاد المغرب ويمتازون بمدة وقائع مثيرة مع قبيلة الزنانة .

الفصل الثاني والعشرون

تابع رواية القصص

من رواة القصص أيضاً طبقة تتميز بتسمية خاصة : « المحدثين » (المحدثون) ؛ وهم ، من حيث العدد ، يتلون « الشعراء » ؛ ففي القاهرة ما يقرب من الثلاثين منهم . والمحدثون يقصرون أنفسهم على رواية « سيرة الظاهر » أو « السيرة الظاهرية » ، ومن ثم يسمون « الظاهرية » . وهم لا يستمعون في روايتهم بكتاب . وقوام السيرة الظاهرية تاريخ السلطان الظاهر بيبرس الشهير وكثير من معاصريه . وقد اعتلى هذا الأمير عرش مصر في ذى القعدة من عام ٦٥٨ للهجرة (١٢٦٠ م) ، ويندر أن تجد بمصر نسخة كاملة من سيرة الظاهر ، وقد علمت بوجود واحدة منها فاشتريتها . وهى تتألف من ستة أجزاء مربعة الشكل ، مقسمة إلى عشرة أقسام ، وأجزاؤها من نسخ مختلفة . ولا يُعرف واضع السيرة ولا عصره . وقد وضعت السيرة فى الأسلوب الدارج من العربية المصرية الحديثة ؛ وإذ كان القصد من وضعها روايتها للعامة ، فيحتمل أن يكون الناسخون قد حرفوها وصاغوها فى أسلوب حديث . ومن الواضح أن لغة السيرة لم تكن أبداً قديمة فى أسلوبها ولا فى تاريخها . وقد كتب أقدم أجزاء المجموعة التى امتلكها من جيل مضى أكثر أو أقل . ولأعرف القارئ بشئ من هذه القصة ، اذكر هنا بعض حوادث من الجزأين الأولين .

يحكى أن الملك الصالح (أحد سلاطين مصر المشهورين والأولياء المعروفين) عهد إلى من يدعى على بن الوراقه بحلب أن يشتري بعض المالك من البلدان الأجنبية ؛ فاشترى خمسة وسبعين مملوكاً من سورية ، وألحق بهم شاباً يسمى محموداً (بيبرس فيما بعد) ، كان أسيراً وبيع . غير أن علياً ما لبث أن باع محموداً من أحد دائنيه بدمشق ، مقابل دين عليه . فقدم هذا الأخير المملوك إلى زوجه

ليقوم على خدمة ابنها ، وكان معتوها مشوها . ولم يبق محمود على هذه الحال طويلا . فقد كان لسيدته الجديد أخت جاءت يوماً تزور زوجة أخيها ، فوجدتها على وشك أن تضرب المملوك الفتى ، لأنه أهمل مراقبة المعتوه فسقط من المقعد . وقد أذهلها ما في هذا المملوك من شبه كبير بابن لها فقدته ، فأشفقت عليه ، وأشتريته من أخيها ، وتبنته ، وسمته ببيبرس ، وكان اسم ابنها المتوفى ، وأقامته ولياً على أملاكها الكثيرة . وكانت هذه السيدة تسمى الست فاطمة بنت الأفواسى (صانع الأفواس) . وأظهر بيبرس نفسه أهلاً لهذا الكرم ، فأبدى ما يثبت خلقه الكريم ، وتميز بعدة أفعال نادرة أثارت إعجاب الناس وحسد الناصرى ، حاكم سورية ، فدبر له المكائد ليوقع به ويقتله . وحدث بعد ذلك أن قدم نجم الدين ، وزير الملك الصالح ، فى بعثة إلى دمشق ولزيارة الست فاطمة أخت زوجته . فلما عاد إلى مصر صحب بيبرس معه . فرفعه الصالح إلى أعلى المناصب ، وأصبح نديماً الكبير الوزراء ، شاهين الأفرم . — أما الحوادث التالية فقد وقعت عقب وفاة الصالح مباشرة . (١)

بعد وفاة الملك الصالح أيوب ، اجتمع الوزير أيبك بالأمير قلاوون وأصحابه ، وقرروا أن يمتلئ أحدهما عرش مصر . واجتمع كذلك الوزير شاهين الأفرم بالأمير أيدمر البهلوان وجنده وبأصحاب الأمير بيبرس وحلفائه ، وأجمعوا على مبايعة الأمير بيبرس بالسلطنة ، إذ أن الملك الصالح أيوب كتب براءة بذلك . وفى الصباح اجتمع الفريقان وجنودهما بالديوان ، وكان الأمير بيبرس موجوداً أيضاً ، فنادى الوزير شاهين به سلطاناً ؛ غير أنه رفض ذلك وأشار إلى الوزير أيبك والأمير قلاوون ليمتلى أحدهما العرش . وبينما كان الفريقان يتناقشان أخبرهم أحد الأصرء أن للملك الصالح ابناً على قيد الحياة ، يسمى الأمير عيسى ، وأنه يقيم بمدينة الكرك ، وأن أصحابه لم يشيدوا بذكره لادمانه شرب الخمر . فقال الأمير بيبرس : لعله يتوب . فقرر الجند حينئذ الذهاب إليه والحيء به ليولوه سلطاناً . وطلب الوزير شاهين أن يذهب الأمير بيبرس معهم ، ولكن أيبك وقلاوون قرروا أن

(١) ترجم المؤلف ما بلى من نص الكتاب . وأراني مضطراً ، لعدم وجود النص تحت

(الترجمة)

يدى ، إلى تلخيص ذلك .

يرحلا قبله وأن ينتظرا قدومه هناك . ثم أمرا جنودهما بحمل المؤن ونصب الخيم خارج العادلية (١) استعداداً للرحيل . وأدرك الوزير شاهين أن غاية الجند بذر الشقاق بين الملك عيسى والأمير بيبرس ، فطلب من هذا ، بعد أن كشف له عن قصدهم أن يرحل إلى الشام (٢) ويقيم بمنزل الست فاطمة فلا يغادره حتى يرسل إليه . ووصل أبيك وقلاوون وعلاء الدين البيسرى على رأس جنودهم إلى الكرك وتوجهوا إلى قصر الملك ، وأخبروه أنهم قدموا من مصر لمبايعته خلفاً لوالده الذى ذهب ضخمة المدوان ، وذكروا أن بيبرس دس للصالح السم ، وأنه فى طريقه إلى القصر . ثم عادوا إلى خيمهم حتى لا يراهم الوزير شاهين أو بيبرس فيفطنوا إلى مكيدتهم . وأقبل بعمدهم الوزير شاهين فى جنده ، ودخل على الملك الذى سأله إذا كان هو الذى وضع السم لوالده . فأجابه أن والده مات ميتة طبيعية ، وأن بيبرس بالشام ، وأنه يستطيع أن يذهب إلى هناك فيقدمه بهذه التهمة إلى الديوان إذا أثبت ما يدعى . . . ورحل الملك عيسى إلى الشام ، وذهب إلى الديوان ، وأرسل فى طلب بيبرس ، الذى تحصن فى داره عند ما علم بخبر المؤامرة . ولم يستطع أحد من الأمراء أن يجبر بيبرس على الخروج ، فأرسل إليه الوزير شاهين الذى أخذ عهداً على الملك بمحاكمته طبقاً للقوانين ، بعد أن أشار إلى شجاعة بيبرس وقوة جنده . وذهب بيبرس إلى الديوان على رأس جنده ، وقبّل يدى الملك ، وطلب منه أن يثبت التهمة أمام القاضى . فأشار الملك إلى أبيك وقلاوون وعلاء الدين ، فسألهم بيبرس هل رأى أحد أدس السم ؟ فأجابوا بالنفى . وحينما علم القاضى أن ليس هناك شهود غير هؤلاء ، اتهمهم بالكيد لبيبرس . وقرب الملك عيسى الأمير بيبرس منه وخلع عليه قفطاناً وعينه رئيساً لجنده . ولم يقبل بيبرس ذلك إلا بعد أن قطع الملك على نفسه عهداً بالتوبة عن شرب الخمر ، وقبل أن يقام عليه الحد إذا رجع فى توبته . وأقام الملك بالشام ثلاثة أيام ثم رحل إلى مصر . . . وصل الملك القاهرة وصعد إلى القلعة حيث قابل العلماء الذين حصروا لمبايعته ، وسكّنت النقود

(١) العادلية اسم مسجد أقامه الملك العادل طومان باى عام ٩٠٦ هـ (١٠١٠ م)

خارج أسوار القاهرة بالقرب من باب القصر . ويطلق الاسم نفسه على الحي المجاور للمسجد

(٢) ويقصد بالشام هنا دمشق .

باسمه ، وأقيمت الصلوات والأدعية في المساجد ، وخلع القفاطين على الجنود والأمير بيبرس . ثم كتب للأخير براءة بتولية العرش خلفاً له فاغتاظ أيبك وخلفاؤه وابتهج أصحاب بيبرس . وانصرف الجند ، ونزل الأمير بيبرس في احتفال كبير إلى منزله بالقرب من قناطر السباع ^(١) .

وعاد الملك إلى ديدنه من الشرب . فأمر خادمه أن يضع النبيذ في زجاجة ماء فيقدمها إليه ، أثناء انمقاد المجلس ، كلما طلب منه ذلك . وعقد المجلس في اليوم التالي ، وكان يفص بالأمراء والجند . فأشار الملك إلى خادمه قائلاً : إسقنى . فقدم إليه الزجاجة . وبعد قليل أعاد الكرة ، ثم لم يلبث أن طلب الزجاجة مرة ثالثة . فلفت ذلك نظر الأمرء ، وقال أحدهم : يبدو أن الملك أفطر « كوارع » وتقدم الوزير شاهين إلى الملك يستفسر عن حاله ، وسرعان ما تبين له أنه يشرب النبيذ . فذهب بعد انقضاء المجلس إلى بيبرس وأخبره بما حدث . وفي صباح اليوم التالي حضر بيبرس المجلس ، وشاهد الملك يشرب النبيذ بالطريقة السابقة . فتقدم وأمسك بالزجاجة ، فادعى الخادم أنه ماء طبي ، فطاب طستاً وأفرغ الزجاجة فيه أمام الجند ، ثم قال للملك : ألم تعاهدني على الإقلاع عن الشرب ، ورضيت أن أقيم الحد عليك إذا حنثت ذلك ؟ ثم قام إليه وجلده .

أما الجزء الثاني فيعرض لنا ما صادف بيبرس من شذائد أثارها سخط الملك عليه عقب الحادث السابق ، وما وقع له من حوادث في عهد السلاطين اللاحقين ، وخاصة أيبك عدوه الألد ، وأخيراً اعتلاءه هو نفسه العرش . أما الأجزاء التالية فتقص علينا حروب بيبرس في سورية وغيرها من البلدان ، وتفصل لنا أعمالاً خيالية مختلفة ، ووقائع فدائي عصره . ولفظ « فداوى » ويفهمه العامة حالياً بمعنى المحارب ذى الشجاعة والمهارة الخارقتين ، بمعنى لغويًا وعلى الأصح من بضحي ، أو يكون مستعداً لأن يضحي بحياته فداء لإخوانه ، أو في قضيتهم . ويطلق هنا على طبقة من المحاربين لا يخضعون لغير زعيم يختارونه . وتلك الطبقة هي الطبقة نفسها المسماة في تاريخ الحروب الصليبية ، assassins وقد ذكر المستشرق العلامة De sacy بحق أن تلك التسمية تحريف لكلمة « حشاشين » . وقد أطلق على

(١) قنطرتان فوق قتال القاهرة جنوب غربي المدينة .

طبقة الحشاشين تلك التسمية لاستخدامهم الحشيش . وتؤكد سيرة الظاهر قول
 دساسى التى توحى بشرع مختلف : فالقصة تكاد توصف الفدائيين بأنهم يستخدمون
 « البنج » ليقوموا بنحصر من أعدائهم الاقواء فى الأسر ؛ فيتفكرون ويدعونهم
 إلى تناول الطعام ثم يدسون له البنج فى الطعام أو الشراب فيستسلم للنوم ويصبح
 فى قبضة يدهم^(١) : وزعيم هؤلاء المحاربين « شيجه » ، ويسمى « سلطان القلاع
 والحصون » ؛ وتصوره القصة دائم السعى الفاجح إلى إخضاع الفدائيين له ولبيبرس
 وقد أصبح اسمه ، لمهارته فى التفكير وابتداع الحيل عاماً يطلق على من يتحلى
 بصفاته تلك . وهناك شخص آخر يستحق الذكر وهو جوان (حنا) المسيحى
 الأوروبى ؛ وقد درس الشريعة الإسلامية دراسة عميقة ، ونجح فى الحصول على
 وظيفة قاضى العاصمة المصرية والاحتفاظ بها بضع سنين : وزاء فى القصة دائم
 التآمر على بيبرس وشيخة وغيرهما من الزعماء المسلمين .
 ويرجع الكثير من التسليمية المستمدة من رواية هذه القصة إلى ذكاء المحدث ،
 الذى يحسن الحديث بحركاته وبما يبدعه سرعة ذهنه .

(١) بعد كتابة للملاحظة السابقة وجدت أن الأدرمى يطلق لفظ « حشاشية » ، وهو
 يرادف تماماً لفظ « حشاشين » على طبقة Assassins وهذا يفصل فى الأمر

الفصل الثالث والعشرون

تابع رواية الفصص العامة

في القاهرة طبقة ثالثة من الرواة ، يسمون « عناترة » أو « عنترية » (المفرد « عنترى ») ؛ غير أنهم أقل عدداً بكثير من أى طبقة من الطبقتين السابق ذكرهما ؛ وعددهم الآن ، إذا صح ما أخبرت به ، لا يزيد على ستة . وهم يسمون هكذا تبعا لموضوع رواياتهم ، « سيرة عنتر » . وإذا كان القارئ الانجليزى يعرف الكثير عن هذه القصة من ترجمة Terrick Hamilton ، فلا داعى لسرد شئ منها . ويستعين العناترة بالكتاب ، فلا يروون من الذاكرة . وهم ينشدون الشعر ، ولكنهم يقرأون النثر بالطريقة الدارجة ، ولا يستعملون الرباب . وإذا كان العامة لا يفهمون الشعر تماما ، فإن أكثر المستمعين إليه على درجة من الثقافة .

والعناترة لا يقصرون رواياتهم على سيرة عنتر . فقد قيل لى إنهم جميعا ينقلون القصص أحيانا من « سيرة المجاهدين » ؛ وتسمى عادة « سيرة دلهمة » أو « ذو الهمة » (١) ، وهو اسم لبطل القصة . ومنذ سنوات مضت ، كثرت رواية هؤلاء لقصة « سيف بن ذى زن » (ويسمى العامة « سيف البن » و « سيف اليزل ») ، وهو كتاب جامع لقصص مدهشة ؛ كما أنهم يقصون قصص ألف ليلة وليلة . وأعتقد أن ترك الرواة لهذين الكتابين يرجع إلى ندرة النسخ ، التى يصعب الحصول على أجزاء منها أيضاً ؛ فالنسخة الكاملة من ألف ليلة وليلة ، إذا وجدت ، تباع بثمان باهظ ، ليس فى طاقة الراوى أن يدفعه .

(١) من الواضح أن هذا الاسم ، لكونه مذكراً ، تحريف للاسم السابق . وتذكر أقدم الأقسام من الأجزاء التى أملكها هذا الاسم هكذا : دلهمة . ويبدو أن هذه الأقسام يرجع إلى ثلاثة قرون على الأقل : أما الأجزاء الحديثة فتذكره هكذا : ذو الهمة .

وأشك في أن يكون اختيار الرواة لقصص أبي زيد والظاهر وعنتر وذى الهمة لأنها أفضل من ألف ليلة وليلة ، ولكن من المؤكد أن المصريين المحدثين لا يزال فيهم شعور بدوى ، فيبتهجون لسماع قصص العرب .

وإني أسرد للقارئ وصفاً مختصراً لبعض وقائع قصة دلهمة ، لأعطيه صورة من الكتب التي يستمد منها رواة القاهرة المحترفون مادتهم لتسليمة جمهور المستمعين الآن . وهذا الكتاب أندر من أى كتاب سابق . وقد قيل لى أنه كان ينسخ دائماً فى خمسة وخمسين جزءاً . وبعد البحث الطويل ، لم أنجح فى الحصول على غير قسم يشمل الأجزاء الثلاثة الأولى (ومجموعها ٣٠٢ صفحة) ، وقسم آخر يشمل الجزء السادس والأربعين والجزء السابع والأربعين . ولو لم يكن القسم السابق يقرأ أغلبه بصعوبة ، لقدم لنا نموذجاً حسناً للكتاب . ولذلك ، ولانشغالى الآن بأبحاث كثيرة أخرى لم أقرأ غير الجزء الأول . وأهم موضوعات هذا الكتاب ، حسب المقدمة ، وقائع البدو الحربية فى عهد الأمويين والعباسيين . وهو جامع لقصص وضعها مؤلفون مختلفون ، يذكر تسمية منهم ؛ غير أن أحداً منهم لا يعرف فى الوقت الحاضر ؛ وكذلك تاريخهم وعصرهم مجهولان ؛ ولكن أسلوب القصص يبين أنهم ليسوا من المتأخرين . ويتحدث العناترة والمحدثون عن هذا الكتاب فيقولون على العموم : عند ما وضع الأصمعى (ويسمونه بالدارج الأصمعى) تاريخ عنتر ^(١) ، أو جمعه ، أصبح كتابه ذلك مشهوراً للغاية ، وأثار ذكره لوقائع المحاربين العرب حماساً عظيماً أدى إلى الجد فى البحث عن قصص مماثلة ؛ ومن هنا جمعت « سيرة المجاهدين » أو « دلهمة » . وجامعها مجهول الآن ؛ وإذا كان الأخير لا يستطيع أن يجارى مؤلف سيرة عنتر فى الفصاحة ، فقد قرر أن يفوقه فى الإطالة . ولما كانت سيرة عنتر فى خمسة وأربعين جزءاً ، فقد جعل كتابه فى خمسة وخمسين جزءاً . وتحفل قصة دلهمة بالشعر ؛ ونظمها لا ينقصه الجمال ، ولا الأغلاط ؛ غير أن الأغلاط تنسب غالباً إلى الناسخين . وإني أورد هنا جزءاً مما قرأت يقدم لنا أحد أبطال القصة .

(١) وينظر العلماء على العموم إلى قصة عنتر نظرة ازدراء ، ويسخرون من قولهم إن

الأصمعى مؤلفها .

تبدأ القصة بذكر قبيلة بني كلاب ، وكانت تسكن الحجاز ، وأنها ، في عهد بني أمية ، فاقت قبائل العرب في القوة والشجاعة والقسري وغير ذلك من الفضائل البدوية . غير أن ولاية البادية كانت لبني سليم ، الذين كانوا يفخرون بهذا الامتياز ، ، ويتباهون بثروتهم . وكان الحارث زعيم بني كلاب ، فارس عصره . وكثيراً ما كان يغير على القبائل الأخرى للسلب . وفي إحدى غزواته أسرفقاة جميلة ، تسمى « الرباب » ، وتزوج بها . خملت منه ؛ وفي أثناء الحمل ، رأت في المنام ناراً تخرج منها ، وتحرق ملابسها . فاضطربت لهذه الرؤيا ، فقصتها على زوجها ؛ فتحير وتضايق وقام توأ يبحث عن معبر لتلك الرؤيا . وسرعان ما وجد شيخاً مسنكاً أخبره أن زوجه ستلد ولداً يحسن ذكره ويرزق بدوره ولداً يفوقه شهرة ، وإنها تكون عرضة للخطر عند ولادته . وأعاد الشيخ على الرباب ذكر النبوءة ، وكتب لها ، حسب طلبها ، حجاباً يربط إلى ذراع الولد اليمنى ، حالما يولد . وسجل الشيخ على الحجاب نسب الطفل . ولم يلبث الحارث أن مرض بعيد ذلك ، وسرعان ما توفي . فابتهج لوفاته عرب القبائل المجاورة ، الذين أخضعهم وأثار رعبهم ، وعزموا على سلب أملاكه تعويضاً لهم . وسمعت الرباب بذلك ، فقررت العودة إلى أهلها ؛ وحملت أحد عبيد زوجها على مرافقتها ؛ ورحلا ليلاً دون أن يعلم أحد بمزمها . وعند انتصاف الليل قربا من نخيم الأمير دارم . وهنا وسوس الشيطان للعبد ، فحاذبها عن الطريق ، وراودها بوقاحة عن نفسها . فرفضت غاضبة ؛ غير أن الرعب تملكها ، فأذاها الطلق في التو ؛ وفي هذه الحالة البائسة وضمت طفلها . فقامت إلى جدول قريب ، وغسلت الطفل ، ثم هيأت له من ذيل ثوبها لفافة ، وشدت الحجاب إلى ذراعه ، وضمته إلى صدرها . وكان العبد قد أثار الخيبة غضبه ؛ فما كادت تقوم بذلك ، حتى استل سيفه وأطاح رأسها . ثم فر هارباً بعد أن ثار لنفسه .

وقد رت الأقدار ، فحدث في ذلك الوقت أن زوجة الأمير دارم كانت قد وضعت طفلاً ميتاً . وفي الصباح ، خرج الأمير للصيد ، في حشد من قومه ، ليخفف من حزنه . فوصل إلى حيث كانت جثة الرباب ملقاة ، فلهجها ؛ وكان الولد لا يزال على صدرها يرضع ، وقد أرسلت العناية الإلهية سرباً من الجراد ،

من فصيلة الجندب ، لتظله . وعجب الأمير لهذا المشهد ، فقال لوزيره : « أنظر إلى هذه الصبية المقتولة ، وإلى هذا الولد في حجرها ، وإلى تلك الجنادب تظله ، وإلى الأم الميتة لا تزال تغذيه بلبنها ! وأيمان العرب ، إن لم تأتني بخبر تلك الفتاة ، وسبب قتلها ، لأضرب عنقك مثلها . » فأجاب الوزير : « يا ملك ، لا يعلم الغيب إلا الله تعالى ! أكنت معها ؟ أو هل أعرفها ! ولكن عدني بالأمان ، فأخبرك بما أرى . » فأعطاه الملك الأمان . فقال : اعلم يا ملك ، والله أعلم ، إن هذه الفتاة ابنة أحد الملوك ، فلما شبت عاشرها أحد العبيد ، فحملت منه هذا الطفل ؛ وعلم ذووها بالحادث ، فقتلوا . هذا هو رأي . » فصاح الملك : « أنت يا كلب العرب ! ما هذا الذي تقول مجحفاً بهذه الصبية ؟ بالله ! لو لم أعدك بالأمان ، لقتلك مجد السيف ! فلو كانت الفتاة افترقت هذه الجريمة ، لما غدت الطفل بلبنها بعد موتها ، ولما أرسل الله هذه الحشرات الطائرة تظلل الولد . » ثم أرسل في طلب امرأة لتغسل الحمة ، وتلفها في كفن ، ثم دفنها باحترام .

وأطلق على الولد ، بعد حادث الجراد ، اسم « جندب » . وأرسل الأمير دارم الولد إلى زوجه ، وأفهمها أن تربيته مثل ابنها . فظل في كنفها حتى بلغ سبع سنوات ، فأرسل إلى المدرسة ، وبقى بها حتى حفظ القرآن . وبلغ الولد مبلغ الرجال ، وأصبح فارساً لا يجارى : كان مثل الحنظل المر ، والحية ، والداهمة (١) .

وفي أحد الأيام ، رحل الأمير دارم ، يصحبه مائة فارس ، في غزوة للسلب ، حسب عادته . ولم يصادفه غنيمة طول رحلته ، فتقدم إلى أن وصل بلاد « الشمطاء » . وكانت امرأة ذات سعة وقوة وشجاعة ، يخشاها أبطال زمانها . فعزم دارم على غزوها . وعلمت الشمطاء بقدومه فسارعت إلى فرسها ، وتقدمت إلى لقائه هو وقومه . وظلت تقاتلهم ساعة ؛ فقتلت أكثرهم ، وحملت الباقين على الفرار ، ما عدا الأمير دارما ، فقد أسرته ، وقادته في قيوده ، ذليلاً مهاناً ، إلى حصنها . وعاد الفارون إلى قبائلهم ، وأخبروا قومهم بما حدث ، فاعتموا لذلك . وكان للأمير دارم عشرة أولاد . فخرجوا لنجدته معاً في جمع من تابعيهم ؛ غير أن

(١) وليست تلك الألفاظ قذفاً ، بل يعدها العرب ثناء .

الشمطاء أسرهم كلهم ، وقتلت أغلب تابعيهم . فلم ير جندب بداً من ملاقة هذه البطلة . فذهب بمفرده ، وما كان أحد من القبيلة غير حاضنته يعرفه . وكانت الشمطاء في أعلى حصنها ، فرأت فارساً يقترب ، وأدركت قوته من طريقة ركوبه . فأسرعت إلى فرسها ، وخرجت إلى الجندبة ؛ وزعقت عليه زعقة رددتها الصحراء ؛ غير أنه لم يبال بذلك . وتحدى كل منهما الآخر ، والتحما في قتال دام ساعة . وأخيراً نفذ رمح الجندبة في صدر الشمطاء ، وظهر طرفه اللامع من ظهرها ، فسقطت تنخبط في دماها . ورأى عبيدها الأربعون سيدهم مقتولة ، فهجموا هجمة واحدة على قاهرها ؛ ولكنه قذف بهم عن جيادهم ؛ ثم لامهم على خدمتهم امرأة ، وهم جميعاً رجال أقوياء ، ونصحهم بالاستسلام ؛ فاعترفوا به سيداً . وقسم الجندبة عليهم أملاك الشمطاء ، وأفرج عن مقبنيه وإخوته بالتبني ، وعاد معهم إلى القبيلة .

أذاع هذا العمل الباسل صيت الجندبة بين قبائل الصحراء جميعاً ؛ غير أنه أثار حسد الأمير دارم ، الذي لم يلبث أن طلب منه أن يرحل إلى ديار أخرى . فعاتبه الجندبة عتياً . وعندما أوشك الجندبة على الرحيل ، استأذنه الأمير دارم بفتح الحجاب المشدود إلى ذراعه ، وقراءة ما به . فأذن له بذلك ؛ وما كاد يقرأه ، حتى صرخ صرخة مدوية ؛ وأقبل قومه مستفسرين ، فقال لهم : « هذا الفتى هو ابن خصمكم الحارث الكلابي ، خذوه فاقتلوه » . غير أن الجندبة صم أن يحاربوه واحداً واحداً . وكان الأمير دارم أول من دعاه للمبارزة ؛ فأخذ يحقر من شأنه ، ويذكر خصومة أبيه لقبيلته ، وينذره يأخذ الثأر . فقال الجندبة : « يا عمي ، لقد عاملتني معاملة طيبة ، فلا تقدم عليها ؛ بل أتركني أرحل بسلام ؛ ولا تضيع خيراً فعملته . » غير أن دارما رد قائلاً : « لا تلجأ إلى الإطالة ، فقد عزمت على قتلك . » وعاد الجندبة ينصحه ، ويلاطفه ، ويذكره بفك أسره ، ثم أشهد الله عليه . وما كاد ينتهي من كلامه حتى حمل الأمير عليه . وأخذا يقاتلان ساعة ؛ ونفذ رمح الجندبة أخيراً في صدر دارم ، وخرج طرفه يلعب من ظهره . وعندما رأى أولاد دارم أباهم مقتولاً . هجموا على الجندبة ، فاستقبلهم كما تستقبل الأرض الجدياء المطر الرذاذ . فقتل اثنين منهم ، وهرب الباقون ،

وأخبروا أمهم بما حدث . فجاءت مكشوفة الرأس ، عارية الصدر ، تبكي إلى الجندبة . ورجته أن يعفو عن أولادها ، رحمة بها ، وتذكره بحضانتها وحبها له . فأصاخ إليها ، وأجابها أنه فعل ذلك مجبراً ، وأنه يعفو لأجل خاطرها . بعد ذلك ترك الجندبة حاضنته ، وانصرف بمفرده إلى حصن الشمطاء . فرآه العبيد ، فزحفوا لاستقباله ؛ فأخبرهم بما حدث ؛ وطلب منهم أن يرافقه بعضهم للبحث عن موطن أوفق ، حيث يستطيعون مهاجمة القوافل وسلبها . فأعلنوا جميعاً تأهبهم لرافقته ؛ فاقتار منهم نفران ، وترك الباقي في الحصن . وسافروا إلى أن هبطوا أرضاً فقراً ، لا زرع فيها ولا ماء ؛ وخشى العبيد أن يموتوا ظمأً ، فقامسروا على قتل الجندبة . ولكنه تنبه إلى تذرهم ، وفطن إلى قصدهم ، فمجل بالذهاب إلى بقعة تنص بالماء والمرعى ؛ فأقاموا بها للراحة . وراقبهم الجندبة حتى غلبهم النعاس ، فذبحهم جميعاً بسيفه ؛ ثم تابع سفره . وفي الصباح ورد وادياً نضر الحوشي ، كثير المرعى ، ملآن بالأشجار الشاهقة ، والجداول المتحدرة ، والطيور المغردة تسبح بحمد الله رب القدرة والخلود . ولح وسط الوادي خيمة بدوى ، وإلى جانبها رمح غمرز في الأرض ، وجواد شد إلى وتد . وشخص الأمير جندبة إلى الخيمة ؛ وفيما هو ينظر إليها ، خرج منها شخص أنيق الهيئة ، كامل السلاح ، قفز على حصانه ، وركض نحوه ، دون أن يفوه بكلمة ، ليمازله . فصاح الجندبة : « يا أخى ! إبدأ بالسلام قبل أن تضرب بالحسام ؛ فقتلك شيم الكرام . » فلم يرد عليه . وتعاركا حتى كسرت حراهما ، وفلت سيوفهما . وفي النهاية أمسك الجندبة بخصمه ورفعته عن جواده إلى الأرض . ولم يكذب يرفع سيفه ، حتى سمع خصمه يقول بصوت رقيق يشفى العليل : « رحمة بأسيرك ، يا بطل الدهر ! » فقال الجندبة : « أنت رجل أم امرأة ؟ » فأجابت : « إننى عذراء . » ثم نزع لثامها ^(١) ، وكشفت عن وجه مثل البدر . وعندما شاهد الجندبة جمال وجهها ، ورشاقة شكلها ، اعتراه الدهش وقهره الحب . فصاح : « يا سيدة الجميلات ، ونجم الصباح ، وحياة النفوس ! عرفني بسرك ، وأخبريني

(١) اللثام قطعة من الجوخ يغطي العربي بها أسفل وجهه ؛ وكثيراً ما يحول اللثام دون أن يعرفه عربي آخر يطلب ثأراً .

بحقيقة أمرك . » فأجابت : « يا بطل زماننا ! يا بطل الدهر والعصر ! هل أقص قصتي نثراً أم نظماً ؟ » فقال : « يا حسن دهرك ، ويا فريدة عصرك ! إنني لن أسمع منك غير الشعر . » فأنشدت تروى ما حدث لها . فأخبرته أنها ابنة الملك^(١) قابوس ، وأنها مارست ضروب النزال حتى طبقت شهرتها الآفاق ، وسارع إليها الخطاب ، فلم يفز بجبها أحد ، فأقسمت ألا يتزوجها غير بطل شجاع ينازلها ويقهرها . فبارزت الرجال وصرعهم ، وسميت بحق « قتالة الشجمان » غير أنها خشيت أخيراً أن يجبرها أبوها على الزواج بمن لا تحب ، فهربت إلى هذا المكان ، في صحبة من الفرسان ، تهاجم القوافل وتعيش من السلب . ثم جاء هو فأسرها وعفا عنها . وسألته أخيراً أن يتزوج بها ، وأن يرحل معها إلى ديارها . فذهب معها ؛ وسر أهلها بقدمهم ، وأضافوا الأمير جندبة ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع ، جمعت قتالة الشجمان في دارها أهل قبيلتها مع الجندبة ، وأعدت لهم مأدبة حضرها الكبير والصغير . وبعد تناول الطعام ، أخذ القوم في الحديث . فطلبوا من الجندبة أن يروي لهم قصته . فقص عليهم ما حدث له مع الأمير دارم . وكان المجلس يضم عشرة ؛ فروى تسعة منهم وقائعه الحربية . ثم طلبوا من العاشر ، وكان عبداً ، أن يروي قصته . فذكر لهم أنه كان يخدم الأمير الحارث ، وأنه قتل أرملة . ولم يكذب ينتهي من قصته ، حتى كان الأمير جندبة قد نفذ صبره ؛ فاستقل سيفه ، وأطاح برأس العبد صائحاً : « لقد تأرت من هذا العبد الخائن ! » وسحب الحاضرون سيوفهم ، وحدث هرج شديد . ولم تكن قتالة الشجمان موجودة حينئذ ، ولكنها سمعت الجلبة ، فجاءت تستفسر عن السبب ؛ فذكروا لها ما حدث ؛ وطلبوا أن تسلمهم الجندبة ليقبلوه . فأنجحت بهم جانباً ، وقالت لهم إن الجندبة أكل من طعامها ، فلا يمكنها أن تسلمه ، ولو سلبها شرفها ؛ ولكنها ستنصحه بالرحيل في الغد ، وعندما يفادر دارها ، يفعلون بها ما يشاءون . ثم ذهبت إليه وحذرت . ثم قالت : « لن تزوج الآن ، ولن ترحل عن هؤلاء القوم . » فقبل فرحاً . وتزوجا توأماً أمام الله ، ورحلا ليلاً ؛ وتابعا السفر حتى الصباح ، فحمدا الله على توفيقهما . وظلا على سفر أربعة أيام ، وفي اليوم الخامس وصلا إلى واد حافل بالشجر والفاكهة والطيور والجداول . وكان الليل قد انتصف . فلحقا شيئاً

(١) كانت العادة أن يلقب رئيس القبيلة القوية بالملك .

أبيض بين الأشجار ، فإذا به جواد أبيض مثل الكافور . وعندما أصبح الصباح رأوا نخيا به جياذ ، وجمال ، وخيم منصوبة ، وحراب مغروزة في الأرض ، وسرادق مقامة ؛ وبينها قوم كثيرون ، وفتيات يضربن على الدفوف . كان المكان ينقص بالتurf . وسار الجندبة وعروسه خلال هذا الوادى ، وقد زاد حبه لها ؛ وأخذوا يتجاذبان أطراف الحديث ، وكان حديثها يبهجه . وفي هذا الوقت ، اجترأت لأول مرة على سؤاله عن سبب قتله العبد ، وقد كان ضيفاً عليها . فقص عليها حريمته الحقة . ثم انتقلا إلى الحديث عن جمال الوادى ؛ ولم يلبثا أن رأيا غباراً كثيراً ثم فرساناً يركضون . فاستنتج الجندبة في الحال أن هؤلاء من قبيلة زوجه جاءوا يلاحقونه ؛ ولكنه كان مخطئاً . فقد قسم القوم أنفسهم أربعة أقسام وهاجموا الخيم من جهات مختلفة في وقت واحد . ولم يلبث عرب الخيم أن ملأوا الجو بنحيبهم وصياحهم مستنجدين . « يا عامر ! يا كلاب . » وعندما سمع الجندبة صراخهم صاح قائلاً : « هؤلاء القوم أولاد عمى ! » وهب في القوا لنجدتهم . وقامت زوجته إلى جانبه ، وانقضا معاً على العدو ، فيقتلان كل من يصادفهما من الفرسان ، ويسددان حراهما إلى صدور المشاة . وأثار غضبتهما ونجاحهما حمية القبيلة المغلوبة . فضموا صفوفهم ، وطردوا مهاجميهم ، وأعادوا ما غنم منهم . ثم رجعوا إلى الجندبة وسألوه من هو . فأجابهم ليس هذا وقت الأسئلة ، بل الراحة بعد القتال . فصحبوه معهم وانصرفوا للاستراحة . وبعد أن أخذوا قسطهم من الراحة والطعام ، روى لهم قصته . فطربوا لحديثه وصاحوا جميعاً : « لقد ظهر الحق ، وزهق الباطل ، ورد المدل إلى أهله والسيوف إلى غمده . » واعترفوا به في الحال رئيسهم الشرعى . غير أنهم كانوا قد بايعوا الأمير جابر بالأمانة بعد وفاة الحارث ؛ وكان الأمير جابر يكره الحارث ويسميه اللص ؛ فعارض في قرار قومه ، وطلب أن يفصل في الأمر بالمبارزة . والتقى الخصمان ، وانتهى النزاع بقتل جابر بالرغم من كونه فارساً شجاعاً . واستولى الجندبة على فرسه ، وقسم ما بقى على قبيلته . غير أنه كان لجابر حلفاء ، فلما رأوه مقتولا ، تألبوا عليه ؛ ولكنه ، بمساعدة فريقه ، هزمهم وشردهم . ثم عاد إلى قومه وأقاربه ، وجلس بينهم ؛ وقدم شيوخ القبيلة وبطونها إليه وإلى زوجته الهدايا المختلفة . ونادت به القبيلة جميعاً ، منذ ذلك اليوم ، أمير بني كلاب .

الفصل الرابع والعشرين

الأعياد الدورية العامة ، الخ .

يشاهد المرء ، في الأعياد الدورية العامة ، عادات شتى من أكثر عادات المصريين المحدثين اعتباراً ؛ وسأصف هنا أهم تلك العادات . ويقام أكثر الأعياد وغيرها من الموالد في أوقات خاصة من السنة الهجرية .

تعتبر الأيام العشرة الأوائل من شهر المحرم مباركة للغاية ، ويحتفل بها احتفال بهيج ؛ ويقدس اليوم العاشر خاصة . ويسمى العامة تلك الأيام « العشر » ؛ وسأبين اشتقاق هذا اللفظ فيما بعد . وقد سبق أن ذكرت في الفصل الثاني من فصلي الخرافات عادة بيع الميعة المباركة أثناء الأيام العشرة ، فتستعمل في العام التالي لمنع الحسد كلما لزم الأمر كما ذكرت أن المصريين يتشاءمون من عقد الزواج في شهر المحرم .

ومن العادات الشائعة أن يتصدق المصريون المسلمون بما في طاقتهم طول شهر المحرم ؛ وهم يتصدقون خاصة في الأيام العشرة ، وعلى الأخص في اليوم العاشر . (١) ويدعى كثير منهم أنهم يؤدون الزكاة في هذا الموسم ، وقل من يفعل ذلك حقاً ؛ فهم لا يتقيدون بغير إرادتهم ، يمطون من يشاءون ما يشاءون . ويمد كثير من نساء القاهرة ، ومن هن من طبقة متوسطة أيضاً ، في الأيام العشرة ، وعلى الأخص في اليوم العاشر ، إلى حمل أطفالهن على الكتف ، أو استخدام امرأ أخرى لذلك ، والسير في الشوارع يستطعن من يصادفن من المهندمين . وتسأل الأم أو حاملة الطفل تارة ، والطفل نفسه تارة أخرى ،

(١) يبدو أن تلك العادة نقلت عن اليهود الذين تعودوا التصدق وعمل الخير أثناء الأيام العشرة ، التي تبدأ برأس السنة الجديدة وتنتهي بيوم الاستغفار ، أكثر من أى يوم آخر . — أنظر Old Paths لمؤلفه Dr ' M ' Caul ص ١٢٥ ، ١٢٩ .

بهذا القول : « يا سيدي ، زكاة العشر . » ويعنى لفظ « العشر » عند العامة « الأيام العشرة » ؛ غير أنى أظن أنه يعنى « الليالى العشر » ؛ ولو أنى أخبرت أنه تحريف لكلمة « العشر » ، وتستعمل هنا استعمالاً غير دقيق للدلالة على « ربع العشر » (واحد على أربعين) ، وهذا هو ما يفرضه الشرع على المسلم زكاة على أمواله من النقد وبعض المتاع . ويمنح الطفل عادة فى الحالة السابقة قطعة خمس فضة ؛ فيشتري بما يناله حلوى أحياناً ، غير أن المعتاد أن تعتبر تلك النقود حرزاً ، فتخاط فى طاقية الطفل ، ويحملها هكذا إلى الحرم التالى . وتكرر تلك العادة سنوياً حتى يبلغ الطفل سنّاً كبيرة .

يراعى المصريين ، وخاصة القاهريات ، خرافات غريبة خاصة بالأيام العشرة من الحرم . فيعتقدن أن الجن يزورون بعض الناس ليلاً ، فيظهرون لهم على هيئة سقاء أحياناً ، وعلى شكل بغل أحياناً أخرى . ويطلق عليه فى الحالة الأولى « سقا العشر » وفى الحالة الأخرى « بغلة العشر » . وعندما يحضر الجنى فى زى السقاء ، يطرق باب غرفة النائم ، فيسأل هذا : « من بالباب » فيجيبه الجنى : « أنا السقاء . أين أفرغ (القربة) ؟ » وإذا كان السقاء لا يحضر ليلاً ، فإنه يعرف شخص زائره ، فيقول : « أفرغ فى الجرة » . وعندما يخرج بعد ذلك ، يحد الجرة ملأى بالذهب . أما الجنى الذى يأتى فى صورة البغل فيوصف بطريقة تستحق الذكر . يحمل على ظهره خرّجاً ملأ بالذهب وجمجمة ، ويملق فى عنقه خيطاً به أجراس صغيرة مستديرة يحركها عند باب غرفة الشخص الذى قدم ليغنيه . فيخرج هذا ويأخذ الجمجمة ، ويفرغ الخرج ، ثم يملأه تبنّاً أو نخالة أو غير ذلك ، ثم يضمهما ثانياً عل ظهر البغلة ، ويقول : « اذهب يا مبارك . » — تلك هى الطرق التى يتبعها خيار الجن لدفع الزكاة . وكثيراً ما تسمع النساء الجاهلات يصحن : يا رب « ابعث لى سقاء العشر » أو « ابعث لى بغلة العشر » . ويسخر الرجال على العموم من هذه الخرافات .

ويقول بعض القاهريين إن هناك جماعة من الجن يظهرون فى هيئة الأنس وبملابسهم ، ويقيمون فى منتصف الليل ، طول الأيام العشرة ، سوقاً فى شارع الصليبية ، جنوب العاصمة ، أمام ناووس قديم ، يسمى « الحوض المرصود » .

وكان هذا النواوس في كوة تحت درجات تصعد إلى باب مسجد يجاور القصر القديم المسمى قلعة الكباش . وقد نقله الفرنسيون أثناء احتلالهم مصر ، وهو الآن بالمتحف البريطاني . ويقال إن سوق الجن لم يعد يقام منذ أن نقل النواوس . وقيل لى إنه لم يكن يعلم بتلك العادة غير نفر قليل . وكان كل من يصادفه الحظ فيمر بسوق الجن ويشتري شيئاً من الفاكهة أو الكمك أو الخبز الخ ، يرى ما اشتراه قد تحول إلى ذهب في الحال .

يسمى اليوم العاشر من الحرم « يوم عاشوراء » . ويقدر المسلمون هذا اليوم لمدة اعتبارات منها أنهم يعتقدون أنه اليوم الذى تقابل فيه آدم وحواء لأول مرة بعد طردهما من الجنة ، والذى خرج فيه نوح من سفينته ؛ ولأن أحداثاً عظيمة أخرى وقعت في ذلك اليوم حسب قولهم ؛ ولأن عرب الجاهلية كانوا يصومون فيه . غير أن الذى يخلع على يوم عاشوراء قدسيته العظيمة ، فى رأى المسلمين المحدثين ، والفرس خاصة ، هو أنه يوم استشهاد الحسين فى موقعة كربلاء . ويصوم كثير من المسلمين ذلك اليوم ؛ ويصوم البعض اليوم السابق أيضاً .

ولما كنت أكتب الآن فى يوم عاشوراء ، فإنى أذكر العادات الخاصة به التى شاهدها فى هذه المناسبة . — كان على أن أزود نفسى بقطع من الخمس فضة قبل أن أخرج هذا اليوم لاعطاء صدقة العشر السابق ذكرها . وقد رأيت فى شوارع القاهرة ، الأطفال ، بين سن الثالثة والسابعة ، وأكثرتهم فتيات ، يسرون فرادى أو اثنين أو ثلاثة ، أو يحملهم نساء ، ويسألون الناس صدقة العشر — فى غضون النهار وقف أمام دارى بمض الفقراء الضرار ، وحمل أحدهم علماً أحمر ، طرز عليه بالأبيض أسماء الحسين وآخرين من أهل الفضل ، وأنشدوا دعاء للصدقة فبدأ أحدهم قائلاً : « يا صاحب الصدقة تمنحها يوم عاشوراء المبارك » فيتم الآخرون قائلين معاً : « حبتين قح ! حبتين أرز ! يا حسن ! يا حسين ! » يكررون الكلام نفسه مراراً . وحينما يتناولون قطعة نقدية صغيرة ينصرفون إلى دور أخرى عليها مظاهر الثراء ، فينشدون أمامها الدعاء نفسه . ويتجول فرق كثيرة من الفقراء فى أحياء المدينة المختلفة ، أثناء هذا اليوم ، متسولين بالطريقة نفسها

كنت في زيارة صديق لي ، قبيل الظهر ، فقدم إلى طبقاً يجهز عادة في يوم عاشوراء ، ويسمى «حبوباً» . ويعد «الحبوب» من القمح الذي ينقع في الماء يومين أو ثلاثة أيام ، ثم يقشر ، وينفلى ، ويحلى فوق النار بالمسل ؛ وقد يستبدل الأرز بالقمح ؛ ويضاف إليه على العموم الجوز واللوز والزبيب الخ . ويهياً هذا الطبق ، أو يقتنى حلوى مختلفة الأصناف ، تبعاً لسنة الرسول (صلم) .

وبعد آذان الظهر ، ذهبت إلى مسجد الحسين ، وهو المدفن المشهور لرأس الحسين ؛ وهو لذلك مسرح لأكثر الاحتفالات اعتباراً التي تميز يوم عاشوراء في القاهرة . وتنص السبل المؤدية إلى هذا المسجد بالناس ، بالقرب من بيت القاضي . وقد رأيت جماعات كثيرة من الغوازي ، يرقص بعضهم ، ويجلس غيرهن حلقة يتناولن المشاء في الشارع ، ويدعون كل وجيه إلى مشاركتهم الطعام ، بقولهن : باسم الله . وقد اعترضت إحداهن طريقى لأعطيتها منحة . وأولئك يتوخين الإغراء بأعداد ملابسهن لتبرز محاسن أجسامهن ؛ وما كان رؤية هؤلاء الفتيات السافرات ، وبعضهن جميلات جداً ، غير سوء تقدير تهمة من يمر بهن من الرجال لمشاهدة الحفلات الدينية . وفي طريقى إلى المسجد ، سنحت لى الفرصة لأتخلص من بعض النقود الصغيرة التي حملتها معى لأوزعها على الأطفال . وكانت الفرصة التالية عند وصولى إلى المسجد ، فقد أحاط بى جمع من السقائين من تلك الطبقة التي توزع الماء على عابرى السبيل . فأعطيت اثنين منهم عشرين فضة ليوزع كل منهما ما يحملان من ماء على المارين الفقراء ، إكراماً لسيدنا الحسين . وقد ذكرت هذه العادة في الفصل الخاص بالصناعة .

ولما دخلت المسجد دهشت كثيراً للمنظر القائم بالرواق الكبير . فقد كان مزدحماً بالزائرين ، وأغلبهن نساء من الطبقتين الوسطى والدنيا ، يصحبهن أطفال كثيرون ؛ وكان يسوده لغطيشبه ما نسمع في المدارس حين يأخذ مئات الأولاد في اللعب . وكنت ترى ، وسط هذا الضجيج ، بين صراخ الأطفال وبكائهم ، ونداء الرجال والنساء بعضهم بعضاً ، النساء وأطفالهن يلحون على الرجال المحترمين سائلين صدقة العشر . وقبلما شاهدت منظرأ يخالف ما يحدث داخل مسجد على العموم ؛ وقد زادت دهشتى في ذلك اليوم ، إذ أن مسجد الحسين أقدس

مساجد القاهرة وكانت الحصر التي تفرش فوق البلاط عادة مرفوعة ، واستبدل بها حصر قديمة لا تغطي الأرضية جميعاً . فعلاها الغبار والوسخ العالق بأقدام كثير من الحفاة . ولما كانت الصلاة يستحيل إقامتها في هذه المناسبة ، فقد كان الناس يدخلون المسجد بلا وضوء ، وبدون أن يمرروا بالمياضة أولاً ، مع أن كل من دخل المسجد كان يخضع لحذاءه حسب العادة ، والكثير منهم كان يتركه عند الحارس وكان هناك أطفال لا يدركون لصغر سنهم قدسية المكان ، فبلت مواضع كثيرة من أرضية المسجد . ومع أني تحاشيت هذه الأماكن ، لم تلبث قدماي أن اسودتا من الوسخ الذي دست عليه ومن أقدام الذين داسوا عليّ . وكان الحر علاوة على ذلك مرهقاً يزيد على حرارة الحمامات البخارية ثقلاً ، بالرغم من وجود ملقف كبير في السقف . وكان المسجد بأرجائه يغص بالنساء ، ولست أدري لذلك سبباً غير أنهن أكثر تمسكاً بالخرافات ، وأنهن يحملن احتراماً عظيماً ليوم عاشوراء ورغبة شديدة في تكريم الحسين بزيارة مقامه في هذا اليوم .

ويقول أهل القاهرة عادة : إنه ما من رجل يذهب إلى مسجد الحسين يوم عاشوراء إلا لأجل النساء فيُدفع في حشدهن ، وينعم بذلك إلى أقصى رغباته ؛ وقد عرفت ذلك بالتجربة عندما تقدمت لمشاهدة الحفلات الدينية التي تكون ، علاوة على قداسة اليوم ، عاملاً في جذب مثل هؤلاء الأسراب من الناس . وكان هناك ما يقرب من خمسين درويشاً من فرق مختلفة يجلسون على صفين متقابلين جانب الخائط الخلق على يمين المنبر . ولم يكن أحد يقوم بالذكر غير درويش مسن يقف بين الصفين ، فتقدمت إلى الإمام لمشاهدتهم ؟ فوجدت نفسي في موقف يبدو غريباً في بلد يعقبه رمل الرجل امرأة غير زوجه أوجاريتها أو قريبته غير لائق . وكنت محصوراً بين نساء أربع حتى أنني ظلمت بضع دقائق عاجزاً عن الحركة في أي اتجاه . وكان الحشد يدفعني بشدة نحو امرأة شابة ، فكادت وجناتنا تتماس لولا النقب . وكان يبدو من لها أن موقفها لم يكن سهلاً ، وإن بدت عيناها النجلاوان تبتهان مبرتين عن تسليمها . ولكنها لم تتحمل ذلك طويلاً فلبثت أن صاحت : « يا عيني ^(١) ! لا تكبسي عليّ بشدة هكذا » . بينما صاحت امرأة

(١) وهو تعبير دارج يدل على المحبة ويعني : أنت يا من تغز على مثل عيني .

أخرى تقول لى : « يا أفندى ! ورأسك ! تقدم إلى الإمام ، وافسح لى طريقاً فأنبعك » . وبعد لأى توصلت إلى المكان المقصود ؛ غير أنى كدت أفقد سيفى وكى سترتى المتدلين ؛ فقد علق مقبض سيفى بملابس البعض ، فشُد النصل من غمده تقريباً قبل أن أستطيع أن أمسك به . وكنت أتصعب عرقاً مثل جميع من كانوا حولى .

وقد تبين لى أن الدراويش الموجودين ينتمون إلى بلدان ونحل مختلفة . كان بعضهم يلبس العمامة والملابس المصرية العادية ؛ ويلبس آخرون القاوق التركي ؛ وآخرون عمام عالية ، أو طرايطر على هيئة قالب السكر . وكان أحدهم يلبس طرطوراً أبيض ، قد طرز عليه بحروف سوداء أدعية للخلفاء الراشدين ، وللهجن والحسين وغيرهم من الأولياء المشهورين مؤسسى طوائف الدراويش ^(١) . وكان أكثر الدراويش مصريين ؛ ولكن كان بينهم كثير من الأتراك والفرس . ولم ألبث طويلاً حتى بدأوا رياضتهم . قام كثير منهم أولاً بدفع الجمهور المحتشد إلى الورا ، غير أنى لم أتحرك من مكانى إذ لم يقترب منى أحد . وقبل أن أعلم بما يوشك الدراويش أن يفعلوا ، وجدت نفسى وسط حلقة كبيرة من أربعين منهم وشعرت لحظة أنى أكاد أميل إلى البقاء حيث كنت والقيام بالذكر معهم ؛ غير أنى فكرت فيما أعرض له إذا اكتشفوا أنى لست منهم ، فقررت الخروج من الحلقة . وأخذ الدراويش فى الذكر



شكل (٧٥) درويش من طائفة المولوية

فكانوا يرددون اسم الله على التواتر ، ويحنون فى كل مرة رؤوسهم وأجسامهم ويخطون خطوة على اليمين فتلف الحلقة كلها بسرعة . وحالدا أخذوا فى الذكر ، بدأ درويش تركى من طائفة المولوية يدور حول نفسه وسط الحلقة ، وهو يعمل برجليه معاً ، ويداه ممدودتان ، ويسرع فى حركته حتى تنتشر ملابسه مثل المظلة

(١) وكانت هذه الكلمات كما يلى : يا أبا بكر ، يا عمر ، يا عثمان ، يا على ، يا حسن ، يا حسين ، يا سيد أحمد رفاعى ، يا سيد عبد القادر الجيلانى ، يا سيد أحمد البدوى ، يا سيد ابراهيم الدسوقى .

شكل (٧٥) . وظل يدور هكذا حوالى عشر دقائق ، ثم انحنى أمام شيخه الجالس داخل الحلقة الكبيرة ، ثم انضم إلى الدراويش الذين كانوا قد بدأوا يذكرون اسم الله بقوة متزايدة ، ويقفزون إلى اليمين بدلا من الخطو ، دون أن يُظهر أى تعب أو ترخ . بعد ذلك قام سبعة دراويش بعمل حلقة داخل الحلقة الكبيرة ، وكل منهم قد وضع ذراعيه على كتفى جاريه ، ثم أخذوا فى الذكر بسرعة أشد . وقد ظلوا هكذا حوالى عشر دقائق ثم جلسوا للراحة وبعد ربع ساعة نهضوا للذكر مرة ثانية . ولم أر بعد ذلك شيئا يستحق الذكر غير فقيرين يرقصان ، ويرددان اسم الله ، ويضرب كل منهما طاراً . وقد أخبرني أحد الواقفين بجانبى أنهما من المجاذيب .

كانت رغبتى أن أزور مشهد الحسين فى هذا اليوم ، وأن أتبين ما يجرى هناك من احتفالات لهذه المناسبة ؛ فشقت لنفسى طريقاً وسط الحشد إلى باب المقصورة ، فما وجدت هناك غير جماعة قليلة نسبياً ، وعند دخولى قادنى أحد خدم المسجد إلى ركن غير مشغول من الستر البرونزى المحيط بالمقام ، فوق المكان الذى يقال إن رأس الشهيد به . ليمكننى أن أقرأ الفاتحة . وبعد أن انتهيت من ذلك لقننى الدعاء القالى ، وكان يتوقف بعد كل كلمتين أو ثلاث كلمات لأردها بعده ، وقد تظاهرت بعمل ذلك ؛ بينما كان جارى إلى اليسار يقول عند كل وقفة : آمين ؛ وهذا هو دعاؤه : يا رب ! اقبل زيارتى ، وحقق مطلبى ، واجعلنى أبلغ مرامى ؛ فقد جئت عن رغبة وقصد ، وإنى أسوق إليك السبدة زينب والإمام الشافعى والسلطان أبا السعود ^(١) . وأضاف بعد ذلك كلاماً مماثلاً بالتركية ؛ ظناً أننى تركى وأنى قد أكون جاهلاً باللغة العربية ، وكثيراً ما لقنت هذا الدعاء القصير عند قبور الأولياء بالقاهرة فى أيام الأعياد . وقبل أن أقوم بالدوران حول المقصورة المحيطة بالمقام أعطيت من لقننى الدعاء قطعة صغيرة من النقد ، فأهدى إلى يدوره أربع كرات صغيرة من الخبز ، كل منها فى حجم البندقة تقريباً . وكان من الخبز المنذور المجهز

(١) كان أبو السعود ولياً مشهوراً وكان يعتبر أقدس أهل أيامه فأطلقوا عليه لقب « سلطان » الذى كان يطلق على أولياء كثيرين غيره . ويعنى هنا « ملك الأولياء » . وتقع مقبرة أبى السعود بين تلال السقط جنوب القاهرة .

من الدقيق الناعم عند قبر السيد أحمد البدوى ، وأحضر إلى هذا المكان ، كما يحضر إلى عدة مقامات للأولياء بالقاهرة عند إقامة الأعياد العامة ؛ ليقدم إلى أفاضل الزائرين . ويسمى « عيش السيد البدوى » ويحتفظ كثير من المصريين بكرة من ذلك الخبز في جيوبهم حرزاً ، ويأكله الغير دواء ناجماً يبقى من الأمراض .

تصل قافلة الحجاج المصريين القاهرة في أواخر شهر صفر على العموم . ولذلك يسمى العامة هذا الشهر « نزلة الحجاج » . ويصل كثير من الحجاج قبل القافلة عن طريق البحر الأحمر . وتصل قافلة الحجاج التجار بعد كل هؤلاء .

ويصل « جاويز الحج » قبل القافلة بأربعة أيام أو خمسة راكباً هجيناً سريعاً ويصحبه عربان ، وهو يسرع ليعلم نباء قرب « الحج » (١) واليوم المنتظر لوصولهم العاصمة ، وليحمل رسائل الحجاج إلى أصدقائهم . ويصبح الجاويز وزميله طول الطريق : « الصلاة على النبى ! » أو « صل على النبى ! » فيرد من يسمعه من المسلمين : « اللهم صل عليه ؟ » ، ويتقدمون مباشرة إلى القلعة لحمل الأخبار إلى الباشا أو نائبه . ويقسم الجاويز الرسائل إلى رزم يليمها إلى نفر يتولون توزيعها ؛ فيتناولون الهدايا من المرسل إليهم ؛ وقد يخسر هؤلاء في هذه الصفقة أما الرسائل الموجهة إلى المظاء والأغنياء فيحتفظ الجاويز بتوزيعها لنفسه ، فيحصل منهم على منحة نقدية أو شال الخ .

ويخرج بعض الناس إلى مقابلة أصدقائهم العائدين من الحج على مسيرة يومين أو ثلاثة ، فيحملون معهم مؤناً طازجة وفاكهة الخ . وملابس للحجاج المتعبين ويندر أن يذهب الفقراء إلى أبعد من بركة الحاج (على بعد أحد عشر ميلاً تقريباً من العاصمة) حيث تمضى القافلة الليلة السابقة على ليلة دخولها العاصمة . وقد يذهبون إلى آخر محط للقافلة فحسب . ويأخذ هؤلاء للحجاج عادة طعاماً وافرأ ، وملابس نظيفة ، إن لم تكن جديدة ، ويحضرون لهم الحمير عوضاً عن الجمال المنهكة . ويخرج كثيرون لتكريم أصدقائهم بالموسيقى . ومن المؤثر أن تشاهد ، عند اقتراب القافلة ، الجماعات العديدة تخرج بالطبول والزمامير للترحيب بأصدقائهم القادمين من الأماكن المقدسة ، ولمرافقتهم إلى المدينة ؛ وكمنهم خرج يحذوه

(١) ويستعمل لفظ « الحج » للجمع والمفرد معاً فيطلق على القافلة جميعاً وعلى الشخص بمفرده

الأمل فيعود باكياً وقد زايله البهجة والطرب . فالسفر الشاق خلال الصحراء يهلك كثيراً من الحجاج الذين يعجزون عن وسائل الراحة اللازمة . ويبلغ كثيراً من النساء اللاتي يذهبن لاستقبال أزواجهن أو أولادهن أخبار محزنة بهلا كهن جوعاً وإعياء . فيملأن الجو عند أوتنهن بصراخهن النافذ الذي يعلو على صوت الطبول وألحان الزمار الحادة المعبرة عن فرح الآخرين . وكثيراً ما يدنو بعض العابرين من الحجاج عند عودتهم متوسلين الداء لهم بالمغفرة . فيدعون لهم . وترجع هذه العادة إلى قول الرسول إن الله يغفر للحجاج ولمن يدعو له الحاج بالمغفرة وإني أكتب ما يلي من نزلة الحاج عقب مشاهدته مباشرة في عام ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) — وصلت القافلة إلى آخر محط لها : الحصوة ، وهو موضع من الصحراء كثير الحصو ، بالقرب من ضاحية القاهرة الشمالية ، في الليلة السابقة ، عشية الرابع من ربيع الأول ، وغادر بعض الحجاج القافلة إلى العاصمة بعد غروب الشمس . ودخلت القافلة هذا الصباح ، الرابع من الشهر . وكنت خارج الأسوار بعيد الشروق وقبل أن تقترب القافلة ؛ غير أني قابلت نفراً من الحجاج لم يطبقوا الانتظار ، وقد ركبوا الحمير يتقدمهم الموسيقيون أو حاملو البيارق ، ويتبعهم نساء يغنين . وصادفت أيضاً جماعات عديدة من النساء كن خرجن يستخرجن عن أقاربهن ، وكن عائدت بالصراخ والنحيب . ويبدو بكاء أولئك أقرب إلى الطبيعة وأعمق شعوراً مما يسمع في الجنائز . وربما كان النحيب هذا العام أكثر منه في العادة ، إذ أنه علاوة على كثرة الأموات ، قد جند للجيش ألف رجل . وبمد الشروق بساعتين ونصف تقريباً ، أخذت القافلة تقترب من أبواب العاصمة في صفوف ثلاثة ؛ اتجه أحدها إلى باب النصر ، والثاني إلى باب الفتوح ، والثالث إلى باب العدوى . وكانت القافلة هذا العام أكثر عدداً (مع أن كثيراً من الحجاج سافر بطريق البحر) ؛ وكانت تتضمن نسبة غير عادية من النساء ، بسبب تجنيد كثير من الرجال . وكانت القافلة بصفوفها الثلاثة تسير قطاراً متصلاً من الجمال ، متقدمة واحداً واحداً ، وأحياناً اثنين معاً ، وقلما كان يقطع هذا النسق في بعض مواضع . وكان كثير من الحجاج قد نزلوا عن الجمال ، استبدلوا بها الحمير المريحة سائرين إلى جانب جمالهم . وكان الكثير من هؤلاء يرافقهم موسيقيون ، ويصحب البعض حاملو البيارق .

يسمى أكثر أنواع الهودج شيوعاً في الحج « مسطح » أو « حمل مسطح » وهو يشبه الخيمة المربعة الصغيرة ، ويتكون على الأخص من صندوقين طويلين ، لكل منهما ظهر مرتفع ؛ ويوضع الصندوقان فوق الجمل ، واحد في كل ناحية ، ويسند ظهرا الصندوقين ، وموضعهما إلى الخارج ، وقضيب صغير مستقر على عدة الجمل ، عطاء الهودج . وتتسع هذه الركوبة لشخصين . وتفتح من الأمام على العموم وقد تفتح من الخلف أيضاً . وقد تبدو وسيلة النقل تلك مريحة ، غير أن الحركة لا تريح المسافر ، وخاصة إذا كان الجمل يستخدم عادة لنقل الأحمال الثقيلة ، فيترجح في مشيته . غير أنه يختار للهودج على العموم جمال ذوات خطوات مريحة . وهناك نوع من السرر يسمى « شبرية » يتكون من سطح مربع صغير وغطاء مقوس . وهو لا يتسع لأكثر من شخص واحد . وهو يوضع على ظهر الجمل مستنداً على « سحارتين » (صندوقان مربعان) على جانبي الجمل . وأكثر أنواع الهودج راحة « التختروان » ويحملة عادة جملان ، أحدهما في المقدمة والآخر في الخلف . وتثنى رأس الأخير بطريقة مؤلفة تحت التختروان . وقد يحمل هذا السرير أربعة بغال ، فتكون حركته في هذه الحالة هينة . ويستطيع شخصان خفيفان السفر فيه . وللتختروان على العموم مشربية بارزة صغيرة من الخشب المشبك في الصدر والخلف ، حيث يوضع قلة ماء أو أكثر .

تقدمت إلى الميدان الذي نزلت به القافلة الليلة الماضية . وقد مررت في الطريق نصف القافلة تقريباً ؛ وقد استغرقت المسافة من الضاحية إلى هذا المكان ما يزيد على نصف ساعة سيراً بطيئاً . وبعد نصف ساعة أخرى كانت القافلة جميعاً تقريباً قد غادرت المعسكر (١) .

وقد اهتمت كثيراً بمنظر لقاء الزوجات والإخوة والأخوات والأطفال للحجاج ؛ غير أنني كرهت أحد الحجاج ، كان يلبس اسمالاً ، ويجلس على قطعة من سجادة قديمة ، حينما قدمت زوجته أو أخته تصيب عرقاً تحت حمل صرة ملابس كبيرة ، وقبلته بحرارة على وجنتيه ؛ فلم ينهض للقائها ، وألقى عليها بعض أسئلة جافة فقط . — وكان أمير الحج وضباطه وجنوده الخ . ممسكين بعيداً عن

(١) ولو كنت وقت مكاني لانقضى أكثر من ساعتين قبل أن يمر بي الحجاج جميعاً .

بقية القافلة . وكان بالقرب من خيمة أمير الحج ربح طويل مغروز في الأرض ، كما كان بجانبها أيضاً « الحمل » أو « المحمل » (١) قائماً بستره السفر المصنوعة من نسيج القلاع والمديجة ببعض النقوش .

ويجب كثير من الحاجاج هدايا من « الأرض المقدسة » : ماء بئر زمزم المقدس في قوارير من الصيني أو قناني من القصدير أو النحاس ، وقطعاً من « كسوة » الكعبة التي تجدد في موسم الحج ، وتراباً من قبر الرسول على هيئة كعك جاف ، و « لباناً » و « ليفاً » من النخيل للاستحمام ، كما نستعمل نحن الأسفنج وأمشاطاً من عود الند ، و « سبجاً » من المادة نفسها أو من غيرها ، ومساويك غمست في ماء زمزم لتكون مقبولة ، وكحلاً ، وشيلاناً ، الخ ، وأشياء مختلفة من الهند .

والعادة أن يزين مدخل بيت الحاج قبل قدومه بيوم أو أكثر ، فيصبغ الباب وتطلى واجهة البيت بالمرّة والكلس على التعاقب ، أو بطريقة مشابهة ، بخطوط أفقية عريضة بالأحمر والأبيض ، إذا كانت من الآجر . وكثيراً ما يرسم أيضاً أشجار وجمال الخ بطريقة بدائية ، بالأخضر والأسود والأحمر وألوان أخرى . وقد يكتب الحاج موصياً بعمل ذلك . ويولم الحاج لأصدقائه ، مساء قدومه « وليمة النزلة » . ويحضر كثير من الضيوف للترحيب به ، ولسؤاله الدعاء لهم بالغفران . ويمكث الحاج بمنزله أسبوعاً بعد وصوله على العموم . وفي اليوم السابع يولم وليمة أخرى تسمى « وليمة السبوع » . ويظل السمر اليوم بأكمله ؛ ويقام في المساء عادة خاتمة أو حفلة ذكر .

وفي صباح اليوم التالي لدخول القافلة العاصمة ، يشاهد المرء منظرًا آخر ، هو عودة الحمل . فينتقل الحمل في موكب من الحصوة إلى القلعة ، مخترقاً العاصمة . ولا ينظم هذا الموكب دائماً بالنظام نفسه تماماً . وسأصفه كما شاهدته اليوم . أبدأ بوصف الحمل نفسه . فهو إطار مربع من الخشب ، هرمي القمة ؛ له ستر من الديباج الأسود ، عليه كتابة وزخارف مطرزة تطريزاً فاخراً بالذهب ، على أرضية

(١) واللفظ الأخير هو الأصح ، ولكنه يسمى عادة محملاً ، ولفظ محل صحيح أيضاً ولكنه غير مستعمل .

من الحرير الأخضر أو الأحمر في بعض الأجزاء ، ويحده هدية حريرية ، وشراريب يعلوها كرات فضية . وزخرفة الستر لا تكون دائماً على النموذج نفسه . غير أنني لاحظت أن كل ستر رأيتُه يحمل في قسمه الأعلى من الصدر منظاراً لمسجد مكة



(شكل ٧٦ المحمل)

مطرزاً بالذهب ، وبعلوه طفرأ السلطان . والحمل لا يحوى شيئاً ؛ غير أن هناك مصحفين صغيرين ، أحدهما قرطاس ملفوف ، والآخر كتاب عادي ، داخل صندوقين من الفضة المذهبة ، يعلقان خارج المحمل في القمة . وبين الرسم الذي نشرته هنا هذا الوصف (شكل ٧٦) . وتكون الكرات الخمس وأهلتها ، التي تزين المحمل ، من الفضة المذهبة . ويحمل المحمل على جمل طويل جميل . وينعم هذا الجمل على العموم بإعفائه من العمل بقية حياته . ويحكى أن السلطان الظاهر

بيبرس ، ملك مصر ، كان أول من أرسل محملاً مع قافلة

الحجاج إلى مكة ، عام ٦٧٠ هـ (١٢٧٢ م) أو ٦٧٥ ؛ غير أن هذه العادة ، كما يقال على العموم ، ترجع إلى بعض سنوات قبل اعتلائه العرش . فقد أدت « شجرة الدر » الحجاج في هودج فاخر يحمله جمل . وظل هودجها يرسل خالياً مع القافلة عدة سنوات متوالية للأبهة فحسب . وكانت « شجرة الدر » جارية تركية حسناء ، فأصبحت الزوجة المحظية للسلطان الصالح نجم الدين ، وجملت نفسها عند وفاة ولده ، آخر سلالة الأيوبيين ، معترفاً بها ملكة على مصر . ومن

ذلك الحين أرسل ملوك مصر على التعاقب مع قافلة الحجاج سنوياً هودجاً يسمى « محملاً » رمزاً للملكية . ونهج نهجهم غيرهم من الملوك (١) . وحرّم الوهايون الحمل لاعتبارهم إياه أبهة كاذبة ، وقد سوغ لهم ذلك حجز القافلة .

وقد دخل موكب عودة الحمل المدينة من باب النصر بعد شروق الشمس بساعة . وكان يتقدم الحمل فرقة كبيرة من المشاة النظاميين ويتبعه حسب العادة رجل غريب ، مرسل الشعر ، قوى العضل ، أسمر اللون ، يسمى « شيخ الجمل » ويكاد يكون عارياً تماماً ، لا يستتره غير سروال رث . وكان يركب جملاً ، ولا ينفك عن تدوير رأسه . وقد تبع هذا الشيخ الحمل ، وصحب القافلة في رحلتها إلى مكة ومنها ، عدة سنوات متوالية . وزعم الناس أنه لا يقطع عن تدوير رأسه مدة السفر كلها . وتقدم له الحكومة جملين وموّن السفر . وكان هناك منذ سنوات قليلة عجوز تعودت أيضاً اقتفاء الحمل ، سافرة ، لا يستترها غير قميص . وكانت تسمى « أم القطط » ، إذ كانت تصحب دائماً خمسة قطط أو ستة بجانبها على الجمل . — وكان يتبع ذلك نفر من الفرسان الترك . ثم عشرون جملاً تقريباً ، عليها أسرجة محشوة ومزخرفة ومغطاة بالجوخ الأحمر والأخضر غالباً . وكان السرج مزينا بأعلام صغيرة تنحرف من المقدمة إلى الأمام ، وبريشة نعام صغيرة مثبتة بمصا قائمة على الجزء المتقدم ؛ وتجهز بمض الأسرجة بحرسين كبيرين يعلقان على الناحيتين وكان الغطاء مزخرفاً بالصدف الصغير على الأخضر . وقد لاحظت على ما أظن أن تلك الجمال كانت مخضبة بالحناء تخضيباً حقيقياً ، كما تخضب في مناسبات مشابهة أخرى . وكان يتبع الجمال جماعة من فرسان البدو ؛ وبهم ختم الموكب .

ولما كنت قد أخبرت خطأ بموعد دخول الحمل ، فقد وجدت نفسي ، عند وصولي إلى طريق المدينة الرئيسي ، وسط الموكب وقد فاتني الحمل . فاكتربت سماراً ، واجتهدت في اللحاق بالحمل ؛ غير أنه صعب على أن أتقدم ؛ فأسرعت

(١) أورد كثير من السياح بيانات مخطئة عن الحمل ؛ فقد زعم البعض أن غطاء الحمل يعد لفهر الرسول صلعم ، ويدعى آخرون أن الحمل يحوى الستر الذى يخص لتعليقه حول الكعبة . ويصفه بركهارت بدقته العادية أنه رمز للملكية .

بالارتفاع بسلوك بعض الأزقة إلى طريق الموكب ثانياً . فتبين لى أننى تقدمت المحمل
بعض التقدم ، فترجلت . وقد لحته أخيراً بعد أن سرت تارة وجريت تارة أخرى ،
منسلا بين خيول البدو حوالى نصف ساعة . وسرعان ما لحقت به ، بعد لآى ،
وسط زحم كثير ، قبل أن يدخل ميدان الرميلة الواسع ، أمام القلعة ، بربع ساعة
تقريباً . وبعد أن لسته ثلاثاً ، وقبلت يدى ، أمسكت بالهدبة ، وسرت بجانبه .
ورأى حارس المحمل المقدس ، الذى كان يسير خلفه ، فحملنى على النطق بدعاء
صالح ، لعله كان المانع من تنحيق عنه ؛ ويحتمل أن يكون قد تأثر بمظهرى .
إذ أنه كان يسمح للآخرين بالاقتراب من المحمل ولمسه واحداً واحداً ، ثم
يدفعهم إلى الخلف .

وظلت سائراً بجانب المحمل ممسكاً بستره إلى ما يقرب من مدخل الرميلة .
وقد أخبرت أحد أصدقائى المسلمين بما فعلت ، فدهش دهشة كبيرة ، وقال إنه
لم يسمع بأحد قام بذلك من قبل ؛ وإن الرسول لا شك قد حبانى بحبه ، وإلا لم
قدر لى ذلك . وأضاف إلى قوله أننى قد حصلت على بركة لا تقدر ، وأن من
الحكمة ألا أخبر أحداً من أصدقائى المسلمين الآخرين بهذا الحادث لئلا أثير حسدهم
وسخطهم . ولا أستطيع أن أعلل تقديس المحمل إلى هذا الحد . ويبدى كثيرون
شوقاً شديداً إلى لمسه . وكانت الشوارع التى يمر بها المحمل مزدحمة ازدحاماً كثيفاً
وكانت الحوانيت مقفلة ، والمصاطب مشغولة بالنظار . ووصل المحمل إلى الرميلة بعد
ساعة ونصف تقريباً من دخوله العاصمة . وقد عبر هذا الميدان الفسيح إلى أول
الفضاء المسمى « قراميدان » ، ثم أخذ يدخل بينما كانت مدافع القلعة تجميه
بنيرانها . ثم عاد إلى الرميلة ، واجتازها إلى باب القلعة الشمالى المسمى باب الوزير .
وهناك عادة غريبة يسمح بممارستها بمناسبة موكبى المحمل والكسوة ؛
وسأصف فيما بعد الموكب الأخير وكذلك سفر المحمل إلى مكة ، وهو أكثر
نخامة . يطوف جماعة من الأولاد شوارع القاهرة ، وقد تسليح كل منهم
بقطعة قصيرة من رءوس السعف الغليظ ، تشق شقين أو ثلاثة من طرفها
الأكبر إلى نصف طولها ، وتسمى « مقرعة » . فاذا دنوا من مسيحي أو يهودى
طلبوا منه أن يمنحهم خمس فضة أو ستما قائلين : « هات العادة » . فاذا رفض

أنهالوا عليه بمقارعهم . وفي العام الماضي ضرب بعض أولاد أفرنجياً ، جرياً على هذه العادة ، فلجأ إلى وكالة كبيرة ؛ غير أن بعض الأولاد تبعوه ، وضربوه مرة ثانية . فاشتكى إلى الباشا الذي أمر بتوقيف الجلد على الوكالة لعدم حمايتها إياه .

في غرة ربيع الأول تعد المدة للاحتفال بمولد النبي . ويقع أهم مشهد لهذا العيد في القسم الجنوبي الغربي من الفضاء الواسع المسمى بركة الأزبكية ، الذي يصبح أغلبه بحيرة مدة الفيضان . وقد ظل الحال كذلك عدة سنوات ، وقت الاحتفال بمولد الرسول ، فيقام حينئذ على حافة البحيرة ؛ أما الآن فهو يقام في مجرى البحيرة الجاف^(١) . وفي هذا القسم المذكور تضرب خيم كبيرة ، تسمى الواحدة منها « صيوانا » فيجتمع الدراويش للذكر في أغلبها ، كل ليلة ، طول الاحتفال . ويرفع وسط هذه الخيم سارية تشد بحبال شداً متيناً ، ويعلق بها اثنا عشر قنديلاً أو أكثر . ويقوم بالذكور حول (السارية) خمسون من الدراويش أو ستون تقريباً في حلقة . ويقام بالقرب من المكان نفسه « قائم » يتكون من أربع سوارى ترفع صفاً ، تبعد بعض ياردات على جانب ؛ ويمتد منها ، من سارية إلى أخرى ، وإلى الأرض ، حبال عديدة يعلق بها قناديل كثيرة ، على هيئة زهور ، وأسود ، الخ . أحياناً ، وكلمات ، مثل أسماء الله ومحمد والشهادة الخ . أحياناً أخرى ؛ وقد تعد بطريقة زخرفية تصويرية فقط . ويتم إعداد الاحتفال على العموم في اليوم الثاني من الشهر ؛ وفي اليوم التالي تبدأ الأفراح والاحتفالات . وتستمر ليلاً ونهاراً ، إلى الليلة الثانية عشرة من الشهر ، وهي ، حسب التقويم الإسلامي ، الليلة السابقة لليوم الثاني عشر من الشهر ؛ وتلك الليلة هي ليلة المولد^(٢) . ويحتشد كثير من سكان العاصمة في الأزبكية مدة الأيام التسعة ولياليها تلك — وإلى أكتب هذا الوصف أثناء المولد ، وسأصف مولد هذا العام (١٢٥٠هـ - ١٨٣٤م) ذا كراً بعض الخواص التي يختلف بها عن مولد السنين السابقة .

(١) وقد ردمت هذه البحيرة وزرعت حديقة منذ كتابة هذا ، وأصبح القسم الذي في الجانب الغربي من الفضاء الذي كانت تشغله البحيرة مكان الاحتفال الرئيسي الآن .

(٢) واليوم الثاني عشر من ربيع الأول هو يوم وفاة الرسول أيضاً . ومن الغريب أن يقال عن مولد الرسول ووفاته أنهما حدثا في اليوم نفسه من الشهر نفسه ، وفي اليوم نفسه من الأسبوع ، أي الإثنين .

يتسلى المجتمعون فى المكان الرئيسى للاحتفال ، أثناء النهار ، بالاستماع إلى الشعراء وبمشاهدة المشموذين والهزليين الخ .

وقد خلا الحفل الآن من الفوازى ، إذ أجبرن أخيراً على التوبة واعتزال حرفة الرقص . وكان أولئك الفتيات يعتبرن من أكثر اللاعبين فتنة . وتنصب فى بعض الجوانب من الشوارع المجاورة أراجيح وألعاب أخرى ، وعدة دكاكين لبيع الحلويات ، الخ . ويقوم الراقصون على الحبل أحياناً باللعب فى هذا الاحتفال ، وهم من الفجر ، ولكن لا يوجد أحد منهم هذا العام . وتضاء الشوارع المذكورة سابقاً بالقناديل العديدة ليلاً . وتفتح الدكاكين الزاخرة بالملأ كولات ، والحلوى خاصة ، طول الليل تقريباً ؛ وكذلك المقاهى أيضاً . وفى بعض هذه المقاهى وفى غيرها من الأماكن يسلى الشعراء أو المحدثون جمهور الواقفين للاستماع إلى رواياتهم . وتمر مواكب الدراويش كل ليلة خلال هذا القسم ، بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر . ويستبدل الدراويش بالأعلام التى يحملونها نهاراً عصياً طويلة يشد إلى أعلاها مصابيح عديدة ، تسمى « مناور » . ويسمى موكب الجماعة من الدراويش ، سواء كانوا يحملون الأعلام نهاراً ، أو المناور ليلاً ، موكب « إشارة » الطائفة ؛ أى « البيرق » ، أو ، بالحرى ، يطلق لفظ إشارة على الموكب نفسه . وأغلب هؤلاء الدراويش من الطبقة الدنيا ، وليس لهم ملابس مميزة . وسوادهم يلبسون عمامة عادية ، وبعضهم طربوشاً فقط ، أو لبدة ؛ وأكثرهم يلبس القميص المادى من الكتان أو القطن الأزرق ، أو الصوف الأسمر ، الذى يلبسونه فى مناسبات أخرى فى أعمالهم اليومية أو فى حوائثهم .

ويشتمد الإقبال على الاحتفال فى اليلتين الأخيرتين عنه فى الليالى السابقة ، وتزداد المباحج . وسأصف ما شاهدته فى أولى اليلتين :

كان القمر ، فى الليلة الحادية عشرة مرتفعاً بهيج منظر العيد . وكنت فى طريقى إلى شارع سوق البكرى ، جنوبى بركة الأزبكية ، لأشاهد ذكراً ، قيل إنه أحسن ذكر يقام . وكانت الشوارع التى مررت بها مزدحمة ؛ وكان يرخص المارة ، بهذه المناسبة ، بالتجول بلا قناديل ، ولم أكن أرى امرأة إلا نادراً ، كما هو الحال عادة ليلاً ، وكان بميدان الذكر بسوق البكرى ، وكان أكثر الأماكن

ازدحاماً ، « نجفة » كبيرة معلقة ، تتكون من مائتي قنديل أو ثلاثمائة تقريباً . وكان حولها عدة مصابيح خشبية يقدلى أسفل كل منها عدة قناديل . ولم تكن هذه الأنوار معلقة لتكريم الرسول فحسب ، فقد كانت هذه الليلة مولد الشيخ درويش العشماوى ، الذى دفن « بزواية » أى مسجد صغير بالقرب من هذا المكان . ويقام هنا كل ليلة جمعة (وتوافق ما نسميه مساء الخميس) ذكر لا يبلغ مبلغ ما أقيم للمناسبة الحالية . وقد شاهدت بضعة مسيحيين معتمين بالأسود ؛ ولما كنت لم أر أحداً فى مكان آخر هذه الليلة إلا نادراً ، وسمعت هذا القول : « ملححة فى عين اللى ما يصلى على النبي » الذى يصيح به بائعو الحلوى وغيرهم ، والذى يمين ، حسب الظاهر ، أن المسيحيين واليهود كانوا على الأقل معرضين للالهانة ، فى وقت بلغ فيه الحساس الدينى حداً غير عادى ، استفهمت عن سبب تجمع كثير من الأقباط فى ميدان الذكر ؛ فأخبرت أن أحد الأقباط وكان قد أسلم ، يتبرع بتكاليف مولد الشيخ الدرويش كلها . وكان هذا الشيخ يحله الناس ؛ وكان مختل العقل ، أو كان يدعى الجنون ؛ فكثيراً ما كان يتناول الخبز والماء كولات ويدوسها ، أو يقذف بها فى القدر ؛ ويقوم بأعمال أخرى يحرمها الدين تحريماً مباشراً . ومع ذلك فقد اعتير ولياً فاضلاً ؛ وتعتبر مثل هذه الأعمال ، كما لاحظت فى مناسبة سابقة ، نتيجة انشغال الروح بالعبادة . وقد توفى الشيخ درويش منذ ثمانى سنوات .

وجلس ثلاثون من الدراويش الأحمديّة تقريباً ، مترمين على حصر ممتدة بجانب المنازل على ناحية واحدة من الشارع ، فى حلقة بيضاوية وكانوا جميعاً من طبقة دنيا ، يرتدون ملابس رثة وعمائم خضراء . وكان وسط الحلقة ثلاث شمعات كبيرة ، ارتفاعها أربع أقدام ، وضعت فى شمدان قصير . وجلس بأحد طرفى الحلقة أربعة منشدين ، وعازف على الناي . وحصلت على مقعد صغير من الجريد من مقهى قريب ، وجلست مع المنشدين بعد مزاحمة الحشد ، وبمساعدة خادى ، لأستمع إلى « مجلس ذكر » ؛ وسأحاول أن أصفه وصفاً تاماً ، لأبين أكثر أنواع الذكر شيوعاً وأكثرها قبولاً فى القاهرة . وقد بدأ الذكر فى الساعة الثالثة تقريباً (أى بعد ثلاث ساعات من الغروب) ، واستمر ساعتين .

بدأ القامون بالذكر بقراءة الفاتحة معاً ، بعد أن صاح شيخهم أولاً : الفاتحة

ثم أنشدوا الكلمات التالية : « اللهم صل على سيدنا محمد في الأولين ؛ وصل على سيدنا محمد في الآخرين ؛ وصل على سيدنا محمد في كل وقت وحين ؛ وصل على سيدنا محمد في الملائ الأعلى إلى يوم الدين . وصل على جميع الأنبياء والمرسلين من أهل السموات والأرض . ورضى الله تبارك وتعالى عن ساداتنا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وعن جميع أصفياء الله الآخرين . حسبنا الله ، ونعم الوكيل . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم يا ربنا ، يا واسع المغفرة ، يا أرحم الراحمين . اللهم آمين . ثم صمتوا لحظة ؛ وعادوا ثانياً إلى قراءة الفاتحة بسكون . ويتقدم عادة جميع طوائف الدراويش بمصر تقريباً « باستفتاح الذكر » هذا .

وبعد هذه المقدمة أخذوا في الذكر . فأنشدوا وهم جلوس بالطريقة السابق ذكرها ، ببطء : « لا إله إلا الله » منحنين ، رأساً وجسداً ، مرتين كلما رددوا قولهم السابق . وظلوا هكذا ربع ساعة تقريباً ؛ ثم أعادوا الكلام نفسه بالنعمة نفسها ، في مدة مساوية ، ولكن على قياس أسرع . وأنشد المنشدون مرات أثناء ذلك ، أجزاء من قصيدة ، أو من موشح ، على النغم نفسه ، أو على تغاير منه والقصيدة تماثل أغنية ، وتشير على العموم إلى الرسول مقصوداً بالحب والمديح ^(١) ولما كانت الأغاني من هذا النوع كثيرة وتكاد تكون الوحيدة التي تنشد في حفلات الذكر ، ولما كانت تنظم لهذا الغرض ، ولا يقصد بها إلا المعنى الروحي (وإن كان العوام لا يرب لا يفهمونها بمثل هذا المعنى ^(٢)) ، فلا أستطيع أن أشك في المعنى المقصود من نشيد الأناشيد لسلیمان .

وفي فترات متكررة (كما هي العادة في حفلات الذكر) يصبح أحد المنشدين معنياً : مدد ، مفعلاً كل مقطع . ويعني لفظ « مدد » هنا ، عوناً روحياً أو خارقاً للعادة ، ويتضمن استدعاء مثل هذا العون .

وبعد أن قام الذاكرون بما سبق وصفه ، رددوا الكلام نفسه على نغم مختلف

(١) أورد المؤلف بعض أبيات من القصيدة التي سمعها ذلك اليوم ، وأجزاء من قصائد أخرى ، لم أستطع الحصول على نصها العربي . ولم أذكر مضمونها هنا لأنها لا تخرج في روحها عن القصائد الشائعة حديثاً .
الترجم

(٢) ودليل ذلك أنني وجدت جزءاً من إحدى تلك القصائد مدرجاً ، بتحريف قليل ، في قسم من ألف ليلة وليلة باعتباره أغنية حب دارجة . طبعة كلكتا جزء أول ص ٤٢٥

في مدة مماثلة ، يبطئ شديد أولاً ، ثم بسرعة . ونهضوا بعد ذلك واقفين بالنظام الذي جلسوا به ، ورددوا الكلام نفسه بنغم آخر . وكان قد انضم إليهم ، أثناء ذلك ، عبد أسود حسن الملبس ، دفعته هيمته إلى السؤال عن شخصه . فأخبرت أنه أحد أغوات الباشا . وردد الذاكرون بعد ذلك ، وهم لا يزالون واقفين ، الكلام نفسه في صوت عميق أجش ؛ مشدين الصوت عند لفظة « لا » ، وما قبل المقطع الأخير من الكلام اللاحق ، وينطقونه ، حسب الظاهر ، بجهد عظيم . والصوت كثير الشبه بصوت الدف يضرب على حافته . ودور كل من الذاكرين رأسه يميناً وشمالاً على التعاقب عند كل قول : لا إله إلا الله . وأصبح الأغا المذكور آنفاً ، في هذا الوقت من الذكر ، ما يسمونه « ملبوساً » فأخذ يلقى بذراعيه ، وينظر إلى أعلى متجههم الوجه ، وصاح بصوت مرتفع ، وبحدة وسرعة فائقتين : الله ! الله ! ... لا لا لا ... لاه ! يا عمى ، يا عمى ! يا عمى ! يا عمى ! يا عشاوى ! يا عشاوى ! يا عشاوى ! وأخذ صوته يضعف تدريجاً ؛ ثم سقط على الأرض ، مع أن أحد الدراويش كان خلفه يسنده ، وكان فيه مزبداً ، وعيناه مقفلتين ، وأطرافه متشنجة . كان ذلك نوبة صرع ؛ وما كان أحد يستطيع أن يدرك ذلك ويعتقد أنه نتيجة انفعال متصنع ؛ ولا جدال أنه كان نتيجة لحالة هياج ديني شديد . ولم يدهش أحد لذلك ؛ فمثل تلك الحوادث شائعة أثناء الذكر . وبدأ الذاكرون أكثر هياجاً ، مرددين كلامهم بسرعة متزايدة ، ومديرين رؤوسهم بعنف ؛ ومحنين أجسامهم جميعاً في الوقت نفسه ؛ وكان بعضهم يقفز . وعاد الأغا إلى حالته الأولى عدة مرات . وقد لاحظت أن نوباته تحدث بعد إنشاد أحد المنشدين بيتاً أو بيتين ؛ واجتهاده النادر في إثارة سامعيه . وحقاً كان الغناء حسب ذوقي حسناً جداً . وقبل انتهاء الذكر بدا أيضاً جندي خاص ؛ كان حاضراً من أول الذكر ملبوساً أكثر من مرة ؛ فكان يهمهم بطريقة مخيفة ؛ ويهز رأسه من جانب إلى آخر بعنف . وكان التباين الظاهر بين جهد الذاكرين الشاق في ختام الذكر ووقارهم وخشوعهم عند بدئه عجيباً بصفة خاصة . وكانت النقود تجمع أثناء الذكر لأجل المنشدين (١) . أما الذاكرون فلا يدفع لهم شيء .

(١) وقد أعطى قليل من الحاضرين ما يربو على عشرة فضة ؛ أما الفقراء فلم يعطوا شيئاً ، ولم يطلب منهم بالفعل شيء .

وصرت « إشارة » أثناء « مجلس الذكر » السابق وصفه . واستمر الذكر طول الليل ، إلى آذان الفجر ؛ وما كان ذا كرون يستريحون إلا بين مجلسين ؛ فيتناولون القهوة جميعاً ، ويدخن بعضهم .

وكان الليل قد انتصف قبل أن أعود من هذا المكان إلى بركة الأزبكية . وهنا ، كان ضوء القمر والمصابيح تحدث معاً أثراً غريباً . ومع ذلك كان كثير من مصابيح « القائم » و « الصارى » والخيم قد أطفئ . وكان كثير من الناس مستقلين على الأرض نياماً . وكان ذكر الدراويش حول الصارى قد انتهى ؛ وسأصفه بعد مشاهدتي إياه في الليلة التالية . وبعد أن شاهدت عدة حلقات ذكر عدت إلى منزلي للنوم .

وفي اليوم التالي وهو السابق مباشرة لما يسمى ليلة المولد ذهبت ثانياً إلى الأزبكية قبل الظهر بساعة ؛ ولم يكن هناك كثير من الناس في ذلك الوقت ، ولا مباحج كثيرة لتسليمة المجتمعين . ولم أر غير اثنين أو ثلاثة من المشعوذين والمهرجين والشعراء ، وقد جمع كل منهم حوله حلقة صغيرة من المشاهدين ؛ غير أن الازدحام اشتد تدريجاً ؛ فقد كان هناك منظر عجيب على وشك أن يظهر ؛ وهو مشهد يجذب هذا اليوم من كل عام جمهوراً من المشاهدين المتحيرين . وهو يسمى « الدوسة » . وسأصفه الآن :

قصد شيخ الدراويش السعدية ، السيد محمد المنزلاوى ، خطيب مسجد الحسين إلى ذلك المسجد ، هذا اليوم (يوم الجمعة) ، ليقوم بواجبه المعتاد ، بعد أن أقضى جزءاً من الليلة السابقة في عزلة مررداً بعض الصلوات والأدعية الخفية ، كما يقولون وبعد أن أدى صلاة الجمعة والخطبة ، ركب من هناك إلى منزل الشيخ البكرى الذى يرأس جميع طوائف الصوفية بمصر . ويقع هذا المنزل في الناحية الجنوبية من بركة الأزبكية ، تالياً للمنزل القائم بالزاوية الجنوبية الغربية . وفي طريقه من المسجد ، لحق به عدة طوائف من الدراويش السعدية من أقسام مختلفة من العاصمة ؛ وكان لكل قسم رايتان . وشيخ السعدية كهل ، أشهب اللحية ، وسيم الحيا ، جميل الهيئة ، أبيض الوجه ؛ وكان يلبس ، هذا اليوم ، بنشا وقاووقاً أبيضين ، وعمامة

من الموصلى الزيتى اللون القريب من الأسود ، تعبر مقدمها منحرفة « قطعة »
من الموصلى الأبيض . وكان يركب جواداً متوسط الارتفاع والوزن . وإنى أذكر
ذلك لسبب يتبينه القارىء الآن . ودخل الشيخ بركة الأربكية يتقدمه موكب عظيم
من الدراويش أتباعه .



(ش ٧٧ الدوسة)

وفى طريقه من هذا
الميدان ، وقف الموكب
على مسافة قصيرة من
منزل الشيخ البكرى ،
حيث انبطح عدد كبير
من الدراويش وغيرهم .
وإنى أؤكد أنهم كانوا
يزيدون على الستين ؛ غير
أنى لم أستطع إحصاء
عددهم (١) انبطحو اجنباً
إلى جنب متلاصقين بقدر
الإمكان وأرجلهم ممدودة
وأذرعهم تحت جباههم
(شكل ٧٧) وكانوا
يهمسون على الدوام باسم
الله . ثم جرى اثنا عشر
درويشاً تقريباً ، حفاة
أغلبهم — ، على ظهور

رفقائهم المستلقين ؛ وكان بعضهم يضرب « الباز » ، ويصيحون : الله ! ثم دنا
الشيخ ، فتردد حصانه ، دقائق عديدة ، قبل أن يدوس ظهر أول الساجدين ؛

(١) أعقد أنه كان هناك ضعف هذا العدد . وأظن أنى أستطيع القول دون خطأ إننى
رأيت الضعف فى مناسبة لاحقة ، عند الاحتفال بالمعراج ، الذى سأصفه فيما بعد .

ولكنه خطأ أخيراً ، بالدفع والحث من الخلف ، ثم مشى بدون خوف ظاهر ، بخطوة عالية ، على ظهورهم جميعاً ، يقوده شخصان ؛ وكان أحدهما يبطأ الساجدين فوق أرجلهم أحياناً ، والآخر فوق رؤوسهم . وهتف المشاهدون في الحال بصوت ممدود : الله ! ولم يظهر على أحد ممن داسهم الحصان أنه أصيب بسوء ، بل وثب كل منهم واقفاً بعدما صر الحصان عليه وتبع الشيخ . ويقال إن هؤلاء والشيخ أيضاً ، يستعملون بعض كلمات (١) (أى يرددون صلوات وأدعية) في اليوم السابق ، ليمكنهم احتمال خطى الحصان دون ضرر ؛ وإن بعضاً لم يهياؤا كالسابقين ، اجتروا على الانبطاح لير الحصان عليهم ، فلقوا حتفهم ، أو أصيبوا بضرر بالغ ، في أكثر مناسبة . ويعتبر هذا العمل كرامة أحدثها قوة غير طبيعية منحت كل شيخ من شيوخ السعدية المتتابعين (٢) . ويزعم البعض أن الحصان لا يفضل لهذه المناسبة ؛ غير أنى استطعت ، على ما أظن ، ملاحظة أن هذا لم يكن الحال . ويقولون أيضاً إن الحيوان درب لهذا الغرض ؛ ولكن إذا كان الأمر كذلك ، اعتبر هذا بالنسبة لأقل الوقائع أو هامشاً فحسب ؛ أعنى واقعة دوس الحصان الآدميين ؛ وهو عمل ينفر منه الحيوان بشدة ؛ كما هو معروف . وقد رفض شيخ السعدية الحالي عمل الدوسة ، عدة سنوات . وبعد توسل شديدُ حمل على تفويض القيام بها إلى شيخ آخر نجح في أدائها وكان ضريباً . ولكنه سرّياً ما توفي بعد ؛ فاستجاب شيخ السعدية إلى التماس دراويشه وأصبح منذ ذلك الوقت يقوم بعمل الدوسة بنفسه دائماً .

وبعد أن قام الشيخ بهذا العمل الفذ ، بدون أدنى مظهر لأي حادث شاق ، ركب إلى صديقه الشيخ البكرى ، ودخل المنزل بصحبه بعض الدراويش . وقدمت نفسى عند الباب ، فأدخلني خادم ، وانضمت إلى المجلس بالداخل . وجلس الشيخ ، بعد أن ترجل ، على سجادة فرشت على البلاط تجاه حائط التختبوش . وجلس مقوس الظهر ، كئيب الهيئة ، داعم العين ، لا ينقطع عن

(١) « يستعملو آسما » .

(٢) ويقال إن شيخ السعدية الثانى (التالى مباشرة لمؤسس الطائفة) كان يركب الحصان فوق حشد من الزجاجات دون أن يكسر إحداها .

المهمة . ووقفت بالقرب منه تقريباً . وقد جلس معه ثمانية آخرون . ووقف الدراويش الذين دخلوا مع الشيخ ، وكانوا عشرين تقريباً ، في نصف دائرة أمامه ، فوق حصر فرشت لهم ؛ وكان يحيط بهم ما يقرب من خمسين شخصاً أو ستين آخرين . وتقدم ستة من الدراويش نحو الشيخ ، على ياردين من نصف الدائرة ، وبدأوا يذكرون ؛ وكانوا يصيحون معاً : « الله حي ! » ، ويضرب كل منهم ، عند كل صيحة ، بسير جلدي ، بازاً يمسكونه باليسرى من نتوء في قاعدته . ودام ذلك بضع دقائق . واندفع حينئذ عبد أسود ، كان قد أصبح « ملبوساً » ، وسط الدراويش ، محرّكاً ذراعيه حوله ، وصائحاً : « الله لا لالا لالا ! » وأمسك به شخص ، وسرعان ما بدا أنه استفاق . ثم قام الدراويش بالذكر مرة ثانية ، وهم واقفون كما سبق ؛ وكان بعضهم يصيح بالتناوب : « الله حي ! » ، والآخرون : « يا حي ! » ، وينحنون جميعاً ، في كل مرة ، يميناً وشمالاً على التتابع ، وظلوا كذلك عشر دقائق تقريباً . ثم صاحوا : « دايم ! » ، و « يا دايم ! » ، على النسق نفسه من الزمن والطريقة والحركة . وتعلّكني شعور جامح يدفعني إلى محاولة القيام بالذكر مثلهم دون أن يتبين أمرى ؛ فانضممت إلى الجماعة ، وقد تجحت في ذلك إلى حد لا يشير الشبهة ؛ غير أنني أحدثت لنفسى آلاماً متعبة . — وبعد الذكر السابق وصفه ، أخذ شخص يرتل ما تيسر من القرآن . غير أن الذكر لم يلبث أن أعيد ؛ واستمر حوالى ربع ساعة . وبعد ذلك قبل أغلب الدراويش الحاضرين يد الشيخ ، فانسحب إلى غرفة علوية .

جرت عادة بعض الدراويش بهذه المناسبة ، بعد الدوسة ، أن يظهروا براعتهم المشهورة في أكل الثعابين الحية ، أمام نخبة من القوم ، في منزل الشيخ البكري . غير أن شيخهم الحالى وضع أخيراً حداً لهذه العادة في الماصمة ، معلناً حقاً أنها كريهة ومخالفة لأحكام الدين الذى يحرم أكل الثعابين ، ولم يكن أكل السمعية للثعابين والمقارب قليل الحدوث أثناء زيارتي السابقة لمصر . وكانوا ينزعون من الثعابين نابها السام ، أو يحملونها غير مؤذنة بثقب شفقتها ، وربطهما معاً في كل جانب بنخيط حريرى ، لمنع لدغها . وقد كان أحياناً لتلك الثعابين التى تحمل في المواكب حلقتان من الفضة بدلاً من الخيطين الحريري . وكلما أكل

درويش سمدي ثعباناً حياً ، كان يحركه إلى ذلك نوع من الجنون ، أو كان يتظاهر بذلك . كان يضغط بشدة بطرف سبافته على ظهر الثعبان ، ويمسك به على بعد بوصتين من رأسه ؛ وكان كل ما يأكل من الثعبان ، الرأس وما بينه وبين موضع الضغط ؛ وقد جعل منه ثلاث لقعات أو أربعة ، ثم يقذف بالباقي . غير أن الثعابين لا تؤكل دائماً بدون جزاء حتى من السمعية . فقد حدث منذ سنوات أن درويشاً من هذه الطائفة ، وكان يسمى « الفيل » اضخمامة بنيته ، وقوة عضله ، وشدة عزمه ، وكان أشهر آكلي الثعابين في عصره ، وفي أي عصر تقريباً ، رغب في تربية ثعبان من نوع شديد كان ولده قد أحضره ضمن ثعابين أخرى جمعها من الصحراء ، فوضعه في سلة ، واحتفظ به عدة أيام بدون غذاء ، ليضعفه ؛ وبعد ذلك وضع يده في السلة ليخرجه ، وليقتلع نابيه ؛ ولكن الثعبان لدغه في الحال . فصرخ مستنجداً ، ولكن لم يكن في المنزل أحد غير النساء اللاتي خمن القدوم إليه ؛ فانهضت عدة دقائق قبل أن يسعف . وقد وجد حينئذ مفتخ الذراع أسوده ، ومات بعد ساعات قليلة .

ولم يقيم احتفال آخر يستحق الاعتبار في يوم الدوسة . وقد جعلت غيبة الفوازي الحفل أقل بهجة من المعتاد .

وفي الليلة التالية ، التي تسمى على الأصح ليلة المولد ، عدت إلى ميدان الاحتفال الرئيسي . وشاهدت هنا ذكراً حول الصاري يقوم به ستون درويشاً تقريباً . وكان القمر كافياً لإضاءة المكان بدون مصابيح . وكان هؤلاء الدراويش من طوائف مختلفة ، ولكن الذي قاموا به كان من نوع شائع عند البيوممية فقط . وفي أحد وجوه هذا الذكر صاح القائمون به : « يا الله ! » ، وحنوا أولاً رؤوسهم وشبكوا أيديهم أمام صدورهم في الوقت نفسه عند كل صيحة ؛ ثم رفعوا رؤوسهم وشفقوا بأيديهم أمام وجوههم . وكان في بهرة الحلقة أشخاص جالسون على الأرض . واستمر الذكر نصف ساعة على الوصف المذكور سابقاً وبعد ذلك ، كوّن الدراويش فرقاً من خمسة ، أو ستة ، أو أكثر معاً ؛ ولكن على شكل حلقة كبيرة أيضاً . وكان أفراد تلك الفرق المعيدة متمسكين ، كل واحد يضع ذراعه اليسرى خلف ظهر جاره يساراً ، ويده على

كتفه الأخير . وكانوا جميعاً في مواجهة المشاهدين خارج الحلقة ، وصاحوا :
« الله ! » بصوت شديد العمق أجش (١) ؛ وخطوا خطوة عند كل صيحة ، إلى
الأمام مرة ، وإلى الخلف مرة أخرى ، ولكن كان كل منهم يتقدم قليلاً إلى
اليسار عند كل خطوة إلى الأمام ، بحيث تدور الحلقة بأكملها ، ولو ببطء شديد .
وثبت كل منهم يده اليمنى لتحمية المشاهدين خارج الحلقة ؛ ويمسك أغلب هؤلاء
إذا كانوا قريبين ، كل يد ممدودة ، ويقبلونها أحياناً عند ما تصبح أمامهم .
وكما قام ذكر حول الصاري ، كف الذكور في الخيام . وقد شاهدت ذكراً
آخر هذه الليلة ، وكان ترديداً لذكر الليلة السابقة بسوق البكرى ، ولم يكن
هناك شيء آخر ؛ ما عدا سماع الفصص ، يجذب المشاهدين أو السامعين .
انتهى العيد عند آذان الفجر ، وكفت جميع حلقات الذكر ، ما عدا سوق
البكرى ، فقد انتهى الذكر به بعد منتصف الليل بثلاث ساعات ؛ وفي غضون
اليوم التالي ، رفع القائم ، والصاري ، والخيام الخ

(١) وكان السائحون المختلفون يسمون القائمين بالذكر من هذا النوع : « الدراويش
المعوية أو النابجة » .

الفصل الخامس والعشرين

تابع الأعياد الدورية العامة ..

لولا أن كثيراً من العادات المشاهدة في هذه المناسبات تنسخ بمرور الزمن ، ولن توصف أبداً وصفاً صحيحاً كاملاً ، لاعتبر الاستمرار في وصف الأعياد الدورية العامة والموالد وصفاً تفصيلياً أمراً غير لازم .

يظل مسجد (الحسين) ، خمس عشرة ليلة وأربعة عشر يوماً في شهر ربيع الآخر ، مسرحاً لعيد مولد الحسين . ويعتبر هذا المولد أشهر الموالد المحتفل بها في القاهرة بعد مولد النبي . ويكون اليوم الكبير لمولد الحسين يوم الثلاثاء دائماً ؛ وليلة المولد هي الليلة التالية ، ليلة الأربعاء . ويقع هذا اليوم على العموم بعد مولد النبي بخمسة أسابيع أو ستة تقريباً ، ويختتم العيد به . وقد حددت ليلة الواحد والعشرين من شهر ربيع الأول ، هذا العام (عام ١٢٥٠ هـ - ١٨٣٤ م) ، ليلة المولد ، إذ أن العيد بدأ ليلة السابع (٢) منه . وكان المسجد ، في الليلتين السابقتين على ليلة السابع ، مضاء ببعض مصابيح تزيد على المعتاد ؛ وهذا هو المألوف في سنوات أخرى . غير أن هاتين الليلتين تميزان مثل الليالي التالية .

في كل ليلة من الليالي الخمس عشرة الكبيرة ، السابق ذكرها ، يضاء المسجد بمصابيح ، وشموع جد غليظة ، يبلغ ارتفاع بعضها خمس أقدام أو ستاً . ويتولى هذه الإنارة ، في الليلة الأولى ، « ناظر » المسجد ، من أموال المسجد ؛ وفي الليلة الثانية ، حاكم العاصمة (وهو اليوم حبيب أفندي ؛ وفي الليالي

(١) لاحظت في الطبعة الأولى محالة في إحصائي الخاص بمدة هذا المولد ، فتصورت أن الخطأ كان في هذه الفقرة ؛ غير أنني اكتشفت منذ ذلك الوقت في مذكراتي المخطوطة أن الأمر غير ذلك ، وأنه كان يجب أن أكتب في مكان آخر (كما فعلت الآن) خمس عشرة ليلة بدلاً من أربع عشرة .

التالية ، مشايخ بعض طوائف الدراويش ، وبعض كبار القائمين على أمر المسجد ، وبعض الأثرياء . وتظل دكاكين الماء كولات والمشروبات ، والقاهى المجاورة للمسجد ، والكثير منها فى الأحياء الأخرى أيضاً ، مفتوحة إلى الصباح فى تلك الليالى جميعاً . وتزدحم الشوارع المجاورة بالمتسكمين ، أو المستمعين إلى الموسيقيين والمغنين والقاصين . وتزدحم المسجد أيضاً على العموم . وهنا نجد ، فى قسم من الرواق الكبير ، جماعة من الناس ، جالسين على الأرض فى صفين متقابلين ، يقرأون معاً بعض سور من القرآن ، ويسمى هذا « مقرأ » . وقد يستخدم لهذا الغرض جماعات . ونجد فى مكان آخر جماعة ماثلة تقرأ أدعية فى مدح الرسول ، من كتاب دلائل الخيرات . ونجد ، مرة أخرى ، فى أمكنة أخرى ، جماعة تقرأ نوعاً خاصاً من الدعاء ، وجماعة أخرى أو جماعات تقوم بالذكر . وهناك زائرون آخرون يدفعهم التقى ، أو الفضول ، أو حب التسليمية ، إلى زيارة هذا المسجد المكرم ، فيدورون حول تلك الجماعات التى تقوم بأعمالها الدينية إكراماً للحسين ، أو يجلسون على الحصر . ويوجد على العموم جماعة من الدراويش فى مقصورة المقام (التى يملوها القبة الكبيرة ، فتسمى لذلك « القبة ») يقرأون الدعاء وغيره . ويدخل الزائرون المقصورة عادة لقراءة الفاتحة والطواف حول المقام ، غير أن أكثر الناس يترددون على الرواق الكبير ، حيث يقام الذكر وأكثر الطقوس الأخرى .

فى كل ليلة من ليالى هذا المولد ، ترى « إشارات » ، أى مواكب دروايش ، لطائفة أو أكثر ، تمر فى الشوارع إلى مسجد الحسين ، بتقديمها رجالان أو أكثر بالطبول والزماير والصنوج أحياناً ؛ ويصحبهم حاملو المشاعل ؛ ويكون معهم عادة قنديل أو أكثر . وهم يجمعون إخوانهم فى الطريقة من منازلهم الخاصة . وكلما مروا بمقام ولى ، كف الموسيقيون عن العزف لحظة ، وقرأ الجمع الفاتحة ، أو مدحوا النبى ، على طريقة استفتاح الذكر الذى أشرت إليه فى مولد النبى وهم يفعلون ذلك دون أن يقفوا . وعند بلوغهم المسجد يدخلونه ، وبأيدى بعضهم الشموع ؛ فيزورون المقام ، ثم ينصرفون ؛ ماعدا شيخهم وبعضاً من الآخرين ، يظلون أحياناً فى « القبة » ، ويشتركون فى قراءة الأدعية وغيرها .

تعتبر ليلة الجمعة ، السابقة ليلة المولد ، من أبهج الليالي . وقد تولى الشيخ الجوهري ، وهو رجل ثرى إنارة المسجد هذه الليلة بهذه المناسبة ، بفيض من الأنوار غير عادى . وقد ذهبت تلك الليلة إلى المسجد بعد الغروب بساعتين قبل أن يجرى احتفال ما . وقد وجدت الشوارع تزداد ازدحاماً كلما اقتربت من المسجد . وكان بأحد الأمكنة موسيقيون ، كما كان أمام مقهى كبير راقصان يونانيان من « الجنىك » ، أنيقان فى الملبس ولكنهما مخنشان فى المظهر ، قد أرسلتا شمرهما ، وأخذتا يرقصان على نغم قيثارين يعزف عليهما يونانيان آخران ؛ وبحيط بهم حشد من المعجبين الأتراك وقليل من المصريين . وقد رقص هذان الراقصان هناك فى الليلة السابقة أيضاً . وقيل لى إيهما من الرعاية التى نالها أصبحتا وقحين إلى حد أنهما اغتصبا جهازاً سلة غن فى الشارع .

وقد وجدت ، عند دخولى المسجد ، أنه أ كثر ازدحاماً من المعتاد إلى حد بعيد ، ومن الليالى السابقة أيضاً ؛ غير أن الأنوار كانت لا تزيد بكثير على الأنوار التى تشاهد أحياناً فى كنيسة انجليزية . وكانت الشماعد والمصابيح من أ كثر الأنواع شيوعاً . وكان بين الزائرين عدد كبير من الأتراك ، وبعض من معارفى . جلست أولاً أستريح مع صديق كتيبى ، وكثير من رفقاءه الدراويش الذين كانوا على وشك القيام بذكر يتصدره الأول . وقد أكرموني بتقديم القهوة . وكان على أن أرد الإكرام بإعطاء المنشدين قرشاً . ولم يلبثوا أن أخذوا فى الذكر وهو يشبه الذكر الذى وصفته فى مولد النبى ، فنهضت لزيارة المقام ، وللاجولان حوله . وبعد الزيارة عدت من مقصورة المقام حيث كان جماعة كثيرة من الدراويش يقرأون الأدعية جالسين فى مربع بقدر ما تسع المقصورة ، ما عدا جانب المقام . وعند دخولى الرواق مرة أخرى أبصرت هرجاً عظيماً ونفراً من الناس يندفعون إلى جهة واحدة على مسافة قريبة منى . وسمعت رجلاً يصيح : « نصرانى ! كافر ! » فاستنتجت أن أحد الزائرين المسيحيين اكتشف أمره ، وتوقعت فتنة عظيمة . ولكنى عندما سألت أحد الواقفين بجانبى عما حدث ، قال لى إن هذه الكلمات لم تكن غير سباب بين مسلمين أساء أحدهما إلى الآخر . وأسرع أحد القاعين بأمر المسجد فأقبل من « القبّة » ، ممسكاً عصا ، فأعاد

بين الناس النظام . ولم أستطع أن أعرف إذا كان المتشاجران قد طردا أحدهما أو كلاهما . ورأيت أن الحكمة تقتضى ألا أوجه أسئلة أخرى . وكان بالقرب من مدخل « القبة » جماعة يقرأون الدلائل السابق ذكرها بصوت جهورى . وبعد أن وقفت لحظة أستمع إليهم ، بالرغم من أنه استحال على أن أفهم كثيراً من كلامهم لاضطراب أصواتهم ، عدت إلى حلقة الذكر التى كنت بها أولاً .

وبعيد ذلك سمعت من طرف الرواق الآخر أصوات الطبول العالية يضر بها فريق من الدراويش العيسوية الذين تعتبر أعمالهم من أهم مباحج الليلة . فهضت فى الحال وتوجهت إليهم . وترك صدى الكتفى الذكر وتبعنى ، ثم نادانى دون تبصر قائلاً : « يا أفندى ! إلتبه إلى نقودك ! » وفى لحظة شعرت بسرولى يجذب صراخاً ، ثم وجدت به خرقاً كبيراً . ويظهر أن شخصاً قطعه بألة حادة ليصل إلى جيبى . ويحدث على العموم عند ما يزدحم المسجد فى مثل هذه المناسبة أن يدخل بعض اللصوص هذا المكان العظيم القداسة (١) . وكنت على وشك أن أبأس من الاقتراب من العيسوبة ، عند ما صاح خادى بمن يحيط بى ، وكنت قد جئت به ليحمل حذائى : « ألا تعرفون من تدفمون ؟ » وفى الحال وجدت الطريق خالصاً أمامى . وكانت الساعة حينذاك الثالثة بعد الغروب تقريباً .

وقبل أن أصف أعمال العيسوية يجب أن أذكر أنهم طبقة من الدراويش المغاربة ، كلهم أو جلهم ، وهم يستمدون تسميتهم من اسم شيخهم الأول سيمدى محمد بن عيسى (٢) ، وهو مغربى . وأعمالهم فذة ؛ ومنها واحد يستحق الاعتبار بصفة خاصة . وكنت متلهفاً إلى رؤية ذلك العمل هذه الليلة . ولم يخب رجائى ، مع أنه قيل لى إنهم لم يقوموا به فى القاهرة منذ سنوات .

رأيت حوالى عشرين من هؤلاء الدراويش مختلفى الملابس ، يجلسون على

(١) وقد تحدث أيضاً سرقات فى هذا المسجد فى أوقات أخرى ، كما حدث لأحد أصدقائى أخيراً ، وقد قال لى : ذهبت هناك للصلاة ؛ وبينما كنت منحنياً على الميضأ أتوضأ وقد وضعت حذائى خلفى ، وكنت أقول : نويت فرض الوضوء . قال شخص من ورأى لنفسه : نويت أخذ هذا الحذاء الجليل . وعند ما التفت حولى ، وجدت حذاء بالياً مكان حذائى الجديد (٢) وعيسى هو الاسم المذكور فى القرآن ، وهو شائع عند المسلمين ؛ لأنهم يعززون بالمسيح ويوقرونه . أما النصارى العرب فيسمونه « يسوع »

الأرض متلاصقين في حلقة عند جدار واجهة البناء . وكان كل منهم ، عدا اثنين ، يضرب « طاراً » يزيد عرضه على قدم ، ويختلف عن الطار الشائع في عدم وجود القطع المعدنية الزنانة المعلقة بطوقه . وكان أحد الدراويش المستنمين يضرب طاراً صغيراً من النوع الشائع ، والآخر يضرب بازاً . وكان أمام حلقة الدراويش فضاء أوسع مما يشغلونه ، تركه الجمهور للدراويش آخرين من الطائفة نفسها .

وما كاد دراويش الحلقة الأولى يضربون دفوفهم ، حتى أخذ دراويش الحلقة الأخرى ، وكانوا ستة ، يقومون برقص غريب . ويصيحون أحياناً : « الله ! » ، وأحياناً أخرى : « الله مولانا » . ولم يكن هناك نظام في رقصهم ، ولكن أخذ كل منهم يقوم بمهازل المجنون ، فيحرك جسمه أعلى وأسفل ، وفي اللحظة التالية يدور ، ثم يحرك ذراعيه بإشارات غريبة ، وبعد ذلك يقفز ، وأحياناً يصرخ . وقصارى القول أن الأجنبي إذا شاهد هؤلاء ولم يعلم أنهم يمارسون رياضة دينية يغلب عليها هياج حماسي ، فلا جرم أن يظن أن رقص الدراويش هذا سعى إلى التفوق في الهزل لا غير ؛ وإن طريقة لبسهم تساعد على هذا الظن . كان أحدهم يلبس قفطاناً بغير أردان ولا حزام ، ولا يضع شيئاً على رأسه الذى لم يخلق منذ أسبوع تقريباً ؛ وكان آخر يلبس قلنسوة قطنية بيضاء ، ولا يستر جسمه غير سروال مرسل . وكان هذان الدراويشان أعجب ما فى الحلقة . وبعد أن رقص أولهما ، وهو أسود ، نحيف ، متوسط العمر ، بهذه الطريقة الغريبة بضع دقائق ، وتدرج فى حركاته إلى التوحش والغرابة ، اندفع إلى حلقة الناقرين على الطار ، وكان بوسطها جمرة صغيرة من النحاس المبيض ، ملأى بالجر ، فأمسك الدراويش جمرة ووضعها فى فمه ؛ ثم أخذ غيرها على التوالى حتى امتلأ فمه ، وابتلعها بعد ثلاث دقائق تقريباً بعد أن مضغها بتأن ، فأنحأ فاه على سعيته فى كل حين ، ليبين ما فيه . وقام بذلك دون أن يبدو عليه أى مظهر للألم ، بل كان يظهر أثناء العملية وبعدها ، نشاطاً أكثر من قبل . أما الدراويش الآخر فقد ظهر فى هيئة قوية جميلة إلى حد عجيب ، وكان يبدو عليه أنه فى عنفوان شبابه ؛ وبعد أن رقص ما لا يزيد كثيراً عن الأول ، اشتدت حركاته إلى درجة أن أحد إخوانه أمسك به ؛ غير أنه أفلت من قبضته وهجم على الجمرة ، وأخرج منها جمرة

كبيرة وضعها في فيه ، وظل فاتحاً فاه دقيقتين تقريباً ؛ وكان ، طول هذه المدة ،
كلما نشق الهواء بدت الجمرة بيضاء تتوقد ، وعند الزفير ، ينفث بعض الشرر
وبعد ذلك مضغ الجمرة وابتلعها ، ثم عاد إلى رقصه . وبعد نصف ساعة تقريباً
سكن الدراويش للراحة .

وقبل أن يكف السابقون ، كان فريق آخر من الطائفة نفسها قد بدأ يعمل
بالقرب من الرواق . وكانوا قد رتبوا أنفسهم مثل السابقين . وكانت حلقة الضاربين
على الطار ، مثل الفريق الآخر تقريباً في العدد ، غير أن الراقصين هنا كانوا حوالى
اثنى عشر ؛ وأحياناً يكونون أقل . وأخذ أحدهم ، وكان طويل القامة ، عارى الرأس
حليقه ، جرة لامعة من حجرة كانت تقدم إلى الراقصين كما يقدم طبق من الكعك
أو الحلوى ، ووضعها بين أسنانه لحظة ، ثم سحبها على لسانه ، وفغر فاه أكثر من
دقيقتين وشهق ثم زفر بشدة . وقد ظهر داخل فمه كأنه أتون ، وأخذ ينفث شرراً
مثل الدراويش السابق ؛ ولكن مظهره كان أقل هياجاً . وبعد أن مضى الجمرة
وبلعها ، انضم إلى حلقة الضاربين وجلس بجانب قديمي تقريباً . ولاحظته عن
قرب ، فلم أر منه أقل إشارة إلى أى ألم . وبعد أن شاهدت هذه الأعمال الغريبة
حوالى ساعة سكن الفريقان للراحة ؛ ولم يكن هناك بعد ذلك شيء آخر يستحق
الرؤية ، ففادرت المسجد (١) .

وياً كل العيسوية أحياناً ، في هذه المناسبة ، الزجاج مثل ما يلتهمون النار .
وكان أحدهم ، وهو الحاج محمد السلاوى ، من أشهر آكلى الزجاج والنار ، واشتهر
بأعمال أخرى . وكان رجلاً عظيم القامة ، وكان يقوم بإضاءة المصابيح ، وتوفى منذ
سنوات قليلة . ويقال إنه عندما كانت تظهر عليه علامات الهياج الشديد ،
يثب على العوارض الخشبية الممتدة بين الأقواس التى تعلو عمدان المسجد ، ويبلغ
ارتفاعها من الأرض ست عشرة قدماً أو أكثر ، ثم يجرى فوقها متنقلاً من
عارضة إلى أخرى . ثم يبلل أصبعه بريقه ويضرب به ذراعه إلى أن يدميها ، ثم
يوقف الزيف بالطريقة نفسها .

(١) يبدو أن أعمال ريتشاردسون Richardson المذكورة في كتاب Evelyn's
Memoirs (٣٨٥ — ٣٨٦ الطبعة الثامنة) قد فاقت أعمال الدراويش المذكورة هنا .

ويستمر الذكر أثناء المولد الليل بطوله . ويقضى الكثيرون الليل بالمسجد ،
فينامون على الحصر . وكثيراً ما يحدث سرقات هناك . وعند عودتي إلى
المنزل ، بعد مشاهدة العيسوية ، اكتشفت ما لا يقل عن ثمانى قلات على
نيابي .

لم أ شاهد في الليلة التالية شيئاً مسلياً ، عدا أن صدبني الكتبي الفضولي
الذي رأس ذكراً مرة أخرى ، أراد أن يجعلني مسلماً ورعاً (أو ربما ليعمل عملاً
طيباً) دون أن يستأذني من قبل ، فعرض جهاراً على أربعة فقهاء أن يقرأوا
« خاتمة » على حسابي ، إكراماً لسيدنا الحسين . وإذ كان أفراد الطبقتين العليا
والوسطى يعملون هذا عادة ، بمناسبة هذا العيد ، فإن رفضي ذلك كان يثير الشك ؛
فقام الفقهاء بقراءة الخاتمة بعد ظهر هذا اليوم ومساء اليوم التالي . وكان كل فقيه
يقرأ جزءاً من القرآن ، ثم يحل آخر محله ؛ وقد دامت قراءة الخاتمة تسع ساعات
تقريباً ، وبعد إتمامها قدموها باسمي الشرقي الذي اتخذته لنفسى وذكروا أنني صاحب
هذا العمل الصالح . وتناول كل قارئ شمة وبعض الخبز وقرشاً .

وفي يوم الاثنين طوى أكثر الحصر التي كان يجلس عليها جماعات من الفقهاء
المستخدمين لتلاوة القرآن . وقصد المسجد هذا اليوم عدد وافر من الرجال والنساء ،
وعلى الأخص من كان يرغب في التبرك بالزيارة ، ويكره الحشد المتزايد والاضطراب
السائد في اليوم التالي ، أو يوم المولد . وفي المساء التالي ، كانت الشوارع
المجاورة للمسجد مزدحمة ازدحاماً كثيفاً ، فكان من الصعب ، بعيد الغروب ،
المرور في بعض الجهات . وكان هناك عدة مصابيح معلقة في الشوارع ، وعدة
دكاكين مفتوحة .

وكانت الليلة أيضاً ليلة مولد السلطان الصالح أيوب المشهور الذي يمتدح العامة
أنه من الأولياء . ويقول الجهلاء إنه كان يلبس « دلقاً » ، ويعيش على صناعة
السلال وغيرها من الخوص ، دون أن يعس أموال الدولة لنفقته الخاصة . ويقع ضريحه
الملاصق لمسجده في النحاسين ، وهو جزء من شارع المدينة الرئيسي ، ولا يبعد
كثيراً عن مسجد الحسين . وكانت سوق النحاسين مضاءة بالمصابيح العديدة ،

وكان أكثر الدكاكين مفتوحاً ، يجلس بها صاحب الخانات في ثلاثة أشخاص أو أربعة أو أكثر . ومسجد الصالح ومدفنه كانا آيلين إلى السقوط لإهمالهما إهمالاً شديداً بالرغم من أن أهل القاهرة يمجّلون هذا الأمير كثيراً . وعند اقترابي من باب المدفن أحاط بي جمع من « الحلبية » والسقائين ، يتوسلون إلى أن أقدم شيئاً ليوزعوا ماء إبريق أو قربة إكراماً للصالح . ودخلت بجذائي إذ رأيت آخرين يفعلون ذلك ، غير أنني خلعتهم عند عقبة المقصورة ؛ وهي غرفة مربعة يعلوها قبة ، ويتوسطها ضريح مستطيل فوق القبر ، يحيط به درابزون خشبي « مقصورة » . وعند رأس المقصورة أربع شمعات كبيرة ، وفي الطرف الآخر ثلاث . والشمعات جميعاً في غلاف من الجص على شكل الأعمدة الحجرية المستديرة القمة ، وهي تلون بخطوط أفقية عريضة حمراء ، على طراز الأحجار المتعاقبة المكونة للجدران الخارجية في أكثر مساجد القاهرة . والظاهر أن عدد الشموع كان في الأصل متساوياً في الطرفين ، إذ أن في الطرف الآخر فراغاً يبدو أنه كان مشغولاً بشمعة . ويقال إن هذه الشمعات أهداها أحد الباباوات ، أو أحد ملوك الفرنج ، إلى الصالح الذي اكتشف بفضل ولايته أنها مملّاة بالبارود دون أن يفحصها ، فأمر بوضعها هكذا في غلاف من الجص . وهناك قول آخر وهو أن الشمعات كانت مرسلة هدية إلى المقبرة ، بعد وفاة الصالح ببضع سنوات ، فظهر الصالح لحارس مدفنه في المنام وأخبره بمكيدة البارود . وقد وجدت غرفة المقصورة قليلة الإضاءة وعليها مظهر الإهمال والقدم . وكان البلاط غير مغطى . وعند دخولي قادني خادمان من خدم المسجد إلى المقصورة وأملئ أحدهما على الفاتحة والدعاء السابق ذكره عند الكلام على يوم عاشوراء ، بينما كان الآخر يقول : آمين . ثم طلب مني الأول أن أقرأ معهم الفاتحة مرة ثانية ، وأعطاني خمس كرات من خبز السيد البدوي ، وتناول كل منهما نصف قرش . وفتح لي خادم ثالث باب المقصورة لأدخلها ، وهو شرف اقتضى أن أعطيه هو أيضاً عطية زهيدة .

وتوجهت من مدفن الصالح إلى مسجد الحسين ، ماراً بشوارع شديدة الازدحام (وإن لم تكن الليلة هي الكبيرة) ، حسنة الإضاءة . ولم يكن هناك فرق كبير بين منظري الشوارع والمسجد . فقد رأيت بين جمهور المسجد كثيراً

الأطفال ؛ وكان بعضهم يلعب ، ويجرى كل وراء الآخر ، ويصرخون . وكان هناك جماعات من الفقهاء يتلون القرآن ، وحلقة صغيرة من الدراويش ، وسط الرواق الكبير ، يذكرون . وشققت طريقى بصموبة وسط « القبة » ، وقت بالطواف حول المقصورة ، حيث كان فريق كبير يتلو القرآن . وبعد أن غادرت المسجد ، قضيت ساعة ونصفاً في أحد الشوارع مستمماً إلى أحد الشعراء .

وفي اليوم التالي ، آخر أيام المولد وأهمها ، كان مسجد الحسين وما جاوره أكثر ازدحاماً من الأيام السابقة . وكانت المصاييح معلقة بأسواق المدينة ووكالاتها ، وبأبواب كثير من منازلها الخاصة بالمطبقتين الوسطى والعلوية أيضاً ، لتضاء في الليلة التالية ، ليلة المولد . وكان عدد المتسولين الذين يسألون الصدقة إكراماً لسيدنا الحسين في الشوارع هذا اليوم مدهشاً . ولما كنت قد جلست في أحد حوانيت الشارع الرئيسي بعد الظهر ساعة تقريباً ، فقد تعبت من ترديد : « الله يعينك ! » « الله يعطيك ! » الخ . وخيل إلى أن جميع سكان القاهرة تقريباً خرجوا إلى الشوارع . واجتمع جميع الأتراك المقيمين هنا تقريباً بجوار الحسين . وكان هذا اليوم مخصصاً لزيارة مقصورة الحسين ، فإن المعتقد أن الرسول يحضر هناك هذا اليوم كله واللييلة التالية ، فيشاهد زيارة أتباعه الأتقياء لحفيده . ومع ذلك بفضل أغلب كبار الناس الذهاب في اليوم السابق ، أو في أى يوم من أيام العيد ، ما عدا اليوم الأخير ، لكثرة الازدحام فيه . إلا أنى ذهبت في هذا الوقت للسبب نفسه الذى عاق هؤلاء . ودخلت « القبة قبيل الغروب ، وقد أدهشنى أن أجد طريقاً أعد لى لأتقدم بسهولة إلى المقصورة . ولقننى أحد الخدم ما قيل يوم عاشوراء ، وأعطانى قبضة من خبز السيد البدوى . وما كاد يتم ذلك حتى ضغطني طالبو الصدقات فأوشك نفسى أن ينقطع . فقد طالبنى ملقن الدعاء بقرش ، وقال ثان : « لقد قرأت لك سورة يس يا أغا . » وقال ثالث : « يا افندى ! أنا خادم المقصورة . » وكان أكثر الباقيين متسولين عاديين . وأدركت تواء أن الأتراك كانوا محقين في اختيار يوم آخر . وتبمنى أكثر المتسولين لاجابة ممن لا يستحقون شيئاً وسط ازدحام المسجد ، وفي الشارع ؛ وكنت قد فرقت كل ما فى جيبى ، وكان ذلك أكثر من المألوف . ودعيت إلى الجلوس على مصطبة كانت

مقابلة للمسجد لأخلص من زحمتهم . ولم أر في المسجد شيئاً يلاحظ غير الاحتشاد والاضطراب ، وأسراب المتسولين ، رجالاً ونساء وأطفالاً . وفي المساء كان المسجد لا يزال مزدحماً جداً ؛ ولم يكن هناك طقوس تقام غير زيارة المقصورة ، وتلاوة القرآن والذكر . وكانت الشوارع حينئذ أكثر ازدحاماً إلى ما بعد منتصف الليل بكثير ؛ وكانت الأنوار تنكسبها مظهراً بهجاً . وكانت سوق « الجوهرجية » مضاعة بفيض عظيم من الشماعد ، وقد غطيت بالسقائر . وكانت مآذن المساجد الكبيرة مضاعة أيضاً . وكان كثير من الحوانيت مفتوحاً علاوة على دكاكين المأكولات والقهوة والشراب . وكان يجلس بداخل بعضها فقهاء يقرأون « الخاتمة » كل اثنين أو أكثر معاً . وكان هناك شعراء ومحدثون وموسيقيون ومغنون ، في أما كن مختلفة ، مثل الليالي السابقة .

يحتفل بمولد السيدة زينب ، ابنة الإمام علي ، وحفيدة الرسول ، في منتصف رجب^(١) تقريباً ، في ليلة أربعاء دائماً . ويبدأ الاحتفال على العموم قبل أسبوعين من اليوم الرئيسي وهو اليوم الأخير ، أو الثلاثاء . ويقع ميدان الاحتفال بجوار المسجد الذي يعتقد عامة الناس أن السيدة مدفونة به ؛ وهو بنيان كثير الزخرفة غير فائق الجمال ، يقع في الحى الجنوبي الغربى للماصمة^(٢) . ويعمل المدفن المزعوم مقام مستطيل ، مغطى بحجر مطرز ، ويحيط به مقصورة برزية عليها مظلة خشبية ، تشبه تلك التى توجد بمسجد الحسين . والمدفن في غرفة صغيرة مرتفعة يتوجها قبة يدخلها الزوار وقت المولد للدعاء والطواف حول المقام . وقد زرت المقام في اليوم الأخير ، أى اليوم الكبير من المولد . ورأيت في أحد الشوارع القريبة من المسجد عدة رواة « أبوزيدية » ، وحواة ، « وقردياتية » ، وراقصين ، وبهلوانية . وقد أملى على في المسجد الدعاء الشائع في مثل هذه المناسبات ، بعد الفاتحة ، وتناولت قرصين من خبز السيد البدوى . وكان باب المقصورة مفتوحاً ؛ غير أننى

(١) في هذا الوقت تقريباً ، يأخذ الحجاج الأتراك في القدوم إلى مصر ، في طريقهم إلى مكة .

(٢) وقد شرع في بناء هذا المسجد قبيل الحملة الفرنسية ، وأتم بعد خروجها من مصر .

أخبرت أنه لا يسمح بغير النساء بالدخول ، لاعتبار المكان مقدساً كالحریم .
ولذلك اكتفيت بالطواف حوله ؛ وقد صعب على إتمام ذلك لكثرة الزائرين ،
ولضييق المسافة بين المقصورة وجدران الغرفة . وقد صاحت بي امرأة محترمة
كان من الشاق عليها وجودها في مثل ذلك الازدحام ، أن أخلى لها مكاناً ، في
لغة جافية خاصة بالنساء العربيات ^(١) . وسألني كثير من الحاضرين أن أكلفهم
تلاوة سورة من القرآن لأجل السيدة . وكانوا يلحون في سؤالهم بهذا الدعاء :
« الله يبلغك مقصودك ! » ؛ إذ أن زائري أضرحة الأولياء يقصدونها ليعرضوا
بعض أدمية خاصة . وكان هناك فريق من الفقراء المكفوفين يجلسون على الأرض
يسألون الصدقات . وكانت حصر الجامع صرغوة ، ولم يكن يرى هناك غير
التمتعطين الكسالى . وقد ضايقني عند الخروج نفر من الحملية والسقائين لأعطهم
نقوداً فيوزعوا الماء إكراماً « لبنت الإمام » . والعادة أن يمنح خدم المقصورة ،
واحد أكثر ، بعض نقود صغيرة ، وكذلك أحد الفقهاء ليقول سورة من القرآن ،
والمسولون بالجامع ، وأحد الحملية أو السقائين . وكان أهم ما يقام بالمسجد مساء
الذكر . ويقصد دراويش طائفة أو أكثر المولد هناك كل مساء .

* * *

يحتفل في ليلة السابع والعشرين من رجب « بليلة المعراج » ، وهي ليلة صعود
الرسول إلى السماء ^(٢) ، في جانب من ضاحية القاهرة الشمالية ، خارج باب العدوى .
ويضيف الشيخ المبكرى نفراً كثيراً في منزل له بهذا الحى ، حيث يقام الذكر
ثلاثة أيام قبل الحفل . ويرى المرء بهذه المناسبة ، علاوة على الألعاب المشاهدة
عادة في الشوارع في الأعياد المماثلة ، من الحواة والرواة الخ ، « الدوسة » العجيبة ،
التي وصفها عند الكلام على مولد النبي . وهي تقام في شارع قصير واسع من
الضاحية المذكورة سابقاً ، تجاه مسجد الطشطوشى ، في اليوم السادس والعشرين ،
آخر أيام العيد وأهمها . وقد كنت أحد المشاهدين . ولما كان اليوم يوم جمعة ،

(١) « ما ترقنیش یا سیدی . بطنی ملیان » .

(٢) وقد قيل إنه أسرى به من مكة إلى القدس ، وإنه رفع من هناك إلى السماء ،
حيث كلم الله ، وإنه عاد إلى مكة ، في ليلة واحدة .

فقد كان على شيخ السعدية وهو الوحيد الذي يستطيع القيام بهذه الكرامة المشهورة كما قيل أن يقوم بفروض الصلاة والخطبة العادية في مسجد الحسين ظهراً . ثم ركب من المسجد إلى مكان الدوسة في موكب يسبقه صف طويل من دراويشه يحملون أعلامهم وطبولهم الصغيرة التي يستعملونها كثيراً . وكنت بهذا المكان بعيد الظهر ، وجلست فوق مصطبة تمتد أسفل واجهة مسجد الطشطوشي .

وبينما كنت جالساً هنا أتت بعشاهدة الحشد الذي جذبه الفضول نفسه إلى هذا المكان ، صر بالقرب مني ولي مشهور كان قد سألني منذ أيام بعض قروش ليطعم الفقراء بهذه المناسبة ؛ فلما رأيته جلوساً إلى جانبي وأخذ يروي لي ، قطعاً الوقت في انتظار الدوسة ، قصة تتصل باحتفال هذا اليوم . فقال إن أحد السلاطين ^(١) كان قد سخر علناً بقصة المعراج ، مؤكداً أنه من المحال أن يكون الرسول قد أسرى به من فراشه بمكة إلى القدس ، ثم صعد مع جبريل إلى السماء السابعة ؛ ثم عاد إلى القدس ثم إلى مكة ، فوجد فراشه لا يزال دافئاً . وفي أحد الأيام كان يلعب الشطرنج مع وزيره حينما دخل عليه ولي الله الطشطوشي ، واستأذنه في ملاعبته مشترطاً أن يقوم السلطان إذا غلبه بما يأمر . فقبل السلطان ذلك . وخسر الدست ، فأمره الولي أن يغتسل في مغتسل ماء . وغتسل السلطان فوجد نفسه في قصر فاخر وقد تحول امرأة بارعة الجمال ، ذات شعر مرسل ، وفطنة ساحرة ، وأنوثة وافرة . وتزوج ، أو تزوجت ، بـ ابن أحد الملوك ، وأنجبت ثلاثة أطفال على التوالي ؛ ثم عاد إلى المغتسل وخرج منه فأخبر الوزير بما حدث له . فلما ذكره الولي بانكاره موضوع المعراج ، أعلن إيمانه بالمعجزة ، وأصبح مسلماً حنيفاً . ولذلك يحتفل دائماً بالمعراج بجوار المسجد الذي دفن فيه الطشطوشي كما يحتفل بمولده في الوقت نفسه .

ووصل موكب شيخ السعدية بعيد انتهاء القصة السابقة ، بعد الظهر بساعة وربع . وكان الأشخاص المتقدمون ، وخاصة دراويشه ، وعددهم حسب الظاهر يزيد على المائة (وقد وجدت إحصاءهم مستحيلاً) ، منبطحين في الشارع ،

(١) هذه القصة تنطبق على الخليفة الحاكم . وقد سمعتها تروى ببعض اختلافات طفيفة .

متلاصقين بقدر الإمكان ، على الطريقة نفسها في مولد النبي . ولم ينفك هؤلاء عن ترديد اسم الله . وجرى فوق ظهورهم عدد من الدراويش حفاة ، يضرب الكثير منهم طبولهم الصغيرة ؛ ويحمل بعضهم أعلام طائفة الرفاعية السوداء (وهي الطائفة القريبة للسعدية) ، ويحمل اثنان « شاليشا » (وهو عمود طوله عشرون قدماً تقريباً ، يشبه سارية العلم الكبيرة ، وهو يبرق السعدية الرئيسي ، وبقمته حليلة مخروطة من النحاس) . ثم حضر الشيخ راكباً الجواد الرمادي نفسه الذي ركبته في مولد النبي . وكان يلبس برنساً فاتح الزرقة ، مبطناً بالفرو ، ومقلة سوداء أو تميل إلى السواد . وتقدم فوق الساجدين ، وهو لا ينقطع عن الهمس . وقاد جواده شخصان يدوسان الساجدين أيضاً ، أرجلهم ، ورؤوسهم أحياناً . وقص الجواد مرة وشب ، وكاد يدوس رؤوس الدراويش . وقد مر فوقهم بخطى ثقيلة . ودخل الشيخ منزل الشيخ البكري الملاصق للمسجد . ولم يبد على أى واحد من المنبطحين أنه جرح ، وقام كثير منهم يضحكون ؛ ولكن أحدهم قام « ملبوساً » ، كما بدا أنه كان على وشك الإغماء ، مع أنه لم يضع يده إلى ظهره ، كما لو كانت خطى الجواد قد أصابته . وقد يكون الرجل مع ذلك قد أصابه الحصان فاجتهد أن يخفى ذلك .

وبعد الدوسنة ، ألح صديقي الولي في حضوري أنا وثلاثة فقهاء إلى منزله القريب . وقادنا إلى غرفة صغيرة علوية ، مؤثثة بسجادة قديمة ومساند . وجلس الفقهاء معي ، وتلوا الفاتحة معاً بصوت مرتفع جداً . ثم رتل أحدهم نصف سورة البقرة تقريباً بصوت موسيقي ، وأتمها آخر . وأحضر مضيفنا بعد ذلك مقعداً ، ووضع فوقه صينية عليها ثلاثة أطباق كبيرة « عيش بلحم » . ويتكون هذا اللون من الطعام من اللحم المفروم يقلى ويتبل بالطحينة والخل والبصل المقطع ، ثم يوضع على أقراص من العجين المخمر ، ويسوى . وجلست أنا والفقهاء نتناول الطعام بينما كان مضيفنا يقوم على خدمتنا . ودخل فقيه رابع ، وانضم إلينا في تناول الطعام . وبعد أن أكلنا ، قرأ الفقهاء الفاتحة للمضيف ، ثم لى ، وانصرفوا ولم ألبث أن تبعهم .

في ليلة المراج ، يعود الشيخ البكري إلى منزله بالأزبكية ، بعد الغروب

بساعة ونصف تقريباً ، في موكب يتقدمه كثير من حملة المشاعل والدرابيش .
وفي هذه الليلة تضاء مآذن الجوامع .

يبدأ الاحتفال بمولد الإمام الشافى في الأربعاء الأول أو الثانى من شهر
شعبان ، وعلى العموم في الأربعاء الأول ، إلا إذا وقع في اليوم الأول من الشهر
أو في الثانى منه . وينتهى في ليلة الخميس من الأسبوع التالى ، ويقام الاحتفال
بالقبرة الكبرى المسماة « القرافة » ، في الجانب الصحراوى جنوبى العاصمة ،
حيث مدفن الإمام ، وبالقسم الجنوبى من المدينة . ولما كان الإمام الشافى هو
مؤسس المذهب الذى ينتمى إليه أكثر القاهريين ، فإن مولده يجتذب كثيراً من
الزائرين . وتشبه احتفالات هذا المولد تلك التى تقام في الموالد الكبرى الأخرى ؛
وتقام الدوسة يوم السبت السابق على اليوم الأخير ، أو اليوم الرئيسى . وفي هذا
اليوم الأخير ، يوم الأربعاء ، يكثر الزوار ، ويقام الذكر وغيره في الليالى التالية
في مسجد الامام . ويعلمو قبة المسجد زورق معدنى مثبت في الرأس ، يوضع فيه
عادة ، بمناسبة المولد ، أرب قح ، وحمل جمل من الماء ، للعلفور . ويقال إن الزورق
يدور أحياناً عند ما لا يكون هناك هواء يحركه ، وحينما يتجه يتنبأ بحوادث
مختلفة حسنة أو سيئة : كالخاء والشدة ، وموت رجل عظيم الخ .
ويتبع مولد الامام موالد عديدة أخرى . غير أن الموالد السابق ذكرها هي
أشهرها . وتكاد الاحتفالات تتشابه فيها جميعاً .

يعظم المسلمون ليلة النصف من شهر شعبان باعتبارها وقت تثبيت مصير
الإنسان في العام التالى . ويعتقد أن سدرة الجنة تحمل ورقات بقدر عدد
الأحياء من الإنسان في العالم . وتسمى تلك الشجرة عادة « سدرة المنتهى »
لعدة أسباب على الأرجح ، وعلى الأخص لأنها ، حسب قولهم ، في طرف
الجنة (١) ، أو في أعلى مكان منها . ويقال إن الورقات كتب عليها أسماء تلك

(١) وفي تفسير الجلالين يشرح سدرة المنتهى في (سورة النجم الآية ١٤) أنها الشجرة
التي لا يتجاوزها أحد من الملائكة وغيرهم .

الكائنات جميعاً ؛ فتحمل كل ورقة امم شخص واحد ، واسمى أبيه وأمه ، وإن الشجرة تهز ، في الليلة السابق ذكرها ، بعيد الغروب ، فتقع ورقة من قدر له الوفاة في العام التالي . وإذا كان مونه حالا ، تذوى ورقته كلها تقريباً ، ولا يبقى مخضراً غير جزء صغير جداً . وإذا كان موته يحل متأخراً في العام التالي يبقى جزء كبير من ورقته مخضراً ؛ ويكون اخضرار جزء الورقة بنسبة الوقت الذي يعيشه ؛ ومن ثم تكون تلك الليلة شاقة على المسلمين الذين يراعونها بالدعاء الشديد والخشوع . وهناك دعاء خاص يقرأ بهذه المناسبة ، عقب صلاة المغرب . ويقرأ الدعاء من استطاع في المسجد أو في غيره . ويجتمع الآخرون في المساجد لهذا الغرض ، ويستأجرون فقيهاً ليعاونهم ؛ ولذلك يذهب كثير من الفقهاء إلى المساجد للقيام بهذا العمل . ويعمل كل فقيه لنفسه من الناس . فيتلو أولاً سورة يس ، ثم يقرأ الدعاء ، رافعاً يديه أمام وجهه ، كما في الأدعية العادية ، ويفعل غيره من المتعبدين مثله ؛ ويقرأ الفقيه كلمة أو أكثر يرددها الآخرون بعده . والدعاء كما يلي : « اللهم يا ذا المن ، ولا بمن عليه ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول والإينام ، لا إله إلا أنت ، ظهر اللاجئين وجار المستجيرين وأمان الخائفين . اللهم إني كنت كتبتي عندك في أم الكتاب (١) شقيماً ، أو محروماً (٢) ، أو مقترأ على في الرزق ، فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرمانى (٣) ، وإقتار رزقي ، واثبتني عندك ، في أم الكتاب ، سعيداً مرزوقاً ، موفقاً للخيرات . فإنك قلت (وقولك الحق) في كتابك المنزل على لسان نبيك المرسل : « محو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب (٤) » : إلهي بالتجلى الأعظم ، في ليلة النصف من شهر شعبان المكرم ، التي يفرق فيها كل أمر حكيم (٥) ، ويبرم ، أن تكشف عنا من البلاء ما نعلم ، وما لا نعلم ، وما أنت به

(١) ويفهم هنا أنه اللوح المحفوظ الذي يقال إن أم الكتاب وأوامر الله كتبنا فيه

غير أنني أخبرت أن أم الكتاب هو علم الله أو علم الغيب .

(٢، ٣) لم يذكر المؤلف في المجملتين على التوالي كلمتي « مطروداً » و « طردى » وهما

تذكران عادة في هذا الدعاء المعروف .

(٤) سورة الرعد آية ٣٩ .

(٥) سورة البقرة ، آية ٤ . وروى البعض أن هذه الكلمات تنطبق على ليلة القدر

أعلم ؛ إنك أنت الأعز الأكرم . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي (١) وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد ترديد ذلك يتلو المتعبدون أى دعاء خاص .

* * *

تسمى الليلة التى يتربق فيها إهلال رمضان ليلة الرؤية فيذهب نفر من الناس عصر اليوم السابق أو قبل ذلك ، ليقضوا بضع ليال فى الصحراء ، حيث يصفو الجو خاصة ، لرؤية الهلال الجديد ؛ إذ أن الصيام يبدأ فى اليوم القالى لرؤية الهلال ، فإذا تعذرت رؤيته بسبب السحب ، بدأ الصوم عندما يتم شعبان ثلاثين يوما . وتكفى شهادة المسلم الواحد أنه رأى الهلال لإعلان الصيام . وفى مساء ذلك اليوم يسير موكب المحتسب ، ومشايخ الحرف المتعددة : الطحانين ، والخبازين والجزارين ، والقصاصين ، والبدالين ، وباعة الفاكهة ، ومهمهم بعض أعضاء آخرين من هذه الحرف ، وفرق من الموسيقيين ، وعدد من الفقراء ، يتقدمهم ، أو يتخللهم ، فرق من الجنود ، من القلعة إلى مجلس القاضى ، وينتظرون هناك عودة أحد المرسلين لرؤية الهلال أو شهادة أى مسلم آخر على أنه رآه . وتزدحم الشوارع التى يمر منها هذا الموكب بالمشاهدين على الجانبين . وجرت العادة فى هذا الموكب أن تقاد خيول مسرحية بأجل السُّرج . غير أن الموكب المدنى والدينى استبدل بأكثره عرض عسكري تافه . ويتكون موكب ليلة الرؤية الآن من مشاة النظام خاصة . ويتقدم حاملو المشاعل كل فرقة من الجنود ويتبعونها ، لينيروا لهم الطريق عند العودة ؛ ويتلوهم شيخ حرفة ما وآخرون من أتباعه وعدة فقراء يصيحون طول الطريق : الصلاة ! الصلاة ! صلوا على النبي عليه السلام . ويفصل كل فرقتين أو ثلاث فرق عدة دقائق . ويحتم المحتسب وتابعوه الموكب . وعند ما يصل خبر رؤية الهلال إلى مجلس القاضى ، يقسم الجنود والمجتمعون الآخرون أنفسهم إلى عدة فرق ، تعود إحداها إلى القلعة ، ويجول الآخرون فى

(١) يجد النبي محمد فى أميته سند نزول الوحي عليه ، وكان لذلك من التأثير على أمته مثل ما كان لكلام المسيح على اليهود الذين قالوا : وكيف يعرف الكتب هذا . وهو لم يتعلم « إنجيل يوحنا ٧ — ١٦ . غير أن تفسير الأمية على رأى المسلمين بأنها عدم المعرفة يجب أن يصحح بأنها الوثنية كما قال الدكتور سبرنجر Sperenger فى كتابه عن حياة محمد .

الأحياء المختلفة صائحين : « يا أمة خير الأنام ! صيام ! صيام ! » وعند ما لا يرى القمر هذه الليلة ، يخبر الشعب بهذا القول : « غدأ من شهر شعبان . فطار ! فطار ! » — ويقضى الناس على العموم شطراً كبيراً من الليل (عندما يعلن بدء الصيام في الغد) في الأكل والشرب والتدخين ، ويتهيجون كما يتهيجون عادة عند ما يخلصون من شقاء صيام اليوم . ويضاء داخل المساجد هذه الليلة كما تضاء في الليالي التالية . وتعلق المصابيح عند مداخل المساجد وفوق شرفات المآذن لم يعد المرء يشاهد ، في رمضان ، المارة يمسون بشبكهم في الشوارع ، كما كان يشاهد في أوقات أخرى ، فيراهم بدلاً من ذلك ، إلى ما قبل الغروب ، يحملون عصا أو مسبحة ، أو لا يحملون شيئاً . ولم يعد بعض المسيحيين الآن يخشون ، كما اعتادوا ذلك ، التدخين في حوانيتهم على مرأى من المسلمين الصائمين . وتبدو الشوارع كثيفة في الصباح ، إذ أن كثيراً من الحوانيت يغلق ؛ غير أنها تفتح جميعاً في العصر وتزدحم كالعتاد . ويهلبس المسلمون في حديثهم على العموم ، أثناء النهار ، عندما يصومون . وفي الليل ، بعد الإفطار ، يشبون وعمرحون بطريقة غير عادية . وعادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرين غيرهم ، أن يقصدوا مسجد الحسين ، عصر كل يوم في رمضان ، للصلاة والاسترخاء . وفي هذا الوقت يعرض بعض التجار الأتراك الذين يسمون « تحفجية » ، على الناس ، في ساحة الميضاة ، مجموعة من البضائع ذات ذوق وترف يلائمان رغبات مواطنيهم . ومن الشائع ، في هذا الشهر ، أن تشاهد تجاراً في حوانيتهم يقلون القرآن أو الأدعية ، أو يوزعون الخبز على الفقراء . وعند المساء ، وبعد الغروب بقليل ، يزداد المتسولون مضايقة وإلحاحاً أكثر من المعتاد . وفي هذه الأوقات تزدحم المقاهي بأخلاق الناس ، فأكثرهم يفضل الإفطار بتناول القهوة والشيك . وقل من لا يصومون من الفقراء . غير أن كثيراً من الطبقتين العليا والوسطى يفطرون سراً .

وفي رمضان ، على العموم ، يوضع كرسي صينية الطعام ، قبيل المغرب ، في غرفة الاستقبال بمنازل الطبقتين العليا والوسطى . ويوضع فوقه صينية مدهونة باللك ، عليها صحاف عديدة تحوى أصنافاً مختلفة من الفاكهة المجففة (تسمى نقلا) ؛ مثل البندق (المقل على العموم) ، والزبيب ، والجوز واللوز بقشرها ، والبلح

والتين المجففين ، والبندق المسكر ، الخ ، والكحك . ويوضع معها أيضاً عدة « قلى » من الماء المحلى بالسكر ومعها عادة كوبة أو كوبتان زيادة على عدد الزايرين الحاضرين ، ليشترب كل من يقدم على غير انتظار . وكثيراً ما تضاف قطعة من الجبن الطازج وبعض الخبز . ويجهز الشبك أيضاً . والعادة أن تزود المنازل التى يكثر زوارها بشبكات من القصب . ويشرب رب الدار ومن يكون معه من أسرته أو من أصدقائه كوباً من الشراب ، بعد أذان المغرب مباشرة ، وهو يتلو الغروب بأربع دقائق . ثم يقيمون الصلاة عادة ؛ وبعد ذلك يتناولون بعض النقل ، ويدخنون الشبك . وبعد هذا الأكل الخفيف ، يجلسون لتناول طعام وافر من اللحم وغيره ، ويسمونه « فطوراً » . وبعد الفراغ من الطعام وشرب القهوة وتدخين الشبك ، يقيمون صلاة العشاء ، ويؤدون صلاة التراويح ؛ وتتكون صلاة التراويح من عشرين ركعة ؛ وتردد بين صلاة للعشاء والوتر . وقل من يقيم هذه الصلاة إلا فى المسجد ، حيث يوجد إمام يؤم المصلين ؛ فلا يفعلون أكثر من متابعة حركاته . وتقل المساجد الصغيرة فى رمضان بعد صلاة التراويح . وتظل الجوامع الكبيرة مفتوحة إلى السحور ، أو إلى الإمساك ، ويضاء داخلها ومداخلها ما دامت مفتوحة ؛ وتضاء المآذن طول الليل . ويختلف مدى الوقت الذى يسمح للمسلمين بالإفطار فيه (وهو يبدأ من المغرب ، كما سبق ذكره) من ١١ ساعة و ٥٥ دقيقة إلى ٧ ساعات و ٤٦ دقيقة (عند خط طول القاهرة) ، تبعاً لطول الليل أو قصره ؛ إذ أن الإمساك يكون دائماً قبل صلاة الفجر بعشرين دقيقة . ومن ثم يصوم المسلم كل يوم من ١٢ ساعة وخمس دقائق إلى ١٦ ساعة و ١٤ دقيقة .

ويتناول المسلمون على العموم فطورهم بالمنزل فى شهر رمضان ؛ وبعد ذلك يعضون أحياناً ساعة أو ساعتين فى منزل أحد الأصدقاء . ويقصد الكثير منهم ، وخاصة أفراد الطبقة الدنيا المقاهى مساء ، إما للاجتماع بالناس ، وإما للاستماع إلى أحد القاصين الذين يسلون القوم فى عدة مقاهى كل ليلة من هذا الشهر . ويشاهد فى الشطر الأكبر من الليل كثيراً من المارة فى الشوارع . وتظل دكاكين المشروبات والمأكولات مفتوحة . وهكذا ينقلب الليل نهراً ؛

وبخاصة عند الأغنياء ، الذين ينام أكثرهم معظم النهار . وجرت عادة بعض علماء القاهرة أن يقيموا ذكراً في منازلهم كل ليلة من ليالي رمضان . وقد يدعو بعض الآخرين أيضاً أصدقاءهم ، ويسلونها باقامة ذكراً أو خاتمة .

في كل ليلة من ليالي رمضان يجول « المسحرون » ليقولوا أولاً كلمة ثناء أمام كل منزل يستطيع صاحبه أن يكافئهم ، وفي ساعة متأخرة يجولون ليعلموا وقت السحور . ولكل « خط » أو قسم صغير في القاهرة مسحر . ويبدأ المسحر جولته بعد الغروب بساعتين تقريباً (أى بعيد أداء صلاة العشاء) ؛ ممسكاً بشماله طبلاً صغيراً يسمى « بازا » ، أو « طبلة المسحر » ، وييمينه عصا صغيرة أو سيراً ، يضربه به ؛ ويصحبه غلام يحمل قنديلين في إطار من الجريد . ويقفان أمام منزل كل مسلم غير فقير ؛ وفي كل مرة ، يضرب المسحر طبله ثلاث مرات ؛ ثم ينشد قائلاً : « عز من يقول ، لا إله إلا الله . ثم يضرب بالطريقة نفسها ويضيف قائلاً : « محمد الهادى رسول الله » . ثم يعود إلى ضرب طبله ويواصل كلامه : « وأسعد لياليك ، يا فلان (مسمى صاحب المنزل) » . إذ أنه يستفهم من قبل عن أسماء سكان كل منزل ، فيجيب كلا منهم ، ما عدا النساء ، بالطريقة نفسها ؛ فيسمى أخوة سيد المنزل وأولاده وبناته ؛ الأبكار قائلاً في الحالة الأخيرة . « أسعد الليالي إلى ست العرايس ^(١) فلانه » ، ويضرب طبله بعد كل تحية ... — وهو ينشد ، أمام منازل العظماء (كما في أحوال أخرى أحياناً) ، بعد أن يقول : عز من يقول : لا إله إلا الله ، محمد الهادى رسول الله ، أغنية طويلة في سجع غير موزون ؛ يبدأ فيها باستغفار الله ، ويصلى على الرسول ، ثم يأخذ في رواية قصة المعراج وغيرها من قصص المعجزات الماثلة ، ضارباً طبله بعد كل قافية . ولا يقف المسحر على منازل الخزانى . ويتناول المسحر على العموم من منزل المتوسط الطبقة قرشين أو ثلاثة قروش أو أربعة في العيد الصغير ؛ ويعطيه البعض مبلغاً زهيداً كل ليلة .

قد يتأثر القارئ بما رويت قبلاً عن وظيفة المسحر باعتبارها صورة لأخلاق المسلمين ، ولكنه سينزid دهشة مما يلي : كثيراً ما يعتمد نساء الطبقة المتوسطة

(١) كثيراً ما تسمى السيدات الحديثات السن « عرائس » .

إلى وضع نقد صغير (خمسة فضة ، أو من خمسة فضة إلى قرش ، أو أكثر) في ورقة ، ويقذف بها من النافذة إلى المسحر ، بعد أن يشعلن الورقة ، يرى المسحر مكان سقوطها . فيقرأ الفاتحة بقاء على طلبهن أحياناً ، أو من تلقاء نفسه ، ويروي لمن قصة قصيرة ، في سجع غير موزون ، ليسلمهن ؛ مثل قصة « الضربتين » . — وهي قصة مشاجرة امرأتين متزوجتين رجلاً واحداً . وبعض ما يرويه في هذه المناسبات بذيء ؛ ويستمتع إليه مع ذلك النساء في المنازل الحسنة السمعة . ولا يقام في هذا الشهر أذاناً « الأولى » ، ويستبدل بهما آخران . ويلقى أولهما ، ويسمى « الأبرار » ، قبل منتصف الليل ، ويتكون من الآيات التالية ، من سورة الإنسان : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييراً . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » . — ويسمى الأذان الثاني « السلام » وهو مجموعة من الصلوات على الرسول ، تشبه تلك التي تقرأ قبل صلاة الجمعة ، ولكنها لا تشبهها دائماً . ويلقى على العموم بعد منتصف الليل بنصف ساعة . ويلقى أذان الصباح أكثر تبكيراً من المعتاد ، لتنبيه المسلمين إلى تناول « السحور » ؛ فيؤذن قبل الإمساك بساعتين ونصف تقريباً ، في الليالي الطويلة ، وبساعة ونصف تقريباً ، في الليالي القصيرة . وهناك أذان آخر يلقي من « الدكك » في الجوامع قبل الإمساك بعشرين دقيقة ، كتنبيه أخير لمن يكون قد أهمل تناول الطعام ؛ ويصيح « الميقاتي » (الذي يعلن أوقات الصلاة الخ .) أو بعض آخر ، وقت الإمساك في هذه الجوامع ، « ارفعوا ! » . ويتجول المسحر ، قبل الإمساك بساعة ونصف ، ليوقظ من الناس من أصره بالمناداة عليهم ، ليتناولوا الطعام ، أو لينذروهم بذلك ؛ فيقرع الباب ، وينادي إلى أن يجاب . ويفعل مثله بواب كل حي عند كل منزل في الحي . وبعض الناس يتناولون فطوراً خفيفاً ، ويجعلون السحور الوجبة الرئيسية . ويفعل آخرون العكس ، أو يجعلون الوجبتين مماثلتين . وينام أكثر الناس في نصف الليل تقريباً .

يمضي بعض أتقياء المسلمين الأيام العشرة الأخيرة من رمضان ولياليها في مسجد الحسين أو مسجد السيدة زينب . وتسمى إحدى تلك الليالي - والمفروض على العموم أن تكون السابعة والعشرين^(١) (أى الليلة السابقة على يوم السابع والعشرين) « ليلة القدر » . ويقال إن القرآن أنزل على محمد في هذه الليلة ، وإنها « خير من ألف شهر » ؛ ويعتقد أن الملائكة تنزل في بدء تلك الليلة إلى الفجر لتحمل النعم إلى المؤمنين ، وأن الدعاء يجاب بلا ريب ؛ إذ أن أبواب السماء تفتح حينئذ . ويقال إن الماء المالح ينقلب حذاء عذبا في هذه الليلة ، ولذلك يراعى بعض الأتقياء الليالي العشرة الأخيرة من رمضان بحشوع عظيم ، لجلهم أميها ليلة القدر . ويبقون أمامهم وعاء من الماء المالح يتذوقونه أحيانا ، ليختبروا حلاوته فيتأكدوا من الليلة . وجدت ، مع ذلك ، أن هناك سنة للرسول تحددها في ليلة مفردة العدد ؛ في ليلة ٢١ ، أو ٢٣ ، أو ٢٥ ، أو ٢٧ ، أو ٢٩

يحتفل في الأيام الثلاثة الأولى من شهر شوال بأصغر العيدين ، ويسمى عامة « العيد الصغير » ، وعلى الأصح « العيد الصغير »^(٢) . ويبدأ هذا العيد بانتهاء الصيام . وبعد شروق شمس اليوم الأول ، يظهر الناس في حللهم الجديدة أو في أحسنها ، ويجتمع الرجال في المساجد ، ويصلون ركعتين ، سنة العيد ، ثم يلقي الخطيب الخطبة ، ويقمانق الأصدقاء ، مهئين بعضهم بعضاً ، حينما يتقابلون في المسجد ، أو في الشارع ، أو في منازلهم . وهم يتزاورون لهذا الغرض على العموم . ويلبس البعض ، حتى من الطبقة الدنيا ، ملابس كاملة جديدة ، ويسكاد الكل بلبسوا شيئا جديداً ، ولو حذاء فقط . ويقدم السيد لخادمه قطعة واحدة من الثياب على الأقل ، جديدة ، ويتناول الخادم بعض قروش من كل من أصدقاء السيد ، عند زيارتهم المنزل ، أو عند ما يذهب إليهم لينفهم ؛ وإذا كان الخادم قد خدم سيداً سابقاً ، فإنه يذهب لزيارته أيضاً ، فيكافئه لهذه المشقة ؛ وقد يهدي إليه طبقاً من السكمك ، فيتناول مقابل ذلك ضعف قيمته ، أو أكثر ، نقوداً .

(١) وهي ليست الليلة القائل بها سيل Sale ، التي تقع بين يومى ٢٣ و ٢٤ . انظر

أحد هوامشه على سورة القدر

(٢) ويسمى أيضاً عيد الفطر . ويسميه الأتراك «رمضان بيرام»

ويأكل أهل القاهرة في هذا العيد « فسيخاً » ، و « كمكا » ، و « فطيراً » و « شريكاً » ويجهز بعض العائلات أيضاً طبقاً يسمى « مُمززة » يتكون من اللحم والبصل ، والدبس ، والخل ، والدقيق الخشن ؛ ويحضر رب المنزل لهائلته عادة « نقلاً » ، كالبنديق والزبيب الخ . وتقف أغلب حوانيت العاصمة ، ما عدا حوانيت المأكولات والمشروبات ، غير أن الشوارع تظهر ، لحشد المارة في ملابس العيد ، في منظر بهيج .

يزور أفراد العائلة ، بعضهم أو جميعهم ، والنساء خاصة ، مقابر أقاربهم ، في يوم من أيام هذا العيد أو أكثر . ويفعلون ذلك أيضاً في العيد الكبير (الذي سأتكلم عنه فيما بعد) . ويحمل الزوار ، أو خدمهم ، السعف والريحان أحياناً ، لوضعه فوق القبور التي يزورونها . ويشق السعف إلى عدة قطع يضمونها جميعاً ، أو أوراقها فقط ، فوق القبر . ويشاهد في هذا الوقت جماعات عديدة من النساء ، يحملن السعف في طريقهن إلى المقابر بجوار العاصمة . وهن يزودن أيضاً ، حسب ظروفهن ، بالسكك والشريك والفطير والبلح ، أو بعض المأكولات الأخرى ، لتوزعها على الفقراء الذين يقصدون المقابر في هذه الأيام . وتنصب الخبز أحياناً لهن وتحيط الخيمة بالقبر - موضع الزيارة ^(١) - . ويتلو الزائرون الفاتحة ، أو إذا استطاعوا يستخدمون شخصاً لقراءة سورة يس أولاً ، أو جزءاً أكبر من القرآن . وقد يستخدم عدة فقهاء لقراءة خاتمة عند القبر ، أو في المنزل . ويعود الرجال على العموم عقب القيام بهذه الطقوس مباشرة . ويذهب النساء عادة إلى القبر مبكرات فلا يعدن قبل العصر . وبعضهن (وأولئك لا يعتبرن على العموم حسنات السيرة) يمضين الليلة في الخيمة ، ويبقن إلى نهاية العيد ، أو إلى عصر يوم الجمعة التالي . وكذلك يفعل نساء العائلة التي تملك مدفناً مسوراً خاصاً ومنزلاً بداخله ؛ إذ أن هناك عدة مدافن مسورة مثل هذا يوجد بعدد غير قليل منها منازل لراحة النساء ، وسط مقابر القاهرة العامة . ويقال إن المكائد ليست غير شائعة في النساء

(١) ولا بد من قراءة السلام عند الدخول إلى المقبرة ، وعند الوصول إلى القبر ، بالطريقة المذكورة في الفصل العاشر ، عند الكلام على زيارة القبور وأضرحة الأولياء ؛ والسلام في الحالة الأولى عام ، وفي الأخرى خاص .

اللائى يمضين الليل فى الخيام بين المقابر . وتعرض مقبرة باب النصر الكبيرة ، فى القسم الصحراوى القائم شمال العاصمة مباشرة ، فى العيدين منظرأ يستحق الاعتبار وتقام فى جانب قريب من باب المدينة الذى تستمد منه المقبرة اسمها ، عدة أراجيج ، وخيم كبيرة يعمل بها الراقصون ، ورواة أبى زيد ، وغيرهم من اللاعبين ؛ ورى خلال المقابر عدة خيم لاستقبال زوار القبور .

* * *

عقب العيد السابق ذكره بيومين أو ثلاثة أيام تقريباً تحمل الكسوة الرسالة سنوياً مع قافلة الحجاج الكبرى ، فى موكب يسير من القلعة ، حيث تصنع على نفقة السلطان ، إلى مسجد الحسين ، لتخط أقسامها معاً ، وتبطن استعداداً للحج القريب . والكسوة ديباج أسود غليظ ، تغطيه نقوش (١) لآيات قرآنية الخ ، تنسج بالحرير من اللون نفسه ؛ ويمبر كل جانب شريط عريض ، مزين بنقوش مشابهة تشغل بالذهب (٢) . وإنى أكتب الآن عن موكب الكسوة ، بعد عودتى من مشاهدته ، فى السادس من شوال عام ١٢٤٩ (١٥ فبراير ١٨٣٤)

أخذت مجلسى بعد شروق الشمس فى دكان كتبى الباشا فى شارع المدينة الرئيسى مقابل مدخل سوق خان الخليل تقريباً ، وكان هذا الدكان وكل دكاكين الشارع تقريباً مزدحمة بأشخاص جذبتهم الرغبة فى مشاهدة الموكب شيوخاً وشباناً ؛ والمصريون من كل طبقة ومركز وسن يجدون لذة كبيرة فى رؤية المشاهدات

(١) وكان أكثر أصدقائى المسامين ينكرون هذا ، وقد ذكرته أمامهم عرضاً ، ولكن عندما قدمت قطعة من الكسوة ، اثبت حقيقة قولى . وقررت هذا لأين أن الكاتب كثيراً ما يتهم بالأخطاء فى السند الذى لا يعتبره أحد مقنعاً إقناعاً تاماً

(٢) والكعبة بناء يتوسط مسجد مكة ، ويجعلها المسامون تيجيلاً عظيماً . وهى على شكل مكعب تقريباً . وارتفاعها أكثر من ثلاثين قدماً تقريباً . وكل جانب عرضه مماثل للآخر ، أو أكثر قليلاً . وهى ليست مستطيلة تماماً . ويرفع غطاؤها كل سنة تقريباً فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ؛ فيقطع ، ويباع إلى الحجاج . ويبقى البناء عارياً خمسة عشر يوماً . وتوضع الكسوة الجديدة فى العاشر من ذى الحجة ، أول يوم العيد الكبير . ويعلق فى الداخل غطاء يحدد كلما اعتلى عرش تركيا سلطان جديد . ولا بد من تغيير الكسوة الخارجية سنوياً لتعرضها للمطر وغيره . ولما كان استعمال النسيج الحريرى ممنوعاً ، فإن كسوة الكعبة تبطن بالقطن ليكون ذلك مباحاً .

العامة . ولكن الشوارع لم تكن مزدحمة الازدحام العادى فى مناسبات مواكب
الحمل . وبعد الشروق بساعتين تقريباً كانت الأقسام الأربعة التى تكون كل منها
جانبا من الكسوة قد صرت محمولة بالسكان الذى اتخذت فيه مركزى ، فوضع
كل قسم من الحبال التى تربط بها على حمار . ولم تكن الجمير مزينة إطلاقاً ، ولا
مسرجة بإتقان ؛ وكان الحمارون فلاحين عاديين ، باللباس الأزرق العادى . ثم
مضت ثلاثة أرباع الساعة تقريباً ، ولم يظهر شئ يخفف من ثقل هذه الوقفة الطويلة
غير مرور بعض الدراويش ومهرجين وقفا اتفاقاً أمام دكان شاهدا به أشخاصاً
حسنى اللبس وذلك لأجل الحصول على عطية ، فاشتبكوا فى قتال مصطنع ، وشم
كل منهما الآخر بألفاظ غليظة مرتفعة ، وصفعه على وجهه بشدة .

بعد هذا قدم حوالى عشرين رجلاً فى ثياب رثة يحملون على أكتافهم
إطاراً طويلاً من الخشب امتد عليه ربع « الحزام » (أى الشريط السابق ذكره)
وهو قطع أربع تكون حينئذ تحاط معاً إلى الكسوة شريطاً متصلاً يحيط بالكعبة
جميعاً إلى ثلثى ارتفاعها تقريباً ، وهو من نسج الكسوة نفسها ، وتشغل النقوش
الذهبية خطوط جميلة متسعة . ويحيط بكل ربع حاشية ذهبية ، ويزين
كل طرف ، حيث تتصل الحواشى العليا والسفلى ، بالحرير الأخضر والأحمر ،
يحاط به ويزركش بالذهب . وكثيراً ما يتقدم أحد حاملى « الحزام » إلى بعض
المشاهدين المحترمين ليسألهم عطية . ومضى نحو ربع ساعة بعد أن صر ربع الحزام
الأول ، ثم صرت الثلاثة أرباع الأخرى متتالية مباشرة بالطريقة نفسها ، ثم فاصل
آخر مدة نصف ساعة جاءت بعده عدة جمال مرتفعة مخضبة بالحناء الخفيفة ، وتعلوها
سروج مرتفعة مزينة مثل ما وصفت فى عودة الحمل . وكان يركب كل منها ولد
واحد أو بنت واحدة أو أكثر ، وكان على بعضها قطط . وكان يتبع ذلك جماعة
من « الباطجية » (أو فرقة الطليعة) ، وهم فرقة موسيقية عسكرية ممتازة (آلاتها
مختلفة الأنواع ، ولكنها تتكون من الأبواق غالباً ، وجميع أفرادها أوريون)
وحرس الباشا ، وهم فرقة مشاة من الشبان المختارين يلبسون لباساً موحداً من الأسمر
الضارب إلى الأزرق الفاتم ، وأحذية حمراء جديدة ، وجوارب .

وكان يحمل بعد ذلك - مثبتاً على ظهر جمل جميل - « البرقع »^(١) ، وهو الستار الذى يعلق أمام باب الكعبة ، ممدداً على إطار مرتفع من الخشب . وهو من الديباج الأسود ، المزركش على طريقة الحزام ، بنقوش من القرآن فى حروف من الذهب ، ولكنه أكثر نخامة وزينة ؛ وكان مبطناً بالحرير الأخضر . وكان وجه البرقع ممدداً على يمين الإطار ، والحرير الأخضر على اليسار . وكان يتبع ذلك فرق عديدة من الدراويش بأعلامها ، وبينها « شواليش » كثيرة (مثل التى وصفها عند الكلام على الدوسة فى عيد المراج) ، وهى أعلام طوائف الدراويش الرئيسية . وحمل كثير من الدراويش أعلاماً عليها الشهادتين (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، أو آيات من القرآن ، وأسماء الله ، والرسول ، ومؤسسى طوائفهم . وحمل كثير من دراويش القادرية شباكاً ، مختلفة الألوان ، يمتد كل منها على إطار فوق (مدرة) . وهؤلاء الدراويش صيادون . وبعضهم كان يردد أسماء الله وصفاته ، كما فى الذكر العادى . واشتبك رجالان ، مسلحين بالسيف والترس ، فى قتال مصطنع . وكان هناك رجل آخر يركب حصاناً ، ويلبس لباساً غريباً من جلد الخراف ، وقلنسوة جلدية مرتفعة ، وذقناً مقلدة مضحكة ، تتكون من قطع صغيرة من الفتل الصوفية ، حسب الظاهر ، وشاربين من ريشتين سمراوين طويلتين . وكان هذا الرجل يتظاهر بكتابة « فتاوى » ، فيتناول من المشاهدين ورقاً ، ويأخذ قطعة من الخشب ينخس بها جواده ، كأنه يضمها فى وعاء الخبر . غير أن أكثر الفرق اعتباراً ، فى هذا القسم من الموكب ، هم دراويش الرفاعية ، ويسمون أولاد علوان ، وقد حمل كل منهم مسباراً حديدياً ، طوله قدم تقريباً ، ويملو طرفه الغليظ كرة حديدية ، يعلق بها عدد من السلاسل القصيرة الدقيقة . ودفع كثير من هؤلاء الدراويش ، حسب الظاهر ، المسبار فى عيونهم بعنف ، وسحبوه دون أدنى مظهر لضرر ما ؛ ويبدو المسبار مغروزاً إلى عمق بوصة تقريباً . وقد أجادوا القيام بهذه الحيلة لإجادة طيبة . ويكتفى بإعطاء المشعوز الدينى قطعة نقدية صغيرة ، أو حشوة شبك ، جزاء على هذا العرض الخارق

(١) كثيراً ما يسمى العامة هذا : « برقع ستننا فاطمة » . إذ يقال إن فاطمة شجرة

الدر ، زوجة السلطان الصالح ، كانت أول من أرسل برقعاً من هذا النوع لتغطية باب الكعبة

المزعوم . وبدا المشاهدون بجانبى لا يشكون فى خداع هذا العمل الغريب . وقد
لامنى أحدهم ، وهو رجل ذو معرفة فائقة ، لتعبيرى عن رأيى فى هذا العمل بأنه
براعة فى الاحتيال . وكان أغلب دراويش الموكب من الرفاعية ، وكان يتبعهم
شيوخهم راكبين الجماد .

وجاء بعد ذلك الحمل - وقد وصفته عند الكلام عن عودته إلى القاهرة - وقد
أضيف إلى موكب الكسوة لزيادة العرض . أما موكب الحمل العظيم السابق على سفر
قافلة الحجاج الكبيرة فيكون بعد ذلك بمدة تتراوح بين أسبوعين وثلاثة أسابيع .
وتلا الحمل غطاء أسود آخر ، مستطيل الشكل مزركش بالذهب على الطريقة
نفسها ، وهو يوضع على مقام ابراهيم ، فى مسجد مكة . وركب خلف هذا ضابط
تركى يحمل علبة صغيرة من الحرير الأخضر مزركشة بالذهب ، بها مفتاح
الكعبة ، فوق منديل مطرز . وأخيراً ، تبع كل ذلك الشيخ النصف عارى
المذكور فى عودة الحمل ، وهو يتبعه دائماً ، ويصحب القافلة إلى مكة ومنها ،
راكباً جملاً ، ولا ينفك عن تدوير رأسه .^(١)

يخرج كبار الضباط وحرس قافلة الحجاج الكبيرة فى القسم الآخر من شوال
وليس دائماً فى اليوم نفسه من الشهر ، ولكن على العموم فى الثالث والعشرين
أو ما يقرب منه ، مخترقين العاصمة ، من القلعة ، فى موكب عظيم متقدمين الحمل
ويسمى هذا « موكب الحمل » . ويجتمع الأشخاص المختلفون الذين يشتركون
فى الموكب ، وأغلبهم يسافرون مع القافلة ، يأخذون أماكنهم هناك بالنظام
الموضوع . ولما كان هذا الموكب يقل نخامة فى كل عام على التوالى تقريباً ، فأتى
أصفه كما شاهدته أول مرة أثناء زيارتى الأولى لمصر . وكانت الشوارع التى يمر
بها الموكب مزدحمة الجانبين بالمشاهدين ، جلوساً على مصاطب الدكاكين المقفلة ،
وواقفين أسفلها على الأرض . وحصلت على مكان جيد فى أحد دكاكين الشارع

(١) ذهبت إلى مسجد الحسين ، بعد ذلك بأيام قليلة ، لفحص الكسوة والأشياء
الأخرى المذكورة سابقاً حتى أستطيع أن أجعل كلامى عنها أكثر صحة وتاماً . وقد سمح
لى بمسكها حسب رغبتى . وقد أعطيت هدية صغيرة لهذا الامتياز ، ومقابل قطعة زائدة من
الكسوة ، طولها متر وعرضها كذلك تقريباً ، كنت قد طلبتها .

الرئيسى الذى يمر الموكب فيه إلى باب النصر .

بدأ الموكب يتقدمه مدفع ميدان صغير ، يستخدم لإطلاق إشارة رحيل القافلة بعد كل محط ، وكان قد مضى على شروق الشمس ثلاث ساعات تقريباً . وتبع ذلك فرقتان من الفرسان الأتراك غير النظاميين (الدلى والتفكيجى) تتكونان من خمسمائة رجل ، أكثرهم فى ثياب رثة ، ويبدون معاً بمظهر قطاع الطرق . بعد ذلك ، بنصف ساعة تقريباً ، ظهر عـدة رجال راكبين الجمال ، يضرب كل منهم زوجاً من النقارات مربوطاً بمقدم السرج . وخلفهم جمال أخرى ، لا يركبها راكب ، ذات أسرجة محشوة كبيرة ، من النوع المذكور عند الكلام فى عودة الحمل . وكانت تلك الجمال جميعاً مصبوغة باللون البرتقالى المغبر والحفاء وكان بعضها يحمل سمفاً أخضر مثبتاً عامودياً فوق أسرجتها كريش ضخـم ، وغيرها مزينة بأعلام صغيرة على الطريقة المشار إليها سابقاً . ويحمل الكثير منها جرساً كبيراً معلقاً على كل جانب . وكان بعضها أيضاً يحمل قرباً ، وأحدها يحمل « الحزنة » ، وهى صندوق مربع ، مغطى بالجوخ الأحمر ، يحوى المال اللازم للقيام بنفقات الحج التى تقع على عاتق الحكومة . ثم تبع ذلك أمتعة أمير الحج ، والكسوة الجديدة ، تحملها الجمال . وبعد ذلك فاصل آخر .

وجاء بعد هؤلاء عدة دراويش ، يحركون رؤوسهم من جانب إلى آخر ، ويرددون اسم الله . وكان مع هؤلاء عدة جمالين وسقائين وكفاسين وغيرهم ، وكان بعضهم يصيح : « عرفات ! يا الله ! » و « الله ! الله ! بالسلامة ! » . ثم جمال أخرى ، بعضها يحمل بالسعف ، وأخرى بأجراس كبيرة ، كما سبق . وبعد ذلك ، « تختروان أمير الحج » ، مغطى بالجوخ الأحمر ويحمله جملان ؛ وقد زين سرج الجمل المتقدم بعدة أعلام صغيرة . وتبع التختروان بعض العرب و « دليل الحاج » . ثم عدة جمال ، وفرق من الدراويش وغيرهم . ثم جاء حوالى خمسين رجلاً من اتباع الباشا ، راكبين فى أحسن ملابس ؛ ثم عدد من الضباط يحملون عصياً فضية الرأس ، وبنادق ؛ ثم رئيس فرقة الدلى ، وضباطه ثم فرقة أخرى من الاتباع ، راكبين مثل السابقين ، ولكنهم أقل درجة . وكان يتبع هؤلاء عـدة ضباط آخرين من البلاط ، مترجلين ، ومتدثرين بقفاطين من القصب .

وقدم بعد ذلك مبارزان ، عارين إلى الوسط ، ويحمل كل منهما ترساً مستديراً صغيراً . وقد وقفوا عدة مرات ليستبكا في مبارزة . وقد ناولهما بعض المشاهدين عطايا . وجاءت خلفهم فرقة من الدراويش ، وجمالون ، وآخرون ، يرددون الكلام السابق .

وبعد مدة قصيرة ، كانت أصوات الطبول والصفافير تسمع ؛ وتقدمت فرقة عظيمة من النظاميين . وجاء بعد ذلك « الوالى » (رئيس الشرطة) فى نفر كثير من ضباطه . ثم اتباع أمير الحج ، ثم أمير الحج نفسه ، ثم ثلاثة من الكتبة ، ثم فرقة من الفرسان المغاربة ، ثم ثلاثة من « مبلغى » الجبل ، يلبسون العباءة البيضاء البيضاء المنسوجة بالقصب . ووظيفة « المبلغ » هى ترديد بعض كلمات الخطيب على جبل عرفات . ثم تخلل الموكب مرة أخرى فرق عديدة من الجمالين والكناسين والسقائين وآخرين ؛ ويردد الكثير منهم الكلام السابق . وقد ركب وسط هؤلاء أئمة المذاهب الأربعة ؛ وتبعهم فرق عديدة من الدراويش المنتمين إلى طوائف مختلفة ، بأعلامهم الطويلة وراياتهم المذكورة فى حديثى عن موكب الكسوة . وكان القادرية يحملون علاوة على مدرهم ذات الشباك المختلفة الألوان ، جريداً طويلاً كأنها عصى الصيد . وكان على رأس كل من هذه الفرق نقاير ومزامير ، وآلات أخرى ، تحدث موسيقى غليظة . وكان يتبعهم أشخاص يمثلون الحرف المختلفة ، يرأس كل فئة منهم شيخهم .

جاءت بعد ذلك جمال عديدة ثم الحمل . وتدافع الكثير من الجمهور فى الشوارع نحوه بعنف ، ليلمسوه بأيديهم ، ثم يقبلونها بعد ذلك . وأدلى كثير من النساء اللاتى شاهدن المنظر من نوافذ المشربيات شيلانهن أو براقعهن ، ليلمسن بها الحمل المقدس . وكان يسير خلف الحمل مباشرة الشخص نفسه الذى تكلمت عنه عند وصف عودة الحمل إلى القاهرة وموكب الكسوة ؛ وكان الشيخ نصف العارى جالساً على جمل يدور رأسه .

وفى السنوات السابقة ، كانت العادة أن يحمل الحمل ، بهذه المناسبة ، بفخامة فائقة ، وخاصة فى أيام المالك ، الذين كان يحضرون الموكب فى أنفج ملابسهم ، عارضين أنفج الأسلحة وعدد الحرب . ويتسابقون ، على أى حال ، كل مع الآخر

في الفخامة . وكانت العادة على العموم أن يسبق الحمل فرقة من السعدية ، يأكلون الثماين الحية .

ويظل الحمل، ومتاع الأمير، الح . ، على العموم يومين أو ثلاثة أيام أو أكثر في سهل الحصوة ، شمالى العاصمة ؛ ثم يتقدم إلى بركة الحاج ، على بعد أحد عشر ميلا من المدينة ، ويبقى هناك يومين . وبعد هذا المنزل الأخير ملتقى الحجاج . وترحل القافلة من هناك في السابع والعشرين من شوال عادة . ويدوم السفر إلى مكة سبعة وثلاثين يوما . ويمتد الطريق في صحراء صخرية ورملية ، نادرة الخضرة . وللتخفيف من شدة السفر ، تسير القافلة ببطء ، ليلا غالبا ، وترحل قبل الغروب بساعتين تقريبا ، وتستريح في الصباح التالى بعيد الشروق . وقد وصفت أكثر هوادج الحجاج اسمها لا عند الكلام على عودة القافلة . ويفضل كثير من الحجاج الأتراك ، وكثير غيرهم ، الذهاب بطريق القصير أو السويس والبحر الأحمر ؛ ويرحلون من القاهرة على العموم قبل القافلة الكبيرة بشهرين ونصف تقريبا . يبدأ العيد الكبير^(١) في العاشر من ذى الحجة . ومدته ثلاثة أيام ، مثل العيد السابق ، أو أربعة ، وتراعى فيه العادات نفسها تقريبا . فيلبس الناس أحسن ملابسهم ، أو حلة جديدة ؛ ولكن الغالب لبس الملابس الجديدة في العيد الصغير . وتقام الصلوات في المساجد في اليوم الأول ، بعيد الشروق ، مثل العيد الصغير ، ويراعى أغلب الناس العادات نفسها الخاصة بالزيارات والتهانى والعطايا . وتنحصر الضحية في اليوم الأول ، الذى هو يوم ضحية الحجاج . وهى واجب يراعيه أكثر الذين يستطيعون القيام به . وتقاد إلى القاهرة لمدة أيام سابقة قطمان عديدة من الغنم ، وعدة جواميس لتباع للتضحية . وتراعى كذلك عادة زيارة القبور السابق ذكرها . ويحتفل على العموم بالعيد الصغير بهجة تفوق بهجة العيد الكبير . ويجهز أغلب الناس في العيد الكبير طبق « فتة » يتكون من لحم الخروف المسلوق ، أو لحم آخر (لحم الضحية) يقطع قطعاً صغيرة ، ويوضع على خبز مكسر ، ويصب عليه مرق اللحم ، وبعض الخل المتبل بقليل من الثوم المقلى في السمن ، ثم يرش عليه بعض الفلفل .

(١) ويسمى أيضاً « عيد القربان » والأتراك يسمونه « قربان بيرام » .

الفصل السادس والعشرون

تابع الأعياد الدورية العامة الخ

من العجيب أن يمارس المصريون المسلمون عادات دينية أو خرافية في أوقات خاصة من التقويم القبطي ، بل ويحسبون تواريخ التغيرات الجوية طبقاً للنظام نفسه . فيحسبون زمن الخمسين ، الذي تسكث فيه الرياح الجنوبية الحارة ، أنه يبدأ في اليوم التالي مباشرة لعيد الفصح القبطي ، وينتهي في يوم العنصرة (أو سبت النقطة) ؛ فتكون مدته ٢٩ يوماً (١) .

ويسمى يوم الأربعاء السابق على هذه الفترة مباشرة « أرباء أيوب » فيستحم كثيرون في هذا اليوم بالماء البارد ، ويدلكون أنفسهم بالنبات الزاحف المسمى « رعبع أيوب » أو « غييره » تبعاً لأسطورة تقول إن أيوب فعل هكذا ليسترد صحته . وكانت هذه العادة وغيرها من العادات التي سأذكرها حالا خاصة بالأقباط ؛ غير أن الكثير من المسلمين في المدن وأكثر الريفيين يراعونها الآن . أما العادات الأخرى فهي أكل البيض المصبوغ في اليوم التالي (الخميس) ؛ أكل خلطة من « الكشك » (٢) والفول النبات والعدس والأرز والبصل الخ ، في يوم

(١) أعتقد أن الكتاب الأوربيين جميعاً ما عداى ، يسمون هذا الوقت « الخمسين » غير أن العرب يسمونه دائماً « الخمسين » ، وهو جمع دارج لخمسين . وبالطريقة نفسها يسمى العرب الوقت المقابل في التقويم العبري تسمية موافقة تماماً مع « الخمسين » ، وهي « الخمسينات » . ويسمى اليوم الأخير « الخمسين » . انظر دساشي De Sacy في Chrestomathie Arabe الطبعة الثانية الجزء الأول ص ٩٨ من النص العربي ، و ص ٢٩٢ ، و ٣٢٠ من الترجمة والمهامش . ومع ذلك يبدو أن هذا العالم الفاضل لم يكن عنده أى مرجع بالنسبة للاسم الأول في التقويم القبطي غير ما قاله الأوربيون فكتب مثلهم « خمسين » .

(٢) الكشك kishk (كما ينطق عامة ، وعلى الأصح keshk) يجهز من القمح ، يبل أولاً ، ثم يجفف ، ويهرس في وعاء لفصل الغلاف الخارجى ، ويطحن طحناً غليظاً بطاحونة يد . ويمزج الدقيق باللبن ، ويفرغ بملعقة بعد ست ساعات على قليل من التبن أو النخالة =

(الجمعة الطيبة) . وجرت العادة أن يتكحل الرجال والنساء يوم السبت ، المسمى « سبت النور » لأن نوراً خارقاً للعادة على حد القول ، ظهر أثناء الاحتفال الذي اقيم حينذاك عند القبر المقدس في أورشليم .

يحتفل بـ « شم النسيم » في اليوم الأول من الخمسين . فيقوم المصريون ، وخاصة النساء ، مبكرين في هذا اليوم ، فيكسرون بصلة ويشمون بها ؛ ويكفرون باللهاب إلى الريف المجاور ، راكبين أو راجلين ، أو يتزهون في النيل ؛ ويتجهون إلى الشمال على العموم ليتنسّموا النسيم أو كما يقولون ، ليشموا النسيم . وهم يعتقدون أن النسيم ، في ذلك اليوم ، ذو تأثير مفيد عجيب . ويتناول أكثرهم الغذاء في الريف أو في النيل . وكان شم النسيم هذا العام (١٨٣٤) عاصف الجوارحاً مغبراً فلم يكن هناك نسيم ؛ ومع ذلك خرج كثير من الناس « ليشموه » . وللعلماء « شم نسيم » في زمن محدد من السنة الشمسية : الأيام الثلاثة الأولى من فصل الصيف الموافقة « للنوروز Now—rooz الفارسي الذي يسميه العرب « نوروز Norooz وتسمى ليلة السابع عشر من يونيو ، التي توافق الحادية عشر من بؤونة ، « ليلة النقطة » ، إذ يعتقد أن نقطة عجيبة تسقط حينئذ في النيل ، وتسبب ارتفاعه . ويحسب الفلكيون الوقت المضبوط لسقوط « النقطة » ، ويكون دائماً في غضون الليلة السابق ذكرها . ويمضي كثير من سكان القاهرة وضواحيها ، ومن جهات أخرى بمصر ، هذه الليلة على ضفاف النيل . وبعضها البعض في منازل أصدقائهم ؛ وآخرون في الهواء الطلق . ويراعى الكثيرون أيضاً ، وخاصة النساء ، عادة غريبة في ليلة النقطة ، فيضعون فوق سطح المنزل ، بعد الغروب ، عجيناً بقدر عدد سكان المنزل ، فيعلم كل منهم قرصه . وفي فجر اليوم التالي ينظرون إلى الأقراص ؛ فيستدلون من تشقق أحدها على أن صاحبه تطول حياته ، أو لا تنقضي ذلك العام ؛ ويستنتج العكس إن لم يكن القرص مشققاً . ويقول البعض : إن

= ويترك يومين أو ثلاثة ليخف . وعند الحاجة ، ينقع مقدار منه ، أو يطحن ، ويوضع في منخل على وعاء ؛ ثم يصب عليه ماء يغلي . وما يتبقى في المنخل يرمى ، وما يمر خلال المنخل في الوعاء يصب على العموم في قدر به لحم مسلوق أو دجاج ، فوق النار . ويضاف إلى كل طبق كشك عادة بعض أوراق سلق تقلى بالزبد .

هذه العادة تراعى أيضاً لمعرفة ما إذا كان النيل يرتفع في الموسم التالي . ويراعون عادة أخرى سخيفة في الليلة الرابعة التالية ، « ليلة السرطان » ، عند ما تدخل الشمس برج السرطان : وهي كتابة طلسم لإبادة البق ، أو لطرده ، ويتكون هذا الطلسم من الآية التالية : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا » تكتب بحروف منفصلة ، وتكتب الكلمة الأخيرة ثلاث مرات . ويقال إن الطلسم السابق يجب كتابته على ثلاث ورقات تعلق على جدران الغرفة المراد تنظيفها من البق وتوضع ورقة على كل حائط ما عدا حائط المدخل .

يرتفع النيل كما ذكرت في مقدمة الكتاب ، عند الانتقال الصيفي ، أو بعيدة وبعلمن ارتفاع النيل في شوارع العاصمة يومياً ، ابتداء من السابع والعشرين من بؤونة (الثالث من يوليو) ، أو ما يقرب من ذلك . وهناك عدة منادين يقومون بهذه الوظيفة ، فيختص كل منهم بقسم من أقسام القاهرة . ويجول منادى النيل على العموم في قسمه مبكراً في الصباح ، وقد يتأخر ، ويصحبه ولد . وبعلمن المنادى في اليوم السابق مباشرة على بدء إعلان ارتفاع النيل اليومى أن الله لطيف بالأراضى ، وأن اليوم يوم الأنباء الطيبة ، وغداً ، البشرى بالخير (١) .

يبدأ المنادى بالصلاة على النبي ، أو يبدأ بقوله : « يا من تديره عظيم » فيجيب الصبي : « مولاي مالى غيرك » . ثم يأخذان في التسميح بحمد الله إلى أن يقول المنادى : « والله يؤمننى على سى فلان (ذا كراً اسم رب الدار) يا كريم ! يا الله » ويجيب الصبي : « آى إن شاء الله » الخ . ثم يذكر إخوة رب الدار ، وأبنائه ، وبناته العذارى ، ويقول أخيراً : « يفيض عليهم بخيره العميم ، كما فاض النيل على البلاد ، يا كريم ! يا الله ! » — الصبي : « آى إن شاء الله » — المنادى : « خمسة (أو ستة قراربط الخ) اليوم ، والرب كريم » . — الصبي : « صلوا على محمد » . وتضاف الجملة الأخيرة خوفاً من أن تؤثر رغبة حقود أو نظرة حسود في ارتفاع النيل . فيزول هذا الأثر إذا صلى الحقود على الرسول (٢) .

(١) لن أذكر غير النصوص التى استطعت الحصول عليها . (المترجم)

(٢) ويكون مذنباً إذا لم يصل على النبي عند ما يطلب منه ذلك

وقد يعطى أهل المنزل المنادى كسرة من الخبز يومياً ، وهذه عادة شائعة في الطبقة الوسطى ؛ غير أن أغلب الناس لا يعطونه شيئاً قبل اليوم السابق على فتح « قناة القاهرة » . ولا يعمل على إعلان المنادى الخاص بارتفاع النهر ، إذ أن المزمين بإخباره لا يصدقونه القول . ولكن الشعب يصنئ باهتمام إلى إعلان المنادى . ويردده هذا الأخير وصبيه كل يوم إلى ما قبل قطع سد قناة القاهرة يومين .

في هذا اليوم (أى السابق على الأيام المذكورة الآن) يجول المنادى في قسمه ، ومعه نفر من صغار الأولاد ، يحمل كل منهم راية صغيرة ملونة ، يعلنون « وفاء النيل » . وهكذا تسمي حالة النيل عند ما يرتفع ارتفاعاً كافياً لتعلن الحكومة أنه بلغ ستة عشر ذراعاً عند المقياس . ومع ذلك يشعر الشعب دائماً بخيبة أمل ، إذ أن هناك قانوناً قديماً ينص على أن ضريبة الأتبان لا تفرض ما لم يرتفع النيل إلى هذا الارتفاع . وترى الحكومة أنه من الملائم أن تجعل الشعب يعتقد ، بأسرع ما يمكن ، أن النيل بلغ هذا الارتفاع . ويعلن وفاء النيل حينما يرتفع فعلاً إلى حوالى عشرين قدماً أو واحد وعشرين بالقرب من العاصمة ؛ ويكون هذا على العموم بين السادس والسادس عشر من أغسطس (الأول والحادى عشر من مسرى) (١) ؛ هذا حينما لا يزال باقياً من مقياس الفيضان بجوار العاصمة ، أربعة أقدام أو ثلاثة . وفي اليوم السابق ذكره (قبل فتح القناة يومين) يقوم المنادى والصبيان المرافقون له برأياتهم مبشرين الناس بهذا القول .

المنادى : « البحر فاض وزاد » . — الصبيان : « أوفالله » (٢) . — م . : « ودار النحاس امتلا » (٣) . ص . : « أوفالله » ... (٤) — م . : « ده شئ من السنه للسنه » . — ص . : « أوفالله » . — م . : « وتعيشوا إلى كل عام » . —

(١) وفي هذا العام (١٨٣٤) ارتفع النهر بسرعة غير عادية ، وقطع السد في الخامس من أغسطس . ويتطير الناس من فيضان النيل فوق السد قبل قطعه .

(٢) أى أوفى الله .

(٣) وهو بناء قديم بين قطرة القناة ومصر العتيقة ، حيث اعتاد سلاطين مصر وحكامها النزول به ومراقبة حال النهر قبل قطع السد .

(٤) أورد المؤلف حوالى ثلاثين جملة لم أوفق في الحصول على غير المذكور فيما بعد (الترجم) .

ص . (يذكرون الكلام نفسه بعد كل جملة يقولها المنادى) . م . : « والكريم يحب الكريم » . « وله قصر في الجنة عجب » . « وعمدانه جواهر أبتام » . « والرطب إذا جنى » . « لا يشبهه لصيص البلح » . « وله ألف طاقة تنفتح » . « في كل طاقة سبيل » . « والجنة مقام الكرام » . « والنار مقام البخيل » ويظل المنادى يردد هذا القول إلى أن يعطيه أحداهل المنزل عطية نقدية من « عشرة فضة إلى قرش » . وكثيراً ما يعطى قرشين؛ ويعطيه العطاء « خيرية » ، أى تسعة قروش . وتعد العدة في هذا اليوم لقطع السد . وتجذب هذه العملية حشداً كبيراً من المشاهدين للأهمية السياسية المتعلقة بها . ولكنها جمعت الآن بدون سبب قوى مناسبة لعيد عام ، إذ أنها تنفذ قبل الأوان .

ويقام السد قبل ارتفاع النيل أو بعينه . ويعبر « الخليج » على مسافة أربعائة قدم من مدخله قنطرة حجرية ذات قوس واحد . ويقام السد على بعد ستين قدماً من القنطرة ومواجهاً لها . ويكون من التراب ، عريض القاعدة ، ضيق القمة سطحها بمرض ثلاث ياردات . وترتفع قمة السد إلى اثنين وعشرين قدماً تقريباً فوق مستوى النيل عند انخفاضه . ولا يعلو مجرى الخليج بكثير ، إذ أن الأخير يزيد على قياس النهر المنخفض بعدة أقدام ، فيجف مجراه عدة شهور عند ما يكون النيل منخفضاً . وتعلو ضفاف الخليج قمة السد ببعض أقدام . ويقام على مسافة ستين قدماً في مواجهة السد عمود مستدير من التراب يقل اتساعاً نحو القمة ، على هيئة مخروط مقطوع ، ولا يرتفع ارتفاع السد ، ويسمى هذا « للعروسة » لسبب ساذكره فيما بعد . وتبذر قمة العمود والسد بقليل من الذرة . وتجرف « العروسة » دائماً بقوة تيار الماء قبل أن يبلغ النهر الذروة ، وعلى العموم قبل قطع السد بأكثر من أسبوع أو خمسة عشر يوماً .

والمعتقد أن عادة إقامة « العروسة » يرجع أصلها إلى عادة خرافية قديمة يذكرها كتاب للعرب . ومنهم المقرئ . ويرى هذا المؤرخ أنه في سنة غزو العرب لمصر ، قيل لعمرو بن العاص إن المصريين كانوا يراعون عادة ، وقت ارتفاع النيل فيجهزون عناء جميلة في زينة بهجة ، ويقذفون بها في النهر ضخمة ، لينالوا فيضاً

وأفراً . ويقال إن عمرو أبطل هذه العادة البربرية فلم يرتفع النيل مدة ثلاثة شهور بعد الوقت المعتاد لبدء ارتفاعه . وقلق الشعب قلقاً عظيماً خشية الجذب . فكتب عمرو إلى الخليفة يخبره بما فعل وبما تهدد به مصر من نكبة . فرد عمر يستحسن سلوكه ، وأرسل كلمة يلقي بها عمرو في النيل . ونصها كما يلي : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى نيل مصر . أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك ، فلا تجر ؛ وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فدنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » . وقذف عمرو بالكلمة إلى النيل ، فارتفع ، على حد القول ، ستة عشر ذراعاً في الليلة التالية . وبصعب حقاً تصديق هذه الرواية ، حتى مجردة من المعجزة .

كان هناك بناء حجرى صغير ، فى الجانب الشمالى للخليج ، يشرف على السد ، ويكاد يجاور القنطرة ، وكان عظماء القاهرة يشاهدون عادة قطع السد منه . وأصبح البناء خراباً ، يقام على أطلاله مرادق كبير لاستقبال هؤلاء الذين عليهم مشاهدة القطع ومراقبته . وتقام أيضاً خيم أخرى للزائرين الآخرين . وتقيم الحكومة عدداً كبيراً من الألعاب النارية ، لتكريم الحفل ، ولتسليّة الجمهور ، فى الليلة السابقة على يوم قطع السد ، وأثناء تنفيذه فى الصباح المبكر . وتقام عدة خيم صغيرة كذلك لبيع الحلوى والفاكهة والمأكولات الأخرى ، والقهوة الخ .. بطول ضفة جزيرة الروضة ، مقابل مدخل الخليج . ويسمى يوم قطع السد « يوم جبر البحر » وتعنى كلمة « جبر » هنا « الكسر » وإن كان معناها الحقيقى هو العكس . ويطلق عليه أيضاً ، وعلى الأصح ، عبارة « يوم وفاء البحر » أو « وفاء النيل » السابق شرحها . ويسمى عيد الخليج أيضاً « موسم الخليج » .

وفى عصر اليوم السابق على قطع السد ، تقصد المراكب العديدة ، التى يؤجرها جماعات خاصة للتسليّة ، قريباً من مدخل الخليج . وبين هذه المراكب صرّك ضخّم ، يسمى « العقبة » (١) ، تصنع للمناسبة بشكل زخرفى غليظ ، وتحمل مدفعين صغيرين أو أكثر ، وتعلق إلى حبالها عدة مصابيح ، تكون رسوماً مختلفة ، كنجمة كبيرة الخ .. وبهذا المركب أيضاً ، فوق القمرة ، خيمة

(١) « عقب » اسم جامع لأكبر أنواع المراكب التى تسير فى النيل . و « عقبة »

(جمعها « عقبات ») اسم للمركب الواحد من هذا النوع .

مقفلة كبيرة ، من الحرير وغيره ، تزين برابتين . ويعتقد العامة أن هذا المركب يمثل سفينة فاخرة ، تعود المصريون ، قبل غزو العرب لبلادهم ، أن يحملوا فيها العذراء ، التي يقذفونها في النيل ، حسب قولهم . ويفادر المركب بولاق بعد الظهر بثلاث ساعات ، يحمل ركاباً ، من الرجال والنساء ، مقابل أجر ؛ ويركب الرجال عادة ، حسب رغبتهم ، في الخيمة الكبيرة المذكورة سابقاً . ويربط المركب إلى ضفة جزيرة الروضة ، المقابلة مباشرة لدخل الخليج . وتظل أغلب المراكب الأخرى أيضاً بجانب «العقبة» ، طول الليل ، على شاطئ الجزيرة ؛ غير أن بعضها تظل تنهادى في النهر ، بالقلوع والمجاديف طول المساء والليل . ويتسلى الملاحون والزوار بكون بالغناء ، بمصاحبة الدربكة والزمارة في كثير من الأحيان ؛ ويؤجر بعض الجماعات الخاصة الموسيقيين المحترفين ليزيدوا في تسليتهم على النهر . ويتتبع الحشد بالحفل ابتهاجاً شديداً وقل أن يوجد أجنبي يفكر في أن يستطيع مشاركتهم تسليتهم ؛ ويبدو أن لا شيء يعوزهم للسُرور أكثر من الاحتشاد والضجة ، مع الشبك والقهوة . وكان العيد يحضره دائماً ، في السنوات السابقة ، الفوازي (وحرّم عليهن الرقص الآن) . والمغنون ، والموسيقيون ، والقصاصون . ويبدأ في المساء ، قبل الظلام ، استعراض الألعاب النارية . ويستمر هذا ، مع إطلاق المدافع من العقبة ، ومن مركبين مدفعين أو أكثر ، كل ربع ساعة ، طول الليل . ويطلق حوالي اثني عشر مدفعاً في كل من هذه الأوقات . وكان مجموع الطلقات ، ليلة الاحتفال في العام الحالي ، ستمائة طلقة تقريباً . ويحتفظ بأحسن الألعاب النارية للصباح ، فتعرض في ضوء النهار ، أثناء قطع السد . وفي الليل ، يظهر النهر وضيافه في منظر جميل يستحق الاعتبار . فالمرائب العديدة تقطعه صعوداً ونزولاً ، والمصابيح تعلق على العقبة وعلى المراكب الأخرى ، وعلى الشاطئ أيضاً ، حيث تثبت المشاعل في الأرض - والكثير منها تثبت فوق السد ويجواره ، وأكثرها على شاطئ الجزيرة - ولأنوار المصابيح تأثير شديد ، تزيد بهجة طلقات المدافع ، وعرض الألعاب النارية . وشاطئ الجزيرة أكثر الجهات ازدحاماً في مكان الاحتفال ليلاً . ويسر كل شخص بالنوم هناك .

يبدأ العمال في قطع السد قبل الشروق . ويقع هذا العمل على عاتق «التربيه»

واليهود في سنين متعاقبة . وتوفى الحكومة كلاهما أجراً . ويضطر اليهود عندما يقع العمل على عاتقهم ، في يوم سبت ، إلى دفع مبلغ سخى للخلاص من إثم يجره عليهم انتهاك حرمة يوم راحتهم ، بقيامهم بما تفرضه الحكومة . ويقطع السد من الخلف بجاروف حتى يدق تدريجاً (إذ ينقل التراب في سلال ويقذف به فوق الشاطئ) ، ويصبح عرض القمة قدماً . ويتم ذلك بعد الشروق بساعة . وقبيل هذا الوقت ، عندما تجتمع الحشود المكدسة بجوار السد على ضفتي الخليج ، يقدم حاكم العاصمة ، وينزل في الخيمة الكبيرة المذكورة سابقاً بالقرب من السد . ويحضر أيضاً بعض كبار الموظفين الآخرين . ويحضر القاضي ويكتب الوثيقة ^(١) ليشهد أن النهر بلغ الارتفاع الكافي لفتح الخليج ، وأن هذا العمل قد تم ؛ ثم يعجل بإرسال هذه الوثيقة المهمة إلى الأستانة . وأثناء ذلك يستمر إطلاق المدافع ، وعرض الألعاب النارية ؛ وعند الانتهاء من ذلك تعرض أحسن الألعاب النارية ، التي يصعب رؤيتها في وهج الشمس المشرقة . وعندما يكون السد قد قطع إلى الحد السابق ، ويكون جميع الموظفين الكبار الواجب حضورهم قد وصلوا ، يقذف حاكم العاصمة كيساً من النقود الذهبية الصغيرة إلى العمال . ويدفع بعد ذلك بمركب مأمور الوالي السابق إلى حرف التراب الضيق فيحطم الحاجز الرقيق ، ويمر خلاله فوق الشلال الذي أحدث . وهذا المأمور شيخ يسمى حموده ، وكان « سراج باشي » الوالي . وكانت وظيفته السير أمام سيده مباشرة في جولاته العادية ، يسبقه صف طويل من الضباط في شوارع المدينة وضواحيها . وعند ما يقترب مركب المأمور من السد تماماً ، يقذف حاكم القاهرة داخله كيساً من الذهب عطية له . وسريعاً ما يجرف اندفاع الماء بقية السد إلى مجرى الخليج ، فتدخله صراكب عديدة أخرى ، تمر بطول القناة من أول المدينة إلى آخرها ، ويقوغل بعضها أميالاً عديدة ثم تعود . وكان شيخ البلد ، أو الباشا ، مع موظفين كبار آخرين ، يرأس سابقاً هذا العيد ، الذي كان كثير الفخامة . وكانت النقود تقذف في الخليج ، فيلقطها العامة ، وكان بعضهم يفوس في الماء بالشباك . وكان الكثيرون يفقدون حياتهم

في التزامهم . وفي هذا العام (١٨٣٤) غرق ثلاثة أشخاص يوم فتح الخليج -
أحدهم في الخليج نفسه ، والآخران في بركة الأربكية . وبعد أن دخلت منزلي
على أثر عودتي من مشاهدة قطع السد واحتفالات الليلة السابقة (وقد أمضيت
بعضها في النهر ، والبعض الآخر في جزيرة الروضة) صرت بالقرب من داري امرأة
تتلطح وجهها السافر ، وبعض ملابسها ، بالطين ، وتنذب فقد ولدها ، الذي كان
أحد الغرقى الثلاثة . ودخلت المياه بركة الأربكية بواسطة قناة جديدة في اليوم
السابق على قطع السد . واحتشدت الجموع حول البركة في هذا اليوم ، كما يحتشدون
في عدة أيام تالية (اني أكتب هذا بعد فتح الخليج بأيام قليلة) ، للتمتع بمنظر
امتداد الماء الواسع الذي يريح النظر بالرغم من شدة عكارتة ، في منطقة جافة
متربة مثل القاهرة ، وفي هذا الموسم الحار من السنة . ويقام بالقرب منها
خيم عديدة حيث تقدم القهوة إلى الزائرين كما تقام ؛ خيمة لبيع الكحول . وتوضع
هناك مقاعد ودكك من الجريد . ويعتبر المساء أفضل وقت للتردد على هذا المكان .
ويظل كثير من الأشخاص هناك عدة ساعات بعد الغروب ؛ ويقضي البعض طول
الليل . وهناك على المموم قاصان أو ثلاثة . ويشاهد المرء في كل ساعة من النهار ،
وأحياناً في نصف الليل ، أناساً يستحمون في البركة ، رجالاً وأطفالاً على
الأخص ، وبعض البنات أيضاً ؛ وحتى النساء يستحممن . وأولاء يعرضن أنفسهن
أمام المارة ، والكسالى الجالسين على المقاعد ، بطريقة تثير الدهشة في هذا المكان
الذي يعنى النساء فيه عادة بتغطية أنفسهن وجوههن أيضاً ، وإن كانت أغلب
المستحميات يعطين عادة ماتحت الوسط . وكثيراً ما يفرق المستحمون في هذا المكان
ويظل المنادي يردد نداءه السابق في اليوم التالي لقطع السد ؛ ولكنه يستخدم
صيغة أخرى عند ذكر ارتفاع النهر ، فيقول ، مثلاً : « أربعة من الستة عشر »
أى أن النهر زاد أربعة قراريط من الستة عشر ذراعاً . ويظل ينادى إلى يوم
النوروز أو قبَّيله .

ويقصد المنادي في يوم النوروز ، أو رأس السنة القبطية (١٠ أو ١١ سبتمبر) ،
أو قبل ذلك بيومين أو ثلاثة ، كل منزل في قسمه ، يصحبه صبيه في أحسن ملابسهم
وعازفان على الطبل والمزمار ؛ ويردد النداء نفسه كما يردده في يوم الوفاء ويأخذ

عطية أخرى . وبعد ذلك يواصل ندائه السابق .
وفي يوم « الصليب » ، ١٧ توت ، أو ٢٦ أو ٢٧ سبتمبر ، حيث يبلغ النهر
أقصى ارتفاعه ، أو ما يقرب منه ، يعود المنادى ثانياً إلى كل منزل في قسمه ،
ويردد نداء مختلفاً .

ويقدم المنادى ، في هذه المناسبة ، ليمونا ، وفاكهة أخرى ، إلى الأغنياء ،
أو المتوسطي الشأن ، كما يقدم أقراصا من طين النيل المجفف التي يأكلها النساء
في كثير من العائلات ، ويتناول على العموم عطية نقدية من قرشين أو ثلاثة
قروش ، وينتهي عمله حينئذ إلى العام التالي .

الفصل السابع والعشرون

الاعياد الخاصة الخ !

إن المصرى المحدث لا يصبح رب دار حتى يتزوج (وليس حتماً في هذه الحالة أن يستقل ، فقد يعيش وزوجه في بيت أهله أو أهلها) ، ولذلك فإن زواجه الأول يعد على العموم أول حادث يهيئ له ولزوجه مناسبة ليدعو كل منهما أصدقاءه إلى حفل خاص . وجرت العادة ، كلما أقيم حفل كبير بمناسبة ابتهاج ما ، أن يرسل المدعوون هدايا (مثل التي وصفتها في حفلات الزواج) يوماً أو يومين من قبل . وللزوج دائماً فريقه الخاص ، يجتمعون في الحجرات السفلى على العموم ؛ وتستقبل الزوجة قريباتها وصديقاتها في الحريم ، أو الغرف العلوية . وجرت العادة أيضاً أن تستقبل الزوجة ضيفاتها (ولا يصرح لغير صفار الأولاد من الذكور بالدخول) أثناء النهار ؛ ويستقبل الزوج ضيوفه بعد ذلك ، عقب الغروب ، أو بعد صلاة العشاء . وقد يجتمع بهم أثناء انشغال زوجه بفريقها الخاص في الحريم .

وكثيراً ما تؤجر العوالم ، بهذه المناسبات ، لتسليم الجماعة . فيجلسن في إحدى غرف الحريم ، عند نافذة تشرف على الحوش ، وراء مشربية محكمة تحجبهن عن أنظار الضيوف الرجال ، ولا تحول دون سماعهن بجلاء ، وهم جالسون في الفناء أو في إحدى الغرف المتصلة بالفناء . ويوجد ، في كثير من المنازل ، غرفة مرتفعة صغيرة ، وصفتها سابقاً ، تمد للعوالم ، وتلتحق بالغرفة التي يجتمع فيها الضيوف الرجال (وتلتحق أخرى بغرفة الحريم الرئيسية أيضاً) ، ويفطى واجهتها شبك من المشربية ليحجب أولئك المغنيات عن أنظار الرجال . وكثيراً ما تؤجر ، أو كانت تؤجر ، الفوازي لإحياء الحفلات الخاصة ؛ وهن يرقصن سافرات أمام الرجال في الفناء ، فيسهل على النساء رؤيتهن من شبابيك الحريم ؛ أو يرقصن في غرفة يجتمع فيها

الرجال ، أو في الشارع ، أمام المنزل ، لتسليمة النساء فقط . وعند ما تقوم الغوازي أو العوالم بتسليمة قوم ، يجمع أحد أصدقاء المضيف لمن من الضيوف مبالغ صغيرة على دف ، أو في منديل ؛ غير أن المضيف لا يرضى أحياناً بمراعاة هذه العادة . وتسمى هذه الهبات «نقوطاً» . والعادة أن يستأجر من يقيم الحفل الغوازي مقابل مبلغ ما . فيتناول النقوط ، الذي قد يقل عن المبلغ المتفق عليه ، أو يزيد ؛ ويدفع الفرق من ماله الخاص ، في الحالة الأولى ؛ وكثيراً ما يستولى على الزائد ، في الحالة الأخيرة . وقد يتفق معهن على أن يتناولن النقوط كله ، ويدفع علاوة عليه مبلغاً إضافياً من ماله ، أو لا يدفع شيئاً . وفي بعض الاجتماعات ، حيث لا تراعى حشمة ينازل الضيوف أولئك الراقصات ويمازحونهن بطريقة فاجرة ، وقد ذكرت في فصل سابق أن الخمر يقدم إلى الغوازي ، في هذه المناسبات ، فيفرط أكثرهن في تناولها . والعادة العامة أن يبلل الرجل بلسانه نقداً ذهبياً صغيراً ، ويلصقه على جبهة الغازية ، ووجنتيها ، وذقنها ، وشفتيها . وعند ما تجمع النقوط الخاصة للعوالم ، يصيح خادمهن - ويسمى «خلبوصاً» ، وكثيراً ما يقوم بعمل المهرج ، عند كل عطية : «شوبش»^(١) عليك يا صاحب الفرح (في مناسبة مماثلة وبالطريقة نفسها) «ثم يضيف إلى ذلك أن فلاناً أعطى كذا «محبوب» أو «خيرية» فيقلب بعض قروش إلى عدد أكبر من النقود الذهبية ذات قيمة أكبر ؛ أو ، إذا كانت العطية ذهباً ، يبالغ في ذكر المبلغ بالطريقة نفسها . ويفعل الخلبوص هذا ليكرم المعطي ، وليثير كرم الآخرين . وتجب سميته ، أو عالمة أخرى : «إقبال عنده»^(٢) . وكثيراً ما يسلي الضيوف أيضاً جماعة من الآلاتية يعزفون ويعنون في الفناء ، أو في الغرفة المجتمع فيها الضيوف . وكثيراً ما يوضع دكتمان متقابلتين في الفناء ، وتجهز بالوسائد الخ . ، لتكون معزفاً للموسيقين . ويوضع عادة مصباح في الوسط . ويتناول الآلاتية على العموم ، مثل العوالم ، عطايا من المجتمعين . ويقوم خلبوصهم

(١) «شوبش» ترادف «نقوط» ، وهي تحريف عربي لكلمة شاباش الفارسية التي تعني أيضاً الإجابة وحسن الأداء .

(٢) وقد كتبها لي أحد الشيوخ هكذا وشرحها . غير أنني أشك في أن تكون : «إقبال لعنده» ، وهو تعبير دارج بمعنى : الوصول إليه ، الدخول عليه ؛ ويجب أن تعني في هذه الحالة : «لعلنا نصل إليه» و «إقبال (أو حظ) طيب له» .

بالطريقة نفسها بعد كل عطية . وهناك مشاهد تختلف عن المشاهد السابق وصفها ، وتفوقها شيوعاً ، وتعتبر أكثر موافقة لمناسبات الاحتفالات الخاصة . وهي قراءة خاتمة ، يقوم بها ثلاثة فقهاء أو أكثر ، يؤجرون لهذا الغرض ، أو إقامة ذكر من فريق من الفقهاء (١) . ويريح كل من الفقهاء الآخر بدوره ، حتى لا تكون الخاتمة متعبة لهم ، فيتناوبون القراءة ويقرأ كل منهم عادة ربّما (٢) . ويحضر الفقهاء إلى المنزل بعيد العصر ، ويقومون بالقسم الأكبر مما عليهم قبل اجتماع الضيوف ، فيرتل حينئذ أحدهم على مهل وبنغم ، ثم يتبعه آخر بالطريقة نفسها وهكذا . وقد تقام خاتمة صباحاً ، يتلوها ذكر في المساء . والقاعدة أن يقام الذكر بعد الغروب دائماً . وفي مصر أشخاص يحبون عادة حياة متقشفة ، إلى أقصى حدود التي تكشف ويقومون بأعداد ألوان مختلفة وافرة من الطعام ، للاحتفاء بأصدقائهم . غير أن الأكل لا يخصص له وقت طويل : فأكثر أوقات السرور يصرف في التدخين وتناول القهوة والشراب ، والحديث . ومع ذلك يمتنع الأتراك على العموم عن التدخين أثناء تلاوة القرآن . وقد أدى احترامهم للقرآن في كل وقت إلى القول بأن الله قد رفع آل عثمان فوق بقية المسلمين لأنهم رفعون القرآن أكثر مما يفعل الآخرون . ولا يحاول أحد من الضيوف ، في هذه الاجتماعات ، أن يسلي زميله أبداً بنفي الحديث الفكاهي أو برواية قصة أحياناً ، وإن كان أكثرهم يجدون لذة عظيمة في مشاهدة الرقصات والاستماع إلى الموسيقى والمغنيين . ولما يلعب المصريون لعبة ما ، إلا عند ما يتقابل شخصان أو أكثر فقط ، أو يكونون في خلوة عائلية خاصة . والمصريون شعب اجتماعي ؛ ومع ذلك قلما يقيمون حفلات عظيمة . ولا يحدث ذلك إلا في أوقات خاصة تستدعي البهجة حقاً . ومن غير اللائق ، فيما عدا مثل هذه المناسبات ، أن تؤجر الرقصات للرقص في المنازل .

(١) وتذكرنا هذه العادات بمشورة القديس بولس في رسالته إلى أهل أفسس ١٩/٥ التي تشير إلى قدم هذا النوع من التسلية الاجتماعية ، وبيتهج المصريون كثيراً بأغاني الحب الدينية التي ينشدها المنشدون في الذكر .

(٢) ربع حزب ، والحزب $\frac{1}{4}$ من القرآن .

وقد وصفت حفلات الزواج في فصل سابق ، ولذلك انتقل إلى الكلام عن الحفلات التالية للزواج تبعاً لترتيب إقامتها .

في اليوم السابع (يوم السبوع) (١) التالي للزواج ، تستقبل الزوجة قريباتها وصديقاتها في الصباح وبعد الظهر . ويستقبل الزوج أصدقاءه في المساء أحياناً ، فيقيم خاتمة أو ذكراً . وجرت العادة في مصر أن يحرم الأزواج أنفسهم حقوقهم الزوجية في الأسبوع الأول من زواجهم ببيكر . فمن دواعي انتهاء هذه الفترة الابتهاج (٢) . وفي « يوم الأربعين » بعد الزواج ، تذهب الزوجة ، مع جمع من صديقاتها إلى الحمام . وبعدن جميعاً إلى منزلها في العصر تقريباً ، حيث يتناولن الطعام وينصرفن . وقد يستقبل الزوج أيضاً الزائرين عصر ذلك اليوم ويقيم مرة أخرى خاتمة أو ذكراً .

يعقب ذلك الاحتفال بمولد الطفل — تحمل « الداية » ، قبل الوقت المنتظر للولادة بيومين أو ثلاثة أيام أو أكثر ، إلى منزل المرأة المحتاجة إلى مساعدتها ، « كرسى الولادة » وهو كرسى ذو شكل خاص ، تجلس عليه المرأة أثناء الولادة (٣) . ويغطي هذا الكرسى بشال ، أو بمنشفة مطرزة ؛ ويشد بعض زهور الحفاء ، أو الورود ، بمسدل مطرز إلى كل من زاويتي الظهر العلويين . ويحمل الكرسى (وتملكه الداية) ، وهو مزين هكذا ، أمامها إلى المنزل وفي منازل الأثرياء ، وميسوري الحال ، تنقل الوالدة ، بعد الولادة ، إلى السرير حيث تبقى عادة من ثلاثة أيام إلى ستة . غير أن النساء الفقيرات قلما يسترحن في مثل هذه الحالة ، فيعدن إلى أشغالهن اليومية ، بعد يوم أو يومين ، إذا كانت لا تستلزم منهن كدأ شديداً .

(١) يحتفل « بالسبوع » التالي لمولد الطفل بهجة . ولذلك يفهم على العموم عند الكلام على يوم السبوع أنه اليوم السابع لمولد الطفل .

(٢) ولم يكن ما أشير إليه في سفرى التكوين ٢٧/٢٩ والقضاة ١٢/١٤ حفلاً مثل هذا وحده . كان ، ولا يزال على ما أعتقد ، عادة أثرياء البدو (وهكذا كان لابن) بإضافة أصدقائهم سبعة أيام بعد الزواج (وكذلك بعد مولد الطفل الذكر) . ويمتنع كل رجل محترم ، إذا خاب ظنه في زوجته ، بعد الزواج ، عن إطلاقها مدة أسبوع تقريباً ، حتى لا تشاب بالشبهة ، وخاصة إذا كان زواجها الأول .

(٣) أنظر سفر الخروج ١٦/١ .

وفي الصباح التالي للولادة ، يرقص أمام المنزل ، أو في الفناء « خولان » أو ثلاثة ، أو غزبان أو ثلاث . وبفوق الاحتفال بمولد الذكر الاحتفال بمولد الأنثى دائماً . ولا يزال العرب يظهرن آثاراً من هذا الشهور الذي كثيراً ما دفع أسلافهم إلى إبادة بناتهم .

ويعد نساء المنزل ، في العائلات المتوسطة ، في اليوم الرابع أو الخامس من الولادة على العموم ، أطباق « الفتقة » و « الكشك » و « اللبابة » و « الحلبة » عادة ، ويرسلنها إلى القريبات والصديقات . و « الفتقة » تتكون من العسل وبعض السمن و « السيرج » (زيت السمسم) ، وأنواع مختلفة من الأفاوية والتوابل المسحوقة معاً ، ويضاف إليها أيضاً البندق المقل (١) . أما « الكشك » فقد وصفته قبلاً . و « اللبابة » تتكون من كسرات العيش أو فتاته ، والعسل والسمن ، وقليل من ماء الورد . فيوضع السمن في مقلاة فوق النار أولاً ، ثم الكسرات ، وأخيراً العسل . وتجهز الحلبة بأن تغلى حباتها ، وتحلى بالعسل فوق النار .

وفي « يوم السبوع » تذهب صديقات الوالدة لزيارتها ، وتؤجر العائلات الراقية العوالم للغناء في الحريم ، أو الآلاتية للعزف ، أو المقرئين لتلاوة خاتمة في الدور الأسفل . وتجلس الوالدة ، بمساعدة القابلة ، على كرسى الولادة ، وهي تأمل العودة إليه قريباً مرة أخرى . ويحمل الطفل ، ملفوفاً في شال جميل ، أو في لفافة ثميّة ؛ وليمتاد الطفل الضوضاء ، فلا تقزعه فيما بعد الموسيقى أو أصوات الفرع الأخرى ، تملك امرأة بهون ، وتضربه بالمدق مراراً ، كأنها تدق شيئاً . وبعد ذلك ، يوضع الطفل في منخل ، ويهز ظنأمنهم أن هذه العملية تفيد معدته ثم يحمل إلى غرف الحريم جميعها ، في صحبة كثير من النساء والبناات ، يحمل كل منهن عدداً من الشمع ، مختلف الألوان أحياناً يشعلنه ويلصقنه في قطع صغيرة من عجينة الخناء ،

(١) وتضيف بعض النساء إلى هذا اللون عنصراً آخر ، إذا كن يجهزنه لغرض خاص ليسمنهن ، لا لارساله إلى الصديقات . فيحمصن بعض الخنافس في السمن ويهرسهن ، ثم يصفن إليها العسل الخ . وكنت قد أشرت إلى ذلك في فصل الحياة المنزلية الخاص بالنساء .

على صينية مستديرة صغيرة. وفي الوقت نفسه ترش القابلة أو غيرها على أرض كل غرفة خليطاً من الملح والحبة السوداء، أو ملحاً فقط، كان قد سبق وضعه في الليلة السابقة عند رأس الطفل؛ وتقول وهي تفعل ذلك «الملح في عين اللى ما يصلى على النبي» أو «الملح الفاسد في عين الحاسد». ويعتبر احتفال «رش الملح» وقاية للولد والأم من العين. ويجب على الحاضرات أن يقلن: «اللهم صلى على سيدنا محمد!» ويعرض الطفل ملفوفاً، على حشية رقيقة، فوق صينية فضية أحياناً، على كل من الحاضرات؛ فينظرن إلى وجهه قائلات: «اللهم صلى على سيدنا محمد! اللهم طول عمره» الخ. ويضعن عادة على رأس الطفل، أو بجانبه، منديلاً مطرزاً به قطعة ذهبية (يزيد تقديرها بقدر جمالها أو قدمها)، معقودة بإحدى زواياه ويعتبر إعطاء المنديل هذا تكليفاً بدين، تدفعه الأم، عندما تحين الفرصة نفسها بالنسبة للمعطية، أو إبراء من دين لمعطية مماثلة. وتستعمل هذه النقود على العموم بعض سنوات، لتزين غطاء رأس الطفل. بعد ذلك تقدم النقود للداية. ويوضع عند رأس الطفل أثناء نومه، في الليلة السابقة على يوم السبوع، إناء ماء (دورقاً للذكر، وقلة للأنثى) يربط حول عنقه منديل مطرز. فتحمله القابلة فوق صينية وتقدمها إلى كل من الحاضرات، فيضعن النقود لها فيها — وفي المساء يقيم الزوج حفلاً لأصدقائه على طريقة الحفلات الخاصة الأخرى.

وتعتبر الوالدة نجاسة شرعاً^(١) زمناً بعد الولادة (في أغلب الأحوال أربعين يوماً عند القاهريين، وتختلف المدة باختلاف الظروف والمذاهب) وتسمى تلك المدة «نفاساً». وتذهب المرأة بعدها إلى الحمام.

أصف بعد ذلك الاحتفال الخاص بالختان. — في أغلب الأحوال، يزف الولد قبل ختانه (ويسمى «مطاهراً») في الشوارع بالطريقة الموصوفة في فصل سابق، إذا كان أهله من الطبقتين العليا والوسطى؛ غير أن أغلب المتعلمين ورجال الدين والفقهاء، وبعض الأغنياء في القاهرة، يفضلون إقامة «الصرافة» التي أبلغها فيما بعد.

(١) وكذلك الشريعة الموسوية تعتبر المرأة نجاسة أربعين يوماً بعد ولادة الذكر، وثمانين يوماً بعد ولادة الأنثى: أنظر اللاويين ١٢/٥، ٤، ٥.

يقصد زملاء « المطاهر » أحد الجوامع الرئيسية ، مثل جامع الحسينين أو الأزهر ، أو جامع السيدة زينب ، قبيل الظهر ؛ ويكونون في أحسن ملابسهم أو في ملابس مستعارة ، إن لم يكن لديهم ثياب ملائمة ، كما هو الحال على العموم ويذهب إلى هناك أيضاً رجال العائلة ونساؤها وكثيراً من الصديقات ، و« المطاهر » نفسه ، وأحياناً ستة من « جاويفية » نقيب الأشراف . ويحضر أيضاً الحلاق الذي يقوم بالعملية ، ومعه خادم يحمل « الحمل » السابق وصفه في أكثر مواكب الختان شيوعاً . ويجتمع كل هؤلاء ، وآخرون (سأذكرهم الآن) في المسجد ، ويظنون هناك إلى ما بعد صلاة الظهر ، ثم يرحلون في موكب إلى منزل أهل « المطاهر » . ويتقدم الموكب خادم الحلاق حاملاً « الحمل » . ويتبعه خمسة فقهاء أو ستة أحياناً يشهدون موشحاً في مدح الرسول . ثم التلاميذ يتقدمون كل اثنين أو ثلاثة أو أربعة جنباً إلى جنب . ويعني المتقدمون منهم أو نصفهم ، وهم سائر : « يا ليالى الحظ ! يا ليالى الفرح ! (١) » . ويكمل الأولاد الآخرون النغم قائلين : « الحظ والمرام ، والأحباب مجتمعين » . ثم المتقدمون مرة أخرى : « صلى ، اللهم ، على النور الوضاح » . فيردد الآخرون : « أحمد المختار ، خير المرسلين ! » وهكذا يظل الأولاد يغنون طول الطريق . ويسير وراءهم أقارب « المطاهر » ويتبعهم ستة أولاد تقريباً ، يحمل ثلاثة منهم قاقم فضية ملاءة بماء الورد أو ماء الزهر ، يرشون به المشاهدين أحياناً . ويحمل الثلاثة الآخرون مباخر فضية يحترق بها العود واللبان ، أو بعض المواد العطرية الأخرى . ويسير مع هؤلاء الأولاد سقاء ، يحمل فوق ظهره قربة مغطاة بمنشفة مطرزة ، ويفرق الماء على المارة ، في أكواب نحاسية وبعد ذلك يتبع ثلاثة من الخدم ، يحمل أحدهم وعاء قهوة فضي ، في « عزي » فضي . ويحمل الثاني صينية فضية عليها عشرة فناجين بظروف فضية ، أو أحد عشر . ولا يحمل الثالث شيئاً ؛ وعمله عندما يمر الموكب بشخص وجيه (جالس على مقهى مثلاً) ، أن يملأ أحد الفناجين قهوة ويقدمه إليه ؛ ويتناول عطية مقابل ذلك . ويكتفي بإعطاء نصف قرش على الأكثر . ويشغل

(١) لم أستطع الحصول على أصل النصوص المذكورة في هذا الفصل فاكثفت

الجاذبة المكان التالى فى نظام الموكب . وقد يتبعهم فريق آخر من الأولاد بالقاهم والمباخر . ثم يتبع هؤلاء ولد يحمل (لوح) « المطاهر » ، وقد زينه المدرس للمناسبة ، ويعلقه فى عنقه بمنديل . ويسير « المطاهر » بين ولدين آخرين ، خلف الولد السابق . وهو يلبس ثياب الزفة السابق ذكرها (أى ملابس أنثى — عدا المهامة — مزينة بحلى النساء) أو الثياب العادية ؛ ويمسك منديلًا مطرزا مطويا أمامه . ويتبعه النساء وهن يزغردن . وتستخدم إحداهن لرش الملح باستمرار ، وقاية له من نظرة الحاسد . ويصل الموكب إلى المنزل فى هذا النظام وبهذه الطريقة . ويفنى المتقدمون من التلاميذ عند وقوف الموكب أمام المنزل : « أنت شمس ، أنت قر ، أنت نور على نور » . ويضيف الآخرون : « يا محمد ! يا حبيبي ! يا أسود العين ! » ويدخلون المنزل وهم يرددون هذا الخطاب إلى الرسول ويرددونه مرة أخرى بعد دخولهم . وبصعد صغار الأولاد إلى الطابق الأعلى ، ويبقى الآخرون بالدور الأسفل . ويقول السابقون أثناء صعودهم : « يا عمته ! يا خالته ! تعالى حضرى صرافته » . وعند دخولهم « القاعة » ، يمطون شالا كشميريا فيمسكونه من جوانبه جميعا ؛ ويوضع وسطه لوح الكتابة المزين . ثم يمشد « العريف » ، أى رئيس التلاميذ ، الذى يقف أثناء ذلك على جانب (مع المطاهر والنساء) ، ما يسمى « خطبة الصرافة » ، عبارة عبارة ، ويردها الأولاد الآخرون بعده ، والخطبة ذات قافية غير موزونة .

وتضع النساء نقوطهن فوق لوح الكتابة المزين ، أثناء إنشاد هذه العبارات السخيفة ؛ فيجتمعه الأولاد فى منديل ، ثم ينزلون إلى الدور الأسفل ، ويسلمونه إلى الفقية (١) وهنا يجلس المطاهر على كرسي ، يقف الحلاق بجانبه ، وخادمه على الجانب الآخر . ويحيط الحمل على الأرض ، ويوضع على قته وعاء لنقوط الحلاق — ويتناول النساء المشاء فى الحريم ، ثم ينصرفن إلى منازلهن ؛ وكذلك الأولاد والرجال يتناولون المشاء فى الدور الأسفل وينادرون المنزل جميعا ، ما عدا رجال العائلة ، والحلاق وخادمه . ويقود الحلاق المطاهر ، مع أحد أقارب الأخير

(١) ما يتلو ذلك وصف للاحتفالات المقامة بعد الصرافة والزفة العادية ، التى وصفتها

أو اثنين منهم ، إلى غرفة خاصة ، حيث يجرى العملية ؛ وقد يقوم بالعملية في اليوم التالي . وبعد أسبوع تقريباً ، يأخذ الحلاق الولد إلى الحمام .

أما الحفل التالي (إن لم يكن زواج الابن أو البنت) فيكون على العموم عند قبول الولد بإحدى طوائف التجار أو العمال . ويقام بهذه المناسبة احتفال في بعض الأحوال ؛ فلا يقام عند التحاقه بأى حرفة ، وإنما عند التحاقه عادة بطائفة النجارين ، أو الخراطين ، أو الحلاقين ، أو الترزية ، أو مجلدى الكتب ، أو بعض آخرين وعندما يصبح الشاب ماهراً في الحرفة المقصودة ، يذهب والده إلى شيخ تلك الحرفة ، ويبدى رغبته في أن يصبح ولده عضواً بها . فيرسل الشيخ « النقيب » يدعو رؤساء الحرفة ، وبعض أصدقاء المرشح أحياناً ، لحضور حفل القبول . فيأخذ النقيب باقة من أى عشب أخضر ، أو من الزهور ، ويذهب إلى كل من هؤلاء ويقدم إليه عشباً ، أو « عود نياظ » ، أو زهرة ، أو ورقة ، ويقول : « الفاتحة للنبي » ، ويضيف بعد قراءة الفاتحة : « في يوم كذا والساعة كذا ، احضر إلى منزل فلان لتشرب فنجاناً من القهوة » ويتقابل المدعوون (في منزل والد الشاب على العموم ، وفي الريف أحياناً) ويشربون القهوة ، ويتناولون العشاء . وبعد ذلك ، يقود النقيب الشاب أمام الشيخ ، ويعدد صفاته ، ثم يطلب من الحاضرين قراءة الفاتحة للرسول ؛ وبعد ذلك يحزم الشاب بشال فوق ملابسه الخارجية ، ويمقده . ثم تقرأ الفاتحة مرة ثانية للسيد البدوي ؛ أو لولى كبير آخر ، ويمقد الشال عقدة ثانية . ثم تقرأ الفاتحة مرة ثالثة ، ويمقد عقدة . وهكذا يقبل الشاب قبولاً تاماً . فيقبل يد الشيخ ، ويد كل من زملائه في الحرفة . وينقد النقيب جملاً صغيراً — ويسمى هذا الحفل « شد الولد » — ويسمى الشاب المقبول « مشدوداً » .

لم يبق غير وصف الطقوس التى تقتضيها الوفاة . وسيكون ذلك موضوع الفصل القالى ؛ وبه يختم كتابى عن عادات المصريين وشمالهم .

الفصل الثامن والعشرون

الوفاة والطقوس الجنائزية

عندما يشعر المسلم الأديب أو التقى بدنو أجله ، يقوم بالوضوء العادي السابق على الصلاة ، ليرحل من الحياة الدنيا في حالة طهارة جسمانية ؛ ويردد على العموم الشهادتين . والشائع أيضاً أن يحمل المسلم معه كفنه في الحملات العسكرية ، أو في السفر الطويل ، في الصحراء خاصة ؛ وليس من غير الشائع أن يضطر المسافر ، في مثل هذه الظروف ، لأن يشق ضريحه عندما يغلبه التعب أو الحرمان ، أو يصاب بمرض مميت ، ولا يستطيع رفقائه انتظار إبلاله أو وفاته ؛ فيقيم (بالرمال أو بالتراب ، وهذا جائز في حالة عدم وجود الماء) ثم يحفر قبره في الرمال ، ويمتدد داخله ، بعد أن يلف نفسه في كفنه ، ويفعل جسمه ماعدا وجهه بالرمال ، وينتظر هكذا إلى أن تريحه الوفاة ؛ ويركن إلى الهواء ليتم ضريحه .

وعندما يموت أحد أفاضل الأدباء بالقاهرة ، تعلن وفاته من مآذن الأزهر ، وكثير من المساجد الأخرى ، بإنشاد « الأبرار » .

وتكاد تكون الطقوس الخاصة بالوفاة والدفن واحدة بالنسبة للرجال والنساء .

وعندما تظهر علامات الموت ، كالخسرة وغيرها ، على الرجل ، يديره أحد الحاضرين (زوجه أو غيرها) بحيث يكون وجهه إلى مكة^(١) ، ويعلق عيفيه .

ويصيح الرجال الحاضرون ، حتى قبل صعود الروح أو بعد ذلك ، « الله ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! إنا لله وإنا إليه راجعون . الله يرحمه » . وفي الوقت نفسه ، ترفع

نساء العائلة أصوات النذب المسماة « ولولة » أو « ولوال » إلى أقصى حد ، وينادين باسم الميت . وأكثر النداءات شيوعاً ، عند وفاة رب العائلة ، ما تقوله

زوجه أو زوجاته ، وأولاده : « ياسيدي ! » ، « يا جلي ! » (أي يامن جلبت مؤنني ، وحملت أعبائي) ، « ياسمعي ! » ، « يا جمل البيت ! » ، « يا عزي ! » ،

(١) يدير بعض المسلمين الرأس إلى ناحية مكة ؛ وآخرون ، الجانب الأيمن ، والرأس تحنى إلى تلك الناحية . وأعتقد أن الوضع الأخير هو الوضع الشائع .

« يا حيلى ! » ، « يا دحوى ! » (بدلا من يادعوى) . — وحالما تصعد روح الميت تخلع ملابسه ، ويلبس ملابس أخرى ، ويوضع على سريره أو حشيشته ، ويفطى بملاءة . ويظل النساء يندبن ؛ ويحضر كثير من نساء الجيران عند سماع الصراخ ، لمشاركتهن فى هذا الواجب الحزين . وترسل عائلة المتوفى على العموم فى طلب « ندايتين » ^(١) ، أو أكثر ، أيضاً ؛ ويستهنجن البعض هذه المادة ، ولا يوافق عليها كثير من الناس منمّا لتكاليف غير لازمة . وتحضر كل ندابة « طاراً » ، بدون الصفايح المدنية الزانة المعلقة بطوقه . وتصيح الندابات عدة صرات ، وهن يضربن الطار ، « يا خسارته ! » . ثم يمدحن فى المتوفى ، شخصه الجميل ، وعمامته ، الخ . وتصيح قريباته ، وخادماته الخ (مفككات الضفائر ، ممزقات الثياب) ، وهن يلطنن وجوههن ، بالطريقة نفسها : « يا خسارته » . وتدوم هذه الولولة على العموم ساعة على الأقل .

ويدفن الميت فى اليوم نفسه ، إذا حدثت الوفاة فى الصباح ^(٢) ؛ وفى اليوم التالى ، إذا حدثت عصرأ أو ليلاً . وتستمر الندابات فى هذه الحالة طول الليل فى النذب ، ويشاركهن النساء الأخريات . ويحضر « فقى » إلى المنزل لتلاوة بعض آيات القرآن أثناء الليل ، أو يستخدم عدة فقهاء لقراءة خاتمة كاملة .

ولا يلبث « المغسل » أن يحضر ، ومعه دكة ، يضع جثمان الميت عليها ، ونعش ^(٣) ويحضر أيضاً الفقهاء الذين يشتركون فى الجنازة (إذا كان المتوفى ينتمى إلى إحدى الطبقتين العليا والوسطى) . ويجلس هؤلاء أثناء التفسيل فى غرفة مجاورة للغرفة التى بها المتوفى ، أو خارج باب الغرفة الأخيرة . ويتلو بعضهم ، أو بالآخرى يرتلون ، سورة الأنعام . وينشد آخرون جزءاً من البردة . ويخلع المغسل ملابس المتوفى ، وتكون له . ويربط فك الميت وتغلق عيناه . وبعد القيام بالوضوء على الجسد ، ماعدا غسل الفم والأنف ، يغسل الجسد كله غسلاً جيداً ، من

(١) أنظر أخبار الأيام الثانى ٣٥ - ٢٥ — واربعاء ٩ - ١٧ — وانجيل متى ٩ - ٢٣

(٢) وهناك خرافة تجعل المصريين يعارضون فى إبقاء الجسد فى المنزل أثناء الليل ، وفى دفن الميت بعد الغروب . ولكنهم يدفنون فى ذلك الوقت أحياناً . وقد شاهدت ذلك مرة .

(٣) ليس من الضروري أن جسد الأنتى تغسله امرأة دائماً .

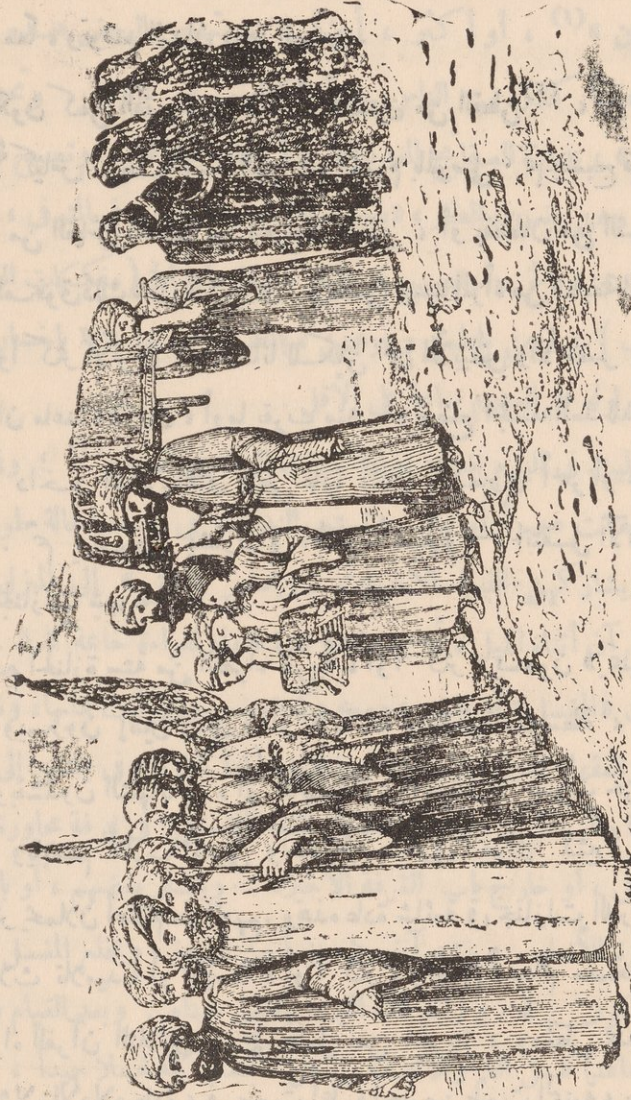
الرأس إلى القدمين، بالماء الساخن والصابون، ويدلك باللوف ؛ أو على الأصح ، بالماء
يفطى معه بعض أوراق « النبق » أو « السدر »^(١) ويحشى الأنف والاذنان بالقطن
ويرش الجسد بمزيج من الماء والكافور المسحوق وأوراق النبق الجافة المسحوقة
وماء الورد . ويضاف أحيانا إلى أوراق النبق أوراق جافة مسحوقة أخرى . وتربط
الركبتان معا ، وتوضع اليدان فوق الصدر .

ويتكون كفن الفقير من قطعة أو قطعتين من القطن^(٢) ، أو يكون مجرد
نوع من الأكياس . ويلف جسد الفنى على العموم بالموصلى ، ثم ينسج قطنى سميك ،
ثم بقطعة من القماش المخطط من الحرير والقطن ، أو بقفطان من النسيج نفسه ،
وأخيراً يلف فوق ذلك شال كشميرى . ويكسى جسد المرأة من الطبقة الوسطى بيلك
عادة . وأكثر الألوان استعمالاً للكفن هى الأبيض والأخضر . ويستعمل
أى الألوان ماعدا الأزرق ، أو ما يقرب منه . ويوضع الجسد الممد للدفن كما سبق
وصفه ، داخل النعش الذى يغطى عادة بشال كشميرى أحمر أو غير ذلك من
الألوان . ثم يرتب من يشترك فى الجنازة أنفسهم — انقل الآن إلى وصف
أكثر الجنازات شموعا .

يتقدم الجنازة شقة من الفقراء تقريباً ، أو أكثر ، يسمون « يمنية » وأغلبهم
عمى ؛ ويسرون إثنين إثنين ، أو ثلاثة معا ، بخطوة متوسطة ، أو بالأحرى
يمطء ؛ وينشدون الشهادات ، أو كلمات أخرى أحيانا ، بصوت حزين ، وبدون
توقف . ويتبعهم أقارب المتوفى وأصدقاؤه ، وفى أحوال كثيرة ، درويشان
أو أكثر يحملان أعلام طوائفهم . وهذه عادة شائعة فى جنازات الدراويش . يتبع
هؤلاء ثلاث تلاميذ ، أو أربعة ، أو أكثر ، ويحمل أحدهم مصحفاً ، أو جزءاً
من أجزاء القرآن الثلاثين ، على حامل من الجريد ، ومغطى بمندبل مطرز .
وينشد هؤلاء الأولاد عادة ، فى صوت أعلى وأحد من صوت اليمنية ، بعض عبارات
قصيدة « الحشرية » التى تصف أحداث اليوم الأخير ويوم الحساب الخ .

(١) كثيراً ما يستعمل الفقراء أوراق النبق الجافة المسحوقة بدلا من الصابون .

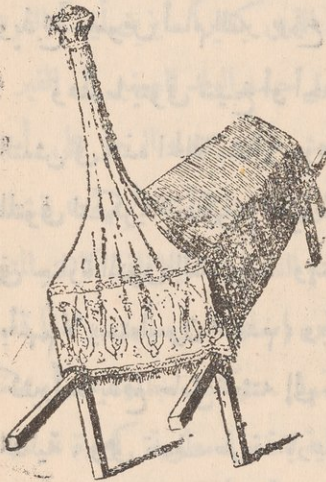
(٢) كثيراً ما يرش الكفن بماء زمزم فى مسجد مكة .



(شكل ٧٨) جنازة

ويتقدم التلاميذ النعش مباشرة ، ويحمل النعش والرأس إلى الأمام .
ويحمله ثلاثة من أصدقاء المتوفى عادة أو أربعة ، لمسافة قصيرة ، ثم ثلاثة أو أربعة
آخرون لمسافة أخرى وهكذا . وكثيراً ما يشترك بعض المارة أيضاً في حمل النعش
ويعتبر ذلك عملاً يستحق ثواباً عظيماً . وتسير من النادبات خلف النعش
ما يزيد على إثنتي عشر أو عشرين نادبة مسدلات الشعر ، وإن وغطى بالنقاب على العموم ،
نائحات كما سبق أن وصفت ؛ وكثيراً ما تصحبهن « النادبات » المستأجرات ،
شائدات بمدح المتوفى . وتميز قريبات المتوفى وخداماته بين النساء بقطعة من
الكتان أو القطن أو الموصلي ، زرقاء اللون على العموم ، تلف حول الرأس
وتمتد عقدة واحدة من الخلف ، ويتدلى أطرافها بضع بوصات ^(١) . وتحمل كل من
أولئك أيضاً منديلاً مصبوغاً بالأزرق عادة ، تمسكه يديها فوق كتفها أحياناً ،
وتدوره فوق رأسها ، أو أمام وجهها ، أحياناً أخرى . ويكون صراخ النساء ، وغناء
الأولاد الحاد ، وأنشاد النينة العميق ،

نشازاً غريباً .



(شكل ٧٩) نعش امرأة أو ولد

وكان الرسول يحرم ولولة النساء في
الجنائزات ، وكذلك الإشادة بفضائل المتوفى .
والغريب أن تشاهد تعاليم الرسول ينقضها
كل يوم طبقات المسلمين المحدثين جميعاً ،
ما عدا الوهابيين . وقد رأيت أحياناً نادبات
من الطبقات الدنيا ، يتبعن نعشا ، وقد لاطخن
وجوههن السافرة ، وطرحهن ، وصدورهن
بالطين ^(٢) .

وقد يتقدم أحياناً جنازة الرجل الثرى ، أو من الطبقة الوسطى ، ثلاثة جمال أو أكثر ،

(١) كثيراً ما تشاهد على جدران المقابر الفرعونية في مناظر الجنائزات ، نساء يتعصبن
بعباية مشابهة .

(٢) وهذه عادة من عادات قدماء المصريين ؛ وقد وصفها هيرودوت في كتابه الثاني
الفصل الخامس والثمانون . . . وكثيراً ما يقول المارة في الشوارع ، عندما يرون نعشاً محملاً إلى
المقابر : الله أكبر ! الله أكبر ! هذا ما وعد به الله ورسوله ، وقد قال الله ورسوله الحق .
اللهم قوى إيماننا وإسلامنا . أما النساء فيصرن بالأصبع ، ويقولن : أشهد أن لا إله إلا الله .

تحمل الخبز والماء ليوزع على الفقراء عند المقبرة ؛ كما تتكون من جماعات أكثر عدداً واختلافاً . ويتقدم «اليمينية» المشيعين ، يرتلون الشهادتين كما سبق . ويتبهم على العموم بعض أصدقاء المتوفى ، وبعض علماء الأزهر والأقبياء الذين دعوا لحضور الجنازة . ويتبع هؤلاء أربعة فقهاء ، أو أكثر ، يرتلون سورة الأنعام ؛ وقد يرتل آخرون ، سورة يس ؛ وآخرون ، سورة الكهف ؛ وآخرون سورة الدخان . يأتي بعد ذلك بعض المنشدين ينشدون البردة ؛ ويتبع هؤلاء « أصحاب الأحزاب » وهم أعضاء طوائف دينية أسسها شيوخ مشهورون . ويوجد على العموم أربعة أو أكثر من حزب السادات ، وفريق مماثل من حزب الشاذلي وثالث من حزب الشعراوي وينشد كل فريق نوعاً خاصاً من الدعاء . ويحمل بعد ذلك علمان مطويان بعض الطي ، أو أكثر ، وهي أعلام حزب أو أكثر من أحزاب الدراويش الرئيسية . ثم يتبع ذلك التلاميذ ، فالنميش ، فالنمحات ، كما في الجنازة السابق وصفها . ويذبح جاموس أمام القبر يوزع لحمه على الفقراء .

وعندما يتوفى شيخ أو أحد كبار الأدباء ، يزيد عدد المشيعين ؛ ولا يغطي النميش في هذه الحالة بشال . وهناك عادة معتبرة يراعيها المصريون في جنازة الولي المتوفى لتكريمه تكريماً عظيماً . يتبع النساء النميش ؛ غير أنهن لا يولون ، كما يفعلن في جنازة المتوفى العادي ، وإنما يزغردن بلا توقف ، وإلا احتج حاملو النميش بأنهم لا يستطيعون التقدم ، وبأن قوة خارقة تسمرهم في مكانهم . ويقال إن الولي كثيراً ما يدفع حاملي جثته إلى مكان خاص . وقد روى لي أحد أصدقائي القصة التالية . وهي تصف طريقة بارعة لرَبِّك ولي متوفى في حالة من هذا النوع — كان بعض الرجال يحملون أخيراً جثمان ولي إلى قبر أعد له في المقبرة الكبيرة شمالى العاصمة وعند وصولهم إلى باب النصر ، المؤدى إلى هذه المقبرة ، وجدوا أنفسهم عاجزين عن التقدم خطوة إلى الأمام للسبب المذكور سابقاً . وقال أحد حاملي النميش : « يبدو أن الشيخ مصمم على ألا يدفن في مقبرة باب النصر . فلماذا نفعل ؟ » وتحيروا جميعاً ، ولكنهم عندوا مثل الولي ولم يدعنوا إلى بداته مباشرة ، ونقهقروا بعض خطوات ثم تقدموا بسرعة ، ظناً منهم أنهم ، بقوة اندفاعهم هذه ، يدفعون الجثة عن طريق الباب ؛ غير أن مجهودهم ذهب سدى . وأعادوا الكرة مرات دون جدوى .

ثم وضعوا النعش على الأرض المراحة والاستشارة . وقال أحدهم بعد أن أشار إلى زملائه بالابتعاد عن سمع الولي المتوفى : « لنندفع النعش مرة أخرى ، ونديره عدة مرات بسرعة حتى يصاب الشيخ بالدوار ؛ وسوف لا يعرف في أي جهة نسير فيسهل علينا حمله إلى الباب » . وقاموا بذلك فعلاً ؛ وتحير الولي كما توقعوا ، ودفن بهدوء في المكان الذي كان يسمى في تحفبه .

تختلف النعوش المستعملة لنقل أجساد النساء والأولاد عن نعوش الرجال . وتجهز بغطاء خشبي يطرح عليه شال ، كما يطرح على نعش الرجال ، وبقطعة خشبية عمودية ، عند الرأس ، تسمى « شاهدنا » ويغطي الشاهد بشال ؛ ويثبت بأعلاه ، عند نقل جثة امرأة من الطبقة الوسطى أو العليا ، عدة حلي من غطاء الرأس للمرأة . وكثيراً ما يوضع على قمة الشاهد المسطوحة والمستديرة « قرص » ويلق « الصفا » عند الظهر (أنظر ذيلاً) ويميز نعش الولد بمهمة من شال كشميرى أحمر على العموم ، تلف حول قمة الشاهد ، الذي كثيراً ما يزين أيضاً بالقرص والصفا ، عندما يكون المتوفى ولداً صغيراً . ويحمل جسد الولد الصغير إلى القبر بين يدي رجل ، ويغطي بشال فقط ، أو يوضع في نعش صغير يحمله الرجل على رأسه . يسبق النعش عادة ، في جناز النساء والأولاد ، فرقة « اليمينى » ينشدون الشهادتين ، وبعض أقارب المتوفى فقط ؛ وتتبعه النادبات ، إلا إذا كانت المتوفاة من عائلة ثرية أو ذات نفوذ ، فتميز الجنازة بعرض إضافي . وسأورد وصفاً قصيراً لإحدى الجناز من هذا النوع كنت قد شاهدها . وكانت جنازة عذراء صغيرة السن - تقدم الجنازة رجلان يحمل كل منهما راية خضراء مطوية كبيرة ، تتبعهما فرقة اليمينى ، التي كان ينشد أفرادها بصوت منخفض مهيب على غير عادة . وكان يتبعهم فريق من الفقهاء يرتلون سورة من القرآن . وكان يلقوهم رجل يحمل فرعا كبيراً من النبق ، رمز المتوفاة^(١) . وعلى كل جانب شخص يحمل عصا طويلة ، علق في قمها عدة أطر مزينة بقصاصات من الورق الملون تلويناً مختلفاً . وكان يتبعهما جنديان تركيان ، جنباً إلى جنب ، يحمل أحدهما على صينية مستديرة صغيرة ، قمها من

(١) ويحمل هذا في جناز الصغار فقط .

الفضة به ماء ورد ؛ ويحمل الآخر على صينية مائلة ، مبخرة من الفضة المذهبة تحترق بها بعض المواد العطرية (مثل اللبان والجاوى) ، فينتشر عطرها في الطريق ، وتستعمل فيما بعد لتعطير قبوة الضريح . وكان المارة يرشون أحياناً بماء الورد . ثم جاء أربعة رجال ، يحمل كل منهم ، على صينية صغيرة ، عدة شمعات رفيعة صغيرة مضاءة ألصقت بأقراص من عجين الحناء . وكان النمش مغطى بشيلان فاخرة ؛ وكان شاهده مزينا بجلى رأس جميلة ؛ وكان بجانب الصفا « قصصة الماس » (أنظر ذيل ١) ، ويملو قفقه المسطوحة قرص ماسى فاخر . هذه كانت حلى المتوفاة ، وربما كانت مقترضة لذلك ، كما هو الحال كثيراً . وتبعت الفاديات النمش ، وكن سبهاً أو ثمانى تقريباً ، لابسات على طريقة السيدات المصريات (غطاء حريريا أسود الخ .) ، ورا كبات حميرا ذات أسرجة عالية ، خلافا للعادة الشائعة في جناز هذا البلد ؛ ولم يكن يولول منهن غير الأخيرتين أو الثلاث الأخريات ، ويحتمل أن تكون أولئك نادبات مؤجرات — وفي جنازة امرأة أخرى ، ابنة أحد الأتراك العظماء ، كان يتبع الخيمية ستة عبيد سود يسرون اثنين اثنين . وحمل كل من الإثنين الأولين ثقباً فضياً به ماء ورد يرشانه على المارة ؛ وقد كرمنى أحدهما تسكريماً وافراً قبل ثيابى بطريقة متقبة ، ثم صب مقداراً صغيراً فى يدى ، قبلت به وجهى تبعاً للعادة الشائعة . وحمل كل من الإثنين التاليين مبخرة فضية بها عطر . وحمل كل من الاثنين الأخيرين « عزقياً » فضياً به حجر ولبان . وكانت حلى الشاهد ثمينة . وتبعهم إحدى عشرة سيدة ، على الحمير العالية ، وعدة « نادبات » معاً .

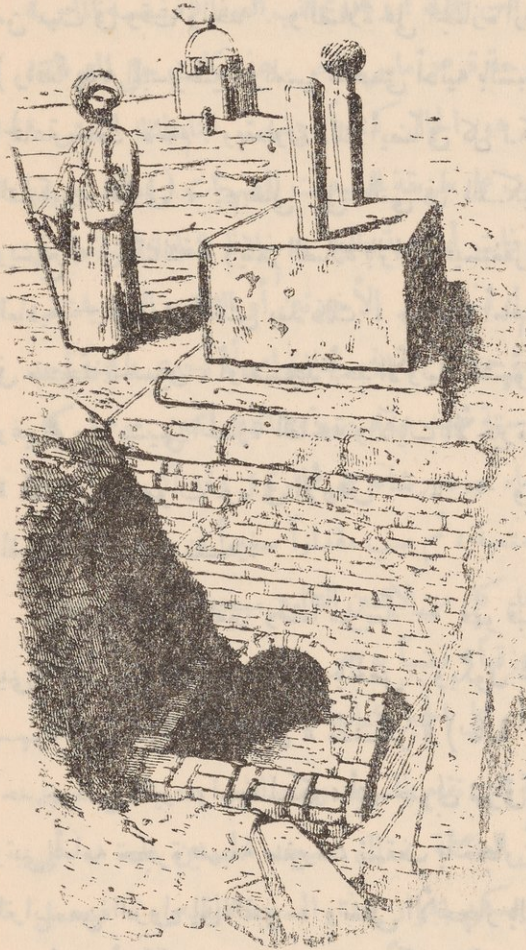
بقى أن أصف الطقوس الدينية التى تقام بالمسجد وعند القبر — يحمل جسد المتوفى فى أحد الأحياء الشمالية من العاصمة ، إلى مسجد الحسين عادة ، على الأفضل ؛ إلا إذا كان فقيراً ، لا يسكن بجوار هذا المسجد المقدس ، فيحمل أصدقاؤه جسده إلى أى مسجد مجاور ، اختصاراً فى الوقت والنفقات غير اللازمة . وعندما يتوفى أحد العلماء (ذو المهنة الأدبية ولو وضعت) يحمل إلى الجامع الأزهر . ويحمل أهل الأحياء الجنوبية موتاهم إلى مسجد السيدة زينب على العموم ، أو إلى أى مسجد ولى مشهور آخر . ويرجع سبب تفضيل مثل هذه المساجد على الأخرى الى الاعتقاد فى أن الصلاة المقامة عند أضرحة الأولياء أكثر استجابة عند الله .

ويوضع النعش ، بعد حمله إلى المسجد ، فوق الأرض في مكان الصلاة العادي وعينه إلى القبلة . ويقف أمام المسجد على الجانب الأيسر ؛ ويقف أحد خدم المسجد «مبليغاً» عند القدم . ويرتب المشيعون أنفسهم خلف الإمام . ويقف النساء على حدة خلف الرجال ؛ وقاما يبعد النساء من المسجد في هذا الوقت . وبعد ذلك يبدأ الإمام الصلاة على الميت ، أو على الأموات ، إذ كثيراً ما يصلى على أكثر من ميت في وقت واحد . والصلاة على الجنازة أربع تكبيرات . ويكبر الإمام (رافعاً يديه المبسوطتين ويلبس شحمتي أذنيه بالسبابية) فيردد المبلغ قوله ، وكذلك الجماعة خلف الإمام . ويفعلون ذلك أيضاً في كل تكبيرة . ويتلو الإمام الفاتحة بعد التكبيرة الأولى ، ثم يصلى على النبي في التكبيرة الثانية ، ويستغفر للميت ويشفع له في الثالثة ، ويتم الصلاة بالرابعة فيستغفر للمسلمين ، ثم يسلم كما في الصلاة العادية — ويحمل النعش بعد ذلك ، ويوضع أمام المقصورة ، إذا أقيمت الصلاة في مسجد الحسين ، أو مسجد أحد الأولياء المشهورين . وهنا يتلو بعض الفقهاء وغيرهم من مشيحي الجنازة الفاتحة والآيات الأخيرة من سورة البقرة ابتداء من : «لله ما في السموات وما في الأرض ...» — وبعد ذلك ، تتقدم الجنازة إلى المقبرة^(١) بالترتيب نفسه .

وهنا أصف القبر وصفاً سريعاً — فهو قبو مستطيل ذو سطح معقود ، يبنى بالآجر على العموم ، ويغطى بالحص . ويكون محوفاً ليستطيع المدفون أن يقوم بسهولة عند سؤال الملائكين «مُنكر» (عامّة ناكر) «ونكير» ويكون أحد جوانب القبر مواجهاً لمكة ، أي جنوبي شرقي . ويكون المدخل شمالي شرقي وتبنى أمامه حجرة مربعة صغيرة ، تسقف بأحجار تمتد من جانب إلى آخر ، لتمنع التراب من النزول إلى القبو ، وتغطى الأحجار بالتراب . ويعد القبو على العموم ليسع أربعة أو أكثر . وعندما يدفن ذكر وأنثى معاً في قبو واحد ، والمادة لم تجر بذلك ، يبنى حاجز ليفصل بين الجنسين . ويقام فوق القبو ضريح مستطيل ، يسمى «تركيبه» ، من الحجر أو الآجر ، وعمود حجري قائم ، يسمى «شاهداً»

(١) يقع أغلب مقابر القاهرة خارج المدينة في الصحراء شمالاً وشرقاً وجنوباً . والمقابر داخل المدينة قليلة ضيقة .

عند الطرفين ، ويكون الشاهدان في شكل ساذج غالبا ، غير أن بعض الشواهد تزين . وكثيراً ما ينقش على شاهد الرأس آية قرآنية^(١) واسم المتوفى وتاريخ وفاته . وقد تُنحت قبة الشاهد أيضا على هيئة عمامة أو غطاء رأس آخر لتبين مكانة المدفون أو طبقته — ويقام فوق قبر الشيخ الفاضل ، أو ذائع الصيت ، بنيان مربع صغير ، يتوج بقبة^(٢) . ولكثير من قبور عظماء المهاليك والأثراك « تركيبة »



(شكل ٨٠) قبر ومدخله

رخامية تظلمها قبة على عمدان رخامية أربعة . وينقش شاهد الرأس بالذهب على أرضية ذات زرقعة سماوية وتحوى مقبرة القاهرة الجنوبية الكبيرة كثيراً من هذه القبور . وأغلب قبور السلاطين مساجد جميلة وبعضها داخل العاصمة ؛ والبعض الآخر في المقابر المجاورة — وأعود الآن إلى وصف الجنائزة .

لا يتوانى في دفن الميت عند وصول الجسد إلى القبر ، الذي يفتح قبل وصول الجنائزة . فيرفع الجسد من النعش

ويوضع في القبر ؛ وتفك اللغائف ، ويمدد الجسد على الجانب الأيمن ، أو يوضع بحيث

(١) حرم الرسول نقش اسم الله ، أو كلام القرآن ، على القبر . وأمر أيضاً أن تكون القبور منخفضة مبنية بالابن فقط .

(٢) مثل التي ترى في أعلى شكل ٨٠

يتجه وجهه إلى مكة . ويسند في هذا الوضع ببعض اللابن . ويوضع بعض التراب برفق فوق الجثة وبجانبا . وتعاد أحجار السقف إلى موضعها مع التراب ، فوق الحجرة الصغيرة المتقدمة لخلق القبر . غير أن هناك طقساً غريباً يجري في غير حالة الطفل غير المسئول عن أعماله . فيستخدم فقيه للقيام بعمل « ملقن » ^(١) (أى تلقين الميت) يجلس أمام القبر ليلقن الميت حين يحضر الملاك بأن عليه أن يجيب على أسئلتها بأن الله ربه ، وأن محمداً رسول الله وأن دينه الاسلام ، وأن القرآن مرشده والمسلمين أخوته ، وأن الكعبة قبلته ، وأنه عاش ومات معتقداً أن لا إله إلا الله ومحمد رسول الله . ويختتم تلقينه هذا بقوله : « سم يا خادم الله ، في حمى الله » . ويعتقد أن الروح تلازم الجسد في اليوم الأول من الدفن ، وأن الملاكين يزورانه ليلاً لسؤاله ، وقد يعذبانه — ويدفع إلى التمنية وغيرهم من المؤجرين للسير في الجنائز أجرهم في المقبرة ، ويتناول كل من الأولين قرشاً عادة . ويحمل في جنازة ذى المكنة أو الثراء قربتان ماء أو ثلاث ، وخبز حمل جملين أو ثلاثة إلى المقبرة ليوزع بعد الدفن ، على الفقراء الذين يحتشدون هناك في مثل هذه المناسبة . وقد ذكرت أيضاً أنهم يذبحون جاموسة أحياناً ، ويوزعون لحمها بالطريقة نفسها . وتسمى هذه الذبيحة « الكفارة » إذ أنها تكفر عن بعض « صغائر » الميت ، ولا تكفر عن « الكبائر » . ويحجب كل من أهل الميت بعد الدفن بدعاء أن يموضوا هذه الخسارة تمويضاً سعيداً ، أو يطيل الله بقاءهم . وتسمى الليلة الأولى بعد الوفاة « ليلة الوحشة » ، إذ أن الميت ترك مكانه مقفراً . وفي هذه الليلة ، عند الغروب ، يحضر فقهاء أو ثلاثة إلى المنزل ، ويتناولون خبزاً ولبناً حيث مات المتوفى ، ثم يقرأون سورة الملك . ولما كان الاعتقاد أن الروح تلازم الجسد في الليلة الأولى ، ثم تغادره إلى المكان المحدد لبقاء الأرواح الطيبة إلى يوم الحساب ، أو إلى السجن المحتموم حيث تنتظر الأرواح الشريرة القضاء الأخير ، فإن تلك الليلة تسمى « ليلة الوحدة » .

وهناك شمار آخر ، يسمى شمار « السبحة » ، يقام بهذه المناسبة ، ليسهل دخول الميت في حالة سعيدة . وهو يشغل ثلاث ساعات أو أربع عادة . فيجتمع

(١) ويستحسن للملكية عادة « تلقين الميت » .

ما يقرب من خمسين فقيهاً أحياناً ، بعد العشاء ، في المنزل أو في فناءه ، أو أمام المنزل على حصر تمد لهم ان لم يكن بالمنزل غرفة تسمهم . ويحضر أحدهم سبحة من ألف خرزة بحجم بيض الحمام تقريباً . فيبدأون بقراءة سورة الملك ، ثم يقولون ثلاثاً : « الله أحد » ؛ ويقولون بعد ذلك سورة الفلك والفاتحه ، ثم يقولون ثلاثاً : « اللهم صلى أفضل صلاة على أسعد مخلوقائك سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم » . ويرددون بعد ذلك : « لا إله إلا الله » (ثلاثاً) ألف مرة . ويحسب أحدهم عدد ما قالوه بدفع خرزة من السبحة بين أصابعه ، في كل مرة . ويستريحون أحياناً بعد كل ألف ، ويتناولون القهوة . وبعد أن يرددوا بعض عبارات مماثلة عدة مرات ، يتلون من سورة الصافات الآيات الثلاث الأخيرة . وبعد ذلك يتلو فقيهان منهم أو أكثر « عشرأ » أو آيتين من القرآن أو ثلاث ، كل على انفراد . ثم يسأل أحدهم رفقائه : « هل وهبتم ما قرأتم إلى روح الميت ؟ » . فيجيبون : « وهبناه » ، ويضيفون : « وسلام على المرسلين الخ ... » ويختم بهذا شعار السبحة ، الذي يردد أيضاً ، في منازل الأغنياء في الليلتين الثانية والثالثة . ويقام كذلك في منزل العائلة عند وفاة أحد الأقارب .

ولا يلبس الرجال ملابس الحداد ؛ ولا النساء عند موت شيخ ؛ ويلبسن الحداد فيما عدا ذلك . وفي تلك الأحوال تصبغ القمصان والطرح والأنقبة والمناديل بالأزرق ، أو بما يقرب من الأسود ، بالزليج . ويصبغ بعضهم باللون نفسه أيديهن وأذرعتهن إلى المرفق ، ويطلبن جدران الغرف . وعندما يموت رب الدار ، أو مالك الأثاث ، وفي أحوال أخرى أحياناً ، يقلبن السجاجيد والحصر والحشاي وأغطييه الدواوين . ويرسل النساء شعورهن ، عند الحداد ، ويمتنعن عن لبس بعض الحلي ، ويدخن إن كن متعودات على التدخين ، في شباك من البوص المادى .

وتعود نساء عائلة المتوفى ، وبعض الصديقات ، إلى الولولة ، في منزلهن عند نهاية الخميس الأول بعد الوفاة ، أو مبكرات في صباح هذا اليوم . ويزور أصدقاء المتوفى المنزل بعد ظهر هذا اليوم أو في المساء . ويؤجر ثلاثة فقهاء أو أربعة لعمل خاتمة . وفي صباح الجمعة يقصد النساء المقبرة حيث يراعين العادات نفسها التي وصفتها سابقاً في الفصل الثانى من فصول الأعياد الدورية العامة ، ويحلمان على العموم

السعف يكسرنه ويضعنه على القبر، ويوزعن الخبز على الفقراء . وتعاد هذه الطقوس في يوم الخميس والجمعة، حتى تتم فترة الأربعين يوماً^(١) بعد الوفاة ، أو التالين لها . ومن هنا يسمى يوم الجمعة هذا « الأربعين » أو « جمعة الأربعين » .

جرت العادة عند فلاحى الصعيد أن يجتمع قريبات المتوفى والصدقات معاً بالقرب من منزله في كل من الأيام الثلاثة بعد الجنائز ، ويقمن هناك مناجاة ، ونوعاً غريباً من الرقص . فيلطخن وجوههن وصدورهن وبعض ملابسهن بالطين . ويقترزن^(٢) بحبل من « الحلقا » . وهز كل منهن في يدها جريدة أو نبوتاً أو حربة أو سيفاً مسلولاً ؛ ويرقصن ببطء ، وبطريقة غير منظمة . فيخطون ويقمن ويهبطن بأجسامهن . ويظل هذا الرقص ساعة أو أكثر . ويقام مرتين أو ثلاث مرات طول اليوم . وبعد اليوم الثالث يزور النساء القبر ويضعن عليه أحزمتهن . ويذبح هناك عادة حمل ، أو ماعز تقدياً . وتقام مأدبة بهذه المناسبة .

الآن وقد وصفت عادات المصريين وشمائلهم في أدوار حياتهم وظروفها المختلفة من الطفولة إلى الوفاة ، أختم حديثي عنهم كما يقول كتابهم ، في مثل هذه الحالة « بالشكر والحمد لله الذى لا يموت » .

(١) أنظر سفر التكوين ١ - ٣ .

(٢) كما كانت تفعل نساء قدماء المصريين في الحالة نفسها . « أنظر هيرودوت في الفصل الخامس والثمانين من الكتاب الثانى » .

ملحق

١ - الأقباط

إن شهرة تلك الأمة العظيمة التي ينحدر منها الأقباط خاصة تجعل هذه الطائفة موضع الاهتمام الكبير ، على الأخص لمن يبحث في آثار قدماء المصريين العجيبة غير أن نفورهم الشديد ممن لا ينتمى إلى جنسهم ، (مثل ما كان يفر أسلافهم الأجداد) ، وإحجامهم عن مخالطة الغرباء مخالطة أليفه ، كادا يؤيساني من التعرف على أحوالهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية . ومع ذلك فقد وفقت أخيراً إلى معرفة شخص — كنت أشك في وجوده — قبطنى واسع العقل فطنه ، وأنى أدين لفضله بمعرفة أكثر الوقائع التي أسردها في الرسالة الموجزة التالية .

يكون الأقباط ، في الوقت الحاضر ، أقل من $\frac{1}{4}$ من المصريين ، إذ أن عددهم لا يزيد على ما يقرب من مائة وخمسين ألف ، يسكن عشرة آلاف منهم تقريباً في العاصمة . وفي بعض أنحاء الصعيد قرى يسكنها الأقباط وحدهم ؛ وهم يكثرون خاصة في الفيوم . وتبين آثار الأديرة والكنائس الكثيرة في جوانب مصر المختلفة أن الأقباط كانوا أكثر عدداً منذ بعض أجيال ؛ غير أن الكثير منهم كانوا يعتقدون الإسلام سنوياً ، ويصاهرون إلى المسلمين بالزواج ؛ فانخفض عدد الأقباط المسيحيين الخالص إلى هذا القدر القليل .

ولاشك أن الأقباط ينحدرون من قدماء المصريين ، ولكنهم ليسوا جنساً صافياً . فقد تزوج أسلافهم في عصور المسيحية الأولى باليونانيين والأحباش وغيرهم من الأجانب . وهم يسمون على الأصح : قبط أو قبط ، ولكن الغالب : جُبط أو جُبط ، وأبط أو إبط (في القاهرة وضواحيها ، وبعض أنحاء أخرى من مصر) والمفرد : قبطى (بضم الفاء أو كسرهما) ، جبطنى (بضم الجيم أو كسرهما) ، أبطنى (بضم الألف أو كسرهما) وهذه الألفاظ جميعاً تشبه الاسم اليونانى القديم لمصر : « إغپتوس » . غير أن المعتقد على العموم أن لفظ « قُبط » يشق من « كُپتُيس Coptos » (وكانت مدينة عظيمة في الصعيد) ، وتسمى الآن : « قُقط » أو ، غالباً « جُقط » وقد حل بها عدد كبير من المسيحيين المصريين

أبناء اضطهاد أباطرة الرومان لهم . ولم يفقد الأقباط كلهم لغتهم القديمة إذ أن طقوسهم وكثيراً من كتبهم الدينية تكتب باللغة القديمة . غير أن اللغة القبطية أصبحت لغة ميتة لا يفهمها غير القليل ، واستبدلت بها اللغة العربية .

أما خواصهم الشخصية فنلاحظ أن بينهم وبين قدماء المصريين مشابة كبيرة في بعض المواضع ، وأيضاً اختلافاً كبيراً في الجملة ؛ وحكمنا على الفراعنة من الرسوم والنقوش الموجودة بمقابرهم وبمعابدهم . ومع ذلك ، فن السهل تعليل الاختلاف بينهما بفعل تزاوج أسلاف الأقباط المحدثين بالأجانب المذكورين سابقاً وأقرب القوم إلى القدماء شهما في الوقت الحاضر هم النوبيون ؛ ويتلوهما الأحباش والأقباط الذين يختلفون مع ذلك جسد الاختلاف فيما بين بعضهم وبعض . ويختلف الأقباط بعض الاختلاف عن أ كثرية مواطنهم المسلمين إذ أن المسلمين ينحدرون خاصة من العرب ومن الأقباط الداخلين في الإسلام فأصبحوا هكذا يشاكلون الأقباط في الهيئة . وقد وجدت أنه من الصعب أحياناً أن أدرك اختلافاً ما بين القبطي والمسلم المصري ، خلاف ما يوسم به القبطي من سمات السكابة والعتاد ؛ وكثيراً ما يُخدع المسلمون أنفسهم عندما يرون قبطياً يلبس العمامة البيضاء ، ونلاحظ في الأقباط لون الوجه نفسه في مختلف الجهات من الشمال إلى الجنوب وقد يختلف اللون من الشاحب إلى النحاسي أو إلى الأسمر . وعين القبطي على العموم واسعة طويلة ، تميل قليلاً من الأنف إلى أعلى ، وتكون سوداء دائماً . وأنفه مستقيم ما عدا طرفه يستدير ويتسع وشفاه غليظتان ، وشعره أسود مجعد . والقبطي على العموم ربعة إلى القصر ، وكذلك كان قدماء المصريين كما يبدو من المومياءات . وتكحل القبطيات ، من الطبقتين العليا والوسطى على الأخص ، طرف الجفن ؛ وتوشم الطبقة الدنيا منهن الوجه واليدين على طريقة المصريات الأخريات ، ولكنهن يضافن الصليب إلى أشكال الوشم المختلفة . وأكثر الأقباط يختنون أولادهم . وهم بلا استثناء يراعون عادة أخرى كانت سائدة في أسلافهم الوثنيين ، وقد أشار إليها «سترابون» ، وأشارت إليها في هامش الصفحة ٥٣ من هذا الكتاب .

وملابس الأقباط كملابس المسلمين ، ما عدا عمامة القبطي الخاصة به فتكون

سوداء أو زرقاء ، أو ذات لون يضرب إلى الأنهب أو الأسمر ؛ ويختار الأقباط فيما يتعلق باللبس الألوان القائمة ، وكثيراً ما يلبسون جبة قطنية سوداء أو قميصاً مسترسلاً فوق ملابسهم الجوخية والحريية . وهم ، في المدن ، يمتنون عادة بتمييز أنفسهم هكذا من المسلمين ؛ ولكن أكثرهم يلبس في القرى العمامة البيضاء أو الحمراء . ويميز المسيحيون الآخرون واليهود التابعون للباب العالي بالطريقة نفسها . ولا يميز المسيحيون جميعاً ، فالكثير من الأرمن واليونانيون والمسيحيون السوريون يعممون بالأبيض . ويسمح للمسيحيين الأوربيين بالمثل وباختيار الزي التركي أيضاً . وسأذكر فيما بعد الأسباب التي بعثت أولاً على تمييز الأقباط بالعمامة السوداء والزرقاء في بعض الهوامش التاريخية الخاصة بهؤلاء القوم وتنقيب القبطيات في الخارج ، وفي المنزل أيضاً ، في حضور رجل من غير الأقارب . وتنقيب السيدات غير المتزوجات ، ونساء الطبقة الدنيا ، في الشارع بالأبيض ؛ ويلبس فضليات السيدات المتزوجات النقاب الأسود ؛ غير أن الكثيرات يحترن الأبيض رغبة في تقليد المسلمات .

ينتمي الأقباط ، ما عدا نسبة قليلة تسير على اعتقاد الرومان أو اليونان ، إلى الطائفة المسماة يعقوبيين Jacobites ، اتباع أوطاخي Eutychians ، اتباع الطبيعة الواحدة Monophysites ، واتباع المشيئة الواحدة Monothelites ؛ وقد أذان المجمع الخلقدوني عقيدة هؤلاء ، في حكم الامبراطور مارسيان . وقد سموا باليعاقبة أو اليعقوبيين ، ويعرفون بهذه التسمية على العموم ، تبعاً لاسم يعقوب بارادوس Jacobus Baradaeus ، وهو سوري تولى نشر تعاليم أوطاخي . ويسمى من انضم إلى طائفة اليونان ، تمييزاً لهم من السابقين ، بالملكسية أو الملكيين ، لأنهم يوافقون امبراطور الآستانة في العقيدة . وقد أدى انفصال معظم الأقباط عما كان يعتبر على العموم الكنيسة الصحيحة المذهب إلى خلق عداوة شديدة بينهم وبين اليونانيين ، فذاقوا تحت حكمهم اضطهاداً كبيراً ، كما أنهم لم يمددوا يعقودون زواجا معهم . ولا شك أن عداوة الأقباط كانت أعم ؛ فاستقبلوا الغزاة العرب بابتهاج ، وانضموا إليهم لطرد اليونانيين . وقد أشبعوا رغبة الانتقام ، ولكنهم أخضعوا إلى نير أثقل ؛ ومع ذلك يحمل القبطى المحدث أيضاً لليوناني ولغيره من

المسيحيين من غير طائفته كراهية تفوق كراهيته للمسلمين بكثير . ويقول الأقباط إن القديس مرقس كان أول من بشر بالإنجيل في مصر ؛ ويعتبرونه البطريرك الأول للاسكندرية . وقد اعتنق النوبيون والأحباش المسيحية عقب المصريين متبعين مثلهم تعاليم اليعقوبية ؛ غير أن النوبيين اعتنقوا الإسلام ، ويفخرون أن ليس في قومهم مسيحي واحد ، وأنهم لا يسمحون لأحد من المسيحيين أن يعيش بينهم . ولما كان النوبيون أكثر المسلمين جهلا ، فهم أشدّهم تعصبا . وفي الحبشة ، لا تزال الديانة المسيحية اليعقوبية هي السائدة .

ويتكون نظام الكنيسة القبطية من بطريرك ، ومطران الحبشة ، وأساقفة ، وقمامسة ، وقسس ، وشمامسة ، ورهبان .

« البطريرك » هو الرئيس الأعلى للكنيسة ويشغل كرسي القديس مرقس .

وهو يقيم على العموم بالقاهرة ، ولكنه يلقب

« بطرك الاسكندرية ». وهو يختار من طبقة الرهبان ، ويظل خاضعاً لقوانينها ، ومن بينها البقاء أعزياً . وهو يلزم بلبس الصوف فوق جسده مباشرة ، غير أنه يلبس أرفع أنواع الصوف وأنعمها ، كشيلا ن كشمير ، تحباً تحت ملابس من فاخر الحرير والجوخ . ويلتزم البطرك بالامتثال لأوامر شديدة بحيث أنه كلاً أخذ النوم ، يوقظ بمد كل ربع ساعة (١) . وقد يمين البطرك سلفه ، غير أنه يختار على العموم بالفرعة ، ويختار دائماً من رهبان « ديرا نطونيوس » الواقع في صحراء مصر الشرقية ، بالقرب من الخليج الغربي للبحر الأحمر . وعند انتخاب البطرك ، يلتبس الأساقفة وللقسس من رئيس الدير المذكور ، أن يمين ثمانية رهبان أو تسعة يرأ م جديرين برئاسة الكنيسة الجليلة . ويكتب أسماء هؤلاء على قصاصات ورق منفصلة تلف على هيئة كرات صغيرة ، وتوضع في درج . ويسحب أحد القسس إحداها دون أن ينظر إليها ؛ ومن يسحب اسمه يرسم بطركاً . وكان يقوم بعمل القرعة قبلاً ولد صغير لاعتباره أ كثر توجيها من العلماء .

ويدير البطرك متاعاً كثيراً ، يتكون على الأخص من البيوت ، ولا يستخدم في غير الأعمال الدينية . وقد عمل البطارقة المتأخرون على الأكثار من متاعهم . فعندما يبيع قبلى منزلاً بالقاهرة ، على العموم ، يعرض البطرك سعراً له ، ولا يجزؤ أحد أن يزايد عليه ، فيضطر مالك المنزل أن يتخلى عنه بأقل من قيمته الحقيقية بكثير ويلبس البطرك والأساقفة عمامة أوسع من عمامة الأشخاص الآخرين ، وأكثر دورانا منها ؛ وتشبه عمامتهم مقلة علماء المسلمين كثيراً ، غير أنها كمائم الأقباط الآخرين من اللون القاتم نفسه (شكل ٨١) .



(شكل ٨١)

عمامة البطريك القبطى
والأساقفة

ويمين البطرك « مطران » الأحباش . وهو يمين مدى الحياة ويقم بالحبشة .

ويختار « الأسقف » على العموم (أو دائماً ، كما قيل لى) من طبقة الرهبان ؛ ويظل ، مثل البطرك ، خاضعاً لنظامها ولا تستلزم قوانين الكنيسة أن يكون الأسقف من الرهبان ؛

١ - « من أجل الطهارة » . قارن رواية هيرودوتس الخاصة بعبادات قسس مصر القديمة .
الكتاب الثاني الفصل السابع والثلاثون

غير أن العادة جرت قبلاً على اختيار العزاب أو الأرامل لوظيفة الأسقف . وعدد الأساقفة اثنا عشر .

ويرق « القمص » من طبقة القسيس العادية . وعدد القمامصة كبير . ويجب أن يكون « القسيس » شماساً من قبل . كما يجب أن يكون سالماً من عيوب الجسم ، وفي سن الثلاثة والثلاثين على الأقل ، أعزباً ، أو تزوج عذراء واحدة فقط ، قبل أن يرسم قسيساً ؛ إذ أنه لا يستطيع الزواج بعد ذلك . وإذا توفيت زوجته ، لا يستطيع أن يتزوج ثانياً . كما أنه لا يجوز لأرملة القسيس أن تتزوج مرة ثانية . وقد يكون القسيس من طبقة الرهبان ، وتبعاً لذلك أعزباً . وهو يمشي على الصدقة فقط ، وعلى ما يحصل عليه من عمله الخاص . ويخضع القسيس والشمامسة معاً لأوامر البطريرك أو الأسقف . ويلبس القسيس عمامة تتكون من شريط طويل ضيق . وكان أقباط القاهرة جميعاً يلبسون تلك العمامة ، منذ بضع سنوات (شكل ٨٢) . وقد غيروا هذا الأسلوب رغبة في تقليد المسلمين .



(شكل ٨٢)
عمامة قسيس قبطي

ويجب أن يكون « الشماس » أعزباً أو متزوجاً مرة واحدة بعذراء . وهو يفقد وظيفته إذا تزوج مرة أخرى أو بأرملة . وقد يكون من طبقة الرهبان ، كما يظهر مما قيل سابقاً . ويجب أن يكون « الراهب » قد أخضع لتجربة طويلة في الصبر والتقوى ، وأن يكون قد نذر بالعزوبة قبل دخوله السلك الرهباني . وهو يقوم عادة بالأعمال الدنيا الشاقة ، قبل دخوله السلك ، لمدة سنة أو سنة ونصف سنة ، في دير منمزل في الصحراء . وهو يستخدم عادة لاحتضار الطعام والماء ، وكنس الدير ، الخ ، وخدمة الرهبان ؛ كما يصرف كل ما يملك (إذا كان يملك شيئاً) في شراء الملابس والضروريات الأخرى للرهبان وللفقراء على العموم ، فإذا داوم على عزمه بمسند خدمة كافية ، يقبل في السلك . ويقرأ عليه صلاة الموت احتفالاً بموته بالنسبة للدنيا . ويقال إنه يدفن بعد وفاته بدون صلاة ، غير أنني اخبرت أن الأمر غير ذلك . والرهبان كثيرون ، وهناك راهبات كثيرات . وهم يقضون حياة تقشف عظيم ، ويضطرون دائماً إلى لبس الصوف فوق الجسد مباشرة . ويميز كل راهب بقطعة من الصوف الأسود

ترتبط أسفل العمامة معلقة خلفاً بطول قدم تقريباً (١) . وملابس الرهبان تتكون علاوة على العمامة ، من قميص صوفي فقط على العموم . وهم يتناولون وجبتين من الطعام طول اليوم ، ظهراً ومساءً . ومن يعيش في الأديرة ، وأغلبها في الصحراء ، فلما يتناول طعاماً غير المقدس . وهم يأكلون مع ذلك في الأعياد اللحم اذا حصلوا عليه . ويقال إن عدد الأديرة والكنائس يبلغ مائة ستة وأربعين (٢) ، غير أن الأديرة أقل عدداً من الكنائس

وتوصى الكنيسة القبطية بتعميد الأبناء في سن الأربعين يوماً ، والبنات في سن الثمانين يوماً ، ما داموا أصحاء معافين ؛ وبتعميدهم قبل ذلك في حالة المرض وخطر الموت الظاهر ، إذ أن الاعتقاد السائد في الأقباط أن الطفل ، إذا مات بدون تعميد ، يكون أعمى في الحياة الأخرى؛ ويعتبر والداه آثمين ، ويجب عليهم التكفير بالصلاة أو الصوم . ومع ذلك ، كثيراً ما يهمل القوم من الطبقة الدنيا تعميد أطفالهم سنة كاملة ، إذا كانوا يسكنون على مسافة طويلة من الكنيسة ، وفي أحوال أخرى أيضاً . ويغمس الطفل ثلاثاً في الماء المضاف إليه بعض الزيت المقدس ، يقطر على سبابة القسيس ويزال في الماء ؛ ويصلى عليه بالقبطية . ويعتقد الأقباط أن الروح القدس تنزل فوق الطفل وقت التعميد . ولا يتناول القسيس نقداً مقابل قيامه بالتعميد ، إلا إذا قدم إليها طوعاً

قلت إن أكثر الأقباط يختنون أولادهم . وقد قيل لي إن الختان بالقاهرة قليل ، ولكنه يراعى في جهات أخرى . ويختن الولد على العموم حينما يبلغ سبع سنوات أو ثمانى ؛ وليس لاجراء هذه العملية سن محددة ؛ فبعض الأقباط يختنون في سن مبكرة ، حينما يبلغون سنتين ، وبعضهم في سن العشرين أو أكثر . ولا جرم أن أكثر الأقباط ثقافة ينظرون إلى الختان كمادة يوصى بها ، لا كطقس ديني . ويبدو مع ذلك من انتشار الختان في الريف انتشاراً مطلقاً ، ان الريفيين يعتبرون أنه شيء أكثر من طقس مدني فحسب . ويقول البعض إنهم يقومون

١ — أهملت ذكر اسم هذه الذؤابة ؛ غير أنه قيل لي ، ان لم تخدعني الذاكرة ، أنها تسمى « قلاسوه » وتبدو هذه الكلمة محرفة من « قلنسوة » . ويسمونها منجان Mengin « كلوسيه » في كتابه Hist, de l'Egypte Sos Mohammed Aly الجزء الثاني صفحة ٢٩٠

بذلك تقليداً للمسيح الذى ختن . والحقان أثر من العادات القديمة .

للأقباط مدارس عديدة ولكنها للصبيان فقط . وقل من القبطيات من يستطيع القراءة ؛ وأولئك اللاتي يقرأن تعلمن بالمنزل . ويعلم الأولاد مزامير داود والأنجيل ورسائل الرسل باللغة العربية ، ثم الاناجيل والرسائل بالقبطية . وهم لا يتعلمون اللغة القبطية حسب قواعد النحو . وقد قيل إنه لا يوجد قبطى يستطيع أن يكتب القبطية أو يقرأها بدقة أو بسهولة ؛ وإن هناك فئة قليلة جداً تستطيع أن تعمل أكثر من تردد ما حفظوه غيباً من الكتب المقدسة والطقوس . وقد نسخت اللغة القبطية تدريجاً بعد غزو العرب لمصر . ويبدو أنها بقيت إلى جيلين بعد هذا التاريخ اللغة الوحيدة التى يتفاهم بها الأقباط . غير أن أكثر أهل الوجه البحرى كانوا قد كفوا عن التخاطب بها وفهمها^(١) ، قبل القرن العاشر من الميلاد ؛ بينما كان نساء أقباط الصعيد وأطفالهم ، حسب المقرزى ، قلة يتكلمون لغة غير الصعيدية القبطية ، فى زمن المؤرخ (أى فى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً ، أو بدء الخامس عشر) ، وكانوا يعرفون اللغة اليونانية معرفة تامة . وقد بطل استعمال اللغة القبطية بعيد هذا العصر فى الوجه القبلى ، كما نسخت قبل ذلك بمدة طويلة فى الوجه البحرى ، واستبدلت بها اللغة العربية . ولا يزال جميع الأقباط الذين تعلموا فى المدارس يصلون فى الكنيسة ، أو على حدة ، بالقبطية ؛ ولا تزال الكتب المقدسة تقرأ فى الكنائس بهذه اللغة دائماً . غير أنها تشرح فى الكتب بالعربية . والكثير من الكتب التى يستعملها القسوس وغيرهم تكتب لغتها القبطية بحروف عربية .

وصلوات الأقباط الخاصة العادىة تستحق الاعتبار . وهم يبدوون فى ذلك أنهم يقلدون اليهود ، وأنهم يشبهون المسلمين . وقد اخبرت أن هناك قليل من الأقباط فى القاهرة لا يمثلون لتمامهم كنيستهم التى تأمرهم بالصلاة سبع مرات فى

اليوم . وتقام الصلاة الأولى في الفجر ؛ والثانية في الساعة الثالثة ؛ والثالثة في الساعة السادسة ، والرابعة في التاسعة ، والخامسة في الحادية عشرة ، والسادسة في الثانية عشرة ، أى الغروب ، والسابعة في منتصف الليل . ويتلو من تعلم القراءة ، ويتمسك بفروشه الدينية ، في كل من هذه الصلوات ، عدة مزامير من مزامير داود (سمع كتاب المزامير تقريباً) ، وسورة من أحد الأناجيل الأربعة ، باللغة العربية ، ثم يقول باحدى اللغتين العربية أو القبطية : ياربى ! ارحم ! واحد وأربعين مرة ؛ ويستعمل البعض سبحة مكونة من احدى وأربعين خرزة ، وبعد الآخرون على أصابعهم ؛ ويضيف بعد ذلك صلاة قصيرة بالقبطية . ويتلو في الصلاة السابعة كتاب المزامير كله . وقد جزم لى أن هذه هى العادات الصارمة للطبقات الأكثر محافظة وثقافة أثناء تعبدهم اليومى . ويردد الأثنى في كل من الصلوات السبع اليومية ، الصلاة الربانية سبع مرات ، ثم يقول : ياربى ! ارحم ! واحد وأربعين مرة . ويقوم بعض الأفراد من خير الطبقات وأكثرها محافظة بفصل اليدين والوجه ، والقدمين أحياناً ، قبل الصلاة ، ويتوجهون دائماً في الصلاة إلى الشرق وبالرغم من أن الأقباط يشبهون تقريباً المسلمين واليهود في أغلب القواعد السابق ذكرها ، فهم يفترقون عنهما في إعتبارهم الصلاة ، ماعدا الاجتماعات في الكنيسة ، تكون أحسن اداء على انفراد منها في الجهر ، وهم كثيراً ما يرددون صلواتهم العادية ، أو على الأقل الصلاة القصيرة ، أثناء سيرهم أو ركبهم ؛ ويصعب على أن أصدق أن الطبقات المتعلمة تقوم بالصلاة الطويلة على العموم ، ولو أن ذلك أكده لى تأكيده مطلقاً .

تنقسم الكنائس الكبرى إلى أربعة أقسام أو خمسة . ويشغل « الهيكل » الذى يشمل المذبح ، الجزء المتوسط والرئيسى في الطرف الأعلى ، الذى يستتر عن بقية الكنيسة بحداد من الخشب المشغول بالخشوات ، بتوسطه باب يؤدى إلى الهيكل ويملق أمامه ستار عليه صليب معطرز . ويخصص القسم السابق مباشرة على القسم الأول للقسس الذين يقرأون الدروس الخ ، وللصبيان الذين يعملون شمامسة صغرين ويغنون ، ولأعضاء جماعة المصلين الرئيسيين . ويفصل هذا القسم عن

السابق عليه مباشرة حاجز من الخشب المشبك ، يعلو إلى ثمانية أقدام أو تسعة ، وبه ثلاث أبواب ، أو باب واحد في الوسط . ويشغل أدنى الأعضاء القسم التالي ، أو القسمين التاليين . ويخصص أسفل الأقسام للنساء ؛ ويستر واجهته حاجز من الخشب المشبك ليحجبهن تماما عن الرجال . ويعلق على جدران الكنيسة صوراً لقديسين مختلفين رديئة الرسم ، كثيرة الزخرفة ؛ ويعلق على الأخص صورة القديس الشفيع ، ولكن التماثيل غير مسموح بها . وتغطي أرضية الكنيسة بالحصر .

ويخلع القبطى نعليه عند الدخول إلى الكنيسة ، ويحتفظ بهامته . وهو يذهب أولاً إلى باب الهيكل ، فيسجد أمامه ، ويقبل طرف ستارته . ثم يسجد ، أو ينحني ، أو يسلم باليد ، أمام رسم قديس واحد أو أكثر ، ويقبل أحياناً يد قديس واحد أو أكثر قائم بالخدمة ، في القسم السابق على الهيكل . ولكل عضو في الاجتماعات الكنسية تقريباً عصاً طولها أربعة أقدام ونصف أو خمسة ، ليمسكها أثناء وقوفه الذي يدوم معظم الوقت . والصلاة في الكنيسة (مع القيام بالقرآن) تظل ما بين ثلاث ساعات وأربع ، وتبدأ على العموم في الفجر .

ويلبس القسس الذين يقومون بالصلاة في الهيكل أثواباً جميلة ؛ ويلبس الآخرون ملابسهم العادية فقط . وتكون الصلاة المقامة بالهيكل بالقبطية كلها ، إلا يسمح باستعمال لغة أخرى في المعبد . أما القسس بالخارج ، الواقفين تجاه باب الهيكل ، فيقرأون الشروح ويرتلونها بالعربية والقبطية (١) . ولا يسمح للقسيس بالجلوس أثناء إقامة الصلاة بالكنيسة ، ولما كان هذا يدوم وقتاً طويلاً ، فهو يتوقف عن القراءة ، ليستطيع الجلوس عدة مرات ، لبضع دقائق ؛ وفي هذه الأوقات تضرب صنوج مختلفة الحجم والنغم مادام جالساً . وكثيراً أيضاً ما يخرج قسيس من الهيكل ، ويحرك مبخرة يحرق بها اللبان وسط المصلين ، ويبارك كلامهم واضعاً يده على رأسه ثم ينتقل إلى حجرة النساء . وكثيراً ما يقيم العشاء السرى في الكنيسة القبطية ويصنع الخبز على هيئة أقراص مستديرة صغيرة مختوم أعلاها ويبلل بالبنيد . ويتناول

بهذه الحالة إلى المصلين ، ويشار إليهم القسس الذين يحصلون على حصة أكبر من حصة الآخرين ، والذين يميزون وخدم بشرب النبيذ . ويتقدم كل من المصلين إلى باب الهيكل ليتناول نصيبه .

وكثيراً ما يتهم القسس وغيرهم بالتجرد من الوقار أثناء الصلاة العامة . وقد سمعت قسيساً ، يقف أمام المعبد في الكنيسة البطريكية بالقاهرة يشتم شماساً صغيراً حديث السن . وشاهد صديق لى فى المكان نفسه ، فوضى تامة . بينما كان قسيس من الريف يشترك فى القيام بالخدمة الدينية ، فلغنه القسس النظاميون القاعون بالصلاة ، جهاراً وطردوه قسراً . وبعد ذلك أخذ كثير من المتعبدين ، وهم يندفعون نحو باب الهيكل ، يسبون ، ويضربون بعضهم بعضاً بمصبيهم . وقد أدهشنى تجرد الخدمة الدينية فى ذاتها من الوقار ، وإن كانت على الاحتمال تشبه خدمة الكنيسة المسيحية فى عهدا الأول من وجوه كثيرة .

ويلتزم أعضاء الكنيسة القبطية جميعاً بالاعتراف قبل تناول العشاء السرى . ويعترف كل شخص على العموم إلى القسيس نفسه . ويفرض عليه عادة للتكفير عدداً ما من رسم الصليب والسجود ، علاوة على ترديد الصلاة الإلهية ، أو « ياربى إرحم » ، عند كل سجدة .

ويراعى الأقباط صوما طويلاً شاقاً . وهم يصومون ثلاثة أيام قبل « الصوم الكبير » بأسبوع ، ذكرى لصوم نينوى . ويراعى بعض الأقباط هذا الصوم بالحرمات التام مدة ثلاثة أيام وثلاثة ليال ، ويراعيه آخرون كما يراعون أيام الصوم الأخرى ، التى أتحدث عنها فيما يلى :

كان أهم صوم للأقباط ، ويسمى « الصوم الكبير » المشار إليه سابقاً ، محدداً فى الأصل بأربعين يوماً ، غير أن بعض البطارقة المختلفين جعلوه بالتدريج خمسة وخمسين يوماً . ويمتنع الأقباط أثناء هذه الفترة ، ماعداً يومين منها أذكروهما فيما بعد ، عن أى طعام حيوانى مثل اللحوم والبيض واللبن والزبد والجبن ، وبأكلون الخبز والخضروات فقط (الفول خاصة) بالزيت غير الحار ، أو زيت السمسم ، و« الدقة » وتفتح الكنائس لإقامة القداس مدة الصوم . ولا يتناول الأقباط شيئاً بعد

العشاء إلى مابعد الصلوات الكنسية في اليوم التالي ظهراً تقريباً . ولكنهم لا يفعلون ذلك في أيام الصوم الأخرى .

وهم يراعون مع ذلك بدقة مماثلة تقريباً ، ثلاث فترات صوم أخرى :

أولاً — « صوم الميلاد » ومدته ثمانية وعشرون يوماً تسبق عيد الميلاد مباشرة ، أى شهر كيهك كله ماعدا اليومين الأخيرين . ثانياً — « صوم الرسل » ويقع بين عيد الصعود والخامس من أيب ، وهم يراعونه ذكرى لصوم الرسل بعد أن فقدوا سيدهم . ثالثاً — « صوم العذراء » ومدته خمسة عشر يوماً سابقة على عيد ارتفاع العذراء إلى السماء .

ويصوم الأقباط أيضاً كل أربعاء وجمعة في أى فترة أخرى من السنة ماعدا الخميسين يوماً اللاحقة للصوم الكبير مباشرة ، أى من انتهاء الصوم الكبير إلى آخر الخميسين . وفي أيام الأربعاء والجمعة هذه يتناولون السمك والخضر والزيت فقط .

ويقيم كل صوم عيد . والأقباط سبعة أعياد كبيرة : — أولاً ، « عيد الميلاد » ، في ٢٩ كيهك (٦ أو ٧ يناير) . — ثانياً ، « عيد الفطاس » ، في ١١ طوبة (١٨ أو ١٩ يناير) ، ذكرى تعميد المسيح . — ثالثاً ، « عيد البشارة » ، في ٢٩ برمات (٦ أبريل) . — رابعاً ، « عيد الشعانين » . — خامساً ، « عيد القيامة » أو « العيد الكبير » . — سادساً ، « عيد الصعود » . — سابعاً ، « عيد المنصرة » وتقام الصلوات في الكنائس ليلاً في أول هذه الأعياد وثانيتها ، وخامسها أى في الليلة السابقة على يوم العيد . ويلبس الأقباط الملابس الجديدة ، في هذه الأعياد جميعاً ، ويولون الولائم ، ويتصدقون .

جرت العادة أن يقوم أغلب الأقباط بطقس غريب ، في « ليلة الفطاس » ؛ وقد علمت أنه قلما يمارس في العاصمة الآن . فيفطس الرجال ، شيوخاً وشباناً ، والصبيان في الماء احتفالاً بذكرى تعميد المسيح . ويقول المسلمون إنه كلما فعل أحدهم هذا صاح به آخر أن أغطس كما غطس أبوك وجدك ، وأنزع الإسلام من قلبك . ولبعض الكنائس مغطس كبير ، يستعمل في هذه المناسبة ، بعد أن يبارك الماء أحد القسس . غير أن المادة الشائعة عند الأقباط هي القيام

بهذا الطقس (ويعتبره أكثرهم للتسليفاً أكثر من اعتباره شميرة دينية) في النهر، فيصبون فيه قبل الغطس بعض الماء لمقدس من الكنيسة . ويكون ذلك عادة مناسبة لاحتفال كبير عند أقباط العاصمة . فيزدحم النيل بالمرأى ، وتنصب الخيم ، وتقام المشاعل على ضفتي النهر . وتقام الصلوات في الكنائس عشية هذا العيد . ويبارك أحد القسيس الماء في جرن المعمودية ، ثم يبلى طرف منديل بالماء المقدس ، ويفسل (أو بالأحرى يمسح أو يمس) قدمي كل أعضاء الجماعة الكنسية . ويقام هذا الطقس الأخير أيضاً في « خميس العهد » ، وفي « عيد الرسل » ، ٥ أيب (أو ١١ يولية)

وفي عيدي « البشارة » و « الشمانين » يأكل الأقباط السمك . ويقام القسيس صلاة الميت على جماعاتهم في الكنائس في العيد الأخير . فاذا مات أى منهم فيما بين ذلك اليوم ونهاية الخمسين (وهي أشد فترة في موسم الطاعون) يدفن بدون صلاة . ويبدو أن هذه العادة أصلها استحالة الصلاة عند القبر على كل ضخمة من ضحايا الطاعون ؛ ولابد أن لها تأثير عميق في نفوس قوم يتوقعون هذه الكارثة المخيفة .

ومن الأعياد الصغيرة « خميس العهد » ، السابق ذكره ، « وسبت النور » ، وقت قيل إن هناك نور خارق للعادة يظهر في القبر المقدس بأورشليم ، و « عيد الرسل » ، السابق ذكره ، و « عيد الصليب » ، في ١٧ توت (٢٦ أو ٢٧ سبتمبر)

يعتبر الأقباط الحج إلى بيت المقدس فرضاً على من أستطاع إليه سبيلاً ؛ غير أن القليل من الطبقات الفقيرة يؤدي هذا الفرض . ويكون الحجاج قافلة كثيرة العدد . وهم يعضون الجمجمة الحزينة وعيد القيامة في بيت المقدس ؛ وفي اليوم الثالث بعد الجمعة الحزينة يتقدمون إلى نهر الأردن ، حيث يستحمون

ويمتنع جميع الأقباط تقريباً عن أكل الخنزير ، لأنهم يعتبرونه محرماً شرعاً ، وهم لا يقرون بذلك ، ولكن ، حسب قولهم ، بسبب قذارة الحيوان . على أنى أظن أن هذا الامتناع يعزى بالأحرى إلى ما كان عليه أسلافهم الوثنيون . وكثيراً ما يأكل الأقباط لحم الخنزير البري . وهم يعتبرون لحم الجمل محرماً شرعاً ؛ ويحتمل

أن يكون ذلك لا لسبب غير أن المسلمين يأكلونه . وهم يتمتعون عن أكل الحيوان الذي يخنق وأكل الدم امتثالاً للوصية الرسل إلى الوثنيين المهتدين^(١) ويعتبروها غير منسوخة ويدفع البالغون من الأقباط الذكور « جزية » ، علاوة على « الفردة » التي يدفعونها عامة مع المسلمين . وهناك ثلاث درجات للجزية : فأغنياء القاهرة ، والمدن الكبيرة الأخرى ، يدفعون ستة وثلاثين قرشاً كل ؛ ويدفع مع كل من أفراد الطبقة المتوسطة ثمانية عشر قرشاً ؛ والفقراء ، تسعة . غير أن هذه الضريبة تفرض ، في الأرياف ، على العائلة بدلاً من الأفراد . والفردة واحدة بالنسبة للأنباط والمسلمين : ١٢ من كسب الرجل أو راتبه السنوي ، عندما يستطاع إثبات ذلك . ولم يعد الأقباط الآن محتقرهم الحكومة وتحط من قدرهم كما كانوا منذ بضع سنوات ؛ فقد ارتفع بعضهم إلى درجة البكوات أيضاً . ولم يكن يسمح ، قبل حكم محمد علي ، للأقباط والمسيحيين الشرقيين الآخرين ، ولا لليهود ، بركوب الجياد في مصر ؛ غير أن هذا الحظر زال في السنوات الأخيرة — وقد تظلم مسلمو دمشق ، وهم يشتهرون بتمصّبهم الشديد ، إلى الفاتح إبراهيم باشا ، من الأذن للمسيحيين في مدينتهم بركوب الخيل ، ومن أن المسلمين لم يعدوا يميزون أنفسهم من الكفار . فأجاب الباشا أن المسلمين أن يعظموا على المسيحيين إذا شاءوا ، فيركبوا الميادين في الشوارع ؛ وأن المسيحيين لن يتبعوا مثلهم — ويتمتع الأقباط بحصانة يحسدكم أكثر المسلمين عليها ؛ فهم غير معرضين للتجنيد^(٢)

وعادات الأقباط المنزلية شرقية تماماً ، وهي تكاد تماثل عادات مواطنيهم المسلمين . وهم يصرفون وقت فراغهم خاصة على الطريقة نفسها في التدخين واحتساء القهوة . وطعامهم مماثل أيضاً ؛ وطريقة تناولهم الطعام واحدة . غير أنهم يعكفون على احتساء الخمر في كل وقت ، وكثيراً ما يفرطون .

ولا تجيز الكنيسة للأقباط الزواج من طائفة أخرى ، وقل منهم من يفعل ذلك . وعندما يريد قبلي أن يعقد مثل هذا الزواج ، الذي يحمله منبوذاً في نظر قومه الأشد صرامة ، يلجأ إلى قسيس من طائفة المرأة التي يعزم الزواج بها ؛ وإذا رفض طلبه ، كما هو الحال عادة ما لم يرض باتباع عقيدة زوجه ، يعقد زواجه أمام

(١) أعمال الرسل ١٥ — ٢٠ و ٢٩

(٢) ويقال إن هذه الحصانة رفعت فيما بعد . ويعتقد أن أصلها نفور الامراء المسلمين من منح

القاضي عقداً مدنياً . ولما كان مثل هذا العقد لا تعترف به الكنيسة ، فإنه يحل حسب الرغبة .

وعندما يرغب القبطى فى الزواج حسب العادة السائدة ، يتبع للحصول على زوجة الطريق نفسه الذى يتبعه المسلمون ؛ فيستأجر إحدى قريباته أو امرأة أخرى لتبحث له عن رفيقة مناسبة . وقبلما يستطيع أن يرى وجه المرأة التى يعزم الزواج بها مالم تكن من الطبقة الدنيا ؛ وليس دائماً فى الحالة الأخيرة أيضاً . وإذا كانت المرأة المعزم الزواج بها دون البلوغ ، يكون والدها أو والدتها أو أحدى الأقارب إليها « وكيلة » عنها للقيام بالترتيب اللازم . أما إذا كانت بالغة وكانت بتيمة الأب والأم فهى تعين وكيلها . وللعريس أيضاً وكيل . ويقوم الطرفان بعمل العقد ، حيث تنظم مختلف الأمور العائلية الخاصة ، فى حضور القسيس . ويدفع ثلثا المهر فى هذا الوقت ، ويحتفظ بالثلث الباقي . فإذا مات الزوج تطالب الزوجة به من أمواله . وإذا ماتت هى قبل إبطاق أقاربها به . وبعد انجاز العقد يتلو الحاضرون الصلاة الربانية ثلاث مرات ويهدأها القسيس أولاً .

وتشغل حفلات الزواج فى الطبقتين العليا والوسطى وعند ما تكون الزوجة عذراء ثمانية أيام عادة . وهكذا يكون مدى ما يسمى « فرح تمام » وتفضل الليلة السابقة على يوم الأحد (والاقياط مثل المسلمين يسمونها ليلة الأحد) للقيام بقداس الزواج ، ويعقد أغلب الاقياط الزواج فى هذه الليلة . وفى هذه الحالة تبدأ حفلات الزواج فى يوم الثلاثاء السابق عندما يضيف العريس وعائلة العروس أصدقاء الطرفين . وتراعى عادة غريبة أثناء حفلات الزواج وفى الأيام اللاحقة . فيصنع الطاهى كرتين من السكر مجوفتين مثقوبتي القاع ، ثم يتناول حمامتين حيتين يربط إلى جناحيهما أجراس مستديرة صغيرة ؛ ثم يدير هذين الطيرين المسكينين فى الجو حتى يصابا بالدوار ، ويضعهما بعد ذلك داخل الكرتين السابق ذكرهما . ويقدمان إلى الضيوف كل كرة فوق طبق ، فيكسر بعضهم الكرتين عندما يتبين أن الحمامتين استردتا الصواب . وتطير الحمامتان فى الغرفة فترنان الأجراس ، ويعمد البعض عادة إلى انهاض الحمامتين إذا لم تطرا فى الحال

إذ أن المشاهدين قد يتطيرون لعدم نهوضهما (١) ويسل الضيوف على العموم في ليالى هذه الحفلات بالموسيقى . وينقضى يوم الأربعاء في ترتيب الحفل

وفي عصر الخميس ، تقاد العروس إلى الحمام ، في حجة كثير من قريباتها وصديقاتها ، بالموسيقى عادة ، ولكنها لا تسير تحت مظلة . ويكون يوم الجمعة يوم تنظيم مرة أخرى ، وتضع العروس الحناء إلى يديها وقدميها الخ .

وفي الصباح المبكر من يوم السبت ترسل عائلة العروس إلى منزل العريس مجموعة من الملابس الخ ، إحداها للعريس ، والأخرى للعروس ، ويتكون كل منها من أشياء مماثلة (قيص من الحرير والقطن ، سروال ، شريط السروال المزركش ، منديلان مشغولان بالقصب وكيس للتبغ مشغول بالطريقة نفسها) وبعد ذلك تقصد إحدى سيدات عائلة العروس المسفات منزل العريس لتشرف على نظامه ويصحب العريس أشيخته في حفل من اصدقائه إلى الحمام

وفي المساء التالي ، بعد غروب الشمس بساعة ونصف أو ساعتين ، تقدم العروس في حجة عدد من قريباتها وصديقاتها إلى منزل العريس ، بتقديمها الموسيقيون ويتبعونها ، ويلازمها حاملو المشاعل والشموع . وتشبه الزفة هنا زفة المسلمة كثيرا ؛ غير أن العروس القبطية لا تزف تحت مظلة وهي تغطي بشال به عدة حلى تماق إلى الجزء الذى يخفى وجهها ورأسها ، وعدة نقود وحلى أخرى إلى الجزء الذى يغطي صدرها . ويتحرك الموكب ببطء شديد ، ويظل على العموم ساعتين . وفي هذه الليلة يقدم إلى الضيوف في منزل العريس حملا أو خروفا ، يذبح عند الباب ، وتخطى العروس فوق دمه . وقد قيل لى إن هذا الطقس يراعى في القاهرة والمدن الكبيرة فقط .

ويستريح فريق العروس بمنزل العريس ساعتين تقريبا ، ويتناولن المرطبات ، ومن ثم يتقدمن والعروس ، بالطريقة نفسها ، إلى الكنيسة . ويذهب العريس

١ — ويسمى الكرة والظير : « القبة والظير » ويقال إن مسامى مصر تعودوا مراعاة هذه العادة الموصوفة هنا ، في بعض المناسبات ، عند مبايعة سلطان مثلا . غير أن هذا يبدو خطأ ، مرجعه عدم فهم عبارة « القبة والظير » التى أطلقها المؤرخون على مظلة تعلوها صورة ظير ، وكانت تحمل فوق رأس السلطان في بعض المواكب الفخمة .

إلى هناك في حجة أصدقائه جماعة على حدة ، وبدون موسيقى . ويقام في الكنيسة ، حيث يكون كل من الرجال والنساء على انفراد ، صلوات طويلة ، ويتناول العشاء السرى . ويستلم القسيس خانى العروسين ويباركهما ثم يعيدهما ؛ ويضع تاجا ذهبيا فوق رأس كل منهما ، و« برنسا » على كتفى العريس . ويسمى هذا الطقس « التكليل » . وتمتلك الكنيسة الناجين ، فيرفمان قبل أن يغادر الجماعة الكنيسة ؛ غير أن العريس كثيرا ما يذهب إلى المنزل بالبرنس ، فيرفمه أحد القسس هناك . ويقوم البطرك عموما بالخدمة الكنسية عند زواج الأغنياء بالقاهرة . وفي أغلب الأحوال لا تنجز طقوس الكنيسة إلى ما يقرب من الفجر ؛ فيمود الجماعة حينئذ إلى منزل العريس . واحتراما للسر المقدس الذى تناولاه معا ، يتحفظ كل من العروسين نحو الآخر تحفظا دينيا إلى الليلة التالية (التي تسبق يوم الاثنين) ، أو على العموم ، إلى ما بعد نهاية هذه الليلة (١) .

ويؤدب والد العروس مأدبه عشاء في منزل العريس يوم الاثنين ، ويكون الطعام الرئيسى عادة أرزا ولبنا ودجاجا مسلوقا . وفي النساء ، بعد هذا العشاء يخرج العريس و « إشبينه » ليدعو أصدقاءه إلى حفل كبير يقام في المساء التالى ، ويختتم حفلات الزواج .

هذه هى الطقوس التى تراعى عادة عند زواج المذراء . وقد يقنع البطرك ، أو الأسقف ، أو القسيس ، الذى يقوم بمقد الزواج ، الفريقين بالعدول عن إنفاق تقودهم فى « الزفات » والحفلات المتوالية ، وينصحهم أن يخصصوا بالأولى هذه المبالغ التى يقصدون إنفاقها بطريقة باطلة لإعانة خدمة الدين والفقراء الموزين ؛ فيعمل الزواج تبعا لذلك بطريقة ساذجة وفى عزلة . وتزوج الأرملة دائما بدون تظاهر ، أو حفل ، أو « زفة » . وقد تكرم العروس المذراء من الطبقة الفقيرة زفة أحيانا ؛ ولكنها تقاد على العموم إلى الحمام فى فريق من القريبات والصديقات فقط ، فيمبى أولئك سرورهن « بالزغاريط » التى تقوم مقام الموسيقى . وبالطريقة نفسها أيضا تقدم العروس إلى منزل العريس ، حيث يعقد أحد القسس الزواج ، إذ أن

١ — ويراعى الاقباط العادة التى ذكرها بركها ردت فى كتابه (الامثال العربية) ص ١١٧ ، بأنها تسود طبقات المسلمين الدنيا بالقاهرة .

نفقات الإنارة وخلافها من إعداد الكنيسة للزواج تقع على عاتق العريس . ويتزوج كثير من أقباط القاهرة ، لعدم ثرائهم ، بطريقة ساذجة أشرت إليها سابقا . ويلتزم القبطى استئذان البطررك ليتزوج أمام أحد قسس الأكليروس التابع له . وقبلها يرخص بذلك بأقل من مائة قرش ، وقد يطلب أحيانا ، من مثل هؤلاء ، مائة ريال (قرشان وربع كل) فيعمد الطرفان إلى الزواج بإذن من « القاضى » ، ولا يكلفهم ذلك عادة أكثر من قرشين .

وعندما تراعى المرأة الحديثة الزواج قواعد الآداب ، تمتنع عن الخروج من المنزل ، ولا تزور عائلتها أيضا ، إلى أن تلد طفلها الأول ، أو إلى أن ينتهى عام إذا لم تبد عليها علامات الأمومة . ويحضر الأب أو الأم لزيارتها بعد انتهاء فترة الحبس هذه . ولا يحدث الطلاق إلا لسبب الزنا من جانب الزوجة . وقد يفترق الزوجان إذا ارتكبت الزوجة سرقة أو أى جرم شأن آخر ؛ غير أنه فى هذه الحالة لا يستطيع أى منهما أن يعقد زواجا آخر ، وإن استطاعا جمع شملهما مرة أخرى .

ومن أكثر الخصائص اعتبارا فى خلق الأقباط تمصهم الشديد . وهم يكرهون المسيحيين الآخرين جميعا كراهية شديدة تفوق أيضا كراهية المسلمين للكفار فى الإسلام . ويمتبرهم المسلمون مع ذلك أكثر المسيحيين ميلا إلى الإسلام ، ولم يكون هذا رأى بدون سبب ، إذ أن جموعا كثيرة منهم ، اعتنقت ، من آن لآخر ، وليس نتيجة للاضطهاد دائما ، هذا الدين . والقبطى على العموم ، عبوس بخيل إلى أقصى حد ، متصنع إلى درجة ممقوتة . وقد قدم إلى القبطى المحترم ، الذى أشرت إننى أدين له بالمعلومات الخاصة بمادات الأقباط ، بيانا غير مناسب عن خلقهم . وقد اعترف بأنهم على العموم جهلاء ، خادعون ، خائنون ، جادون فى السعى وراء المنفعة الدنيوية ، واللذات الجنسية ، وصرح أن البطررك مستبد ، يفرى على تأدية شهادة الزور ، وأكيد لي أن القسس والزهبان فى القاهرة يرون كل ليلة يتسولون ويستدينون نقودا ، لا يردونها أبدا ، من المنازل الواقعة فى دائرة الأبرشية ومن معارفهم ، ويحصلون على الخمر ، كلما أمكن ، أينما يطلبونه . (١)

ويستخدم كثير من الأقباط فى الكتابة والمحاسبة . وفى كل قرية متوسطة

الحجم «معلم»^(١) يحفظ سجل الضرائب . وتختلف كتابة الأقباط في الأسلوب كثيرا عن كتابة المسلمين ، والمسيحيين الآخرين المقيمين بمصر كذلك . وأغلب أقباط القاهرة محاسبون أو أصحاب حرف . ويستخدم الأولون على الأخص في وظائف الحكومة . و الآخرون تجار ، وصياغ ، وجوهرية ، ومعماريون ، وبناءون ، ونجارون . ويعتبر هؤلاء جميعا أكثر مهارة من المسلمين على العموم . ويستغل أقباط الأرياف ، مثل الريفيين المسلمين ، بأعمال الفلاحة على الأخص .

وتشبه جنائز الأقباط ، من وجوه عديدة ، جنائز المسلمين : فالجسد يحمل في نعش ، يتبعه النساء وهن يولولن على طريقة المسلمات في مثل هذه المناسبة ؛ غير أنه لا يتقدمه المنفون المستأجرون . ويستخدم النائمات المستأجرات ليندبن في منزل المتوفى ثلاثة أيام بعد وفاته (وإن كانت تلك العادة يستهجنها رجال الدين ، وكثير غيرهم ، إذ أنها من العادات الوثنية القديمة فقط) ، ويجدد النذب هناك في اليومين السابع والرابع عشر من الوفاة ، وأحيانا عدة أسابيع بعد ذلك ، ويزور الأقباط ، رجالا ونساء ، مقابر الأهل زيارة منتظمة ثلاث مرات في العام : في عيد الميلاد ، وعيد الفطاس ، وعيد القيامة . وهم يذهبون إلى المقابر عشية كل من هذه الأعياد الثلاثة ، ويبيتون هناك ، إذ هم يملكون في المقابر منازل تعد لاستقبالهم في هذه المناسبات ، وتشغل النساء الغرف العليا ، والرجال ، الغرف السفلى . وفي الصباح التالي ، يذبح جاموس أو خروف ، إذا أستطيع ذلك ، ويوزع اللحم والخبز على الفقراء المجتمعين هناك ، أو يوزع الخبز فقط ، ولا يعتبر هذا الطقس ، الذي يشبه «الكفاره» التي يقوم بها المسلمون عند دفن ميتهم ، أنه تكفير عن خطايا الميت ، ولكن مصدره على الأرجح قربان تكفير قديم ، وهو يعتبر صدقة فقط . وتعود النادبات حالما ينتهى ذلك . ويقال إن زيارة المقابر للتأمل الدينى فقط ، وهم بعملهم هذا يخلدون عادة قديمة ، يصعب عليهم هجرها ، وإن عجزوا عن تبرير مصاعاتها بمثل هذه الطقوس .

واختم حديثي عن الأقباط بنبذ من تاريخهم تحت الحكم الإسلامى ، مستمدة

١ — ويعنى «مدرس» أو «استاذ» . وهو لقب يطلق على جميع الأقباط ماعدا الطبقة الفقيرة ، أو الفلاحين . ويسمى سجل ضرائب القرية «معلم القرية» فقط .

من كتاب المقریزی الشهير عن مصر وعاصمتها (١) :

بعد غزو العرب لمصر بسبعين عاما تقريبا ، بدأ الأقباط يقاسون السلب والاضطهاد بالرغم من الرعاية والمزايا التي منحت لهم أول الأمر ، إلى درجة أن كثيرا منهم لجأوا إلى السلاح محاولين الدفاع عن حقوقهم ؛ غير أنهم هزموا بعد مذبحة كبيرة . وفرض على كل راهب ، لأول مرة ، دبنارا (١) جزية سنوية . وكان جامع الضريبة يسم يد كل داهب يقابله بختم من الحديد ؛ وبعد ذلك يقطع يد كل شخص من هذه الطبقة يكتشفه غير موسوم ، وبأخذ عشرة دنانير من كل مسيحي آخر ليس معه إيصال من الحكومة يثبت دفعه الجزية . وقد وجد كثير من الرهبان فيما بعد بدون وسم ، فضرب عنق البعض ، وضرب الآخرون حتى الموت ؛ وهدمت كنائسهم وأتلف صلبانهم وصورهم . وقد حدث ذلك عام ١٠٤ هـ (٧٢٢ - ٧٢٣ م) في آخر حكم الخليفة يزيد بن عبد الملك . وبعد ذلك بسنوات قليلة ، في عهد خليفة هذا الأمير (هشام) ، عمل حنظلة بن صفوان ، حاكم مصر ، على وسم يد كل قبلي بختم حديدي يحمل صورته أسد ، وعلى زيادة بؤسهم زيادة شديدة ؛ ولذلك تار كثير من سكان الريف مرة أخرى ، ولجأوا إلى السلاح ؛ ولكن بدون جدوى ؛ وتبع ذلك اضطهاد فظيع .

وكان اليمامة (أو جميع الأقباط تقريبا) ، منذ الغزو إلى حكم هشام ، يملكون كنائس مصر كلها ، وكانوا يرسلون أساقفتهم إلى النوبيين ، الذين تبعوا لذلك تركوا العقيدة الملكية ، وانتموا إلى اليمامة ، ولكن ، في عهد هذا الخليفة ، أعاد المسيكون ، بواسطة الهدايا ، الكنائس التي كانوا يملكونها من قبل . ومع ذلك لم تلبث تلك الكنائس أن رجعت إلى ملك اليمامة . فكانت بعد ذلك تارة لطائفة وتارة أخرى لطائفة أخرى ، إذ كانت تشتري بالهدايا ، أو بالخدمات تؤدي إلى الحكومة .

١ — إذا شاء القارئ الاستزادة في هذا الموضوع ، عن عصور المماليك ، يمكنه الرجوع إلى كاترمير Quatremère في : Mémoires Géogr. et Hist. Sur l'Egypte الجزء الثاني ص ٢٢٠ - ٢٦٦ . ومنذ أن عملت هذا الموجز قام وستنفيلد Wustenfild بترجمة الجزء الخاص بتاريخ الأقباط في كتاب المقریزی ونشره في ألمانيا

قد عمل القارىء إسهاباً في ثورات الأقباط تحت نير الأمراء المسلمين ؛ من الممكن أن أفصل بعض التفاصيل في تاريخ ما قاسوه من جور في أوائل الحكم العربى . إن الأقباط شعب مدعى لا يثنى ميال إلى المكيدة ، ولذلك يشق على الحكام ولاية أمره . وكثيراً ما جلبوا على أنفسهم الظلم الشديد بمهاقتهم ، ولو أنهم كانوا ضحية لاضطهاد لا يستحقونه في عهد الطغيان والتعصب (١) .

وفي عام ٢٣٥ هـ (٨٤٩ — ٨٥٠ م) أمر المتوكل أن تتخذ ملابس الأقباط مميزات مذلة . فألزم الرجال بلبس عباءة ذات قلنسوة « عسلية اللون » وأنواع خاصة أخرى من الملابس ؛ كما ألزم النساء بإرتداء ثوب من اللون نفسه . وكان الأقباط يجبرون على وضع تماثيل خشبية تمثل الشيطان عند أبواب منازلهم أو عليها .

وقد قاسى الأقباط أشد الاضطهادات التى قاسوها أبداً ، والتي عزيت إلى كبريائهم وتظاهروا بالثروة وسلوكهم المهيمن نحو المسلمين في عهد ذلك الزنديق الشقي الخليفة الحاكم ، الذى ولى العرش عام ٣٨٦ هـ (٩٩٦ — ٩٩٧ م) ، وقبل عام ٤١١ هـ . وكان أقل أذى أوقعه بهم إجبارهم على حمل الصليب خشبي وزن خمسة أرطال ويعلق في العنق ، وعلى إرتداء الملابس والعمائم السوداء . ويبدو أن هذا كان أصل العمامة السوداء التى يلبسها كثير من المسيحيين في الوقت الحاضر . ولما كان ملابس خلفاء مصر وأعلامهم تميز باللون الأبيض فقد كان الأسود (الذى كان اللون المميز لأعدائهم العباسيين) في نظرهم أكثر الألوان كراهية وشيئاً التى يمكن إختيارها لللبس الأقباط المزدبرين . ولم أجد لعمامة مسيحي مصر السوداء أى ذكر سابق على هذا . وكان اليهود أيضاً ، في الوقت نفسه ، يؤمرون بحمل قطعة خشبية مستديرة وزن خمسة أرطال وتعلق في العنق مثل صليب الأقباط . وقد تركت جميع الكنائس للهدم والسلب ، وكذلك

(١) يجب ملاحظة أن ما أشير إليه هو استثناء لما يظهر المسلمون من تسامح عام ، وأن الأقباط لم يدخلوا في الاسلام مكرهين الا القليل منهم وقد أسلم الكثير منهم مدفوعين بحبهم لمسلمات .

جميع ممتلكاتها ؛ واستبدلت المساجد بكثير منها . وأخيرا . صدر حكم بنفى جميع مسيحي مصر واليهود إلى اليونان . غير أن تعلقهم بوطنهم كان أقوى من شعورهم بالشقاء ، كما أن كراهيتهم للطوائف الأخرى ، تلك الكراهية التي يثيرها طبعهم السخيف السائد في كثير من الطوائف ، كان أشد أثرا ، فاحتشد كثير من الأقباط عند قصر الخليفة متوسلين لينقض الحكم ، فاجيبوا إلى ذلك . وقد أسلم كثير من الأقباط أثناء هذا الاضطهاد وغيره .

وحدث لأول مرة ، حسب علمي ، في شهر رجب عام ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) ما جعل الأقباط يعززون بالمهمة الزرقاء كما هم الآن . حدث أن مر سفير مغربي ، في طريقه إلى القلعة ، برجل حسن الزي يلبس المهامة البيضاء ويمتطي جوادا ، ويسير في ركابه توابع عديدون يكرمونه ويسألون رعايقه ويقبلون قدميه أيضا ، بينما هو يشيح عنهم بوجهه ويردم ويأمر خدمه بطردهم . فلما علم أن هذا الرجل مسيحي أخذه الغضب وكاد يصفعه بشدة ؛ ولكنه أمسك عن ذلك وصعد إلى الديوان في القلعة وروى ما رآه إلى بعض الأمراء الحاضرين ، دافع المـسـيـحـي شفقة على المسلمين . فاستدعى رؤساء الأقباط واليهود إلى الديوان على أثر شكواه ، وصدر الأمر إلى المسيحيين بلبس المهامة الزرقاء والأحزمة ، وإلى اليهود بلبس المهامة الصفراء . ومنع كلاهما أيضا من ركوب الخيل أو البغال . وقد فضل كثير من المسيحيين إعتناق الإسلام على لبس المهامة الزرقاء .

وفي عهد محمد بن قلاوون ، في التاسع من ربيع الآخر ، من عام ٧٢١ هـ . (١٤٢١ م) ، دبر بعض المسلمين المتعصبين مؤامرة لهدم أهم كنائس مصر ، وعددها ستون كنيسة ، يقع إحدى وعشرون منها بالقاهرة وضواحيها . وقد تمت هذه المؤامرة أثناء صلاة الجمعة على الأخص ؛ فعندما ختم السلطان وحاشيته الصلاة في جامع القلعة ، صاح رجل يبدو عليه الجنون وسط الجماعة : « اهدموا الكنيسة الموجودة بالقلعة ! » وصاح أحد « الفقراء » في الجامع الأزهر قبل ظهور الخطيب ، وكانت تعتربه رعشه قاهرة : « اهدموا كنائس الكفرة العتاة ! الله أكبر ! الله ينصر ويمين ! » . وقال بعض المصلين إن الرجل مجنون ؛ وقال آخرون إن

هذا علامة بمض الحوادث ؛ وتبين المصلون عند انصرافهم أن ما حرض عليه قد بدأ . فقد كانت الجموع محتشدة في الشوارع بأسلاب الكنائس التي حول أكثرها إلى تلال من الأنقاض . وتوعد السلطان أهل القاهرة (الآن مصر) والفسطاط (أو مصر القديمة) بقتلهم لهذه الأهانة ؛ غير أن انتقام المسيحيين صرفه عن قصده . فقد أشعل هؤلاء النيران في كثير من المساجد ومنازل الأمراء والبيوت الخاصة بالقاهرة والفسطاط ، لأيام عديدة ، بعد أن أمسكوا عن تنفيذ مؤامراتهم مدة شهر ليبدووا الشبهة عنهم . وقد كشف أمر كثير من مشغلي الحرائق واعدوا حرقا ؛ كما أن بعض المسلمين أعدم شنقا بطول الشارع الرئيسي بين باب القاهرة الجنوبي والقلمة لأهانتهم حسب الظاهر أميرا آتهم بمساعدة المسيحيين ، وإن لم يثبت عليهم ما يدينهم . وقد قبض عليهم بدون تمييز ليكفروا عن الأساءة وليكونوا عبرة لمواطنيهم . غير أن صياح الفوغاء أزعج السلطان فاضطر بعد ذلك أن يسمح لرعاياه المسلمين سلب كل مسيحي يصادفونه وقتله . وكان المسيحيون في ذلك الوقت يلبسون العمامة البيضاء ، فأمر السلطان بإعلان كل من يرى منهم يلبس العمامة البيضاء أو يركب الجياد يعرض للنهب والقتل ؛ وأن عليهم أن يلبسوا العمامة الزرقاء ، وألا يركبوا غير الحمير ووجههم إلى ذيل الحمار ، وألا يدخلوا حماما دون أن يملقوا جرسا في العنق . كما حرم على الأمراء استخدام المسيحيين ؛ وعزل جميع المسيحيين من خدمة الحكومة .

وقد اعتنق كثير من مسيحي مصر الإسلام عام ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ - ١٣٥٥ م) بعد أن قاسوا على التواتر الظلم الشديد . وقد بلغ عدد من تحولوا إلى الإسلام في مدينة قليوب وحدها أربعمائة وخمسين في يوم واحد . وقد هدمت في الوقت نفسه أكثر كنائس الصعيد وشيدت المساجد مكانها .

وقد ظل الأقباط منذ ذلك العصر يقاسون الجور كثيرا أو قليلا إلى عهد محمد علي باشا . ففي ولايته المتسامحة مع شدتها لم يحتم على المسيحيين أكثر مما حتم على المسلمين ، ما عدا ضريبة زهيدة كانت أكثر من أن يوازنها اعفائهم من الخدمة العسكرية ؛ وهو لم يمنع لهم حظوة (هذا حقيقي) ، ولكنه لا يقل من هذه الناحية أهمية وإثارة للتجسد .

٢ - يهود مصر

يكون اليهود في كل بلد تشتتوا به (خلافاً لأي طبقة متجمعة أخرى من الشعب يسكن أفرادها بلداً لم يتوراثوه من ممتلكيه الأولين أو لم يفزوه هم أنفسهم أو أسلافهم) أعضاء ثابتين في الجماعة التي يعيشون بين ظهرانيها . ولذلك ليس من غير اللائق أن أمرد شيئاً عن يهود مصر في هذا الكتاب .

يبلغ عدد اليهود في هذا البلد خمسة آلاف تقريباً ، يسكن أغلبهم العاصمة في حي حقير مقفل قدر يقطعه أزقة عديدة يضيق أكثرها إلى درجة لا تسمح بمرور شخصين .

ويختلف يهود الشرق في الملامح وفي هيئة الوجه عامة عن أمم أخرى في آسيا الجنوبية الغربية أقل مما يختلف يهود أوروبا عن الشعوب التي يعيشون بينها ؛ غير أن كثيراً ما نجدهم يتميزون بشدة بياض البشرة وصهبة الشعر وصفاء عيونهم البندقية أو الزرقاء أو الرمادية اللون . ويشكو كثير من يهود مصر من أمراض العين وانتفاخ البشرة نتيجة الإفراط في استعمال زيت السمسم في الطعام . وهم على العموم قذرون غير مهذبين في ملبسهم وفي شخصهم أيضاً . ولا يختلف لون عمامتهم عن لون عمامم الرعايا المسيحيين . وتنتقب اليهوديات ويلبسن ملابس المصريات الأخرى في الطريق العام .

ولليهود ثمانية معابد بحجهم بالقاهرة . وهم يهتمون بالتسامح الديني ويخضعون لحكم أقل تمسفاً في مصر منه في أي بلد أخرى من بلدان السلطنة التركية . وهم يؤدون مبلغاً من النقود مقابل إعفاء حيهم من إشراف المحتسب ؛ ويؤدون المثل للوالى مادامت وظيفته قائمة . وهم يعيزون عن الآخرين في بيع أصناف المؤن بسعر مرتفع ، فيستطيعون تبعا لذلك شراء هذه الأصناف بثمان أعلى ، فيجهزون حوانيتهم بالمؤن ، وعلى الأخص الفاخرة ، التي تفوق غيرها جودة في أنحاء أخرى من المدينة . واليهود ، مثل الأقباط ، والسبب مماثل يدفعون جزية ، ويمفون من الخدمة العسكرية .

واليهود محل ازدراء المسلمين وكرهيتهم . ويقال إنهم يحملون المسلمين
والإسلام بغضا متأصلا أكثر من أى شعب آخر . ويذكر القرآن في سورة المائدة
« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم
مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ... » وقد قص على صديق مسلم عندما
ذكرت هذه الخاصية في أخلاق اليهود حادثا وقع منذ بضعة أيام فقال : « كان
أحد اليهود يمر مبكرا صباح يوم من أيام الأسبوع الماضى بمقهى لأحد معارفه
المسلمين يسمى محمداً . فرأى شخصا يقف هناك فظنه صاحب الدكان (إذ كان
الفسق لا يزال قائما) وقال : « سمعت صباحا ياشيخ محمد » فلم يرد هذا الأخير ،
وكان يهوديا آخر ، على تحية الأول بغير زجرة غاضبة لمخاطبته بأكره الأسماء التى يمكن
التفوه بها أمام يهودى . وسحب الجانى إلى الكاهن الأكبر الذى حكم بجلده
جلدا شديدا لهذه الاساءة بالرغم من احتجاجه بأنها غير متعمدة . — ومن
الشائم قول المسلمين : « إن فلان يكرهنى كراهية اليهودى » . فلا عجب إذا أن
يكره المسلمون اليهود أكثر مما يكرهون المسيحيين . وكان اليهود إلى عهد قريب
يدفعون ويضربون أحيانا في شوارع القاهرة لمجرد عبورهم على عيني مسلم . وهم
الآن أقل عرضة للجزور ، ولكنهم قلما يجرأون على شتم أى عربى أو تركى ينتهرهم
أو يضربهم ظلما . فقد أعدم كثير منهم لإتهامهم زورا وحقدا بسب القرآن
أو الرسول ومن المادى أن تسمع عربيا ينفث حمارة المتعب بأفصح الشتائم المختلفة
يختتمها بوصفه الحيوان باليهودى .

وكثير ما ضحى يهودى لانتقاد مسلم كما جرى في الحادث التالى : « صرف
أحد الجنود الأتراك بعض النقود ، فناوله « الصيرفى » ، وكان مسلما ، بعض النقود
التركية المسماة « عدلية » بستة عشر قرشا كل . وقدم التركى هذه النقود إلى
أحد التجار ثمنا لبعض البضائع ؛ غير أن الأخير رفض أن يحاسبه على أكثر من
خمسة عشر قرشا « للعدلية » قائلا إن الباشا أمر منذ عدة أيام بالامتناع عن هذا النقد
بستة عشر قرشا بعد ذلك . فعاد الجندى إلى « الصيرفى » وطلب منه قرشا إضافيا
لكل « عدلية » فرفض « الصيرفى » فتظلم التركى إلى الباشا نفسه ، الذى غضب
لإهمال أوامره وأرسل في طلب « الصيرفى » . واعترف هذا الرجل بذنبه ، غير

أنه حاول أن يلتبس لنفسه عذرا بزعمه أن كل « صيرفي » في المدينة تقريبا قام بالمثل ، وأنه استلم قطع « العدلية » بالسعر نفسه . ومع ذلك لم يصدق الباشا ، أو رأى أنه من اللازم أن يجعل منه عبرة لغيره ، فأشار بيده إيمازا بضرب عنقه . وتحركت الشفقة في قلب مترجم البلاط لهذا الرجل التمس فتوسل إلى الباشا أن يعفو عنه ، وقال : « إن هذا الرجل لم يعمل أكثر مما يعمل جميع صيارفة المدينة ، وقد استلمت أنا نفسي البارحة قطع « عدلية » بالسعر ذاته . » فصاح الباشا : « ممن » فأجاب المترجم : « من يهودى عاملته عدة سنين . » فأحضر اليهودى وحكم عليه بالشنق بينما أعفى عن المسلم . فاعتم المترجم وجد في الدفاع عن اليهودى المسكين . ولكن الباشا لم يلب . كان من اللازم أن يضرب مثلا ، وقد اعتبر أن قتل يهودى خير من قتل مسلم أكثر جرما . وقد رأيت التمس مشنوقا في نافذة « سبيل » ملحق بمسجد قائم في أهم شارع في المدينة ^(١) . وقد عرض أقارب اليهودى مبالغ كثيرة ليعفى عنه ، غير أن الخطوة الوحيدة التي استطاعوا الحصول عليها هي إدارة وجهه ناحية الشباك حتى لا يراه المارون وكان هذا اليهودى يحترمه كل من عرفه (ما عدا المسلمين طبعاً) وقد ترك عائلته في عوز شديد ، فقام المترجم الذي تسبب في موته بغير تعمد باعانتهم

ويعيش اليهود في مصر عيشة هادئة على العموم . وقل فعلا من يخالطهم ممن هم على غير دينهم . وهم يعتبرون عامة شعبا معتدلا في ما كله . ويرتدى أغنيائهم أجمل الملابس داخل بيوتهم ، ولكنهم يظهرون في الخارج بملابس ساذجة بل رثة أيضا . وتحوى مساكنهم بالرغم من مظهرها الحقير القدر غرفا جميلة حسنة الأثاث وليس اليهود داخل منازلهم بصرامة الكثير من الشرقيين الآخرين في إخفاء نساءهم عن الأجانب ، أو على الأقل عن مواطنيهم وعن الأفرنج . وكثيرا ما يحدث أن يستقبل الزائر الأوربي حيث يجلس نساء الأمرة اليهودية سافرات ، فيقمن على خدمته . وتسود هذه المادة في السوريين المسيحيين المقيمين بالقاهرة . ويقال إن تدبير المسكند يغلب في اليهوديات ؛ غير أن ليس فيهن عاهرات يصرح لهن باحتراف

١ — من المدهش أن يشنق المسلمون يهوديا في شباك جامع . بينما هم يعتبرونه مخلوقا دنسا يلوث دمه السيف ، ولهذا السبب لا يضرب عنق اليهودى في مصر .

الدعارة ، ويميش أفراد الطبقة الدنيا في بؤس شديد ، وليس لأكثرهم طريقة للتميش غير ما يوجد به عليهم يهود الطبقة العليا . والبخل صفة مميزة ليهود مصر خاصة أكثر منها ليهود البلدان الأخرى حيث هم أقل عرضة للظلم . وهم يعنون بكل وسيلة ممكنة لامتداد شبهة الثراء عنهم ولهذا السبب يمدون في أقدر شكل ويملون مظاهر بيوتهم الخارجى ، وهم على العموم يحرصون على القيام بفروضهم الدينية ، كما أنهم بالرغم من حيلهم في الصفقات التجارية أمناء في انجاز عقودهم ويحترف كثير من اليهود المصريين عملية الصرف (أى اقراض النقود) ؛ ويعمل آخرون «صيارفة» وهم ذوو أمانة دقيقة ؛ ويصيغ غيرهم الذهب والقضه ؛ ويشغل بعضهم بالبقالة وبيع الفاكهة ، والقليل من الطبقة الثرية يحترف التجارة عموما

٣ - المحدثات الاخيرة (١)

إن ما نشر بأوربا من روايات مبالغ فيها خاصة بالمحدثات الأخيرة والتقدم العام للمدينة في مصر يدفعني إلى إضافة بعض الكلام في هذا الموضوع . إن العادات الأوربية لم تأخذ بعد في الانتشار بين المصريين أنفسهم ، ولكنها إن تلبث أن تنتشر . وقد ظلت مشوقا ، في انتظار تحقق ذلك ، وقبل فوات الوقت ، إلى الامام بحالة مجتمع أثار وجوده إهتماما بالغا منذ عدة أجيال واعتقد الكثير أنه يكاد يكون ثابتا .

إن البيان الذي قدمته عن حكومة هذا البلد في الوقت الحاضر يظهر عبث الزعم بأن مصر تملك مجلسا تشريعيا يمكن وصفه بأي حال أنه يمثل الشعب . إن ارادة الباشا تكاد تكون مطلقة ، غير أنه أحدث بلا شك إصلاحا عظيما بادخال فن الحركات الحربية والبحرية الأوربي ، فنجم عن ذلك نتائج جسيمة لن تلبث أن تنتشر انتشارا واسعا وتلاقي من وجوه عديدة قبولا حسنا . وقد أزال هذا الإصلاح الكثير من عبء الأضرار التي عاقت الأتراك طويلا عن الاحتفاظ بمقامهم النسبي بين أمم العالم المتمدنين . وقد أقنع محمد علي المصريين بأن هذا العلم الأوربي وممارسته يفوقان ما تعودوه فجعلهم يرضون ، إن لم يكن يرغبون ، في تلقي أكثر مما كان يستطيع الأوربيون تعليمهم . وقد لا يرى غير المتأملين أى أهمية في ذلك ، ولكن المسلم الحكيم يعتبره منذرا بالسوء . بينما يرحب المسيحيون به كفال لأساطع اليهود . وقد سلك الأتراك مسلك الأوربيين في الترف ، فأخذ كثير من الأغنياء في استعمال السكين والشوكة ، وسرعان ما تعودوا شرب النبيذ جهارا ، فشاعت هذه العادة بين الكثير من كبار موظفي الحكومة . ومن الجلي

١ - كتب هذا في أزمى عصر لحكم محمد علي . ولهذا السبب ولأنه يبين السياسة التي اتبعها خلفاؤه على العموم ، فقد أقيمت ما كتبت كاملا تقريبا في الطبعة الحالية

أن هذا الحدث يشير إلى إهمال فائق للشؤون الدينية . ولا شك أن مبادئ الطبقة السائدة ستمتد (وإن لم يحدث شيء من ذلك بعد) إلى الطبقة الدنيا . وقد بدأ الأولون في تقويض أسس الإسلام بينما ينظر الآخرون إلى ذلك ببلاهة ، أو على الأقل يستسلمون إلى العناية الإلهية . إنما يحتمل أن يعاون هؤلاء قريبا في هذا العمل ، ومن المقبول أن نتوقع قاب الوضع بأكمله في وقت غير بعيد

ويبدو أن وإلى مصر الحالى كان يرمى إلى هدف جسيم يكاد يكون الأوحد كان يهدف إلى تكوين امبراطورية قوية مستقلة عن الباب العالي ، وقد أدخل علوما وفنونا وصناعات أوربية عديدة تهدف جميعاً إلى نجاح ما رسمه فقط ، إذ أن تلك الصناعات الجديدة قد افقرت شعبه . وقد أنشأ مطبعة ، غير أن ما صدر منها من مطبوعات يكاد يكون مخصصاً لتعليم حاشيته من العسكريين في البر والبحر ومن المدنيين (١) . وهناك مطبعة أخرى بالقلعة يصدر منها جريدة ينذر أن تتعدى عباراتها شؤون الحكومة . وهى تطبع بالتركية وبالعربية ، وينشر منها أحيانا ثلاثة أعداد فى الأسبوع ، وأحيانا أخرى ، ينشر عدد واحد فى الشهر . (٢)

وقد ذكرت رأيى صراحة أن سياسة محمد على مغلوطة فى كثير من الوجوه وأن شعبه اضطهد اضطهاداً شديداً ، غير أن الظروف التى وجدها تهر شدة وحتى نصف فى الحكم على طباعه يجب أن تقارن بينه وبين مصلح تركى آخر ، وليه الأسمى (السابق) ، السلطان محمود . فقد أبدى محمد على من جميع الوجوه تفوقه على الآخر ، وخاصة فى تنظيم قواته . فبينما كان السلطان يقلد الأوربيين فى أنفقه الأمور (مثل اقتباسه نظام الملابس الحربى الجديد) قصد محمد على أموراً

١ - وقد أرسلت قائمة بهذه المطبوعات الى الجمعية الأسيوية الملكية

٢ - سأذكر عملاً من أقل أعمال محمد على أهمية على اعتباره أن يجعل وصفى لشوارع القاهرة وحوالياتها لا ينطبق جملة على حالتها الحاضرة . فقد عمل أخيراً على إزالة المصاطب فى أكثر الشوارع الكبيرة ، وسمح بإعادة بنائها فى الأجزاء الواسعة فقط بعرض شبرين تقريباً . وفى الوقت نفسه أجبر التجار على دهن حوانيتهم وأمرهم برفع « سقائف » الحصر القبيحة المنظر التى تظلل كثيراً من الأسواق ، وحرّم وضعها ثانياً ما لم تكن من الخشب وقد فقدت القاهرة نتيجة لذلك كثيراً من طابعها العربى — بعد كتابة الجزء السابق من هذه المذكرات يضع سنوات ، ألزم أهل القاهرة بتبييض واجهة منازلهم ، وهكذا شوهدت هيئة الشوارع المقتنة .

أكثر أهمية وبلغ هدفه (١) . وإذا أردنا أن نقدر خلقه بالنظر إلى مذبحة المالميك يجب أن نعلم أنه إنما عمد إلى هذه الوسيلة الفظيعة لغاية مرغوبة ، كما يمكننا في الوقت نفسه أن نضع في الكفة الأخرى منحه اللاجئين اليونانيين ملاذا عندما سال دم مواطنهم في ميازيب الأسقانة

ومن الصعب تكوين رأي صحيح عن إدارة محمد على للبلاد على العموم ، بسبب التكتّم الذي يشمل الأمور السياسية المهمة في الشرق. غير أنه يمكن القطع بما يلي : إن حكم محمد على أفقر الشعوب التي حكمها . ولكنها استبدلت السكينة بالفوضى والتسامح المتصنع بالتعصب السافر ، بينما تعلم كثير من الأفراد العلوم والفنون التي يتحتم أن تنفع الأمة في مجموعها نفعاً عظيماً في النهاية .

١ — لا تزال (١٨٣٥) ملابس جنود محمد على وبعض ضباطه تركيبة تماماً في تفاصيلها ماعدا العمامة التي لم يعد يلبسها غير بعض هؤلاء في الشتاء فقط وغطاء الرأس النظامي حالياً هو القلنسوة الحمراء يلف حولها دائماً شال من الموصلي أو الكشمير . وتكون السراويل فضفاضة من الوسط الى ماتحت الركبة بقليل ثم تلاصق الساق . ويكمل الملبس الخارجي الذي يرتدى عادة صدره مشدودة (مقسمة الكمين من الرسغ تقريباً الى المرفق ، وترزر على العموم في هذا الموضع) وحزام وسترة متدلية السكمين ، وجوربا وحذاء أحمر ، وقد يكون كما السترة مثل كمى الصدر ، وينتعل البعض أحذية أوربية سوداء . ويحمل السيف الآن على الطريقة الأوربية في منطقة . ويتكون ملبس الجنود الخاصة من صدره وسروال (يشبه السابق وصفه وليس باتساعه) من صوف غليظ أحمر ، أو من القطن في الصيف ، وحزام وقلنسوة حمراء وحذاء أحمر .

ذيل (١)

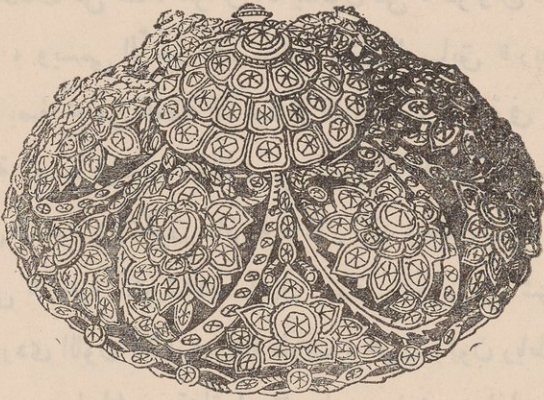
حلى النساء

تختلف حلى المصريات اختلافاً يحمل وصفها جميعاً قد يجاوز بكثير الحدود التي تسمح بها طبيعة الكتاب ، وقد يقتضى عدداً كبيراً من الرسومات وإلا كان بلا فائدة. وسأصف مع ذلك أهم أنواع تلك الحلى ، فننقل إلى القارىء صورة عن البقية . وإذا كان الموضوع لا يهم عامة القراء ، فقد ينفع على الأقل الفنانين الذين كثيراً ما يستسلمون للخيال عند تصورهم ملابس العرب وزينتهم . وأصف أولاً حلى السيدات من الطبقة الراقية ، ونساء الطبقات الوسطى .

سبق أن تكلمت عن غطاء الرأس أنه يتكون من « طربوش » و « فروديه » (أو منديل) ، ويسمى الأخير عند ما يلف حول السابق « ربطة » . وكثيراً ما تزين الربطة بصفايح من الفضة المذهبة أو الساذجة ، مرتبة في نماذج تصويرية ؛ وتكون الربطة نفسها في هذه الحالة ، من الموصلى أو الكريشة من اللون الأسود أو الوردى على العموم ، وتكون ساذجة دائماً . وقد وصفت أكثر أنواعها شيوعاً . « المزاجى » حلية كثيرة الاستعمال . وهى تتكون من شريط من الموصلى الأسود أو الوردى اللون ، تطوى جملة طيات ، بحيث تكون رباطاً ضيقاً ، يعرض الأصبع أو أقل . وطولها خمسة أقدام تقريباً . وزين وسطها ، باتساع حوالى إثنتى عشرة بوصة ، أو ثلاث عشرة ، صفايح توضع متلاصقة ، أو على شكل معين ؛ الخ وزين طرفاه بالاتساع نفسه تقريباً ببعض صفايح أخرى ، ويحد كل منهما حاشية وشراريف صغيرة من الحرير المختلف الألوان . وقد يوجد أيضاً حاشية مماثلة يعلق بها صفايح بطول الحافة الدنيا من القسم الأوسط المزين ، ويربط المزاجى حول الرأس ، فيعلو القسم المتوسط المزين الجهة فوق حافة الربطة على العموم . ويشد خلفاً عند أعلى الربطة ، ويتبدل طرفاه المزينان إلى الامام فوق الصدر .

« القرص » حلية محدبة مستديرة ، قطرها خمس بوصات تقريباً عادة ، ويلبسها على العموم عقائل النساء . وهى تحاط على قمة الطربوش . وهى نوعان : النوع الأول

الذى اصفه (وهو الوحيد الذى تلبسه عقائل النساء ، وزوجات التجار ذوى الثروة المتوسطة) هو « قرص الماس » . وهو يتكون من ماسات تركب في ذهب على العموم ؛ وتكون على طرز المحرم ، على هيئة ورود وأوراقها الخ . وتكون الماسات عادة من نوع تافه ؛ كما أن ذهب هذه الحلية وغيرها من الحلي الماسية المستعملة في مصر يمزج بنسبة كبيرة من النحاس . وبلغ قيمة القرص الماسى المتوسط الجمال مائة وخمسة وعشرين جنيها استرلينيا أو مائة وخمسين تقريرا . ويندر أن يكون من الفضة . وأظن أن لتلك الحلى من الذهب (شكل ٨٣) تأثير أفخم ، حينما تعلق على طربوش أحمر قان ، وإن لم يتفق

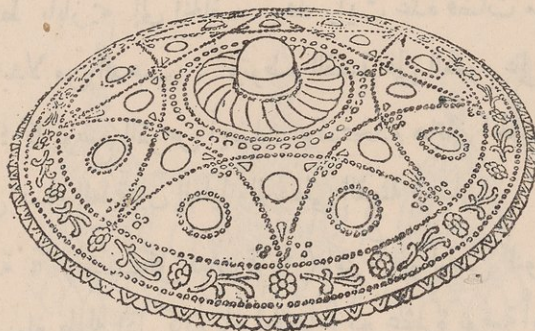


قرص ماسى

(شكل ٨٣)

هذا وذوقنا العام . وقد تتحلى زوجات صغار التجار أيضا بالقرص الماسى . وهن يولعن بالماس ، ويسعين على العموم للحصول على بعض منه ، وإن ردا نوعه . ويصعب حمل القرص أول الأمر لثقل وزنه ؛ وتشكو من تتعود حمله من النساء الصداق عندما يخلعنه ؛ فيحتفظن به ليلا ونهارا . غير أن للبعض قرصا أدنى للسريـر . ولبعض السيدات قرص لللبس العادى ، وقرص ثان للمناسبات الخاصة ، أكبر حجما وأجمل شكلا ؛ وثالثا لللبس فى السريـر فقط — أما النوع الآخر

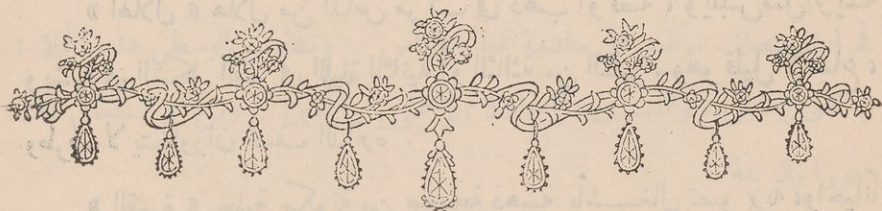
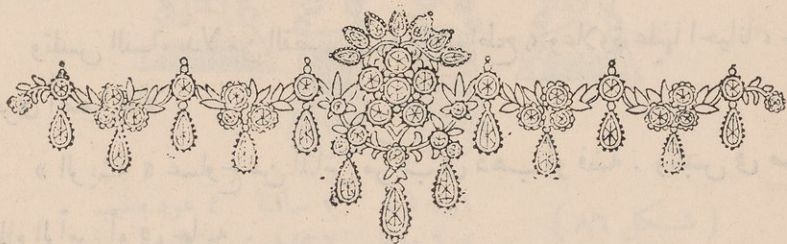
« قرص ذهب » فهو صفيحة محدبة من الذهب البارز الرقيق على الطرز المبين في (شكل ٨٤) عادة ؛ ويتوسل طه دائما تقريبا زمردة مقلدة (قطعة من



(شكل ٨٤) قرص ذهبي

الزجاج الأخضر) ، غير مقطوعة . ولا يقطع الزمرد أو الياقوت هنا ؛ فإذا قطعاً اعتبروا مقلدين . ويبطن القرص الذهبي بطبقة كثيفة من الشمع تغطي بقطعة من الورق . ويلبس هذا القرص كثير من النساء اللاتي يعجزن عن شراء قرصا ماسيا ؛ وبعض الخادومات أيضا يلبسنه .

« القصة » (شكل ٨٥ رقم ١) حلقة يتراوح طولها بين سبع بوصات



١ قصة
٢ عنقه

(شكل ٨٥)

وثماني ، وتتكون من ماس مركب في ذهب ، يضاف إليها احيانا زمرد وياقوت ولؤلؤ ؛ ويعلق بها اقراط من الماس أو الزمرد الخ . وتوضع القصة في مقدمة الربطة . وتربط بأبازيم إلى الخلف . وقد رأيت عدة قصات من الماس الخ . مركبة في فضة بدلا من الذهب . وتوضع القصة على العموم على رأس العروس خارج طرحتها ؛ كما يوضع القرص أيضا . وتستخدم هاتان الحليتان ليزين نعش المرأة . ويلبس نساء الطبقتين العليا والوسطى القصة أيضا .

« العنبة » (شكل ٨٥ رقم ٢) اسم آخر لنفس النوع يلبس بنفس الطريقة . ويبلغ طوله إذا كان تام الحجم أربع عشرة بوصة أو خمس عشرة ، ويحيط أكثر من نصفه بغطاء الرأس .

« الشواطح » (مفردها « شاطح ») حليتان تتكون كل منهما من ثلاثة صفوف من اللؤلؤ أو أكثر ، بطول القصة تقريبا ، تجمعها في الوسط زمردة مثقوبة مثل عقد اللؤلؤ العادي الموصوف فيما بعد ؛ أو تتكون من لآلىء مرتبة على هيئة شريط ضيق ، ويضاف إليها احيانا بعض زمردات صغيرة . وتثبت الشواطح بالربطة على هيئة اكليلين ، واحد على كل جانب من الرأس ، من طرف القصة إلى خلف غطاء الرأس ، أو إلى القرط احيانا .

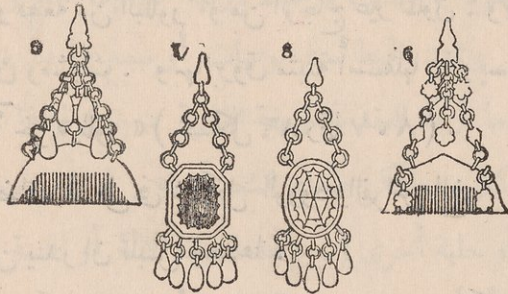
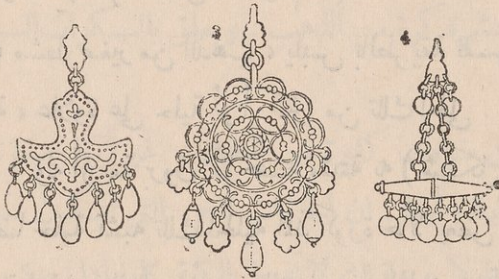
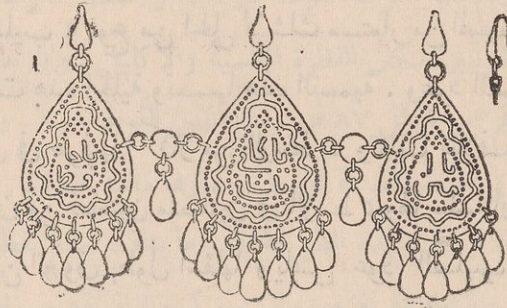
وتلبس النساء بدلا من القصّة والشواطح ، وعلاوة عليها احيانا ، حليا أخرى أصفها حالا .

« الريشة » عسلاج من الماس مركب في ذهب أو فضة . وتلبس في صدر غطاء الرأس أو في جانبه .

« الهلال » هلال من الماس مركب في ذهب أو فضة ، ويلبس مثل الريشة ويشبه في الشكل القمر في الليلة الثانية أو الثالثة من الشهر . وهو قليل الإتساع ، وطرّاه لا يتجاوزان نصف الدائرة .

« القمر » حلية مكونة من صفيحة ذهبية بأشغال تصويرية ، و احيانا بكلمات عربية ، وبها حوالى سبع قطع ذهبية مستوية صغيرة ، تسمى الواحدة

منها « برقا » تربط بالجزء الأسفل ؛ أو تتكون من ذهب وماس ، وياقوت النخ
ويبين الشكل ٨٦ رقمًا ١ ، ٢ نموذجين للقمرة . ويشمل أحدهما ثلاث



(شكل ٨٦) ٢ قرّة ٣ ساقية ٤ عود صليب
٥ مشط ٦ عقيق ٧ بللور ٨

قمرات متصلة . توضع على مقدمة غطاء الرأس . وتتضمن الوسطى هذه الجملة :
يا كافى يا شافى ، واليسرى : يا حافظ ، واليمنى : يا أمين . ومن ثم تستعمل تلك
حرزا وللزينة .

« السباقية » وتسمى كذلك لهيئتها . وهى حليلة مستديرة مستوية من الذهب

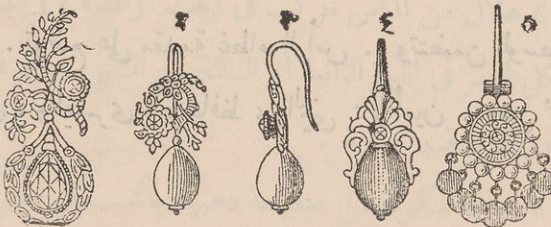
الحجر ، بها لآلىء صغيرة ، ويتوسطها ماسة أو حجر كريم آخر . ويعلق بالجزء الأسفل منها بروق وزمردات . وتلبس على طريقة القمرة أو معها . (شكل ٨٦ رقم ٣) .

« عود الصليب » نوع من الحلى لا شك مستعار من المسيحيين . والمدّش ان تلبس المسلمات هذه الحلية وتسميها هذه التسمية . وعود الصليب قطعة صغيرة من الخشب تدق في طرفيها أكثر من الوسط . وتغلف بغلاف ذهبي بالشكل نفسه ، وتتكون من قطعتين متصلتين في الوسط ، ولها سلسلتان ومشبك تعلق منها ، وصف من البروق بطول اسفلها ويلبس عود الصليب مكان الحليتين السابقتين أو علاوة عليهما (شكل ٨٦ رقم ٤) .

« المشط » مشط صغير من الذهب ، يلبس بالطريقة نفمها مثل أنواع الحلى الثلاث الموصوفة ، علاوة على حلية أو أكثر من تلك الحلى . ويعلق بسلاسل صغيرة ومشبك ؛ وله أربعة بروق أو خمسة مثبتة به (شكل ٨٦ رقما ٦ و ٥) . وهناك أيضا حلية تشبه تلك الحلية المذكورة حالا بعض الشبه ، وتكون من عقيق ، أو قطعة من البللور أو من الزجاج غير الملون . وتركب في ذهب . وتعلق بسلسلتين ومشبك . وبها بروق مثبتة أسفلها . ويسمى النوع السابق « عقيق » والآخر « بللور » (شكل ٨٦ رقما ٧ ، ٨) .

وهناك أيضا عدة حلّى في شكل الورود والفراش الخ . توضع على غطاء الرأس ؛ ولكن يندر ان تلبس وحدها .

وتوجد انواع كثيرة من الأقراط ، وقد ادرجت هنا أكثر الأنواع استعمالا (شكل ٨٧) . و « الحلق » الأول من الماس المركب في الفضة . ويتكون



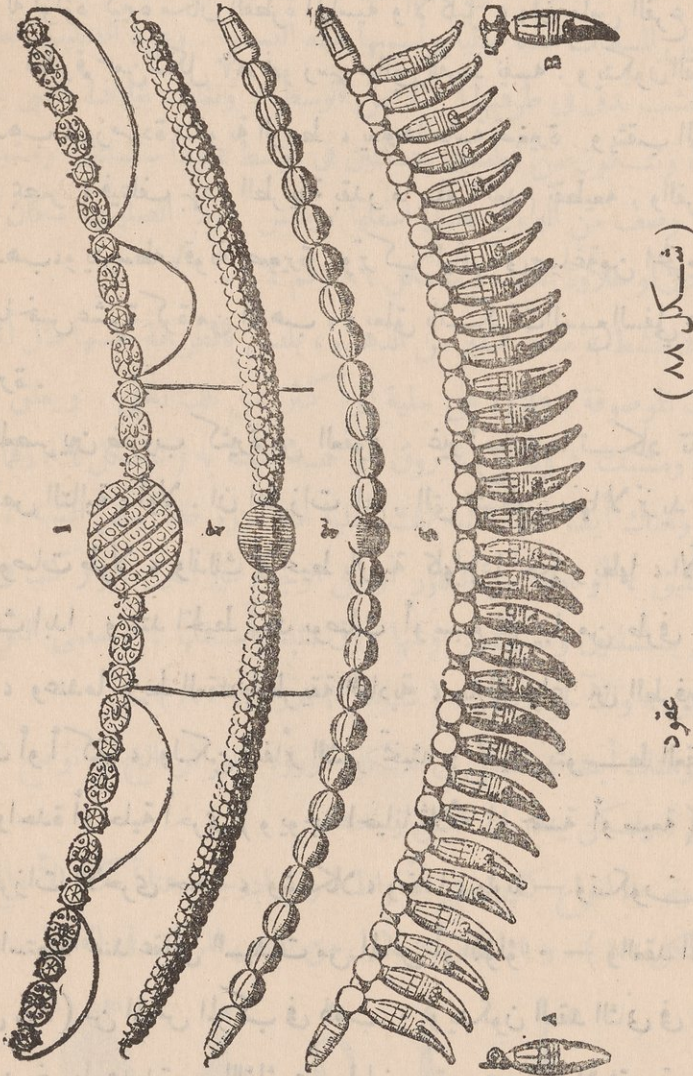
أقراط

(شكل ٨٧)

من قطرة تعلق داخل أكليل يتدلى من فرع ويذهب ظهر الفضة ، حتى لا يكمد لونه من العرق . والنموذج المبين هنا للأذن اليمنى ؛ والآخريماثله ، ولكن الفرع مقلوب . ويلائم هذا القرط السيدة الثرية . وبخلاف القرط الثانى عن الأول فى ان له لؤلؤة كبيرة مكان القطرة الماسية والأكليل ، وان ماس الفرع يركب فى ذهب . اما رقم ٨٧ من شكل ٨٧ فهو رسم جانبي للقرط نفسه . ويتكون القرط التالى من الذهب ، وزمردة مثقوبة الوسط ، يعلوها ماسة صغيرة . ويثقب الزمرد علي العموم بمصر ، فيتلف بهذه الطريقة بقدر ما يتلف لعدم تقطيعه . والقرط الأخير من الذهب ، ويتوسطه ياقوتة صغيرة . وتركب الياقوتة فى صياغة من الخرم الدقيق ، يحيط بها خمس عشرة كرة من الذهب . ويعلق بالكرات السبع السفلي عدة بروق مستديرة .

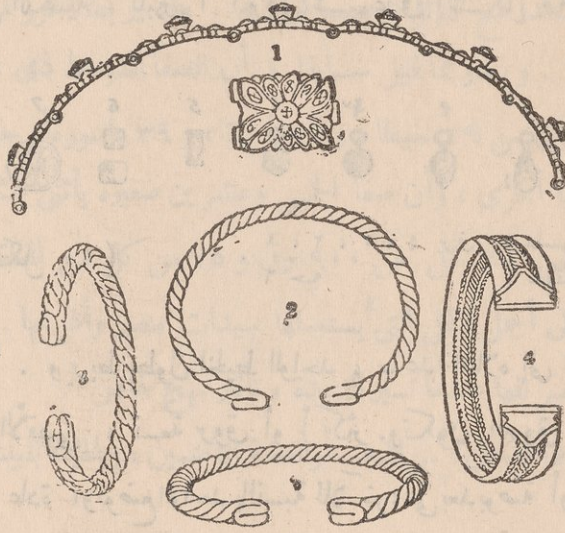
للمصريين ضروب كثيرة من العقود . غير أنها جميعا تكاد تتشابه فى الخصائص التالية : أولا . ان الخرزات النخ . التى تتكون منها لا تزيد معا عن عشر بوصات طولا ، ولذلك لا تحيط بالرقبة كلها إذا احكم ربطها ، الأمر الذى لا يحدث ابدا . ويمتد الخيط ست بوصات أو سبع تقريبا من طرفى مجموعات الخرز ، وعندما يربط العقد بالطريقة العادية ، يترك فراغا بين الطرفين ثلاث بوصات أو أكثر ، ولكن ضفائر الشعر تحبته : ثانيا . يتوسط العقد عموما خرزة واحدة أو حلية أخرى (ويوجد احيانا ثلاثة أو خمسة أو سبعة) تختلف عن الخرزات الأخرى حجما ، وشكلا ، وخاما ، ولونا — وتكون أكثر العقود استعمالا عند عقائل السيدات من الماس أو اللؤلؤ . — والعقد الأول فى (شكل ٨٨) من الماس المركب فى ذهب . ويتكون العقد الثانى فى الشكل نفسه من خيوط عديدة من اللؤلؤ يتوسطها زمردة مستوية قليلا منقوبة . وأغلب العقود اللؤلؤية تكون بهذا الوصف . ويسمى العقد الثالث « لبه » ، ويتكون من خرزات ذهبية مجوفة ، تتوسطها خرزه مختلفة النوع (حجر كريم احيانا ، ومرجان احيانا أخرى) . و « اللبة » و « الشعير » ، العقد التالى ، قلما يلبسهما (٢٨ — م)

غير نساء الطبقتين الوسطى والدنيا . ويسمى العقد الرابع « شعيرا » تبعا لشكله الخاص . ويتكون من الذهب المجوف . وانى ادرج رسما جانبيا لخرزة منه ، وآخر خلفيا (شكل ٨٨) . وهناك أيضا نوع طويل من العقود ، يصل إلى



الوسط ، ويتكون من ماسات أو من أحجار كريمة أخرى ، ويسمى « قلاده » وتؤلف بعض النساء عقدا طويلا من هذا النوع بقطع البندقى ، أو بالنقود الذهبية التركية أو المصرية .

ليس من اللازم ان اصف الخواتم التي قلما تختلف عن الخواتم الشائعة عندنا ، إلا في غلظ الصنعة ورداءة الأحجار . ويسمي الخاتم بدون حجر « دبله » . تصنع « الأساور » من الماس أو من أحجار كريمة أخرى تركب في ذهب ، أو من اللاكيه ، أو من الذهب فقط . ويبين شكل ٨٩ أكثر



(شكل ٨٩) أساور

الأنواع شيوعا . فالرسم الأول منظر جانبي لاسورة ماسية ومنظر امامي لجزء منها . والرسم الثاني أكثر أنواع الاسورة شيوعا ، ويتكون من حديلة ساذجة اما الثالث فهو كثير الشيعولـ لكنه أقل ذيوفا من الذهب المجدول . والرسم الأخير من الذهب أيضا . وتلك الأساور الذهبية تشد فتفتح قليلا لتوضع حول المعصم . وهي تصنع من الذهب البندقى الدقيق الشديد المرونة .

أصف بعد ذلك حلى الشعر — ذكرت أن شعر الرأس جميعا ، ماعدا ما فوق الجبهة والصدغين ، يصفر إلى صفائر ، ما بين احدى عشرة صغيرة وخمس وعشرين ، تتدلى أسفل الظهر . ويكون عدد الصفائر مفردا دائما ؛ وقلما يكون أحد عشر ؛ والشائع ان يكون ثلاث عشر أو خمس عشر . ويجدل بالشعر ،

إلى ربع طولها تقريبا ، خيوط حريرية سوداء (ثلاثة إلى كل صغيرة تضم عند القمة) بطول ست عشرة بوصة إلى ثمانى عشرة ؛ أو تربط إلى شريط من الحرير الأسود يشد حول الرأس ، فتدلى الخيوط فى هذه الحالة منفصلة تماما عن الضفائر وتكاد تغطيها . ويسمى الخيط من تلك الخيوط « قيطان » . وهى تؤلف معا وبعض الحلى الذهبية ، المبين أكثرها شيوعا فى شكل ٩٠ ، ما يسمى



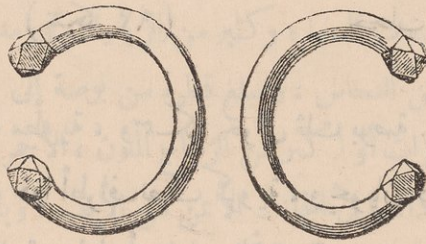
١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ برق ٥ ماسوره
٦ حبه ٧ شفتشه

(شكل ٩٠)

« صفا » (١) . ويربط بطول الخيط الواحد ، ما عدا اعلاه إلى الربع تقريبا أو الثلث على الأقصى ، تسعة بروق أو أكثر . وتكون البروق جميعا ذات شكل واحد عادة ، وتوضع الواحد بالنسبة للآخر ، على بعد بوصة أو أكثر قليلا على حدة . ويتعمد وضع حلى الخيوط بحيث لا يقابل بعضها بعضا تماما . وأكثر أنواع البرق شيوعا هما الرسمان الأول والثانى من النماذج المدرجة فى شكل ٩٠ وينتهى كل خيط أنبوبة ذهبية صغيرة ، تبلغ ثلاثة اثمان البوصة طولا ، وتسمى « ماسورة » ، أو تنتهى بنوع من الخرز الذهبى على شكل مكعب مقطوع الزوايا ، يسمى « حبه » . ويوجد أسفل الماسورة أو الحبة حلقة صغيرة ، يعلق بها عادة نقد ذهبى تركى يسمى « ربع فندقلى » ويساوى شلنا وثمانية نسات تقريبا ، ويبلغ قطره ما يزيد على نصف بوصة قليلا . ذلك هو الوصف العام للصفا ؛ غير أن هناك أنواع أكثر رقة ، حيث تفضل الحبة عادة على الماسورة ، ويستبدل بالربع الفندقلى حلية ذهبية مستوية تسمى ، تبعاً لـ « كالمها » كـ « كبرى » . وهناك أيضا

عوضا عن النقد الذهبي حلى أخرى أكثر استحسانا ؛ وأكثرها شيوعا يسمى « شفتشه » ، ويكون من الذهب الخرم ، ويتوسطه لؤلؤة . ويستبدل بعض السيدات بالنقد الذهبي شرابة صغيرة من اللاكلى ، أو يعلقن على التعاقب لآلىء وزمرد إلى أسفل الخيوط الثلاثية ، ويربطن لؤلؤة إلى كل برق . ويسمى الصفا المكون هكذا مع اللؤلؤ « صفا لولى » . وقد يربط الخرز من المرجان على طريقة اللؤلؤ . ويبدو مما قيل سابقا ، أن الصفا للمتوسط ذى الثلاث عشرة ضفيرة يتكون من ٣٩ خيطا ، و ٣٥١ برقا ، و ٣٩ ماسورة أو حبة ، و ٣٩ نقدا ذهبيا أو حلما أخرى ، وأن صفا الخمس وعشرين ضفيرة بأثنى عشر برقا إلى كل خيط ، يتضمن مالا يقل عن ٩٠٠ برق و ٧٥ من كل من المعلقات الأخرى . والصفا يمدولى أجل الحلى التى يستعملها سيدات مصر وأغربها . ولتألق البروق وغيرها ، ولصر يفها عندما تسير السيدة ، تأثير بهج خاص .

يكون « الخللخال » من الذهب أو الفضة الأصمين ، وبالهيئة المبينة فى الشكل ٩١

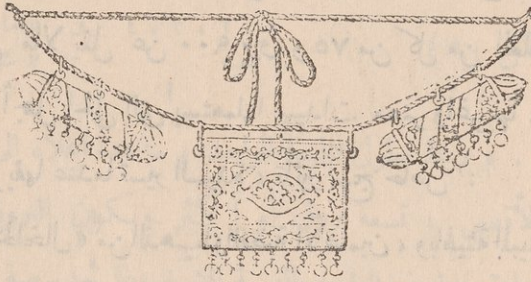


خلخال

(شكل ٩١)

وقد أصبح الخللخال الآن أقل شيوعا . وهو بالطبع ثقيل جدا ، ويحدث رنيننا باصطدامه الواحد بالآخر عند المشى . ومن ثم يقال فى إحدى الأغاني : « رنة خلخالك سلبتنى عقلى » ويشير أشعيا ^(١) الى ذلك الرنين ، أو ربما إلى الصوت الذى يحدثه نوع آخر يرد ذكره فيما بعد .

بقي من حلى السيدات « الحجاب » . وهو كتابة من الأنواع التى سبق أن وصفتها فى الفصل الحادى عشر ، يغطى بقماش مشمع ، ليحميه من النجس العرضي ، أو تلف الرطوبة . ويوضع فى غلاف من الذهب الرقيق البارز الشغل ، أو من الفضة ، ويعلق بخيط من الحرير ، أو بسلسلة ، على الكتف الأيسر إلى الجانب الأيمن ، فوق الحزام . وتنقش هذه الأغلفة بنقوش عربية أحياناً ، مثل : « ما شاء الله » ، و « يا قاضى الحاجات » . وأنى أورد رسماً لثلاثة أحجبة ذهبية تربط بخيط ، لتعلق معاً (شكل ٩٢) . والحجاب الأوسط غلاف رقيق



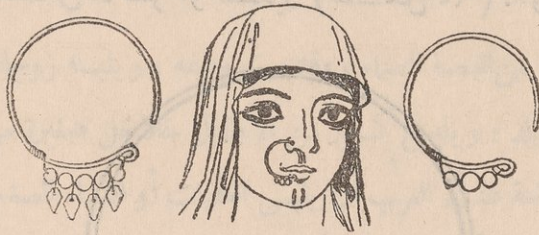
حجاب (شكل ٩٢)

مسطوح يحوى ورقه مطوية ، وسمكه حوالى ثلث بوصة . والحجابان الآخران غلافان اسطوانيان ، ذوا أطراف نصف كروية ، ويحويان درجين . ولكل من الأحجبة صف من البرق بطول أسفلها . والأحجبة من هذا النوع ، أو المثلثة الشكل ، يحملها الأطفال ، مثل النساء . وكثيراً ما تعلق الأحجبة المثلثة على غطاء رأس الطفل .

والآن أصف حلى النساء من الطبقة الدنيا

قد يكون من اللازم أن أذكر القارىء أن غطاء رأس أولئك النساء ، ماعدا بعض فقيرات القرى ، يتكون على العموم من « العصابة » ، وقد وصفتها فى صفحة ٤٦ ؛ وأن بعضهن يلبسن بدلاً من هذه ، الطربوش والقرودية . وقد يلبس النساء

من تلك الطبقة ، بطول جهة العصبه أو الربطة ، خيطا من النقد البندقى (المسمى شدة بنادقه) . وقد يزين الطربوش أيضا بالقرص الذهبى أحيانا ، والفردوية ببعض الحلى الذهبية الأخرى السابق ذكرها ، مثل القمرة ، والساقية ، والمشاطح . هناك مجموعة كبيرة مختلفة الأنواع من الأقراط . وبعضها من الذهب والأحجار الكريمة ، غير أن أكثرها شيوعا ، من النحاس ؛ وأكثر الأقراط النحاسية معلق بها خرزات ملونة . والقليل منها من الفضة « الخزام » (شكل ٩٣) ، ويسمى عادة « خزام » ، يستعمله قليل من



خزام

(شكل ٩٣)

القاهريات من الطبقات الدنيا ، وكثير من الريفيات فى مدن الريف وقراه بمصر . وهو يصنع عادة من النحاس ، ويبلغ قطره من بوصة إلى بوصة ونصف ؛ ويعلق به عادة ثلاثة خرزات أو أكثر من الزجاج الملون ، الأحمر والأزرق على العموم . وهو يكاد يوضع دائما فى الجانب الأيمن من الأنف ؛ ويتبدل بعضه أمام القم ؛ ولذلك تضطر لابسة الخزام أن تمسكه باحدى يديها عندما تضع شيئا فى فمها . وقد يصنع الخزام من الذهب . ونرجع هذه الحلية الى عهد ابراهيم^(١) . ويذكرها عيسوى^(٢) . وحزقيال^(٣) . ولا شك أن الخزام يبدو لمن لم يتعود رؤيته أنه نقيض الحلية .

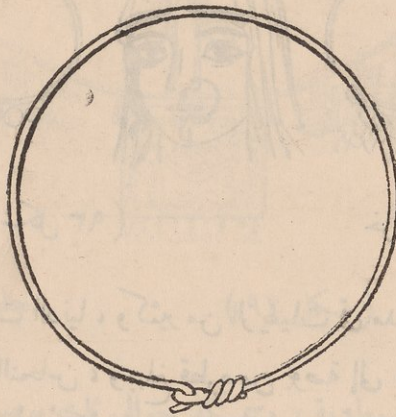
١ — أنظر سفر التكوين ٢٤/٤٧ حيث نجد فى النسخة العادية كلمة «خلق» وضعت بدلا من «خزام» وضعا غير صحيح

٢ — ٢١/٣

٣ — ١٢/١٦ وهنا أيضا نجد خطأ ، ولكنه صحح فى الهامش

يكون « العقد » على أسلوب يماثل العقود السابق وصفها . وقد سبق أن ذكرت أن « اللبسة » و « الشعير » يلبسهما بعض نساء الطبقات الدنيا . غير أن عقودهن تكون عادة من الخرز الزجاجي الملون؛ وهى على صف واحد أحيانا، وأحيانا أخرى، من صفوف كثيرة ، يتوسطها خرزة كبيرة أو أكثر . أو تصنع على شكل مشبك . وكثيراً ما تلبس المصريات ، وهن يولعن بالحلى ، عقدتين أو ثلاثة عقود بخسة القيمة . وتكون بعض العقود من خرزات كبيرة من العنبر الشفاف .

وهناك حلية أخرى يلبسها كثير من النساء فى الرقبة ، تسمى « طوقا » ، من الفضة أو النحاس الأصفر أو القصدير (شكل ٩٤) . ويلبس الفتيات



(شكل ٩٤) طوق

الصغيرات أيضاً هذه الحلية أحيانا . وتصنع بعض الأطواق الصغيرة من الحديد . وتلبس الخواتم الفضية أو النحاسية عموماً تقريباً . ويمكن شراء الخواتم النحاسية ، المركب بها قطع من الزجاج الملون ، فى القاهرة بما لا يزيد عن ربع بنس ويلبس كثير من النساء خاتمين أو ثلاثة خواتم أو أكثر

« الأساور » أنواع مختلفة . بعضها من الفضة ، وبعضها من النحاس الأحمر أو الأصفر ، وهى على شكل أساور الذهب السابق وضعها . والأساور النحاسية أكثرها شيوعاً . وهناك أيضاً أساور من خرزات العنبر الكبيرة ، وأخرى من

العظم . ويوجد نوع شائع جدا، يسمى « غويشات » ، من الزجاج الملون غير الشفاف ، أزرقا أو أخضرا على العموم . وتنوع الغويشات أحيانا بألوان أخرى .
تقلد بعض نساء الطبقات الدنيا سيداتهن بأعداد شعورهن جدائل كثيرة وجدها بالخيوط الحريرية السوداء . غير أن العادة السائدة عند نساء تلك الطبقات هي تضيف الشعر ضفيرتين إلى الخلف فقط ، أوجدل كل منهما بثلاثة خيوط حريرية حمراء ، تنهى بشراة ، وتتدلى طويلا إلى الأرض ؛ ولذلك يضطرون عادة إلى سحب الشرايات قبل الجلوس . وتسمى تلك المدليات « عقوص »

« الخللخال » من الفضة الصماء ، وقد سبق وصفه ، ويلبسه زوجات الريفيين الأغنياء ومشايخ البلد ؛ ويلبس كثير من الأطفال خلخال صغيرة من الحديد . وكانت العادة الشائعة عند العرب أن يلبس الفتيات أو النساء الصغيرات السن خيطا من الأجراس في أقدامهن . وقد رأيت عدة فتيات في القاهرة يلبسن جلاجل حول الرسغ . وقد تكون إشارة عيسوي في ٣ / ١٦ ترمى إلى صوت الخلى من هذا النوع أكثر مما ترمى إلى صوت الخللخال العادى .

ذيل (ب)

المقاييس والأوزان والمقود المصرية

وليس بمقدرتى أن أورد بياناً دقيقاً للمقاييس والأوزان المستعملة فى مصر ، إذ أنى ، بعد المثارة فى البحث ، لم أوفق فى وجود أى نموذجين لتسمية واحدة يطابق أحدهما الآخر ، فكان الفرق عظيماً على العموم . ويستعمل التجار بمصر ، خوفاً من المحتسب ، مقاييس وأوزاناً تزيد قليلاً على المقياس الصحيح ، مع أنها تحتمل بخت الحكومة ، التى تعنى باستعمال مثل هذه المقاييس والأوزان فى مشتراواتها ، كما تعنى أيضاً ، بلا شك ، باستعمال تلك التى تكون أكثر ضبطاً فى مبيعاتها .

مقاييس الطول والأرض

- « الفتر » هو ما بين إمتدادى الابهام والمشير .
- « الشبر » ما بين إمتدادى الابهام والبنصر .
- « الذراع البلدى » ويوازى ٢٣ بوصة وثلاثى بوصة ، ويستعمل لقياس أقمشة الكتان الخ . المصنوعة فى مصر .
- « الذراع هندازه » (هندسى) حوالى ٢٥ بوصة ، ويستعمل خاصة لقياس البضائع الهندية .
- « الذراع الاسطنبولى » ويستعمل للأقمشة الأوروبية ، وهو حوالى ٢٦ بوصة ونصف .
- « الفدان » وهو المقياس العادى لمسح الأرض . وهو يقسم إلى ٢٤ قيراطاً ، ويتكون من ٣٣٣٣ قصبه مربعة وثلاث . وكانت القصبه ٢٤ قبضة ، وهى الآن ٢٢ .
- « القبضة » هى مقياس قبضة الرجل مع امتداد الابهام ، أو ٦ بوصات ورابع تقریباً .

« الملقه » قياس لم أستطع الحصول على تعريف له أحسن مما يلي : انه المسافة الواقعة بين قريتين . وهو يختلف في الصعيد والوجه البحرى . فهو فى الأخير ، سفر ساعة تقريبا ، أو ما بين ميلين ونصف وثلاثة أميال . وفى الصعيد سفر ساعة ونصف أو من ٣ أميال وثلاثة أرباع الميل إلى ٤ أميال ونصف ، أو أكثر .

المكايل

« الأردب » ويوازى ٥ بوشل انجليزى تقريبا .

« الويهه » سدس أردب .

« الربع » ربع وية .

الاوزان

« القمح » واحد على أربع وستين من الدرهم ، أو ربع قيراط

« الحبه » واحد على ثمانى وأربعين من الدرهم ، أو ثلث قيراط .

« القيراط » ٤ قمحات ، أو ٣ حبات ، وهو واحد على أربع وعشرين من المئقال

« الدرهم » وقد ذكرت اقسامه فيما سبق .

« المئقال » (وزن دينار) درهم ونصف .

« الأوقيه » ١٢ درهم ، أو واحد على اثنى عشر من الرطل .

« الرطل » ١٤٤ درهم ، أو ١٢ أوقية .

« الأقه » ٤٠٠ درهم أو رطلان وسبعة اتساع .

« القنطار » ١٠٠ رطل .

المقود

يساوى الجنيه الاسترليني مائة قرش مصرى ، ويحتمل ان يظل كذلك بعض السنوات . وقد ارتفع الاسترليني منذ عامين من ٧٢ قرشا ، وكان ذلك سعر الصرف لعدة سنوات سابقة .

« الفضة » أصغر النقود المصرية . ويسمى مفردا « نصا » (تحريف نصف) أو « نص فضة » . ويسمى أيضا « ميدي » (بفتح الميم وتشديد الياء المفتوحة . وهو اختصار « مؤيدي ») . وكانت هذه الأسماء تطلق أصلا على نصف الدرهم ، الذى كان يضرب فى عهد السلطان المؤيد ، فى أوائل القرن التاسع للهجرة ، أو الخامس عشر للميلاد . والأتراك يسمونه « باراه » .

« والفضة » تصنع من خليط من الفضة والنحاس ، هى تساوى واحد على أربع عشر من القروش .

ويوجد قطع بخمسة فضة ، وعشرة فضة ، وعشرين فضة (وتسمى هكذا بدلا من خمسة انصاف فضة الخ .) وتسمى الأخيرة أيضا « نص قرش » . وهذه القطع مثل « الفضة » تسك من الفضة والنحاس .

« القروش » يساوى واحد على مائة من الجنيه الاسترليني ، كما سبق ذكره أو خمس الشلن . وهو يسك مثل القطع السابقة ، ويبلغ قطره بوصة وثمان . ويحمل أحد وجهيه طغراء السلطان ؛ والاخر ، جملة : « ضرب فى مصر » ، مع تاريخ اعتلاء محمد على العرش ، أسفله (١٢٢٣ هـ ، ١٧٠٨ — ١٨٠٩ م) ، وتاريخ ضرب النقد ، أعلاه . وتحمل النقود الأخرى النقوش نفسها تماما .

« السعدية » ويسمى عامة « خيرية بأربعة » ، أو « الخيرية الصغيرة » . وهى نقد ذهبى صغير ، قيمته أربعة قروش .

تلك هي النقود المصرية — والنقود التركية مألوفة في مصر ، ولكنها نادرة . وكذلك الدولارات الأوربية والأمريكية ، واعلمها توازي عشرين قرشا . ويساوي الدولار الأسباني ذو الأعمدة ٢١ قرشا . ويطلق اسم « ريال فرانس » على كل نوع ، غير ان الدولار ذي الأعمدة يسمى « أبو مدفع » لظنهم خطأ ان الأعمدة مدافع . وللنقود الأخرى أسماء مميزة . و « الدبلون » الأسباني ، وقيمته ستة عشر دولارا ، شائع في — هذا البلد ، وكذلك « البندقي » و « الجنيه » الإنجليزي .

و « ريال » مصر نقد اسمي ، قيمته ١٩ فضة . وكانت قيمة الدولار الأسباني عام ١١٨٥ هـ (١٧٧١ - ١٧٧٢ م) أو ما يقرب من ذلك ، ١٩ فضة بأمر على بك . وكان الدولار يسمى حينئذ « ريالا » فقط . ومنذ ذلك الوقت ظل هذا المقدار من « الفضة » السابق ذكره يسمى بهذا الاسم .

« الكيس » خمسمائة قرش .

« الخزنه » ألف كيس .

ذيل (ح)

النفقات المنزلية بالقاهرة

ما يلي مقدار الخزين اللازم لعائلة من الطبقة المتوسطة تتكون من رجل وثلاث نساء ، وأسعاره ، لمدة سنة . وانى أدرج هذا الاحصاء هنا كملحق لازم للقائمة المذكورة في صفحة ٢٣٣ .

٤٠٠	قمح .
٥٠	طحن القمح السابق
٤٠	خبزه
٥٥٠	لحم ، من رطل ونصف إلى رطلين (أى قرش ونصف) فى اليوم
١٨٥	خضروات ، نصف قرش فى اليوم
١٠٠	أرز
٣٢٥	سمن ، قنطاران ، خوالى
١٨٥	بن
٤٠	تمباك جبلى
١٠٠	سكر نصف قنطار حوالى
١٠٠	ماء
٧٥	خشب للوقود ، ٧ أحمال (حمل حمار)
١٠٠	فحم حطب

زيت ، لفنديلين أو ثلاثة ، قنطار حوالى ١٢٥

شمع (شحم) ١٠٠

صابون ٩٠

٧٢٥ و٢

أى سبعة وعشرين جنيهها استرلينيا وخمسة شلنات . فتكون نفقات المنزل اسبوعيا حوالى عشرة شلنات وستة بنسات ، والنفقات اليومية ثمانية عشر بنسا ، أو سبعة قروش ونصف . ولا يستعمل التباك ، فى هذه الحالة ، غير رب الهمار تقريبا ، وقلماء تدخن النساء فى منزله .

ذيل (د)

علاج الديسنتاريا والرمد

يجب علي من يزور مصر أن يكون عارفا بالوسائل التالية لمعالجة الديسنتاريا والرمد . وقد اختبرتها كثيرا فما رأيتهما في أسوأ الحالات تخيب مرة واحدة في سرعة النجاح وتماه . ويندر أن يستمر العلاج أكثر من أربعة أيام أو خمسة . من المناسب في حالة الديسنتاريا ، عند تناول طعام مضر ، بدء العلاج بأخذ مقبيء مقدار قيراط من عرق الذهب في المساء . وتكون الخطوة التالية في هذه الحالة ، أو الخطوة الأولى في حالات أخرى ، أن يتناول في الصباح ملين خفيف : خمس عشرة قحمة من الراوند وقحنتين من الزئبق الحلو . وفي اليوم التالي تؤخذ قححتان من عرق الذهب وربع قحمة من الأفيون في الصباح وفي المساء ، ويكرر المثل أربع مرات في كل من الأيام التالية . ويجب على المريض ألا يأكل غير الأرز المسلوq يحلى بقليل من السكر . ويزيد المرض سوءا الزبد والدهن بأنواعه واللحم والبيض الخ .

في حالة الأصابة بالرمد ينقط في العين مرة كل يوم نقطة واحدة من سائل كبريتات النحاس (الزاج الأزرق) يكون من سبع قححات من هذا الملح تضاف إلى أوقية من الماء النقي . ويجب أن تدهن الجفون حتى لا تلتصق أثناء النوم بمهرم من الليمون يمزج بثلاثة اجزاء من الزبد الطازج عند النوم . وعندما يكون الاتهاب خفيفا يمكن الاكثار من استعمال غسिला مكونا من قحنتين من كبريتات النحاس يضاف إلى أوقية من الماء . وقد استعمل كبريتات الخارصين (الزوج الأبيض) بنجاح عظيم ، غير أنه لا يعادل السابق . وهو يستعمل بالطريقة السابقة بنسبة عشر قححات إلى أوقية ماء ، كما يستعمل بنسبة ثلاث قححات إلى أوقية ماء كسيل قابض .

الخطأ والصواب

صواب	الخطأ	سطر	صفحة
طيبة	طبقة	١٣	٨
أما	ما	١٣	١٣
أما	ما	١٢	١٩
« عباية »	عباءة « عباية »	١٢	٣٣
كيمن دور أ	كيمن دو أ	٥	٦٧
شبكة	شبكة	١٨	٨٠
« العنبري »	العنبر	٣	٩٣
٤٦	٤٥	٢٢	١٠٤
حمل	حمل	٢٤	١٠٤
المحبطون	المحزون	٣	١٠٧
ساداتي	سادتي	٣	١١٠
ممتقلة	متعلقة	٢٠	١١٣
الطبعة الثالثة لهذا الكتاب	هذه الطبعة الثالثة	٢٠	١٢٧
دلق (بفتح الدال وكسر اللام)	دلق	٢٦	١٦٠
الكيميا	الكيمياء	١٨	١٩٢
أبو الروس	أبو الروس	٢٤	١٩٢
» »	» »	٦	١٩٣
» »	» »	١١	١٩٣
أنبيء	استفهم	٢١	٢٠٩
فيسمى سوق كذا	فيسمى كذا	٢٢	٢٣٤
طاب ودك	طاب دوك	٢٢	٢٥٩
دورا	دوارا	١	٢٦٠

الخطأ والصواب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
الأدلاء	الصياد	١	٢٦٣
صاجات	صاجات	١١	٢٧٥
درابكة	دربة		٢٧٦
سيرة أبو زيد	سيرة أبي زيد	٥	٢٩٤
عقيمة	عنيمة	٩	٢٩٥
الزحلان	الزعلان	١١	٢٩٧
الزنايمة	الزنانة	١٦	٢٩٨
بيبرس	بيبرص	٢١	٢٩٩
سيف ذو اليزن	سيف بن ذي يزن	١٥	٣٠٤
الأم	الأم	٣	٣٠٧
لقمقلبك بمجد	لقمقلك بمجد	٩	٣٠٧
اقترفت	افترت	١٠	٣٠٧
به	بها	٢٢	٣١٠
رأيا	رأوا	٢	٣١١
العشر (بفتح العين)	العشر	٧	٣١٢
يستجد بن	يستطين	١٨	٣١٢
العشر (بضم العين)	العشر	٣	٣١٣
الصلبية	الصلبية	٢٦	٣١٣
وكى	وكى	٣	٣١٧
غطاء	عطاء	٥	٣٢١
محملا (بفتح الميم الثانية)	محملا	٢٥	٣٢٢
محمل (بكسر الميم الأولى)	محمل	٢٥	٣٢٢
(صارى)	سارية	١٠	٣٢٦
نشيد سليمان	أغنية	١٤	٣٢٩
قطمة	« قطمة »	١	٣٣٢
إدهامشا	أوهامشا	١٣	٣٣٣

صفحة	سطر	خطاً	صواب
٣٣٥	٢٢	بيرة	وسط
٣٣٦	٥	وثيت	ومد
٣٤٤	١	يجلس بها	يجلس بكل منها
٣٤٤	١	في ثلاثة	في صحبة ثلاثة
٣٤٧	١٢	واحد أكثر	واحد أو أكثر
٣٤٨	١٥	الدمت	اللمب
٣٥٢	١٩	فرق	فاصل
٣٨٩	٥	ينطى	غطى
٣٩٣	٢	أمام	إمام
٤١٩	١٣	بإعلان كل	بإعلان أن كل
٤٢٤	٣	للمدينة	للمدينة
٤٤٧	٤	٢٧٢٥	٢٧٢٥
٤٤٨	١٩	الزوج	الزاج

916.2:L26mAn:c.1

لين ، ادوارد وليم

المصريون المحدثون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01048351

American University of Beirut



916.2

L26mAn

General Library

